كاتب ياسين

نقالة لثلاثة جنود

(ترونغ تراك Trung Trac واختها ترونغ نهي تسيران مرهقتين نحو شاهدة أحد القبور تتبعهما جوقة الفلاحين المسلحين) .

ترونغ نهي : في المقبرة ، على الجبل
علق القمر نظرته الوحيدة .
ترونغ تراك : هبت ريح حزينة على القبور .
الجوقة : الريح تجأر وتنتحب
فوق أرواح الموتى ..
ترونغ تراك (جاثية) : آه يا زوجي
كيف أمكن أن ينتزع أحدنا من بين يدي الآخر ؟
أتجرجر ضائعة أمام شاهدة قبرك .
ترونغ نهي : انهضي ، يا أختي .
ترونغ تراك : آه يا زوجي !
كنت آمل أن أعيش معك حياتي كلها .
أهذا هو سري زواجي ؟
الجوقة : قاس جدا
شق طريق الحرب .
رئيس الجوقة : اتحد مع « الهان » اقطاعيو « الفييت » .
الجوقة : نعم ، امبراطور الصين يطمع بأرضنا .
رئيس الجوقة : ان دلتا **النهر الأحمر** ، السهل العظيم الوحيد ، عبر **يانغ تسي** ،
ينتج من الأرز أكثر مما تنتجه **الصين الجنوبية** .
(يدخل الجنرال مايوان Ma Yuan يتبعه ضابط)

الجوقة : ها هم جنود الجنرال مايوان الصينيون .
ترونغ تراك (ناهضة) : لنحطم بلا رحمة الخونة الاقطاعيين
ولنمت بعد ذلك مكفنين في جلد حصان ،
هكذا يا زوجي كان طموحك الأسمى .

الجوقـــة : الى السلاح !
ترونغ تراك : سأنتقم لرجلي
ترونغ نهي : أنا معك يا أختي ٠
(تنضمان الى الفلاحين ، مسلحتين بأقواس وسهام ٠ يراقبهما عـــن بعد الجنرال مايوان) ٠

الجنرال مايوان : امرأتان تجرؤان على حمل السلاح !
الضابط : انهما الأختان ترونغ ، وهما تقودان التمرد ٠
الجنرال مايوان : يقول كونفوشيوس
العامة والنساء مخلوقون للجهل ، وللغريزة الحيوانية ٠
الضابط : سنبيد أعداء العرش ٠
(يبتعدان ٠ ضوء على الأختين ترونغ بين الفلاحين)

ترونغ تراك : بالنار
ترونغ نهي : بالدم
الجوقة : بالسلاح
رئيس الجوقة : توحدت الفيتنام في وجه المحتل ٠
(تبتعد الجوقة ٠ يتقدم الجنرال مايوان نحو ضابطه)

الضابط : هربت الأختان ترونغ ٠
(يتمايل وهو يلفظ هذه الكلمات ويسقط مصابا بسهم)

الجنرال مايوان : أين هاتان المرأتان اللتان تقتلان ضباطي ؟
(ضوء على الأختين ترونغ ٠ تنتقلان من مكان لآخر حول الجنرال الذي أرهق من متابعتهما ٠)

ترونغ تراك : أنا في الشمال
ترونغ نهي : وأنا في الجنوب ٠
ترونغ تراك : أنا في الجنوب
ترونغ نهي : وأنا في الشمال ٠
(ضابطان آخران يتكلمان مع الجنرال ، من بعيد)

الضابط الأول : نحتل الجنوب ٠
الجنرال مايوان : العدو في الشمال ٠
الضابط الثاني : نحتل الشمال ٠
الجنرال مايوان : العدو في الجنوب ٠
ترونغ تراك : **بالنهر الأحمر**
ترونغ نهي : بنهر العطور
ترونغ تراك : بالأرض والسماء
ترونغ نهي : توحدت الفيتنام
ترونغ تراك : وبالعدو نفسه ٠
(تغادران المسرح ، يتبعهما الضابطان)

الجنرال مايوان (للجمهور) : أنا الجنرال مايوان ، انتصرت على الأختين ترونغ في السنة الأربعين من القرن الأول ٠
لقد ماتتا غرقا ٠
(يخرج ٠ تدخل تيوتي ترنه Thieu thi Trinh مع الجوقة المسلحة)

الجوقة : بعد مئة سنة ، قادت التمرد
فلاحة في الثالثة والعشرين ، اسمها تيوتي ترنه ٠
تيوتي ترنه : أريد أن أمتطي الريح
أن أروض الأمواج الوحشية
أريد أن أجعل المحيط أحمر
من دم هؤلاء المسوخ !
آه ، لنطرد العدو ، ولننقذ الشعب من العبودية ،
لن أخضع أبدا ، لن أستسلم
لن أخفض الرأس ولن أكون من السراري !
الجوقة : هزمت الحكام الصينيين أكثر من مرة
ثم أصبح العدو أقوى
فانتحرت لكي لا تصبح أسيرة ٠
(يخلو المسرح ٠ تدخل كيو Kieu)

كيو ، (وحدها) : الأقمار تمر
وزيت القناديل ينضب مع الليالي ٠
أفكر دائما بوجه واحد
أشعر أن غرفتي كالجليد
أن المراقم تضطجع مريضة قرب القيثارة ٠
الريح تهب بلا توقف
في ستائر النوافذ الحريرية
والبخور المحترق يجدد عبير الذكرى
وهذا الشاي الطيب
ينقصه عطر الحب ٠
(ضوء على توهاي Tu Hai ، الثائر الهارب ، يطارده ضابـــــط ٠

تسمع دقات طبل الحرب ٠)
الضابط : لينضم الى جيش الامبراطور جميع الرجال الأصحاء ٠
هناك مكافأة تنتظر من يسلمنا رأس توهاي ٠
(تنضم امرأتان أخريان الى كيو ٠ سيودعن الرجال الذاهبين الـــى الحرب ، بعضهم كأنصار بقيادة توهاي ، وبعضهم كمرتزقة في الجيش الامبراطوري) ٠

الجوقة : حين يحتدم هيجان العواصف
على العالم المذعور
تذبل الخدود الوردية تحت ثقل الشقاء ٠
رئيس الجوقة : أخبرينا أيتها السماء البعيدة
يا سماء ازرقت من اللا مبالاة ،
من هو اذن سبب هذه المحن التي لا تسمى ؟
كيو : **ابن السماء** المخيف
الذي أعطى سيفه لقائد جيشه
من على عرشه ذي الدرجات التسع ،
أمر بقتل حبيبي توهاي
المعلن خارجا على القانون ٠
(ضوء على توهاي الذي يلتفت ليرى كيو للمرة الأخيرة ٠)

توهاي : ذات يوم ، سأعود
لكن مع مئة ألف رجل ٠
كيو : ليتني فرس حربية لكي أذهب معه !
الجوقة : ليتنا قوارب لكي نحمله فوق الماء !
كيو : أعرف أنه اذ يبتعد يقترب ٠
(يجتمع المرتزقة حول الضابط ٠)

الجوقة : الأعلام ترتفع والطبول تدق ٠
رئيس الجوقة : الرجال يذهبون حاملين الأقواس والسهام ٠
الجوقة : الطفل يصرخ ٠
رئيس الجوقة : المرأة تبكي ٠
الجوقة : ينبغي أن نطيع
وهذا أمر وحشي ٠
رئيس الجوقة : ان عواطفنا البائسة
لا تثقل علينا ٠
الجوقة : ماذا يستطيع الامبراطور أن يعرف من آلام الشعب
وهو وراء ستائره الحريرية اللماعة ؟
الضابط : الى الأمام !
(يخلو المسرح ٠ يدخل الأب دو روديس le Père de Rhodes)

الأب دو روديس : ليست خصوبة هذه الأرض هي التي تبدو لي عظيمة ، بل الثمار الكبيرة التي أنتجها التبشير في فترة قصيرة جدا ٠ أنا شاهد ذلك ، وقد رأيت نعم هذه الارض الخصبة التي تكلم عليها **داؤود**، والتي يهمي عليها ندى السماء ، ورأيت جميع الحقول تفيض بجميع أنواع الثمار ٠
(يدخل ماريوس Marius حاملا صنارة ، يتبعه ولد يحمل صندوقا كبيرا ٠)

ماريوس : ها نحن أخيرا في بلد الخيرات الوفيرة
حيث تنبت جميع الثمار في **جنة** على الأرض
حيث كل مسيحي **سيد** يحمل السماء في حقائبه ٠
الولد : **أوف !**
ماريوس : أنا طباخ أجمل بعثة تبشيرية عرفتها هذه البلاد ، لكنني ، والكلام بيننا ، صياد سمك ، وهذا الولد الصغير هو الذي يطبخ لنا ٠
للمتوحشين أن يتعلموا كل شيء
أليس عليهم اذن أن يقوموا بالعمل ؟
الولد : **أوف !**
ماريوس : تشجع أيها الولد
عندنا في مرسيليا ،
يفرغ ولد مثلك سفينة وكأنه يحشو غليونا ٠
(يشعل غليونه)

الأب دو روديس : تقدما يا ولدي ٠ يكفي لكل يوم عناؤه ٠
(يضع الولد الصندوق عند قدمي المبشر ٠ يمسك ماريوس بقصبة الصيد ويوجهها نحو الفلاحين) ٠

كان الرسل ، فيما يكرزون بالانجيل ، يملأون شباكهم بأسماك كثيرة بحيث يعجزون عن استخراجها ٠٠٠

(يتقدم الفلاحون نحو ماريوس ، كأنهم ملتقطون بالصنارة ٠ يفتح الأب الصندوق ٠ يسمي بصوت عال ، الأشياء التي يخرجها من الصندوق ، يساعده في ذلك ماريوس ، أمام دهشة الولد والفلاحين)٠

الأب دو روديس : علبة عاطوس حمراء بشكل الياقوتة ، مرآة من الفضة والأحجار الكريمة ، قبعة مقرنة ، جوهرتان ولسان أفعى ، خاتم ذهبي **بفص** أحمر هدية الملك شاميا ،

سبحات معطرة ، ٣٠ سبحة جميلة ، ١٥٠ تمثالا لنوتردام ، ١٥٤ صورة كبيرة من الجلد الرقيق المدبوغ ، ٨٠ صورة صغيرة ، ٣ منمنمات كبيرة ، تمثال مصلوب كبير من الورق ، ١٠٦ منمنمات متوسطة ، ١٢٠ منمنمة أصغر منها ، تمثال مصلوب كبير من البرونز مع صليبه ، تمثالان آخران أقل كبرا ، ٢٨ لوحة مذهبة ، ٥٠٠٠ دبوس و ٥٠٠٠ ابرة ، ٥ مرايا كبيرة ، مرآتان من المينا النافرة واثنتان من صدف السلاحف المطعم بالفضة ، علبتا عاطوس من **نيفير** ، بوصلة فضية ، ٦ مجاهر ، ٣ سكاكين ، ٢٠ ساعة رملية ، ٣ كؤوس من الزجاج المحرق، ٤ موشورات ، نظارتان للتقريب ، ٧ نظارات للقراءة ، ٤ مناشف لكأس القداس ، كأس قداس من القصدير ، علبتان لبرشان القربان المقدس ، لك ، أقلام ، مراهم الهية وعلاجات أخرى ، صرة كبيرة من الأوسمة ، زيوت مقدسة ، مؤن ، شوكولاته للمرضى ، طحين لبرشان القرابين ، وألف ريال كانت دينا على الملك ،
هذه كلها هدايا للمبشرين ٠
(يوزع بعض الهدايا الصغيرة على الفلاحين ، ثم يصرفهم ٠)

اذهبوا ، يا خرافي الوديعة ،
سنعود لرؤيتكم ٠
(ينصرف الفلاحون ٠ يشير الأب الى الولد الذي يقدم له كتابا ٠ يمسك ماريوس بقصبة الصيد ٠)

ماريوس : هكذا ، أيها المحترم ، تتعلم لغة هؤلاء القرود !

الأب دو روديس : أعترف لك أنني حين وصلت الى كوشنشين Cochinchine وسمعت سكان البلاد يتكلمون ، وخصوصا النساء ، خيل الي أنني أسمع غناء عصافير ، وفقدت الأمل كليا في تعلمها ٠ جميع الكلمات ذات مقطع واحد ، ولا يتميز معناها الا بالطبقات الصوتية التي ترافق النطق بها ، وهذا يعني أن الكلام عندهم نوع من الغناء ٠٠٠

ماريوس : اننا **نقوم** بعمل أسرع لو نعلمهم الفرنسية ٠

الأب دو روديس ، (مداعبا الولد) : كان الذي ساعدني بشكل مدهش غلاما صغيرا من أهل البلد ، علمني في ثلاثة اسابيع جميع الطبقات الصوتية وطريقة النطق بالكلمات ٠ لم يكن يفهم لغتي أبدا ، كذلك أنا لم أكن أفهم لغته ، لكنه كان من الذكاء بحيث أنه يفهم على الفور كل ما أريد أن أقوله ٠ وهكذا ، في ثلاثة أشهر ، تعلم القراءة والكتابة وخدمة القداس ٠ انه يحبني كثيرا الى درجة أنه رغب في أن يغير اسمه ويتسمى باسمي ٠

(يعود الفلاحون ، ويتحلقون حول الصندوق • يلوح ماريوس بقصبة الصيد •)

ماريوس : انصرفوا ، لم يحن وقت القداس •
الأب دو روديس : صحيح أنه كان علينا في البدء أن ندعم الكفاح ضد بعض الأشخاص الفضوليين المختلف فيهم الذين لم يكونوا يجيئون ليسمعونا بل ليشوشوا على العقيدة التي نكرز بها • وكان هذا ينشر الفوضى في قداساتنا ويمنع الانجيل من أن يؤتي ثماره •
(يهرب الفلاحون الذين يطردهم ماريوس • الأب يداعب الولد • تدخل السيدة ماري •)

ماريوس : أيها المحترم ، السيدة ماري ،
قريبة الشخص الثاني في هوي Hué ، في الباب •
الأب دو روديس : عجل أدخلها ،
انها خادمة كبيرة للرب •
السيدة ماري : مصيبة كبيرة !
لقد هدم ابن أخي الكنيسة الجميلة الجديدة
التي بنيناها في كنف القصر الملكي •••
ما أشد غضبي ، أيها المحترم !
منذ ثمانية أيام أبحث عنك
لم أعد أعرف ماذا أفعل •
(تسقط بين ذراعيه •)

الأب دو روديس : اهدأي ، يا عزيزتي ماري •
(يبتعد ماريوس والولد خفية • يعودان راكضين •)

ماريوس : النار !
الولد : النار !
(السيدة ماري يغمى عليها • يركض الولد نحوها •)

ماريوس : اتركها • هذا شغلي أنا •
(ينقل ماريوس السيدة ماري بعناية كبيرة • يتبعه الولد •)

بدل أن تتبعني ، اذهب واهتم بالنار !
(يترك ماريوس المسرح مع السيدة ماري • الأب يركع • الولد يحمل الصندوق)

الأب دو روديس : بما أن النار اشتعلت في جوارنا ، سادت الفوضى • لم أجرؤ على الخروج ، لأن اللهب كان يقترب تدفعه الريح نحو سقف مسكننا • لولا عناية الله لقضي علينا : أخذنا نضرع اليه فتغير ، بتأثير عجيب من لطف مولانا ، اتجاه الريح وحملت معها اللهيب ، بحيث زال الخطر والخوف • مع ذلك يشك البعض في أن الرب يساعد عباده !
(يدخل ماريوس)

ماريوس : أسفاه أيها الأب الصالح
فقد طردنا من مملكة كوشنشين •
الملك وثني يحرق كنائسنا ولا يريدنا أن نبقى ، فهو خائف على عرشه •
الأب دوروديس : خسارة للملك • أين الولد ؟

ماريوس : ذهب ومعه الصندوق •
(يخرجان • يدخل جان دو لاكروا ، وهو فيتنامي اعتنق المسيحية ، تتبعه أربع نساء ، يسمع لاعترافهن في الظل واحدة بعد الأخرى • ضوء على الأب شوفروي Chevreul ، الذي يعلن الراوي قدومه •)

الراوي : الأب شوفروي ، خلف الأب دو روديس •
الأب شوفروي : أذهب الى بيت مسيحي اسمه جان دولاكروا
يحبه الملك لأنه صانع حاذق ،
يصنع مدافع تعجب الملك كثيرا •••
(يلمح النساء ، فيبتعد غاضبا)

بعد البحث والتدقيق ، لا يوحي لي جان دولاكروا بأية ثقة •
لقد بنى كنيسة ، لكنني لم أجد فيها الا أربع أو خمس نساء ، يجثن لينمن فيها ، مما سيولد الفضائح •••
(يختبىء حين يصل فلاحون يصرخون : « ليسقط ملك البرتغال ! » ، ويهرب جان دولاكروا ومن يسكن معه من بنات الرعية •)

الأب شوفروي : في ذلك الوقت أمر الملك أن يعرض المصلوب في الشارع ثم أذاع بالبوق أن يحضر جميع السكان دون استثناء لكي يدوسوه باقدامهم ••• وقال بعض المسيحيين من ذوي النوايا السيئة أن المصلوب كان على صورة ملك البرتغال • ومن هنا اعتقد ملك كوشنشين أن ديانتنا المقدسة كانت ذريعة لجعل اقطاعاته تثور عليه ، وتنصب ملك البرتغال ملكا على مملكته حين يزداد فيها عدد المسيحيين •••
الراوي : حين عاد الأب دو روديس الى باريس رفع تقريرا الى ملكة فرنسا وأطلع البابا على الأمر • كانت أوروبا مركز العالم • وفي فرنسا استطاع ريشيليو أن يؤسس قوة بحرية كبيرة ، ومهد المبشرون والتجار الذين تبنوا الفكرة الصليبية القديمة، الطريق أمام الامبراطورية الاستعمارية• كانوا قد تغلغلوا في جزر الانتيل ، والسنغال ، ومدغشقر ومراكش والجزائر • (يخرج الأب شوفروي • يدخل لويس الرابع عشر يواجهه ملك تونكان Tonkin)

لويس الرابع عشر : أيها العظيم ، الشامخ ، الفريد ، الشهم ، صديقنا الأعز بينها أقراط وأساور وساعات ومرايا وأسهم للالعاب النارية •
لويس الرابع عشر : أيها العظيم ، الشامخ ، المفرد ، الشهم ، صديقنا الأعز الأشرف ، الذي ندعو الله أن يزيده عظمة تؤول الى نهاية سعيدة ، علمنا من رعايانا الذين كانوا يعيشون في ولاياتكم الحماية التي منحتموهم اياها • هذا الأمر يهمنا جدا بحيث أننا نكن لكم كل الاحترام الذي يمكن أن يحظى به أمير مثلكم اشتهر بفضائله الحربية • وكم تمنينا لو استطاعوا أن يعترفوا بالفضل الذي غمرتموهم به ، بأن يقدموا لكم هدايا تليق بمقامكم ، غير أن الحرب التي خضناها خلال بضع سنوات والتي اتحدت فيها أوروبا كلها علينا ، منعت سفننا من الابحار الى جزر الهند ، واليوم اذ رغبنا باقامة السلام بعد أن حققنا انتصارات عديدة وسعنا ولاياتنا بافتتاح عدة أماكن مهمة، أمرنا الرهبانية الملكية أن تقيم في ممالككم بأسرع ما تستطيع ••• لكن أعظم ما نتمناه هو أن تمنحوا لرعاياكم الذين آمنوا بشريعة الآله الحقيقي الوحيد للسماء والأرض ، حرية الكرازة بها ، لان هذه الشريعة هي الأسمى والأنبل

والأقدس وهي ، خصوصا ، الأكثر صلاحا لجعل الملوك يســـــودون شعوبهم بشكل مطلق ٠

ملك تونكان : بين فرنسا ومملكتنا فوارق في الجبال والأنهار والحدود ٠٠٠ ان التهذيب ازاء الغرباء ليس أمرا غريبا في بلادنا ٠ فنحن نحسن استقبال كل غريب ٠ كيف نقدر أن نرفض رجلا من فرنسا ، أشهر ممالك العالم والتي تريد ، حبا بنا ، أن تخالطنا وتصدر لنا البضائع ؟ أما رغبتك في أن نتعاون لنشر ديانتك ، فلا نجرؤ على قبولها ، ذلك أن عاداتنا تحرمها بشكل صريح ٠ان فرنسا اليوم تصدر الينا بضائعها للبيع أو للمقايضة٠ فلماذا اذن ، ترون من الضروري أن يكون لنا دين واحد ؟

(يخرج لويس الرابع عشر ٠ الفلاحون يشتبكون في معركة ضـــد الجيش الملكي ٠ الجنود يأسرون فلاحا ، يقيدونه ويأخذونه الى ملـك تونكان ٠)

ملك تونكان : اقتلوه !

(يخرج الجنود يقودون الفلاح ٠ يعود الفلاحون ٠ يهرب كل من في القصر ٠)

الجوقة : الخصومات بين العائلات الكبيرة
تنذر بالحرب والمجاعة ٠
رئيس الجوقة : الفلاحون يموتون من الجوع ٠
الجوقة : الشعب يثور في كل مكان ٠

(يدخل الأخوة تاي سون Tay Son لو Lu نهاك Nhac ، وكوانـــغ ترونغ Quang Trung ٠ أحدهم يتقلد سيفا ، وآخر قوسا من الفولاذ، والثالث بندقية ٠ ينضمون الى الفلاحين ٠)

الجوقة : يعيش الأخوة تاي سون !
رئيس الجوقة : تعيش الحرب الشعبية !
لــــو : نحن الأخوة تاي سون
اخوة **الغرب** ٠

نهاك : مدينون للشعب بجميع انتصاراتنا ٠
كوانغ ترونغ : والثروات كلها نقدمها للشعب ٠
لــــو : هرب منا ملك كوشنشين ٠
نهاك : حررنا وسط البلاد ،
ولنا السلطة كلها في وادي هوي ٠
كوانغ ترونغ : انتصرنا على ملك تونكان ٠
الجوقة : انتصرنا على جميع السلالات الملكية ٠
رئيس الجوقة : للمرة الاولى ، تتحرر الفيتنام من الشمال الى الجنوب !
لــــو : الملكية الساقطة تتعاون مع الاجنبي
وزير ملك كوشنشين مبشر هو مؤدب الامير ولي العهد ٠ هذا الأسقف الذكي يعمل ليتدخل ملك فرنسا ٠

(يخلو المسرح ٠ يختبىء فلاح سيلعب فيما بعد دور الراوي ٠ يدخـل أسقف آدران ، ممسكا الأمير بيده دافعا ملك كوشنشين نحو لويـــس السادس عشر الذي يدخل بأبهة عظيمة مع الملكة ماري أنطوانيـــت يتبعها حلاقها الخاص ٠ يتجه ملك كوشنشين بدافع من الأسقـــف

نحو لويس السادس عشر ويخاطبه جاثيا على ركبتيه •)

ملك كوشنشين : يا ملك فرنسا الأمجد ، يا شمس العالم الجديدة
لقد عهدت بابني الوحيد الى أسقف آدران وأعطيته خاتم الملك
ليمثل بين يديك ويطلب حمايتك •
الأسقف ، دون أن يترك ملك كوشنشين ، يدفع الأمير الشاب نحو ركبتي الملكة التي تدفعه لحلاقها •)

ماري أنطوانيت : أنظر ، كم هو لطيف يا عزيزي ليونارد
أريد أن تبتكر زيا جديدا لشعر هذا الأمير •
الحلاق ليونارد : أعد جلالتك بذلك
سيصبح الأمير محظي فرساي !
(يتابع ملك كوشنشين ، بدافع من الأسقف ، سرد قضيته •)

ملك كوشنشين : أتاح لي الحظ ، أخيرا ، أن أحظى برجل أستطيع أن أضع فيه ثقتي ، وبما أن صلتي به خاصة جدا أتيح لي أن أقيم مواهبه التي أعرفها • هذا الرجل هو أسقف آدران ، أحد رعايا جلالتك •
لويس السادس عشر (بشيء من الحيرة) : تلقيت تقرير الماريشال دوكا ستري أمين سر البحرية ، وفيه يتحدث عن هذا الأسقف •
(الأسقف يجر وراءه ملك كوشنشين ويقترب من لويس السادس عشر •)

أسقف آدران : ان مملكة كوشنشين ، عدا امتيازات تجارة الاستيراد الداخلية ، مهمة الى أبعد حد ، بفضل موقعها ، للتجارة مع الصين • ان مركزا تجاريا على شواطئها سيكون نقطة التقاء لجميع المراكب الذاهبة الى الصين ولجميع وكالاتها • ومن واجبنا أن نكون شديدي الحذر والخوف من أن يعمد الانكليز أنفسهم ان لم نسبقهم لاقامة مثل هذا المركز ، وهم أقوياء جدا في جزر الهند والدلائل كلها تشير الى رغبتهمفيزيادةقوتهم•
(يتعلق ملك كوشنشين يائسا بثوب الأسقف • يداعبه الأسقف ويقترب من ملك فرنسا ، ويقدم له تقريرا جديدا •)

ان شعب هذه البلاد وديع جدا ، مهذب ، شجاع • لكنه يتخوف من أية فكرة أوروبية • يعترف بتفوقنا عليه تفوقا عظيما ويخاف منا كثيرا• الثوار يتسلحون بالبنادق ، بالسيوف ، بالحراب ، والرماح • ليسوا مدربين وليسوا موحدين • وليس عندهم مدافع على الأرض ولا في مراكبهم على البحر •• ان السيطرة على هذه المملكة كلها لا تتطلب قوة عظيمة •

والمملكة غنية جدا بالملح وهي تنتج منه كميات عظيمة • ان كل ما هو ضروري لحاجات الحياة في الأقاليم المدارية متوفر في هذه المملكة بكثرة وخصوبة •

سيكون لنا فيها مكان أمين تنسحب اليه سفننا في حالة الحرب • وهذا الوضع سيوفر لنا كذلك وسائل سهلة لتموين أساطيلنا وتأمين الحاجات الضرورية الأساسية لمستعمراتنا في المحيط الهندي وأفريقيا•
لويس السادس عشر : تحدث مع قائد البحرية •
(يخرج تتبعه الملكة والحلاق والأمير • يعلن الراوي عن دخول قائد البحرية الى المسرح •)

الراوي : كوتنسو ديزالغران Cautanceau des Algrins ، قائد بحرية الملك
في بانديشيري Pendichéry
(يتجه أسقف آدران نحو القائد الذي يبقيه على مسافة منه)

القائد : ان ملكا يكافح منذ ثماني سنوات تمردا شعبيا ، اما أنه بلا أية موهبة
واما انه غير محبوب من رعاياه • فالحب لا ينشأ بين أمير يمارس جميع
أهوائه ، ورجال يرزحون تحت نير الاضطهاد والطغيان •
أسقف آدران (على حدة) : أهكذا يستقبل أسقف !

أهذه هي اللغة التي يتحدث بها قائد بحرية !

القائد : النفقات التي يجب أن نقوم بها لحماية هذا الأمير ، ونفقات معيشته مع
حاشيته ، والنفقات الاكثر ضخامة لنقل جيوش وأسلحة من أجل حرب
في أطراف الأرض ، نفقات لا طاقة لنا بها • ولا يمكن أن يكون خير في

تجارة ننشئها بقوة السلاح •
(يخرج القائد • تدخل الملكة وهي تخاصر الأمير • الأسقف يجثو عند
قدمي لويس السادس عشر •)

ماري أنطوانيت : ما أروع هذا الأمير !

لويس السادس عشر (مخاطبا الأسقف) : عينتك مفوضا للملك
في جميع ما يتعلق بمملكة كوشنشين •
(يدخل بعض الثوار الفرنسيين المسلحين ، رجالا ونساء)

الجوقة : نريد خبزا ! نريد خبزا !

رئيس الجوقة : الى الباستيل !

دانتون : سيذهب قسم من الشعب الى الحدود ، وقسم آخر سيقوم بحفر
الخنادق وسيدافع القسم الثالث بحرابهم عن مدننا في الداخل •مزيدا
من الجرأة ، مزيدا •••
(يخلو المسرح • تدخل جوقة من الفيتناميين المسلحين •)

رئيس الجوقة : لم يعد لفرنسا ملك ليحتل كوشنشين
لكن مئة ألف صيني

يهاجمون تونكان •
الجوقة : الموظفون الكبار في الشمال يؤيدون امبراطور الصين •
رئيس الجوقة : الى السلاح !
(يدخل الأخوة تاي سون : كوانغ ترونغ ، لو ، نهاك ، ووراءهم
جوقة مسلحة •)

كوانغ ترونغ : هذه خطتي :
نقالة لثلاثة جنود •

(يتقدم ثلاثة رجال نحو كوانغ ترونغ يحملون نقالة •)

كوانغ ترونغ : اثنان منكما يحملان الثالث ،
وفي كل مرحلة ، يحل محل الجالس حامل •
هكذا سنفاجىء الجيش الصيني

ونتقدم مسرعين
بقطعات مرتاحة :
كل رجل تعب من السير يأخذ نصيبه من الراحة
يحمله على النقالة اثنان آخران ٠

وهكذا ٠٠٠
(يتشكل الجيش ثلاثة ، ثلاثة ، ويبدأ مسيرته ٠ يلتفت كوانـــــخ ترونغ نحو شقيقيه ٠)

وأنتما ضعا الأسهم النارية على الفيلة
واقصفا ، بلا توقف ، خطوط العدو ٠

(هذا النص هو قسم من مسرحية طويلة يكتبها كاتب ياسين عن الفيتنام ، وستصدر خلال هذه السنة في منشورات لوســـوي ٠ بباريس ٠ النص خاص بمجلة « مواقـف » ٠ نقلته الى العربية أسرة تحريرها ٠)

مناقشات حول ثورة ٢٣ يوليو

طارق يوسف اسماعيل

محنة الثقافة الثورية العربية :
دفاع عن « ثورة ٢٣ يوليو » وآراء نديم البيطار

قدم نديم البيطار المقالة القيم « نحو الارتباط بثورة ٢٣ يوليو » بقوله انه يحاول أن يبحث « معالجة قضية الاعتراف بثورة ٢٣ يوليو كقاعدة للعمل الوحدوي الثوري ليس لاهمية الموضوع الكبرى فحسب ، بل لان الموقف منه ٠٠ يعطينا مثلا واضحا عن طبيعة الفكر العربي الثوري التي ما تزال ، كما ذكرت ، تبشيرية ميتافيزيقية ٠ »

ان اراد احد برهانا اضافيا على الاتهام الذي يوجهه نديم البيطار منذ نشره كتابه الاول « الايدلوجية الانقلابية » قبل حوالى ست سنوات حين وصف الفكر العربي الثوري بانه اساسيا وفي معظمه فكر تبشيري ، فان معظم الردود على المقالة الآنفة الذكر ما هي الا توكيد على حقيقة نظرية البيطار ٠

في السطور التالية ساحاول مناقشة كل رد على حدة وسأحاول أن ارد على اهم النقاط الواردة فيه ٠ اقول كل مقال ما عدا مقالين هما مقالي البيرمنصور والياس شاكر فاني امتنع ان ارد عليهما لانهما لا يحققان ــ مع الأسف الشديد ــ ما أعتبره حدا أدنى من النضوج الفكري الذي أتوخاه من الفكر الثوري ٠ اني اقدر موقف ادونيس الصريح والاصيل في الدفاع عن حرية الفكر كما اني اثمن « مواقف » كرمز لهذه الحرية ، كما اني ارحب بمحاولة ادونيس بجعل « مواقف» طليعية ثورية ولكن هذا في الوقت نفسه يضع على كاهل رئيس تحرير «مواقف» اعباء جساما منها التمييز ما بين فكر ثوري او سفاسف حرفية ، فالتمييز بين هذه النتاجات على أساس قيمتها الفكرية المحضة ناهيك عن اتجاهها السياسي او الفكري الذي تتخذه ، وهذا يجب ان يرتبط بالمستوى الفكرى الذي تحققه ٠

نعود الآن الى هذه المقالات وساتابعها بحسب الترتيب الذي وردت فيه بالعدد الأخير من « مواقف » ٠

أولهما مقال صادق العظم ، فرغم اني اعتبره من انضج ما ورد في الردود فان لدي بعض الملاحظات التي سأوردها هنا ٠ يحتوي المقال على خمس نقاط ٠ في النقطة الاولى ، نراه يلوم البيطار لان المقال « يتضمن فكرة اساسية واحدة يمكن طرحها في عدد قليل من الصفحات دون اللجوء الى هذا التطويل والتكرار ٠٠ والاستشهادات ٠٠ » وهذا « ينطبق على مجمل مؤلفات نديم البيطار ٠ » ثم ينتقده « للاستشهاد بمختلف الآراء المتضاربة والمتناقضة أحيانا ٠٠ من اقصى اليمين ٠٠ الى اقصى اليسار الماركسي ٠ » وملاحظاتي على ذلك هي :

أ ـ ليس هناك اي « تكرار » او « تطويل » في غير محله في المقال ٠ ولأستنجد برأي القارىء حول الموضوع ، فبامكانه ان يرجع الى الأصل لاصدار حكمه ٠ بل على العكس ارى القصور البارز في المقال هو عدم تطوير الفكرة واقتضابها ٠ اي ان البيطار يطرح استنتاجاته من دراسة تجارب التاريخ الوحدوية والثورية دون الرجوع الى واحدة منها يمثل بوقائعها على تلك الاستنتاجات ٠

ب ـ ما يقوله البيطار في مقاله هو ان تجارب التاريخ الوحدوية والثورية تكشف عن بعض الحقائق والقوانين العامة التي تعيد ذاتها في هذه التجارب ، وأن بناء موقف استراتيجي عربي وحدوي يجب ان يتم على ضوء وعي عام لهذه الحقائق والقوانين والافادة منها والاعتماد عليها ، وان الارتباط بثورة ٢٣ يوليو هو ضرورة استراتيجية مرحلية ٠ اذن ان اراد البيطار ان يكون موضوعيا وعلميا ، عليه ان يثبت كل ما يقوله او يستنتجه من قوانين وحقائق بالرجوع الى هذه التجارب ٠ فالبيطار لم يعش الف عام او اكثر مرافقا لتلك التجارب ٠ وهو حتى لو عاش تلك المئات من السنين ، فمن الصعب عليه ان يرافق كل تجربة منها ٠ اذن وسيلته الوحيدة عندما يحاول تفهم ودراسة قوانين او اتجاهات تسود تلك التجارب ان يرجع الى ما كتب حولها متلافيا بذلك اخطاء الفكر التبشيري الذي يحاول نقضه باعطاء التعميمات والاستنتاجات التجريدية دون الرجوع الى الواقع الاجتماعي التاريخي اي دون دراسة ظواهر الاجتماع والتجارب التاريخية٠

ج ـ رغم اني اقدر حرص صادق العظم على وقت القارىء العربي فاني سأرثي لحال المكتبات وطلبة التحصيل العلمي لو أن كل مفكري الاجتماع والسياسة والتاريخ والاقتصاد اتبعوا نصيحته ، اذن لافتقرت المكتبات الى نتاج واحد كامل ٠ واذكر على سبيل المثال كتابات ماركس ، فان « ثلثي » كتاب « رأس المال » استشهادات ومقتطفات اخذها من دراسات أخرى ٠ ان الفكرة الأساسية في كل نتاج فكري اجتماعي كبير هي فكرة يمكن اختصارها ببضع عشرات من الصفحات او حتى ببضع صفحات ٠ ان قوة هذه النتاجات الكبيرة كانت في القدرة على ربط تلك الاستشهادات بوقائع التاريخ وظواهر الاجتماع بتلك الفكرة الاساسية او بالاطار النظري الاساسي الذي تعين فيه تحولات الاجتماع والتاريخ ٠

د ـ أما استشهاد البيطار بمختلف الآراء ٠٠٠ من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، فكان يجب أن يكون مصدر تقدير لا نقد ، وهذا ما صنعه بعض الذين علقوا على كتابات نديم البيطار ، فأكدوا على « سعة الاطلاع والمعرفة » التي تميز هذا الانتاج والتي حازت على احترامهم وتقديرهم ٠ ان ماركس ـ وأرجح

اليه مرة اخرى لأن العظم ينطلق من موقف « ماركسي » ــ يستشهد هو الآخر بكتابات من أقصى اليمين الى أقصى اليسار • فهل كان ذلك نقصا في فكر ماركس ؟ النقطة الأساسية ليست الاستشهاد ، والرجوع الى كتاب عديدين ، مختلفي الآراء ، وانما هي نوع التركيب الجديد Synthesis الذي يخلقه المفكر اثناء ذلك • كان آخر ما قرأته حول نتاج نديم البيطار مقالا كتبه حنا مخائيل في ال Middle East Journal وفيه تعرض لهذه الناحية ، فأظهر اعجابه وتقديره لهذا النوع من المعرفة الواسعة التي ترجع في تدعيم المفاهيم الأساسية التي تصل اليها الى عدد كبير من المفكرين ،من الأدب ،الى السيكولوجيا، الى الفلسفة ، الى السوسيولوجيا ، الى السياسة ، الخ ••• ولكن ، قياس معنى وقوة الاستشهادات والرجوع الى وقائع التاريخ والاجتماع هما اذن كما أكد «بشكل خلاق مبدع » ، في القدرة على خلق تركيب جديد ، هما في نوع هذا التركيب الجديد الذي يستطيع المفكر خلقه • وقياس قوة الخلق في هذا التركيب هو في درجة ونوع الاسهام الذي يمكن تأديته لنوع أو صعيد معين من المعرفة • في هذا الصدد أقول دون أي تردد وبكل قناعة علمية أن نديم البيطار كان موفقا غاية التوفيق على ضوء هذا القياس ــ فسجل درجة ابداعية كبيرة في انتاجه ، ووحدة جذرية شمولية في المفاهيم التي تسودها ، وبلغ قمة عليا من الثقافة الخلاقة • هذا الاسهام لا يقتصر على الفكر العربي بل يتعداه الى الفكر الغربي نفسه • أقول هذا لأن كتبه لا تعيد أية دراسة في هذا الفكر ، ولا يمكن الاستغناء عنها بالرجوع الى أية كتب بالانجليزية مثلا • (أقول هذا بشكل خاص لانني على المام عام بالانتاج الذي صدر حول الموضوعات التي يعالجها البيطار) • من يتشكك بذلك أتحداه أن يعين أي كتاب يمكن الاستغناء به عن قراءة « الأيديولوجية الانقلابية » • ان ارنولد توينبي مثلا يقترح ، في الجزء الثاني عشر من دراسته للتاريخ ، أساليب أخرى في متابعة هذه الدراسة ، منها أسلوب مماثل للأسلوب الذي اتبعه البيطار في كتابه هذا • ثم يقول ، لو أنه أراد كتابة دراسته من جديد لاتبع هذا النهج (١) •

في سلسلة من ثلاث مقالات حول كتاب « الايديولوجية الانقلابية » نشرتها سلمى الخضراء الجيوسي في « الآداب » ، وكان ذلك عام ١٩٦٦ ، **كتبت بحق بأن الفكر العربي الاجتماعي السياسي كان يأخذ باستمرار من الغرب ، وان هذا الكتاب كان الكتاب الأول ، منذ مقدمة ابن خلدون ، الذي يستطيع فيه ذاك الفكر أن يعطي حقا للعرب •**

ان كتابيه « الفعالية الثورية في النكبة » ، و « من النكسة الى الثورة » ، وان كانا يرتبطان بالوضع العربي ، ينطبقان في التحليل الاجتماعي الثوري العام الذي يشكل أساسهما ، على الوضع في آسيا كلها ، اذ انهما يدوران حول الديالكتيك الثوري والأوضاع التي يجب أن تتوفر لظهوره الذي يتفرع عن حدوث الهزائم والكوارث العسكرية والسياسية • هنا كذلك أتحدى أي متشكك بأن يبرز كتابا واحدا يمكن الرجوع اليه والاستغناء عن هذين الكتابين • أما كتابه الصغير الأخير « من الحقيقة الانسانية الى الحقيقة الانقلابية » فانه بلغ ذروة فريدة من الجمال والروعة التي تهز القارىء مهما تبلد ذهنه • وهنا كذلك اتحدى المتشكك بأن يدل على كتاب واحد يمكن الاستغناء به عن هذا الكتاب ، أو يبلغ درجة أعلى من الروعة التي بلغها •ان رأي المتشكك ان هناك كتبا أجنبية

(١ A. Toynbee : A Study of History, Vol. 12, Univ. Press, 1964, P.P. 217-218

تنكر ما أقول ، فانني أسرع بالقول ان عليه اذن أن يقترح ترجمتها لدار نشر ما لتتيسر للقارىء العربي ، وأترك لهذا القارىء أن يحكم في الموضوع ·

يظهر أن مشكلة نديم البيطار أنه عربي يكتب بالعربية (انه الاستاذ الجامعي الوحيد في شمالي اميركا الذي توفر له ثقافته بأن ينشر بالانجليزية ويأبى ذلك لأنه يريد ، كثوري عربي ، تركيز جميع جهوده على كتبه في العربية) · ونحن المثقفين العرب ضحايا عقدة أمام الفكرالغربي ، ولذلك نجد صعوبة في تقدير نتاج كبير قد ينتج عن أحدنا ·

هـ — في كتابه « النقد الذاتي بعد الهزيمة » نرى العظم « يكرر » الاستشهادات المتماثلة ، ويطيل بها نسبيا في التمثيل على موقف واحد معين ، وذلك بالرجوع الى كتابات كمال يوسف الحاج ، صلاح الدين المنجد ، ايليا أبو الروس ، محمد حسنين هيكل ··· وفي مقاله حول « ظهور العذراء » يقوم بالشيء نفسه · اذن لماذا لم يطبق توصيته على نفسه فيختصر تلك الاستشهادات ويستغني عنها ببعض الفقرات ؟

هنا أريد ان الاحظ جانبيا بانه في بعض الاحيان يكون هذا النوع من النقد نوعا من « هذا حصرم رأيته في حلب » · انني لا أقول ابدا ان هذا هو الدافع الى موقف العظم · فقول كهذا غير موضوعي · ولكنها ملاحظة أردت ايرادها لأننا كثيرا ما نتخذ مواقف انتقادية من شيء ، ودافعنا هو في الواقع حالة نفسية ، لا واعية في كثير من الأحيان ، من النوع الذي ينطبق عليه المثل المذكور ·

و — أهم ما ورد في مقال البيطار حول هذا « التكرار » و « الاستشهادات » هو رجوع البيطار الى ماركس ولينين وسارتر وميرلوبونتي وجانسون ، وموقف الشيوعيين من ثورة أكتوبر ، كي يمثل على احدى المقولات الأساسية في المقال ، وهي أن ثورية الثوري لا تعني ابدا أنه لا يجوز أن يتخذ مواقف استراتيجية مرحلية او تكتيكية تتناقض مع مفاهيمه الثورية الأساسية طالما أنه لا يدع تلك المواقف تؤثر في اضعاف أو تشويه هذه المفاهيم · فبدلا من الخروج عن الموضوع باتهام البيطار بالتكرار وكثرة الاستشهادات ، كان الأحرى به أن يجيب عما تقوله هذه المقولة في علاقتها بالفكر الأساسية التي يطرحها البيطار ، وهي الارتباط بثورة ٢٣ يوليو · ثم هل لي ان اذكر صادق العظم أن البيطار لا يهتم أبدا « بالتخريجات اللفظية » فيما يكتب ، وانه منذ كتابه الأول جعل هذا الانشغال في الفكر العربي الثوري سمة من سمات الفكر التبشيري الأساسية الذي يحمل عليه حملة علمية منسقة مستمرة منذ ست سنوات ؟

في النقطة الثانية ، بعد ان يطري مقال البيطار الذي « يأخذ موقفا سليما وقويا في محاربته لسمات « التبشيرية » ، « المثالية الاخلاقية » ، التي تطغي على الفكر العربي بصورة عامة وتحل محل التحليل العلمي الواقعي والموضوعي » ، يكتب صادق العظم « غير انه (اي البيطار) يقع أحيانا كثيرة ، من فرط حماسته ، عند مهاجمته للفكر التبشيري ، بأساليب تبشيرية من عنده وينزلق في تحليلات « مثالية أخلاقية » لا علمية يعلن دوما أنه ضدها » · ثم يورد على سبيل المثال المقطع التالي من مقاله (وهو موقف شاركه فيه هشام شرابي في رده على مقال البيطار) :

« عار على من يرى جاره أو صديقه أو أي انسان آخر جريحا في الطريق فيقف متسائلا عن طبيعة الجرح والاصابة بدلا من الاسراع الى اسعافه ، أو يقف متسائلا عن نوع الطبيب الذي يجب السماح له باسعافه بدلا من اللجوء الى الطبيب المتوفر لذلك الاسعاف · عار على من يرى النار تلتهم بيت جاره فيتساءل عن طبيعة النار ، بدلا من أن يهرع الى اطفائها · عار كل العار ، على الثوري الذي يرى وجوده القومي في خطر ، فيتساءل في عالم مجرد عن أحسن الأحوال وأكملها في درء الخطر ، بدلا من أن يعتمد أقرب الطرق المتوفرة في تجاوز الخطر · »

ثم ياخذ العظم على البيطار « تشبيهه » هزيمة ١٩٦٧ بالانسانالجريح على طرف الطريق — الـخ ···

ردي على هذا هو :

أ — ان نديم البيطار لا ينكر ابدا دور الفكر التبشيري الذي يحفز العواطف ، ويثير الحقد ، ويستخدم الشعارات والمشاعر في سبيل المقاصد الثورية ، بل يؤكد هذا الدور وأهميته في كل حركة ثورية ويشجع عليه · وقد خصص لهذا الدور مكانا خاصا في كتابه الكلاسيكي « الايديولوجية الانقلابية » ، كما أنه في عدة أمكنة من كتبه حلل دور الحقد بشكل خاص وأكد عليه · ولكن ما يؤكده من ناحية أخرى هو انه ان كان لميزات الفكر التبشيري أن تقوم بدورها ، وجب عليها أن تعتمد معرفة علمية ثورية تشتق منها ، وتكون اطارا لها ، فهي ميزات « ان لم يضبطها وعي ثوري يعتمد نظرية ثورية تشتق بدورها من فلسفة اجتماعية انقلابية ، فانها تتخبط

وتضر أكثر مما تنفع • فالثورة ليست مشاعر وحسب ، بل هي عمل سياسي يجب أن يعتمد قواعد علمية ونظرية ••• » (من النكسة الى الثورة : ص ٤٠)

ب ـ هذا المقطع الذي يستشهد به العظم هو مقطع يشكل جزءا من سياق فكري علمي عام • ولا يصح فصله من هذا السياق والحكم عليه خارجه ، فان كان في ذاته « لا علميا » فانه يخدم ، وهو في خدمة السياق العلمي الذي يشكل جزءا منه •

ج ـ هذا المقطع هو استعارة محضة ، أو قياس تمثيلي Analogy ، وهذا الاستخدام اسلوب لا يستغنى عنه ، ويستخدمه باستمرار الفكر الاجتماعي السياسي العلمي • ان طالب ثانوية يستطيع أن يرى رأسا أن هذا المقطع هو استعارة ، كما أنه يستطيع أن يدرك دور الاستعارة في الفكر السياسي الاجتماعي مهما كان علميا وموضوعيا •• فلماذا خفي ذلك عن العظم وشرابي وهما استاذان جامعيان ؟

في النقطة الثالثة ، نراه يقول « ان منهج نديم البيطار في تحليل الانظمة السياسية يفتقر كليا الى مقولة الطبقة والتحليل الطبقي » •

ردي على ذلك هو :

أ ـ ان أقل ما يقال في هذا القول هو أنه غير صحيح • هل قرأ العظم حقا كتاب « من النكسة الى الثورة » ، وتلك الاستنتاجات الرائعة التي سجلها البيطار هنا وهناك في الكتاب حول تدمير الطبقات التقليدية من اقطاعية وبورجوازية ، وعوامهما كلها ؟ ان البيطار قال في تلك الصفحات القليلة أكثر بكثير مما قاله عدد كبير من أولئك الذين لا يرون في الثورة العربية سوى مقولة الطبقة في عشرات المقالات التي كتبوها ، والتي في كثير من الأحيان تطرح مقولة الطبقة أو الصراع الطبقي كشعار أو كمقولة تجريبية مجردة من التحليل التاريخي الثوري العام الشامل الذي يشكل باستمرار الاطار الذي يطرح فيه البيطار كل مقولة يقول بها •

ان نديم البيطار يحاول في كتاباته كلها أن يعالج الاصعدة التي أهملها الفكر العربي « الثوري » ، أو كما يقول هو « الفكر التجريبي » أو « الفكر التبشيري » ، فلا يعيد ما كتبه غيره • فيوسع الأفق العربي الثوري ، ويوفر على القارىء وقته ، وينقله الى أبعاد لا يجدها في كتابات الآخرين •

في كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » نراه يكتب : « واجب الفكر الثوري الصحيح أن يوفر على الشباب العربي مؤونة الاعادة والتكرار فلا يعيد في دراسة ما سبق وقامت به دراسات سابقة ••• تلك هي صفة كل نتاج فكري رزين أو خلاق وليس ميزة الفكر الثوري فقط • فان اراد أي فكر أن يحقق صفة الرزانة والخلق فيبرر وجوده ، أي ألا يكون ناقلا ممسوخا أو تافها طفيليا ، كان عليه أن يضيف شيئا ذا قيمة في أية دراسة يقوم بها •• » (ص ٥٠) أي قارىء منصف لا يستطيع سوى الاعتراف بأن البيطار وفق كل التوفيق في هذا القصد •

ان الذين يقتصرون على المقولة الطبقية وحدها من الماركسيين ليسوا من الماركسية في شيء • أو كما يقول البيطار هم « متمركسون » أو « محسوبون على الماركسية » • أكثرية الماركسيين الساحقة تقتصر على هذه المقولة ، وتقتصر عليها بشكل « تجريبي » دون أي تحليل تاريخي عام • لذلك عندما نقرأ لأحدهم كأننا نقرأ لهم كلهم • ان هنري لوفيفر مثلا ، وكان الفيلسوف الماركسي للحزب الشيوعي الفرنسي يكتب : « ليس هناك من شك بأن الدين ، تبعا لماركس ••• هو نموذج ومثال كل ايديولوجية • فكل نقد يبدأ ويتجدد في نقد الدين • النقد الراديكالي ، أي النقد الذي يذهب الى الجذور ، يرجع باستمرار ودون كلل الى تحليل الاغتراب الديني » (١) • نديم البيطار كان الوحيد حتى الآن الذي قام بهذا الشكل من « النقد الذي يذهب الى الجذور » • في مقال حول كتب نديم البيطار ، كتب رفيق خوري : « كتاب الدكتور نديم البيطار « من النكسة الى الثورة » قد يصل الى القارىء العربي المخدر بالسراب وقد لا يصل ، لكن الانسان العربي ، لا بد أن يجد نفسه يوما خارج مملكة السراب ، أمام ذاته الحقيقية ، وبالتالي أمام المنطلقات التي جعلت نديم البيطار يبدو كأنه الصوت الصارخ في البرية • يوحنا كان يصرخ : أعدوا طريق الرب ، نديم البيطار يصرخ : اعدوا طريق الانقلاب •• الانقلاب الشامل الكلي الذي يعتقد انه أكثر جذورية من الثورة » • (ملحق النهار ، الاحد ، ٢١ تموز ، ١٩٦٨ •) هذا فقط مثل واحد من الآفاق البعيدة والجديدة التي يفتحها انتاج البيطار أمام القارىء العربي عامة وأمام الثوري خاصة •

(١) H. Lefebevre : the Sociology of Marx, Vintage, 1969, P. 80

ب ـ في فقرة ثانية من هذه النقطة نراه يشبه « الوصفة الوحدوية » التي قدمها البيطار في مقالته بـ « الوصفة الوحدوية في ذروة صعود حركة التحرر العربية ٠٠ وعزها في الوحدة بين مصر وسوريا » ٠٠٠ هذا قول أقل ما يقال فيه هو أنه ليس « مزايدة » وحسب ، بل مزايدة تبشيرية ، لا تستحق حتى الرد ، وهو قول ينطبق على فقرة مماثلة لياسين الحافظ ٠ وصفة نديم البيطار التي أعلنها في أروع الكتب الثورية أو بالأحرى الكتب الثورية الرائعة الوحيدة التي صدرت عن الفكر العربي ، تصبح شبيهة بالصيغة الوحدوية بين مصر وسوريا ! هنا أود أن أكتفي بمقطع واحد من كتاب « من النكسة الى الثورة » يصف بوضوح موقفا كهذا الموقف :

« من المآسي الفكرية في هذا الصدد الموقف الفكري الذي يتخذه اليسار الماركسي المحسوب على الماركسية ٠ ليس هناك من فكر ماركسي هزيل أكثر من هذا الفكر ٠ ليس من فكر ذهب بعيدا في تجريد الماركسية من اصالتها الثورية كنظرة جامعة شاملة متحركة للوجود الاجتماعي التاريخي أو لحركة التاريخ ككل أكثر من هذا الفكر ٠ فالماركسية أصبحت في يدهم فقط عبارة عن « وصفة » صراع طبقي صرف محدود متقوقع ، يجرد الصراع الطبقي الماركسي من جميع أبعاده الاخرى ، ناسين أن طرح التناقض الطبقي أو متابعته بالشكل الذي يمارسونه هو عمل أقرب الى التكتيك أو الاستراتيجية التي تتبعها الحركة الثورية منه الى الماركسية في أبعادها الاساسية كفلسفة حياة جديدة جامعة ، وهو الاصل الذي لا يمكن حتى لذلك التكتيك أو الاستراتيجية أن يتميزا بفاعلية صحيحة دون رجوع دائم اليه ٠ هؤلاء قصوا أجنحة الماركسية فاذا بها تتحول في أيديهم من صقر الى فرخ دجاج ٠

ان منهج التفسير الجزئي الذي ميز الفكر الثوري في أحسن حالاته هو المسؤول البعيد عن النكسة الجديدة ، لانه طيلة عشرين عاما كان يتبع طريقا منحرفا في الاعداد لها ، ولذلك كان الاعداد من ذلك النوع الهزيل الفاضح الذي كشفته أحداث حزيران الماضي ٠ ان أهم مخاطر التفسير الجزئي هي أنه يهمل مجمل الاسباب التي تعود اليها قضية أو مشكلة ما ٠ كما أنه يهمل بشكل خاص الاسباب البعيدة لها ٠ لهذا لم يكن غريبا أن يؤدي هذا النوع من المنهج الى النكسة ، أو أن يفاجأ بها فتأخذه على حين غرة ٠ » (ص : ١٠٦ ـ ١٠٧)

ج ـ ان عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو لا « يقتلان » ولا « يتآمران » ولا « يجحدان » جهود هؤلاء الداعين الى مناوأتهما ، الى انشاء تجربة أخرى كقاعدة ٠ انهما لا يمنعانهم من انشاء واقامة هذه التجربة ، والباب كان مفتوحا أمامهم منذ ولادة ثورة ٢٣ يوليو ٠ ان عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو لا يقاومان جهودهم في الجزيرة ، في سوريا والعراق ، في المغرب العربي ، فأين النظام الثوري الاصح الذي استطاع هؤلاء ابرازه ؟ بل أين التنظيمات والهيئات والاحزاب التي تبشر حاليا أو التي استطاع هؤلاء خلقها ٠٠٠ من التي تستطيع الاعلان عن دلائل حياة جديدة ؟ قد يقول هؤلاء هذه التنظيمات أو الحركات ستدل على هذه الحياة في المستقبل القريب أو البعيد ، ولكن يمكن القول كذلك ، على غرار هذا المنطق ، ان ثورة ٢٣ يوليو ستدل هي الاخرى على هذه الحياة الجديدة التي تجاوزها ، وهي في ذلك على أرض أكثر صلابة بكثير من الارض التي يقيمون عليها دعوتهم ٠ وذلك لانها دللت حتى الان على انها الثورة العربية الوحيدة التي تستطيع أن تتجاوز ذاتها ، كما انها بسبب امكاناتها والتحولات التي أجرتها ، مضافة الى امكانات وسمات مصر كقطر ، تستطيع أن تدلل على أنها تنطوي ، أكثر من أية ثورة عربية ، على امكان تجاوز ذاتها الى صعيد أكثر ثورية ٠

في النقطة الرابعة ينتقد العظم نديم البيطار لانه لا يحدد ما يعنيه « بالارتباط بثورة ٢٣ يوليو » ٠ هذه الملاحظة ، وان كانت صحيحة بذاتها ، هي في غير محلها بالنسبة الى مقال البيطار ٠ ذلك أن البيطار سبقه الى تحديد هذا النقص في المقال ووعد بالرجوع اليه في دراسة جديدة ٠ فقد قال بالحرف الواحد « ٠٠٠ ان القصد من هذا المقال هو طرح مشكلة الارتباط وتعيين المنهج العلمي (أي الرجوع الى تجارب التاريخ الوحدوية والثورية والعمل على ضوء ما تتكشف عنه من اتجاهات) الذي يجب اعتماده في معالجتها ٠ أما متابعة عناصر هذا المقال والقضايا العديدة التي تتفرع عنه متابعة علمية شاملة ، فأمر يتطلب دراسات اضافية عديدة ، وهذا ما أرجو أن يتاح لي قريبا في دراسة بعنوان « الاساس النظري لاستراتيجية وحدوية ثورية » ٠ ثم يذهب العظم الى تعداد ما يجب أن يتحقق لثورة ٢٣ يوليو كي يصح الارتباط بها ٠ قد يوافقه البيطار وقد لا يوافقه ٠ ولكن ذلك موضوع يخرج عن نطاق الاطار الذي طرح فيه مقاله ٠ فالبيطار طرح قضية الارتباط من زاوية معينة ، على ضوء بعض الاتجاهات التي تتكشف عنها تجارب التاريخ الوحدوية والثورية ، وعلى ضوء الواقع العربي الذي لا يوفر ثورة اخرى جمعت بين الامكانات القطرية التي توفرها مصر ، والامكانات الثورية التي توفرها ثورتها ٠ وليس كما نبه مرارا على ضوء انجازاتها بشكل مطلق مجرد ٠

بعد ذلك يذكر العظم تصريحات عبدالناصر لمجلة « التايم » التي قال فيها بأنه سيقبل بوجود اسرائيل وشعبها ان تم الوصول الى حل انساني ٠ ومن هذا يقفز العظم الى القول « هل يعقل أن يرتبط الانسان الثوري التقدمي ببرنامج عمل للمستقبل يثبت قاعدة استعمارية مثل اسرائيل في المنطقة ٠٠٠ » ان هذا يعني ان عبدالناصر أصبح انسانا ليس غير ثوري وحسب ، بل غير تقدمي ، ثم يتهم من يقول بأن هذا الموقف هو تكتيك مرحلي من قبل ثورة ٢٣ يوليو بأنه قول مردود ، بل سخيف ٠ لا أريد أن أبادله المهاترة هنا ، ولا أريد أن أدخل في نقاش حول الحل السلمي وعلاقته بسياسة ثورة ٢٣ يوليو ، أو موقف عبدالناصر منه ، ومنافع أو مضار استخدامه كتكتيك ، وامكانية هذا الامكان أو امتناع هذا الامكان ٠ بل أريد أن أقتصر على بعض الملاحظات التي تكشف عن عنصر « المزايدة » او الموقف التبشيري في هذا القول ٠

ان عبدالناصر ربط ذلك الاعتراف بوجود اسرائيل « بالوصول الى حل انساني » ٠ وهذا الشرط كلمة مطاطة جدا توفر دائما مخرجا من الاعتراف بوجود اسرائيل ٠ قبول هذا « الحل الانساني » يعني فيما يعنيه مثلا تنفيذ قرارات هيئة الامم المتحدة ، مما يعني بدوره أنه يجب على اسرائيل أن تنكر ذاتها كما تنظر الى ذاتها ، أو أن تلغي كيانها اراديا وطوعيا ٠ يظهر العظم تعجبه من البيطار الذي لا يزال يتشكك حول قبول ثورة ٢٣ يوليو بالحل السلمي ، ونحن لا نستطيع سوى التعجب من العظم كيف أنه لا يداخله أي شك أبدا بأن ثورة ٢٣ يوليو ستقبل بالحل السلمي حسب قرار مجلس الامن وحده رغم ان التصريح الذي ينسبه الى عبد الناصر يربط هذا القرار بحل اخر هو الحل الانساني ٠ ثم اننا نعجب كذلك لانه لا يساوره أي شك أبدا بأن اسرائيل ستقبل بذلك الحل ٠

ماذا خسرت ثورة ٢٣ يوليو حتى الان بالاعلان عن قبولها بقرار مجلس الامن مشروطا بحل انساني ؟ لم تخسر شيئا أبدا ٠ بل أنجزت بذلك نقاطا ايجابية قوية ، فكسبت وقتا تحتاج اليه جدا في دعم استعدادها العسكري ، وكشفت بوضوح أكبر أمام الرأي العالمي الغربي عن حقيقة اسرائيل الامبريالية وتغطرسها القومي مما كان له أثر قوي في التحول الجزئي على الاقل الذي أخذ يحدث في بعض أوساط هذا الرأي لمصلحتنا ٠ ثم يجب أن نذكر أن القبول بقرار مجلس الامن كان يرافقه باستمرار تأكيد من قبل عبدالناصر على ضرورة الحرب ، ضرورة الاستعداد لها ، بأن ما خسرناه بالقوة لن يستعاد الا بالقوة ، الخ ٠٠٠ مما كان يزيل ما يمكن أن ينتج من غموض في القول بقبول قرار مجلس الامن ٠ ثم يجب بأن نذكر بأن الاتحاد السوفياتي قبل بقرار مجلس الامن ، وكان يستحيل على ثورة ٢٣ يوليو وهي مثخنة بتلك الجروح القاتلة ان تقاوم الاتحاد السوفياتي وهي تعتمد عليه بكل شيء في اعادة تنظيم قوتها العسكرية وقواتها المسلحة ٠ يجب أن يذكر صادق العظم ان الاتحاد السوفياتي اقتصر حتى الان على تسليح مصر بما تحتاج اليه من اسلحة دفاعية ولم يسلحها بأسلحة هجومية ٠ قد يقول قائل أو بالاحرى « مبشر » ، ولكن كان على مصر أن تقاوم اسرائيل بحرب شعبية بدل مناورتها تكتيكيا بحل سلمي ٠ هل ينسون أن مصر لا تستطيع أن توجه « دعوة رسمية » الى اسرائيل كي تجتاز القناة وتحتل مناطق آهلة بالسكان من القاهرة الى الاسكندرية ، كي يمكن مصر أن تجابهها بحرب شعبية ؟ الحرب الشعبية في مصر تعني ان على اسرائيل أن تجتاز القنال وتغزو المناطق الآهلة بالسكان ٠

يغفل أو يتغافل العظم عن هذه الحقائق ، ثم يتبع ذلك بأحد « تخريجاته اللفظية » ، الاكثر تبشيرية ، فيكتب « بأن قناعته الشخصية هي أن اسرائيل سوف تقبل قرار مجلس الامن في النهاية » ٠ ولكن دون أن يوفر أية واقعة ، أو أي دليل على ذلك في سياسة أو موقف اسرائيل ، متناسيا مرة أخرى جميع الاوضاع التي ذكرتها أعلاه ، وعاجزا أن يبرز واقعة واحدة في وضع اسرائيل تدل أو توحي بقبولها بقرار مجلس الامن حتى وان جردناه من النصف الآخر في قبول ثورة ٢٣ يوليو به ، أي اشتراطه « بحل انساني » يرافقه ٠ من ناحية هذا الواقع الاسرائيلي ، كل ما فيه يدل بوضوح على رفض قرار مجلس الامن حتى وان جرد من الشرط الاساسي ٠ من ذلك على سبيل التمثيل أن ليس هناك في اسرائيل من يرفع صوته بضرورة الرجوع الى حدود ما قبل حرب حزيران ٠ ان أكثر قادتها اعتدالا لا يقولون مثلا بالانسحاب من القدس أو مرتفعات الجولان ، أو حتى ارجاع الضفة الغربية دون أي شرط ٠ ان اسرائيل تصرف عشرات الملايين من الدولارات في تثبيت اقدامها بكافة الوسائل عن طريق الاسكان وعسكرة الارض المحتلة ٠ وكان الاتجاه اليميني يسجل منذ حزيران تقدما على المواقف « المعتدلة » مما ظهر واضحا في الانتخابات الاخيرة ٠٠ الخ٠٠ يقول العظم « ان اسرائيل ستوافق عليه (أي قرار مجلس الامن) عندما تضمن لنفسها عن طريق المماطلة والتأجيل أفضل الشروط وأقصى التنازلات لصالحها من قبل الحكومات العربية ومن قبل ثورة ٢٣ يوليو بالتحديد » ٠٠٠ لقد مضت ثلاثة أعوام تقريبا على حرب حزيران ، والامور باقية كما هي ، مما يعني اما ان اسرائيل تريد أكثر مما أعطاها قرار مجلس الامن ، واما أن الحكومات العربية « وثورة ٢٣ يوليو بالتحديد » لا تقبل في الواقع قرار مجلس الامن ٠ وفي كلتا الحالتين ،

فان الواقع ينكر استنتاج العظم • ولكن ما قيمة الوقائع ! ثم لنفرض ان اسرائيل قبلت بقرار مجلس الامن بعد عامين أو خمسة أو عشرة ، فهل يعني ذلك أنها كانت تريد القبول به منذ البداية ، وأنها فقط تماطل وتؤجل ؟ كلا طبعا ، فذلك قد يعني العكس تماما ، أي أن الانجازات التي قد تكون الحكومات العربية قد سجلتها في تلك المدة « وثورة ٢٣ يوليو بالتحديد » ، أرغمت اسرائيل على تغيير موقفها والقبول به •

في النقطة الخامسة يكتب العظم « بأن حركة المقاومة الفلسطينية أخذت تستقطب الجماهير الجماهير العربية بشكل واسع جدا وفعال جدا حتى انه في لبنان بالذات سقط ٢٣ قتيلا وما يزيد عن مئة جريح في مواجهة جماهيرية ضد السلطة ، هدفها حماية العمل الفدائي ومثل هذا الحدث الجماهيري لم يقع قبلا حتى في أيام النضال والتظاهر ضد الاحتلال الفرنسي » • ثم يدعو نديم البيطار « الى تحديد ارتباطه الثوري على هذا الاساس » •

لقد التقيت بنديم البيطار مرة في حياتي ، وكان ذلك منذ شهرين ، وأثناء ذلك دار بيننا حديث أود أن أرجع الى بعضه لانه يحدد موقفه من هذا الموضوع •

أ ـ انه أكد آنذاك أن الارتباط الشعبي بحركة ثورية لا يكفي في ذاته لتوفير حل ثوري جذري ، لتحقيق ما أسماه بدولة الطوق ، أي بدولة تتحقق من الاقطار المجاورة لفلسطين المحتلة ، أو لتحقيق الدولة الواحدة من الخليج الى المحيط ، الدولة التي (كما يذكر في المقال أيضا) تشكل مدخلنا الى القرن العشرين ، الى تغلبنا على التخلف ، الى استقلال حقيقي ، والى تحريرنا تحريرا نهائيا من الاستعمار الجديد • ذلك أن هناك أوضاعا كثيرة أخرى يجب ان ترافق هذا الارتباط ان نحن أردنا تحقيق تلك الانجازات •

ب ـ لو كان الارتباط الشعبي كافيا في ذاته لما فشلت تجربة الوحدة مع سوريا • فقد بلغ هذا الارتباط آنذاك بثورة ٢٣ يوليو وبشخص عبدالناصر بالذات درجة قل مثيلها في تاريـــخ الحركات الثورية • ثم لو أن الارتباط الشعبي وعدد الضحايا الذي يكرسه كاف لتوفير حل جذري ، لكانت ثورة الجزائر نموذجا أعلى للثورات ، ولحققت وحدتنا منذ مدة ، ولكانت تجاوزت ثورية بن بللا بدلا من التراجع عنها ثوريا ووحدويا في عهد بومدين • ثم أعطى مثل كوبا فقال لو أن الارتباط والضحايا التي تعبر عنه كافيا اذن لوجدت كوبا حلا جذريا سياسيا على الاقل ان لم يكن حلا اجتماعيا وأيديولوجيا عندما ضحت بمائتي ألف قتيل من أبنائها في حرب استقلالها ضد اسبانيا بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٨ الخ •••

ج ـ انه تناول بشيء من الاسهاب القوى الثورية التي سيفجرها العمل الفدائي ، والامكانات الثورية التي قد يفجرها ، وذلك كله بنظرة عميقة بعيدة ترجع باستمـرار الى التحليـل التاريخي Comparative Historical Analysis وتمتد الى شتى أبعـاد الحيـاة العربيـة مـن نفسية وأيديولوجية واجتماعية وسياسية ••• الخ • ما يجب ذكره هو أنه أكد أن الارتباط بثورة ٢٣ يوليو لا يتناقض أبدا بالارتباط بالمقاومة المسلحة • ان العلاقة بينهما هي علاقـة ديالكتيكيـة ، أي علاقة يتأثر فيها كل منهما بالآخر • فالارتباط بالمقاومة المسلحة ، وخصوصا ان تحولت هـذه المقاومة الى حرب شعبية ، سوف يفرض على ثورة ٢٣ يوليو : أما أن تتجاوز ذاتها ثوريا ، واما أن تكشف عن عجزها عن هذا التجاوز • فان استطاعت تجاوز ذاتها بقيت قاعدة وهي قاعدة لا مفر منها في المدى البعيد ان أردنا الوصول الى الدولة الواحدة أو تحرير فلسطين ، وذلك بسبب موقع مصر الجغرافي وامكاناتها البشرية والاقتصادية والاجتماعية ، وما تنطوي عليه الأخيرة من امكانات ثورية، وهي امكانات لا غنى عنها في تحقيق تلك الأهداف التي تستحيل دون مصر بسبب موقعها الاستراتيجي كذلك في قلب الوطن العربي • ان تجاوز ثورة ٢٣ يوليو لذاتها أمر مفروض عليها كما يـرى نديم البيطار ، ولذلك كان متفائلا من هذه الناحية وذلك لأنها حققت من الانجازات والتحويلات الثورية ما يجعل من المستحيل الرجوع عنها لأية حركة تقاومها وتنتصر عليها ، وخصوصا اذا امتدت المقاومة المسلحة الى حرب شعبية فعالة ، لأن هذا الامتداد يولد ضغطا شعبيـا ثوريـا يزيد من استحالة الرجوع عن الصعيد الثوري الذي حققته حتى الآن • لذلك ان فشلت ثورة ٢٣ يوليو ، أي قيادتها وأجهزتها الحالية في تجاوز ذاتها ، وتحقيق قدرتها الثورية في أصعدة جديدة منها بشكل خاص تحرير الأرض المحتلة منها في حرب حزيران أو قيادة معركة تحرير فلسطين ، فان ذلك لا يؤدي الى الرجوع عن صعيدها الثوري الحالي ، بل الى بروز قيادة وأجهزة جديدة تنقلها الى صعيد ثوري جديد •

د ـ ان المقاومة المسلحة ، كما تتمثل في الخط العام الذي يسودهـا ، لا تـزال حتى الآن متخلفة عن الصعيد الثوري الذي حققته ثورة ٢٣ يوليو ، ولكن ديالكتيـك امتدادهـا وخصوصـا

تحولها الى حرب شعبية سوف يفرض عليها تغيير هذا الخط واتخاذ خط سياسي اجتماعي ايديولوجي أكثر وضوحا وأكثر راديكالية مما هو عليه الآن ·

هـ ـ الارتباط الشعبي يجب كي يكون فعالا كل الفعالية ، أن يتبلور كما ذكر أيضا في كتابه « من النكسة الى الثورة » في تصور أيديولوجي انقلابي ·

و ـ امتداد المقاومة المسلحة الى حرب شعبية لن يتم في « كيان اسرائيل » نفسها ، أي الأرض المحتلة قبل حرب حزيران لأسباب عديدة أكد فيها بشكل خاص قلة السكان العرب فيها (٢٠٠ ألف) وحصرهم في مناطق خارج المناطق أو الأحياء اليهودية ، صعوبة ، ان لم يكن استحالة، « ضياع » الفدائي العربي في المناطق أو الأحياء اليهودية ، صغر الرقعة الأرضية التي تقوم فيها اسرائيل ، فقدان الأمكنة الجغرافية التي يمكنهم التستر والضياع فيها ، والقتال فيها ، لذلك فان امتداد العمل الفدائي الى حرب شعبية يقوم في رأيه بتحويل الدعم الشعبي النفسي والسياسي في الأقطار المجاورة للأرض المحتلة ، أي في الأردن ، لبنان ، سوريا والعراق ، الى دعم عسكري · ولكن كي يتم ذلك يجب على العمل الفدائي أن يمتد الى هذه الأقطار فيحررها من قياداتها وأنظمتها الحالية العاجزة ، وينشىء قيادات وأنظمة جديدة تستطيع أن ترتفع الى صعيد المعركة وذلك بحشد جميع امكانات الشعب والأرض في معركة التحرير ، ثم أكد « كي يتم ذلك » ، على ضرورة انشاء المنظمات ومنها حتى الارهابية ، في هذه الأقطار التي تكون مهمتها تحقيق مساندة فعالة للعمل الفدائي وتمهيد الطريق أمامه في تحقيق ذلك الامتداد ·

هذا كاف في الرد على « دعوة » العظم التبشيرية في المزايدة ، وأقول هذا لأن دعوته اكتفت بالتحميس على الارتباط بالمقاومة المسلحة · كأن ذلك يحتاج الى تحميس من قبل الثوريين العرب! دون أن يذكر الأوضاع الاستراتيجية التي يجب أن تضيء طريق هذا الارتباط على ضوء مقاصدنا الثورية ومنها الدولة الواحدة ، الثورة الاجتماعية الجذرية ، وتحرير فلسطين · هذه النقاط تعرض لها نديم البيطار ، كما قال لي آنذاك ، بشكل جانبي ، وان كان أكثر تحولا في طبعة جديدة لكتاب « الفعالية الثورية في النكبة » كان قد أرسلها الى مركز الأبحاث في منظمة تحرير فلسطين ، الذي طلب منه اعدادها ، ولكنه يريد الوقوف عندها بشكل جامع في كتاب جديد يرجو أن يتمكن من المباشرة باعداده قريبا بعنوان « المضمون الثوري في العمل الفدائي » ·

أخيرا أود أن أختم بكلمة حول هذه النقطة في مقال العظم حول الارتباط بالمقاومة الفلسطينية المسلحة ، فهل نسي العظم أن البيطار في كتابه « من النكسة الى الثورة » (راجع بشكل خاص : ص ٢٢٨ ، ٢٦٨ ـ ٢٧٢) ، وهو الكتاب الوحيد الذي صدر حتى الآن من زاوية ثورية يرتفع حقا الى صعيد المرحلة التاريخية التي نمر بها ، كان بين أول من نادوا بالكفاح الشعبي المسلح وامتداد الحرب الشعبية الى جميع أرجاء الوطن العربي كرد على النكسة ، وأكد أن هذا الامتداد سيفرض نفسه بديالكتيك النكسة الثوري نفسه ؟ هل نسي العظم أن نديم البيطار ختم كتابه « الفعالية الثورية » بقوله : « انني أتوجه بهذا الكتاب أولا ، وبالدرجة الأولى الى أخي المشرد العربي من فلسطين المحتلة ، لأن تشرده ذاته أحاطه بذلك النوع من الأوضاع التي كانت عبر التاريخ ، تقود بشكل من الأشكال الى الوعي الثوري ، وبالتالي الى حركات التجديد الانقلابي ، أتوجه به الى من تطور فيه ذلك التشرد السياسي الجغرافي فأصبح تشردا روحيا نفسيا من الوجود العربي التقليدي ذاته ، لأن ذلك التشرد هو نقطة الانطلاق والشرط الأول في قدرة الانسان العربي على خلق ذاته من جديد » ·

هذا يعني أن نديم البيطار أنبأ قبل أي انسان غيره ، وحتى قبل حركة المقاومة الفلسطينية الحالية ، أن الأوضاع التي أحاطت باللاجيء العربي المشرد سوف تدفعه الى حركة ثورية تجديدية ·

ثم هل نسي العظم أن نديم البيطار يهدي بشكل خاص كتابه « من الحقيقة الانسانية الى الحقيقة الانقلابية » الى : « أولئك الفدائيين الذين يحفظون الكرامة العربية في مجابهة يومية للموت في الأرض المحتلة ، فيشقون عبر هذا الصراع نفسه طريقهم الى هذه الولادة الجديدة » ؟ قبل الانتهاء من التعليق على هذه النقطة الخامسة ، هناك فقرة أريد أن أتعرض لها وذلك زيادة

في ايضاح عنصر « التبشير » و « المزايدة » في موقفه • فقد كتب : « ثورة ٢٣ يوليو عاجزة عن تحرير الأرض المحتلة في حرب حزيران بالطرق العسكرية الكلاسيكية ، ان أية مواجهة عسكرية كبرى هدفها دفع الجيش الاسرائيلي من سيناء الى قواعده قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ سوف تجابه من قبل اسرائيل وكأنها اعتداء على اسرائيل نفسها كما كانت قبل الأيام الستة (استنتاج عظيم !) ، أي أن اسرائيل لا يمكن أن تتحمل هزيمة واحدة حتى ضمن حدود آثار العدوان ، هذا يعني أن القوى الامبريالية الأميركية لن تترك أبدا اسرائيل تخسر أية معركة أمام الجيوش العربية النظامية • الطريق الوحيدة للنصر ، اذن ، هي حرب التحرير الشعبية وثورة ٢٣ يوليو رفضت نهائيا هذا الأسلوب في التحرير وعادت للاعتماد على الجيوش النظامية فحسب ، ومرة أخرى لن تترك قوى الاستعمار اسرائيل ضعيفة أمام الجيوش النظامية » ••• ماذا يعني هذا المقطع؟ انه يعني في الواقع اسقاط ثورة ٢٣ يوليو تماما من معركة تحرير الأرض المحتلة ومعركة تحرير فلسطين • فان كانت ثورة ٢٣ يوليو رفضت نهائيا هذا الأسلوب وطريق النصر الوحيدة هي حرب التحرير الشعبية ، اذن يجب اسقاط دورها من معركة التحرير ! •• يستحيل على قادة اسرائيل أنفسهم أن يتمنوا أمنية أكبر من هذه الأمنية ! من قال للعظم أن ثورة ٢٣ يوليو رفضت نهائيا أسلوب حرب التحرير الشعبية ؟ ان صح ذلك فهو يعني على الأقل أنها يجب أن لا تدعم أو تساعد المقاومة الفلسطينية المسلحة ، هذا ان لم يعن مقاومتها واهمالها تماما •• كلنا يعلم أن الأمر على غير ذلك • أو هل يريد العظم من ثورة ٢٣ يوليو ، كي تبرهن على قبول الحرب الشعبية ، وجوب خلق هذه الحرب في سيناء ؟ ولكن في سيناء كلها لا يوجد أكثر من أربعين ألف عربي وكان ذلك قبل حزيران ، فكيف يمكن خلق هذه الحرب هناك ؟ ان ثورة ٢٣ يوليو تمارس المقاومة المسلحة على القنال وفي سيناء ، ولم تتراجع هذه أمام التضحيات الهائلة التي فرضتها هذه المقاومة من تدمير للمدن والمصانع وترحيل للسكان • ثم ان العظم يعترف بأن المقاومة الفلسطينية المسلحة لم تتحول بعد الى حرب تحرير شعبية على الرغم من أن جميع قياداتها وفصائلها أعلنت أن هدفها هو الحرب الشعبية • ثم لماذا هذا الفصل بين الحرب الشعبية والجيوش النظامية ، هل يعني أن اعتماد الواحد يستثني الآخر ؟ هذا ، كما يقول نديم البيطار بحق ، تفكير ميتافيزيقي لأن العلاقة بينهما هي علاقة ديالكتيكية • ثم ان كانت أوضاع سيناء ــ وخصوصا بوجود القنال ــ لا تساعد في خلق حرب شعبية ، فهل يدعو ذلك الى اسقاط دور ثورة ٢٣ يوليو في معركة التحرير ؟ أو الدعوة الى « حقد » أو « نبذ » مبطن لها ؟

ان الوقائع أيضا لا تبرر قوله بأن الامبريالية الأميركية لن تترك أبدا اسرائيل تخسر معركة واحدة أمام الجيوش العربية • من الأصح القول ان هذه الامبريالية لا تسمح بزوال اسرائيل ، أو أنها ستدعمها باستمرار بشتى الوسائل • ان الامبريالية الأميركية تركت اسرائيل تخسر « معركة واحدة » كسبتها في سيناء عام ١٩٥٦ • ذلك طبعا لم يكن لأنها تنكرت لمقاصدها الامبريالية ، بل يعني أن هناك أوضاعا قد تحدث وتفرض على هذه الامبريالية أن تترك اسرائيل تخسر معركة واحدة • اسرائيل أداة في حماية المصالح الأميركية الامبريالية ، اذن فاميركا ستتدخل بشكل مباشر ، أي بمشاركة قواتها المسلحة في حماية اسرائيل من خسارة معركة واحدة ، ويعني أيضا أنها تتدخل بهذا الشكل كلما أحاق خطر ما بهذه المصالح ، ولكن هذا تعميم مطلق ذو طبيعة غير موضوعية ، وذلك لأن هناك ، كما بينت تجارب هذه الامبريالية ، أوضاعا لا تمارس فيه هذا التدخل المسلح المباشر ، فهي تدخلت ضد الدومينيك في عهد جونسون بهذا الشكل المباشر ولكنها لم تتدخل به كوبا ، بل دعمت عن طريق التدريب والتسليح والتمويل المنفيين الكوبيين في تحقيق ذلك التدخل • وهي تدخلت ضد « ثورة » غواتيمالا في الخمسينيات ، ولكن عن طريق التسليح والتمويل والتدريب لقسم من الخوارج عليها ، ثم انها لم تتدخل ضد ثورة بوليفيا أيضا بذلك الشكل المباشر ، انها تدخلت مباشرة ضد ثورة المكسيك ، وفي أول ثورة اجتماعية في أميركا اللاتينية في عهد ويلسن ، ولكنها لم تتدخل بشكل عسكري مباشر ضد هذه الثورة عندما أممت في الثلاثينيات في عهد روزفلت شركات البترول الأميركية •

ان ما أريد قوله أنه من الخطأ جدا التعميم المطلق • فعندما نحاول تحديد وادراك علاقات

الأمم والدول بعضها بالبعض الآخر ، ليس من التفكير العلمي ، وخصوصا الديالكتيكي أن ننظر الى مستقبل هذه العلاقات بشكل مطلق يثبتها في صورة ثابتة خالدة تنفصل عن أوضاع التاريخ المتحولة ، فهناك علاقة ديالكتيكية بين الأحداث والعلاقات الخارجية التي تحدث لأمة ما وبين الأحداث والتحولات التي تحدث فيها داخليا ، مما يعني تحول العلاقة بين الاثنتين . موقف العظم من هذه الناحية هو موقف « وضعي » محض ، لانه ينظر الى الأمور بمنظار ثبوتي ، ويميل الى اعتبار المجتمع الأميركي مجتمعا خاليا من التناقضات ، مجتمعا مستقرا استقرارا نهائيا في تركيبه الحالي . هنا أود أن أذكر جانبيا أن نديم البيطار ، وذلك في دراسة قدمها لحكومة العراق ، ولحكومة مصر عام ١٩٦٤ ، ونشرت في معظمها بعد ذلك في « دراسات عربية » أوصى بسحب مكاتب الاعلام العربية في الولايات المتحدة لأسباب عديدة خلص منها الى القول بأنه طالما أن النظام الطبقي الأيديولوجي الحالي قائم كما هو فيها ، فان كل فلوس وجهود تصرف على هذا الاعلام ستكون دون فائدة . ولكن في الوقت نفسه نبه الى تململ الشباب الأميركي الجديد ، وذكر تشوق هذا الشباب الى قضايا انسانية جديدة يتبناها ويكافح في سبيلها ، فأوصى بتوجيه الاعلام العربي الى هذا الشباب وحده في الوسط الجامعي ، ثم حدد طريقة ذلك في تلك الدراسة . وقد دللت الأحداث فيما بعد على صدق استنتاجاته ففي بداية هذا العام الدراسي أجرى مكتب متفرع عن جالوب Greenwish College Research Center استفتاء بين الطلاب الجامعيين ، تناول ٨ائة جامعة حول الوضع في الشرق الأوسط ، فكانت النتيجة مدهشة ، وتؤكد ما نبه اليه نديم البيطار منذ سبع سنوات . في هذا الاستفتاء تبين أن ٦٥٪ يحبذون حلا تجريه هيئة الأمم المتحدة دون أي تدخل من الولايات المتحدة ، وأن ٥٠٪ يقاومون المساعدات العسكرية لاسرائيل .

هذا مثل اضافي على النموذج الفكري الديالكتيكي الثوري الذي يميز بشكل خاص فكر نديم البيطار في كتاباته ، فهو يحدد الوضع القائم كما هو ، ثم يدل على القوى والاتجاهات الجديدة النامية التي يجب اعتمادها وتغذيتها في تفجير الوضع ، والأوضاع التكتيكية أو الاستراتيجية التي يجب توفيرها في احداث هذا التفجير .

ما قلته سابقا حول علاقة المقاومة المسلحة بالحرب الشعبية ... وعلاقة الاثنتين بثورة ٢٣ يوليو ، يعطي مثلا آخر واضحا حول هذا النمط الفكري لدى البيطار . ان ما يثير الاشفاق أكثر من أي شيء آخر في الردود التي نشرت حول مقال البيطار ، هو اتهامها فكر الأخير ، على الأقل كما جاء في المقال بالوضعية .

والآن أنتقل الى المقالات الأخرى ، فأقتصر على النقاط التي لم ترد في مقال صادق العظم ، أول هذه المقالات هو مقال بسام طيبي .

قبل كل شيء أود أن أظهر تقديري لموقف بسام طيبي من انتاج نديم البيطار ، فهو على الرغم من نقده لهذا الانتاج من بعض مناحيه ، كان بين القلائل جدا من المفكرين العرب خارج العراق (لقد وجد انتاج البيطار ترحيبا كبيرا هناك من قبل عدد كبير من الصحافيين والمفكرين) الذين أعطوا هذا الانتاج التقدير الذي يستحقه . فهو قد وصف مثلا كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » وذلك في مقال ظهر في « عالم الاقتصاد » بأنه يشكل « ثورة فكرية » ، وفي مقال آخر في « مواقف » تعرض لكتاب « من النكسة الى الثورة » فقال بأن صاحبه « استوعب أبعاد النكسة بعبقرية » . هذا في وضع يشبه « مؤامرة صمت » خارج بغداد ، حول انتاج نديم البيطار، وهو الانتاج الذي وصفه بحق خليل أحمد خليل بأنه يشكل « في الحقيقة ... عتبة وركيزة حقيقية لمرحلة جديدة من مراحل الثورة الفكرية والنضالية عندنا ، وهي درجة أعلى مما تقدم . » (دراسات عربية ، تموز ، ١٩٦٨ ، ص : ١١٨) . أذكر هذا لأنني أعتبر أن مسؤولية المفكر الثوري ، ان صحت هذه المسؤولية فيه ، تعبر عن ذاتها بطرق ومواقف عديدة ، منها ولا شك ، تنبيه القارىء العربي الى الكتب الأساسية في الموضوع ، الى الصعيد الذي نطرحه ، فلا تحجم عن الاعتراف بتفوقها ككل ، أو في صعيد معين ان هي حققت هذا التفوق ، ومن ثم تدعو القارىء الى الافادة منها .

ثم أريد التعبير عن تقديري لأن مقال بسام طيبي كان المقال الوحيد ــ وان كنت أختلف معه كليا فيما كتبه ــ الذي اكتفى بملاحظات « اعتبرها » موضوعية علمية ، فلم « يزايد » ولم « يهاتر » . هذا أيضا دليل على مسؤوليته في النقد .

يقول الطيبي في مقاله « ان أردنا تلخيص مقال نديم البيطار بعبارات قليلة فاننا نستطيع القول انه تبرير للناصرية Apology وتفسير مثالي لها يلبس عباءة سوسيولوجية بينما هو

يقوم على معتقدات لا على تحليل علمي دقيق · هـذا قول « تبشيري » محض لأنه يعبر عن شعور أو انطباع ذاتي ولا يمت الى الواقع الذي نحن بصدده ـ أي المقال ـ بأية صلـة · عجيب هـذا القول ، خصوصا ان القليل الذي قرأته لبسام طيبي أوحـى لي بأنه يعبر عن الوقوع في خطأ مثل هذا الخطأ · فما يقوله البيطار هو تماما عكس هذا الاستنتاج · بما أن هذا القول يقتصر على مقال البيطار الذي نحن بصدده فانني أقتصر عليه في الرد على هذا القول · يقول البيطار ، اذا نحن استخدمنا عبارات طيبي مع بعض التعديل ، ما يلي : « ان أردنا تلخيص مقال نديم البيطار بعبارات قليلة فاننا نستطيع القول أنه تحليل مادي موضوعي جدلي لتجارب التاريخ الوحدوية والثورية أراد منه الكشف عن بعض الاتجاهات العامة التي تسودهـا بغيـة رسم خطـوط عامة لاستراتيجية وحدوية · » فهو مادي موضوعي لأنه ، كما ورد في المقال يحاول أن « يشتق مواقفه من دراسة موضوعية علمية لتجارب التاريخ وفي طليعتها التجارب الثوريـة » ··· وفـي « تعيين الاتجاهات العامة التي تميز ، على ضوء التجارب الوحدوية ··· العمل « الوحـدوي » · فالمقال ينطلق اذن من مادية موضوعية لأنه يشتق مواقفه من اتجاهات تسود تحول الواقـع الموضوعي بشكل مستقل عن ارادة الأفراد · أما هذه المادية الموضوعية ، فهي جدلية ، لأن المقال يؤكد : « أن الحدث يقود الى حدث آخر والصراع ينتج صراعات أخرى بشكل متسلسل يعطي الأحداث والصراعات منطقا مستقلا قد يكشف عن نتائج مدهشة لم تكن في الحسبان · لذلك اذا لم ندرك عند الانطلاق في عمل أو صراع ما ، بوضوح وموضوعية معطيات الواقع الأساسية ، خضع عملنـا للتسرع والاهمال والارتجال والمشاعر الشخصية ··· » ·

ب) ولأنه يؤكد ثانيا : « أن القصد الوحدوي يحتاج الى جهود مستمرة وتنفيذ واع في قلب الواقع والتاريخ ···» ·

ج) ولأنه يؤكد ثالثا ، أن : « كل من يتخذ موقفا ثوريا دون وعي تاريخي يخسر فعاليته ، وقد يضر بالحركة الثورية أكثر مما يفيدها ، فدون هذا الوعي يضطر الى اعتماد آني لأحداث منفصلة ، مرة هذا الحدث ، ومرة ذاك الحدث ، دون أن يستطيع رؤية المنطق أو الاتجاه العـام الذي تنطوي عليه والذي يسودها عبر الوقت » ·

د) ولأنه يؤكد رابعا أن « الثوري هو من يعي قوى التاريخ الفاعلة في المرحلة التي يعانيها ويعبر عنها ، هو من يحقق درجة من الادراك يستطيع بها أن يتلمس التحـولات الأساسية التي تكابدها هذه المرحلة والاتجاهات العامة التي تخضع لها ··· » ·

هـ) ولأنه يؤكد خامسا أن « ليس هناك مفاهيم صحيحة في ذاتها ، بل هناك مفاهيم نافعـة أو مضرة بالنسبة الى الاوضاع التي تنشأ وتمارس ذاتها فيها ، فما يكون صالحا فـي مجتمع أو مرحلة ما قد يكون فاسدا مضرا في مجتمع أو مرحلة أخرى ··· » · ولأن « كل مناقشة أو مفاهيم مجردة حول شكل الدولة ودورها أمور عابثة ··· لأن شكل ودور اي حكم وأية دولة يرتبطـان بالأوضاع التاريخية والاجتماعية والسياسية التي تحيط بهما ··· »

و) ولأنه يؤكد سادسا ، أن : « الثورية المجردة لا تساوي شيئا ، وهي تصبح ذات قيمـة عندما تلتزم بمواقف ايجابية تشتق من قوانين واتجاهات المرحلـة التاريخيـة الاجتماعيـة التي تعانيها وتجاري تحولاتها الموضوعية ·· »

هل يريد بسام طيبي أكثر من هذا ؟ هذه المقاطع كافية في التدليل الواضح الذي يفقـأ العين أن الموقف الذي يميز المقال هو تماما نقيض ما استنتجه بسام طيبي · لو أراد بسـام طيبي أن يكون موضوعيا وعلميا أي أن يبني أحكامه على الأقل على ما قاله البيطار ، كان عليه أن يدل بالرجوع الى المقال على استنتاجاته ، ولكنه لم يفعل وكما رأينا ، فان الموقـف النظري الذي يميز المقال هو نقيض ما وصفه به · ثم كان عليه أن يرجع ثانية الى الاستنتاجات التي توصل انيها البيطار ، فيدلل أنها لا تجد دعما من التجارب التاريخية الثورية والوحدوية ، فيبرهن مثلا أن حركات التوحيد السياسي في التاريخ لم تكن تحتاج الى قاعدة ، بل كانت تنتج بشكل طبيعي

عفوي بين أجزاء وأقطار متساوية ، أو أن الحركات الثورية والوحدوية لم تكن تتشخص في رمز ، أو أن الدولة نشأت عن طريق حوار عقلاني بين أفراد أو جماعات صغيرة مشتتـــة تكهنت مقدما بضرورة هذا النظام الذي لم يكن بعد موجودا ، أو أن الانسان الفرنسي ، البريطاني ، الألماني ، ‧‧ الخ كان موجودا بشكل دائم قبل الدولة الفرنسية ، البريطانية ، الألمانية ‧ أو أن هناك قطرا عربيا آخر يتميز بامكانيات بشرية واجتماعية وثورية وجغرافية أكثر من مصر ، ‧‧ الخ ‧‧‧ الى غيرها من الاستنتاجات التي توصل اليها البيطار ‧ انه لم يفعل ، بل اكتفى بطرح تصريح أعلن فيه أن موقف البيطار هو كذا ‧ هذا هو بالضبط ما يحدده البيطار باستمرار بأنه يمثل احدى السمات الأساسية لما يسميه بالفكر التبشيري ‧ ان خليل أحمد خليل الذي تعرض لهذه الناحيـة في كتابات البيطار يستنتج هو الآخر عكس ما وصل اليه طيبي ‧‧ فهو يكتب في المقال الآنف الذكر ما يلي « وهي (أي كتابات البيطار) محاولة ناجحة ــ رغم النواقص والاعتراضـــات التي سنشير اليها خلال بحثنا ــ لتأسيس علم اجتماعي سياسي عربي ، يطرح قضايانـــا والأحداث والظواهر الاجتماعية الكلية طرحا ثوريا وفقا لجدلية تاريخية مادية ، أي وفقا لقوانين التاريـخ الموضوعية ، وبمعزل عن كل المعتقدات الغيبية والعقل السفسطائي » ‧ انني في الواقع انتهيت منذ أسبوعين من مقال بالانكليزية حول انتاج نديم البيطار ، وبين النقاط الأساسية التي أكدتها كانت هذه الموضوعية المادية الجدلية الحازمة ، المنسجمة مع ذاتها ، التي تولـــد في بعـــض الأحيان القشعريرة بحدتها ومنطقها الصارم ‧

النقطة الثانية التي أوردها بسام طيبي هي قوله « من يعرف كتابات نديم البيطـــار جيدا يعلم أنه ينطلق من الاطارات النظرية للسوسيولوجيا الوضعية التي ترفض اتجاهـــات فلسفة التاريخ القائمة على منهج التعالي التاريخي Historical Transcendence ‧ السوسيولوجيا الوضعية تنظر الى الوقائع التاريخية كشيء نهائي وتقصد بالعلمية الاعتراف بالقوانين التي تسير هذه الوقائع ثم يمثل على الأولى بـ دركهايم ، بارسونز ، وبوبر Durkheim, Parsons, Popper وعلى الثانية بـ هوركهايمر M. Horkheimer وماركوزه Marcuse و أدورنو Adorno وهابرماس Habermas

هنا كذلك لا يسعني الا ابداء الاستغراب من هذا الاستنتاج العجيب ، وأقول ان العكـــس تماما هو الذي ينطبق على كتابات نديم البيطار ‧

(١) قبل كل شيء أود أن أكشف عن التناقض الصارخ بين الفقرة الأولى والفقرة الثانية ففي الاولى يصف طيبي فكر البيطار ــ على الاقل في المقال ــ بأنه فكر مثالي ، ولكن في الفقـــرة الثانية ينتقل « بعصا سحرية » الى الطرف الآخر فيقول أنه تفكير وضعي والمثالية وأشكال الفكر المثالي هي كما نعلم نقيض الوضعية وأشكال الفكر الوضعي ‧

هنا كذلك نجد سمة أخرى من السمات التي يميز بها نديم البيطار الفكر التبشيري ، وهي تجزيء الواقع الى أحداث وأصعدة ونظم مستقلة تقريبا عن بعضها ‧ وهو ، أي التجزيء ، يحدث لغياب منهج أو مفهوم عام في التاريخ والاجتماع يحاول أن يجد في التاريخ والاجتماع الاتجاهات أو القوانين العامة التي تسود تلك الأحداث والأصعدة والنظم ‧‧ ولكن لننتقل الآن الى كتابات البيطار ‧

أ ــ في كتابه الكلاسيكي « الايديولوجية الانقلابية » ماذا يريد قوله ؟ في المقـــال الذي ذكرت أنني أعددته منذ أسبوعين بالانكليزية حول انتاجه ، قسمت هذا الانتاج وأنا أفكر بشكل خاص بهذا الكتاب ، وكتاب « من الحقيقة الانسانية الى الحقيقة الانقلابية » ، الى صعيدين ، الصعيد الأول هو الذي يصف فيه البيطار الاتجاهات والقوانين العامة التي تسود المجتمعـــات ككل في مراحل تاريخية معينة ، والصعيد الثاني تصوره الانقلابي للتاريخ ككل ، أي نظرته الى التاريخ كحركة جدلية (أو كما يفضل هو « ديالكتيكية ») تفرز دائما الجديد ، ودور الوعي الثوري في

افراز هذا الجديد ، في التأثير بمجرى الأحداث ، وفي أخذ المبادرة من حركة التاريخ التلقائية في مراحل معينة هي المراحل الانتقالية بشكل خاص ٠

كيف يمكن لاحد أن يصل الى هذا الاستنتاج الذي وصل اليه بسام طيبي بعد قراءة تلك الفصول السبعة الرائعة في قسم « المضمون الثوري في الايديولوجية الانقلابية » ٠ ومنها ذلك الفصل الذي ينتقد فيه البيطار بقوة جميع التحديدات الاساسية التي أعطيت للانسان ابتداء من ديكارت ، ويخلص منها الى القول « أنا انقلابي فاذن أنا موجود » ؟ هنا يجب التنبيه بأن نديم البيطار لا يحدد معنى الانسان على الطريقة المثالية ، كشيء متأصل في الطبيعة الانسانية ، بل هو ينتقد هذا المفهوم ، ويشتق هذا المعنى من علاقة الانسان الديالكتيكية بالتاريخ والاجتماع ، ثم يربط بروزه أو بالأحرى الأشكال التي يتخذها هذا البروز بالحركة الجدلية التي تنكشف عنها الأوضاع التاريخية الاجتماعية ٠ هنا اريد أن أثبت مقطعا واحدا فقط ورد في «خاتمة» هذا الكتاب، ليس لأنه يدل على نقيض الفكر الوضعي ، بل لأنه حول ثورة ٢٣ يوليو ، ومنه نستدل أن نديم البيطار وضع يده على النقص الأساسي (في أول كتاب نشره عام ١٩٦٤) الذي تنطوي عليه ثورة ٢٣ يوليو ، وهو النقص الذي أخذ الآن ، بعد مضي ست سنوات على صدور الكتاب عدد من المفكرين يؤكدونه فقد كتب : « استطاعت ثورة مصر أن تقوم حتى الآن بدور الطليعة ، بدور الثورة القائدة ، لأنها استطاعت ، وتلك تلازم كل ثورة صحيحة كبيرة ، أن تحقق تجاوزا ثوريا ذاتيا مستمرا ٠ هذا التجاوز الذاتي حقق ذاته عندما واجهت تحدي التاريخ على الصعيد الأيديولوجي ٠ ان السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : هل يستطيع هذا التجاوز الثوري الذاتي أن يؤكد ذاته على هذا الصعيد ؟ كلنا رجاء » ٠ (الايديولوجية الانقلابية ، ص : ٩٩٤) ٠

ب ــ في كتاب « من الحقيقة الانسانية الى الحقيقة الانقلابية » ، يرجع نديم البيطار من زاوية أخرى الى تحديد حقيقة الانسان ، فيخلص الى القول : « أنا انسان ، اذن أنا انقلابي ، اذن أنا موجود » ٠ فحقيقة الانسان تعبر عن نفسها في القدرة على تجاوز الوضع الراهن ، والانسان يجد انسانيته الأصيلة فقط في هذا التجاوز للواقع وعجنه من جديد ، ثم يحدد الحقيقة الانقلابية فيرى ان أشكالها العليا هي تلمس الاتجاهات والقوى الجديدة والتعبير عنها في تصور انقلابي أو فلسفة حياة انقلابية تنفض المجتمع القائم ككل من الجذور وتؤدي الى ولادة الانسان ولادة جديدة٠ بعد هذا يتطلع البيطار الى المجتمع العربي التقليدي ، فيرى أنه ، في جموده المتقوقع الذي يعجز فيه عن تجاوز ذاته ينكر الانسان العربي ، ينزع عنه انسانيته ، ومن ثم ينتهي الى القول بأن تدمير هذا المجتمع ككل في جميع أبعاده ونظمه ضروري في أرجاع الانسانية لهذا الانسان ، بأن قوى التاريخ الحديث تقر حتى هذا التدمير بديالكتيكها المستقل ، وأن مهمة الفكر الثوري هي مساندة هذا الديالكتيك ٠

ج ــ في كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » يمكن القول ان جميع فصوله تدور حول الديالكتيك الثوري الذي تتفجر عنه النكبة ، الذي يفرض ذاته بشكل مستقل ، ويقول بحركته المستقلة الى نقض الوجود العربي التقليدي ككل في جميع مستوياته وجميع طبقاته الحاكمة التقليدية ٠ انه كان الكتاب الوحيد الذي ارتفع الى صعيد ثوري شامل صحيح طيلة عشرين سنة بعد النكبة ، والى مستوى المهمة الثورية الذي فرضته تلك النكبة فحفظ بذلك كرامة الفكر العربي الثوري ٠

د ــ في كتاب « من النكسة الى الثورة » حدد الانحرافات الاساسية التي عثّرت عمل الديالكتيك الذي حلله في « الفعالية الثورية في النكبة » والذي تجب معالجته في تصحيح الوضع العربي الثوري العام ٠ فيلتقي آنذاك الوعي الثوري المتخلف مع ذلك الديالكتيك ، يمهد الطريق امامه ، ويسرع به في انجاز امكاناته الثورية التي ستقود في النهاية الى نقض الاسباب التي ولدته أي الى نقض النكبة والنكسة ليس في تحرير فلسطين وحسب ، بل كذلك في خلق مجتمع عربي جديد ٠ هنا أيضا كان كتاب « من النكسة الى الثورة » الكتاب الوحيد الذي ظهر بعد النكسة والذي يوفر ردا فكريا ثوريا شموليا حازما عليها ويرتفع مرة أخرى الى صعيد المهمة

التاريخية التي تلقيها النكسة على كاهل الفكر العربي · هنا أود الملاحظة بأن نديم البيطار أنهى تأليف هذا الكتاب الرائع في مدة اربعة اشهر فقط من حدوث النكسة ، وهذا يقول الشيء الكثير عن قدرته غير الاعتيادية كمفكر ثوري وكعالم Scholar وهي قدرة نحيطها مع الاسف أن نحن استثنينا بغداد « بمؤامرة صمت » ·

(٢) كان نديم البيطار المفكر الثوري الوحيد في الوطن العربي كله الذي طرح في كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » شروط معركة جديدة ظافرة مع الغزو الصهيوني فحذر من معركة أخرى قبل تحقيق تلك الشروط · وقال بما أن هذه الشروط غير متوفرة فان أية معالجة أخرى وقود لنكبات أخرى · وفي مقال ظهر له في « فلسطين » ، ملحق المحرر ، قبل حرب حزيـــران بأسبوعين قال ان الانتصار على اسرائيل دون تلك المعالجة الجذرية لا يمكن لأنه تزوير للتاريخ · هذا بينما كان المفكرون الآخرون اما غافلين عن هذه الحقيقة ، واما ، وهم الأكثرية ، واثقين تماما ان المعركة ستكون ظافرة · ان بعض هؤلاء من الذين يبشرون الآن « بصليبية » جديدة ضد عبد الناصر ، بقوا شهورا بعد النكسة ينكرون حتى القول بأن ما حدث لنا في حزيران كان نكسة أو هزيمة وانه بالاحرى كما استرسل بعضهم كان انتصارا حققناه ·

ان كانت كتابات البيطار تعبر عن «السوسيولوجيا الوضعية» ، وان كانت هذه السوسيولوجيا كما يكتب طيبي بحق « تنظر الى الوقائع التاريخية كشيء نهائي » ، فكيف كان بامكان البيطار ان يكون المفكر العربي الوحيد الذي استطاع ان يتجاوز الواقع العربي فيحذر بأن اية معركة مع اسرائيل في اطار هذا الواقع هي معركة خاسرة ، وان معركة ظافرة هي « تزوير للتاريخ » ؟

ثم أسأل بسام طيبي ، لماذا لا نجد في كتابات البيطار شيئا عن التهليل والتمجيد اللذين أغدقهما سابقا على عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو من يناصبونها حاليا العداء والخصام ان لم نقل الحقد والبغضاء ؟ فهو نفسه كتب في مقاله « انني كنت شخصيا وحتى قبل حوالي السنة ناصريا » كما أنه اعتبر « عبد الناصر قدوة للثوري العربي الشمولي » أي انه كتب هذا بعد هزيمة حزيران ثم بعد هذه الهزيمة نراه يكتب بانه وصف التطورات التي حدثت في الجمهورية العربية المتحدة « بالجذرية » ·

وصادق العظم ، كمثل آخر ، يرجع الفضل الاول في الانجازات التي حققتها الحركة العربية القومية الثورية « الى قيادة الرئيس عبد الناصر الفذة » ، وذلك بعد النكسة بعامين تقريبا · (النقد الذاتي بعد الهزيمة ، آذار ١٩٦٩ ص· ١٢٨ – ١٤١) وهكذا دواليك ! انه يمكن في الواقع اعداد مجلد من هذا النوع من الشهادات التي أعلنها عدد كبير بعد هزيمة حزيران نفسها من مناوئي عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو · ولكن كتابات نديم البيطار خالية من هذه المواقف · ففيها كان يحدد أماكن الضعف في الواقع العربي الثوري ككل · وكان عندما يدعو الى الارتباط بثورة ٢٣ يدعو الى ذلك بشكل استراتيجي مرحلي· · ولكن دون أي تمجيد وتهليل ·

(٣) يكتب طيبي في بداية مقاله بأن نديم البيطار هو « من الجيل الجديد ··· والذي أعلن رفضه الصريح للمجتمع العربي بأوضاعه التقليدية الحالية · فكان في كتابات هذا الجيل ربط لمسالة الثورية السياسية بالثورية الشمولية لاول مرة · بينما كانت الاتجاهات الثوريه قبل ذلك جزءا لا يتجزأ من الواقع العربي التقليدي لهذا كانت ثوريتها مزيفة · »

هنا أحب أن أختلف مع بسام طيبي في دمجه لنديم البيطار مع آخرين وان كانوا قليلين ، فيما وصفه « بالجيل الجديد » · ومع ذلك لأن كتاباته تمثل في الواقع صعيدا فريدا بين هؤلاء لا يماثله فيه أي منهم فيما حدد طيبي بأن « ربط المسالة الثورية السياسية بالثورية الشمولية لاول مرة » · ان المقطع الذي ذكرته آنفا مأخوذ من مقال آخر لبسام طيبي يؤكد ما أقوله ·

على كل ، يتناقض هذا القول تناقضا واضحا مع نقده لكتابات نديم البيطار بأنها جزء من السوسيولوجيا الوضعية · هذا التناقض لا يحتاج الى تدليل · ثم انه وصـــف كتاب « الفعالية

الثورية في النكبة » في مقال آخر ، بانه لا يمكن النظر اليه الا كثورة في الفكر العربي الحديث من حيث عمقه وتطرقه الى جذور النكبة بشكل علمي وثوري في الوقت نفسه · ان الدكتور البيطار هو أول من يضع أزمة المجتمع العربي منذ عام ١٩٤٨ في اطارها العلمي » (عالم الاقتصاد تشرين اول ١٩٦٨) · هذا كذلك يتناقض تماما مع النقد الذي وجهه اليه ·

(٤) الارتباط الذي دعا اليه نديم البيطار هو جدلي · فهو مثلا يكتب في المقال « الحياة الانسانية التاريخية ··· لا تعرف المبدأ أو النظام الكامل بل مبادىء ونظما تسعى الى التكامل · ثورة ٢٣ يوليو ، على الرغم من المساوىء والنقائص والاخطاء ومكامن الضعف والعجز الخ ··· دللت على أنها تتميز أكثر من الثورات العربية الأخرى بالقدرة على هذا السعي ، « بالقدرة على تصحيح ذاتها » · البيطار لا ينكر ان القدرة على هذا « السعي » كانت ضعيفة ان قيست بتحديات المرحلة التاريخية التي تمر بها ، ولكنها بالنسبة الى الثورات العربية الأخرى ، هي الوحيدة التي كشفت عن هذه القدرة · ثم تراه يكتب : « الارتباط بها (أي ثورة ٢٣ يوليو) اذن ليس اعترافا بأنجازاتها ، ليس تقديرا لخدمات سابقة ، ليس احتراما لجهود بذلت ، ليس محبة بعبد الناصر ، بل هو ارتباط يجد تسويغه باسم المستقبل العربي · لأن الاوضاع الموضوعية التي تحيط بها تجعلها أكبر قدرة من غيرها على قيادة العمل العربي الوحدوي وتحمل مسؤوليته حاليا كما نحياه عام ١٩٦٩ » · اذن فالارتباط لا يقوم على أساس انجازات راهنة ، بل باسم مقاصد ثورية في المستقبل ، ليس هو ارتباطا بالواقع ، بل بغايات واهداف تعمل على تجاوز هذا الواقع بها ·

(٥) السوسيولوجيا الوضعية تتجاهل المجتمع كـ « كل » ، تتركز على جزء أو بعض الاجزاء دون الأخرى · وكان هذه الأجزاء مستقلة عن بعضها دون اية رابطة ديناميكية او جدلية · كتابات نديم البيطار وكل من يتصفحها يرى ذلك واضحا ، تتركز على المجتمع ككل ، تقول بعلاقة ديناميكية أو جدلية بين أجزائه واصعدته المختلفة · ومن ذلك تنتهي الى القول بأن المجتمع العربي التقليدي مقضي عليه بسبب ديالكتيك القوى الجديدة التي تنمو فيه أو التي تحيط به أن « يموت » ككل ·

السوسيولوجيا الوضعية تؤكد على القيم الاجتماعية المشتركة وتتجاهل دور وأهمية ومكانه الصراع الاجتماعي وبشكل خاص الثوري حول توزيع السلطة والثروة والانتاج ، كعوامل فعالة في تفسير التاريخ وتحويله من صعيد الى آخر · كتابات نديم البيطار كلها تؤكد على ضرورة هذا الصراع في أشكاله الايديولوجية والاجتماعية الثورية ·

السوسيولوجيا الوضعية تهتم بتتام Complementarity التركيب الاجتماعي وتعتمد نهجا فكريا يؤكد على نموذج أجتماعي A Model of society متكيف متناسق · ليس هناك من مفكر عربي واحد أنكر هذا النهج أكثر من نديم البيطار · فبينما كان المفكرون الثوريون يقتصرون في مواقفهم الأكثر ثورية على تناقضات وصراعات طبقية ، فان البيطار وسع هذه التناقضات والصراعات الى جيع اصعدة المجتمع ، من التركيب الاجتماعي الطبقي الى التركيب السياسي ، ومن الصعيد الايديولوجي الى الذات العربية نفسها ، وذلك بشمولية ثورية جامعة ·

السوسيولوجيا الوضعية تكتفي بتحليل وضع قائم · وهي ان أوصت بأجراء أي تحويل فيه فانه يكون من النوع الجزئي أو الاصلاحي · كتابات نديم البيطار لا تكتفي بالتحليل بل تنتقل منه الى تعيين الاتجاهات الجديدة ومنها الى التوصية بخطوات ثورية شمولية تتجاوز الوضع القائم ككل · وهي كلها من النوع الجذري الذي يذهب الى جذور المشاكل والقضايا التي تواجهنا ·

وأخيرا أود أن أذكر ملاحظة عابرة حول الاسماء التي مثل بها طيبي على « منهج التعالي التاريخي » وهي أنني لا أظن أن ما يقوله حول أدورنو وهوركهايمر ينطبق عليهما · ان القليل الذي قرأت لهما وحولهما يدل بوضوح أنهما يحاولان تفسير النظم السياسية من ديمقراطية

ودكتاتورية ببعض الخصائص النفسية أي بارجاعها الى مميزات الشخصية الفردية • هذا التفسير السيكولوجي هو تفسير غير ديناميكي أو جدلي • بل هو بالأحرى تفسير ثبوتي Static • أما ماركوزه فانه يشكل دون شك مثلا واضحا عن ذلك المنهج • ان الكتاب الاساسي الذي يحدد فيه الأخير موقفه هو كتاب « الانسان ذو البعد الواحد » ، والفكرة الاساسية التي تسوده هي انتقاده القوي للاشكال الفكرية والايديولوجية السائدة ليس في السوسيولوجيا أو الفلسفة الوضعية في الولايات المتحدة وحسب بل في العالم الشيوعي كذلك • وذلك لانها تؤكد ما هو قائم قياسا لكل نمط فكري • ولأنها ثبوتية تنكر المتناقضات ودورها • ليس هناك من شيء في هذا المنهج الذي اتبعه ماركوزه غير موجود في كتابات البيطار • بما أن كتاب « الايديولوجية الانقلابية » وهو الكتاب الاول الذي اصدره البيطار وفيه نجد جميع عناصر هذا المنهج ، ظهر عام ١٩٦٤ أي عام صدور كتاب ماركوزه ، لا يمكن القول اذن ان الاول نقل عن الأخير •

هذه النقاط التي ادرجتها في ردي كافية للتدليل الواضح هنا أيضا ان النهج الذي يميز كتابات البيطار هو تماما نقيض النهج الذي يقول طيبي أنه يميزها • وهو نقيضها بشكل واضح لا يحتاج في الواقع الى أي تعليق • هذه الملاحظات التي كشفت بوضوح تناقض طيبي مع نفسه ، ليس في مقال اخر ، بل في المقال نفسه الذي وجه فيه نقده لفكر نديم البيطار • وهذا يدل على أن نقد طيبي كان شعارا لا يمت الى الواقع بأية صلة ، وانه لا يعرف الموضوعية لان أول شرط في أي تعليق أو حوار موضوعي هو أننا عند ما نزعم أننا نتكلم على الكرسي نجعل الكرسي ولمس البقرة مثلا موضوع كلامنا •

والان انتقل الى مقال ياسين الحافظ ، هذا المقال ينقسم من ناحية عامة الى قسمين : القسم الاول يساند مفهوم البيطار وان كان بطريقة غير مباشرة وضعيفة بالدعوة الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو • والثاني ينتقد هذا المفهوم بسبب ما أهمله من نقص في ثورة ٢٣ يوليو من تصحيحات يجب أن تحققها ومن شروط أخرى يجب أن يقوم عليها الارتباط •

في القسم الاول يكتب الحافظ بأن مفهوم « قاعدة للعمل الوحدوي » أبعد وأشمل وأعمق من أن تلخصه ثورة ٢٣ يوليو ثم يذكر الاوضاع والاسباب التي تبرر هذا القول • ومن ثم يستنتج « بأن هذه تجعل توجه العرب نحو مصر أبعد وأعمق وأشمل من مجرد موقف تكتيكي أو استراتيجي بل هو أبعد من المفاهيم والمبادىء الثورية • انه ارتباط بالمركز وبالتالي ارتباط وجود ومصير ومستقبل » •

انني لا أعلم كيف يرى الحافظ ان هذا الاطار الذي يطرح فيه قضية الارتباط يناقض الاطار الذي يطرحه البيطار • انني لا أشك ان الاخير يرحب كل الترحيب بالحقائق التي ذكرها الحافظ لانها موجودة بشكل اخر في مقاله فهو يكتب مثلا في هذا المقال :

« الشروط التي يجب أن تتحقق للقطر العربي الذي يمكنه أن يقوم بدور القاعدة هي أولا الامكانات البشرية والاقتصادية والجغرافية ، هذه الشروط ضرورية ولكنها غير كافية ويجب أن نضيف اليها قدرة القطر على تنفيذ ثورة اجتماعية ثابتة ، على اجراء تحقيق ثوري مستمر • على بناء نظام حضاري حديث ، على ممارسة قيادة ثورية فعالة على دعم مستمر للقضايا العربية المختلفة وكفاءة في ممارسة هذا الدعم ••• هذه الشروط توفرت لثورة ٢٣ يوليو أكثر بكثير من أية ثورة عربية أخرى » •

ولكن لنفترض جدلا ان البيطار أهمل الاوضاع التي تدفع الى اعتبار مصر كقطر « قاعدة للعمل الوحدوي » • فهو من ناحية أخرى يذهب الى أن بحث هذه الاوضاع يتطلب تفصيلا لا يتسع له مقال • فقد كتب : « المقومات والاوضاع التي تجعل ثورة ٢٣ يوليو قاعدة للعمل الوحدوي عديدة وتتطلب بحثا خاصا في معالجتها • ولكن ما يجب أن لا نغفل عنه في معالجة من هذا النوع هو أولا : أن هذه المقومات والاوضاع هي نسبية يصح الحكم فيها وعليها فقط بالنسبة الى الاقطار والثورات العربية الاخرى • أي بمقارنتها بهذه الاخيرة على ضوء العمل الوحدوي والامكانات التي

يمكنها أن تضعها في خدمة هذا العمل » •

أما ما يريد البيطار قوله عندما كتب بأن الارتباط هو تكتيكي أو استراتيجي مرحلي ، فهو يترك الباب مفتوحا أمام ما يجب تحقيقه من تصحيحات في الوضع الثوري في ثورة ٢٣ يوليو وكي لا يفهم القارىء أن الارتباط الذي يدعو اليه يعني أن ثورة ٢٣ يوليو تحقق النموذج الثوري الذي يجب أن تقف عنده • قد تكون كلمة تكتيك أو استراتيجي مرحلي غير موفقة في ذاتها ، ولكنها في الاطار الذي طرحت فيه لا تعبر عن الغموض الذي ، كما يظهر ، دفع الحافظ الى تعليقه •

أما في القسم الثاني فان الحافظ ينتقد مقال البيطار لانه « يضع مسألة مضمون الوحدة العربية على الرف الى أن يتم انشاء الوحدة » ثم يردف « يسند نديم البيطار أقواله الى القوانين التاريخية للعمل الوحدوي الثوري • ولكنه أحجم عن دراسة وتحليل التجربة النضالية العربية في ميدان العمل الوحدوي عموما • وتجربة وحدة مصر وسوريا ١٩٥٨ وانفصال ١٩٦١ ، وما بعده خصوصا • ولو أنه قام بهذه الدراسة لاكتشف قوانين جديدة أولها أن يضع مسألة مضمون الوحدة في رأس مهام النضال الوحدوي » •

ردي هو :

أ ـ انه لمن التحامل الكبير القول ان نديم البيطار وضع مضمون الوحدة على الرف • أي قول هذا القول ؟ نديم البيطار يقول ان هـذا المضمون هو مضمون اشتراكي يجب أساسا أن يحل التناقض الاساسي في المجتمع العربي • وهو تناقض رأس المال والعمل ، والاقطاع والفلاحين ، وذلك لمصلحة العمال والفلاحين ، وان الاختلاف حول من يجري هذا الحل ، أو الى أي مدى يصل اليه وأي شكل يتخذه وأية أجهزة تحققه يجب أن لا « يضع الوحدة على الرف » الى أن يتم الاتفاق على هذه الامور فتقوم كل محاولة في هذا السبيل كما يجري تماما في الوطن العربي منذ ثورة ١٩٥٨ مما عثر وجمد العمل الوحدوي بالاعلان عن نفسها تجربة خاصة تحاول استقطاب القوى الثورية العربية الوحدوية •

ب ـ ان كان هناك من نقص في حل هذا التناقض الاساسي في ثورة ٢٣ يوليو سبب المدى الذي وصل اليه أو الشكل الذي اتخذه أو الاجهزة التي تحققه ، فذلك يجب أن لا يمنع قطرا ثوريا اخر في الاتحاد مع مصر في دولة اتحادية تحقق كخطوة أولى أساسية وحدة خارجية ، سياسية ، دفاعية واقتصادية ويكون عبد الناصر رئيسا لها • هذا ما يمكن استنتاجه بوضوح خصوصا عند الرجوع الى الفصل الاخير من كتاب « من النكسة الى الثورة » الذي ينبه نديم البيطار بضرورة ربط المقال به •

ج ـ ان نديم البيطار لم يقف بالتفصيل عند هذه الناحية لانه نبه القارىء للسبب وذكره ان أراد هذا التفصيل بأن يرجع الى كتبه الاخرى • فقد كتب في مقاله : « أنا في المرحلة الحالية مع ثورة ٢٣ يوليو وقيادةعبد الناصر ضد أية ثورة أو قيادة عربية أخرى (أي القيادة أو الثورة التي تناهضها باسم تجربة خاصة) • ولكنني ضد قيادة عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو باسم تكامل الثورة • أما عناصر هذا التكامل وكيفيته فأمور تخرج تماما عن نطاق مقال من هذا النوع • في كتبي الاخرى وخصوصا كتاب « من النكسة الى الثورة » تعرضت لهذه الناحية من بعض الزوايا الاساسية » ••• هذا يعني بوضوح لا لبس فيه أو غموض ان القارىء الذي يريد أن يعرف موقف البيطار من التصحيحات التي يجب ادخالها في وضع ثورة ٢٣ يوليو أو في الوضع العربى العام ، أن يرجع الى تلك الكتب وخصوصا « من النكسة الى الثورة » • ثم ان البيطار نبه في المقال نفسه بأنه سيرجع الى هذا الموضوع في كتاب اخر بعنوان « الاساس النظري لاستراتيجية وحدوية ثورية » •

د ـ هل يريد الحافظ حقا من نديم البيطار أن يحقق في مقال « دراسة وتحليل التجربة

النضالية العربية في ميدان العمل الوحدوي عموما وتجربة وحدة مصر وسوريا ١٩٥٨ وانفصال ١٩٦١ وما بعده خصوصا » ؟ ٠٠٠ هذا قول أقل ما يقال فيه انه غير موضوعي أبدا ٠

هـ ـ أنني لا أفهم كيف ان الحافظ يرى ان العناصر التي ذكرها كعناصر لمضمون الوحدة هي نقاط أهملها البيطار ٠ وخصوصا عندما يستنتج انه بسبب هذا الاهمال وضع « مضمون الوحدة على الرف » ٠ **هذه العناصر هي :**

١ ـ « تحرر الجماهير العربية » ٠ مرة أخرى أي قول هذا القول ؟ هل يحتاج ذلك الى تأكيد ونديم البيطار يربط في مقاله العمل الوحدوي بالجماهير ؟ هل قرأ الحافظ كتب البيطار وخصوصا « من النكسة الى الثورة » ؟

٢ ـ النضال « في سبيل المرحلة الراهنة ٠٠٠ لا ينسى مطلقا أهداف المرحلة المقبلة ٠ فهو يعمل على تحقيق أهداف المرحلة الراهنة وتهيئة الظروف الموضوعية والذاتية اللازمة لتجاوزهما جدليا في آن معا ٠ اذ ليس من انتقال فجائي عجائبي من مرحلة الى أخرى ، وليس من سور صيني يفصلهما » ٠ انني لا أدعو القارىء الى الرجوع الى كتابات البيطار أو حتى الى مقاله ، بل أدعوه الى المقاطع التي أخذتها من هذا المقال وذكرتها هنا في ردي هذا ، كي يرى أن نديم البيطار أكد هذا مرارا وبأشكال مختلفة ٠

٣ ـ « مسالة النضال في سبيل شق طريق اشتراكي بروليتاري للوحدة ، لا يجوز في حال من الاحوال أن تتحول الى معارضة للوحدة البرجوازية الصغيرة ، ما دامت هذه الوحدة خطوة الى أمام في طريق تحرر الجماهير العربية من الامبريالية» ٠٠٠ ولكن أخصام ثورة ٢٣ يوليو يخاصمونها لانها « ثورة البرجوازية الصغيرة » ! نديم البيطار ينقض هذا الموقف لان هذه الثورة ليست وحسب « خطوة الى أمام في طريق تحرير الجماهير العربية من الامبريالية » بل هي كذلك خطوة لا يمكن الاستغناء عنها في تحقيق هذا القصد وفي انشاء الدولة الواحدة ٠ فلماذا اذن هذه الملاحظة التي تطرح بشكل نقد لمقال البيطار ؟

٤ ـ « وكان عبد الناصر فرصة العرب التاريخية في وحدة ذات مضمون برجوازي صغير ٠ وقد أفلتت هذه الفرصة أو تكاد (وهذا يتوقف على قدرة النظام الناصري على تصفية آثار العدوان) » ٠ ثم يكتب « ان الالتفاف الجماهيري العربي حول ثورة ٢٣ يوليو كان متوفرا واعتقد أنه ما يزال هو نفسه الى حد كبير » ٠ هنا يجب التنبيه بأن هذا القول ينقض ما كتبه صادق العظم بأن الجماهير لم تعد تلتف حول ثورة ٢٣ يوليو وعبدالناصر ٠ فتعجب كيف ان نديم البيطار لم ير ذلك ؟ نديم البيطار يكتب الشيء نفسه ويعدد في مقاله العوامل التي تنهي التفاف الجماهير حول ثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبد الناصر ٠ ومنها عجز « النظام الناصري عن تصفية آثار العدوان » فلماذا يذكر الحافظ اذن هذه النقطة كعنصر في مضمون الوحدة الذي « وضعه البيطار على الرف » ، وكنقد له ؟

هذه الملاحظات تدل على أن تعليقات ياسين الحافظ على مقال نديم البيطار هي في الواقع تعليقات ايضاحية لا انتقادية ٠ ولكن نقطة الخطأ فيها هو انه قدمها بشكل نقد للمقال مما يضفي عليها صفة غير موضوعية أبدا ٠

أخيرا بضع ملاحظات حول مقال الصديق هشام شرابي ٠ ان ما فاجأني في هذا المقال ليس النقد غير الموزون التبشيري المحض لمقال نديم البيطار بل أن يصدر هذا النقد عن هشام شرابي في مقال ضعيف من جميع الوجوه ٠ أقول هذا لانني أعرف هشام كصديق وكاستاذ لي درست على كتبه ، وأكن له كل احترام وتقدير كعالم ، ولانني أرقب منه في رد حول قضية مصيرية كالقضية التي يطرحها البيطار (قضية الدولة الواحدة) أن يرتفع رده ليس الى مستوى هذه القضية وحسب ، بل الى المستوى الفكري العلمي الذي دلل عليه في كتاباته الاخرى ، وكاستاذ جامعي ٠ لقد رددت بطريقة غير مباشرة في ردودي السابقة من هذا المقال على أهم النقاط التي وردت في

مقال شرابي • ولذلك لا أرى فائدة في الاعادة • ولكن هناك ثلاث نقاط أود أن أتعرض لها بسرعة :

١ ــ ينتقد شرابي نديم البيطار لانه يحاول أن يكشف عن قوانين ثورية ويقول ان العلوم الاجتماعية الحديثة أكدت سخف نظرية القوانين• هناك معان جديدة لمفهوم «القوانين» أو في تحديدها في العلوم الاجتماعية • وكان على شرابي أن أراد أن يكون علميا أن يسأل البيطار أي معنى يريده لهذا المفهوم ؟ أو أن يستنتج من كتابات البيطار المعنى الذي تتضمنه فيقبله أو ينقضه • لا أريد طبعا أن أحدد هذا المعنى فذلك يفرض الرجوع الى كتابات البيطار كلها ، مما يخرج عن نطاق هذا البحث •

ثم ان العلوم الاجتماعية لا تنكر مفهوم القوانين بشكل عام ومطلق • هناك عدد يقول بذلك• ولكن لا أكون «مفتريا على الواقع ان قلت ان العلوم الاجتماعية وخصوصا السوسيولوجيا تقول بذلك • مفهوم القوانين الذي لم يعد مقبولا هو المفهوم الذي يقول ان هناك قوانين تاريخية عامة تقود التاريخ ككل أو قوانين اجتماعية على طريقة قوانين العلوم الطبيعية، كما حاولت السوسيولوجيا أن تصنع في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • أما مفهوم القوانين كاتجاهات متماثلة في أوضاع متماثلة أي « كـ Regularities و Patterns » من نوع أو آخر ، فهي لا تزال سائدة • ان السوسيولوجيا مثلا تزول كعلم ان هي تنكرت لمفهوم « قوانين » بهذا المعنى الاخير • ان البيطار في رأيي استخدم هذه الكلمة في هذا المعنى الثاني • والدليل على ذلك هو أنه استعملها مع كلمة « اتجاهات » بشكل قابل للمبادلة •

٢ ــ شرابي ينتقد البيطار لان « ثورة ٢٣ ••• لم تحرر الجماهير بمعنى ان الجماهير في المدن والارياف ما زالت بعيدة بوعيها السياسي والاجتماعي عن الاشتراكية وما زالت اسلاميــة بأيديولوجيتها • أي أنها غير ثورية » •

هذا القول ينطبع مع الاسف على الجماهير العربية في كل مكان ومنها الجماهير التي يستثنيها في الاردن وفلسطين • ثم ان توجيه تنبيه أو نقد من هذا النوع الى نديم البيطار هو غريب جدا جدا • هل قرأ هشام شرابي مثلا تلك الصفحات الرائعة في كتاب « من النكسة الى الثورة » التي تتهم الاشتراكية العربية بأنها دون اصالة ثورية لانها لم تتجاسر أن تمس الاطارات الايديولوجية والعقلية والنفسية التقليدية التي تسود الذات العربية ؟ هل قرأ ذلك الفصل الرائع في كتــاب « الفعالية الثورية في النكبة » الذي وصف فيه الواقع العربي الثوري بأنه اصلاحي في أحسن أحواله ورجعي أو محافظ من ناحية أيديولوجية ؟

ان البيطار هو المفكر العربي الثوري الوحيد الذي أكد على ضرورة ربط الاشتراكية بفلسفة حياة جديدة تحرر الذات العربية من الدين • هذا الموقف كاد يؤدي الى قتله في بغداد صيف ١٩٦٨ • كما أدى الى منع كتبه كلها في الاقطار « الثورية » •

٣ ــ في معرض نقده للبيطار يكتب شرابي « لا شك ان عبد الناصر هو الرجل المؤهل للقيادة• ولكن ليس لانه عبد الناصر وحسب • وليس لانه خيرة الموجودين » موحيا بأن نديم البيطار يقول ذلك ••• هذا طبعا غير صحيح ! في المقال نرى أثرا سلبيا أو أيجابيا لما يشعر به نديم البيطار شخصيا تجاه عبد الناصر ، لانه يقتصر بتحديد موقفه على ضوء بعض الاتجاهات والوقائع الموضوعية المحضة • فهو يقول مثلا « قد أحب عبد الناصر أو أكرهه • قد أعتبره انسانا عاديا أو كبيرا ، قائدا ناجحا أو فاشلا ••• هذه مواقف اخلاقية مجردة لا قيمة لها لان أي تقييم لعبد الناصر يجب أن يتم على ضوء الواقع العربي ذاته • والقيادات والقوى التي تسوده » •

في ختام هذا الرد أود أن انتهز هذه الفرصة كي أنبه الشباب العربي وخاصة الثوري منه الى انتاج نديم البيطار ، والى ضرورة قراءته بل دراسته • فليس هناك ، حتى الآن على الأقل ، من انتاج اخر ، مع احترامي الحقيقي لانتاج عدد من المفكرين الثوريين ، ارتفع الى الصعيد الــذي ارتفع اليه هذا الانتاج ، أو يستطيع أن يخدم شموليا وجذريا قضية التوعية الثورية كما يخدمه •

ان ما يؤسف له حقا أننا نجد ما يشبه « مؤامرة الصمت » كما قلت سابقا حوله . لنأخذ مثلا كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » . انه كان الكتاب الوحيد الذي صدر طيلة عشرين عاما بين نكبة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧ ، الذي أرجع النكبة الى خلل جامع عام في المجتمع العربي التقليدي ككل ، ووفر لها تحليلا ثوريا شموليا يعلن في النهاية ان النكبة ستفجر بديالكتيكها الخاص القوى الثورية الجديدة التي تنتهي نهائيا في الغاء ذلك الوجود ككل ، وبالتالي تجاوز النكبة ، أي تحرير فلسطين . بعد نكسة حزيران تحول الفكر العربي فأصبح يرى جذور النكبة في عطل ما في المجتمع العربي كله . وما من مفكر واحد ذكره ما عدا بسام طيبي الذي وقف عنده بشكل خاص ، ورفيق خوري وخليل أحمد خليل اللذين ذكراه في مجرى تقييم عام لانتاج البيطار ، رغم ان القليل الذي جاء به هذا الفكر فيما بعد موجود في هذا الكتاب . الشيء نفسه يقال حول كتاب « من النكسة الى الثورة » الذي صدر بعد النكسة ببضعة أشهر والذي استكمل فيه تحليل البيطار صورته الثورية الشمولية . انني أتحدى أي انسان أن يعين فكرة واحدة جاء بها النتاج الفكري الثوري في تحليله للنكسة ليست موجودة أساسا في هذين الكتابين . ولكن على الرغم من ذلك كان هناك سكوت تام تقريبا حولهما . ان النقد الثوري الشمولي لما حدث لنا ١٩٤٨ و ١٩٦٧ وجد فيهما الحدود التي لا يستطيع تجاوزها أي نقد جديد . ولكن مفكري ما بعد النكسة يكتبون وكأن الكتابين غير موجودين .

خذ مثلا الكتاب الثاني الذي صدر من زاوية ثورية بعد النكسة ، وأعني به كتاب صادق العظم « النقد الذاتي بعد الهزيمة » . فالمؤلف يقول لنا انه يحاول في هذا الكتاب تعيين الاسباب البعيدة للهزيمة . ولكنه لا يذكر أبدا « الفعالية الثورية في النكبة » أو « من النكسة الى الثورة ». رغم أن الاول صدر منذ بضع سنوات ، والثاني قبل كتابه بأشهر عديدة . وعلى الرغم من أن الصفحات التي يعالج فيها تلك الاسباب البعيدة كانت قليلة جدا مبعثرة التحليل لا تجد أيـة وحدة ، اذ أن الكتاب كان أساسيا حول نواح أخرى لا تتعلق بالاسباب البعيدة للهزيمة .

اكتب هذا ليس تقديرا مجردا لانتاج البيطار ، بل لانه يجب على المفكر الثوري أن يكون مسؤولا تجاه القارىء العربي الثوري . وهو من هذه الناحية مسؤول بأن ينبه الى أية دراســة جامعة سابقة لاي موضوع يعالجه ، وخصوصا عندما تكون معالجته جزئية . دراسة البيطار للنكبة والهزيمة كانت الدراسة الثورية الشامـــلة والجامعة Systematic الوحيـــدة ، ولذلــك وجب التنبيه اليها .

عندما قرأت كتاب « الايديولوجية الانقلابية » رأيت نفسي أقول هذا كتاب يكتب منـــه ولكن لا يكتب عنه ! .. يظهر أنني يجب أن أقول الان ان كتب البيطار كلها كتب وسيكتب منها ولا يكتب عنها . لو أن مفكرا غربيا كتب كتابا مماثلا لكتاب « الفعالية الثورية في النكبة » حول قضية مصيرية مماثلة لنكبتنا في فلسطين ثم جاءت الاحداث فيما بعد تؤكد التحليل النظـري الذي جاء به ، لاسرع الاخرون الى التنبيه اليه والى الاعتراف به كتابا كلاسيكيا . ولكن عندنا نجد أن النتيجة كانت الصمت ومؤامرة الصمت .

في كتبه المختلفة تعرض نديم البيطار هنا وهناك للاسباب التي تفسر الفقر الذي يميـز الفكر العربي الثوري . ولكنه بين الاسباب التي ذكرها نسي أن يذكر سببا مهما وهو أن أكثرية المفكرين العرب يصمتون ازاء الانتاج الكبير أو بالاحرى ازاء انتاج الغير ، ان لم يكن انتاج صديق أو شخص يعرفونه . قد يلوح هذا الكلام قاسيا ولكن مقياسه هو في الوقائع . ومرة ثانية أتحدى أي انسان أن يبرز فكرة واحدة أساسية للنكسة ليست موجودة في تحليل البيطار . ثـم ان مسؤوليتي هي تجاه القارىء العربي أو الجيل الثوري الجديد الذي يجب أن لا يتلهى به الفكر « الثوري » .

كريم الشيباني

القيادة الناصرية والجماهير العربية

ليس ثمة ما يدعو الى الخلاف أو التناقض ، حول الاستراتيجية والتكتيك ، في خلق الفعل الثوري أو دعمه أو دفعه باتجاه العمق انما يصبح الخلاف والتناقض حول رفض الحقيقة وعدم وعيها · من هذه النقطة أجد الوعي الثوري كله في دعوة نديم البيطار للارتباط بثورة ٢٣ يوليو قاعدة للعمل الوحدوي الثوري في الوطن العربي وأجد بالمقابل في الردود التي قدمها صادق جلال العظم ، البير منصور ، الياس شاكر ، بسام طيبي ، هشام شرابي مجموعة من المواقف التي تتجاهل الواقع العربي وتتجاهل ما فعلته ثورة ٢٣ يوليو في الارض العربية والانسان العربي · ولئن كانت الدعوة للارتباط بها تشكل التعبير الناضج الواعي عما تحسه الجماهير العربية تجاهها ، وعما نعلق عليها من آمال تنسجم مع تطلعاتها نحو الحرية والتغير ، فان الموقف المضاد لهذه الدعوة لا يعني أكثر من أنه الموقف السلبي الذي يسهل اعتناقه والتبشير به · فبينما يؤكد نديم البيطار من خلال نظرة علمية تمكنت من قراءة الواقع العربي ، على القصورات والسلبيات الموجودة في جسد ٢٣ يوليو ، وعلى ضرورة أن يعمل جميع الثوريين العرب للمشاركة في التطوير والتصميد ، وتفويت الفرص أمام الذين يدعون الثورية ، يذهب أصحاب الموقف السلبي الى اتهام البيطار بطرح أفكار تبشيرية لا تملك الحد الادنى من العلمية · ان لنا قبل مناقشة أفكارهم أن نسأل عن الغاية التي يجتمعون كلهم حولها ، وهي اعلان فشل ٢٣ يوليو تجربة وقيادة ، وان اختلفت مسالك الوصول الى هذه الغاية ، لنا أن نسأل : هل الموقف الثوري مع الجماهير أم ضدها ؟ هل التحجر أمام السلبيات يحول دون رؤية الواقع العام وما يتهدده من أخطار ؟ هل يمكن اعتبار حركة المقاومة وجودا منفصلا عن حركة التحرر العربي ؟

اذا كان الجواب بالنفي فهذا بالتأكيد علامة من علامات السقوط الثقافي المروع ، فالثقافة وان وصلت مدها الاعلى لا يمكن أن تكون مع الحقيقة الا بمقدار وعيها قضية الجماهير والالتحام بها ·

ان المرحلة التي يعيشها واقعنا العربي الراهن هي بالتأكيد من أخطر المراحل التاريخية وأحدها عمقا · وهذا يتطلب حسما واعيا في المواقف ، وبخاصة من قبل الطلائع الثورية ، أو الذين يمكن أن يكونوا منها ، أو يدعوها · فالطلائع الثورية مطالبة بفهم عاطفة الجماهير وتحسس قضاياها وبالتالي تعبئتها نفسيا وعاطفيا لصالح المعركة · ان تثوير الجماهير عملية شاقة تتطلب مجهودات كبيرة ووعيا دقيقا · واذا اعتبرنا أن من ردوا على دعوة البيطار من الطلائع الثورية فالى أي مدى يتحقق الوعي الدقيق في مواقفهم ؟

يقول صادق جلال العظم في معرض حديثه عن الوحدة العربية « حقا لقد تم لنا تجربة مثل هذه الوصفة الوحدوية في ذروة صعود حركة التحرر العربية ، وعزها في الوحدة بين مصر

وسوريا . كانت النتيجة فشلا رهيبا . » قبل مناقشة هذا الحكم لا بد من الاشارة الى مفردتين استعملهما صادق جلال العظم ، هما : « الوصفة » و « عز » واذا كان الكاتب ينهج خطا علميا في كتابته ، فانه يستعمل مثل هذه المفردات تعبيرا عن « ضجره » أو ليشعر القارىء بسخف ما لا يعجبه . واذا لم يدرك الكاتب من تجربة الوحدة ١٩٥٨ ، غير الفشل « الرهيب » كما يعبر ، فهذا أبعد ما يكون عن فهم أروع تجربة نضالية في حياة الانسان العربي الحديث . ان ما فعلتـه الوحدة في الارض العربية والجماهير العربية ، لا يمكن أن يجهله أحد . ان سقوط العهد الملكي في العراق ، واندحار المخططات الاستعمارية ، وتعاظم المد الثوري في الجزائر ، وتفجير الوهـج النضالي في نفوس الجماهير العربية ، هذه كلها كانت انعكاسات التجربة الوحدوية واضحة في قسماتها . ولئن انتصرت القوى الاستعمارية والرجعية في ضرب الوحدة ، فانها لم تتمكن مـن أن تجعل الجماهير العربية المناضلة تذعن لحكم الانفصـــال . لقد ازدادت قضية الوحدة تجذرا ، وكانت نتيجتها الانتصار الرائع لان الجماهير لم تتنكر لها ، كما أن السلبيات والاخطاء التي رافقت الوحدة وحكمتها أصبحت معروفة حتى من قبل الجماهير .

ويقول صادق العظم : « ومن أسف ألا يرى نديم البيطار في ثورة ٢٣ يوليو الا عبـد الناصر وقدراته القيادية . لقد أهمل البيطار كل هذه الحقائق لصالح القائد ، البطل ، الفـذ ، العبقري » . أليس تجهيل نديم البيطار مقصودا في هذا الرد ؟ ان أسلوبا كهذا من الخطـأ أن يستعمل في حوارات أو نقديات فكرية . فالجميع يعلم غير ما يرمي اليه العظم ، وأنا واثق من أنه هو نفسه يعلم ، أن البيطار الذي يمتدح الكاتب مؤلفاته ، لا يرى هذه الرؤية ، حتى الجماهير البسيطة عندما أعطت ولاءها الرائع في ٩ و ١٠ حزيران لعبد الناصر ، لم تكن تعنيه هو الشخص ، كانت تعني الصمود الذي يتمثل بعبد الناصر الذي قال للجماهير ، الاشخاص يذهبون لكـن الثورة باقية . ان النظرة التسطيحية ، التهكمية ، التي تحكم الفقرة الثانية من قول الكاتب ، لا تمت الى الموقف الثوري الواعي بأية صلة ، فهي تجاهل متعمد للحقيقة التي تعني الثورة .

وقد أشار البيطار في مقالته الى الذين يتكلمون « كأنني أبني موقف الارتباط الذي أدعو اليه ، على ميزات عبد الناصر الشخصية المجردة ، أو ميزات ثورة ٢٣ يوليو في ذاتها ، أي بشكل مجرد . ولئن دل هذا على شيء ، فانه يدل على أن الاطارات النفسية والعقلية التي ما يزال يعمل فيها هذا الفكر الذي يزعم « العلمية » و « الموضوعية » هي اطارات غيبية ميتافيزيقية تبشيرية . » ويتابع صادق جلال العظم : « في نقده للارتباط الذي يدعو اليه البيطار يقوم بعملية تجن . بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ... لا يمكن أن يكون معنى الارتباط بعد اليوم ، الالتزام بثورة ٢٣ يوليو كمشروع للمستقبل العربي الاشتراكي الوحدوي » .

وأين قضية التجني في دعوة البيطار طالما أنه اعتبر دعوته مرحلية ، ولم يفرض في مقالته الالتزام بثورة ٢٣ يوليو كمشروع للمستقبل العربي . لقد دعا الى ضرورة الارتباط بها في هذه المرحلة كقاعدة للنضال الوحدوي ، وهو موقف يدل على الوعي الثوري ، أما نقضه فيدل عـلى الفوغائية الثورية . فليس ألح من العمل في هذه المرحلة على التلاحم مع ثورة ٢٣ يوليو . ان صادق جلال العظم الذي يطرح « عينة » من المشاريع التي قدمتها ثورة ٢٣ يوليو بعد هزيمة حزيران ، ليس الا مسافرا ضمن ذاتية تفهم النضال والوعي الثوري كلاما وسلبا لا غير اذ يقول ، بشكل عام ، ان ما قدمته المتحدة بعد هزيمة حزيران ليس الا مجموعة من القضايا الاستسلامية : قبول قرار مجلس الامن ... الخ .

ان الثوريين العرب لا يفصلون بين قوى التحرر العربية ، وهم يدركون جيدا التعاطف والتلاحم والامتداد بين ثورة ٢٣ يوليو والقوى التقدمية من جهة وبين حركة المقاومة من جهة ثانية ،والقضايا التي اعتبرها صادق العظم أهم ما جاء في مقال نديم البيطار ، هي الشروط التي ذكرها لتحـول الجماهير وتحوله معها عن الولاء لقيادة عبد الناصر ، ولثورة ٢٣ يوليو ، هذه الشروط هـي : وقوع نكسة أخرى في معركة تحرير فلسطين ، القبول بحل سلمي نهائي ، عجز ثورة ٢٣ يوليو عن تحرير الارض المحتلة في حرب حزيران على الاقل ، تطور المقاومة المسلحة الى حرب شعبية تعزز

قيادة جديدة تستقطب الجماهير • يقول العظم : « نحن نؤكد لنديم البيطار ان هذا قد بدأ يحدث فعلا • » ولماذا يحاول الكاتب أن يعتبر هذه الشروط قد حدثت ؟ ليلغـي الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ؟ انه لم يبين هو نفسه موقفا علميا واعيا من هذه الثورة ، وكما أنه يتهم البيطار باستعمال الاسلوب التبشيري في مقالته فهو كذلك يقع في خطأ كبير نبه اليه البيطار : « ليس هناك أبعد عن الجماهير من هؤلاء المثقفين الذين يتكلمون باسمها • »

أما ألبير منصور في رده على البيطار ، فيتساءل : « وفي نظرة الى الواقع العربي الى ما قبل ١٩٦٧ ، أي قبل حركة الفداء الفلسطينية ، هل كان على الفلسطينيين والعرب أن يلتفوا حول ثورة ٢٣ يوليو ولا يعملوا على انشاء حركة فدائية مستقلة عنها تطمح الى أن تصبح هي القاعدة الثورية في البلاد العربية جمعاء ؟ » الى جانب ما يتصف به هذا القول من جهل لمجريات الامور ، وبخاصة ما يتعلق منها بقضية الفداء ، فان روحا استعدائية تحكمه ، وكأن الوقوف الى جانب حركة المقاومة يعني بالضرورة التنكر لثورة ٢٣ يوليو أو العكس • نتمنى أولا لو أن ألبير منصور فهم نشوء الحركة الفدائية ، وبالتالي لاحق هذا النشوء حتى الان • ان ثورة ٢٣ يوليو بقيادة عبد الناصر تقف الى جانب حركة المقاومة « بدون تحفظ » ، وهي تعتبر حركة المقاومة الرد الطبيعي على العدوان الامبريالي الصهيوني ، كما أنها تعتبرها وجودا يجب دعمه ، وهذا كذلك موقف طبيعي لثورة ٢٣ يوليو التزمت به قبل أن يسمع ألبير منصور بحركة الفداء التي سمح لنفسه بأن يكون ناطقا رسميا باسمها قائلا : « بأنها تطمح الى أن تصبح القاعدة الثورية في البلاد العربية جمعاء • » ان الجماهير العربية التي تدرك ضرورة التلاحم وترى هذا التلاحم بين القوى الثورية في الوطـن العربي وحركة المقاومة ليست مستعدة أن تتعلم ضد ارادتها وأهدافها ، وكل الفكريات التي تريد شق حركة المقاومة عن حركة التحرر العربي ما هي الا خطوط تسير بموازاتها تماما محـاولات فلسطنة حركة المقاومة • ان الحقيقة غير هذا تماما وفصائل حركة المقاومة بلا استثناء تدرك خطورة هذا القول والى أين يريد الوصول •

وفي مكان اخر يقول ألبير منصور : « فالجماهير في سورية منقسمة حول نسبة ٢٣ يوليو الى الوحدوية الصحيحة ، فهذه الجماهير بعد أن خبرت حكم الثورة المصرية طيلة ثلاث سنوات انقسمت على نفسها : منها من يعتقد ان ثورة ٢٣ يوليو هي ثورة وحدوية ومنها من يقول ان ثورة ٢٣ يوليو ثورة اقليمية قطرية مصرية ليس الا ••• » ، ويضيف : « بل لقد ذهب البعض الى حد اتهام هذه الثورة باجهاض الاندفاع الوحدوي في تجربة شاءها الاستعمار مسايرة للخط الوحدوي بقصـد تصفية عناصره الثورية • » ان مناقشة هذا القول والاستنتاجات حول رأي الجماهير العربية فـي سوريا بثورة ٢٣ يوليو وتجربة الوحدة ملزمة بأن تصفه باللااستناد الى أي دليل علمي حتـى يثبت في كتابته هذه الآراء ، وكأنه لا يدرك من هي الجماهير • ان الذين يقولون باقليمية ٢٣ يوليو ومصريتها ليسوا من الجماهير العربية في سوريا ، انهم من ألد أعدائها •

الرجعية تقول هكذا ، هل الرجعية من الجماهير ؟ والذين ارادوا الوحدة من أجل الحكـم اتهموا ثورة ٢٣ يوليو ، وهؤلاء تجار سياسة ولا علاقة للجماهير بهم • الجماهير هي التي قاتلت أيام الانفصال من أجل الوحدة ، والجماهير هي التي دعمت ثورة الثامن من اذار ١٩٦٣ من أجل اعادة الوحدة • الجماهير تبقى المعلم ، ولكي يعرفها المثقفون عليهم أن يعيشوا معها • ويعتبـر ألبير منصور « أن التجربة الثورية الجديدة بالنسبة الى لبنان يجب أن تنطلق من رفض المسلمات الثورية المعتمدة في الاقطار الاخرى وهي :

- الوحدة ثورية في ذاتها ونضال ثوري لانه نضال وحدوي ،

ـ لا يمكن تحقيق الاشتراكية الا في ظل الوحدة

ـ الوحدة شرط الحرية الفعلية والتحرر من التبعية والاستعمار • »

ان مناقشة هذا القول ليست ضرورية ، لانها ـ أولا خارج نطاق الرد على البيطار • قد يكون هذا سببا ضعيفا ، لكنها واضحة المنبت والهدف الى درجة العري •

أما الياس شاكر فلم أتمكن من فهم أي شيء في رده ، سوى تركيزه على نقد ضرورة القيادة المشخصنة التي قال بها البيطار ، واعتبره الياس شاكر داعيا الى ضرورة الدولة الفاشية المشخصنة ، « ويصبح الولاء للقائد هو الولاء للدولة وبالعكس » •

ان البيطار لم يدع البتة الى الارتباط الغيبي بجمال عبد الناصر • لقد دعا الى الارتباط بثورة ٢٣ يوليو بقيادته • ان هذا التجاهل المتعمد لاهمية القائد الثوري أيا كان موقعه لا يدلل على الايمان بالجماهير • كما أن القبول والتفاعل بوجود وأهمية القائد الثوري لا يعبران عن ضدية تجاه الجماهير • ان في العلاقة بين الجمهور والقائد الثوري تتواجد كل شروط التفاعل والاكتساب بين الطرفين اللذين يتحركان في وجود واحد •

أما بسام طيبي فيتهم مقالة البيطار بأنها تبرير للناصرية وكأنها جريمة في الارض العربية يقول : « قبل أن أدخل في النقاش علي أن أبين للقارىء أنني لست من النقاد التقليديين للناصرية ، اذ أنني كنت شخصيا وحتى قبل حوالي السنة ناصريا ، بل انني ذهبت في أحد أبحاثي الى درجة الشطط اللاعلمي باعتباري عبد الناصر قدوة للثوري العربي الشمولي • وفي بحث اخر قيمت به هزيمة حزيران علقت امالا كبيرة ، لم يكن لها أي أساس علمي ، على التطورات التي حدثت في الجمهورية العربية المتحدة ووصفتها ـ خطأ ـ بالجذرية • يلاحظ من هذه الاشارات لابحاثي السابقة ، والتي أرغب أن أتبرأ منها هنا (ليس كليا وانما فيما يتعلق بتقييم الناصرية وحده) بأنني لا أنطلق في نقدي للناصرية من كره لشخص عبد الناصر أو لانتفاضة (ولا أقول ثورة) ٢٣ يوليو ، بل ان عواطفي على العكس تميل لكل من الشخص والانتفاضة وأنا أجد صعوبة في التخلص من هذه العواطف للانتقال الى مستوى التحليل العلمي ، وكلما كان نجاحي في هذا الانتقال أكبر ، ازداد رفضي للناصرية شدة • »

أردت قصدا أن أسجل هذه المجموعة من الكلمات والاراء لبسام طيبي ، لاكثر من سبب ، لانها تشكل معظم رده تقريبا ، ولان أسلوبية هذه الكتابة حديثة ومفيدة في كشف التجربة الخاصة أمام الوجود العام ، أملا في التفاعل • ولهذا أسجل الملاحظات التالية : وهي أن بسام طيبي لم يقدم في رده أي نقد للناصرية • كل ما قدمه هو انه نقد نفسه حتى وهو يقول في كتاباته عن اعتماد الاسلوب العلمي نجده أمام قضية اختيار مصيرية • ان كل موقف للثائر هو موقف مصيري • يقول : بأنه « يرغب أن يتبرأ » • هذا القول يذكر بالعلاقات السائدة التي ينقدها بسام وبعلاقة بعض الشعراء المتهنين الشعر ، ببعض قصائدهم •

في رد هشام شرابي وجدتني أمام خطبة حماسية محكومة بالتناقض أكثر مما هي نقد لمقالة البيطار • يقول شرابي : « لا شك أن عبد الناصر هو الرجل القائد المؤهل للقيادة لكن ليس لانه عبد الناصر وحسب • وليس لانه « خيرة الموجودين » بل لانه المسؤول الان عن الاتجاه السياسي في مصر ولانه سار بمصر في الموكب المصيري العربي • سياسته هذه هي التي دفعت الجماهير الى مساندته ودعمه ، لا دعم الجماهير له أدى الى هذه السياسة • » أريد أن أسأل ولو كنت لا أرغب في مثل هذا النقاش من هم القادة الموجودون الافضل من عبد الناصر ؟ اننا جميعا نقع في أخطاء كثيرة نتيجة تعصب يحدد نظرتنا ويوقعنا في منزلقات لا تفيد قضيتنا بل تفيد العدو • ما ضرر أن يكون عبد الناصر قائدا للثورة العربية في المرحلة الحالية ، هل هذا لصالح العدو ؟ أم لصالح فلسطين ؟ ما ضرر أن تتلاحم كل القوى الثورية العربية من أجل التحرير والعودة ؟ ان الجماهير

التي تتطلع الى قيادة عبد الناصر تتطلع الى حركة المقاومة ، والجماهير تعطي ولاءها ودعمها لثورة ٢٣ يوليو ولقيادة عبد الناصر وللحكومات التقدمية ولحركة المقاومة ٠

ان حركة المقاومة جزء من حركة التحرر العربي ، واذا كان هذا الجزء يتوقد ويتوهج باتجاه تصعيد الثورة فان حركة التحرر العربي بما تمثله من ثورات وتنظيمات هي في الوقود والوهج ٠ ان الامبريالية والصهيونية والقوى المتحالفة معهما تعمل كلها على شق حركة المقاومة عن حركة التحرر العربي وبالتالي تريد ــ فلسطنة ــ قضية المقاومة ٠ ويضيف هشام شرابي « بأن قضية عبد الناصر وقضية مصر أمر مهم ، لولاهما لوقعنا فريسة الامبريالية والصهيونية الاميركية من زمان ٠ » ويتابع « يجب اعادة المحبة والثقة في اليسار العربي نحو عبد الناصر وما يمثله ، يجب الاعتراف بمكانة عبد الناصر ومقامه في قلوب الجماهير وتقوية هذا المقام لكن ليس على حساب الثورة القائمة ٠ »

هذا الرد ، كما قلت ، خطبة حماسية محكومة بالتناقض واحيانا التناقض « المتسنر » ٠ ان الانفصالية أو الدعوة اليها تظهر في قول شرابي ، حين يحذر من ألا يكون الاعتراف بقيادة جمال عبد الناصر على حساب الثورة القائمة ٠ وفي رأيي أن التفكير بمثل هذا القول جهل لموقف الجماهير العربية ونضالاتها ٠ ان أيا من الجماهير العربية لا يمكن أن يفكر بأن الوقوف الى جانب عبد الناصر يعني المعاداة لحركة المقاومة ٠ فهذا أمر ليس من ايمان الجماهير ولا قولها ان الجماهير هي المعلم ٠ وهي سترفض قيادة عبد الناصر حين يقف ضد الثورة ، وترفض حركة المقاومة حين تتقاعس عن التحرير ، وفي كلا هذين الاحتمالين « اللاعلميين » نسف كامل للوجود العربي المتحرك باتجاه الثورة والوحدة ٠

صلاح جحا

دور البورجوازية الصغيرة في معركة التحرر الوطني

« نحن ضد اي صراع شخصي او طائفي او فكري لا يكون من شانه ان يضيف الى المعركة وانما ياخذ منها . »

جمال عبد الناصر
٢٣ تموز ١٩٦٩

رغم ايماننا بانه لا يجوز ان يرتفع صوت الآن فوق صوت المعركة ، فاننا نرى انه لا بد من وقفة تأمل عند أقوال فئة من المثقفين ترفع شعار النقد الذاتي ، بينما هي تهدف الى اسقاط قيادة الثورة العربية الناصرية وارث جماهيرها . هذا الهدف اصبح مكشوفا ، لذلك رفضت جماهير امتنا تفسيراتهم وتحليلاتهم لأنها هروب من مجابهة مشكلات معقدة تطرحها ظروف امتنا العربية ، الى مخابىء غريبة عن واقعنا وتراثنا ومشكلاتنا . وتبدأ المأساة حين يحاول هؤلاء اعادة صياغة نفوسهم حتى تلائم المخبأ ، او اعادة صياغة المخبأ حتى يلائم نفوسهم .

لماذا ، اذن نريد الوقوف والتأمل ؟

ان جماهير الامة العربية متجهة الآن بانظارها الى معركة المصير والنصر ، لا تزحزحها عن وقفتها سفسطة مثقف ، أو يساري طفولي لكن الوقوف اصبح واجبا والرد محتما حين راحت فصائل هؤلاء المثقفين تتستر بقضية فلسطين وتنشر آراءها باسم الكفاح من أجل تحرير فلسطين .

الرد ، اذن ، ضرورة .. لا لمهاجمة اليسارية الطفولية وفتح نقاش معها يمهد لمعركة كلامية جانبية ، بل للاجابة عن أقوالها ، ومن ثم سد الطريق على محاولتها لخلق معركة جانبية ودفعها الى مواقع المعركة الرئيسية .

يمكن تلخيص آرائهم فيما يلي :

١ ـ ان القوة القائدة للثورة العربية الناصرية هي البورجوازية الصغيرة ، وهذه الطبقة عاجزة عن النضال كما اثبتت ذلك معارك حزيران سنة ١٩٦٧ .

٢ ـ ان تجاوز النكسة لن يتم الا باقصاء القيادة الحالية للثورة العربية ، وابدالها بقيادة ماركسية ـ لينينية تقود نضال الكادحين من عمال وفلاحين وذلك باسلوب حرب تحرير طبقية شعبية .

حول هاتين النقطتين تدور التعليقات والتحليلات ونحن نسلم بان قيادة الثورة العربية

الناصرية هي البورجوازية الصغيرة ، لكن المهم هو ما قالته الماركسية ومن ثم اللينينية عن البورجوازية الصغيرة ، وما يقوله المتمركسون عن البورجوازية الصغيرة باسم الماركسية وباسم اللينينية •

ان ما يقوله الفصائليون واضح من النقطتين الواردتين • فماذا تقول الماركسية الحقيقية واللينينية الأصيلة ؟

يظهر لنا بشكل عام ان كافة المدارس الماركسية تعتبر أن النضال ضد الاستعمار والامبريالية يتطلب تحالفا بين العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة والوطنية ضد تحالف الاستعمار وعملائه الاقطاعيين ، والبورجوازية الكبيرة اصحاب المصالح المرتبطة بمصالح الاستعمار • وعلى هدي هذا ، تحالف ماوتسي تونغ والشيوعيون الصينيون مع حزب الكومنتانغ الممثل للبورجوازية الصينية الذي يتزعمه تشان كاي تشك ضد الاستعمار الياباني ابان الحرب العالمية الثانية • والشيء نفسه يظهر في الفئات المشكلة لجبهة التحرير الوطني الفيتنامي – فيتكونغ – التي تحارب عدوان اميركا الوحشي •

هذا اسلوب عمل الماركسيين الاصليين مع البورجوازية الصغيرة ، فما هو الاساس النظري او المفهوم الماركسي الاصيل للبورجوازية الصغيرة •

من خلال الفلسفة المادية توصل ماركس الى نظرية الطبقات والصراع الطبقي على اسس ملكية وسائل الانتاج • والصراع ممتد عبر مراحل تاريخية في كل منها طبقتان رئيسيتان • ففي المجتمع العبودي هناك طبقة مالكي العبيد وطبقة العبيد وفي المجتمع الاقطاعي طبقة اقطاعيين وطبقة من الفلاحين • وفي المجتمع البورجوازي طبقة الرأسماليين والطبقة العاملة • هذه هي الطبقات الرئيسية في كل مجتمع عبر مراحل التاريخ لان احداها تملك وسائل الانتاج ملكية خاصة ، بينما الاخرى تعمل ولا تملك • والميزة الاساسية لهذا الانقسام بين الطبقتين الرئيسيتين هي التناقض العدائي • هذا قول الماركسية عن الطبقات الرئيسية • لكن هذا لا ينفي وجود طبقات بجانب تلك الرئيسية • ففي ظل المجتمع العبودي كان هناك الى جانب الطبقتين الرئيسيتين الفلاحون والتجار ، وفي ظل الاقطاع وجد المثقفون والتجار والفلاحون الاحرار والحرفيون •

اما البورجوازية فهي الطبقة التي نشأت في قلب الاقطاع باسلوب جديد في الانتاج الصناعي غير المعد للاستهلاك الخاص ، بل من اجل البيع وتحقيق الربح • ثم لا تلبث الطبقة البورجوازية ان تقضي على الاقطاع بثورتها الصناعية وتحرر الفلاحين لتسد بهم حاجتها الى العمال في المصانع • البورجوازية تملك المصانع والعمال يعملون ولا يملكون ، فتتألف طبقتان رئيسيتان متناقضتان من جديد في مجتمع رأسمالي او بورجوازي وكما في سواه توجد ايضا طبقات الى جانب الطبقتين الرئيسيتين مثل المثقفين والبورجوازية الصغيرة وغيرها • فما هي البورجوازية الصغيرة بالمفهوم الماركسي المحدد ؟

في المجتمع البورجوازي الرأسمالي هناك طبقة البورجوازيين (الرأسماليين) مالكي وسائل الانتاج ، وطبقة العمال العاملين دون ان يملكوا • هاتان هما الطبقتان الرئيسيتان • لكن في الوقت نفسه توجد طبقة تشمل الفلاحين العاملين في ارضهم ، وصغار التجار ، والفنيين والحرفيين الذين يملكون ادوات الانتاج الصغيرة ملكية خاصة ، لكنهم يعملون بانفسهم ولا يستغلون عمل غيرهم لذلك هم بورجوازيون من حيث انهم يملكون وسائل الانتاج ، وهم عاملون من حيث انهم يعملون بانفسهم ولا يستغلون عمل الآخرين • هذه الطبقة هي البورجوازية الصغيرة التي تمثل القطاع الأدنى من البورجوازية ، الذي بدوره يكون حلقة الاتصال بين البورجوازية والطبقة العاملة •

اما ما يقال عن تأرجح وتردد وعدم قدرة البورجوازية الصغيرة على قيادة الجماهير ، فذلك محصور ، بحسب الماركسية ، بالصراع الاجتماعي الطبقي وليس بالصراع التحرري كما يحاول مدعو الماركسية القول • تقول الماركسية انه في الصراع الطبقي بين البورجوازية والعمال يحصل

تردد في طبقة البورجوازيين الصغار • فالبورجوازية الصغيرة تعاني من قهر البورجوازية الكبيرة ، فتقف موقفا ثوريا مع الطبقة العاملة وتندفع نحو صفوف البروليتاريا • ولكنها من ناحية أخرى لا تريد للصراع ان يصل الى غايته فيلغي الملكية الخاصة ووسائل الانتاج ، لان ذلك سيجردها مما تملك • فالنتيجة انها طبقة تحارب الثورة ، واذا اضطرت اليها فانها تتراجع وتتآمر وتخونها في انها لا تدعها تصل الى غاياتها •

وهذا ما تقوله الماركسية حول الصراع الدائر على مضامين الملكية الخاصة لوسائل الانتاج • اما اذا دار الصراع حول مفاهيم التحرر والقومية والوحدة فهذا لا ينطبق عليه تفسير الماركسية حول الصراع على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج • هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فان ذلك يصبح باطلا كليا في غير المجتمع الرأسمالي • فاين هو المجتمع الرأسمالي البورجوازي في الجمهورية العربية المتحدة ؟

لمصلحة من يشاد السد العالي وتقام مصانع الحديد والصلب وغيرها من الصناعات الثقيلة ؟ أليس ذلك كله عائدا الى مجموع العاملين الكادحين في الجمهورية العربية ؟ أليس استصلاح الارض الزراعية عائدا بالخير على الفلاحين المعدمين ؟ ام هل يصنف كل ذلك بانه لمصلحة البورجوازية ؟

قد يقال : لماذا اذن خسرت الجمهورية العربية المتحدة عام ٦٧ وبتلك الصورة ؟ ان ابسط جواب يقال في هذا المجال هو ما كانت عليه الحالة قبل عام ٦٧ بوجود دولتين في مصر : احداهما دولة الثورة العربية الناصرية ، صاحبة الانجازات ، والأخرى دولة مراكز القوى التي كانت بغير شك عائقا دون تنفيذ مزيد من انجازات دولة الثورة العربية الناصرية ، وعاملا مساعدا لقوى الثورة المضادة • ان ذلك بحث قائم بذاته • ثم يبقى هناك تساؤل اود طرحه : كانت روسيا بلدا للبروليتاريا حين غزاها هتلر ودمر جيوشها واستطاع الوصول الى مشارف موسكو ، ولم تكن هناك بورجوازية صغيرة ، فما التفسير لذلك ؟

لكن التحليل لم يقتصر على الجمهورية العربية المتحدة بل تعداها حتى وصل الى فلسطين واستحالة تحريرها بواسطة البورجوازية الصغيرة وضرورة قيام حرب طبقية لتحريرها يتزعمها الماركسيون اللينينيون • والعجب هنا في الكلام على الطبقات ان وجودها بحاجة الى مجتمع قائم ، فيه مالكون لوسائل الانتاج وعاملون لا يملكون وسائل للانتاج • والمجتمع بدوره لا يقوم في الخيال بل على ارض وفي وطن • ومشكلة فلسطين في الاساس هي انها ارض مسلوبة ووطن يجب ان يستعاد • فهل هذا تفسير ماركسي ؟

ومع لينين تطور مفهوم الصراع الطبقي في المجتمعات التي تخوض معارك التحرر الوطني • ورأى لينين ان البورجوازية الصغيرة وحتى البورجوازية ، بغض النظر عن كونهما قوى مضادة في الثورة الاشتراكية ، قد تكونان قوة مناضلة في معارك التحرير • كما رأى ان القومية التي هي في الماركسية التقليدية رمز للرجعية المضادة للاممية البروليتارية ، قد تصبح الحافز الفعال في النضال ضد الاستعمار • ولقد اكد لينين بان الامبريالية لا تقهر فقط العمال في بلادهم ، بل تقهر البورجوازية في البلاد الصغيرة حين قال : « ان البورجوازية القومية في كل أمة مقهورة ذات محتوى ديمقراطي عام موجه ضد العدوان الخارجي ، واننا لنؤيد هذا المحتوى تأييدا غير مشروط » • كما قال : « لا تزال البورجوازية في آسيا قادرة على ان تخوض الصراع الصلب المخلص من اجل التحرير » • ان لينين لم يحدد في قوله هذا اذا كانت قيادة معركة التحرير معقودة للبورجوازية الصغيرة ام لغيرها ، وكل ما قاله هو تأييد البورجوازية الصغيرة تأييدا غير مشروط في معارك التحرير التي تخوضها •

على هذا الاساس الماركسي اللينيني الحقيقي غير المزيف نرى ان البورجوازية الصغيرة ، اذا سلمنا جدلا بوجودها ، قادرة على خوض المعارك القومية التحررية باخلاص وصلابة دونما تذبذب او تراجع • وهذا يبطل منطق مدعي الماركسية ـ اللينينية حين يشترطون قيادتهم للنضال القومي باسم الماركسية ـ اللينينية • بل انه يصبح من واجب كل ماركسي لينيني حقيقي تأييد

البورجوازية الصغيرة في كفاحها ومساندتها كما يفعل الاصلاء منهم في العالم تجاه قضيتنا وكافة قضايا التحرر الوطني في العالم · ان عزل البورجوازية الصغيرة مردود باسس ماركسية لينينية ·

ان هذه الاقوال كلها تؤكد ما نقوله نحن الناصريين من أن معركتنا ضد الاستعمار والصهيونية معركة كل عربي ، وساحة النضال والمشاركة مفتوحة لجهود كل الفئات · واذا كانت الظروف الاقليمية الحاضرة وغياب التنظيم القومي الثوري الشامل يجعل كل اقليم عاجزا عن القيام وحده بالتحرير ، فان مهادنة الرجعية وحثها على وضع ما يمكن ان تضعه من اجل المعركة دون رفعها الى مرتبة القيادة بالمعركة ليبقى عملا صحيحا واعيا · ان تحالف الثورة العربية المرحلي مع الرجعية هو تجنب للمعارك الجانبية وحشد لكل ما يمكن حشده للمعركة ، كل ذلك بقيادة الثـورة العربية وليس بقيادة الرجعية ·

ان الثورة العربية بقيادتها الناصرية استطاعت بناء جيشها من جديد وفقـا لأسس علمية وتكنولوجية واضحة استطاعت بها اغراق قطع الاسطول الاسرائيلي باقتدار ، ودك خـط دفاع « بارليف » بكفاءة وجدارة ، واخيرا استطاع الطيران العربي أن يصل الى اعماق سيناء ، ويعـود بسلام مخلفا وراءه الويل والدمار ، كل ذلك باعتراف العدو نفسه قبل الصديق · ولقد استطاعت هذه الثورة ان تقيم اقتصاد حرب يرتكز على قاعدة صناعية ثقيلة ، وان تبني الجيش الشعبي من اجل معركة التحرير والنصر ·

ان معركتنا المصيرية قائمة على مرحلتين : الأولى هدفها ازالة اثار العدوان وذلـك يقتضي جبهة عريضة تضم الاقليمية « التقدمية » والاقليمية الرجعية ، شرط ان لا تقود ، في عملية دفاع وردع لان القدرة الاقليمية لأي خطر عربي محدودة · اما المرحلة الثانية وهي ازالة دولة اسرائيل فلن تكون الا بوحدة بين الدول المحيطة باسرائيل على الأقل او بوحدة عربية شاملة من المحيط الى الخليج قادرة على التصدي للنظرية بالنظرية وللاستراتيجية بالاستراتيجية وللتكتيك بالتكتيك تحميها وتساندها جماهير قوى الشعب العربي العامل من المحيط الى الخليج ·

جلال صابر

ثورة ٢٣ يوليو :
بورجوازية صغيرة أم بورجوازية بيروقراطية

يحتوي العدد السادس من « مواقف » مجموعة من المقالات تعالج ثورة ٢٣ يوليو المصرية ، وقد تخلل المقالات جملة من المفاهيم الجزئية الخاطئة ، بالاضافة الى المنهج الشكلي غير الجدلي وغير التاريخي الذي وقع فيه جميع الكتاب .

وسوف أتعرض لهذه المفهومات ، من وجهة النظر الماركسية ، خلال مناقشتي لمقالات العدد المذكور من « مواقف » ، ولكني سأركزه بشكل خاص ، على ذلك التصور غير العلمي عن دور البورجوازية الصغيرة « الحاكمة » .

والواقع انني كنت أنوي الرد على هذا الاتجاه « الشائع » حاليا ، وقد هيأ لي العدد الأخير من « مواقف » الفرصة الملائمة .

أول ما يلفت الأنتباه ، في دراسات العدد الماضي ، ان معظمها كان ردا على مقالة نديم البيطار ، أكثر منها محاولة لتحليل ثورة ٢٣ يوليو . وهكذا ، بقيت المسألة الاساسية دون حد أدنى من المعالجة العلمية التاريخية ، وتحولت القضية الى قضية الارتباط بثورة ٢٣ يوليو أو عدم الارتباط ، الارتباط بالناصرية ، أو بالمقاومة الفلسطينية وبالآفاق الجديدة التي تفتحها ، ومن ثم ، الى الكشف عن التناقضات المنطقية والطابع المثالي الاخلاقي التبريري لمقالة البيطار . ويبدو ان البيطار كان مادة دسمة ، من هذه الزاوية ، لعدد كبير من المتناقشين معه : فقد تعرض صادق العظم في مقالته « خمس ملاحظات » ، لانتقائية البيطار التي تجلت « في ذكر العلماء والمدارس الفكرية والاستشهاد بمختلف الآراء المتضاربة والمتناقضة احيانا ، تطغى على كتاباته بشكل غريب ومزعج ، حتى اننا نجد ان كتابا من أقصى اليمين الرجعي الى أقصى اليسار الماركسي مثلا يصلحون دوما لتأييد الافكار التي يطرحها البيطار » ، كما استطاع ان يكشف عن مثاليته الاخلاقية والطابع التبريري لافكاره التي تكرس ، على طريقة ليبنتز ، العالم العفن القائم ، باعتباره أفضل العوالم الممكنة .

ولكن صادق العظم أثناء محاولته تقديم الارتباط بالمقاومة الفلسطينية ، باعتباره البديل الثوري الحقيقي عن الارتباط بثورة ٢٣ يوليو ، كان يغلب على دراسته طابع السرد والتقرير بدل التحليل العلمي ، بالاضافة الى وقوعه في التصور الشائع ، عندما اعتبر النظام الناصري ممثلا « للبورجوازية الصغيرة عامة والبورجوازية الصغيرة العسكرية على وجه التحديد » .

أما البير منصور ، فقد كشف لنا في رده « نحو الارتباط بثورة دائمة » على البيطار ، عن المصادر الفكرية المكيافيلية التجريبية « الموجهة » لمقالته . ولكنه اعتبر رده على البيطار « مناسبة لنقد الفكر الالتصاقي الميكيافيلي عامة وتوضيح منزلته من الفكر الثوري العلمي وكشف ادعائـــه للعلمية والموضوعية عنحقيقة تصوره في فهم الواقع ،وكشف ادعاء فعاليته وعنحقيقة استسلاميته».

والواقع ان مقالة البير منصور ، تمتاز ، بشكل عام ، بالعمق من الناحية الفكرية ، رغم عدم تعرضه لتحليل ثورة ٢٣ يوليو ، وهو يتابع قائلا : « الالتصاقية والميتافيزيقية سواء في عدم فهم الواقع وخاصة الواقع التاريخي : الالتصاقية تتجاهل مستوياته وترابـــط هـــذه المستويـات ، والميتافيزيقية تقلص هذه المستويات في مستوى واحد ... اما الفكر العلمي فينظر الى الواقع في تعقيده وتعدد مستوياته وترابطها في وحدة ابعاده الموجودة والممكنة » ويستخلص في النهاية ، بان مقالة البيطار غارقة في الشكلية وهي ليست سوى « فذلكة بتطريز تاريخي » . ثم يبين كيف ان البيطار يريد أن يقودنا الى الاعتقاد بان « الوحدة ثورية في ذاتها » بينما مطلب الوحدة « يقرره مضمون النضال الاشتراكي التحرري » . والحقيقة ان الوحدة العربية التي ستفرضها الضرورة التاريخية الملحة ، ليست وحدة أجهزة ، وبورجوازيات متخاذلة ، كما يريدها البيطار ، بل هـــي وحدة الكادحين العرب . أما المأخذ الاساسي ، في مقالة البير منصور ، ففي انه لا يعتبر أن الجماهير تصلح مقياسا للحكم على طبيعة أي نظام أو مرحلة تاريخية معينة ، ويضع ، بالمقابل ، تناقضـا دائما بين « تجارب التاريخ ومقياس حكم الجماهير » .

ولكننا نعتقد ، انه حتى في حالة غياب الحزب الثوري ، فان التناقض الذي قد ينشأ هنا ، بفعل عوامل عديدة ، لا مجال لذكرها الآن ، هو تناقض آني عندما نجد ، على سبيل المثال ، الكثير مـن أبناء الطبقات الشعبية يقعون تحت تأثير أفكار وعادات عقلية واخلاقية ومجموعة ممارسات معينة ، لا تتفق مع مصالحهم الحقيقية ، بل تعمل على تجميد الأوضاع الاستغلالية والسياسية السيئة التي يعيشون في ظلها . والجدير بالملاحظة ، ان هذه الجماهير الشعبية نفسها ، في النهاية ، هي التي ستكشف الخداع والديماغوجية التي جرتها عليها القوى الاجتماعية والطبقة المستغلة ، وذلك من خلال الممارسة اليومية المتكررة . كان برودون يدرك حقيقة ان الناس ، مثلا ، ينتجـــون القماش لكنه عجز عن ادراك ان الناس ينتجون كذلك العلاقات الاجتماعية التي يصنعون في وسطها القماش. فبرودون يرى ان الصور المجردة والمقولات هي العلة الأولى وانها هـي ، لا النـاس ، التـي تصنع التاريـــخ !

يركز الياس شاكر ، في مقالته « كيف نفهم ثورة ٢٣ يوليو » بشكـل اساسـي ، على نقد المفهوم المثالي الفاشي عن الدولة عند البيطار الذي يعتقد « ان الدولة تبرز نتيجة قـوة خارجيـة ، تفرض في ابتداء الأمر على الأفراد أن يتحدوا رغم ارادتهم » ، بينما الدولة ، في المفهوم العلمي التاريخي ليست سوى « جهاز قمع لصالح الطبقة الحاكمة » .

والبيطار في حديثه عن الدولة الفاشية المشخصنة ، يخدم بشكل موضوعي شاء ذلك أم أبى ، وجهة النظر البورجوازية البيروقراطية الفاشية في مصر . يقول الياس شاكر عن حق « ... ان اليمين الفاشي يشعر بالحاجة نفسها الى قائد يكون رمزا للدولة ، ويدعي تمثيل الأمة بكافة طبقاتها بقصد تغطية التناقضات وتجميد ازمة الطبقة الحاكمة وبخاصة في الفترات الثوريـــة . ان القائد الثوري هو عقل الثورة ، أما الزعيم الفاشي فليس سوى مرضها النفسي .. »

مفهوم الطبقة والتحليل الطبقي

ويحاول بسام طيبي في مقالته « المنهج والخطأ » أن يحصر أسباب انحطاط مستوى الكتابات السياسية العربية في « افتقارها الكلي الى الادوات العلمية التي تشكل أسس كل كتابة تريد ان تكون جديدة » . وبعد أن يتحدث عن شجونه الشخصية وميوله العاطفية ، يعتبر أن مصدر الخطأ

عند البيطار منهجي ، كأنما يكفي البيطار وسائر مفكري البورجوازية الوطنية امتلاك أدوات التحليل السليمة والمنهج العلمي الماركسي حتى يقدموا لنا الوقائع والحقائق بموضوعية علمية ولصالح الطبقة العاملة ٠

ان الحكم على أفكار معينة ليس رهنا بنية هذا المفكر أو ذاك أو نتيجة افتقاره الى الادوات العلمية ، بل يتعلق بصراع القوى الاجتماعية ، وفي هذه المرحلة التاريخيـــة الراهنة من صراع القوى الوطنية والطبقية اين يصب ، بشكل موضوعي ، تمجيد البيطار للناصرية على هذه الطريقة ؟ من تخدم هذه الافكار اليمينية المثالية : البورجوازية الحاكمة أم الحركة الشعبية ؟ وذلك بصرف النظر عن تحويل بسام طيبي للمسألة الى تصور في تملك « ادوات التحليل العلميـــة » ، أو الى مسألة خطأ عابر من البيطار « المتمسك بالعلمية » ، يمكن التخلص منه عن طريق ممارسة النقد الذاتي ! يقول بسام طيبي : « ٠٠٠ ان تديم البيطار المتمسك بالعلمية سيجد نفسه مضطرا لأن يبرهن عن قدرته على ممارسة النقد الذاتي » ٠ وعلى الرغم من ادراك الكاتب أن البيطار لم يتفهم « الأطر الطبقية والاجتماعية لانتفاضة ٢٣ يوليو البورجوازية الصغيرة » فانه يقـــدم لنا بالمقابل مفهوما ساذجا وغير محدد عن الطبقة والتحليل الطبقي يقول : « عندما كتب البيطـــار في كتابه « من النكسة الى الثورة » انه يرفض استعمال التحليل الطبقي « كوصفة » لتفسير كل الظواهر الاجتماعية ، شأن الماركسيين ، وافقته دون تحفظ ، اذ ان هذا الأمر يعني تحويل الماركسية الى ماركسية مبتذلة ، اذ ان التحليل الماركسي للمجتمع أكثر تعقيدا من أن يلخصه الانسان بوصفة التحليل الطبقي » وهو يلتقي في فهمه لهذه المسألة ، من الناحية الجوهرية ، مع صادق العظم الذي يقول بقليل من الحذر : « غير ان التحليل الطبقي في هذه المجالات يبقى مقولة جذرية في فهم الواقع الاجتماعي فهما علميا ، واداة رئيسية من ادوات تحليله والتحكم فيه » ٠ ونظرا لأهمية هذه المسألة ، التي تعرضت وتتعرض اليوم ، لكثير من اللبس والغموض والتجنيات المتعمدة ، اجيب بمـا يلـي :

اولا ، ليس التحليل الطبقي « وصفة » لان هذا تناقض في التعبير بل هو تحليل علمي بكل معنى الكلمة ، وهو ، ليس « مقولة جذرية » أو « اداة اساسية » فحسب ، بـــل انه التحليل الجوهري الاساسي والاداة الوحيدة في كل مجتمع طبقي ٠

ثانيا ، ان المفهوم الذي يقصر التحليل الطبقي على المسائل الاقتصادية وبعــض النواحي السياسية ، هو نفسه المفهوم المبتذل الفظ عن الماركسية ٠ ان مثل هذا التصور الخاطيء ـ وان لم يصرح به قائله مباشرة ـ قد يعني ان التحليل الطبقي يهتم ، بشكل أساسي ، بالمسائل الاقتصادية ، بينما الجوانب السياسية وشتى المستويات الأخرى من الواقع الاجتماعي ، من شأن المهام السياسية للديموقراطية البورجوازية ، أو سواها ، ومفهومها للعالم ٠

ثالثا ، ان مفهوم الطبقة لا يقتصر على الجوانب الاقتصادية والسياسية ٠ ان الطبقة هي وجهة نظر عامة تجاه العالم ، أي الى المجتمع والتاريخ والانسان والاخلاق وشتى المستويات الأخرى ٠

رابعا ، ليس التحليل الطبقي نظرية منعزلة عن المنهج العام للمادية التاريخية ٠ فان ما يميز المادية التاريخية ، عن العلوم الاجتماعية الأخرى ، هو ان تلك العلوم تدرس مجالات منفصلة في الحياة الاجتماعية ، بينما المادية التاريخية تتناول المجتمع في مجموعه وتكشف عن قوانينه العامة وعن عملية التفاعل والروابط المختلفة للحياة الاجتماعية ٠

يقول لينين : في « مصادر الماركسية الثلاثة واقسامها المكونة الثلاثة » : « ٠٠ وقد أوضحت الماركسية بفضل دراستها لمجموع الاتجاهات المتعارضة وارجاعها ، على وجه الدقة ، الى ظــروف الحياة والانتاج المحددة لطبقات المجتمع المختلفة وتنحيتها النزعة الذاتية والعشوائية عنـد انتقائها للافكار « الموجهة » المتعددة ، أو في تفسيرها وكشفها عن كل الافكار ، كل الافكار المختلفة ، دون استثناء لها جذورها في ظروف القوى المادية للانتاج ، أوضحت الطريق الى دراسة شاملة تستوعب عملية نشأة التكوينات الاقتصادية الاجتماعية وتطورها وتدهورها » ٠

ويقول في نقده لعلم الاجتماع عند النارودنيك الروس : « ان السيد استروفه على حق تماما حينما يقول ان نظرية الصراع الطبقي تتوج المسعى العام لعلم الاجتماع لارجاع العناصر الفردية الى اصول اجتماعية » • (من هم اصدقاء الشعب ؟ : لينين)

القوانين والظروف

يمكن تلخيص مقالة هشام شرابي ، « من ثورة ٢٣ يوليو الى الثورة الفلسطينية » ، والتي يغلب عليها طابع التقرير والعمومية ، في هذه الفكرة الاساسية الصحيحة : يجب الانطلاق من الثورة الفلسطينية ، طليعة الثورة العربية • ولكنه في دحضه لادعاءات البيطار ، الذي لا يتمتع بأي حس تاريخي حقيقي ، رغم ترديده اللفظي المتكرر « للقوانين » « وتجارب التاريخ » ، يحاول شرابي أن ينكر ان الثورة علم ، كما انه ينكر وجود القوانين (الاجتماعية) بوجه عام ، يقول : « •• ومن يقول ان هنالك « قوانين » للثورة (اكتشفها هو) ؟ وهو (أي البيطار) يقــول : « العلوم الاجتماعية الحديثة » تؤكد ذلك • ولئن أكدت العلوم الاجتماعية الحديثة شيئا ، فانما هو سخف نظرية « القوانين » التي ابتكرتها مخيلات الكتاب والمؤرخين السابقين (والحاضرين) • »

واعتقد ، أن هشام شرابي في ترديده مثل هذه الافكار ، يعبر بدرجة أو بأخرى ، عن وجهة نظر هيوم ، أي المثالية الذاتية الحديثة ، والوضعية المنطقية • وتعتبر وجهة النظر هذه ، انه لا وجود هناك للعلية ، أو القانون العلمي (سواء في الواقع الطبيعي أو الاجتماعي) وان ما يسمى بالقانون ليس سوى نتيجة الاطراد المنطقي في حدوث الظواهر • فالقانون ـ عندهم ـ هو نتيجة التعود الذهني في رؤية الحوادث المتكررة ولا يعبر عن علاقة واقعية حتمية جوهرية في الاشيــاء الخارجية نفسها ، أي كما يقول شرابي « نظرية « القوانين » التي ابتكرتها مخيلات الكتاب •• »

والواقع ان كل حجج الفلاسفة المثاليين ابتداء من هيوم وحتى الوضعية المنطقية ، تتركز حول قصور المادية الميكانيكية • وذلك على اعتبار ، أن ما كان ينطبق من قوانين في مجال الفيزيــاء التقليدية ، لم يعد صالحا ، اليوم ، في مجال الفيزياء الذرية ، وهذا صحيح من ناحية ، لكنه لا يعني أننا قد اكتشفنا أن القوانين في العالم المادي ، على مختلف مستوياته ، لا وجود لهـا • فالنقد الموجه ، من قبل أنصار هذه المثالية الجديدة ، غير دقيق ، اذ اننا لم نكتشف أبدا أن الميكانيك الكلاسيكي خاطىء ، بل اكتشفنا الحدود التي يكون فيها صالحا • ان كل تقدم كيفي في التحليل العلمي ، كما يقول انجلز ، من شأنه أن يرغمنا على اعادة النظر في مفاهيمنا وعلى تكوين مفاهيم جديدة تعكس الواقع بصورة أدق ، وبفعالية أكثر •

ومن ناحية اخرى ، ينبغي الا يغيب عن بالنا ، دائما ، ان الظاهرات الواقعية لا تخضع لقانون معطى الا بضبط تقريبي • لانه لا يمكن لاي قانون علمي أن يستنفد تنوع التفاعلات التي تتحقق ، سواء في الطبيعة أو المجتمع ، وحتى في العملية الواحدة • فالتناقض كما يقول انجلز في « ضد دوهرنغ » : « موجود موضوعيا بلحمه ودمه ، اذا صح التعبير ، في الاشياء والعمليات » • ان ما أدانته « العلوم الاجتماعية الحديثة » ، في بداية القرن العشرين ، ليس المادية والقوانين العلمية ، بل المفهوم الفلسفي ، الدوغماتيكي الذي كان يعتبر الصورة التي يكونها الانسان عن العالم في لحظة معينة من التاريخ ، صورة ثابتة ، نهائية •

ليس القانون ابتكارا ذهنيا مجردا ، بل هو انعكاس للروابط الجوهرية بين الظواهــر الموجودة ، فهناك ، مثلا ، عدد لا نهائي من الروابط في الحياة ، بعضها أساسي والاخر ثانوي ، ولاكتشاف القانون لا بد أن نصل الى جوهر الظواهر والكشف عن العلاقات الاساسية ، وتبعــا لكلمات لينين في هذا الصدد فان « القانون هو علاقة ، علاقة بين جوهر الاشياء » • هناك صفتان أساسيتان لكل قانون ، كما يقول جليزرمان في « قوانين التطور الاجتماعي » :

١ ــ القانون ليس ثابتا بشكل مطلق ، بل يعتبر تاريخيا نسبيا بشكل معين ، حيث لا يوجد الا اذا ظلت الظروف كما هي • فقوانين البيولوجيا ، مثلا ، لم تظهر الا مع ظهور الحياة •وقوانين المجتمع الاقطاعي في بلد معين تزول من المجتمع مع انهيار ذلك النظـــام • كما لم تظهر قوانين الرأسمالية الا مع ظهورها في مرحلة تاريخية معينة •

٢ ــ وفي الوقت نفسه ، يعتبر القانون مطلقا ودائما في حالة استمرار الظروف ، التي يعمل في ظلها ، كما هي •

مفاهيم خاطئة عن الثورة العربية

أما أنطون المقدسي ، وسليمان الخش ، فانهما يقدمان مجموعة كبيرة من المفاهيم الخاطئة ، وذلك باسم « خصائص الثورة العربية » وباسلوب أقرب الى الانشاء منه الى الوصف الحادثي أو التحليل العلمي ، وبفكر انتقائي يختار استنتاجاته كيفما اتفق • يقولان : « لم تكن الثورة العربية، كالثورة الفرنسية ، أو كالثورة الروسية ، من عمل مفكرين » ••• ان الثورة ، أية ثورة ، لم تكن من عمل مفكرين ، أو حتى أحزاب ، الا بالقدر الذي يعبر فيه المفكرون والاحزاب عن المنعطف التاريخي الحاسم ، فالثورة دائما تصنعها الشعوب وتشارك بها الطبقات التي تجد ان من مصلحتها قيام الثورة • وهذا لا يعني ، بالطبع ، نكران الدور الواعي الذي تقوم به الاحزاب والمفكـــرون في توضيح المهام التاريخية للطبقات المشتركة في الثورة • ويتابع الكاتبان حديثهما عن خصوصية الثورة العربية • « ولم تكن في كل الاحوال ، ثورة طبقية ، بالمعنى الذي يعطيه الغربيون لهـــذه الكلمة ، لان الطبقات عندنا هي في طور التكون (!) ، وما تـــزال حتى الآن مصهورة في البنى الاجتماعية القديمة ، كالطائفية ، والعشائرية ، ولان القوى المنتجة عندنا ، وعلائق الانتاج ، مـــا تزال تخضع لديالكتيك مختلف جذريا (!) ، عن ديالكتيك المجتمعات المصنعة » • وهكذا باســـم الوضع الخاص ، وكل وضع في الحقيقة هو وضع خاص (كما يخبرنا الديالكتيك) ، يصل بنا الكاتبان الى نكران وجود الطبقات عندنا •• فالطبقات ــ كما يعتقدان ــ ما زالت في حالة الكمون « ومصهورة في البنى الاجتماعية القديمة ، كالطائفية والعشائرية » وكأن الطائفية والعشائرية بنى مستقلة في ذاتها ، وليست انعكاسا للظروف والعلاقات الانتاجية ، في مرحلة معينة ، ولكن تقنع الصراع الطبقي في البنى الطائفية والعشائرية ، لا يؤدي الى نكران وجوده • فالبنى الطائفيـــة والعشائرية تلعب دورا وظيفيا في أي مجتمع ، وهي لا تسقط من تلقاء ذاتها ، الا عندما تستنفدها المرحلة الجديدة والقوى الاجتماعية الصاعدة تضع حدا لدورها ، فالطائفية ، مثلا ، في لبنـــان ، تشكل ركيزة أساسية من أيديولوجية التحالف الطبقي الحاكم (الاقطاع السياسي والبورجوازية المصرفية التجارية) • ومن الطبيعي أن يقودهما مثل هذا التصور ، الى اعتبار أن « أخطر داء ابتليت به الاقطار الثورية هو فقدان الاستقرار السياسي » وهكذا يصبح عدم الاستقرار السياسي علة تفسر به الاوضاع وليس نتيجة لهذه الاوضاع وتناحر القوى الطبقية (غير الموجودة) تبعـــا لمنطقهما • أما تفسيرهما لطبيعة التباعد بين الشعب وقياداته الذي يشكل « الثغرة الاولى والاساسية في الثورة العربية » ، فهو « ليس لان هذه القيادات غريبة عن الشعب ، مسقطة عليه من عل ، فهي منه وله » ، وانما نتيجة وجود « الايدي الخفية » الشريرة « اياها » ، فالامور تسير بخـــير (والحمد لله) ، ما عدا حفنة مندسة انتهازية ، عرقلت الطريق لفترة ، ولا ينقصنا ، الان ، سوى « الارتقاء الروحي » الى مستوى الوحدة الموجودة في أعالي السموات حتى يتحقق الخير ، فجأة ، ويسود الرخاء و « الاستقرار السياسي » •• وكي نعمل ، أيضا ، على تلافي « الادواء التي ابتلينا بها » ينبغي علينا التخلص من : الارتجال ، وضعف الروح الجماعية والروح الوحدوية والهزال الفكري • والدولة الجيدة طبعا ، تبعا لمنطقهما ، ليست أداة للقوى الطبقية المسيطرة ، بل دولة العقل « والتفتح الفردي ») • وخلال حديثهما عن الوجه الايجابي للثورة العربية (يقصدان ، بالطبع ، ثورة البورجوازية الوطنية بمختلف قطاعاتها واجنحتها) يخبراننا بأنها « زعزعت

أركان الاستعمار ، بانتفاضة واحدة (سبحان القادر ، ربما كان علينا أيضا ، أن نعود الى الاعتقاد بأعمال السحر ، كي تتحقق الغايات والمقاصد بمثل هذه السهولة) ، وحطمت قيودا حديدية كبلت الشعب أجيالا وأجيالا » • وهذه بشرى حقا ، بشرى الى كل « ثوري متطرف » يعتقد ان الاستعمار ما زال يجثم على صدورنا ويهددنا ، بينما هو جثة هناك في متحف الطرائف والعجائب الذي يخص الكاتبين ، والى أولئك الذين ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور نظـــرا لفقدان الديموقراطية في البلدان « الثورية » ، فهم في الواقع ، ليسوا سوى جماعة متشائمة حاقدة فالثورة البورجوازية الوطنية ، على مختلف اتجاهاتها وقطاعاتها قد « وضعت الشعب في طريق الديموقراطية » ! وأما الجيش الذي يشكل بأجهزته ، اداة القمع الاساسية تجاه الجماهير ، فهو في خيال الكاتبين « جيش الشعب » • وأما سوء التفاهم الحاصل ، بين الجيش والشعب ، فهو سوء تفاهم مؤقت ، ويعود الى نقص في الوعي « الروحي » « وسيدرك الجيش في يوم قريب ، ان الحكم انما هو للشعب » أي انه سيتخلى عن حماية طبقته الخاصة ويصبح ، فجأة ، جيش الشعب بكل معنى الكلمة ! وذلك عن طريق الوعي الروحي الوحدوي الذي هو « عصبية من نوع جديد » ، ولكن ربما كان كل هذا ، بفضل ديالكتيك صاحبينا « المختلف جذريا » عن الديالكتيك الذي نعرفه •

البورجوازية الصغيرة والثورة

أما جميل كاظم المناف فيطلع في « نحو يسار عربي جديد » بمحاولة تنظير عن الوضع المميز للبورجوازية الصغيرة (الحاكمة أيضا !) في بلادنا ، التي تختلف عن البورجوازية الصغيرة في أميركا وأوروبا حيث تكوّن هناك « احتياطيا للرأسمالية الكبيرة » ، أما عندنا ، فقد وصلت « الى السلطة عن طريق الانقلابات العسكرية » ولا نجد في مقارنته واستنتاجاته أي ربط جدلي تاريخي فعلي للمسألة ، بل انه على العكس ، لا يقدم لنا أدنى دليل تاريخي ملموس عن كيفية قفز البورجوازية الصغيرة الى السلطة « وقيادتها للحركة الوطنية » •

ان اشتراك عناصر وفئات واسعة من البورجوازية الصغيرة (سواء كانت مستفيدة أو صاعدة الى طبقة أخرى جديدة ، في الثورة الديموقراطية الوطنية ، لا يؤدي الى الاستنتاج الساذج الذي يردده الجميع اليوم ، عن الدور القائد للبورجوازية الصغيرة التي « حولت الدولة الى مصدر للثراء الاقتصادي » • ونتساءل هنا ، دولة من ؟ دولة البورجوازية الصغيرة كطبقة ؟ ان الواقع الطبقي التاريخي العيني ينفي هذا الافتراض الشكلي • وسوف أبرهن ، وبشكل واسع ، سذاجة هذه الفرضية في مكان اخر من هذا المقال • وسأكتفي ، الان ، بدحض بعض التعريفات الخاطئة عن البورجوازية الصغيرة التي أثارها جميل كاظم المناف •

يعتبر الكاتب ان البورجوازية الصغيرة « هامشية في تكوينها الاقتصادي ، طفيلية (!) في تركيبها الطبقي ، غير منتجة (!) ، حالمة ، ذات تفكير سوفسطائي تتعامل مع المادية الالية في واقعها بينما تفسر الامور تفسيرا اخلاقيا أو مثاليا » •

لا ينكر أحد ، بشكل عام ، الطابع الحالم المثالي للبورجوازية الصغيرة ، ولكن المشكلة انها من الناحية الاقتصادية والطبقية ، ليست طبقة طفيلية ، أو غير منتجة ، بل على العكس ، ان ما يميز البورجوازية الصغيرة هو أن دخلها الاساسي ناتج من عملها الخاص ، وهي لا تستغل عمل الاخرين الا بشكل ثانوي ، وينطبق هذا التعريف على صغار الملاك من الفلاحين الكادحين وفئات الحرفيين ، وقطاعات واسعة من الموظفين والمستخدمين الصغار ، (الذين يملكون ثقافة ما في اطار مجتمع استغلالي يجعل من الثقافة امتيازا طبقيا) والاطباء والمهندسين والمحامين والفنيين ، وسائر هذه الفئات التي تبذل جهدا معينا مقابل ما تتقاضاه من أجور وان كانت مرتفعة نسبيا بالقياس مع أجور العمال والكادحين •

ان ما يميز البورجوازي الصغير من الناحية الاقتصادية الطبقية ، هو أنه يملك وسيطا ،

أداة انتاج مادية أو ذهنية ، بينما العامل والفلاح العامل لا يملكان سوى قوة عملهما المجردة ، أما الطفيلية ، وعدم الانتاج فينطبقان على عملية الاستغلال الرأسمالي حين يكون الدخل الاساسي بل كله غالبا ، ليس ناتجا من عمل الرأسمالي الخاص ، بل نتيجة استغلاله قوة عمل الغير ٠

وسأعود الى مناقشة هذه المسألة في نهاية المقال ، وذلك اثنـــاء الحديث عن البورجوازية الصغيرة « الحاكمة » ! اذ من العسير مناقشة بعض المفاهيم والافكار التي أوردها معظم الكتاب بصدد البورجوازية الصغيرة ، على حدة دون عرض المسألة على أساس علمي ٠ فلا يمكن ، مثلا مناقشة الاستنتاج الذي أورده جميل كاظم المناف ، لانه من الاساس يقوم على افتراض خاطـىء هو كون البورجوازية الصغيرة حاكمة في الاقطار العربية التقدمية ٠ ومن الصعب ، لذلك ، مناقشة هذه الصيغة عند الكاتب « ان البورجوازية العربية الصغيرة لم تستطع اقامة علاقات انتاجية رأسمالية تامة أو اشتراكية تامة » ٠ أو مثل هذه الفكرة ، عند ياسين الحافظ في مقالته « مضمون الوحدة وامكانية تحقيقها » اذ يقول : « يجري النضال الوحدوي اليوم تحت ايديولوجيا بورجوازية صغيرة، ليست ايديولوجيا الرسمالية ولا ايديولوجية الطبقة العاملة ، بل ايديولوجيا وسطية معارضة للاقطاع والرأسمالية والامبريالية الى حد كبير » ٠

ان عدد الدراسات التي استطاعت الافلات من اقتصارها على الرد على مقالة البيطار ، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، قليلة للغاية ، نذكر منها دراسة المناف ودراسة محمد كشلي ودراسة عفيف فراج ٠ ولكن الموضوع الاساسي « ثورة ٢٣ يوليو » ، كما سبق أن ذكرت ، بقي دون حد ادنى من المعالجة العلمية التاريخية ٠ وعلى سبيل المثال ، فان دراسة كل من محمد كشلي وعفيف فراج ، رغم أهميتهما من الناحية النظرية العامة وصحة الكثير من المفاهيم الماركسية الواردة، تغرقان في النزعة الشكلية ، لان المقارنات الشكلية الفكرية المجردة لا تغني عن التحليل العيني للواقع المعطى ٠

فمحمد كشلي ، مثلا ، ينطلق من بديهية ، مقررة سلفا ، هي في ذاتها بحاجة الى البرهنة ، وهذه البديهية هي « قيادة البورجوازية الصغيرة للثورة العربية » يقول : « ان هذه المقالة تحاول ان تبحث في قضية واحدة من القضايا المطروحة بعد الهزيمة « الايديولوجية والانسان العربي الجديد » من زاوية تاريخية (!) محددة : قيادة البورجوازية الصغيرة للثورة العربية ، وعجز هذه القيادة عن احداث « ثورة ثقافية » حقيقية تبني الانسان العربي الجديد » ٠ والسؤال الذي يتبادر الى الذهن كيف يمكن الحديث عن ايديولوجية طبقة حاكمة ما ، دون تحديد طبيعة هذه الطبقة وتطورها التاريخي من خلال علاقتها بسائر الطبقات الاخرى في مجتمع معين ؟ قد يعتبر محمد كشلي مقالته هذه في « مواقف » تتمة لسلسلة من المقالات ظهرت في مجلة « الحرية » تحت عنوان « الاسباب البعيدة لهزيمة ٥ حزيران » ، الا أن سلسلة مقالاته تلك كان يحكمها الكثير من التناقضات المنطقية والقصور في المعالجة التاريخية لتركيب الطبقة الحاكمة في مصر ٠ وخاصة انه ينطلق من هذه البديهية نفسها « قيادة البورجوازية الصغيرة للثورة العربية » ٠ ومقالته الاخيرة المنشورة في « مواقف » مهما احتوت من الوضوح النظري في عدد من المسائل الاساسية العامة ، لا تغني عن معالجة وتحديد نوعية الظاهرة موضوع البحث ٠

نعرف ان الثورة الاشتراكية لا تتحقق الا عندما تكون السلطة السياسية للطبقة العاملة ٠ وانه بدون ديكتاتورية البروليتاريا لا يمكن تحقيق الاشتراكية بالاضافة الى تحطيم جهاز الدولة القديم الذي يشكل تحطيمه الشرط الاساسي لتوطيد السلطة الديموقراطية الشعبية الجديدة ٠ ونعرف ، ان البورجوازية الصغيرة طبقة متذبذبة ، مثالية ، ومعادية ايديولوجيا للماركسية ، وانه بدون صناعة ثقيلة وتحرير الفلاحين وطاقاتهم الاجتماعية في الثورة الديموقراطية ، والتحرر الكامل من سيطرة السوق الامبريالية ، وتعبئة الطاقات الشعبية وتسليحها بالوعي البروليتاري والسلاح لا يمكن الحفاظ على الاستقلال الوطني ٠ ولكن ماذا يفيدنا هذا كله في تحديد الوضع التاريخي المحدد ؟ نحن لا ننكر ، بالتالي ، ان الافكار والمبادىء الاساسية الماركسية (القائمة عـلى تحليل علمي دقيق) في عديد من المسائل الاساسية مثل السلطة الشعبية وديكتاتورية البروليتاريا

رغيرها ، تظل بمثابة المقياس الموجه في شتى الظروف التاريخية المختلفة ، وذلك مع تعديل في الجزئيات ، تبعا للظروف الخاصة الوطنية لكل بلد من البلدان • أما الاكتفاء بالاستشهاد بهذه المبادىء كبديل عن التحليل المطلوب ، فمن شأنه ان يحول الماركسية الى مجموعة من المبادىء « الدينية » العامة المجردة تصلح لتبرير شتى التصورات الذاتية عن وضع معين دون معالجته بطريقة موضوعية • اننا نترك مهمة القفز فوق الظروف التاريخية الملموسة والبنى الفوقية التي تفرزها هذه الظروف في مرحلة معينة الى الفكر البورجوازي الشكلي الذي نحاربه • ولان تحليل وضع معين بواسط الادوات النظرية والمقارنات الشكلية التي قد تنطبق عند هذه النقطة أو تلك ، أو الى هذا الحد أو ذاك ، من شأنه ان يقربنا من النزعة السكولائية •

ان لعبة « المقاطع المجزوءة » تصلح لتأكيد التحليل العلمي وليست بديلا عنه • فما أسهل، على سبيل المثال ، أن نقتطع فكرة من ماركس أو أنجلز أو لينين ، عن أهمية التراجع في ظرف تاريخي يتطلب منا الاستعداد للهجوم • عندما يقرر عفيف فراج في مقالته « ٢٣ يوليو : اصلاح لا ثورة » انه « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية » أو « لا يستطيع أن يقـــوم بدور مناضل الطليعة الا حزب يسترشد بنظرية الطليعة » الخ••• ينسى ان مثل هذه الاستشهادات لم تأت لتدعم تحليلا طبقيا ، بل لتؤكد بديهية طبقية مقررة سلفا ، وبطريقة منطقية ساذجة : البورجوازية الصغيرة تقود الثورة في البلدان التقدمية ! وربما يتعين علي أن أوضح بأنني لا أملك أي ولع أو رغبة في الحذلقة كي أدافع عن البورجوازية الصغيرة كطبقة ، ولكني في سبيل دحض ذلك التصور غير العلمي عن دور هذه الطبقة في المرحلة الراهنة ، وخاصة ، انه في هذه المرحلة التي يسود فيها التفكير الانتقائي–الماركسي القومي (البورجوازي الصغير) والنزعة الشكلية الماركسية التي تعامل الماركسية كنصوص دينية تصلح لتبرير شتى التصورات المثالية ، نلاحظ أيضا كثرة الحديث والتصريحات العشوائية عند الفئات اليسارية الجديدة ، عن دور البورجوازية الصغيرة وطبيعتهـا الطبقية وايديولوجيتها الخ•••

لقد اصبحت البورجوازية الصغيرة ، نتيجة القصور الذاتي في المعالجة العلمية التاريخية للاوضاع المحددة ، بمثابة « جوكر » اللعب ، يستعمل بطريقة اتهامية ، دون مقياس موضوعي لطبيعة الاستعمال والظروف التي تستدعيه • اصبحت البورجوازية الصغيرة ـ وهذا ليس دفاعا عنها ـ بمثابة « الايدي الخفية » والشيطان الرجيم يلصقه الجميع في معظم التحليلات السياسية الشكلية ، بشجاعة وحماسة ، لتفسير كل قصور وخطأ في الحياة السياسية العربية • وهذا ، باعتقادي ، نوع جديد من المثالية ، يتستر تحت قبعات ولافتات الماركسيـــة العلمية ، ويتكلم باسمها !

ملاحظات منهجية

ويهمني أن أوضح ، بأنني لا أختلف ، مع الذين عرضوا لنا ، مسألة البورجوازية الصغيرة، حول طبيعة الالفاظ والصيغ والتسميات الشكلية ، بل حول المضمون السياسي الطبقي الحقيقي • فأنا لا أريد أن استبدل لفظيا « شيطان » البورجوازية الصغـــيرة ، « بابليس » البورجوازية البيروقراطية ، ولو ان الخلاف حول التسمية والالفاظ ، فان محمد كشلي وعفيف فراج وجميل كاظم المناف قد اطلقوا مثل هذه التسمية ، أحيانا ، في أماكن متفرقة من مقالاتهم • وقد تكون ميزة العدد الاخير من « مواقف » انه يطرح أمامنا محاولة لتخطي الارتباط الايديولوجي بالمواقف الناصرية القومية ، والرسمية عامة • أقول هذا ، على الرغم من أن أحدا من الكتاب ، لم يتعرض لثورة ٢٣ يوليو بالتحليل العلمي المطلوب • وخاصة ان عدد « مواقف » هذا كان قد خصص الدراسات التي سبق أن أشرنا لها ، لهذه الثورة ، على حد قول أدونيس في مقدمة العدد • ومن ناحية أخرى ، أرغب في التأكيد بأنه لا يحق لي الادعاء بأنني سوف أقدم التحليل العلمي التاريخي للتجربة الناصرية ، بقدر ما أرغب في تحديد الاتجاه السليم للمسألة • ذلك أن مهمة تحليل

التجربة الناصرية تعتمد على كثرة من المصادر والاستقصاءات والمعلومات الاقتصادية والسياسية والمراقبة العينية للعلاقات الانتاجية • وقد تكون هذه المهمة الصعبة والمعقدة ملقاة ، بالدرجة الاولى ، على عاتق الماركسيين المصريين •

وليست مقالتي ، سوى محاولة لمعالجة الاتجاه العام لثورة ٢٣ يوليو والطبيعة الطبقية للنظام الناصري القائم •

قبل كل شيء ، يهمني أن أسجل بعض الملاحظات المنهجية في هذا الصدد ، خصوصا أن هناك عدة تصورات نظرية ينبغي دحضها اولا ، بطريقة منهجية ، لتبيان هزالها وتناقضها الداخلي ، وبالتالي ، عن طريق دحضها بالوقائع التاريخية والتحليل العلمي :

١ ــ لو افترضنا صحة التصور الذي يعتبر ان البورجوازية الصغيرة هي التي قامت بثورة ٢٣ يوليو ، فهل من المعقول ، من وجهة النظر الجدلية ، بل المنطقية البسيطة ان تظل بورجوازية صغيرة طوال ١٨ عاما بدون أن تتحول فئاتها العليا المسيطرة ، على الاقل ، الى طبقة رأسمالية جديدة ؟ أم ان القانون الجدلي بصدد التغير والحركة والتطور بات لا يصدق هنا ! ان التفكير الأحادي الجانب ، غير الجدلي ، هو وحده الذي يمكن أن يروج لمثل هذه التصورات •

٢ ــ حكاية الاصول الطبقية ، أو المنشأ التاريخي : يحلو كذلك لهذا التصور الميكانيكي ، أن يفسر القوى الاجتماعية والصراع الطبقي السياسي بالاصول الاجتماعية الطبقية لبعض الفئات المتصدرة سواء في الجهاز التنفيذي المصري أو في قيادة المراكز والعمليات الانتاجية والسياسية • فعبد الناصر ، مثلا ، تبعا لهذا التصور ، ينحدر من اصول بورجوازية صغيرة ، فهو اذن بورجوازي صغير يخدم مصالح البورجوازية الصغيرة ! وعلى أساس هذا المنطق يمكننا ان نحكم على الرأسمالية بأصولها البورجوازية الصغيرة ، أو العمال بأصولهم الفلاحية أو الحرفية وأن نعتبر حزب العمال البريطاني الحالي ، وذلك على سبيل المثال ، يمثل المصالح والمهمات التاريخية الملقاة على عاتق البروليتاريا الانجليزية حقا ، بل قد يكون حكم حزب العمال الحالي ، يطبق فعلا ديكتاتورية البروليتاريا ، في الخفاء ، ونحن لا ندري ! بينما ليس هذا الحزب في الواقع سوى جهاز بيروقراطي متبرجز أصغر ، التف حول الطبقة العاملة ، وهو يحاول ان يقتسم مع البورجوازية الانجليزية بعض فتات الاسلاب الامبريالية • ان هذا الحزب ، رغم اصوله العمالية ، لا يخدم في الواقع سوى السياسة الامبريالية والمصالح الامبريالية ، كما انه عاجز عن الغاء العلاقة الاستغلالية بين رأس المال والعمل المأجور • انه لمن السذاجة السياسية ، الا نأخذ بعين الاعتبار العلاقات الموضوعية لجميع القوى الطبقية في مجتمع معين ، والسياسة والوظيفة الطبقية التي يخدمها ، مثلا ، قيام الجيش بانقلاب ما ، في فترة محددة • فالاكتفاء بالاصول الطبقية لهذا الشخص أو ذاك ، هذه الفئة أم تلك ، لا يحدد شيئا على الاطلاق •

٣ ــ ان التذبذب السياسي ليس خاصية قاصرة على البورجوازية الصغيرة بحكم وضعها المعلق في عملية الانتاج الرأسمالية ، بل ان البورجوازية عندما تواجه بقوى عمالية وفلاحية ، مستقلة عن تأثيرها الايديولوجي والسياسي ، تميل الى التذبذب بطريقة أخرى ، وتخون ثورتها البورجوازية الديموقراطية نفسها ، كما يقول لينين ، وتعمد الى التهادن مع القوى الاقطاعية ، بدل تصفيتها ، وأحيانا تتحالف معها (كما حدث في روسيا عقب ثورة ١٩٠٥) • لهذا ، فان الانطلاق من «مقولة» التذبذب في تفسير الطبيعة الطبقية للنظام الناصري بأنها البورجوازية الصغيرة ، ليس في حقيقته العملية اكثر من مقارنة شكلية ميتة • بالاضافة ، الى ما ذكرت ، هناك بعض التصورات والفرضيات الأخرى الخاطئة من أساسها لن أتمكن من التعرض لها هنا ، نظرا لضيق المجال •

نحو تحليل طبقي متماسك

ان التحليل الطبقي المتماسك للنظام الناصري يجب أن ينطلق من مصلحة وحرية الجماهير

الشعبية الكادحة . ولقد عجزت معظم التحليلات والتفسيرات التي ظهرت ، حتى الآن ، عن تقديم مثل هذا التحليل الطبقي المتماسك ، لانها كانت تقوم ، الى هذه الدرجة أو تلك ، على أرضية الفكر البورجوازي لا أرضية الطبقة العاملة . فالمقاييس التي يستخدمها المفكرون البورجوازيون ، أو بعض المثقفين المخلصين الواقعين تحت تأثير الايديولوجية البورجوازية ، أو نتيجة انعزالهم عن الجماهير ، لتقييم الاوضاع السياسية هي مقاييس بعيدة كل البعد عن مصالح الجماهير ، وتجيب عن الاسئلة التي تطرحها مشكلات البورجوازية مثل مدى تقدم قوى الانتاج ، وتكامل السوق القومية الخ ...

ما المقصود بمصلحة وحرية الجماهير : ان هذا يعني وفقا للمفهوم البروليتاري الغاء الكبت والاستغلال بكافة صورهما الفكرية والسياسية والاقتصادية ، في الغاء الطبقات والفئات الطفيلية التي يقترن وجودها بالاستغلال ، سواء كانت أجنبية أم محلية . ان المصلحة الجوهرية للطبقات الشعبية تكمن في التحقيق الكامل لحريتها الطبقية ، الامر الذي يعني ان تملك القدرة على أن تتحرك باستقلال في المجال السياسي والفكري والتنظيمي والاقتصادي حتى تستطيع ان تواجه الطبقات الاستغلالية وتقضي عليها .

والجدير بالذكر ، ان هذه القدرة على الحركة المستقلة لا يمكن ان تأتي كمنحة (وكما يروج بعض المثقفين اليساريين المخلصين ، أثناء تعداد مآخذهم على النظام الناصري ، مما يوحي كأن هذه « المنحة » أمر ممكن) ، وانما تكتسب من خلال ممارسة الصـــراع الطبقي ، من خـــلال الكفاح الجماهيري .

هكذا تستطيع الجماهير ان تحطم عبر المعارك المتتالية اطارات الكبت والاستغلال ، مهما تقنعت، من خلال كشف فكر العدو الرجعي الديماغوجي وزعزعة تنظيماته الطبقية ، واضعاف هياكل قمعه ، متقدمة بذلك في طريق تعميق وعيها بمصالحها ، وتنظيم صفوفها ، فاتحة الطريق أمام ازدهار مبادرتها الخلاقة في كافة مجالات الفكر والانتاج المادي والفني ، وكذلك في مجال التنظيم السياسي والحربي والانتاجي .

ان مصلحة الجماهير الواسعة تتمثل في اكتساب حريتها الطبقية من خلال ممارستها الصراع الطبقي بقيادة البروليتاريا (هذه القيادة التي تفرضها المعارك اليومية والنضال السياسي) .

ثمة مرحلتان ، يتجاهلهما النظام الناصري ويسدل عليهما ستارا كثيفا من الصمت ، مرحلة ما قبل الثورة وعلى الخصوص من ١٩٤٥ ــ ١٩٥٢ ، ومرحلة ما بعد الثورة من ١٩٥٢ ــ ١٩٦١ . وسأحاول أن أبرز حجم المرحلة الأولى ، نظرا لأهميتها ، بالاضافة الى المرحلة الثانية . وسنرى من خلال هاتين المرحلتين الكثير من الوقائع المحملة بالدلالات العميقة التي توضح طبيعة النظام الطبقية .

الائتلاف الطبقي التقليدي

كانت مصر جزءا من السوق الامبريالية العالمية ، ترتبط بشكل خاص بعدد من دول أوروبا الغربية وعلى رأسها بريطانيا . وكانت السوق المصرية خاضعة للسوق العالمية فيما يتعلق بتصدير المحصول الرئيسي القطن ، واستيراد رؤوس الاموال الاستعمارية والسلع المصنوعة ، وكان رأس المال الاحتكاري الاجنبي ينتزع فائضا هائلا من مجموع هذه العمليات .

أما التحالف الطبقي الحاكم فكان يتكون من : (١) الارستقراطية العقارية شبه الرأسمالية التي كانت تسيطر على ريف يتحول ببطء من ريف اقطاعي الى ريف شبه اقطاعي وشبه رأسمالي ، أي تتدرج العلاقة الانتاجية من صور مختلفة من التسلط الشخصي على الفلاحين ، الى علاقة استغلال العمل المأجور مع بقاء اساليب الانتاج فردية ويدوية . (٢) البورجوازية المحلية الكبيرة التي

تشكلت من عناصر اجنبية متمصرة وعناصر محلية كومبرادورية تعمل مباشرة لحساب المصالح الاستعمارية ، ومن عناصر مصرية نابعة من الريف (كبار الملاك والفلاحين الاغنياء الذين أخذوا يستثمرون جزءا من فائضهم في المدينة) • وقد تولت هذه البورجوازية مجالات النشاط المالي والصناعي والتجاري التي تخلى عنها رأس المال الامبريالي ، فاتحة بذلك طريق النمو الرأسمالي الداخلي • ويؤكد أنور عبدالملك في كتابه « مصر مجتمع يبنيه العسكريون » هذه النقطة : « ••• ان الجناح « العصري » ، الصناعي والفني (التكنوقراطي) للبورجوازية المصرية ، لم ينشأ عن المبادرة الفردية متتبعا طريق البورجوازيات الأوروبية التقليدي — تجارة — حرفة — صناعة ، ولكنه تكون ، اذا جاز القول ، ضمن التوظيف الاستعماري في مصر من قبل رؤوس الأموال الأوروبية، كحليف وكفرع ضئيل من هذا التوظيف » • واعتقد ان كل البلاد التي خضعت للسيطرة الاستعمارية، قد نمت فيها البورجوازية الصناعية ، على هذه الطريقة ، الى حد كبير • ويتابع أنور عبد الملك : « من هنا تناقض هذا الجناح « العصري » الصناعي والفني من البورجوازية : بدل أن يكون حامل لواء حكم برلماني أكثر فعالية ، وتنظيم للمجتمع وفكر أكثر اعتناء بتقدم حقيقي ، وصراحة سياسية يبررها دوره كطليعة في المجتمع المصري الذي يجتاز مرحلة انتقال ، بدل هذا كله كان الجناح المذكور اداة الرجعية الممثلة على الصعيد السياسي بحزبه الانتخابي ، الحزب السعدي (الذي تأسس ١٩٣٧) والمستقلين (حيث كان يوجد أهم زعماء اتحاد الصناعات المصري) •• وحلفائهم ممثلي الملكية العقارية الكبيرة من الحزب التحرري الدستوري » •

فالجناح الوطني ، الذي كان يمثله الوفد ، لم يكن يتعدى فريقا من كبار الملاك ، وأغنياء الريف والتجار والمثقفين والبورجوازية الصغيرة ولا سيما الموظفين والتجار ، يضاف اليهم قسم مهم من العمال الزراعيين وفئة معينة من الشغيلة • **وكانت ميزة الوفد التي أهلته لقيادة الحركة الوطنية، فترة طويلة من الزمن (ولا سيما من ١٩١٩ — ١٩٤٥) ، انه كان يجمع قوى لا تدخل ارتباطاتها بالمحتل في تكوينها بالذات** • ولكن هذه القوى ليست مستقلة كل الاستقلال ، فقد كانت مشدودة ، الى هذا الحد أو ذاك بالارتباطات الاجنبية ، بطريقة غير مباشرة • ومن هنا ، كان الوفد ممثلا حقيقيا لمجموع الأمة والقوة السياسية الاساسية في البلاد •

ونتيجة عدم مقدرة الوفد على تحقيق الثورة الديموقراطية البورجوازية وحل المسألة الوطنية بالطريقة الثورية ، فقد بدأت قوته السياسية تتفكك وهيمنته على الحركة الوطنية تتقلص • يقول ، أنور عبدالملك : « وكما سنرى ، سوف تنتقم البورجوازية الصناعية والتكنوقراطية الكبيرة (التي تطورت ، بشكل خاص ، بعد ١٩٣٩ ، أي أثناء الحرب العالمية الثانية ، بخطوات كبيرة نحو الطابع الاحتكاري) ، اذ تطرح الوفد الذي كان يزداد انقسامه وتضعف فعاليته ، وتعمل بيديها على تحقيق الثورة البورجوازية الوطنية ، مقابل تحطيم الحريات الديموقراطية التي بناها الوفد ببطء وجد ، يعضده دائما ، في هذا الحقل ، عناد اليسار » • وقد تم ذلك ، فعلا ، بطريقة فريدة ومعقدة، سنحاول ايضاحها قدر الامكان : **كانت الحرب العالمية الثانية فرصة للربح بالنسبة للبورجوازية المصرية ادخلت الخراب ، في الوقت نفسه ، على بيوت العمال وفقراء الفلاحين** ، رغم ازدياد الدخل القومي من ١٦٨ مليون جنيه مصري سنة ١٩٣٩ ، الى ٨٦٠ مليون ج•م• سنة ١٩٥٠ • وبينما أصبح الدخل الحقيقي للمصري العادي ، في سنوات ١٩٥٠ — ١٩٥٣ ، ٩ر٥ جنيه مصري ، فقد كان هذا الدخل نفسه ١٠ر٢ جنيه مصري سنة ١٩٣٩ ، ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار مستوى المعيشة الذي ارتفع في هذه الفترة ، بنسبة عالية جدا •

وقائع تاريخيه

ان تمركز الشركات الاحتكارية وأرباحها العالية ، الى جانب ضعف انتاجية الزراعة التي لا تنمو بنسبة ازدياد عدد السكان يفسران بشكل رئيسي « البؤس الذي يكبر بنفس نسبة رؤوس الاموال الموظفة » على حد تعبير أنور عبدالملك • اذا كان حزب الوفد قد استطاع أن ينجح في انشاء المصرف

الزراعي التعاوني ١٩٣٠ لرعاية صغار الفلاحين ، واصدار قانون للعمل ، والنشاط الواسع الذي قام به في حقل التعليم ، فانه لم ينجح في حمل لواء الثورة البورجوازية الديموقراطية الى داخل البنيان الاجتماعي ، في الريف خاصة ، وذلك بتوزيع الارض توزيعا أكثـر عدلا ، وضرب البورجوازية الكومبرادورية الكبيرة التي تستثمر الشعب بالاشتراك مع المصارف البريطانية والعالمية • وبعد سيطرة فؤاد سراج الدين ، أحد كبار ملاكي الارض ، وتصدره للامانة العامة لحزب الوفد ١٩٤٢ ، ازداد ميل الوفد الى المحافظة في الميدان الاجتماعي ، وتقلصت الامكانية المحتملة بالثورة الزراعية تحت قيادة الوفد البورجوازية • وعلى أثر أزمة التموين وفقدان القوت ، تحولت مظاهرات كانون الثاني — شباط ١٩٤٢ الى انفجارات ضد الانكليز ، وفي ٤ شباط من العام نفسه ، قامت المصفحات البريطانية بحصار قصر عابدين وفرضت على فاروق وزارة برئاسة مصطفى النحاس الذي رضي بالرجوع الى الحكم على « رأس الحراب الانجليزية » • وقد حاولت قيادة الوفد أن تظهر بمظهر المبرر لهذا التدخل العنيف السافر في السياسة المصرية ، مما أدى الى فقدان ثقة الجماهير بها • وتحول السعديون والاستقلاليون نحو واشنطن التي بدت لهم مؤهلة لخلافة السيطرة البريطانية المتزعزعة •

ومع سنة ١٩٤٥ تنتهي هيمنة البورجوازية المصرية (حزب الوفد) على قيادة الحركة الوطنية• اذ انه ، في هذا العام نفسه ، قام مثقفون وفديون وقوميون وشيوعيون ونقابات عمالية عديدة بتشكيل هيئة جديدة ، « اللجنة الوطنية للعمال والطلاب » التي امتد نفوذها المباشر الى جامعتي القاهرة والاسكندرية ، والى طلاب المدارس الثانوية والفنية في مجموع البلاد ، والى معظم فئات المثقفين ، والى فروع مهمة من المهن الحرة والى كل النقابات المصرية دون تمييز في الاتجاه أو مكان العمل وقد كان من أهدافها : الجلاء التام عن مصر والسودان ، وتشكيل لجان وطنية للمعامل والشوارع والاحياء والمهن وفي مقدمتها اللجنة الوطنية للعمال والطلاب ، والقيام بالمظاهرات الجماهيريـــة والاضرابات ، وانشاء علاقات مع الحركة العالمية الديموقراطية التي تكافح الاستعمار المسلح ضد القوى المحتلة •

وأثناء ذلك ، كان فريقا البورجوازية يستعدان للتفاوض بشعاري « الجلاء » و « وحدة النيل تحت التاج المصري » • وبينما كان تحالف اليسار الوفدي مع الشيوعيين يشيع الديموقراطية في صفوف الجماهير ويهيء الشعب لتسلم أمر البلاد كلها ، اتفق التحالف المناوىء للوفد ، وكان وقتها أقلية تتشبث بالحكم ، مع بريطانيا « العظمى » لتهيئة الوضع ضد الحركة الوطنيـــة الديموقراطية • وفي التاسع من شباط (فبراير) ١٩٤٦ ، قامت الشرطة ، بأمر من النقراشي رئيس الوزراء ، بحصار ، ثم بفتح جسر عباس ، وذلك لتحطيم موجة المظاهرة الطلابية ، وكانت الحصيلة عشرات من القتلى والمفقودين ومئات من الجرحى * • **وفي ٢١ شباط قامت المظاهرات في القاهرة والاسكندرية وكل المدن المصرية تلبية لنداء اللجنة الوطنية للعمال والطلاب** • وأدرك اسماعيل صدقي ، رئيس اتحاد الصناعات المصري ورئيس الوزراء الجديد ، ان عليه تحطيم القيادة الشعبية الجديدة كي يستطيع المفاوضة بشأن معاهدة الدفاع المشترك التي عرضها عليه بيفن ، وزيـــر الخارجية البريطاني • وعلى اثر النشاط الجماهيري الواسع للجنة الوطنية للعمال والطلاب ، قامت شرطة صدقي بتوقيف ٢٠٠ زعيم سياسي ونقابي وطلابي بينهم اساتذة وصحفيون وكتاب ، بتهمة الشيوعية ، كما أذاع حل احدى عشر منظمة سياسية وثقافية ونقابية ومنع الجرائد اليسارية عن الصدور • ولكن ، ازاء الضغط الشعبي المتصاعد ، رغم كل ذلك ، انسحب سبعة أعضاء مصريين من لجنة المقاومة • وهكذا فشل مشروع صدقي—بيفن الاستعماري •

أصبح من الضروري ، بالنسبة للبورجوازية ، وبشكل حاسم ، ايقاف تقدم اليسار الــذي تغلغل تأثيره في الجماهير ، رغم حل منظماته ، وذلك خوفا من انتزاع مكاسب التحالف الفعلي بين اليسار الوفدي والشيوعيين ، الذي بدأ ينفذ ، ولو ببطء أيضا ، (منذ عام ١٩٤٥) الى القرى •

---

* معظم الوقائع التاريخية ، وكثير من المعلومات الواردة ، مأخوذة من كتاب أنور عبدالملك المذكور •

وقد حاول الاخوان المسلمون القيام بهذا الدور الرجعي ، والواقع ان هذه الفئة قد تركزت أعمالها ودعايتها المباشرة ضد الجبهة الوطنية القائمة ، ولم تقم بأي دور وحركة فعالة ضد المحتل .

وقامت هذه الفئة الرجعية بسلسلة من الاعمـــال الارهابية كانت غايتهـــا اعطاء الحكومة حجة لتعليق الحريات العامة وضرب الجبهة الوطنية مرة ثانية .. ولكن التطرف في الارهاب دفع السلطة كي تحمي نفسها أيضا ، الى الحد من نشاط المنظمة السرية .

أعطت حرب فلسطين ١٩٤٨ الحكومة المصرية ، فرصة جديدة ، لشن حملة أخرى على اليسار، المتهم بالخيانة ، لأن بعض الاحزاب الشيوعية ، في ذلك الوقت ، دعت للاعتراف بمشروع التقسيم وانشاء دولة فلسطين العربية ، مقابل الدولة الاسرائيلية ، ففي ايار اعلنت حالة الحصار وارسل ألوف من الشيوعيين والنقابيين والتقدميين والوفديين اليساريين الى مخيم التجميع في الطور ، على البحر الاحمر . وفي عام ١٩٥٠ ، عاد النشاط الجماهيري الى الظهور بشكل أوسع ، هذه المرة ، وكانت حصيلة هذا العام ٤٩ اضرابا عماليا وعودة الشيوعيين الى ممارسة نشاطهم وجمعت حركة انصار السلم لفيفا كبيرا من المثقفين حول مجلتها « الكاتب » . وشرعت لجنة تحضيرية لاتحاد نقابات مصر بالعمل على توحيد الحركة العمالية . وبدأت الحركة النسائية بانشاء اتحاد وطنـــي للنساء . وبينما كان الوفد يصر على التفاوض لتحقيق الجلاء (وقد أصر الوفد طوال عشرات السنوات على مبدأ التفاوض) نظمت اللجنة الوطنية للعمال والطلاب فرق المتطوعين من سكان المدن والقرى القريبة من المدن ، وشن الكفاح المسلح ضد الوجود البريطاني في القناة ، وقد استشهد ما يزيد عن ٦٠٠ فدائي مصري وقتها . ولكن قصور اللجنة الوطنية للعمال والطلاب ، في تلك الفترة، يتركز بشكل أساسي ، حول عدم ربطهم مشكلة الاستقلال بمشكلة الارض أي انهم لم يتمكنوا من تفجير ثورة فلاحية حقيقية . والجدير بالذكر هنا ، انه في بدء عام ١٩٥٢ اتفقت المنظمات اليسارية المنقسمة على تحويل معركة الفدائيين في القناة ضد الوجود الاستعماري ، الى حرب فلاحية للتحرر الوطني ، وذلك عن طريق توزيع السلاح على الفلاحين وتكوين لجان تحرير في كل قرية وانشاء جريدة عسكرية وقيادة موحدة للكتائب للربط بين مختلف القطاعات .

وكان النشاط الوطني العام في تصاعد مستمر . ففي ١٨ كانون الاول ١٩٥٢ ، ألغى الملك نتائج انتخابات نادي الضباط نتيجة لنجاح أكثرية وطنية ، يرأسها اللواء محمد نجيب . وفي حين كان الشيوعيون واليسار الوفدي يتجهون للقناة ، كان الاخوان المسلمون يشنون حملتهم لتحطيم محلات بيع الخمور وأماكن اللهو في القاهرة والاسكندرية ويطلقون الرصاص على العشاق في الشوارع المظلمة والضواحي ، داعين للتعصب الديني والفوضى والحقد . هكذا بدأ حريق القاهرة ، عندما أخذت فرق الحراقين عملها في القاهرة ، ومعظمها ينتمي الى منظمة حزب الفتاة الفاشستي ، ورجال متعصبين من « شباب محمد » يقولون بالرجوع الى الصحراء ، واعضاء منظمة الاخوان السرية . ان الذين أحرقوا القاهرة ، هم الذين مدهم هذا الحريق بحجة لتحطيم الكفاح الوطني ، (وتشويه النضال الجماهيري الشريف) ، نهائيا هذه المرة ، وهو على أهبة تشييد ثورة شعبية حقيقية يدعمها الفلاحون كلهم . ففي مساء ٢٦ كانون الثاني ، بينما كانت القاهرة تحترق أمر فؤاد سراج الدين بتوقيف ٢٥٠ شخصا ، أكثرهم من الوفديين والشيوعيين الفدائيين ، وفرض حظر التجول .

يقول ، أنور عبد الملك ، الذي كما أشرت ، قد استقيت من كتابه معظم المعلومات التاريخية الواردة : « من الحريق الى الانقلاب العسكري انقضت ستة أشهر حاولت القوى الرجعية خلالها ان تستعيد السيطرة على الوضع ، بواسطة منع التجول ، وفرق البنادق الآلية التي كانت تزرع طرق العاصمة التي احترقت . وبانتظام ، خلال ستة أشهر تعاقبت اربع وزارات : علي ماهر ، نجيب الهلالي ، حسين سري ، ونجيب الهلالي من جديد . ماذا حدث ؟ بعـد أن عجزت البورجوازيـــة المصرية عن تحقيق مهمة الثورة الوطنية المزدوجة ــ الاستقلال ، وخصوصا جعل الاقتصاد عصريا هو والحياة الاجتماعية ــ وذلك عن طريق الاحزاب التقليدية ، أخذت تبحث عن طريق جديد لها : وصمم جناحها الصناعي على فرض سيطرته على الحكم ، ضد الجناح الارضي الرجعي المتخلف .

ولكن عليها أن تنتبه للحركة الشعبية التي قد تتجاوز مساندتها التامة الأهداف المحدودة لفريق مصر واتحاد الصناعات المصري • وبالمقابل ، كان الانتاج الصناعي في عام ١٩٥٠ يمثل ٥٦ ٪ من مجموع الانتاج المصري • وقد لجأ كبار ملاكي الارض ، الـــذين ما زالوا يسيطرون على المسرح السياسي ، الى كل الحيل ليحدوا من التوسع الصناعي وتأثيره السياسي والاجتماعي ، ففي أيلول ١٩٥٠ اتخذت الحكومة سلسلة من الاجراءات ، كي تكبح توسع الجناح الصناعي ، ضريبة الدخل العقاري ، والارباح التجارية ، وغير التجارية والارباح الصناعية والدخل المهني ، ثم في ١١ أيلول فرضت ضريبة اضافية على الارباح التجارية والصناعية •

ويتابع أنور عبد الملك : « لقد وضح الآن للصناعيين ان الاحزاب التقليدية لا تملك القوة ولا الارادة للانتقال من مصر الزراعية ، التي يستعبدها نوع واحد من الزراعة وكابوس الماضي ، الى مصر الصناعية التي تتجه نحو العصري والفعالية والقوة داخل العالم العربي • وأكبر هذه الاحزاب ، الوفد ، وقع بين أيدي كبار الملاكين العقاريين • أما جناحه اليساري الذي يفهم ضرورة التطور الاقتصادي والاجتماعي فمرتبط بالشيوعيين ارتباطا خطرا ••• والحزب السعدي نفسه ، رغم ارتباطه برأس المال الصناعي وانصرافه الى اتباع سياسته ، فانه يفتقد الاطارات الضرورية لفتح الثغرة المطلوبة » • وهكذا « أخذت البورجوازية الصناعية تحاول الوصول الى تعبير سياسي عنها ••• بقيت قوة واحدة في الميدان ، تنتصب بفخر ، يحيطها الشعب بالعطف والاحترام وينظر اليها نظرته الى ضحية لفاروق » • وهذه القوة هي الجيش ، وهي القوة المنظمة الوحيدة حقا ، التي خرجت نقية الصفحة من أوحال حرب فلسطين وحريق القاهرة • يقول عبدالناصر في مقدمته لكتاب م• م• عطا « مصر بين ثورتين » : « ان الدافع الاول الذي شبت من أجله الثورة هو توسيع المجال الحيوي أمام تزايد السكان في السنوات الاخــيرة زيادة تعد بالملايين ، مع اصابة عجلـة الانتاج بالتوقف أو الشلل ، مما هدد البلاد بأخطار جسيمة » •

لقد فشل النمو الرأسمالي التقليدي في الخروج من اطار التخلف الانتاجي العام ، وحل المسألة الوطنية المتأزمة ، كما عجز الائتلاف الطبقي الحاكم عن مواجهة اندفاع الجماهير الثوري التي انطلقت تكافح من أجل القضاء على السيطرة الاستعمارية والاستغلال المترتب عليها (ونحن لا نريد هنا ، أن نستنتج التصور الساذج التالي وهو ان اليسار المصري ، بمختلف أجنحته ، كان مهيأ تماما لاستلام السلطة بل نريد أن نؤكد ان تطور الحركة الشعبية الى درجة أعلى من الوعي والتنظيم والترابط كان من الممكن ان يؤدي باليسار لاستلام السلطة ، اذ ان ثمة مشاكل ذاتية وموضوعية لم تكن تسمح ، وقتها ، بالاستيلاء على السلطة ، ولكن المهم ان الحركة الناصرية أتت لتجهض امكانية تطور الحركة الجماهيرية) ، كما كان عاجزا عن القيام باصلاحات سياسية واقتصادية جزئية تؤدي الى انتعاش وقتي للاقتصاد الرأسمالي •

هكذا أصبح الطريق الرأسمالي المصري ، مهددا ، وأخذت هذه الحقيقة تتضح أمام الجماهير ، ولكن نظرا لغياب قيادة بروليتارية واعية ، اتجهت الفرصة لقوة طبقية بورجوازية قومية • لقد كانت حركة الجيش ، بشكل موضوعي ونسبة الى صراع القوى الطبقية في تلك الفترة ، محاولة لانقاذ الطريق الرأسمالي المصري الذي بات مهددا • **فلم تكن هذه الحركة الا تمثيلا لمصالـــح البورجوازية ، من الناحية الجوهرية ، وخاصة البورجوازية الصناعية ، تستند في ذلك على قوى بورجوازية قومية لم تكن تنتمي الى التحالف الطبقي القديم الحاكم** • المهم ان ثورة ٢٣ يوليو ، لم تأت ، بأية حال من الاحوال ، لتعبر عن البورجوازية الصغيرة كطبقة ، وسوف نتعرض لذلك بعد قليل • وقد يكون من المفيد هنا أن نشير ، وخاصة الى أولئك الذين يتصورون ان نهاية الشكل السياسي لحكومة بورجوازية ما ، يرتبط بالقضاء على الطبقة البورجوازية بشكل جوهري ، الى اهمية هذه الأدلة النظرية من كتاب لينين « خطتا الاشتراكية في الثورة الديموقراطية » ، يقول : « فاذا شئتم أن تبحثوا المسألة من الوجهة « التاريخية » فان مثال أي بلد من بلدان أوروبا سيبين لكم أن جملة من الحكومات غير « الموقتة » ، اطلاقا ، هي التي نفذت المهـــام التاريخية للثورة البورجوازية ، حتى ان الحكومات التي تغلبت على الثورة قد اضطرت الى تنفيذ المهام التاريخية لهذه

الثورة المغلوبة » ٠

ان « جملة من الحكومات » مؤهلة لتنفيذ المهمات التاريخية ، (أو بعضا من هذه المهمات على الأقل) ، للثورة البورجوازية ٠ ولكن ، عندما تكون هذه البورجوازية ضعيفة التكوين الاقتصادي والسياسي ، (ويبدو ان سمة الضعف المزدوج هذا ، أصبحت على وجه التقريب ، ضرورة حتمية في معظم البلدان المتخلفة في عهد الامبريالية) وتواجه ، في الوقت نفسه ، قوى جماهيرية أخرى ، ناضجة الى حد ما ، فانها لا يمكن أن تسير بثورتها الديموقراطية البورجوازية نفسها ، بشكل حاسم ومنسجم الى النهاية ٠ يقول لينين في الكتاب المذكور : « الثورة البورجوازية هي على وجه الدقة انقلاب يكنس بأشد الحزم بقايا الماضي ، بقايا القنانة ٠٠٠ ويؤمن على أكمل وجه تطور الرأسمالية بمنتهى الاتساع والحرية والسرعة » ٠

أما عندما تواجه البورجوازية بقوى طبقية ، مستقلة عن قيادتها السياسية ، فانه يكون من الافضل لها « ٠٠٠ أن تعتمد في نضالها ضد البروليتاريا على بعض بقايا الماضي ، مثلا على الملكية، والجيش الدائم ، الخ ٠٠٠ ومن المفيد للبورجوازية أن لا تكنس الثورة البورجوازية جميع بقايا الماضي ببالغ الحزم ، بل أن تبقي على بعضها ، أي ان لا تكون هذه الثورة منسجمة تماما ، أن لا تسير الى النهاية ، أن لا تكون حازمة لا هوادة فيها » ٠

أي انه من الأفضل للبورجوازية ، في هذه الحالة ، ان يتم التحول الديموقراطي البورجوازي لا بالطريقة الثورية ، بل بالطريقة الاصلاحية ٠ يقول لينين في الكتاب المذكور نفسه « ٠٠ ان البورجوازية تخون قضيتها عينها ، ان البورجوازية تخون قضية الحرية ، ان البورجوازية عاجزة عن التحلي بنزعة ديموقراطية منسجمة ٠ فالأجدى للبورجوازية أن تتم التحويلات الضرورية في الاتجاه البورجوازي الديموقراطي بمزيد من البطء والتدرج والحذر ، وبأقل من الحزم ، أن تتم بواسطة الاصلاحات لا بواسطة الثورة ، وأن تكون هذه التحويلات لطيفة قدر الامكان ازاء المؤسسات الاقطاعية « المحترمة » ـ (الملكية مثلا) ، وأن تسهم هذه التحويلات بأقل قسط ممكن في تطوير المبادرة الثورية والعزيمة لدى سواد الشعب اي لدى الفلاحين وخصوصا لدى العمال ٠٠ »

ونستطيع أن نلمس هذه الحقيقة وخاصة الفكرة الأخيرة ، منذ الاسابيع الأولى للثورة الناصرية ٠ يقول انور عبد الملك : « ٠٠ لقد هز انقلاب الضباط الاحرار ، وخلع الملك السابق فاروق ، القلوب وأهاج المخيلات في القرى (التي دخلت المنظمات الماركسية الى قسم كبير منها) ٠ بدأ الحديث عن الاصلاح الزراعي ، ووصلت أصداء الثورة من مراكز عمالية ٠ وبلغت البلبلة السياسية أوجها ودفع البعض بالأمل حتى أمنية ثورة شعبية حقيقية ٠ وفي كفر الدوار حيث توجد مصانع انجليزية ـ مصرية (كان رأس المال الانجليزي غالبا ويدير المجموع أحمد عبود) قرر العمال الاضراب ، وراح منظماه ، مصطفى خميس ومحمد حسن البكري ، يخطبان في الجماهير حيث يتآخى عمال وفلاحو المنطقة ، ويتحدثان عن الزمان الجديد وعن نهاية البغي والعسف ٠ نحن في ١٣ آب ٠ في اليوم نفسه حاصر الجيش المصنع وفرق المتظاهرين وانشأ المحكمة العسكرية التي حاكمت واعدمت القائدين العماليين فورا ٠ وفي اليوم التالي شنقا عاليا ٠ منذ البداية حطمت حركة الجيش بالارهاب أول محاولة ثورية نابعة من قيادة شعبية وقديرة ، رغم عدم وضوح الاهداف ، قادرة على ان تعطي ثورة فلاحية واسعة النطاق »

أهداف الاصلاح الزراعي

كانت الغاية من ضرب امتيازات الارستقراطية الزراعية هو الحد من سلطتها السياسية على جهاز الدولة ، (أكثر من كونه اجراء بورجوازيا جذريا) ، وذلك لصالح الجناح الصناعي من الناحية الاقتصادية ، دون أن يترك لهذا الجناح الصناعي من البورجوازية السلطة السياسية ٠ وبالنسبة لطبيعة الاصلاح الزراعي ، فان غالبية الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين لم يحصلوا

على شيء لأن توزيع الاراضي قام لصالح بعض فئات صغار الملاكين والمستأجرين . لقد كان هذا الاصلاح الزراعي ، الذي نفذ من فوق ، لصالح أقلية ضئيلة ، يهدف لمنع الفلاحين من القيام بأية انتفاضة أو مبادرة ثورية . والجدير بالذكر انه على اثر حريق القاهرة ، في شباط ، أصدرت نظارة الخارجية الاميركية منشورا تضمن تحبيذ الاصلاح الزراعي كاجراء مهم لمكافحة الشيوعية ! وفي الوقت نفسه ، تجني الدولة من الاراضي التي تملكها ، والتي سميت « اراضي الاصلاح الزراعي » ، لان هذه الاراضي لم توزع على الفلاحين بعد ، ربحا بلغ ٢،٧٥٤،٨٠٠ جنيه عام ١٩٥٥ ، محتلة هكذا مكان كبار الملاكين في استغلال الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين الذين لم يتغير شيء من وضعهم الاجتماعي .

وقد أعربت أجهزة رأس المال الصناعي والمصرفي عن ترحيبها بالاصلاح الزراعي ، لأن أي اصلاح مهما بلغ من الجذرية يبقى، بالنسبة اليهم، أفضل من فوضى حركة جماهيرية. وقد تضمن تقرير لاتحاد الصناعات ١٩٥٢ ما معناه : قد يكون الاصلاح الزراعي بشرى لصناعتنا ، اذ أن الاراضي المحروثة وازدهار الاقتصاد الزراعي عامة كفيلة بدفع انطلاقة حركة رؤوس الاموال والازدهار الصناعي الى الأمام . اذن لم يكن المقصود بالاصلاح الزراعي ،كما روجت الدعاية الناصرية فيما بعد، تحويل رأسمالية من طراز استعماري للاشتراكية ، بفعل ساحر ، بل الانتقال بهذه الرأسمالية المتخلفة التي تغلب عليها الزراعة ، الى رأسمالية حديثة ، عن طريق الاشكال الموجهة . يقول محمد نجيب في مذكراته : « عملنا كل ما يمكن عمله ، منذ اللحظة الأولى ، لاستئصال أسباب الشيوعية في مصر ، أي قضينا على الملكية العقارية ، والنظام غير العادل للملكية العقارية ، والازدراء التام بحقوق العمال ، والاحتلال الاجنبي البغيض » . ونستطيع أن نرى ، أنه منذ الايام الأولى للثورة ، وجهت دعوات واضحة لرأس المال الاجنبي ، ونلاحظ كذلك انه بعد الانقلاب ، باسبوع ، عدل القانون رقم ١٣٨ الصادر سنة ١٩٤٧ بشأن الشركات المساهمة وخفضت نسبة المساهمة المصرية الاجبارية في رؤوس الاموال من ٥١٪ الى ٤٩٪ ! كان المطلوب، بشكل عام، تشجيع رأس المال، مصريا كان أم أجنبيا ، وتوظيفه في المشاريع الصناعية لدفع البلاد الى الازدهار . ولكن كيف يمكن لرأس المال الاجنبي أو بمعنى أدق ، الامبريالية ، أن تسمح بانماء الاقتصاد الوطني ؟ ان أقصى ما يمكن أن تسمح به الامبريالية هو انشاء بعض الصناعات التحويلية وتحسين الانتاج الزراعي ، الى حد ما ، وذلك بهدف رفع القدرة الشرائية للسوق التي تريدها حكراً لها . ان المشكلة الرئيسية التي واجهها النظام الراسمالي الناصري ، وما زال يواجهها بدرجة مختلفة حتى اليوم ، هي مشكلة التراكم الابتدائي لرأس المال ، والضرورية لعملية التحول الراسمالية للمجتمع .

سيطرة الجهاز التنفيذي

اعتقد ان أول ما يميز التجربة الناصرية ، هو سيطرة الجهاز التنفيذي على أوجه الحياة السياسية فالناصرية لم تسمح بنشوء اية سلطة تشريعية ، تمثيلية ، منتخبة ، تمثل مختلف الاتجاهات والنزعات البورجوازية ، لمراقبة الجهاز التنفيذي ومحاسبته . ان الدور الذي لعبه الجهاز التنفيذي (القيادة الناصرية) طوال فترة صعود الطبقة البورجوازية البيروقراطية الجديدة ، جدير بالاهتمام (وسوف اتعرض له بشكل تفصيلي أوسع في مكان آخر) ، وقد تمكن هذا الجهاز ان يحسم الصراع بين اجزاء البورجوازية المصرية بضرب الاجزاء الأخرى من الطبقة الرأسمالية لصالح البورجوازية البيروقراطية ، اي للفئات التي نمت خلال تدخل الدولة وقيادتها لقطاعات واسعة اساسية من العملية الانتاجية . وليست هذه أول مرة في التاريخ ، نرى فيها الجهاز التنفيذي لطبقة معينة يضرب اجزاء معينة ومهمة احيانا من طبقته نفسها لاجل مصالح الطبقة ككل على المدى البعيد ، ولتوكيد المركزية . (فرنسا ، ابان حكم لويس الرابع عشر ، حين ضرب الملك الاقطاعي سلطة النبلاء الاقطاعيين لصالح المركزية الاقطاعية) . وكنتيجة لتصميم الجهاز التنفيذي على احتكار السلطة السياسية ، نستطيع أن نلمس تردد الجناح الصناعي ، (الحليف للناصرية من

١٩٥٢ ـ ١٩٦١) في توظيف أمواله في مشروعات طويلة الأمد • وقد برهنت الاحداث والتجارب للقادة العسكريين المشرفين على الجهاز التنفيذي (ان سلطة الجهاز التنفيذي المطلقة ، قد تكونت كحصيلة عامة لضرب الحريات الديموقراطية كلها والقيام ببعض الانجازات الوطنية التي فرضها عليها الاستعمار فرضا ، بعد أن سعت طويلا لاستمالته !) انه لا البورجوازية المصرية ، حيث ما زالت الارستقراطية الزراعية شبه الرأسمالية ، أكبر مالك للثروة ، (بالاضافة الى البورجوازية العقارية) ، ولا رأس المال الأجنبي الامبريالي ، يرغبان في مساعدتهما في المهمة الاصلاحية الرأسمالية • ومن الناحية الاقتصادية والسياسية ، كانت ظاهرة تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد نتيجة حتمية مباشرة لعجز كل أشكال البورجوازية التقليدية عن حل المشكلات التي يطرحها الانتقال من راسمالية امبريالية يغلب عليها الجانب الزراعي الى رأسمالية صناعية عصرية •

ولكن المشكلة كانت في الحاجة إلى الحد اللازم من التراكم الرأسمالي • ومن هنا كان قرار تاميم قناة السويس التقدمي ، يهدف بالدرجة الأولى الى تحويل واردات السويس لعمليات الاستثمار • لم يكن كل شيء معدا نتيجة خطة واضحة المعالم ، بل نتيجة التجربة والخطأ ، أي ما تفرضه الاحداث سواء من مشكلات أو طرق مفتوحة • وقد أسهمت حرب السويس في دفع الدولة الى اصدار قوانين تأميم كل المصارف التجارية وشركات التامين والوكالات التجارية الاجنبية وتحويلها الى شركات مصرية عام ١٩٥٧ • (لم يضرب الكومبرادور الا في سنة ١٩٥٧) • كما وجد العسكريون المسيطرون على السلطة التنفيذية في الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا ، امكانية جديدة للتفاهم مع البورجوازية الصناعية ، الحليفة المترددة ، ذلك أن قيام الوحدة في تلك الظروف التاريخية ، لم يكن لتجميد حركة اليسار في سوريا ومصر على السواء وحسب ، بل سيكون كذلك بداية حركة استثمار وفتح اسواق جديدة لتصريف المنتوجات المصرية وتوظيف حملة شهادات الجامعة الخ •• ومن هنا كان ارتياح البورجوازية الصناعية المصرية لقيام الوحدة وكانت الدولة قد بدأت بالتدخل الفعلي ، وعلى نطاق واسع ، في مجرى العملية الاقتصادية منذ ١٩٥٧ عندما انشأت الهيئة العامة للسنوات الخمس للصناعة ، والمؤسسة الاقتصادية لادارة نصيب الحكومة في بعض الشركات التي تسهم فيها أو تنشئها الدولة • وقد بلغت جملة استثمارات الدولة في الشركات الصناعية ٤٩ مليون جنيه عام ١٩٦٠ •

البورجوازية "البيروقراطية"

وقد بررت الدولة دخولها مجال النشاط الاقتصادي عن طريق المؤسسة الاقتصادية على انه مكمل لنشاط القطاع الخاص وليس منافسا له ، بمعنى ان النشاط الحكومي ينبغي أن يتجه الى المجالات التي يحجم القطاع الخاص عن القيام بها ، لأنه غير مستعد لتحمل المخاطرة فيها (وكنتيجة منطقية ، لتردده السابق ، كما شرحته قبل قليل ، ولأن البورجوازية الصناعية المصرية لم تكن تتجاوز طبيعة المجالات الاستهلاكية السريعة الربح ، نظرا لولادة هذه البورجوازية ضمن الآفات والثغرات التي حددها وفرضها النظام الامبريالي بشكل موضوعي ، لنمو الرأسمالية الصناعية) ، على انه من الممكن أن تباع هذه المشروعات بعد أن يثبت نجاحها الى القطاع الخاص ! جاء في نشرة اتحاد عام الغرف التجارية في عام ١٩٥٧ ان « المشروعات الضخمة لم يكن من السهل تركها للنشاط الفردي لارتفاع درجة المخاطرة وطول المدة اللازمة لحصول المشروع على عائد مجز » • ولكن هذا لم يؤد في الواقع الا الى ازدياد حذر وتردد البورجوازية الصناعية البعيدة عن ممارسة السلطة السياسية مباشرة • وقد لعبت المؤسسة الاقتصادية دورا اساسيا حاسما في التدريب الاقتصادي بالاعتماد على كوادر الطبقة البورجوازية البيروقراطية الجديدة ، التي مهدت بنفسها الطريق أمام نشأة القطاع العام الموسع ١٩٦١ • ومع تقدم التجربة وخبرات السلطة في العملية الاقتصادية ، اتضحت للجهاز التنفيذي ، بعض الشروط المبدئية والعلمية اللازمة لتحقيق التصنيع والتراكم الابتدائي لرأس المال وهي المشكلة الاساسية التي واجهها النظام على الصعيد الاقتصادي • ويجب

ان نسجل هنا أيضا ، افلاس الطريق الراسمالي ، بواسطة المشروعات الخاصة ، في ميدان التنمية الاقتصادية • اذ يلاحظ انخفاض وتدهور معدل تكوين رأس المال الثابت (وليس الدائري) في القطاع الخاص من ١١٣ مليون حنيه في الفترة ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ الى ٧٦ مليون جنيه في الفترة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ • وهذا **يعني ان القطاع الخاص ، لا يعمل على توسيع اطاراته وأسسه المادية بقدر ما** يهمه ادرار ربح سريع • وقد كانت قرارات التاميم اللاحقة ضرورة تاريخية للخروج من أزمة الاطار الرأسمالي التقليدي نحو التنمية (معظم المعلومات الاقتصادية الاخيرة من دراسة محمود عبد الفضيل حسين في « دراسات عربية » • « مشكلات التخطيط في ج• ع• م• » • العدد ١١ أيلول ١٩٦٩) وهذه التاميمات تعني ، من الناحية السياسية والفنية ، ان البورجوازية الصناعية والمصرفية الكبيرة لم تكن تتعاون مع الحكم ، وكانت تشكل ، بمفكريها الاقتصاديين وباطاراتها الكبيرة والمتوسطة وأموالها التي تمتد للأوساط السياسية وبنوع خاص لمجلس الأمة والصحافة والطباعة والتعليم ، قوة مستقلة • ان ظاهرة تدخل الدولة ، بهذا الشكل أو ذاك ، ليست بالظاهرة الجديدة ، فقد حدث هذا في الغرب على أثر الأزمة الخانقة للرأسمالية في سنوات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ • وظاهرة تدخل الدولة هذه ليست سوى محاولة لانقاذ الطريق الرأسمالي ، سواء من أزماته الدورية الخاصة ، أم من شتى المشاكل والعوامل السياسية الاجتماعية الأخرى •

كان التاميم ، في مصر ، خطوة تبدو للوهلة الأولى متعارضة مع المصالح المباشرة لراس المال ، فالتاءيمات وان كانت تعبر بشكل جزئي عن الطبيعة الاجتماعية لملكية وسائل الانتاج ، (مما يسمح احيانا ، وكما حدث في مصر بالفعل ، للقوى البورجوازية بتبريرات اشتراكية وشعارات ديماغوجية، هدفها الاساسي امتصاص النقمة الشعبية وتاجيلها) ، الا انها تخدم في **الوقت نفسه ، المصالح البعيدة لراس المال ،** وتحافظ على العلاقة الاستغلالية القائمة بين العمل **الماجور وراس المال •**

ان التناقض الحاصل هو بين قطاعين من البورجوازية ، قطاع بورجوازي بيروقراطي يستند الى السلطة السياسية ، وخاصة الجهاز التنفيذي ، وقطاع بورجوازي صناعي خاص ، محدود الأفق ضعيف التركيب والبنية ولا يستند الى اية سلطة سياسية فعالة ، سواء رسمية ، أو جماهيرية مستقلة • **ان القوى الاجتماعية** الموجهة للتاميمات ليست قوى **البورجوازية الصغيرة ، بل هي القوى البورجوازية البروقراطية القومية التي تمت خلال عملية تدخل الدولة في العملية الانتاجية • وهذه البورجوازية البيروقراطية** قد ترعرعت من خلال الصراع والتحالف **مع الجناح البورجوازي الصناعي ، طوال الفترة من ١٩٥٢ ـ ١٩٦١** ، وقد يكون التعقيد والغموض اللذان يحيطان بهذه الفترة ، نابعين من هذه النقطة التي تحتاج ، في الواقع ، الى الكثير من المتابعة والتحليل العلمي • يروج البعض ، احيانا ، مفهوما ، سبق أن ردده عادل غنيم في دراسته عن « الطبقة الجديدة » في مجلة « الطليعة » القاهرية • يؤكد هذا المفهوم بأن ما يميز « الطبقة الجديدة » التي تضم الكوادر الادارية والفنية والعسكرية التي تحتل مراكز القيادة في الدولة وفي الانتاج ، هو أنها تتمتع بدخل مرتفع بالنسبة الى مجموع العاملين • ان مسالة الدخول هذه تحتوي تعريفا جزئيا ناقصا لماهية الطبقة الجديدة ودورها الفعلي • فما يميز الطبقة الجديدة هو كونها تسيطر على تحويل الانتاج تبعا لمصالحها وآفاقها الخاصة (وليس لمصلحة واحتياجات الجماهير الشعبية) • وهي بالتالي مهيأة بواسطة مراكز القوى التي تخلقها على المدى التاريخي ، للتحول الى طبقة رأسمالية عادية بعد تفكيك سيطرة الجهاز التنفيذي والمركزي على العملية الانتاجية • واعتقد ان هذه السمة لازمة لكل بلد رأسمالي ، مارست فيه الدولة سلطة التقرير نتيجة ظروف تاريخية واقتصادية في مرحلة معينة ، وحيث لا نجد للجماهير ومنظماتها أية رقابة على قيادة العملية الانتاجية أو مشاركة فيها • وسأتوسع في شرح السمات الخاصة للطبقة الجديدة ، في مكان آخر من هذه المقالة • المهم انه لا يمكن اعتبار كل العناصر التكنوقراطية والادارية الخ من الطبقة الجديدة • ان بعض هذه العناصر مستفيدة ، الى حد كبير ، بالمقارنة مع وضع الجماهير الشعبية • ويوجد هنا فرق كبير من هذه الناحية : فالتكنوقراطي يبذل جهدا معينا ، وان لم يكن غير مباشر ، في العملية الانتاجية ، والأجر المرتفع الذي يتقاضاه بالنسبة للجهد الذي يبذله (ولا سيما كما اسلفنا بالمقارنة مع وضع العاملين) يمكن اعتبـــاره مشاركة في استغلال الجماهير الشعبية ، بطريقة غير مباشرة ، ولكن بالمعنـــى

الضيق للكلمة ، لان دخله الاساسي ليس ناتجا من استغلال عمل الغير ٠

لم تكن التأميمات « لمصلحة الفريق العسكري الذي أصبح سيد القطاع العام » فحسب ، وكما يشير أنور عبد الملك ، بل لمصلحة الطبقة الجديدة البورجوازية البيروقراطيـة النامية في مختلف المجالات الانتاجية والسياسية ٠ وقد كانت التأميمات موجهة ، بشكل اساسي ، من الناحية السياسية ، الى اضعاف نفوذ البورجوازية الزراعية القديمة وبورجوازية القطاع الصناعي والمصرفي ، حليف الأمس القريب ٠ والحقيقة ان الاتجاهات الاساسية للسياسة الناصرية ، كما يقول انور عبد الملك ، كانت قد فرضت عليها فرضا ، وقد بدأت هذه الاتجاهات المفروضة ، وكما اشاعت الدعاية الناصرية وبررتها (بشعار التجربة والخطأ المشهور) ، كأنها ضرورة داخلية يفرضها منطق النظام نفسه ٠ وبهذا المعنى ، فقد اعطت التأميمات مبررا ديماغوجيا قويا للبورجوازية البيروقراطية كي تضفي على أعمالها ونظامها طابعا شعبيا معاديا للاستعمار والرأسمالية ومن أجل اقامـة النظـام « الاشتراكي » دون صراع الطبقات ، في الوقت الذي نجد فيه الشيوعيين يقادون الى معسكرات التجمع في الواحات ٠

طرح المسأله الاساسيّة

نستطيع الآن ، أن نطرح المسألة الاساسية بهذه الطريقة : أية فئات من البورجوازية الصغيرة استفادت من النظام الناصري وصعدت منها بعض العناصر المكونة للطبقة الجديدة ٠ ذلك لأن هناك ، دائما ، فرقا جوهريا بين أن يكون نظام ما يمثل طبقة من الطبقات ، او تحالفا طبقيا معينا ، وبين الطبقات الأخرى المستفيدة من هذا النظام بالقياس الى وضعها في النظام السياسي السابق ،وبالتالي بمقارنة وضعها مع اوضاع الجماهير الشعبية الكادحة ٠ كان النظام الناصري من الناحية الجوهرية ـ وكما اشرت ـ محاولة لانقاذ الطريق الرأسمالي المصري ، بواسطة افق قومي تقدمي الى حد معين ، ومهما تعددت وتسترت الاشكال البورجوازية في الفترة الاولى ١٩٥٢ ـ ١٩٦١ ومنذ ١٩٦١ حتى اليوم ، ومهما كانت الشعارات السياسية التي تطلقها ، فانها لا تستطيع أن تنفي العلاقة الراسمالية الاستغلالية بين راس المال والعمل المأجور ٠ اي ان النظام كان ممثلا للبورجوازيـة المصرية مهما تعددت أشكالها ٠ وسنعرض ، الآن ، للطبقات والفئات المستفيدة المتحالفة أيضا ، التي يستند اليها النظام الناصري :

١ ـ البورجوازية المتوسطة في الريف ٠

٢ ـ قشرة ضئيلة عليا من العناصر البورجوازية الصغيرة في المدينة ٠ وهذه الفئة الاخيرة هي التي صعد منها الكثير من كوادر وعناصر البورجوازية البيروقراطية الجديدة بالتحالف مع بعض العناصر البورجوازية القديمة « المروضة » من قبل النظام ، أي التي اصبح افرادها يعملون كمديرين أو موظفين كبار للشركات أو المصانع التي كانت تملكها في الماضي وذلك بالاشتـراك مع العناصر البورجوازية البيروقراطية الجديدة وتحت قيادتها في اغلب الاحيان ٠ والجدير بالذكر انه من حيث الاصول الاجتماعية ، فان تنظيم « الضباط الاحرار » قد تشكل من هاتين الفئتين المذكورتين (اي من البورجوازية المتوسطة في الريف ، ومن قشرة عليا من البورجوازية الصغيرة في المدن) ٠ لكنه على الرغم من هذه الاصول ، مثل ، من الناحية الموضوعية والجوهرية بالنسبـة لصـراع القوى الطبقية والاهداف التي سعى لتحقيقها ، الرأسمالية المصرية على مختلف اشكالها : ففئة البورجوازية المتوسطة في الريف تعيش من استغلال عمل الفلاحين المعدمين والفقـراء على أرض تملكها هذه الطبقة أو تستأجرها من كبار الملاك ٠ وكانت هذه الطبقة تنمو في اطار الهيكل شبـه الرأسمالي القائم في الريف وتتأثر بالعلاقات السائدة فيه فتقوم بتأجير قطع صغيرة من الأرض ، وتستخـدم العمل المأجور في فلاحة الجزء الذي تحتفظ به ، محافظة على تخلف وسائل الانتاج ، ومعتمدة أساسا على قوة الفلاحين العاطلة ، حتى انها تعمد احيانا الى الاحتفاظ بهم في اوضاع ملائمةللحصول

على قوة عملهم بأرخص الأشكال الممكنة . وكان هذا الموقف ، يفترض بالضرورة قبـــول التحول التدريجي البطيء الى الرأسمالية دون تحطيم القيود والتقاليد الاقطاعية بالطريقة الثورية ، اي دون السماح للجماهير في الريف بالتحرر من هذه القيود . وهم يلتقــون ، مــن هــذه الزاوية ، مع الارستقراطية العقارية في عدائها للفلاحين المعدمين وشبه المعدمين والفقراء ، من حيث كونهم فئتين استغلاليتين . الا انهما يتناقضان في محاولة كل منهما الحصول على أقصى ربح ممكن عن طريق الاستفادة من اجهزة الدولة والبنوك والعلاقة بالأجانب وغير ذلك .. وكان التسلط الاستعماري على السوق القومية ــ قبل الثورة ــ وجشع المصارف الكبيرة وامتيــازات الارستقراطيــة العقارية السياسية والاقتصادية ، يقف عائقا أمام الفلاحين الاغنياء ويحد من نموهم .

البورجوازيّة الصغيرة والنظام الناصري

القوة الاجتماعية الثانية ، تشكل فئة ضئيلة من العناصر البورجوازية الصغيرة في المدينة ، (والتي بولغ في حجمها وصور دورها في النظــام الناصري الجديد على أســـاس انه يمثـــل كل فئات واجزاء الطبقة البورجوازية الصغيرة) ، المتخصصة في مجالات العلم والتكنيك ، والمندمجة في أجهزة الدولة والانتاج الرأسمالي التقليدي ، ولكن في مراكز غير قيادية لا تسمح لها بالاشتراك في التحالف الطبقي الحاكم ، قبل الثورة ، وتشمل هذه الفئة الضباط غير القياديين ، المهندسين ، المديرين الفنيين ، الاقتصاديين الخ .. وقد كان لهذه الفئة ، على تباينها ، اساس طبقي هو ارتباطها بأجهزة كبت واستغلال الشعب ، وكونها مرشحة موضوعيا للصعود الى مراكز قيادية فيها ، اذا ما نما النظام الرأسمالي الذي كان يعاني مأزقا حقيقيا ، وتخلص من ثقل القوى الاجنبية والطفيلية التي تشله ، وتتسبب في أزمته الخانقة . ذلك لأن نمو البورجوازية في أنحاء البلاد يتضمن صعود فئة من كوادر المتخصصين ذوي الأصول البورجوازية الصغيرة (الذيــن لا يشاركــون في ملكية رؤوس الأموال ، والذين تمرسوا في خدمة الرأسمالية) الى المراكز القيادية في النظام الرأسمالي ، بحيث يصبحون جزءا لا يتجزأ من الطبقة الحاكمة ، اذ يستحيل على اصحاب الاعمال ان يقوموا بأنفسهم بكافة الاعمال المتعلقة بشئون الحكم والتخطيــط السياســي والاقتصــادي والعسكري والايديولوجي الخ .. ولكن هذا الطريق كان مسدودا في مصر أمام هذه الفئة ، طالما ظلت البلاد تحت سيطرة التحالف الحاكم . فقد كانت السيطرة الامبريالية المباشرة ، وغير المباشرة ، والتقاليد السابقة على الرأسمالية تحد من نموها وتجعل مقاييس الارتقاء الطبقي معايير سابقة على الرأسمالية مثل : الالقاب ، والروابط والاصول العائلية والعلاقات مع الارستقراطية شبه الاقطاعيـــة ، ولأن اختيار الكوادر القيادية كان يتم ، بشكل عام ، من بين الأجانب ، أو ابناء العائلات الارستقراطية والبورجوازية الكبيرة ، أو العناصر التي تحوز على ثقتهم . ومن هنا كان تناقض هـذه الفئة مـع التحالف الحاكم ، كما انها كانت في حاجة الى تخطي الاطار الاجنبي والارستقراطي شبه الاقطاعي للحكم ، والى توسيع السوق القومية ، وتجديد القاعدة الانتاجية ، الأمر الذي كان يعني في الوقت نفسه محاولة تخطي الازمة المحيقة بالطريق الرأسمالي المصــري من جانب ، وبلــوغ هــذه « الصفوة » البورجوازية الصغيرة غايتها من جانب آخر .

هذه هي الفئة الضئيلة الوحيدة من فئات البورجوازية الصغيرة التــي تمثلت في النظام الرأسمالي الناصري . وهي لم تعد ، اليوم ، تنتمي ، من حيث الوضع الاقتصادي الطبقي والوظيفة السياسية ، بشيء الى البورجوازية الصغيرة . بل انها تنتمي الى الطبقة البورجوازية البيروقراطية الجديـــدة .

وكانت هاتان الفئتان المذكورتان المتمثلتان في تنظيم الضباط الأحرار بشكل نموذجي تمتلكان القدرة العملية على التحرك السياسي السريع والحاسم بسبب انتمائهما الى جهاز مسلح ومركز ، أي انهما كانتا تتميزان بالصفات اللازمة لقيادة حركة التيار البورجوازي القومي الذي يهدف الى اقامة

نظام كبت ديكتاتوري فعال ، يستند الى الجيش ، ويمنع الجماهير من تهديد الطريق الرأسمالي . وبذلك يستطيع ان يكسب ثقة رؤوس الأموال الأجنبية ورأس المال الاميركي ، بشكل خاص ، آملا الخروج بهذه الطريقة من أزمة الطريق الرأسمالي ، بأسلوب جديد ، يتيح فرصة النمو أمام البورجوازية المصرية القومية .

ولكن هذا المشروع كان مستحيل التحقيق في ذلك الوقت ، فقد كانت الدول الرأسمالية التقليدية غارقة في أزمتها الطاحنة ، عاجزة عن مساعدة الدول الصغيرة المؤيدة لها في الخروج من المأزق الذي تعانيه . وقد لجأت القيادة الناصرية في البداية ، الى محاولة تنمية الاقتصاد القومي عن طريق الاستفادة من منافسة البورجوازية الاميركية لبورجوازية أوروبا الغربية ، الا ان تجربتها الخاصة أثبتت لها ان المجال الوحيد هو المنافسة بين البورجوازية الغربية التقليدية والاتحاد السوفياتي نتيجة التناقضات الحاصلة بينهما . واضطرت البورجوازيات الغربية ، نظرا للعروض والمساعدات السوفياتية الى أن تقدم الى النظام معونات فنية ومالية كانت قد رفضت تقديمها من قبل ، مما سمح (الى جانب المساعدات والقروض السوفياتية المهمة) بوجود انتعاش نسبي عن طريق اتساع وتطور قطاع الدولة الرأسمالي البيروقراطي ، وبنمو أجهزة الادارة والقمع . (وتنبغي الاشارة الى أن النظام لم يتجه الى الاعتماد على الاتحاد السوفياتي استجابة لرغبات الشعب في تحقيق الاستقلال والاشتراكية ، وانما استجاب لرغبات البورجوازية القومية) . وقد تصورت القيادة الناصرية ، بأنها ستتمكن من القضاء على مراكز القوى الاجتماعية في التحالف الحاكم ـ الارستقراطية العقارية والكومبرادور ـ دون الانعزال عن البورجوازية الكبيرة الصناعية ، بل انها ستكسب تأييد هذه الطبقة لسياسة التنمية . وقد رفضت كما رأينا ، قبل قليل ، ان تندفع هذه الطبقة في عملية التنمية أو التنازل عن ارباحها العالية والسريعة ، على الأقل ، وتوظيف جزء من هذه الارباح ١٠٪ بواسطة المساهمة ، مع قوى الطبقة البورجوازية الجديدة (التي نشأت وترعرعت من خلال التحالف والصراع مع البورجوازية الصناعية القديمة) ، في مشروعات طويلة الأجل . وهذا مما أدى الى ان تتولى البورجوازية البيروقراطية قيادة العمليات الاقتصادية الجديدة دون المساس ، في البداية ، وكما أوضحنا ، بالقاعدة الاقتصادية للبورجوازية التقليدية ، ثم الى ان تتولى كافة مسئوليات هذه العمليات عام ١٩٦١ ، بعد ان فشلت محاولتها مع البورجوازية التقليدية . وهكذا تحول الهيكل الاساسي والاقتصادي المصري من هيكل تابع كليا وعضويا للاستعمار الغربي الى هيكل يتمتع ، الى حد ما ، بقدر ضئيل ومؤقت من حرية الحركة والنمو ضمن الاطار الامبريالي العالمي . ومن هذه الزاوية ، نستطيع أن نقيس مدى تقدمية النظام الناصري ، وتبعا لمراحل تطوره المختلفة .

وجوه ايجابية

تجلى الوجه الايجابي للنظام بشكل اساسي ، في انه استطاع ، اثر انتعاشه ، أن يحل العلاقات الرأسمالية ، وان كان ذلك قد تم ببطء وتدرج ، محل العلاقات شبه الاقطاعية وشبه الرأسمالية . الا ان الوضع الطبقي للجماهير الشعبية ، رغم هذه التغيرات ، ظل على حاله (فلم يغير النظام من وضع ٨٠٪ من سكان الريف ، و ٥٠٪ من سكان المدن .) أما النظام من الناحية السياسية ، فهو نظام كبت للجماهير الشعبية وقد تسربت الاجهزة البوليسية الى كافة نواحي الحياة العامة والخاصة ، تراقب وتخنق أية مبادرة شعبية مستقلة . وكان ذلك نتيجة منطقية وضرورية لخط البورجوازية البيروقراطية الصاعدة التي واجهت طريقا رأسماليا متأزما ، وضرورة القيام باصلاحات عميقة في الهيكل الرأسمالي ، مما يحتم منع الجماهير الشعبية من الاستفادة من ضعف الهيكل الرأسمالي لصالح الطريق الثوري البروليتاري وانجاز المهمة الديموقراطية البورجوازية ، بالطريقة الثورية . وقد يكون الوهم الذي وقع في حبائله معظم المفكرين في تحليلاتهم السياسية بشأن البورجوازية الصغيرة ، ناشئا عن عملية الخداع والديماغوجية التي

مارسها النظام ، عن طريق التبني الشكلي لافكار جماهيرية صحيحة مثل معاداة الاستعمار وكبار الملاك والبورجوازية الكبيرة . ومما اكسب هذه الديماغوجية فعالية نسبية ، فترة من الوقت ، اضطرار البورجوازية البيروقراطية لخوض صراع بورجوازي ضد القوى الأمبريالية الغربية ، وضد البورجوازية التقليدية (وقد اوضحنا طبيعة ذلك الصراع) ، وكذلك ضعف الحركة الشيوعية المصرية التي لم تستطع ان تكشف أمام الجماهير الطابع المزيف لمعاداة الاستعمار والرأسمالية ، بل اننا نجد ان أكبر تنظيم ماركسي في مصر ، وقتها ، هو « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني » يقع في مثل هذه الأوهام . كما ان الاستهلاك الجزئي لايديولوجية البورجوازية الصغيرة وشعاراتها من قبل النظام ، لا يعني ان النظام يمثل البورجوازية الصغيرة ، لأن النظام ، من ناحية أخرى ، يستهلك الكثير من الايديولوجية الدينية الغيبية ويروج لها ، بالاضافة الى رفعه العديد من الشعارات العمالية والفلاحية (وخاصة في الميثاق) وهذا كله بهدف خداع الجماهير .

قبل الحديث عن وضع البورجوازية الصغيرة الحقيقي في ظل النظام الناصري ، سوف اتعرض بشكل سريع وعام الى الشروط التي تتحقق فيها العلاقة الاستغلالية الرأسمالية . فلا بد لكي تتحقق هذه العلاقة ، من أن توجد فئة اجتماعية ، غير مجموع الكادحين ، تتحكم في وسائل الانتاج الرئيسية سواء من خلال ملكية أفرادها المباشرة لهذه الوسائل ، أو من خلال جهاز دولتها ، وهي بذلك تحتكر السلطة الفعلية على عملية الانتاج وتتحكم في الفائض الاجتماعي للعملية الانتاجية . وبذلك يصبح العامل أو الفلاح العامل ، معزولا عن وسيلة العمل يدخل المصنع ، أو الحقل ، دون أية سلطة على العملية الانتاجية اذ انه لا يملك سوى قوة عمله المجردة التي تتحول الى سلعة تباع في السوق ، وتستخدم الفئة الرأسمالية التي تتحكم في وسائل الانتاج وعملياته هذه السلعة مثلما تستخدم بقية عناصر الانتاج الأخرى من آلات ومبان وأراض ومواد خام . وبذلك تتحكم في جميع العناصر الانتاجية ، وفي العملية الانتاجية من بدايتها الى نهايتها ، وبالتالي في ناتج هذه العملية وفي حجم الفائض وكيفية استخدامه . هذه العلاقة بين فئة تتحكم في وسائل الانتاج ، وفئة لا تملك التحكم في اي شيء ، ولا حتى كيفية استخدام قوة العمل التي باعتها ، هي علاقة الانتاج الرأسمالية . وتنطبق هذه العلاقة الرأسمالية في مصر على ٢٠٪ من سكان المدن (العمال) ، و ٨٠٪ من سكان الريف (من الفلاحين الذين لا يملكون شيئا) .

الوضع الحقيقي للبورجوازية الصغيرة في ظل النظام الناصري

لا تتشكل البورجوازية الصغيرة ، كما نعرف ، من طبقة متجانسة ، بل من فئات لا تبيع قوة عملها المجردة في السوق ، وان كانت لا تعيش ، اساسا ، من استغلال قوة عمل الغير ، بل من عملها هي . تنقسم البورجوازية الصغيرة المصرية ، في غالبيتها الساحقة ، (وكنا قد تحدثنا عن تلك الفئة الضئيلة من قشرتها العليا التي تحولت عناصر عديدة منها الى الطبقة الجديدة) ، الى قسمين :

١ ـ البورجوازية الصغيرة الكادحة التي يتشابه وضعها ، من زاوية معينة ، مع وضع الجماهير الشعبية (العمال والفلاحين الفقراء) ، من حيث انها تعمل بيدها وتعيش اساسا من عملها ، لا من عمل الغير . الا انها على عكس هذه الجماهير ، لا تبيع قوة عملها المجردة في سوق السلع ، لانها تملك (وسيطا) ، أي وسائل انتاجية فردية تحقق عملها من خلالها . وهي تتكون في الريف من الملاك والمستأجرين الصغار الذين يملكون أو يستأجرون مساحة تكفي ، بشكل عام ، الفلاح وأسرته . وتضطر هذه الفئة ، نتيجة عملية الاستقطاب الطبقي في الريف لصالح اغنياء الريف ، (نظرا لتأخر الوسائل الانتاجية المستخدمة وتخلف الطرق الفنية ، الى جانب المنافسة الرأسمالية الزراعية) ، تضطر في احيان كثيرة ، الى بيع جزء من ارضها وفي مرات كثيرة ، الى بيع أرضها كلها ، (عن طريق الديون المتراكمة عليها لغني الريف) والعمل عند اغنياء الريف كاجراء لمدة معينة . أما في

المدن ، فهي تتكون من الحرفيين الصغار الذين يعيشون من عملهم اساسا والذي يتحقق من خلال ملكيتهم لوسائل انتاجهم وتخصصهم الحرفي • وتعاني هذه الفئة ، ككل ، من الاستغلال الرأسمالي بشكل غير مباشر ، عن طريق السوق (سواء الرسمية أو السوداء) التي تتحكم فيها الوحدات الانتاجية الرأسمالية الكبيرة ، والوسطاء الكبار ، والمصارف والتعاونيات والى ما ذلك • بل ان جزءا من الفلاحين الصغار ما زالوا يعانون ، ايضا ، من استغلال العناصر الارستقراطية القديمة بشكل شبه اقطاعي • ولذلك فان مصلحة الغالبية الساحقة لهذه الفئة تتعارض موضوعيا مع بقاء الرأسمالية •

٢ ـ البورجوازية الصغيرة المثقفة (بالمعنى الواسع للكلمة) ، وهذه الفئة تعيش أساسا من عملها ولا تستغل عمل الغير الا بشكل ثانوي ، نتيجة كونها تملك ثقافة ما في اطار استغلالي يجعل من الثقافة امتيازا طبقيا • ويدخل في هذه الفئة الطلبة والاساتـــذة والكتـاب وصغار الموظفين الاداريين والفنيين المدنيين والعسكريين ، وصغار القائمين بالاعمال الحرة وما شابه ذلك • ويشكل الامتياز الثقافي عازلا بين هذه الفئة وبين الكادحين، ويتجلى في التطلعات البورجوازية وفي الاستعداد لاحتقار العمل اليدوي والقائمين به • ومما لا شك فيه ان الرأسمالية تفتح أمام جزء ضئيل للغاية من هذه الفئة ، أبواب الصعود الاجتماعي ، والوصول الى مراكز الطبقة الحاكمة ، احيانا ، أو شغل الوظائف والمناصب المتوسطة في أجهزة الدولة والانتاج • الا ان الغالبية العظمى من هذه الفئة ، تظل حبيسة وضعها الطبقي ، لأن البورجوازية تحتاجإليهم للقيام ببعضالاعمال الجزئية المحدودة• وهم من هذه الناحية أقرب الى المنتجين ، الذين يقومون بالأعمال اليدوية الجزئية • تشكل الفئتان المذكورتان الأغلبية الساحقة من الطبقة البورجوازية الصغيرة وتلتقي مصلحتهما الموضوعية مع مصلحة الطبقات الشعبية ، العمالية الفلاحية ، التي تتمثل في الغاء الرأسمالية ، فضلا عن مصلحتها المباشرة في الغاء الشكل البوليسي للحكم الذي يكبت حرية الفكر والجدل •

هذه هي البورجوازية الصغيرة « الحاكمة » •

نحن ، لا نريد هنا ، أن نقلل من خطر الاتجاهات البورجوازية الصغيرة وامكانيـة سيطرتها وقيادتها لقطاعات واسعة من الحركة الوطنية واليسارية ، وتضليلها لبعض فئات الحركة العمالية • لأننا ، من وجهة النظر البروليتارية ، نرفض اية ايديولوجية معادية لأية طبقة من الطبقات ونعمل على محاربتها حيثما ظهرت ، بما فيها ايديولوجية البورجوازية الصغيرة • ولكننا ، في الوقت نفسه نعمل دائما على تحديد الفروق والمسائل بدقة علمية ، (دون الوقوع في شراك العمومية ، والتصورات الذاتية) ونتعاون طبقيا مع هذه الطبقة أو تلك تبعا للظـــروف المعينــة ، الموضوعية والذاتية ، وذلك من خلال تحالفات مؤقتة تجاه عديد من المسائل والقضايا المشتركة ، في مرحلة سياسية معينة • والبورجوازية الصغيرة ، اليوم كطبقة ، حليف اساسي ، للجماهير العماليـــة والفلاحية الكادحة ، لانجاز مهمة البناء الوطني الديموقراطي بشكل حاسم ، بل هي قد تكون في مصر الآن ، من أشد الطبقات حساسية وصخبا وتحركا تجاه المسألة الوطنيـــة ومسألة الحريات الديموقراطية • والمسألة الوطنية اليوم في مصر ، يمكن اعتبارها بؤرة حادة لمجموعة من التناقضات الطبقية والسياسية المضغوطة ، والقابلة للانفجار •

وحتى ندرك أكثر ، اهمية التحالف مع هذه الطبقة البورجوازية الصغيرة في هذه المرحلة من مراحل النضال الديموقراطي ، وفي سبيل دحض الاوهام القائمة عن القيادة الناصرية « البورجوازية الصغيرة » • سوف أتعرض الى مسألة هذه القيادة ودورها الطبقي ، بشكل موسع •

الطريق الرأسمالي البيروقراطي ومسألة الجهاز التنفيذي

عرف النظام حيوية نسبية بين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٦٣ سمحـــت لـه بعبــور عدوان ١٩٥٦

الاستعماري الصهيوني ، فقد كانت هذه المرحلة مرحلة صعود البورجوازية البيروقراطية الجديدة اذ استلزمت مصالح الافراد والفئات والكتل المتفرقة التي تشكلت منها هذه الطبقة ، حدا أدنى من التضامن فيما بينها جميعا ، والحرص على تحقيق اهدافهم المشتركة ، هذا الحرص الذي تطلب وارتضى وصاية الجهاز التنفيذي على البورجوازية الصاعدة • فهذه الطبقة لم تشكل عن طريق تكوين ثروات رأسمالية فردية ، بل عن طريق تحكم السلطة التنفيذية البيروقراطية (وقد شرحت طبيعة الظروف والعوامل التي ساعدت على تثبيت السلطة التنفيذية ، في مكان آخر ، من هذه المقالة) ، بشكل تدريجي في الجهاز الرأسمالي الاقتصادي ، مما أهلها الى فرض رقابة مركزية على الأفراد والقطاعات المختلفة من البورجوازية البيروقراطية ، رقابة تهدف الى تنظيم شؤونها العامة ، والى تجميع وتوزيع الفائض الاجتماعي لصالح مجموع هذه الطبقة الجديدة • وقد امكن في تلك المرحلة توسيع وتنمية القاعدة الاقتصادية بشكل مؤقت في اطار السوق الرأسمالية العالمية ، وبالاعتماد على الأموال والخبرات الخارجية • وقد تكامل نمو هذه الطبقة من الناحية الاقتصادية فقط منذ ١٩٦٣ تقريبا ، بمعنى ان الهيكل البورجوازي البيروقراطي أصبح السند الرئيسي للعلاقات الانتاجية الرأسمالية ، بعد أن سيطرت هذه الطبقة على وسائل الانتاج الحاسمة •

وقد استندت في الريف الى الفلاحين الاغنياء (كما اسلفت قبل قليل) • الا ان تحقيق أماني هذه البورجوازية القومية في السيطرة على ادوات الانتاج الحاسمة ، كان يعني ، في الوقت نفسه ، انتهاء مرحلة حيويتها النسبية (من الناحية السياسية) ، سواء في الداخل أو الخارج ، اذ تبلورت في الافق عناصر تفاقم أزمة جديدة أكثر عمقا وتعقيدا ، اذ تفجرت هناك ، صفات هذه الطبقة ومراكز قواها الاستغلالية ، مما تطلب العمل على التخلص من الوصاية المركزية على الأفراد والقطاعات المختلفة من البورجوازية البيروقراطية • وقد بدأت مرحلة تقلص نفوذ الجهاز التنفيذي (القيادة الناصرية) ، منذ عام ١٩٦٢ ، تقريبا ، وتجلت بقوة في رفض المشير ، من العام نفسه ، الى رفض الوصاية والاشراف على الجيش من قبل الجهاز التنفيذي واعلانه حالة شبه تمرد في الجيش ، كما صرح عبد الناصر نفسه بعد هزيمة حزيران • هذا بالاضافة الى توسيع نطاق القطاع الخاص « الرأسمالية غير المستغلة » (حتى يصبح بالامكان استغلال الثروات المغتصبة ، سواء بطرق ملتوية أو غير ملتوية ، من قطاع الدولة استغلالا حرا) ، والى محاولة توثيق جديد للعلاقات مع المعسكر الغربي اذ لم تعد الفئات العليا من البورجوازية البيروقراطية (أي تلك الفئات التي تقبض على مراكز تسمح لها بجني الثروات) تخشى كثيرا على مركزها الجديد من قبل الامبريالية بعد أن بات من الصعب القضاء على مراكزها دون تحطيم الاطار الرأسمالي الذي سيطرت عليه بشكل رئيسي ، كما انها لم تعد تخشى من قوة التحالف الطبقي الحاكم القديم، بل أصبحت في حاجة الى ما تبقى من النفوذ السياسي لهذه الطبقات الرجعية ، لضرب بوادر التحرك الجماهيري ، وللاستفادة بالتالي من خبراتها الاستغلالية وعلاقاتها بالخارج ، فضلا عن ثرواتها المتراكمة • وقد رافق هذه المرحلة ، انتعاش كافة المظاهر السياسية شبه الاقطاعية في الريف لاحباط أية محاولة لتلاحم مثقفي البورجوازية الصغيرة الديموقراطية بفقراء الفلاحين ، (حادثة كمشيش ، واغتيال صلاح حسين من قبل بقايا الاقطاع القديم ، وحيث تولى المشير نفسه التحقيق في القضية (!) مما أدى الى كتم أي أثر سياسي لها ، بواسطة تفريغها من مضمونها السياسي العملي ، بشعارات شعبية ديماغوجية براقة ومحاكمات هزيلة) •

والواقع ، ان الفئات العليا من البورجوازية البيروقراطية أصبحت تضغط من أجل اخضاع الحياة الاقتصادية لحاجتها الطبقية ، أي الى الربح الفردي ، وليس الى متطلبات النمو الرأسمالي . مما تضمن تحديد مجالات الاستثمار والنمو واختيارها وفقا لقابليتها على ادرار ربح أكثر ارتفاعا وسرعة ، فضلا عن تحويل السيطرة على الفائض الاجتماعي من الجهاز التنفيذي الى المجموعات البيروقراطية • (وتوضيح الخطة الخمسية الأولى مدى التركيز على انتاج السلع الاستهلاكية السريعة

أما مسالة دور الجهاز التنفيذي المحير أثناء هذه المراحل ، فانه كان يهدف الى الاشراف

الربح) ، وازدياد محاولات الاختلاس والفساد والرشوة .

المركزي على اجزاء الطبقة ولاجل خدمة ورعاية مصالح البورجوازية ككل · فالجهاز التنفيذي ، الملتف حول قيادة عبد الناصر ، لم يكن اداة مستقلة « حيادية » ازاء عملية الصراع الطبقي ، بل كان يهدف ، بالدرجة الاولى ، الى الحفاظ على المصالح البعيدة للطبقة الجديدة ، في وجه القوة الشعبية ، أو تجاه « مراكز القوى » التي تحاول اجزاء الطبقة أن تقيمها بمعزل عن رقابة وسيطرة الجهاز التنفيذي واشرافه المركزي ·

والحقيقة أن الجهاز التنفيذي يمثل ، سواء على الصعيد المصري الداخلي أو العربي والعالمي ، موقعا اكثر تقدما من الاجزاء الاخرى المكونة للطبقة التي يمثلها في التحليل الاخير · ولكن هذا لا يعني عدم تأثره المتبادل بهذه الاجزاء والقوى الطبقية ، (ونلمس هذا التأثير في مؤتمرات القمة ، وشعار وحدة الصف ، بدل وحدة الهدف بعد ١٩٦٤) · وهو بالتالي ، لا يعني ، أيضا ، انه يلعب أو يمثل دورا مختلفا جذريا عن الطبقة التي يمثلها · **انه يمثل الطليعة السياسية للطبقة البورجوازية البيروقراطية** ، وككل طليعة سياسية لطبقة معينة ، تمثل موقعا متقدما عنها ، الى حد معين · كما لا بد لها من مواجهة شتى المشكلات والمسائل والتناقضات الثانوية ، بينها وبين طبقتها الخاصة · وقد أطلق هذا التناقض الثانوي ، الحاصل بين الجهاز التنفيذي « ومراكز القوى » ، الكثير من التصورات والمفاهيم الذاتية الخاطئة عن طبيعة الدولة · وجرت محاولات ديماغوجية لتنزيه القيادة الشخصية لعبد الناصر من قبل اليسار البورجوازي القومي الصغير وسائر التيارات الشعبية المصرية والعربية ، سواء المتخلفة أو المضللة ، وذلك على اعتبار ان القيادة الناصرية تمثل شيئا مختلفا عن القوى والاجزاء المختلفة التي تحيط بها · وهنا لا بد من توضيح هذه النقطة المهمة :

حين كان عبد الناصر يحذر من خطر استفحال « مراكز القوى » و « البيروقراطية » ، التي ستحاول « اذا ما أطلق لها العنان ، أن تصبح طبقة عازلة تحول دون تدفق العمل الثوري ، وتجمد وصول نتائجه الى الجماهير » ، لم يكن يعني انه ينطلق في نقده هذا ، من وجهة نظر الجماهير الكادحة ، بل من وجهة نظر الجهاز التنفيذي (الطليعة السياسية للطبقة البورجوازية البيروقراطية) في وجه المحاولات ، التي تمارسها هذه القوى والاجزاء المختلفة للطبقة ، للافلات من الاشراف المركزي للقيادة الناصرية · لان المقصود « بالطبقة العازلة التي تحول دون تدفق العمل الثوري » ، هو محاولة هذه الفئات الافلات من رقابة الجهاز التنفيذي واشرافه · وقد مضى الشطط ، عند البعض ، الى حد التصور ان عبد الناصر ، شخصيا ، يملك تطلعا يساريا شعبيا حقيقيا ، ولكن القوى المحيطة به لا تسمح له بالتعبير عن ميوله الفعلية في تلك المرحلة · والجدير بالذكر ، ان هزيمة حزيران قد فضحت مثل هذه الادعاءات الباطلة ·

الازمة الراهنة : البورجوازية الصغيرة والمسألة الوطنية

كانت متطلبات مهمة البناء الديموقراطي ، مهمة بناء صناعة ثقيلة منفصلة ، كليا ، عن السوق الامبريالية ، وتحرير الفلاحين من بقايا العلاقات شبه الاقطاعية واطلاق كافة القوى الانتاجية والابداعية المعطلة ، تتطلب مشاركة الجماهير مشاركة يومية فعالة في الحياة السياسية، تتعدى نطاق التصفيق ابان المناسبات السياسية · ولم يتمكن النظام من تفهم طبيعة المرحلة ، ووعي الضرورة التاريخية وحشد القوى الطبقية اللازمة ، بل انه عمد الى تنصيب نفسه بديلا عن الجماهير ، خانقا ، في الوقت نفسه ، أية مبادرة جماهيرية مستقلة ، وذلك نظرا لطبيعته الطبقية التي تتناقض جذريا مع تطلعات الحركة الشعبية ·

تمثل المسألة الوطنية ، المتأزمة اليوم ، بؤرة حادة لمجموعة من التناقضات الطبقية المكتوبة · والبورجوازية الصغيرة تشكل قوة أساسية حية من قوى التحالف الجماهيري الواسع ، تحت قيادة الطبقة العاملة ، (هذه القيادة التي لا تأتي كنتيجة لعملية حساب منطقية ، بل تكتسب

وتبرهن على نفسها من خلال الكفاح الجماهيري المتواصل) ، في مرحلة الثورة الديموقراطية الوطنية الراهنة • والبورجوازية الصغيرة المصرية ، باتجاهاتها وتياراتها المتقدمة ، تكاد أن تكون ، في الظرف الحالي ، أكثر الطبقات المصرية حساسية وفعالية تجاه المطالبة بالحريات الديموقراطية ، واثارتها للمشكلة الوطنية • فالنظام الناصري لا يمثل هذه البورجوازية الصغيرة ـ كما برهنا ـ بأي شكل من الاشكال • وعلى هذا اللغو اليساري الفـــارغ عن البورجوازية الصغـيرة الحاكمة أن يتخلص من عموميته وسذاجته • ونحن لا نعتقد أيضا ، بشكل عام ، بأن الانظمة « التقدمية » العربية الاخرى ممثلة للبورجوازية الصغيرة بأية حال من الاحوال • لان مثل هذه البديهيات المفروضة سلفا ، لا تقرر شيئا ، بل يجب البرهنة عليها ، ليس بالطريقة الشكلية « الكتبية » ، وانتقاء النصوص النظرية العامة بل بالتحليل العلمي التاريخي • ان « اسقاط » بعض المقارنات الشكلية التي قد تكون صحيحة جزئيا في هذا الموضع أو ذاك ، لا تغني ، بالمقابل ، عن التحليل التاريخي النوعي الخاص للظاهرة العينية •

لست أدعي ، أخيرا ، ان مقالتي هذه تفي بالغرض المطلوب لتوضيح التجـــربة الناصرية في كل أبعادها • فما زال هناك العديد من الجوانب والمسائل الاساسية الكثيرة لم أتمكن من التطرق لها هنا ، نظرا لاقتصار غاية هذه الدراسة ، بالدرجة الاولى ، على توضيح جانب اساسي من المسألة ، ألا وهو تحديد الاتجاه العام السليم للدراسة العلمية التاريخية ، المغاير للاتجاه الساذج الشائع حاليا بصدد ظاهرة ودور البورجوازية الصغيرة « الحاكمة » • ولئن تخلل ذلك الهدف العديد من المسائل والقضايا الاخرى ، فان الهدف الاساسي للمقالة لم يكن يطمح الى تخطي هذا النطاق •

سامي مهدي

قصيدتان

١ - النهر ما زال عميقا

تلعن الارض أشجارها ، والسيولْ
تستبيح المدى وتغطّي وشاحَ الفصـــولْ
حفنةٌ من ترابٍ ، تصيحُ الطبـــولْ :
زمنٌ ينتهي في مخاض البدايه ،
وهوىً ينطفي في الوحـــولْ
وتُعاد الحـكايـــه .

ذلك الجسرُ مرَّ الغزاةُ عليـــه ، ومرَّ السبايا
ثمّ ما خلـّفوا بعدهم :
غيرَ حشرجةِ اللقطـــاء وعار البغايا
وعيونٍ وراء العباءات تدمى وتشبـــق بين المرايا !
آهِ لو يعرف الجسر عن قبضتـــينْ
غاصتا في دم الضفـّتينْ ..
آه لو يعرف الجسر ذلَّ العبـــور ،
لتولى عن النهر قبل النشور !

ضفـّةٌ تشتهي ضفـّـــةً
غير أن اللقـــاءْ

لم يزل خاطراً في عروق الرمـــالْ .
رب ثديـــينِ ،
لا !
ان خيطاً من الدم لا يربط الضفتـــينْ .
وحصى نام في القـــاع لا يدفن النهرَ .
(كان الحصى ذات يوم عيوناً)
فأينْ ؟
يدفع النهر أمواجـــه ، فالمياه نصال
تلتظي "لذّةُ" الطين والدم فيها
فتشقُّ الترابَ ،
وتلوي حبالاً من الخـــوفِ ،
في القـــاع ،
بين الحصى والرمـــال
ثم ترقى الى الفلْـــكِ ،
حتى تغيمَ المسافاتُ في مقلتيْ مجتليهـــا .
ما رأيناك يا نوح انَّ المسافات ماء !
ما رأيناك في البدء والمنتهى ،
فغرزنا المُدى في جبـــين السماء !

٢ ــ القيامة

آه من ساعـــة بدأت قبل ان تعبروا
وانتهت في حدود خطاكم
نفقت كل اسمائكم
فاتركوا خبزكم مرة لسواكم .

ألجسور التي انطرحت تحت اقدامكـــم
سقطت في العبور الأخيرْ ،
والصراخ المدمى تطـــوّحَ عبر الحريقِ
وأعطى الأتاواتِ قبل النذور :
من هنا نفسٌ لاهبٌ ،

من هناك احتدام وغيظٌ ،
وكأن السماء انتهت عند شاهدة في القبور .
وتمرون عبر اشتعال الدقائق ،
حمر الخطى ،
ثم لا تعجلون ..
وتمدّون في الشمس والظل أحمالكم ..
ثم لا تعجلون !
انه عطشٌ ..
عطش يا تراب القرون ..
ولديكم من الماء ما تشربون .

حين تنمو الخطى في بطون الطريق
وتحسون قيظ القيامة يركض في النسل ،
تسقونه جرعات العقوق .
انّ في النسل لوناً من النار لولا الجنون العريق .
انّ في النسل طعماً من الماء لولا التراب .
فخذوها ..
ولو هجر الخوف ابدانكم لعبرتم
ومن بعدكم عبر النسل فوق الحراب .

ساعة ..
وتدوّن حاشية الله اسماءكم في كتاب القيامه
ساعة ..
وتريحون احقادكم طيّ سفر الخروج
ثم يأتيكم الوحي من جبل في الشمال
فتقيمون مبكىً ومبكى ،
وتنسون فوق الرمال العلامه .

رفيق شرف

الحبل

حدث أن صرت حزينــاً
قلت ؛ لأشترِ شيئاً
فاشتريتُ حبــلاً
طويلاً وأسمر ، مصنوعاً من نبــات افريقي
وفكّرت : ليشترِ كل إنسانٍ حبلاً
يخبئه ليــوم الحرب ، يلهو به ،
يعلق عليه الهواء البعيــد ،
ويبحث عمّن يبتسم له .

*

سمعت قرعــاً على بابي
نسيت الحبل
خاطبني صوت فقلت : غــير موجود ،
وانزويت ، أبحث عن لفافة تبــغ
وبكيت ، كأني أنتظر امرأة
ولم تأت امرأة .

*

فتحت كتاباً فلسطينياً
واحداً ، ثانياً ، عاشراً
قرأت وقرأت كــأني إله حربٍ
وكأن الزمن زمني .
وحزنت .

رحت أتلصص ، وكان وجهي في المــرآة
ينتظرني كمحاربٍ سجـــين
قال : هذا أنا ، أسمع طلقاتٍ بعيـــدة
وأرى حدوداً جديدة ، فمن يدعـــني أكتب
وأقـــول كل شيء ، وأنام كطفل يتيم ؟

*

نائم
نائم ، وقربي ألف كتابٍ ميت
نائم وعندي حبـــل ، ووجهي ينتظر في المرآة
سأقول له : رأيت للرصاص مدينـــة
ولبيروت جحراً ، وللصرصار بندقيـــة
وحدث أني نسيت ، لا أعرف مـــاذا نسيت
قلت : لأنتظر أن يقرع بابي
لألهو بحبل أو أكسر المرآة

*

ذات ليـــلة
خرجت أبحث عن شيء أســـود
ونسيت ماذا أبحث
عدت أنتظر
قلت : حرب لا نهاية
ماذا قلت ؟
أحببت أن أموت ، ويفتـــح لي باب أو تابوت
فحلمت بشيطانٍ وغرقت
ورأيت في النهار جثتي
في النهار بيضاء جثتي
تفتح كل قرية ، تبحث عن قارىء أو محـــارب
وألقيت
ونسيت أين ألقيت .

ميشال كمال

دعد يا حبيبة .. اسمها

١ - سمفونية

مشيتُ أطلب الحبّ فأنا سيّـــــدُ الأحلام
وصــــدري يكبرُ فأنتِ نيشاني وبيرقي والمعارك .
وكنت في البالِ قبل الولادةِ وقبل اجترار الصمتِ ،
فسُكِنْتاكِ في المرْفَأينِ من القديمِ القديمِ
وأنا الأولُ
ربحتـــكِ وزناً موسقتُ فيه شبابي وعتّقتُ ما بقي .
وقبل أن أحرُقَكِ بخوراً على دروبي وأفردُ اللحظة ،
كان لقاؤكِ سخياً كريماً فاذا خشبُ المركبِ طيّبٌ يمرُّ الصبحُ عليه فيسْكِرُهُ ،
لا رقم يُذكَرُ كأنكِ من البدء وقبلي في انتظاري ،
فحملتُ دماني حارّة فأنا الصيد بين يديكِ وأنا السهـــلُ ،
ولــكم صلّيتُ ،
ولــكم غنيّتُ مجدَكِ وقلتُ أحبّـــكِ يا أنا .

*

ومررتِ شريطـــاً وتذكّرتُ ما اشتهيتُ .
أنا الذي لأمّي مرآة
وحقل تسبيـــح
وقلتُ سأجدُ فيكِ خيوطي

وأغرقُ .. وأغرقُ حتى يخبئني اسمرارك .
أقول جننتُ ، عبدتُ فيكِ اسودادي
وعمّرتُ على سيفيــك حنيني
وأضرمت الوقودَ فأنتِ قنديلي وزيتي ودفــئي
وأعطيتُ .. وأعطيت
وانهمرتُ عليكِ ما تشتاقــين من ساعدين ولهف .
كنتُ سراً صغيراً تخبئين فيه اعوامكِ وجنونَ العلاقــة
كأني والبعيدُ شقيان .
ويشهــد البحر
كتبت على الرمل أشعــاري
ألف مرّةٍ تهاويتُ التقط ضياعكِ وأختمُ على آتيك طابعي
ومشيتُ ... أنا مسافرٌ نباحكِ يرعبــني :
« لا .. لا .. دفنكَ لا استطيــع ،
عيناكَ رصدي
عيناكَ أبدي
وأنتَ مغارتي وملجأي والجسر يا حبيبي » .
وتشنّجتُ
أنا المغرور يسحرني التكبّر .
حبستُ عنكِ مياهي
جلدتُ المسافةَ بشمعــة
قرّبت مصابيحَ الخيــال
خططتُ على الرملِ مراكبَ حب
وأكثرتُ الجواري والخمــور
فالذي يشــعُ منكِ يُدفَنُ فيَّ
أنتِ المكانُ عند مدخله أصلّي
أرفعُ علمي أنتِ على جميــع الأماكن
أبــكي اسنانكِ المسوّســة
أنا رجل يأكل العرق من جبيــني
شفتي مقطّبة وساعدي مكسور

فالتمرّد هدفي والخطأ سهمي ولكِ طول البقـــاء .

*

وأنزلتُ طاعةً ورفعتُ شبكـــة
فالخنـــاجرُ عيد يمرُّ الصدأ عليه فيلويه
لا آن يهتف ولا وَجَع
وعمركِ العمر ترديد وخوف وابتهـــال
لا مجدَ يُهْرَقُ إن خنتُ او لا ...
فالصلب دَيْنٌ عليَّ أنجزه
إما بالبعـــد
وإما بي

٢ - دعد يا حبيبة .. اسمها

دائما عنيـــدة
يجتاحكِ الكسل بعنفوانه ، فلا حركة تنبىء بغيابك كأنك الى الأبـــد
حاضرة في عروقي ،
وصوتكِ وحده قائدي .
أمشي كالمسحور أحمل لك خطواتـــك
أتنفس عنكِ
آكل عنك
أعشقك عنك
وعنكِ دائمـــا بعيدة
كلّ ما فيّ عنك ، وعنك أخـــذت اسمراري .

*

لأنكِ في الليل بعيدة ... نقشت اسمك على أشيائي :
غرفتي دعـــد
كتبي عناوينها دعـــد
لوحاتي ألوانها دعـــد
ودعـــد يا حبيبة .. إسمها .

٣ - اللحم والصدأ وانت بينهما

الحب والموت ، عتبةٌ وغزوٌ . أنتِ زهرةُ حظ ، يُلتقَطُ المسافرُ منكِ بالعينين ، فيغدو اللهب ضجيجاً والنهاية أسطورة .

تؤخذ الكلمة كا المومس تفحّ ، وجاهل من يبحث عن ثغرٍ أضاعه .

سمّيتكِ صيفاً كحدّ السيف . وزّعتكِ بانتشار .. اذا قلتُ خادمتي ، كذبتُ ، أنا السبّاق . اذا قلتُ مائـدتي ، جفّ نهدٌ في صدركِ وهمد . يلحقني أزيزكِ فلا أقل من أن أكسر القيد وأخدع . مسرعٌ . مبحر على دمي . العظمة تمثال ، والمجد قوّادة ، ولا مستسـلم ، ولا أمل يرجى ، فغسلُ العار بالولادة ، ولا بيتَ ولا قفص لمن لسانـه بيته وقفصه .

تُجْرَفُ ..

أجرف بالأظافرِ صـدأ الماضي علّني أخترع فيكِ جديدا . أقوّمُ ميتاً وأدفن بعدكِ أنتِ ، فلكم على جفنيكِ ذبحتُ لوناً ولعقته بريقي .

لا يُفتَتَحُ فيكِ ربيع الا بأمري .

اخضراركِ يا يابسـة أطلقته بالرموش والومضِ وسقيته مهارتي . ضممتكِ وباعدت بين راحتيـكِ ، رميتُ رأسي على يميني ، حتى ما استطعت ، ألحم بين ضعفي وقوميتي

الذي لم افعله أنني عضضتك واكتفيت .

الذي فعلتـه أنني أخذت شعركِ بين يدي وتوحشت .

لا الاثر ولا التذكار جنيت ،

كأنكِ من مواعيدي

اذا متُّ

مُتّ .

دراسات في التربية والفلسفة

منير بشور

التربية والتعليم في لبنان :
من اجل الدخول في العالم الحديث

أ - مقدمة

رغم التقدم الهائل الذي حصل خلال العقدين الأخيرين في العلوم الاجتماعية بمختلف اشكالها ، لا يزال هناك غموض كثيف يكتنف معنى التحديث ومضامينه واتجاهاته • ويرجع هذا الى عدة أمور أهمها :

اولا : فقدان المعايير الثابتة التي يمكن استخدامها في الحكم على وضع ما وتقرير مدى حداثة هذا الوضع ، أو الحكم على تغير ما وتقرير ما اذا كان هذا التغير باتجاه التحديث أو باتجاه معاكس له • ذلك أن معايير التحديث هي معايير نسبية تختلف من شخص لآخر ومن بلد لآخر • من هذا القبيل أن بلدانا عربية معينة تعتبر نفسها اكثر حداثة من لبنان وتعتبر أن لبنان ، رغم المباني الشاهقة والشوارع المزدحمة والمخازن الملأى ، متخلف لدرجة مذهلة ، بل تعتبره بناء متداعيا بينما يعتبر بعض اللبنانيين ، ولعل اكثرهم ، ان لبنان بلغ درجة من الحداثة أعلى بكثير من تلك التي بلغتها أي من البلدان العربية الأخرى •

وبسبب الافتقار الى المعايير الثابتة يتجنب عدد من الباحثين اليوم الخوض في موضوع التحديث معتبرين أن الأمر الثابت الوحيد الذي تمكن ملاحظته وقياسه والحكم على ابعاده هو حالة من التغير من وضع لآخر • أما مسألة الحكم على هذا التغير وتقرير ما اذا كان تحديثا أم غير تحديث فهي مسألة يتركونها لاصحاب المعايير الثابتة في تقييم الأمور من الفلاسفة أو سواهم •

ثانيا : يتعلق التساؤل الثاني بجزئية التحديث أو شموله • اذ يلاحظ كثيرون أن بلدا أو مجتمعا ما قد يمتاز بتقدم بارز في قطاع معين بينما تبقى بعض قطاعاته الاخرى متأخرة • ويتساءل هؤلاء عما اذا كان التناسق أو التكامل في درجة التقدم بين مختلف القطاعات أمرا ممكنا ايا كان المجتمع ، أم أن عملية التقدم والتحديث هي عملية جزئية بالضرورة • من الأمثلة على ذلك ما هو شائع في الشرق مثلا أن الغرب الصناعي متقدم تقنيا لكنه متخلف روحيا ، وللدلالة على ذلك يشار الى تفسخ العائلة وتزايد نسبة الاجرام وانحلال القيم الروحية ، أو ما نجده داخل البلد الواحد حيث ينظر ابناء القرى الى أهل المدن فينعتونهم بالماديين المتخلين عن القيم الروحية ، بينما ينظر ابناء المدن لأهل القرى نظرة معاكسة فيتهمونهم بالتأخر • ولهذا يصعب اطلاق الاحكام على بلد أو مجتمع ما فيقال انه متقدم أو متخلف ، ويستعاض عن ذلك بتخصيص قطاعات معينة ، فيشار الى تخلف قطاع معين أو تقدم قطاع آخر في المجتمع ذاته •

ثالثا : ينبثق التساؤل الثالث من التساؤل الثاني ، ويتعلق بعملية التحديث وسلم الأولويات : هل أن هناك تسلسلا عضويا في عملية التحديث بحيث يصعب أو يستحيل تحديث قطاع معين قبل أن يتم تحديث قطاع سابق له في سلم الأولويات ، أم أن عملية التحديث هي عملية مباشرة وكليّة تصيب مختلف القطاعات في آن واحد ؟ هل يفترض أن يتحدث القطاع السياسي او الاداري اولا ليتم تحديث القطاع الاقتصادي ثانيا أم العكس ، ام لا هذا ولا ذاك بل ان التحديث يصيب القطاعين معا وفي آن واحد ؟ ان الاتفاق بين الباحثين حول هذا الموضوع ليس تاما والخلاف يتمثل بين وجهتي نظر رئيسيتين ، الاولى تعطي الأولوية للعوامل المادية ، والثانية للعوامل الروحية • ويعتبر كارل ماركس ابرز ممثلي النظرة الأولى بتأكيده على الديالكتيكية المادية ، بينما يعتبر فردريك هيجل وأوغست كومت من أبرز دعاة النظرة المعاكسة التي تؤكد أولوية العوامل الروحية (أو العقلية) • كما أن هناك وجهة نظر ثالثة تتمثل بأمثال ماكس ڤيبر وأتباعه تتوسط هاتين النظرتين فتؤالف بين العوامل المادية والروحية •

*

ازاء هذه التساؤلات لا بد أن نحدد أولا المعايير التي سنعتمدها في هذه الدراسة وأن نسجل رأينا في عملية التحديث وكيفية تطورها :

أ ـ نفهم بالتحديث تلك العملية التي تقوم في المجتمع عن طريق الأقلية (النخبة ـ القادة ـ المثقفين ـ أو سواهم من ذوي النظر البعيد والشغف بالمستقبل الأفضل) ، فتدفع بالمجتمع الى أن يطور أهدافه وانظمته ومؤسساته وطرائق حياته بشكل مستمر بحيث يصبح قادرا ، دائما ، ان يكون سيد نفسه وسيد محيطه • التحديث ، بمعنى آخر ، هو اقتناص الجديد الحي بما يتفق مع مجابهة التحديات الراهنة بقصد التغلب عليها وتسخيرها وفق رغبات النخبة وأهدافها بحياة أفضل ، أكانت هذه التحديات مادية أم روحية ، داخلية أم خارجية ـ وهو لذلك حصيلة صراع مستمر بين الماضي بارتباطاته كلها والمستقبل بكل ما يحمل من وعد بحياة أفضل ، فاما أن ينتصر الماضي وتنتصر ارتباطاته ويبقى المجتمع مكبلا بأغلاله فلا يكون تحديث ، واما أن ينتصر المستقبل فتنفك اغلال الماضي ويتحقق الوعد بحياة أفضل •

اننا نشدد في هذا التعريف على امور ثلاثة :

١ ـ ان عملية التحديث تحدث دائما على يد النخبة ـ القادة ـ المثقفين ،

وهؤلاء دائما يبدأون أقلية في المجتمع ، ويتوقف عليهم وحدهم أن يبقـوا أقلية فيتحجروا ويسقطوا مع الزمن تحت ضغط الماضي واتباعه ، أو أن يصبحوا اكثرية فتعم أفكارهم بين الشعب وينتصر المستقبل • وهكذا ففي الحالات التي تتملك حمى الثورة مشاعر الناس وتنفجر الأكثرية بوجه الأقلية (خاصة عندما تتمثل هذه بالمحتلين الاجانب او بفئة من المستغلين) ويشيع اثر ذلك الحديث عن ثورة الشعب ، فان تدقيق النظر في الواقع يرينا أن ثورة الشعب أو الأكثرية ليست بالحقيقة سوى امتداد لثورة الأقلية الرائدة التي لولا نجاحها في فرض رؤياها لما كانت هناك ثورة أو شعب ثائر • الحديث ، بهذا المعنى ، عن الثورات الشعبية لا يعني شيئا في غياب الأقليات الرائدة •

٢ ــ ان ظهور أفراد هذه النخبة وخروجهم عن النمط السائد لا يحدث بشكل آلي وانما يأتي حصيلة تفاعلهم مع الأوضاع الراهنة المحيطة بهم ، أكانت هذه مادية أم روحية • أما الأفكار والرؤى التي يحملونها فقد تكون من ابداعهم هم أو قد تكون مقتبسة من أفراد ومجتمعات أخرى ــ لا فرق • ما يهم انهم قلة ، وانهم يحملون الأفكار الجديدة ويحلمون بالرؤى الجديدة •

٣ ــ ان عملية التحديث ليست بناء المستقبل وحسب ، وانما هي كذلك هدم الماضي • أي أن كل تغير نحو الأفضل لا بد أن يتضمن شيئا من العنف ضد اتباع الماضي المكبلين بقيوده ومؤسساته وانظمته • أما ما هي طبيعة هذا العنف وما مداه ، وهل يكون عنفا جسديا (عن طريق السجن والقتل) ، أو يكون عنفا فكريا عن طريق الدعاوة والاقناع فهو أمر تتحمل مسؤولية قراره الأقلية ــ النخبة في محاولتها أن تصبح أكثرية وفي ضوء فهمها للواقع وللعوامل التي تعتقد انها ضرورية لانتصارها • بهذا نفهم أن فشل النخبة في تحقيق انتصارها لا يعني بالضرورة خطأ رؤياها وانما قد يعني ، بالاضافة لذلك او باستقلال عنه ، فشل الأساليب التي اعتمدتها لتحقيق انتصارها •

٤ ــ أن التحديث ليس اقتباس الجديد • فالجديد ليس مرادفا للحديث الا متى جاء معبرا عن رؤيا النخبة الرائدة ورغباتها في المستقبل • كما أن التحديث ليس عملية استزادة ــ كلما زاد عدد السيارات أو ارتفع الدخل القومي ازداد تحدثن المجتمع • ذلك أن الزيادة قد تكون تراكما أو ورما أو تخمة ، وكي تكون دلائل حداثة يجب أن تأتي نتيجة للتوق والفعل الرائد المنسجم مع رؤيا النخبة ورغباتها بالمستقبل الأفضل •

يبقى أن المجتمع الذي لا تضيء طريقه نخبة واعية تحمل آلام الماضي واحلام المستقبل هو ، مهما كانت الحال ، مجتمع متحجر يستحيل أن يتحدثن •

ب ــ أما أن يكون التحديث عملية جزئية أو شاملة ، فرأينا انه عملية جزئية ــ بمعنى انه يبدأ في قطاع معين ليتطور ويشمل القطاعات الأخرى • فكما تنطلق افكار النخبة من الأقلية الى الاكثرية كذلك يمتد التحديث من قطاع معين الى القطاعات الأخرى •

أما حصول هذا الامتداد بنجاح أو عدمه فمتوقف على التساؤل الثالث الذي أثرناه قبلا حول الأولويات : أي أن عملية التحديث تمتد من قطاع لآخر وبقدر كثير أو قليل وبسرعة أو ببطء بالنسبة للقطاع الذي يتم اختياره ، كرأس جسر أو موطيء قدم أو خميرة ، فيتقدم في سلم الأولويات على غيره من القطاعات • فاذا قررنا أن نحدثن جهاز الاتصال التلفوني في لبنان مثلا فلا بد أن يؤثر هذا في نسبة البيع والشراء ، وكثرة الزيارات الاجتماعية أو قلتها ، وسرعة انتشار

الأخبار أو بطئها • ولكن هذا الاجراء بحد ذاته هو من الضعف بحيث انه يعجز عن تغيير القطاع الاقتصادي بكامله فيؤدي مثلا الى توزيع الثروة القومية بشكل عادل أو الى توظيف الأموال في المناطق المتخلفة من البلاد أو الى تحديد الأسعار، كما انه يعجز أن يؤثر في القطاع الاجتماعي والسياسي تأثيرا جذريا كأن يؤدي مثلا الى زوال العصبية الطائفية أو الى احترام الموظف لحقوق المواطن أو السائق لقانون السير • ولكننا لو أخذنا نقطة انطلاق أخرى للتحديث ـ كتعديل نظام الضرائب أو تعديل القانون الانتخابي مثلا ـ لتبين لنا أن هذا الاجراء يملك نصيبا اوفى في أن يؤثر على عدد اكبر من القطاعات وبفاعلية وسرعة اكثر مما يملك الاجراء المتصل بتحسين الاتصال التلفوني •

لعل هناك درجة من الشبه بين اختيار الأولويات واختيار النخبة ودورها في التحديث • فقد لا نكون مغالين اذا قلنا أن نجاح النخبة في تحديثها للمجتمع متوقف، هو كذلك، على من هي هذه النخبة ـ من هي بالمعنى الاجتماعي الصرف • فقرب النخبة (الاجتماعي) من مركز الثقل والحركة في المجتمع، وموقع القطاع المتخذ كنقطة انطلاق للتحديث بالنسبة لمحاور القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع يقرر، لدرجة كبيرة، نجاح النخبة (أو القطاع) أو فشلها في عملية التحديث • فنصيب عبقري من العباقرة يظهر في لبنان من بين الأرمن، مثلا، أن يؤثر في نسيج المجتمع اللبناني وينجح في نشر افكاره هو أقل من نصيب شخص ماروني من جبل لبنان خاصة اذا كان الأرمني فقيرا • وهكذا في مسألة القطاعات • ففي الحالين هناك ما يمكن أن نسميه مفاتيح او نقاط ارتكاز أو قواعد للتحديث، ولهذه المفاتيح يجب أن تعطى الاولوية •

*

انني من المؤمنين بأن المفتاح الرئيسي للتحديث، فيما يتعلق بلبنان، هو المفتاح التربوي • فاللبنانيون هم، في السياق الأخير، لبنان ـ لا شواطئه ولا جباله ولا أرزه • والقائلون أن أهم رأسمال في لبنان هو الرأسمال البشري على صواب • أن لبنان يتمثل بما يملك اللبنانيون من معارف وقدرات وقيم تربط بعضهم الى البعض الآخر بشكل معين كما تربط بينهم وبين ارضهم فتجعل منهم مجتمعا معينا هو في السياق الأخير جوهر وجوده • وبدهي أن هذه المعارف والقدرات والقيم هي حصيلة التربية في أهدافها ومضامينها وتطبيقاتها وفي انواعها المختلفة • لقد اصبح التأكيد على الرأسمال البشري أمرا شائعا بين علماء الاقتصاد والسياسة في العشرين السنة الأخيرة، والدراسات التي حاولت أن تحسب المردود المالي الصرف الذي ينتج عن الاستثمار التربوي في الولايات المتحدة الاميركية وروسيا واليابان واوروبا كثيرة، وجميعها تشير الى ان هذا المردود يساوي مردود الاستثمار في القطاعات الاقتصادية الأخرى، ان لم يزد عنه• الى جانب ذلك قامت دراسات، في الفترة الأخيرة، تحسب العلاقة بين درجة انتشار التعليم ونوع النظام السياسي القائم، واستنتجت هذه الدراسات أن هذه العلاقة هي من النوع المباشر، يمعنى انه كلما ازداد انتشار التعليم، ازدادت فعالية النظام السياسي والمشاركة السياسية وتطور النظام لصالح الشعب بمختلف فئاته • وأفترض هنا أن هذه العلاقة بين التربية والنمو الاقتصادي من جهة، وبينها وبين التطور السياسي من جهة أخرى، تبلغ في لبنان مدى أبعد مما تبلغه في كثير من بلدان العالم الأخرى • ان الاوضاع الخاصة التي يعيشها لبنان ليست دعاوة أو اكذوبة يحتمي وراءها أهل النظام، بل هي حقيقة راهنة علينا الاعتراف بها رغبنا في ذلك أم لم نرغب • وبسبب هذه الاوضاع،

التاريخية منها أو الجغرافية أو الدينية ، يبدو لنا لبنان بلدا عصيًّا على الاجراءات الحاسمة ، كما يبدو أن أي تغيير جوهري في هذه الاوضاع ينبغي أن يتخذ طريقه الى قلب الكيان اللبناني في غفلة عن أهله ان لم نقل غصبا عنهم • وبهذا المعنى تبدو لنا التربية المفتاح الوحيد المؤهل لولوج هذا الكيان ، والعلاج الوحيد الذي يمكن للبنانيين أن يأخذوه فيستطيبوه ويتحولوا بسببه الى نوع اخر من الناس ، كما يتحول الكيان اللبناني من اطار وقائي سلبي الى اطار حي فاعل يزخر بدلائل الحداثة والرقي •

*

هذا من ناحية عملية التحديث ومسألة الاولويات • أما من ناحية المعيار الذي سنستخدمه في حكمنا على الوضع التربوي في لبنان وتقرير ما اذا كان وضعا متقدما أم متأخرا فيتلخص برؤيا لما نرغب أن يصبح عليه لبنان ، هذه مضامينها : أن تتلاشى من لبنان الفروقات الطائفية والعائلية والعشائرية والاقطاعية المكتسبة بحكم الولادة وتزول قيمتها كمحاور يلتقي حولها الناس أو يتفرقون ، لتحل مكانها فروقات فكرية ينتمي اليها الفرد باختياره الشخصي ، بحيث يكون التصارع بين الجبهات الفكرية مصدر نماء وقوة للمجتمع بكامله بدل أن يكون اقتتالا على حقوق أو مغانم موروثة ، وأن يتلاشى من لبنان حكم المنفعة القائم على المحسوبية وتبادل الخدمات ليحل مكانه حكم القانون المعبر عن مصلحة المواطنين كما يريدها هؤلاء ويعبرون عنها بالطرق الديمقراطية المعروفة ، وأن تترعرع في ظل هذا الحكم المؤسسات والانظمة التي تكفل حق الجميع في التقدم والرقي وفق مؤهلاتهم وكفاءاتهم وتجعل ذلك ممكنا فتلحق الفئات المحرومة من الشعب بالفئات الأخرى وتواكبها المسيرة المشتركة ، كما نرى لبنان موطنا يحتضن الابداع الروحي والفكري ويرعاه ويشارك مع بقية البلدان المتمدنة في خلق حضارة انسانية دائمة التجدد تسمح للبناني بأن يعبر عن امانيه ومشاعره وافكاره بأمان وسعادة •

في ضوء هذه الرؤيا للبنان الجديد وفي ضوء الايمان بالتربية وفهم قواها الكامنة سننتقل من هذه المقدمة لنأخذ بعض مناحي الحياة التربوية في لبنان محاولين أن نستكشف مدى التغير الحاصل في السنوات الأخيرة مشيرين الى ما نعتبره تحديثا وما لا نعتبره كذلك ، والى الاجراءات التي نعتبر أن الأخذ بها ضروري لتحديث التربية ومن خلالها تحديث لبنان •

ب - من ناحية العدد والتنوّع في فرص التعليم

ان قلة الاحصاءات وافتقار المتوفر منها الى الدقة في لبنان أمر معروف • ولكننا سنحاول أن نعطي ، بقدر الامكان ، صورة احصائية عن التغير الذي حصل في السنوات الأخيرة •

ليس هناك شك بان اعداد التلاميذ قد ازدادت ازديادا واسعا وعلى جميع المستويات منذ مطلع الخمسينيات • ويتضح هذا من مقارنة هذه الأعداد في فترتين زمنيتين متباعدتين (١) • فاذا أخذنا ارقام عام ١٩٥٤/١٩٥٥ وقابلناها بأرقام عام ١٩٦٧/١٩٦٨ نجد أن مجموع التلاميذ في المراحل التعليمية الثلاث قد ارتفع من (٢٤٥،٢٠٥) الى (٦٠٢،٨٦٣) تلميذا أي بنسبة (١٤٦٪) أو (١١٪)

في العام الواحد • كما نجد أن نسبة الزيادة تبلغ حداً أعلى في المرحلتين المتوسطة والثانوية مما تبلغه في المرحلة الابتدائية • فبينما بلغت في المرحلة الابتدائية (١٢٥٪) أي (٩،٦٪) سنويا نجد انها بلغت في المرحلتين المتوسطة والثانوية (٣١٤٪) أي (٢٤٪) في العام الواحد • يبدو واضحا من هذا أن التعليم في لبنان لم يعد يقتصر على فئة معينة من الناس بل اصبح أمرا شعبيا تشترك في طلبه والحصول عليه اعداد متزايدة من الناس •

هذا بشكل عام • ولكن لو نظرنا في طبيعة هذا التوسع من زاوية توزيع الطلاب في مختلف المناطق اللبنانية ، أو توزيعهم بين تعليم رسمي وتعليم خاص ، لاكتشفنا بعض المفاجآت : منها أن محافظة جبل لبنان تستأثر بنصيب من التعليم ، ومن الزيادة في اعداده سنة بعد سنة ، يفوق بكثير نصيب المناطق الاخرى من لبنان • فبينما ارتفعت نسبة التلاميذ في جبل لبنان من (٢٦٪) من المجموع عام ١٩٥٤/١٩٥٥ الى (٣٨٪) عام ١٩٦٧/ ١٩٦٨ في المرحلة الابتدائية ، وتضاعفت في المرحلتين المتوسطة والثانوية من (١٦٪) الى (٣٢٪) في الفترة ذاتها ، نجد انها انخفضت في محافظة بيروت من (٢٦٪) الى (١٩٪) في المرحلة الابتدائية ، ومن (٤٦٪) الى (٣٠٪) في المرحلتين المتوسطة والثانوية، وفي محافظة الجنوب من (١٥٪) الى (١٣٪) في المرحلة الابتدائية ، ومن (١٥٪) الى (١١٪) في المرحلتين المتوسطة والثانوية • أما في محافظة الشمال فحيث انخفضت النسبة من (٢١٪) الى (١٩٪) في المرحلة الابتدائية ، نجد انها ارتفعت في المرحلتين المتوسطة والثانوية من (١٨٪) الى (١٩٪) ، كما نجد الظاهرة ذاتها في محافظة البقاع حيث انخفضت النسبة ، في المرحلة الابتدائية ، من (١٢٪) الى (١١٪) بينما ارتفعت بشكل بارز في المرحلتين المتوسطة والثانوية من (٥٪) الى (٨٪) من المجموع •

وللتعمق في هذه الظاهرة قد يكون من المفيد أكثر أن نقارن بين نسبة الزيادة في كل محافظة على حدة ، خلال فترة الثلاثة عشر سنة هذه ، وبين الزيادة العامة في البلاد بدل أن نأخذ نصيب كل محافظة من المجموع • وعلى هذا الأساس نرى انه بينما بلغت الزيادة السنوية في عامة البلاد (٩،٦٪) في المرحلة الابتدائية و (٢٤٪) في المرحلتين المتوسطة والثانوية ، بلغت في جبل لبنان (١٨٪) و (٥٧٪) ، وفي محافظة بيروت (٤،٦٪) و (١٣٪) ، وفي محافظة الجنوب (٨٪) و (١٦٪) ، وفي محافظة الشمال (٨٪) و (٢٤٪) • أما في محافظة البقاع فقد بلغت (٩٪) في المرحلة الابتدائية (وهي نسبة متقاربة مع المعدل العام) ، و (٤٦٪) في المرحلتين المتوسطة والثانوية ، (وهي نسبة تفوق باضعاف المعدل العام ولا تقل بكثير عن معدل الزيادة القصوى الحاصلة في جبل لبنان والبالغة ٥٧٪) •

اذا نظرنا الى هذه الزيادات المعطاة بطريقتين في ضوء توزيع مجموع السكان في لبنان على مختلف المناطق نحصل على صورة اوضح لتفاوت فرص التعليم وانتشاره بين منطقة وأخرى ـ ذلك بالرغم من أن أرقام السكان تستند الى مكان الولادة والتسجيل الرسمي لا الى مكان السكن ، وبالتالي مكان التعلم فقد جاء في الجريدة الرسمية رقم ٢٨ تاريخ ١٩٦٧/٤/٦ أن مجموع سكان لبنان عام ١٩٦٧ بلغ (٢،٣٦٧،١٤١) نسمة موزعين على الشكل التالي : (١٤٪) في بيروت ، (٢٨،٦٪) في جبل لبنان ، (٢٣،٣٪) في لبنان الشمالي ، (١٩،٤٪) في لبنان الجنوبي ، (١٤،٧٪) في البقاع •

اذا كانت الاحصاءات التي استندنا اليها لعام ١٩٥٤/١٩٥٥ تغطي الحدود

الادارية ذاتها التي استعملت في احصاءات ١٩٦٧/١٩٦٨ فذلك يعني أن منطقة جبل لبنان ، وهي المنطقة الأكثر رخاء اصلا ، تستقطب معظم الزيادات الحاصلة في اعداد التلاميذ ، تتلوها في ذلك محافظة البقاع ثم محافظة الشمال ، وأن محافظتي بيروت والجنوب هما الأقل نصيبا والأكثر تخلفا من هذه الناحية ٠

ثم اذا نظرنا في ظاهرة التوسع هذه لجهة توزيع التلاميذ بين التعليم الرسمي والتعليم الخاص نتوصل كذلك الى نتائج مهمة : منها أن نسبة ما احتوته المدارس الرسمية قد انخفضت من (٤٨٪) عام ١٩٥٤/١٩٥٥ الى (٣٦٪) عام ١٩٦٧/١٩٦٨ في المرحلة الابتدائية ، بينما حصل العكس على صعيد التعليم المتوسط والثانوي ، اذ ارتفعت نسبة الطلاب من (٢٣٪) الى (٤١٪) من المجموع خلال هذه الفترة ذاتها ٠ ومن الواضح أن هذه الزيادة قد حصلت في المرحلة المتوسطة لا الثانوية ، رغم انه ليس بين أيدينا احصاءات عن التعليم الثانوي لعام ١٩٥٤/١٩٥٥ تفيدنا عن ذلك ٠ فلقد كانت المدارس الثانوية (فوق المتوسطة) ما تزال ، عام ١٩٦٧/١٩٦٨ ، تضم أقل من ربع الطلاب أو ما يوازي (٢٣٪) من المجموع ، بينما كان الباقون يتابعون دراستهم في المدارس الخاصة ٠

ويبدو أن انخفاض نسبة التلاميذ في المدارس الرسمية في المرحلة الابتدائية يعود بالدرجة الاولى لتقلص التعليم الرسمي في محافظتي بيروت وجبل لبنان واتساع التعليم الخاص ، بينما يعود ارتفاع هذه النسبة في المرحلتين المتوسطة والثانوية الى اتساع التعليم الرسمي خاصة في المحافظات الخارجية الثلاث ـ الشمال ، والجنوب ، والبقاع ٠ ونرى ذلك من النسب التالية : عام ١٩٥٤/١٩٥٥ كان حوالى (٦٦٪) من مجموع تلاميذ المرحلة الابتدائية في بيروت و (٥٨٪) في جبل لبنان يتعلمون في المدارس الخاصة ، فارتفعت هذه النسبة ، عام ١٩٦٧/١٩٦٨ ، الى (٨٦٪) و (٧٨٪) على التوالي ٠ مقابل ذلك ، بقيت نسبة التلاميذ في المدارس الابتدائية الخاصة في المحافظات الثلاث الاخرى ثابتة حوالي (٤٠٪) من المجموع ٠ أما على الصعيدين المتوسط والثانوي فان نسبة الطلاب الذين كانوا يتابعون دراستهم في المدارس الرسمية ارتفعت من (٣٧٪) الى (٦٤٪) من المجموع في الشمال ، ومن (٢٦٪) الى (٦٧٪) في الجنوب ، ومن (٢٢٪) الى (٦٢٪) في البقاع ٠ ويقال الشيء ذاته عن اتساع التعليم المتوسط والثانوي الرسمي في جبل لبنان حيث تضاعفت نسبة الطلاب تقريبا ، مع انها بقيت أقل من الثلث بالنسبة للمجموع (أرتفعت من ١٥٪ الى ٢٩٪ من المجموع) ٠ أما في محافظة بيروت فقد بقيت نسبة الطلاب في المدارس الرسمية المتوسطة والثانوية على حالها تقريبا خلال هذه الفترة ، فارتفعت من (٢٣٪) الى (٢٤٪) فقط ٠

نستخلص من هذا أن سياسة الدولة في تشجيع التعليم الرسمي في المحافظات الخارجية الثلاث ـ الشمال والجنوب والبقاع ـ من شأنها أن تحقق ، في السياق الطويل ، نوعا من التقارب التربوي بين مختلف مناطق لبنان ٠ولكننا نلاحظ في الوقت ذاته أن التعليم الخاص ما يزال مسيطرا على المنطقتين الرئيسيتين ، أي بيروت وجبل لبنان ، خاصة في المرحلة الثانوية ٠ وهكذا ، رغم الاتساع الملحوظ في التعليم الرسمي فاننا نجد ، بعد ربع قرن ونيف من الاستقلال ، أن حوالي ثلثي مجموع التلاميذ (٦٥٪) ، في مختلف مراحل التعليم ما يزالون يتعلمون في مدارس غير حكومية ٠ حتى في المرحلة الابتدائية ، نجد أن نسبة التلاميذ في المدارس الرسمية ما تزال فوق الثلث بقليل (٣٦٪) ،

وترتفع في المرحلة المتوسطة لتصل الى أقل من النصف (٤٦٪) ، ولكنها تنخفض في المرحلة الثانوية الى أقل من الربع (٢٣٪) • أما على الصعيد الجامعي ، فمن أصل (٣٠٦٥٢) طالبا جامعيا في لبنان عام ١٩٦٧/١٩٦٨ ، كانت الجامعة اللبنانية تضم (٨٠١٥) طالبا ، أي (٢٦٪) من المجموع •

ثم اننا نلاحظ أنه بالرغم من التزايد في اعداد الطلاب منذ عام ١٩٥٤/١٩٥٥ فان دراسات مصلحة النشاطات الاقليمية في وزارة التصميم تشير الى أن اعدادا كبرى من الاولاد ما يزالون خارج المدارس مع انهم في سن الدراسة ، كما تشير الى تفاوت المناطق اللبنانية في درجة استيعابها للتلاميذ • وقد أعطت هذه المصلحة النسب التالية للتلاميذ غير المستوعبين في المدارس عام ١٩٦٤ ، من أصل القابلين للاستيعاب في المراحل التعليمية الثلاث في كل من المحافظات الخمس : (٢)

	في المرحلة الابتدائية	في المرحلة التكميلية	في المرحلة الثانويـــة
بيروت وضواحيها	٢٨ر٦	٣٥ر٦	٥٤ر٥
جبل لبنان	٣ر٦	١٣ر٤	٥٤ر٢
لبنان الشمالي	٣٩ر٠	٤٢ر٠	٦٣ر٢
لبنان الجنوبي	٣٤ر٦	٤١ر٠	٦٣ر١
البقـــاع	٣٩ر٤	٤٣ر٠	٧٠ر٦
المجموع	٣٠ر١	٣٥ر٨	٥٩ر٥

هناك ، بالاضافة لذلك ، ظاهرة لا تقل عن هذه خطورة ، وهي انه بين التلاميذ المستوعبين في المدارس اعداد ضخمة ممن هم فوق السن التعليمية الاعتيادية • وقد أشارت مصلحة النشاطات الاقليمية الى أن (٦٠ر٦٪) من تلامذة المدارس في المرحلة الابتدائية كانوا ، عام ١٩٦٤ ، في العمر المناسب وما تبقى اعتبرتهم متخلفين في العمر واعتبرت القلائل جدا منهم متقدمين في العمر مع انها لم تفسر الطريقة التي استخدمتها في استخـــراج هذه الارقام (٣) • وللتأكد من صحة هذه النسب قمت بمراجعة الارقام الواردة في احصائيـــات التعليم لعام ١٩٦٧/١٩٦٨ للمرحلة الابتدائية ، واستخدمت الطريقة التالية في حساب اعداد المتخلفين عن العمر : بينما حدد قانون التعليم سن الولد في الصف الاول بخمس سنوات على الاقل ،اعتبرت ، من قبيل التساهل ، أن التلاميذ في الصف الاول الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والسابعة هم في العمـــر المناسب بينما أولئك الذين تجاوزوا هذه السن فقد اعتبرتهم متأخرين ــ وكذلك اعتبرت أن السن المناسبة لمن هم في الصف الثاني هو سبع سنوات أو ثماني ، وفي الصف الثالث ثماني سنوات أو تسع ، وفي الصف الرابع تسع سنوات أو عشر سنين ، وفي الصف الخامس عشر سنوات أو احدى عشر • وبالرغم من هذا التساهل فقد نتج لدي أن من هم في السن المناسبة بلغوا (٤٤ر٥٪) فقط مـــن المجموع (٣٨ر٥٪ في التعليم الرسمي و ٤٩ر٤٪ في التعليم الخاص) ، بينما بلغ المتخلفون (٤٣ر٨٪) ، (٤٩ر٤٪ في التعليم الرسمي و ٣٨ر٧٪ في التعليم الخاص) ، والمتقدمون (١١ر٨٪) ، (١٢ر١٪ في التعليم الرسمي و ١١ر٩٪ في التعليم الخاص) •

هكذا يتبين لنا أن المشكلة لا تكمن في سيطرة التعليم الخاص على مراحل التعليم وحسب ، وانما تكمن كذلك في حرمان فئات كبيرة من الناشئة من فرص التعليم ، وفي تبذير قوى الناشئة وهدرها ، حتى بالنسبة لمن تسنى لهم دخول

المدارس ، خاصة المدارس الرسمية ـ ولعل أكثر من هذا وذاك ، في تنوع الاتجاهات التعليمية وتضارب أشكالها بين تعليم رسمي وتعليم خاص من جهة ، ومئات الانواع من التعليم الخاص ، من جهة ثانية ٠

لو كان هذا التنوع حاصلا ضمن وحدة ثقافية وفكرية واجتماعية متجانسة لامكن القول أنه دليل غنى في ثقافة الشعب ودعامة لسيادته ٠ ولكننا نجد أن قلة نادرة من المدارس ، ومن السياسات والديانات التعليمية ، لا تجد لها مكانا في لبنان ٠ فهناك الفرنسي والطلياني والانكليزي والاميركي والسويسري والالماني والمصري ، ثم هناك الارمني والبروتستنتي واللاتيني والكاثوليكي والارثوذكسي والماروني والسني والشيعي ٠ وهناك من أنواع المدارس الخاصة الاهلية ما لا يعرف له لون سوى لون المال ٠ وهكذا نقع في خلاصة الامر على وضع تعليمي لا يعكس الوضع الاجتماعي والديني والسياسي القائم في لبنان وحسب ، وانما يرسخه كذلك بكل تشعباته وتنافر اتجاهاته ٠

من أبرز الدلائل على ما نعني التشعبات المستندة الى الدين أو الطائفة التي ينتمي اليها التلاميذ ، والاختلاف بين الانظمة أو التركيبات التعليمية القائمة في لبنان على هذا الصعيد ٠ بالرغم من صعوبة الحصول على معلومات تفيدنا من هذه الناحية فقد وقع بين يدينا مؤخرا احصاء عن المدارس الرسمية يعود لعام ١٩٦٠ يعطي توزيع التلاميذ بالنسبة لطوائفهم (٤) ٠ واننا نتوقف هنا برهة لنقول انه من المفارقات الغريبة في لبنان أنه بينما تخفى عن الاعين أية معلومات عن توزيع التلاميذ (أو موظفي الدولة) طائفيا وينكر وجودها في الدوائر الرسمية ، تصر الدولة على تسجيل المذهب الطائفي في هوية المواطن ، ويثير ذلك جدلا سقيما في المحاكم ، فكأنها من ناحية تخجل من الاقرار بالامر أو تخاف عاقبته ، ومن ناحية تصر على التمسك به ٠

تدلنا الاحصاءات التي أشرنا اليها أن حوالي ثلثي تلامذة المدارس الابتدائية الرسمية في لبنان هم مسلمون (٢٧٪ منهم سنة ، و ٢٧٪ شيعة و ١١٪ دروز)، وأن الثلث الاخر الباقي ، هم مسيحيون (٢٤٪ منهم موارنة وكاثوليك) ٠ أما في المدارس المتوسطة والثانوية الرسمية فان (٦٢٪) من الطلاب مسلمون (٤٠٪ منهم سنة و ١٨٪ شيعة و ٤٪ دروز) وما تبقى ، أي (٣٨٪) مسيحيون (٢٧٪ منهم موارنة وكاثوليك) ٠ وتبلغ نسبة المسلمين في المرحلة الابتدائية أقصاها في بيروت حيث يشكل المسلمون (٨٧٪) من تلاميذ بيروت في هذه المرحلة ، وادناها في لبنان الشمالي (٥٥٪) ، بينما تبلغ في لبنان الجنوبي (٨٠٪) ، وفي البقاع (٧١٪) ، وفي جبل لبنان (٥٦٪) ، وما يتبقى من هذه المجاميع هم من التلامذة المسيحيين ٠ أما في المدارس المتوسطة والثانوية فان نسبة الطلاب المسلمين تزيد عما هي عليه في المدارس الابتدائية فتبلغ أقصاها أيضا في بيروت (٨٢٪) ، وأدناها في جبل لبنان (١٩٪) ، بينما تبلغ في لبنان الشمالي (٨١٪) ، وفي لبنان الجنوبي (٥٥٪) ، وفي البقاع (٥٢٪) ٠

يرينا هذا أن سياسة تشجيع التعليم الرسمي تصيب الطوائف المسلمة أكثر مما تصيب الطوائف المسيحية ٠ ولهذا فاننا عندما استنتجنا قبلا تقلص التعليم الرسمي في المرحلة الابتدائية واتساعه في المرحلتين المتوسطة والثانوية فاننا نستطيع أن نضيف الان أن هذا التقلص أو الاتساع يزيد أو يقلل من نصيب المسلمين من التعليم أكثر مما يزيد او يقلل من نصيب المسيحيين ـ في ما عدا حالة واحدة هي الظاهرة في جبل لبنان ، حيث يستأثر المسيحيون ب (٨١٪) من مجموع طلاب المدارس الرسمية المتوسطة والثانوية ٠

ان الدولة بتشجيعها التعليم الرسمي لا تفيد المناطق المتخلفة من لبنان فحسب (المحافظات الثلاث ـ الشمال والجنوب والبقاع) ، وانما تحقق بذلك توازنا ضروريا في نصيب مختلف الفئات الدينية من التعليم ٠

لكن تشجيع التعليم الرسمي وحده لا يحل المشكلة ـ اذ لا بد من كبح جماح التعليم الخاص في الوقت ذاته وضبطه بشروط معينة ، خصوصا وأن التعليم الخاص ما يزال يضم أكثرية من التلاميذ كما بينا قبلا : (٦٤٪) في المرحلة الابتدائية ، و (٥٤٪) في المتوسطة ، و (٧٧٪) في الثانوية ، عام ١٩٦٧/ ١٩٦٨ ٠ واننا ندعو الى هذا بسبب الخصائص التي ينطوي عليها التعليم الخاص والتي تجعل منه تركيبات تعليمية شبه مستقلة في المجتمع الواحد تتضارب مصالحها بعضها مع البعض الاخر ٠ ومثالا على ذلك ، ناخذ المدارس الكاثوليكية التي تمثل أكبر تركيبة للتعليم الخاص في لبنان ـ فنرى ، حسب احصاءات اللجنة الاسقفية للتعليم الكاثوليكي (٥) ، انها كانت تضم عام ١٩٦٧/١٩٦٨ (١٢٦ر٤٨٢) تلميذا منهم (٨١٪) في مرحلتي الروضة والابتدائي ، وحوالي (١٣٪) في المرحلة المتوسطة ، والباقون ، أي (٦٪) ، في المرحلة الثانوية ٠ ومن الناحية الدينية كان (٧٦٪) من مجموع هؤلاء من الكاثوليك ، يضاف اليهم (١٢٪) من الطوائف المسيحية الاخرى ، وما تبقى ،أي (١٢٪) ، من الطوائف غير المسيحية ٠ وكان حوالى نصف المجموع في مدارس جبل لبنان ٠ يبدو واضحا من هذا أن المدارس الكاثوليكية تخدم فئة معينة من سكان لبنان يقطن معظمهم في منطقة معينة من البلاد ، الامر الذي يدعونا للقول انها تعمل ، من حيث تريد أو لا تريد ، لمنع تآلف اللبنانيين ولتجزئة المصير اللبناني ٠ ولا بد أن الشيء ذاته يصح بالنسبة للمدارس التي تشرف عليها جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية حيث نلاحظ أن هذه المدارس كانت تضم ، عام ١٩٦٥ ، ما مجموعه (١٧٢ر١٠) تلميذا في بيروت يضاف اليهم (٦٥٨ر٧) في بقية المناطق اللبنانية ، أي ما مجموعه (٨٣٠ر١٧) تلميذا موزعين على مختلف المراحل (٦) ٠ ولا بد أن معظم هؤلاء من المسلمين مع اننا لا نملك الارقام التفصيلية لاثبات ذلك ٠

وما نقوله عن المدارس في المراحل ما قبل الجامعية ينطبق بشكل واضح على الجامعات في لبنان (٧) ٠ فحيث كان (٤٥٪) من طلاب الجامعة الاميركية عام ١٩٦٦/١٩٦٧ مسلمين ، و (٥٥٪) مسيحيين ، بلغت نسبة المسلمين في جامعة بيروت العربية (٩٣٪) ، والمسيحيين (٧٪) في العام ذاته ، يقابلها (١٥٪) من المسلمين و (٨٥٪) من المسيحيين في الجامعة اليسوعية عام ١٩٦١/١٩٦٢ ، و (٥٤٪) من المسلمين و (٤٦٪) من المسيحيين في الجامعة اللبنانية عام ١٩٦٥/ ١٩٦٦ ٠ وكذلك من ناحية جنسية الطلاب ، فحيث بلغت نسبة اللبنانيين حوالي الثلاثة أرباع (٦ر٧٤٪) في الجامعة اللبنانية عام ١٩٦٦/١٩٦٧ ، انخفضت هذه النسبة الى (٥ر٤٢٪) في الجامعة الاميركية ، والى (٦ر١٩٪) في جامعة بيروت العربية ، لترتفع الى (٢ر٨٢٪) في الجامعة اليسوعية ٠ أما من الناحية الاجتماعية فقد أظهرت دراسة حقلية قمت بها عام ١٩٦٢ أن حوالي نصف طلاب الجامعة الاميركية كانوا ينتمون آنذاك الى الطبقة الاجتماعية العليا يقابلهم ٣٧٪ في الجامعة اليسوعية و ١٨٪ فقط في الجامعة اللبنانية ٠

ان مشكلة التنوع والتشتت تصيب الوضع التعليمي في لبنان من قاعدته حتى قمته ٠ فالتلميذ الذي يدخل مدرسة معينة في المرحلة الابتدائية ، ينتقل منها (حين ينتقل) ، الى مدرسة ثانوية ثم الى جامعة تشكل بمجموعها قناة تعليمية تكاد أن تكون مستقلة عن بقية الاقنية ٠ واذا أضفنا الى هذا أن التلميذ

حين يختار الدخول في قناة ما فانه يختار القناة التي تتلاءم في خصائصها مع القواعد الاجتماعية والدينية والاقتصادية التي انطلق منها ، فاننا نتصور أنه حين يغادر المدرسة فانه يعود ، في معظم الحالات ، الى هذه القواعد بالذات دون أن يتأثر في شخصيته ومفاهيمه بالقيم والمعارف التي يحملها مواطنوه الاخرون ممن انطلقوا من قواعد مختلفة ، ودخلوا أقنية تعليمية مختلفة • ان خطورة هذا الامر تبدو بشكل بارز اذا ما تذكرنا أن القلة من التلاميذ فقط تتمكن من اتمام المرحلة الابتدائية والعبور بعدها الى المراحل الاعلى (بلغت نسبة التلاميذ في الصف الخامس الابتدائي عام ١٩٦٦/١٩٦٧ (٣٦٪) من عدد التلاميذ في الصف الاول الابتدائي في المدارس الرسمية والخاصة) ، الامر الذي يجعل أثر التعليم في الناشئة سطحيا وعابرا • ان المدرسة في لبنان تتنازل عن دور لعله أهم الادوار الثقافية اطلاقا ، وهو تحقيق التقارب والاندماج بين فئات الشعب من جهة ، وتمكين الناشئة من التحرك الاجتماعي العمودي عبر الفئات الدينية والطبقات الاجتماعية ، من جهة ثانية • انها تكرس الواقع الراهن بدل أن تساعد على بناء واقع ديناميكي متطور •

تنعكس سياسة الدولة في هذا المجال بوضوح في مسألة اعطاء المنح المالية لما يسمى بالمدارس الابتدائية المجانية • فقد خصصت الدولة قبل عام ١٩٥٦ مبلغ ثلاثمئة الف ليرة اعانات لهذه المدارس ولكنها زيدت ، في قانون ١٥ حزيران ١٩٥٦ ، الى مبلغ ٢٥ ليرة عن كل تلميذ • وما لبث هذا المبلغ أن ارتفع الى أربعين ليرة ثم الى ستين ليرة • وهكذا ففي عام ١٩٦٧ نجد أن مجموع الاعانات التى أعطيت لهذه المدارس بلغ حوالي السبعة ملايين ليرة ونصف ، أي ما يغطي نفقات ١٥٢ ألف تلميذ من أصل ١٩٦ ألف تلميذ (حوالي ٨٠٪) ، كانوا يتعلمون في المدارس الابتدائية الخاصة • بامكاننا أن نقدر ضخامة هذا المبلغ عندما نعلم أن مجموع الاعتمادات المالية للادوات والتجهيزات المدرسية بلغ في العام ذاته مليونا وستمئة وخمسا وسبعين ألف ليرة فقط (أي حوالي ٢٢٪ من مجموع الاعانات) (٨) • ان خطر هذه السياسة لا يقتصر على تخلي الدولة عن نشر التعليم الابتدائي الرسمي (كما مر معنا سابقا خاصة في محافظتي بيروت وجبل لبنان) ، أو هدر الاموال العامة ، وانما يتعدى هذا وذاك الى تدعيم التعليم الطائفي والى تشجيع تجار التعليم على افتتاح المزيد من المدارس • اننا نلاحظ مثلا انه من أصل (٥٣٫٢٣٥) تلميذا في المدارس الابتدائية الكاثوليكية عام ١٩٦٧ /١٩٦٨ كان (٤٧٫٧٩٨) منهم (أي حوالى ٩٠٪) في المدارس الكاثوليكية المجانية يستدرون ثلث مجموع الاعانات لذلك العام والبالغة سبعة ملايين ليرة ونصف(٩)• وقياسا على سياسة الدولة في حفظ التوازن فلا بد أن بقية المدارس الطائفية من غير الكاثوليك قد نالت هي كذلك حصتها من هذه الاموال بالتعادل •

يقال ان الدولة ليست غافلة عن مشكلة تنوع التعليم وتشعب اتجاهاته وأنها تعالج الامر ولكن بشكل تدريجي وغير مباشر • وكدليل على ذلك يشار الى أن الاصرار على البكالوريا اللبنانية (أو ما يعادلها) لدخول الجامعات وممارسة المهن الحرة ، ودخول الوظائف العليا في الدولة ، من شأنه أن يوحّد ، في السياق الاخير ، بين مختلف الاتجاهات وبشكل طوعي • وهكذا يتبين لنا أن الدولة تعرف مكامن الداء عندما تصفو بصيرتها ولكنها عندما تصف الدواء . تفعل ذلك بتردد ووجل كحال المجبر على أمره المعتذر عما تفعل يداه • ويتمثل هذا التردد والوجل في عبارة (أو ما يعادلها) التي جعلت من مسألة المعادلات المزراب الاكبر • يقال ان الدولة تتبع بصدد هذه المسألة مبدأ المعاملة بالمثل : فالبلد الذي يعترف بالشهادة اللبنانية تعترف الدولة اللبنانية بشهادته ــ كأن

الدولة شركة تجارية والشهادات بضاعة عليها تصريفها • كم من اللبنانيين في مصر وسوريا يعتمد على اعتراف حكومتي هاتين الدولتين بالبكالوريا اللبنانية لمتابعة أعمالهم أو دراساتهم هناك ؟ لكن الدولة تطمئننا وتذكرنا ، بما يشبه الاعتذار كذلك ، انها ستتوقف عن معادلة الشهادات الاجنبية بالبكلوريا القسم الثاني ابتداء من اذار عام ١٩٧١ اذا لم يكن صاحب الشهادة حائزا على البكلوريا القسم الاول كشرط مسبق • فقد أصدرت وزارة التربية مؤخرا البيان التالي نصه : « تحيط وزارة التربية الوطنية علما بالقرار المبدئي العام الذي اتخذته لجنة المعادلات في اجتماعها في ٩ـ٢ـ١٩٦٨ والذي صدق عليه وزير التربية الوطنية في ٦ـ٣ـ١٩٦٨ وهو ينص على الاتي : ابتداء من أول اذار ١٩٧١ لا يعطى الطلبة اللبنانيون معادلة البكلوريا اللبنانية ، القسم الثاني ، للشهادات الاجنبية أيا كان مصدرها الا اذا كانت مسبوقة بالبكالوريا اللبنانية القسم الاول، وذلك في تاريخ يسبق سنة واحدة على الاقل تاريخ النجاح في الشهادة الثانوية المطلوب معادلتها » (١٠) • يجب أن لا يخفى علينا التعبير الذي جاء في النص ووصف القرار « بالمبدئي العام » ـ أما ماذا تعني كلمة « المبدئي العام » باللغة اللبنانية فعلينا الانتظار حتى اذار ١٩٧١ لنكتشف ذلك • فقد تقوم المظاهرات وقد تستقيل الوزارات وتتغير الرئاسات ويحدث من الان وحتى ذلك التاريخ ما ليس في الحسبان •

ليس الشارع هو المسؤول ، وانما الدولة برجالها ومؤسساتها التي ما فتئت تنظر الى التعليم كشأن حر كغيره من الشؤون التجارية ضمن نطاق الاقتصاد الحر • لقد دفعت التغيرات الضخمة التي حصلت في لبنان وفي جواره خلال السنوات العشر الاخيرة بالفئات المنسية المهملة من اللبنانيين الى صدر المسرح التربوي ولكن السياسة التربوية والهيكل التربوي بقيا على حالهما منذ أن ورثتهما الدولة قبل ربع قرن ونيف •

ج ـ من ناحية الهيكل التعليمي

لقد ورث لبنان هيكلا تعليميا ثنائيا من فرنسا يتألف من قناتين ، الاولى استنبطت أصلا للعامة من الناس ، أو كما جاء في رسالة وزير التربية الوطنية الى رئيس مجلس الوزراء بتاريخ ٣٠ أيلول « للأكثرية الساحقة من النشء اللبناني » (١١) ، وتتكون من خمس سنوات للتعليم الابتدائي تتلوها أربع سنوات من الابتدائي العالي • أما القناة الثانية فكانت للخاصة من الناس أو « للنخبة الموهوبة » ، كما جاء في رسالة الوزير المشار اليها ، وهي لمدة خمس سنوات ابتدائي تتلوها سبع سنوات من التعليم الثانوي • وروعي عند وضع المناهج عام ١٩٤٦ أن تأتي السنتان الاوليان من التعليم الابتدائي العالي والثانوي متطابقتين بحيث يمكن بعدهما الفصل بين التلاميذ فيوجه القلة من « أصحاب المواهب » نحو الدراسات الثانوية ومن بعدها الى الجامعة ، ويوجه الاخرون وجهة الدراسات المهنية بعد أن يكملوا ما تبقى لهم من سنوات التعليم الابتدائي العالي، أي السنتين الثالثة والرابعة •

هذا من الناحية القانونية • أما من الناحية العملية فلم يتمكن هذا الهيكل من الرسوخ والاستمرار • ذلك أن اعداد التلاميذ زادت بشكل أصبحت معه مسألة تأمين المدارس المهنية « للعامة » مهمة شبه مستحيلة • كما أن الحاح

هؤلاء في كسر الطوق والالتحاق « بالنخبة الموهوبة » عبر قناة التعليم الاكاديمي، وتطابق السنتين الاولين في كلا القناتين ، جعل هذا الهيكل غير ذي معنى • وهكذا تم تدريجيا اندماج التعليم الابتدائي العالي بالسنوات الاربع الاولى من التعليم الثانوي ــ وبالتالي سقوط السنتين الاخيرتين من قناة التعليم الابتدائي العالي وتأجيل نقطة الافتراق بين « الموهوبين » و « العامة » الى نهاية المرحلة المتوسطة • وهكذا ، حين تم تعديل مناهج التعليم عام ١٩٦٨ وكان ذلك لأول مرة منذ عام ١٩٤٦ ، لم تأت الدولة بجديد عندما حددت مراحل التعليم ، في المرسوم رقم ٩٠٩٩ ، بثلاث مراحل هي الابتدائية لمدة خمس سنوات والمتوسطة لمدة أربع سنوات والثانوية لمدة ثلاث سنوات ، اذ أن مثل هذا الهيكل كان قد ترسخ عمليا منذ سنوات •

نستخلص اذن أن القناة الرئيسية للتعليم ما قبل الجامعي هي الآن ذات ثلاث حلقات ، وانها القناة التي يسعى الى دخولها والاستمرار فيها أي طالب لبناني مهما اختلفت اصوله الاجتماعية أو أهواؤه • الا أن هناك سدودا داخل هذه القناة تمنع الكثيرين من الاستمرار للمراحل العليا ، كما ان قنوات فرعية تتشعب عنها باتجاهات جانبية • أهم هذه السدود الامتحانات الرسمية الاربعة التي يمكن تشبيهها بالمصافي التي تضيق حلقة بعد حلقة • أما التفرعات عن القناة الرئيسية فيحصل أهمها في نهاية المرحلة المتوسطة حين يتجه بعض التلاميذ الى المدارس المهنية والزراعية والتقنية ودور المعلمين • ومن يتبقى في القناة الرئيسية يتوزع في الصف الثانوي الاول بين الفرع الادبي والفرع العلمي لمدة سنتين ثم ينتقل طلاب الفرع الادبي لفرع الفلسفة في السنة الثالثة بينما ينتقل طلاب الفرع العلمي لفرع الرياضيات •

ان مشكلة هذا الهيكل هي استحالة العودة الى القناة الرئيسية بعد أن يكون الطالب قد تفرع عنها في نهاية المرحلة المتوسطة ، ثم صعوبة التحول من فرع لاخر بعد أن يكون الطالب قد تشعب بين الفرعين الادبي والعلمي في الصفين الاولين ثم بين رياضيات وفلسفة في الصف الثالث • ورغم افتقارنا الى المعلومات المفصلة بهذا الصدد فاننا نرجح أن معظم المتفرعين عن القناة الرئيسية في نهاية المرحلة المتوسطة هم ، في الواقع ، من « أبناء العامة » ، بينما معظم الذيـــن يستمرون حتى نهاية المرحلة الثانوية هم من « أبناء الخاصة » ، خصوصا من يدخل منهم الجامعتين الاجنبيتين في لبنان • وهكذا فان الغاية التي توخاها واضعوا مناهج عام ١٩٤٦ في الفصل بين « الخاصة » و « العامة » تتم في الواقع عن طريق السدود والاقنية الفرعية بشكل غير مباشر • ولعل الارقام التي أوردناها قبلا عن توزيع طلاب الجامعات في لبنان الى طبقات اجتماعية مختلفة تفيدنا من هذه الناحية •

ان هذا النظام مجحف ليس بحق أبناء « العامة » وحسب ، وانما بحق لبنان ومستقبله كذلك • فقد أصبح معروفا بعد الدراسات العديدة حول هذا الامر في بلدان الغرب أن المواهب العقلية لا تقل بين أبناء « العامة » عنها بين أبناء « الخاصة » ، وان المشكلة تكمن في الانظمة والهياكل التعليمية التي تمكن «الخاصة» من ابراز مواهبهم ومكافحة المصاعب التي تعترض سبيلهم ابان سني الدراسة بينما تحكم على ابناء « العامة » في فترات مبكرة من حياتهم بالتخلف وتدفع بمعظمهم للتخلي عن طلب العلم نهائيا •

اننا نتساءل : ما المانع في أن تجمع الروافد المختلفة ضمن القنـــــاة الرئيسية ؟ يبدو هذا التساؤل جوهريا لعـــدة أسباب منها ، **أولا** ، أن أعداد

الملتحقين بالفروع المهنية تقل كثيرا عما يحتاج اليه لبنان من أصحاب الكفاءات المهنية والتقنية مقابل أصحاب الكفاءات الاكاديمية ٠ تدلنا الاحصاءات أن مجموع المتفرعين عن القناة الرئيسية في التعليم الرسمي بلغ عام ١٩٦٧ـ١٩٦٨ ٤٦٢ر٤ طالبا ـ أي أنه مقابل كل تلميذ في أحد الفروع المهنية هناك عشرة تلاميذ يتابعون دراستهم في المراحل الاكاديمية المتوسطة والثانوية ٠ واذا أضفنا الى هذا اعداد التلاميذ في المدارس الخاصة فان نسبة هؤلاء تقل كثيرا عن الواحد من عشرة الحاصلة في التعليم الرسمي ٠ **وثانيا** ، انه من الامور المشكوك فيها كثيرا اذا كان تأهيل تربوي عام يتكون من خمس سنوات ابتدائية واربعة متوسطة يكفي لتزويد المهنيين (خاصة الذين يدخلون منهم دور المعلمين) بالثقافة العامة الضرورية لماشاة التقدم الحضاري في الوقت الحاضر والتمكن من متابعة التقدم والتطور في المهن التي يمارسونها ٠ **وثالثا** ، أن جمع الروافد بهذا الشكل من شأنه أن يزيد من احترام الناس للمهن التقنية ويعطي للكثيرين من « أبناء العامة » فرصا أفضل لاظهار مواهبهم والاستمرار في القناة التعليمية الرئيسية ، كما انه يساعد على ازالة الحواجز بين فئات الطلاب وتوحيد الثقافة فيما بينهم ٠

كما أننا نتساءل اذا كان من الضروري اقامة أربعة سدود من الامتحانات ضمن القناة الرئيسية ٠ وما الفائدة التي تتأتى عن امتحانات البكالوريا القسم الاول سوى ان تكون مصفاة اضافية ٠ أليس في هذا مغالاة في الاعتماد على الامتحانات الرسمية ووضعها في مكان الحاكم المطلق على مستقبل الطالب والامة ؟ اننا لا نقصد بهذا اثارة التساؤل حول معدلات النجاح في هذه الامتحانات (كما يشكو الكثيرون) ، بقدر ما نقصد اثارة الشك حول قدرة هذه الامتحانات وصلاحيتها (مهما تم تحسينها) في الحكم على مصير الطلاب بالنجاح أو الفشل ٠

ازاء هذا نرى أن يعاد تقسيم الهيكل التعليمي الى مراحل ثلاث تتكون الاولى من ست سنوات تنتهي بالشهادة الابتدائية ، والثانية من أربع سنوات تنتهي بالشهادة المتوسطة ، وأن تكون هاتان المرحلتان مشتركتين لجميع الطلاب دون السماح بالتفرع عنهما قبل الحصول على الشهادة المتوسطة ، على أن تأتي بعدهما سنتان من الدراسة الثانوية تنتهيان بشهادة الدراسة الثانوية وتكونان بمثابة تحضير للدراسات الجامعية فتصاغ برامجهما في ضوء الفروع الجامعية التي يمكن أن يلتحق بها الطالب بعد اجتيازه امتحان الشهادة الثانوية ٠ بهذه الطريقة نؤمن ست سنوات من التعليم الابتدائي ، بدل خمسة ، حتى اذا ما انقطع التلميذ عن الدراسة في نهاية المرحلة الابتدائية يكون قد نال قسطا أوفر من التعليم يساعد على رفع المستوى العام في البلاد ــ أو اذا انقطع عن التعليم في نهاية المرحلة المتوسطة بعد أن يكون قد أتم عشر سنوات بدل تسعة ، أو التحق بعدها بأحد الفروع المهنية ، يكون قد حصل على ثقافة عامة أوسع من التي تتوفر له في الوقت الحاضر ٠ كما أننا نرى أن تقسم برامج السنتين الثانويتين الى ثلاث اختصاصات رئيسية تكون متشابهة في السنة الاولى بينما تصبح في السنة الثانية أقل تشابها ٠ ومع يقيننا أن اعادة النظر ببرامج الدراسة الثانوية الجديدة يكاد يكون أمرا مستحيلا بعد أن صدرت مؤخرا بمرسوم رقم ٩١٠٠ تاريخ ٨ـ١ـ١٩٦٨ ، فاننا نرى تغيير التسمية المعطاة لهذه الفروع بعد اعادة النظر في محاورها المنهجية ، فينشأ ، **أولا** ، فرع « **الدراسات الانسانية** » ، محوره دراسات في اللغة والاداب والتاريخ والجغرافية وعلم الاقتصاد والسياسة والاجتماع وعلم النفس والفلسفة بالاضافة الى شيء من الرياضيات والعلوم الطبيعية ، **وثانيا** ، فرع « **الدراسات العلمية** » ، الذي يكون محوره

الرياضيات والعلوم الطبيعية (كالفيزياء والكيمياء والأحياء) مع اضافة بعض المواد الانسانية ، **وثالثا** ، فرع « **الدراسات التقنية ـ المهنية** » ، الذي يكون محوره مزيجا من العلوم النظرية المذكورة في الفرع العلمي ومن العلوم التطبيقية كالميكانيك والكهرباء والهندسة ٠

أما التفرع عن القناة الرئيسية بعد المرحلة المتوسطة (أي بعد عشر سنوات من التعليم المشترك) ، فيتخذ شكل الدراسات المهنية والزراعية والتعليمية التي تكون على حلقتين ، الاولى تتكون من سنتين وتكون برامجهما مشابهة بعض الشبه للسنتين من التعليم الثانوي فرع « الدراسات التقنية ـ المهنية » ، مع مزيد من التطبيقات العلمية ، تلحق بهما حلقة ثانية تتكون من سنة واحدة تكون أقرب الى المنحى النظري الوارد في فرع « الدراسات العلمية » من التعليم الثانوي ، على أن يسمح للطالب أن يتقدم بشهادة التعليم الثانوي في أي من الفرعين ، « العلمية » أو « التقنية ـ المهنية » في نهاية السنوات الثلاث ، فاما أن يعود للالتحاق بالقناة الرئيسية أو يتوقف عن الدراسة ويدخل الحياة العملية ٠

تستمر القناة الرئيسية في التصاعد نحو الدراسات الجامعية ، فيفترض بمن يرغب دخول الحقوق أو الدراسات الانسانية أو العلوم الاجتماعية أن يكون حائزا على الشهادة الثانوية في فرع الانسانيات ، وبمن يرغب الدخول في فرع العلوم الطبيعية او الرياضيات او فروع الطب أن يكون حائزا على الشهادة الثانوية الفرع العلمي ، وبمن يود دخول كليات الهندسة أو الزراعة أن يكون حائزا اما على الشهادة الثانوية الفرع العلمي أو الفرع التقني ـ المهني ٠

ان البحث في النوعية من أصعب الامور اطلاقا ، فكيف للواحد أن يحكم عليها ، وعلى أي أساس يمكنه القول ان هذا النوع أفضل من ذاك أو أقل جودة ؟ نعود هنا لمسألة المعايير ـ ويكفينا أن نقول هنا انه بالمقدار الذي يمكن للواحد أن يجعل معاييره محددة ، واضحة ، ومقننة فانه يجعلها قابلة للانتشار والقبول لدى الآخرين ٠ ولهذا سنحاول أن نترجم معاييرنا النوعية الى مواصفات عددية ، متى أمكننا ذلك ، معترفين بأن مجال الاختلاف حول هذه المعايير يبقى قائما على أية حال ٠ وسنتناول مسألة النوعية والمضمون من ثلاث زوايا : المعلم ، والمنهاج ، والكتاب المدرسي ٠

د ـ من ناحية النوعية والمضمون الثقافي للنظام التعليمي

١ ـ **المعلـم** ـ لعل نوعية التعليم تتوقف على نوع الحضارة والقيم السائدة في المجتمع كما يمثلها ويفسرها المعلم في اتصاله مع تلاميذه داخل غرف الصف وخارجها أكثر مما تتوقف على أي شيء آخر ٠ فمسألة التعليم ليست ، قطعا ، مسألة نقل معلومات معينة من المعلم الى التلميذ ـ ولو أرادها المعلم أن تكون كذلك ٠ فمع المعلومات التي ينقلها المعلم تنتقل طريقة في الحديث والتصرف ومفاهيم وقيم وعواطف تكون ، في السياق الاخير ، أكثر أهمية من المعلومات ذاتها في تقرير نجاح الولد في الحياة مع أن المعلومات قد تكون أهم من هذه لنجاحه في الامتحانات ٠ مثل هذا الرأي لم يعد يثير الدهشة في بلدان الغرب بسبب نتائج اظهرتها الدراسات التي أجريت هناك خلال الربع القرن الاخير ٠

لكن ليس بين أيدينا في لبنان دراسات وافية عن نوعية المعلمين وكيفية تواصلهم مع تلاميذهم ومدى تأثيرهم على عقولهم وعواطفهم · ولهذا علينا أن نكتفي بالملاحظات الشخصية والمشاهدات والزيارات للمدارس لعل هذه تعطينا صورة صحيحة عن الواقع · من هذا الواقع مثلا أن طريقـــة التعليم في معظم مدارس لبنان طريقة تلقينية ـ تقريرية ، تتمثل بخيط من التفاعـــل ذي اتجاه واحد ـ من المعلم الى التلاميذ ـ بدل أن يكون ذا اتجاهين ـ من المعلم الى التلاميذ وبالعكس · ولهذا يبدو المعلم في معظم الاحيان أقرب الى الحارس أو الشرطي منه الى المحور المحرّك للتفاعل الخلاق ، المثير للتساؤل والرغبـــة في اذهـــان التلاميذ ، المرافق لمشاعرهم ، المشارك لاحلامهم ، والسائـــر معهـــم نحو آفاق المستقبل · وهناك ، بالنسبة للمعلم العادي في صفوف لبنان ، الصراط التربوي المستقيم الذي يتلخص بالكتاب ليدرّس ، والنظام ليحفظ ، والامتحان ليعطى ويقرر من هو الناجح ومن الساقط ـ وكل ما خلا ذلك شذوذ عن هذا الصراط · وهكذا حين تلح قوى الابداع الرابضة ، بحكم القـــدرة الطبيعيـــة ، في نفوس الناشئة ، على الانبثاق والخروج الى حيز الفعل فان المعلم يسارع الى انكارها أو الهزء بها وردعها واعادتها الى قوالب الصراط المرسوم ، وهو في معظم الحالات يتصرف بهذا الشكل بدافع الرغبة التي يقر أو لا يقـــر بهـــا ، بأن يخفـــي جهله لطبيعة النمو والابـــــداع وأن يحمي عجزه وتقاعسه عن تقصّي هـــذه المواهب والقدرات ورعايتها · وهو عندما يفعل ذلك يجد العون الوافر من النظام التربوي باكمله بدءا من الكتاب المدرسي وانتهاء بسياسة المراقبة والامتحانات والتفتيش ، كما يجده في النمط الحضاري الذي يسود جميع مؤسسات المجتمـــع بـــدءا من العائلة وانتهاء بالدولة ·

ان محاولات الردع هذه كثيرة تكاد لا تخلو منها ذكريات أحـــد ممن اختبر الجلوس على مقاعد الدراسة في صفوف لبنان · ولعل قصة السيد موسى معماري التي جاءت في « نهار الرياضة والتسلية » بتاريخ ٢٢ـ١١ـ١٩٦٩ خير مثال على ما أعني · طالما تساءلت بدهشة واعجاب كلما مررت في الطريق بين دير القمر وبيت الدين عن ذلك البناء الرائع القائم هناك ، عمن بناه وما الغاية منه · واترك السيد موسى ، الرجل الذي صمم هذا البناء وبناه بيديه ، يحكي قصته بنفسه ·

« سنة ١٩٤٦ وقف استاذ المدرسة وأمرنا أن نرسم جرة ماء · لكني بدلا من الجرة رسمت قلعة · نقلتها عن ذبذبات افكاري ، وقلت في نفسي : ربما عندما يرى الاستاذ هذا الحصن يمنحني العلامة الأولى في الصف حتى اعوض علامات المواضيع الأخرى ويرتفع معدلي ، واذا الاستاذ ، ليس كما تخيلت ، يهجم علي ويضربني بقضيب الرمان ويصيح : شو رسمت ؟ قصر بيـــك ؟ وارتفع ضجيج الطلاب وقهقهتهم وتضايقت · وتمتمت : نعم سأبني قلعة كهذه · لا شيء مستحيل تحت الشمس ، بعدها تركت المدرسة وقصدت عمي الذي كان في مديرية الآثار ، وطلبت منه أن اشتغل بالحجار والتراب · لكن عمي ضربني وصاح : يا معتوه ! لماذا تركت المدرسة ؟ اجبته لانني اريد ان أتعلم فن البناء اذا جعلتني أساعدك · وعاد فضربني وصاح : لماذا يا معتوه ؟ أجبته : لانني أريد بناء قلعة في المستقبل ··· سنتان وانتقلت الى المتحف ،لانهض وانام بين مئات التماثيل المتكسرة·· وفي الليالي كنت افكر في استاذي واحلم بانني دعوته ليرى قلعتي ··· عمري صار ٣٠ سنة ، وفكرت : يجب ان اباشر القلعة قبل أن يموت الاستاذ ··· أريد أن ادعوه الى زيارة قلعتي ··· أريد ان انسى لسعات قضيب الرمان على انحاء جسدي ··· ورحت احفر الأساس ··· انتهيت من الطابق الأول وانا أسمع ضحكات اهالي الضيعة وكل من يمر بي : قال شو ؟ قال عم يبني حصن ؟ ولم آبه ، بل انتقلت الى الحجار الخارجية للطابق الاول انقش عليها النقوش الرومانية ، الفينيقية، الأشورية ، الفرنسية ، المصرية ، العربية ، ونقوش جميع الأجيال التي تعاقبت على لبنان ···

لماذا كل هذا العذاب والحفر والعرق والشمس التي لا مستحيل تحتها ؟ وتابعت البناء حتى الطابقين ، وكان السياح والسائحات المارون على طريق قصر بيت الدين يتوقفون ويأخذون صورا للنقوشات وعددها ٦٥٠٠ نقش ، وصوروا لي وانا أعمر وحيدا تساعدني زوجتي ، ويسألونني ويتأكدون من اني لم اتعلم الهندسة في جامعة ما ... رئيس الجمهورية الاستاذ شال حلو ، زارني السنة الماضية وهو في طريقه الى بيت الدين . ويومها ارتديت انا وزوجتي اللباس الروماني ، وكان لا يليق الا بالملوك ، قلت له وانا اصافحه : انظر يا فخامة الرئيس الى يدي . مشروعي مشروع سياحي وانت جاري ، والمثل بيقول الجار للجار . فاجابني بعدما زار القلعة : الله يعطيك العافية ، حصنك حلو كثير . ومضى . » (١٢)

ان أمثال قصة موسى معماري كثيرة في لبنان . لعل لبنان فقد ، عن طريق مدارسه ومعلميه وعن طريق آبائه وامهاته ورؤساء حكوماته والت ديزني آخر كان يمكن لموسى معماري أن يصيره . ان التلاميذ أسرى بين ايدي المعلم ، والمعلم أسير للتقاليد التي ورثها وللروتين الذي كرس انماط سلوكه ، وللرموز اللغوية التي يتعاطاها في الصف فيتحول الأسر الى حس خادع بان المعلم يعلم وان التلميذ يتعلم . بين ايدي معلمين كهؤلاء تتنازل المدرسة اللبنانية عن دورها في تحديث لبنان .

نفترض انه يتوجب أن يتوافر شرطان على الأقل للمعلم ليكون ناجحا : أولا أن يكون حائزا على شهادة علمية تفوق المستوى الذي يدرّسه ، وثانيا ، أن يكون حائزا على شهادة مهنية في أصول التعليم وفنونه . فأي من الشرطين دون الآخر يخفض من كفاءة المعلم . ثم ان الخبرة تفيد ولكنها ليست بالضرورة عاملا مساعدا ، فمن الخبرات ما يؤدي الى تحجر الفهم والسلوك .

نستدل من الاحصاءات المتوفرة لدينا عن عام ١٩٦٦/ ١٩٦٧ (١٣) أن (٥٧ ٪) من معلمي المدارس الابتدائية كانوا يحملون الشهادة التكميلية فقط دون تدريب مهني يضاف اليهم حوالى (٤٪) ممن كانوا يحملون الشهادة الابتدائية أو ممن صنفوا على أساس انهم يحملون « شهادات مدرسية » أو « غير ذلك » من الشهادات ، أما نسبة المؤهلين للتعليم والذين يحملون شهادة التعليم الابتدائي فقد بلغت حوالى (٣٠ ٪) من المجموع . واذا افترضنا أن هؤلاء كانوا يدرّسون في المرحلة الابتدائية (اذ أن الاحصاءات لا تفصل بين المرحلة الابتدائية والمرحلة المتوسطة) ، نرى أن الذين كانوا يدرسون في المرحلة المتوسطة يشكلون حوالي (١٧ ٪) يحمل (١٠ ٪) منهم البكالوريا قسم ثاني أو ما يعادلها و (٧ ٪) البكالوريا قسم أول أو ما يعادلها ـ بالاضافة الى عدد ضئيل جدا (٠،٣٪) كانوا يحملون شهادة الاجازة أو البكالوريوس علوم . هذا في المدارس الرسمية . أما في المدارس الخاصة فلقد كان الوضع اكثر اضطرابا وتشويها ، اذ بلغت نسبة المعلمين في المدارس الخاصة (الاحصاءات لا تحدد المرحلة التعليمية التي يعلم فيها هؤلاء) ، الذين كانوا يحملون « شهادات مدرسية » (٢٢ ٪) من المجموع ، يضاف اليهم (٣٣٪) ممن صنفت شهاداتهم تحت صنف « غير ذلك » من الشهادات ـ أي أن (٥٥٪) من معلمي المدارس الخاصة كانوا يحملون شهادات يشك في صحتها ومستواها . والى جانب هذا فقد كانت نسبة الذين يحملون البكالوريوس (١٤٪) ، والبكالوريا قسم ثاني أو ما يعادلها (١١٪) ، والبكالوريا قسم اول أو ما يعادلها (٥ ٪) ـ بالاضافة الى (١٤٪) كانوا يحملون الشهادة التكميلية ، وجميع هؤلاء دون تدريب مهني . أما الذين كانوا

يحملون شهادة مهنية (أي التعليمية الابتدائية) ، فقد بلغت نسبتهم (٠،٢٪) من المجموع ٠

على الرغم من أن هذه الصورة تبدو محزنة جدا ، فهي افضل مما كانت عليه قبل ثلاثة عشر عاما ، خاصة بالنسبة للمدارس الرسمية ٠ ترينا الاحصاءات انه بينما كانت نسبة المعلمين في المدارس الرسمية الذين لم يكونوا يحملون اية شهادة عام ١٩٥٣/١٩٥٤ (١٧٪) من المجموع ، فقد زال مثل هؤلاء من التعليم الرسمي عام ١٩٦٦/١٩٦٧ ٠ أما في المدارس الخاصة فقد كانت نسبة الذين لا يحملون اية شهادة عام ١٩٥٣/١٩٥٤ (٢٤٪) من المجموع ٠ ولا نعرف اذا كانت هذه النسبة قد انخفضت او زادت بعد ثلاثة عشر عاما ، اذ أن احصاءات ١٩٦٦/١٩٦٧ لا تشير الى رقم مواز وانما تعطي رقما يساوي (٣٣٪) من معلمي المدارس الخاصة صنفوا على أساس انهم يحملون « غير ذلك » من الشهادات دون تحديد ٠ ويبدو أن نسبة المؤهلين تأهيلا مهنيا (أي الذين يحملون التعليمية الابتدائية) لم تتغير في المدارس الرسمية خلال الثلاثة عشر عاما ، فبقيت حوالى (٢٠٪) من المجموع ٠ أما في المدارس الخاصة فقد هبطت من (٢ ٪) عام ١٩٥٣/١٩٥٤ الى (٠،٢ ٪) عام ١٩٦٦/١٩٦٧ ، وكذلك هبطت نسبة الذين يحملون البكالوريا قسم اول من (٢٠٪) الى (٧٪) في التعليم الرسمي ، ومن (١٦٪) الى (٥٪) في التعليم الخاص ٠

أما فيما يتعلق بالتعليم الثانوي فيبدو أن الحالة أفضل مما هي عليه بكثير في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة ، وعلى الأخص في المدارس الرسمية ٠ فلقد كان حوالي (٢٢٪) من مجموع معلمي المدارس الرسمية الثانوية يحملون ، عام ١٩٦٦/١٩٦٧ ، شهادة الكفاءة و (٥٣٪) شهادة الاجازة ، وهذه نسبة عالية ٠ ولكننا يجب أن نتذكر ان حوالي (٣ ٪) فقط من مجموع تلاميذ المدارس الرسمية هم في مرحلة التعليم الثانوي ــ أي أن تأثير هؤلاء المعلمين يبقى محصورا جدا في الأقلية من الطلاب ، خصوصا أن حوالى (٤٥٪) من مجموع الدروس التي تعطى في المراحل الثانوية العليا في التعليم الرسمي يعطيها معلمون متعاقدون مع الوزارة وليسوا من المثبتين، كما جاء في تقرير جبور عبدالنور عن اوضاع كلية التربية في الجامعة اللبنانية (١٤) ٠ ولا يمكننا المقارنة بين معلمي المرحلة الثانوية الرسمية بين اعوام ١٩٥٣/٥٤ و ١٩٦٦/٦٧ باعتبار انه لم يكن هناك ، قبل ثلاثة عشر عاما ، سوى ثلاث مدارس رسمية تعطي دراسات ثانوية ، أو مع المدارس الخاصة في أي من العامين لعدم توفر المعلومات المفصلة عن هؤلاء ٠

نستخلص من هذا انه رغم التحسن الذي طرأ على مؤهلات المعلمين خلال الثلاثة عشر عاما الأخير ، لا يزال حوالي (٩٧٪) من طلاب المدارس الرسمية بين ايدي معلمين لم ينل أكثر من (٢٠٪) منهم تأهيلا مهنيا ، وأن هذه النسبة تتدنى كثيرا اذا أخذنا التعليم بنوعيه الرسمي والخاص ٠ كما لا يزال حوالى ثلثي تلاميذ لبنان في المدارس الرسمية والخاصة بين ايدي معلمين يحمل معظمهم الشهادة التكميلية دون تأهيل مهني ، أو شهادات يشك في قيمتها « كالشهادات المدرسية » أو « غير ذلك » من الشهادات ٠ واننا نرى في هذه الحالة مصدرا للقلق على نوعية التعليم في مدارس لبنان اذ نشك في قدرة هذه النسب العظمى من المعلمين أن يشاركوا بشكل فعال في خلق اجيال جديدة تفكر تفكيرا جديدا

وتحمل قدرات جديدة تدفع بلبنان في مراتب التقدم والرقي ·

٢ ــ المناهج ــ تمثل المناهج الدروب او الاطر الفكرية التي ينشأ عليها وضمن أوصافها الطلاب ، فتتحدد اهتماماتهم المدرسية والعلاقات بينهم وبين معلميهم · ونرى من هذه الناحية ان لبنان لم يرث الهيكل التعليمي عن فرنسا وحسب وانما ورث معه المناهج التي وضعت بعد الاستقلال لفترة وجيزة ولم يطرأ عليها أي تعديل حتى صدور مناهج المرحلة الثانوية عام ١٩٦٨ ·

اذا اخذنا مناهج المرحلة الابتدائية (١٥) ، فأن أول ما يلفت الانتباه هي المكانة التي تحتلها اللغة الاجنبية اذ تحظى بما مجموعه ٢٥ ساعة اسبوعية في الصفوف الخمس الابتدائية ، بينما تحظى اللغة العربية بـ ٣٣ ساعة ، والحساب ٢٥ ساعة ، والتاريخ والجغرافيا بثماني ساعات ، والدروس الاخلاقية والمدنية بخمس ساعات ونصف الساعة ، ومواضيع ذات منحى عملي ، (كدروس الاشياء والمحادثة والصحة) ، بتسع ساعات ، والرسم والاعمال اليدوية بعشر ساعات ، والتربية البدنية بعشر ساعات ونصف الساعة ، والموسيقى والغناء بست ساعات · فهل من المستحسن او من الضروري ان تعطى اللغة الاجنبية هذا الاهتمام الكبير في مرحلة يكون فيها الولد في سن انطباعي طري العود بدل ان يحصل التركيز على اللغة الوطنية والنشاطات الاجتماعية والمدنية والاخلاقية والعملية ؟ يمكن للواحد ان يضع السؤال بشكل مختلف : ما الذي يحتاج اليه لبنان اكثر من سواه واي نوع من التوازن بين مختلف المواضيع يحتاج اليه لبنان ليواجه مشكلاته الحاضرة ؟ اننا نعي ان هناك انقساما في الرأي حول هذا الموضوع يرجع اساسا الى الانقسام حول هوية لبنان وحول واجب انفتاحه على الثقافات الاخرى · ولسنا بحاجة للغوص في شعاب هذا الموضوع هنا ، وانما يكفينا القول اننا ممن يرون ضرورة تعليم اللغة الاجنبية في المرحلة الابتدائية ، ولكننا نرى أن يؤجل تدريسها الى السنوات الثلاث الاخيرة وبشكل تدريجي ، كأن تعطى لأول مرة في السنة الثالثة ولمدة ثلاث ساعات اسبوعية لترتفع بعدها الى اربع في السنتين الرابعة والخامسة وتستمر في الارتفاع لست وسبع ساعات في السنوات التالية من المرحلة المتوسطة والثانوية · صحيح ان المسألة هنا مسألة انفتاح على الثقافة العالمية ولكنها قبل ذلك ثقافة قومية يجب أن تتعمق جذورها في ذهن الولد وقلبه وتحظى باهتمامه قبل اي شيء آخر · ثم ، اننا نعتقد ان انتقال الولد من محيط البيت الى محيط المدرسة ليواجه فجأة لغة غير لغته الام أمر يجب تجنبه ·

نكتفي بهذه الاشارة الى برامج المرحلة الابتدائية لنتطرق بعدها الى مناهج المرحلة الثانوية ، خصوصا وان هذه قد تم اقرارها مؤخرا ، وقد بدىء بتطبيق منهاج السنة الأولى العام الماضي ويطبق منهاج السنة الثانية هذا العام ليتلوه منهاج السنة الثالثة في العام المقبل ١٩٧٠/١٩٧١ ، وعندها يتم التحول الثقافي المنتظر · أما مناهج المرحلتين المتوسطةوالابتدائيةفلم يتم اقرارهما بعد·

ولكن ، ما الذي جاءت به المناهج الجديدة ؟ (١٦)

اولا ــ انها عدلت المواد المطلوبة في كل من السنوات الثلاث كما عدلت من عدد الساعات المخصصة لمعظمها · **ففي السنتين الأولى والثانية من الفرع الأدبي** خفض عدد الساعات المخصصة للغة العربية وآدابها من (٨) الى (٧) ساعات اسبوعية بينما زيد عدد ساعات اللغة الاجنبية وآدابها من (٦) الى (٧) ساعات

اسبوعية ، واضيفت مادة الترجمة والتعريب التي لم تكن موجودة في المنهاج القديم فخصصت لها ساعة في السنة الاولى وساعتان في السنة الثانية • أما الفيزياء والكيمياء فقد زيد عدد الساعات المخصصة لهما من ثلاث الى اربع ساعات في السنة الاولى بينما بقيت ثلاث ساعات في السنة الثانية دون تغيير • كما حذفت مواد الرسم والموسيقى والغناء التي كانت تعطى ساعتين في كل من السنتين ، واستبدلت الساعتان المخصصتان للرياضة البدنية بثلاث ساعات من التدريب العسكري للفتيان أو تدبير المنزل للفتيات • أما المواد المتبقية كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والتعليم الديني والاخلاق (التي تغير اسمها في المنهاج الجديد الى التعليم الديني والتربية المدنية) فقد بقي عدد الساعات المخصصة لها دون تغيير •

اما في **السنتين الأوليين من الفرع العلمي** فقد زيد عدد الساعات المخصصة للرياضيات من (٥) الى (٦) والفيزياء والكيمياء من (٦) الى (٧) ، بينما بقيت الساعات المخصصة للتعليم الديني والأخلاق وللغتين العربية والاجنبية وأدابهما ، وللتاريخ والجغرافيا دون تغيير • وكذلك حذفت من هذا الفرع مواد الرسم والموسيقى والغناء التي كانت تنال ساعتين في السنة الأولى وثلاث ساعات في السنة الثانية ، وادخل التدريب العسكري للفتيان أو تدبير المنزل للفتيات بدل الرياضة البدنية فاعطي ثلاث ساعات في كل من السنتين بدلا من ساعتين في الصف الأول وثلاث ساعات في الصف الثاني •

أما في السنة الثالثة والأخيرة فقد ادخلت التغييرات التالية على **فرع الفلسفة** : قسمت مادة الفلسفة الى شقين سمي الأول تاريخ الفلسفة العربية واعطي (٦) ساعات ، والشق الثاني سمي الفلسفة العامة واعطي (١١) ساعة ، أي ما مجموعه (١٧) ساعة للفلسفة ، بينما كانت مادة الفلسفة في المنهاج القديم تنال (١٤) ساعة (٦) منها كانت تعطى تحت العنوان العام « فلسفة » ، و (٨) كانت تعطى كفلسفة باللغة الأجنبية • بالاضافة الى هذا التعديل في مادة الفلسفة فقد حذفت الساعتان المخصصتان في المنهاج القديم لمادة الرياضيات ولم يستعض عنهما بشيء ، كما زيدت الساعات المخصصة للفيزياء والعلوم الطبيعية من (٥) ساعات في المنهاج القديم الى (٧) ساعات • أما بالنسبة لمادة التعليم الديني والأخلاق التي غير اسمها الى التربية المدنية ، فقد زيد عدد ساعاتها من ساعة اسبوعية واحدة الى ساعتين ، وحصل التغيير ذاته بالنسبة لمادة الرياضة البدنية التي تغيرت الى تدريب عسكري أو تدبير منزلي فزيدت ساعاتها من ساعة الى ساعتين • أما التاريخ والجغرافيا فقد بقي عدد ساعاتهما دون تغيير •

أما في **فرع الرياضيات** ، فحيث كانت تعطى ثلاث ساعات من الفلسفة يضاف اليها ثلاث ساعات أخرى من الفلسفة باللغة الاجنبية ، فقد خفض هذا العدد الى ساعتين فقط من الفلسفة العامة واضيفت ساعتان أخريان في مادة جديدة هي تاريخ العلوم عند العرب • أما عدد الساعات المخصصة لمادة الرياضيات فقد زيدت من (٨) الى (١٢) ساعة كما زيد عدد الساعات المخصصة للفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية من (٩) ساعات الى (١٠) ، وخفضت الساعات المخصصة لمواد التاريخ والجغرافيا من ثلاث ساعات الى ساعتين • أما في مادتي التعليم الديني والرياضة البدنية فقد ادخل التعديل ذاته الحاصل في فرع الفلسفة •

ثانيا ــ انها أضافت فرعا ثالثا الى الفرعين القديمين ، الرياضيات والفلسفة واطلقت عليه اسم « فرع العلوم الاختبارية » • اما المواد التي خصصت لهذا الفرع الجديد فقد جاءت مطابقة تماما لمواد فرع الرياضيات كما جاء عدد الساعات مطابقا ايضا في ما خلا حالتين : فبينما خصصت (١٢) ساعة لمادة الرياضيات في فرع الرياضيات فقد قسمت هذه الى (٧) ساعات رياضيات في فرع العلوم الاختبارية يضاف اليها ما تبقى ، أي (٥) ساعات ، لمادة العلوم الطبيعيه التي لا تعطى في فرع الرياضيات •

ثالثا ــ انها ادخلت تفصيلات جديدة على مختلف المواد الدراسية لم تكن متوفرة في المنهاج القديم • ويتعذر هنا مراجعة هذه التفصيلات لكثرة عددها وضيق المجال •

رابعا ــ انها ألغت من المنهاج القديم الامتحانات الشفهية •

هذه هي أهم الاجراءات التي جاءت بها المناهج الجديدة • والآن ما هي مآخذنا وملاحظاتنا على هذه الاجراءات ؟

اولا ــ انها لم تتعد سياسة الترقيع فلم تمس الأساس أو الجوهر الذي بنيت عليه المناهج • فهي مثلا لم تثر التساؤل حول الأسباب التي من اجلها تقسم مناهج السنتين الاوليين (وكأنما بقدرة الهية) ، بين فرع علمي وآخر ادبي (وآخر للغات القديمة !) وبين فرع يسمى رياضيات وآخر فلسفه في السنه الثالثة ــ مع اضافة تسمية ثالثة لفرع جديد يكاد لا يختلف عن الفرع العلمي في شيء • ولهذا ، فهي حين ادخلت التعديلات فقد ادخلتها ضمن الاطار العام القائم وعلى الأساس القديم ذاته ، كما انها حين اضافت فرعا جديدا على صعيد البكالوريا القسم الثاني فكانت كمن يضيف طابقا أو شقة جديدة الى بناء قديم دون امتحان سلامته وقدرته على البقاء •

ثانيا ــ ان التعديلات التي ادخلت على أساس البناء القديم تعكس تفكيرا باليا قديما يتلخص في النظر الى المادة أو الموضوع كأنه كمية معينة من المعلومات محددة سلفا • تنبثق هذه النظرة الى المعلومات من نظرة قديمة بالية الى طبيعة العقل تعود الى القرن التاسع عشر حين كان العقل يقسم الى اجزاء أو طاقات كل منها محجوز سلفا لاستيعاب موضوع معين وبكمية معينة • لهذا تقاس الصعوبة أو السهولة بكمية الموضوع لا بطبيعته • هذه النظرة الى العلم والى العقل تعني أن يحدد المتعلم أو المثقف في لبنان بالذي يعرف **اكثر** لا بالذي يعرف **أحسن** • لهذا تأتي المناهج الجديدة بشكل اضافة هنا وحذف هناك • فاذا أراد المنهاج أن يعد عالما فهو يضيف « خمسة غرامات من الفيزياء » و « اربعة غرامات من الكيمياء » الى عقل الطالب ويضيف عليها « غراما أو غرامين من الرياضيات » كما يضيف الطاهي التوابل الى أكلة يعدها ــ أما اذا اراد أن يعد « متأدبا » فيضيف « ستة غرامات لغة عربية وآداب » و « ستة غرامات لغة اجنبية وآداب » ••• وهكذا • انها نظرة تنعكس آثارها في كل مناحي المناهج الجديدة دون تحديد • ان خطورة هذا الأمر تبدو بالغة جدا خاصة ازاء تقدم العلوم في هذا العصر وتقدم المعرفة حول طبيعة العقل والتعلم ــ وهي بالتأكيد مناقضة للتوق الى عالم جديد •

كمثال على ما نعني نأخذ فرع العلوم الاختبارية الجديد لننظر فيه بشيء

من التفصيل · ذكرنا قبلا أن الفرق الوحيد بين هذا الفرع وفرع الرياضيات ، ان الاثنتي عشر ساعة المخصصة للرياضيات في فرع الرياضيات قد تم تقسيمها بين سبع ساعات رياضيات وخمس ساعات علوم طبيعية ، وما خلا ذلك فان فرع العلوم الاختبارية مطابق تماما لفرع الرياضيات من حيث توزيع الساعات وعددها· وعند مراجعتنا لما تتضمن مادة الرياضيات في هذين الفرعين اثار دهشتنا أن الفرق بين الفرعين هو فرق في **كمية** المضمون لا في **نوعينه** · فمن أصل سبع مواضيع ادرجت ضمن مادة الرياضيات لفرع الرياضيات (وهي : (١) الجبر ، (٢) الحساب ، (٣) التحليل ــ توابع متغير حقيقي ، (٤) التحولات النقطية ، (٥) الهندسة التحليلية والقطوع المخروطية ، (٦) حساب المثلثات ، (٧) الهندسة الوصفية) ، نجد أن أربعا منها في فرع العلوم الاختبارية حذفت بينما أبقى على الثلاث الأخرى المطابقة تماما وبشكل حرفي لما هي عليه في فرع الرياضيات (وهي : (١) الحساب ، (٢) التحليل : توابع متغير حقيقي ، (٣) الهندسة التحليلية والقطوع المخروطية) ، واعتبرت هذه المواضيع الثلاث موازية لسبع ساعات بدل اثنتي عشرة · فاستنادا الى مبدأ الاضافة والحذف وما دامت ساعات الرياضيات قد خفضت من (١٢) الى (٧) يضاف اليها خمس ساعات من العلوم الطبيعية ونشأ عن هذا فرع جديد هو العلوم الاختبارية ، فلا بد أن مضمون مادة الرياضيات يصبح ، هو أيضا ، مضمونا « اختباريا » بحذف أربعة مواضيع من المواضيع السبعة الأصلية ــ وهكذا تجنب أهل المنهاج الجديد عناء التفكير الجدي بمقتضيات الاختصاص وبطبيعة العلم ·

أما مادة العلوم الطبيعية في فرع العلوم الاختبارية فأننا كذلك نجد انها شملت المواضيع الأربعة ذاتها الموجودة في فرع الفلسفة مع الفارق انها ، في فرع العلوم الاختبارية ، جاءت اكثر تفصيلا · ويبدو أن هذا التفصيل كان ضروريا لتبرير اعطائها خمس ساعات بدلا من أربعة كما هي في فرع الفلسفة · وهكذا طبق مبدأ الحذف والاضافة بالنسبة لمادة العلوم الطبيعية في هذين الفرعين ايضا ونتج عن ذلك ما ارتاح اليه أهل المنهاج الجديد ·

ما نقوله عن مادة الرياضيات أو العلوم الطبيعية في فرعي الرياضيات والعلوم الاختبارية أو فرع الفلسفة ، ينطبق في الواقع على مختلف المواد والمواضيع في مختلف الفروع ــ اللغات ، والتاريخ ، والفلسفة ، والجغرافيا وغيرها ···

ثالثا ــ التكثيف والاغراق في التخصص في المواضيع · فمن مراجعة ما يتضمنه المنهاج من مواد يخال للواحد أن الغاية هي حشو ذهن الطالب بكل ما يمكن أن يحشر بالفرع من ساعات وتكوين شبه اختصاصي بالمادة · ويبدو هذا خاصة في الفرع العلمي في السنتين الاولين حيث يعطى الطالب (١٣) ساعة من الرياضيات والفيزياء والكيمياء (وقد كانت ١١ ساعة في المنهاج القديم) ، لترتفع في السنة الثالثة ــ فرع الرياضيات ــ الى (٢٢) ساعة (وقد كانت ١٧ ساعة في المنهاج القديم) · ويبدو الأمر كذلك في السنة الثالثة ــ فرع الفلسفة ــ حيث تطلب الفلسفة بما مجموعه (١٧) ساعة (وقد كانت ١٥ في المنهاج القديم) · اننا نتساءل ما الذي منع أهل المنهاج التفكير ولو بشكل بسيط بامكانية ادخال دروس اختيارية ، على أن يختار الطالب بين هذه المادة أو تلك في المنهاج وفي الامتحان ايضا ؟ أم أن طبيعة اللبناني (بالاضافة الى طبيعة المعارف والعلوم) ،

هي ايضا مقررة سلفا بحيث يفترض أن يقولب الطالب ضمن أقنية واحـدة من المواضيع ويحرم من أن يمارس حريته في اختيار مادة يميل اليها ؟ أم أن فكرة الاختيار هي فكرة انكلوسكسونية ــ ولهذا فهي بعيدة عن طبيعة اللبناني ؟

رابعا ــ فقدان التواصل والانسجام بين ما يعطى في سنتين متتاليتين من جهة ومقتضيات الاختصاص الجامعي من جهة ثانية · يبرز هذا بأكثر ما يكون وضوحا في حالتين معينتين: (١) انه بينما يطلب فيالسنتينالأولبين عشرساعات من اللغات والآداب في الفرع العلمي وأربع عشر ساعة منها في الفرع الأدبي ، فاننا لا نقع على موضوع اللغة والآداب اطلاقا في السنة الثالثة في أي من الفروع الثلاثة ــ الرياضيات أو العلومالاختبارية أو الفلسفة ·فاذا كانت اللغات والآداب ذات أهمية بالغة ، كما يبدو ، فما سبب الانقطاع عنها كليا في السنة الثالثة ؟ أم انه يفترض أن يكون الطالب قد اصبح لغويا ومتأدبا بشكل قاطع ونهائي بعد السنتين الاولين ولا يعد محتاجا اليها ؟ (٢) نجد مـن الجهـة الثانيـة أن مادة الفلسفة تعطى (١٧) ساعة في السنة الثالثة ــ فرع الفلسفة ، بينما لا يشمل منهاج السنتين الاولين موضوع الفلسفة اطلاقا · فهل يفترض أن ينشـأ عند الطالب اهتمام مفاجىء وقابلية مفاجئة لدراسة الفلسفة في السنة الثالثة دون أن يكون قد هيىء لدراستها أو تعرض لها في الصفين الاولين ؟

هذا من ناحية التواصل · أما من ناحية مقتضيات الاختصاص والتحضير للدراسات الجامعية فاننا نتساءل اين مكان العلوم التي لم تعـد تقـل شأنا عن الفيزياء والكيمياء في هذا العصر ، كعلوم الاقتصـاد والسياسـة والاجتمـاع والنفس ، في المناهج الجديدة خاصة في الفرع الأدبي وفي الفلسفة ؟ تصوروا مثلا طالبا يدخل كلية الحقوق في الجامعة أو العلوم السياسية والاقتصادية او التجارية او كلية الصحافة المفتتحة حديثا (من أصل ٣١ الف تلميذ في جامعات لبنان هناك حوالى ١٢ ألفا في هذه الفروع) (١٧) ، بعد أن يكون قد اجتاز البكالوريا بقسميها الأول والثاني دون أن يكون قد تعرض لأي من هذه المواد بينما يكون قد أمضى أربع عشرة ساعة اسبوعية في اللغـات والآداب ، وأربع ساعات في التاريخ والجغرافيا من أصل (٣١) ساعة فيالسنتين الأولين و(١٧) ساعة في الفلسفة وأربع ساعات في التاريخ والجغرافيا في السنة الثالثة ــ فرع الفلسفة · ثم ما الداعي الى هذا الاغراق في التركيز على اللغات والآداب وعلى الفلسفة واعطائها هذا العدد الضخم من الساعات ؟ اننا ما نزال في لبنان أسرى التقاليد اللغوية ــ الأدبية التي تغمر مظاهرها حياتنا بكل تشعباتها ·

خامسا ــ الانفصام (السكيزوفرينيا) الحضاري الذي ينعكس في حيرة المنهاج بين أن يكون لبنان جزءا من حضارة عربية متكاملة ، أو أن يكون كيانا مستقلا يستمد جذوره من تاريخ متمايز ومستقل عن بقية البلدان العربية ــ عروبة الوجه واللسان مقابل عروبة العقل والقلب · يتضح هذا اكثر ما يكون في موضوعي (تاريخ لبنان المعاصر) و (تاريخ العرب المعاصر) ، اذ يتضح من مراجعة ما اشتمل عليه هذان الموضوعان انهما مفصولان عن بعضهما فصلا يكاد يكون تاما · فتاريخ لبنان المعاصر يشمل : لبنان اثر الحرب العالميـة الأولى ــ المرحلة الانتقالية ــ اعلان دولة لبنان الكبير ــ الحكم الفرنسـي العسكـري ــ الثورات اللبنانية ــ الدستور والجمهورية ــ الاحزاب اللبنانيـة ــ لبنان في الحرب العالمية الثانية ــ احتلال الحلفاء للبنـان ــ اعـلان الاستقـلال ــ تنظيم

الدولة ـ لبنان والمنظمات الدولية والعربية ـ الحرب الفلسطينية ونتائجها ـ أهم الأحداث اللبنانية الداخلية • أما تاريخ العرب المعاصر فيشمل : العرب والدولة العثمانية منذ اواخر القرن التاسع عشر ـ حركة التتريك والمعارضة العربية ـ تفكك الدولة العثمانية ـ قيام الجمهورية التركية ـ فتح قناة السويس ـ التدخل الانكليزي وفرض الحماية على مصر ـ محاولات الاستقلال والجلاء في مصر ـ الثورة العربية الكبرى ـ المملكة العربية السورية ـ الانتداب الفرنسي ـ الثورات السورية واعلان الجمهورية ـ قيام المملكة العربية السعودية ـ قيام المملكة العراقية ـ تحرير بلدان شمالي افريقيا • وهكذا يبدو من هذا العرض ان فترة الحكم العثماني التي ترد في تاريخ العرب المعاصر لا ترد مطلقا في تاريخ لبنان المعاصر ، كما ان كلمة الانتداب الفرنسي التي ترد في تاريخ العرب لا ترد في تاريخ لبنان وبدلا عنها يرد « احتلال الحلفاء للبنان » و « الحكم العسكري الفرنسي » ، كأن الانتداب الفرنسي شأن غير ذلك ! ولا يرد ذكر الانتداب البريطاني في فلسطين والعراق على الرغم من علاقة هذا بالانتداب الفرنسي ، كما لا يشار الى احداث مهمة كاتفاق سيكس ـ بيكو الذي كان وراء تقسيم المنطقة الى مناطق نفوذ • وما خلا الاشارة الى الحرب الفلسطينية ونتائجها فليس هناك حدث واحد يجمع بين التاريخين كأن الواحد يبحث في تاريخ اليابان والاخر في تاريخ كندا • ولكن يكفي أهل المنهج انهم شملوا التاريخين فتجنبوا لومة لائم !

ويتضح هذا الانفصام كذلك بالنسبة لمادة الفلسفة في السنة الثالثة ـ فرع الفلسفة • فقد قسمت هذه المادة الى قسمين : (١) تاريخ الفلسفة العربية و (٢) الفلسفة العامة • ويتبادر الى الذهن السؤال : لماذا دعي الموضوع ، بالنسبة للفلسفة العربية ، « تاريخ » ، بينما دعي بالنسبة للفلسفة العامة « فلسفة » ؟ هل يبطن هذا ايحاء بأن دراسة الفلسفة العربية كفلسفة ليس مهما ويكفي التعرف على تاريخها ؟ ثم أليس أمرا يدعو الى الاستغراب أن تعطى مادة الفلسفة العامة وامتحاناتها بلغة اجنبية ؟ أو ليس من الممكن ان تدرس الفلسفة العامة ، كالفلسفة العربية ، باللغة العربية وأن يعطيا معا بشكل موحد ؟ هذا اذا تساهلنا بتدريس العلوم أو الرياضيات بلغة اجنبية •

اننا نكتفي بهذا القدر من الملاحظات عن المناهج الجديدة دون حاجة لمزيد من التوسع ، ونذكر باقتراحنا المتقدم بأن يعاد تقسيم الهيكل التعليمي الى ثلاث مراحل ـ ابتدائي من ست سنوات ، ومتوسط من أربع سنوات ، وثانوي من سنتين ، وان تلغى البكالوريا القسم الأول كليا ، وأن تقسم الدراسة الثانوية الى ثلاثة أقسام : (١) فرع الدراسات الانسانية ، (٢) وفرع الدراسات العلمية (٣) وفرع الدراسات التقنية ـ المهنية •

ان مسألة تحديث المناهج واصلاحها تقتضي صياغة جديدة وفق نظرة جديدة • أما التلاعب والتوازن في كميات من المعلومات فانها تبقى ، في غياب مثل هذه النظرة ، عملية الهاء وتخدير •

٣ ـ الكتاب المدرسي : نأتي الآن الى العنصر الثالث الذي شملناه في تقسيمنا لموضوع المضمون الثقافي وهو الكتاب المدرسي . فاذا كان المنهاج هو الدرب او الاطار الذي تجري

ضمنه العلاقات التعليمية ، فان الكتاب المدرسي هو المجسد الملموس والمحور المركّز لهذه العلاقات • وفي مجتمعات كالمجتمع اللبناني يبلغ تأثير الكتاب في ذهنية الولد مدى بعيدا اذ ينظر اليه والى ما يضم بين دفتيه على انه الحقيقة الثابتة والمعرفة التامة التي ، ان تعلمها التلميذ وتمكن من حفظها والاستشهاد بها ، اصبح « مثقفا » • ولعلنا لا نغالي اذا قلنا أن العربي عامة ينزل الكلمة المكتوبة منزلة رفيعة من الاحترام ، كما يتوق أن يرى اسمه مكتوبا ، كالتعويذة ، فيتقي بذلك غدر الأيام• ولعل أهمية الكتاب والكلمة المكتوبة كاداة تعليمية تتضاءل بالنسبة لارتفاع قيمة المعلم وفاعليته كمحرض فكري وروحي للتلاميذ • والى أن يتوفر لنا في لبنان مثل هؤلاء المعلمين يبقى للكتاب قيمته العظمى •

ان الكتاب المدرسي في لبنان يعكس الحضارة العامة التي وصفناها في مكان آخر بالحضارة الشفوية (١٨) • انها حضارة قوالب لفظية ورموز تستثير المشاعر دون أن تستثير العقل ، تستعيض عن الصيرورة والحدث على صعيد الواقع بالتمني على صعيد الحلم ، فتخلط بين ما هو كائن وما يجب أن يكون كما تخلط بين المظهر والحقيقة وبين الأسباب ونتائجها • وهكذا تطغى في ثقافتنا المظاهر الشفوية كما تطغى في حياتنا العامة مظاهر الرونق • ان العربي « المثقف » يحرص أن ينتقي ربطة عنقه من مصنوعات جاك فات أو بيير غاردان ولا يتردد أن يدفع ثمنها ثلاثين أو اربعين ليرة بينما يتناسى أن يغير ثيابه الداخلية المتسخة اكثر من مرة أو مرتين في الأسبوع • وكذلك فان رئيس دولة من الدول العربية الثورية لا يتردد في أن يتجاذب اطراف الحديث مع ضيوفه في صالون يزدخر بالمفروشات المخملية والمطرزات والمقاعد المحفورة على طريقة لويس الرابع عشر ، بينما يصر هو على ارتداء بذة الميدان دلالة على ثوريته • لقد أبانت دراسة أجريت مؤخرا لحوالي ثلاثمئة كتاب من أمهات الكتب العربية التي ظهرت بين العام ٦٠٠ والعام ١٧٠٠ أن (٢١٪) منها كانت في موضوع الأدب و (٢١٪) أخرى في موضوع السيرة والتاريخ و (١٢٪) في موضوع اللغة ، و (١١٪) في موضوع الدين ، و (٧٪) في موضوع الفلسفة ، بينما حظيت العلوم الطبيعية ب (٧٪) ، والرياضيات والطبيعيات ب (٧٪) والجغرافيا ب (٦٪) وغيرها من المواضيع الأخرى ب (٩٪) (١٩) • العربي من زمان أسير لشفتيه ولسانه •

أما على الصعيد المدرسي فان خصائص الحضارة الشفوية تنعكس اكثر ما يكون وضوحا في كتب القراءة • فكتاب القراءة الجيد في لبنان هو الذي يضم بين دفتيه مختارات ونماذج ادبية يتمرن الولد على قراءتها فتنطبع في ذهنه وتصبح معياره في الحكم على الأشياء كما تصبح ملجأه عند اضطراره للهرب أو التمويه الفكري دون حاجة الى فك رموزها أو تفهم معناها •أما أن يفهم الولد ما يقرأ وأن يحاول الكتاب ان ينمي فيه المواقف العلمية والعقلية وان يساعده على الربط بين ما يقرأ والمحيط الذي يعيش فيه ، فهذا ليس من اختصاص كتاب القراءة • « فكتاب القراءة للقراءة فقط ، وللقراءة ساعاتها المقررة في التوزيع الاسبوعي ، فهي ليست درسا تتبعه تمارين انشائية ، اذ ان لهذه المواد ايضا ساعاتها المحددة » (٢٠) • هذا ما جاء في مقدمة كتاب للقراءة كان بين الكتب التي وقع عليها اختيار وزارة التربية اللبنانية وقررت استخدامه في مدارسها الرسمية • وهو يعطينا مثلا عن كيفية فهم واضعي الكتب في لبنان للمناهج وكيف تترجم هذه المناهج في مضمون كمي معين كما لاحظنا من مراجعتنا لمواد المنهاج• ان عقلية واضعي الكتب المدرسية في لبنان ليست بأسوأ ولا بأفضل من

عقلية الوزارة وفهمها للمنهاج ــ انهما تعبيران عن نمط حضاري واحد ونوعية واحدة من التفكير ٠

لكن يبدو ان وزارة التربية قد اقلقها مؤخرا وضع الكتاب المدرسي ، فرأت ان تباشر اصلاحاتها باجراء دراسة حول الكتب المستعملة في مادة القــراءة ٠ فاعلنت مؤخرا انها اتمت هذه الدراسة بعد ان استعرضت الكتب واختارت من بينها اربعا وعشرين كتابا اعتبرتها افضل الكتب الموجودة تستعمل من مرحلة الروضة حتى نهاية المرحلة الابتدائية ٠ ثم دعــت اصحــاب دور النشر لاجراء مناقصة حولها وتبني الكتب التي يعطي أصحابها التخفيضات في الاسعار لمـدة سنتين تبدأ العام المقبل ٠ (٢١)

على اثر هذا قمت بدراسة تحليلية لمضمون عشرين كتابا من هذه الكتب (اهملت كتب مرحلة الروضة باعتبارها لا تنسجم مع الطريقة التي اتبعتها في التحليل) ، فاحصيت عدد الدروس المتضمنة في هذه الكتب كما احصيت عدد الكلمات في كل درس منها ثم اعطيته علامتين ، الاولى تتعلق بما دعوته « قيمة الدرس من ناحية اثارة الابداع والتساؤل في ذهن الولــد » ، والثانيــة تتعلق « بمستوى الصدق والواقعية في الدرس ومدى علاقته بحاجات الولد وحاجات مجتمعه » ، كما افهمها ٠ وقد استخدمت في اعطاء العلامات ميزانا يمتد من (١) كحد ادنى الى (٥) كحد اقصى ٠ ثم استخرجت معدل العلامتــين لكــل كتاب ٠ وهذه خلاصة موجزة للنتيجة التي توصلت اليها :

مجموع الدروس(١)	عدد الكلمات في المجموع (٢٣)	معدل علامة الابداع والتساؤل (٢٢)	معدل علامة الصدق والواقعية (٢٢)
٨٠٢	١٢٩،٣٩٣	٢ر٣٤	٢ر٥٦

من الضروري الانتباه عند التمعن في معدل العلامات المعطاة ان نقطة الصفر هي واحد وليست صفرا ، اي اذا لم يكن الدرس ذا قيمة مطلقا فقد اعطيته علامة واحد من اصل خمسة لا صفرا ٠ وهكذا فان معدل (٢ر٣٤) للابداع والتساؤل و (٢ر٥٦) للصدق والواقعية هما معدلان متدنيان جدا ٠

للمزيد من التعمق بمضمون هذه الكتب حاولــت ان ادقــق فــي ناحيتين اضافيتين ، الاولى : العناصر التي يدور حولها كل درس ، والثانية العبرة التي يمكن استخراجها من كل درس ، وهذه هي النتيجة :

اولا ــ العناصر التي يدور حولها الدرس (١)	عدد الدروس	النسبة المئوية
١ ــ حيوان او طير	٢١٦	٢٦ر٩ ٪
٢ ــ الطبيعة او احد اشكالها	١٢١	١٥ر١ ٪
٣ ــ العائلة أو أحد أفرادها	٧٩	٩ر٨ ٪
٤ ــ آلة أو شيء ما من صنع الانسان	٦٧	٨ر٤ ٪
٥ ــ مؤسسة اجتماعية (غير العائلة أو الوطن)	٢٨	٣ر٥ ٪
٦ ــ حادث او قصة اجتماعية او تاريخية	١١١	١٣ر٨ ٪
٧ ــ الوطن او شيء يرمز للوطنية	٢٣	٢ر٩ ٪
٨ ــ خلاف ذلك	١٥٧	١٩ر٦ ٪
المجموع	٨٠٢	١٠٠ر٠٪

ثانيا ــ العبرة التي يمكن استخراجها من الدرس	عدد الدروس	النسبة المئوية
١ ــ التعابير الوصفية بقصد اثارة الاعجاب بالرونق والجمال	١٣٢	١٦ر٥ ٪
٢ ــ التحريض على امتلاك صفات شخصية مستحسنة	١٨٩	٢٣ر٦ ٪
٣ ــ التحريض على المحبة والتعاطف العائلي	٥٠	٦ر٢ ٪
٤ ــ التحريض على امتلاك صفات اجتماعية مستحسنة	٨٨	١١ر٠ ٪
٥ ــ نقل معلومات حول أمور او اشياء بقصد الاضافة للمعرفة	٦٦	٨ر٢ ٪
٦ ــ التحريض على الشعور الوطني	٤٠	٥ر٠ ٪
٧ ــ اثارة الاعجاب بالحيلة ، خاصة عند الحيوانات لا لقصد واضح سوى التسلية	٨٦	١٠ر٧ ٪
٨ ــ خلافه من الامور التي تفتقر الى العبر الواضحة	١٥١	١٨ر٨ ٪
المجموع	٨٠٢	١٠٠ر٠٪

لتسهيل فهم هذه النسب بامكاننا ان نقسم العبر المستمدة من الدروس الى ثلاثة اقسام رئيسية :

أولا ــ الدروس التي تنطوي على عبر تهدف الى تطبيع الولد بالقيم والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع ، كالتحريض على امتلاك صفات شخصية مستحسنة (كالامانة والنظافة والصدق والطاعة والاحترام) ، او التحريض على المحبة والتعاطف العائلي (كمحبة الوالدين وطاعتهما) والتحريض على امتلاك صفات اجتماعية مستحسنة (كمساعدة الفقراء والحنو عليهم ، وعدم الاعتداء على الغير ، والتعاون ، والتحريض على العمل الصالح) ، وهذه تنال ما يوازي (٤٠ر٨٪) من مجموع الدروس .

ثانيا ــ الدروس التي تنطوي على عبر تحاول ان تدخل لنفس الولد الاعجاب بالجمال والديباجة والرونق والبهاء خاصة في ما يتعلق بالطبيعة ، او الاعجاب بالحيلة والشطارة (خاصة كما تأتي على لسان الحيوانات) ، وهذه تنال (٢٧ر٢٪) من مجموع الدروس .

ثالثا ــ الدروس التي تضيف الى معارف الولد شيئا جديدا ، وتلك التي تحرضه على الولاء للوطن ، وهذه تنال (١٣ر٢٪) . أما ما تبقى من الدروس ، أي (١٨ر٨٪) فلم أتمكن من تصنيفها اذ أنها لا تحتوي على أية عبر واضحة . ولا نرانا في حاجة للاستفاضة في تفسير هذه النتائج ، اذ يبدو جليا انها تقصر في معظمها أن تثير في الولد الرغبة في الفكر واقتباس الاشياء الجديدة والولاء لرموز تتعدى بيئته العائلية فتؤكد ، بدلا عن ذلك ، على التحلي بالصفات الاجتماعية او الشخصية المستحسنة ، كما توفر له مناخا غنيا بالتعابير والصور الوصفية والانشائية المثيرة للمشاعر . أي انها تحاول من جهة أن تطبعه بطابع القيم السائدة في المجتمع ، ومن جهة ثانية أن تخدر ذهنه بالتعابير التعميمية والوصفية التي لا تحتاج الى الفعل العقلي بقدر ما تحتاج الى الانفعال العاطفي .

للزيادة في التأكد من هذه الخلاصة ، انتقيت (١٤٤) كلمة ، وقمت باحصاء عدد ورودها في مجموع دروس العشرين كتابا ، واليكم بعض هذه الكلمات وعدد ورودها أو ورود مشتقات لها من جذر الكلمة ذاتها :

اكتشفت (١٥) ، اخترع (١٨) ، حرية (٥٠) ، حضارة (٤) ، شجاعة

(٣٦) ، أطاع (٢٧) ، فقير (٧٢) ، احترم (٣١) ، نظافة (٩٠) ، واجب (٢٦) ، قتل (٨٢) ، هاجم (٥٢) ، مات (١٦٩) ، شجرة (٣٢٢) ، زهرة (٢٢٢) ، جبل (١٤٤) ، بحر (١٠١) ، ثلج (٤٥) ، قرية (١٤٢) ، مدينة (٩٦) ، حمار (٢١٤)، ذئب (١٩٠) ، ثعلب (١٨٨) ، أب (٢٥٥) ، والد (١٣٨) ، أم (٤١٤)، أخ(٢٠٣) ابن (٢٢٨) ، وطن (١٢٣) ، امة (٢٧) ، شعب (٢٠) ، حكومة (٨) ، دولة (١٤)، مجتمع (٧) ، استقلال (١١) ، ليرة (٠) ، دينار (٢١) ، دراجة (٢١) ، خريطة (٢) ، راديو (١٣) ، تلفون (٨) ، كرسي (٢٠) ، طاولة (١٨) ، سرير (٥٢) ، شرطي (٧) ، بوليس (٠) ، خباز (١٦) ، لحام (١) ، طبيب (١٩) ، محامي (٥) ، فلاح (١٠١) ، الله (٢٢١) .

انه أمر مؤلم ان كلمات ذات مدلول ايجابي (اكتشف ، اخترع ، حرية ، حضارة ، شجاعة) ترد (١٢٣) مرة بينما ترد ثلاث كلمات ذات مدلول سلبي (قتل ، هاجم ، مات) (٣٠٣) مرات ، وان ترد أسماء الحيوانات (حمار ، ذئب ، ثعلب) (٥٩٢) مرة ، وكلمات عن الطبيعة (شجرة ، زهرة ، جبل ، بحر ، ثلج) (٨٣٤) مرة ، بينما ترد كلمات اشياء يراها الولد باستمرار حوله ويستخدمها وتربطه بالواقع (دراجة ، خريطة ، راديو ، تلفون ، كرسي ، طاولة ، سرير) (١٣٤) مرة فقط ، او ان ترد أسماء افراد العائلة بهذه الكثرة (أب ، والد ، أم ، أخ ، ابن) (١٫٢٣٨) مرة ، بينما ترد كلمات تتعلق بالوطن والشعب (وطن ، امه ، شعب ، حكومة ، دولة ، مجتمع ، استقلال) (٢١٠) مرات فقط . ثم لنتمعن مليا بكلمتي « ليرة » التي لا ترد ولا مرة من اصل (١٢٩٫٣٩٣) كلمة في هذه الكتب ، بينما ترد كلمة « دينار » التي تعود بنا الى عصور الخلفاء والاقدمين (٢١) مرة .

انا على وعي تام بان معنى الكلمة يتوقف على كيفية استخدامها وعلى المكان الذي تحتله في العبارة وعلى موضوع الدرس بكامله ، كما اننا نعي ان هناك كلمات اخرى لم نوردها في هذا العرض ولم نقم باحصائها . ولكننا نقدم هذه الكلمات كامثلة على ما نعني حين أشرنا الى طغيان المناخ الوصفي الانشائي في هذه الكتب والتعابير التطبيعية التي ترمي الى قولبة الولد في أطر القيم السائدة في المجتمع دون ان تحاول اثارة قواه العقلية والابداعية ، والى بعد هذه الكتب عن حاجات المجتمع والبيئة التي يعيش الولد فيها وعن مشاغل العصر الحديث . بامكاننا ان نتفحص هذه الكلمات في ضوء المعلومات التي قدمناها قبلا عن عناصر الموضوع والعبر المستمدة من الدروس والعلامتين اللتين اعطيناهما لكل كتاب ، لتأخذ هذه النتائج معنى أوضح .

لكن سطحية كتب القراءة وعيوبها لا تنتهي عند هذا الحد . فالنظر في التمارين المعطاة في نهايات الدروس ، بقصد الاستظهار او كتابة فروض الانشاء او للتفسير ، تصدمنا بمزيد من الاسى . ان اي كتاب من الكتب العشرين لا يحاول ان يخرج ، في هذه التمارين ، عن محاولات التلقين الببغائي الى محاولة اثارة ذهن الولد ودفعه الى التفكير الشخصي الحر . فالنمط السائد في هذه التمارين هو أسئلة تحاول أن تدفع بالولد الى ترديد ما جاء في الدرس ، كالأسئلة التالية : ماذا قال الحمار للأرنب ؟ لماذا سار الثعلب بين الحقول والبساتين ؟ من كان فوق الشجرة ؟ هل صحيح ان فائدة الساعة عظيمة ؟ ماذا فعلت نعمة بقطعة القماش ؟ كيف كانت نهاية العصفور ؟ ايهما انفع للجسم البكاء أو الضحك ؟ من هو بزر جمهر ؟ – كانما ما قاله الحمار للذئب او ما كانت عليه نهاية العصفور،

أو من هو بزرجهر ، هي من الامور الخطيرة التي يجب ان يعرفها الولد ·

ولكن غباء هذه الكتب لا يتوقف عند حد التلقين ، فهو كثيرا ما يتطرق الى تشويه اشياء جميلة قد يحتويها درس ما · لقد آلمني كثيرا ان اقع في احد الكتب على حوار مأخوذ من أجمل الكتب التي خطتها يد انسان هي يد الكاتب سانت اكزوبري في كتابه « الامير الصغير » ، ترجمة يوسف غصوب ، وان ارى في مقدمة هذا الحوار اسئلة مخجلة وفي نهايتها تمرين على الانشاء ينطوي على اقصى ما اتصوره من الغباء والتسفيه لمعنى الحوار · اليكم بعض مقاطع الحوار ، ثم الاسئلة والتمرين (٢٤) ·

« ··· ثم اردف قائلا بعد ان فكر قليلا :

وما معنى الداجنة ؟
قال الثعلب : ــ انت لست من هنا فعمن تفتش ؟
قال : افتش عن الناس · لكن قل لي ما معنى الداجنة ؟

قال الثعلب :ــ الناس عندهم البندقيات يتصيدون بها · وهذا من الامور المزعجة ــ ثم انهم يربون الدجاج لمآربهم ولا يهتمون الا لهذه المآرب ، فهل انت تفتش عن الدجاج ؟

قال الامير الصغير :ــ كلا ، بل افتش عن اصدقاء ، لكن قل لي ما معنى التدجين ؟

قال الثعلب :ــ هذا امر قد تناساه الناس أما معناه فانشاء العلائق ·
قال :ــ انشاء العلائق ؟

قال الثعلب : ــ هي الحقيقة بعينها · ولو اردت ان اضرب لك مثلا لقلت: أنت حتى الآن ، في نظري ، ولد شبيه بمئة الف من الاولاد ، لست بحاجة الي ولا انا بحاجة اليك ، وانا في نظرك ثعلب شبيه بمئة الف من الثعالب · أما اذا « دجنتني » اصبح كل منا بحاجة الى صاحبه ، واصبحت في نظري فريدا في العالم واصبحت في نظرك فريدا في العالم ·

قال الامير : ــ قد بدأت ادرك ما تعني ··· اعرف زهرة واغلب ظني انها دجنتني » ·

اما الاسئلة « للمحادثة » ، التي جاءت في مقدمة هذا الدرس فهي :

اين ترى الامير الصغير ؟ ماذا يلبس ؟ اين ترى الثعلب ؟ ماذا يفعل ؟ هل الثعلب من الحيوانات الداجنة ؟ اذكر بعض الحيوانات الداجنة ؟ اذكر بعض الحيوانات غير الداجنة ؟ اين تعيش الحيوانات غير الداجنة ؟ ·· ثم يأتي نص التمرين في نهاية الحوار كالاتي : « ثعلب ينقض على دجاجة فيدق عنقها ويحملها بين انيابه ويهرب بها الى مكان منفرد وهناك يأكلها ــ قص ذلك » · أما مسألة الصداقة وانشاء العلائق والألفة والبنادق والامور المزعجة ، فهذه كلها أمور يتناسى مؤلف الكتاب ان يتساءل عنها، والاهم من هذا كله أن يعرف الولد كيف يقص قصة الثعلب الذي يدق عنق الدجاجة ، او أن يعرف ما هي الحيوانات الداجنة واين تعيش !

يجب ان لا يغرب عن البال ان هذه الكتب العشرين ، هي ، في عرف وزارة

التربية ، افضل كتب القراءة الموجودة · ويخفى علينا الاسباب التي استندت اليها الوزارة في قرارها ، كما يخفى علينا ما تكون عليه حال الكتب الاخرى التي لم تعتبرها الوزارة ، لسبب أو لآخر ، على هذا المستوى من الجودة ·

يضيق المجال لاستعراض كتب اخرى في مواضيع اخرى ، ولكنني آخذ مثالا واحدا واخيرا عن نوع الكتب المستعملة في لبنان ، وهذه المرة في المرحلة الثانوية وفي موضوع التربية المدنية · هذا الكتاب هو « التربية المدنية » للصف الخامس ثانوي (٢٥) · وقد جاء في صفحة وحيدة بعد صفحة العنوان ما يلي : « وضعت هذا الكتاب لجنة مؤلفة بقرار صادر عن وزير التربية الوطنية ، تضم ممثلين عن وزارة التربية الوطنية ووزارة الدفاع الوطني ، ووزارة الانباء ، مركز النشر ، مع اخصائيين في التربية » · كما جاء في مقدمة الكتاب ما يلي : « وبعد ، فعسى هذا الكتاب وما سيتلوه من اجزاء ان يساعد على تنشئة جيل لبناني صحيح يستطيع التخلص من رواسب التفرقة بين ابناء هذا الوطن وعوامل الاتكالية بينهم ، ويكون دافعا للعمل البناء في سبيل مجتمع افضل» · ــ لا يمكن ان يتصور احد كلاما أجمل من هذا الكلام أو اغنى وعدا · أما كيف سيساعد هذا الكتاب على تنشئة جيل لبناني صحيح فقد تم لي اكتشافه فجأة حين تبين لي ان صفحاته العشر الاخيرة منتزعة · تفحصت الفهرس فاذا هذه الصفحات المنتزعة تحتوي على ما يلي : « لبنان بوتقة التفاعل بين الاديان » ص (٢١٩) ، « الطائفية ، تاريخها واسبابها » ص (٢٢٥) ، « التمثيل الطائفي تدبير موقت » ص (٢٢٩) ، « الدين يجمع والطائفية تفرق » ص (٢٣١) ·

كان السؤال المؤلم الذي خطر لي أثر هذا الاكتشاف هو : ماذا يكون شعور الطالب اذا فعل ما فعلت وراجع الفهرس بعد ان وجد هذه الصفحات منتزعة ؟ هل سيؤدي ذلك الى ازالة عوامل التفرقة من نفسه واحلال الثقة بحكومته وشعبه مكانها ؟ انطلب كثيرا اذا انتظرنا من وزارة التربية او السلطات التي انتزعت هذه الصفحات ان تحترم ذكاء الطالب وتفترض انه ، وقد بلغ السادسة او السابعة عشرة من العمر ، قد يتساءل وقد يستغرب وقد يفتش عن سبب انتزاعها ؟ ثم اذا كانت هذه الصفحات تقرأ من عناوينها فهل يكون خطرا على الجيل اللبناني الجديد ان يعرف ان لبنان بوتقة التفاعل بين الاديان وان التمثيل الطائفي تدبير موقت وان الدين يجمع والطائفية تفرق ، ام ان الخطر يكمن في معرفة تاريخ الطائفية واسبابها ؟ أم ان مشكلة مهمة تشغل بال اللبنانيين جميعا لا أهمية لها ويمكن حذفها وازالتها من عالم الواقع اللبناني لمجرد تجاهلها ورفض الاعتراف بوجودها وتمزيق الصفحات التي تتحدث عنها ؟ أم ان الحس الوطني يمكن ان يترسخ بمجرد الحديث عنه بشكل عنجهي وفارغ كما جاء في الصفحات الاولى من الكتاب : « فاللبناني مثلا فخور بابطاله وقادته الذين سجلوا انتصارات رائعة وحافظوا على وحدته الوطنية ، فخور بادبائه وشعرائه الذين حملوا رسالته الحضارية الى أقصى المعمورة وعرفوا العالم بوطنهم ، فخور بآبائه واجداده الذين بذلوا اقصى الجهود واضناها لتطور الوطن ودفعه الى مصاف الاوطان الراقية المتقدمة » ــ ايصبح المرء فخورا بالشيء اذا قيل له انه فخور به ، أم انه صحيح ان الخائف اكثر ما يكون فصاحة عندما يتكلم عن الشجاعة ؟

ان الكتاب المدرسي في لبنان عنوان حضارة متخلفة يجب الثورة عليها · اذا كان شبان لبنان يتقدمون في طريق الحداثة فذلك بالرغم من سخافة الكتاب

المدرسي وغبائه وليس بسببه • مشكلة الكتاب المدرسي ليست مشكلة توحيده أو تسعيره ، فقبل هذا وذاك يجب أن يوجد الكتاب المدرسي الملائم لحياة لبنان المعاصر وآماله في القدم •

٥ - من ناحية الاداره التربوية والتخطيط التربوي

لقد اصبح امرا مألوفا ان يسمع المرء من كبار المسؤولين عن التعليم في لبنان التحسر والتذمر من الاوضاع التربوية لدرجة تجعل الواحد يشعر انه هو المسؤول لا هم • فهؤلاء المسؤولون أفصح من عرفت عند التحدث عن هذه الاوضاع ومساوئها ، ولكننا نراهم في مجال العمل والاصلاح الجذري يدورون في دوامات التردد والاعتذار • يجب الاعتراف فورا بان هؤلاء الرجال ، باشخاصهم ، ليسوا مسؤولين ، فبعضهم ، ولعل معظمهم ، من الرجال الاكفاء الراغبين في العمل الجدي • لكن الواقع انهم سجناء وضع سياسي واجتماعي معقد وقوى تقليدية شديدة الطغيان على مصير لبنان • انني من الذين يعتقدون ان الاصلاح الجذري لا يمكن ان يحدث والحالة على ما هي عليه ، قبل ان تفتح ابواب هذا السجن ، وأقترح لذلك الاجراءين التاليين :

اولا : ان تلغى وزارة التربية ويستعاض عنها بمجلس يكون مفصولا فصلا كاملا عن السياسة بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة في لبنان ، وأن تعطي لهذا المجلس صلاحية رسم السياسة التربوية العليا ، وان يرئسه شخص مؤهل يعين مباشرة من قبل رئيس الدولة ويكون مسؤولا تجاهه فقط ، وان تتكون عضوية هذا المجلس من رجال اكفاء يختارهم رئيس المجلس وعلى مسؤوليته من بين كبار قادة الفكر في البلد ومدراء بعض وزارات الدولة ، ويجري انتخاب بعضهم الآخر عن طريق مختلف النقابات المعترف بها رسميا • كما ارى ان ينشأ تحت هذا المجلس مجلس آخر ذو صلاحيات ادارية وتنفيذية يتكون من رؤساء الاقسام والدوائر القائمة حاليا في وزارة التربية كمدير التعليم الابتدائي ومدير التعليم الثانوي ومدير التعليم المهني الخ ، على ان يعطى هؤلاء صلاحيات واسعة فيما يتعلق بنطاق عملهم ووفق السياسة المرسومة من قبل المجلس الاعلى • يمكن اعطاء مزيد من التفصيلات عن تكوين هذين المجلسين وأعمالهما وصلاحيتهما ولكنني اكتفي هنا باطلاق هذه الفكرة بخطوطها العريضة •

ثانيا : ان ينشأ مركز للدراسات والبحوث التربوية يكون متصلا اتصالا مباشرا بالمجلس الاعلى وعاملا الى جانبه ووفق توجيهاته فيزوده بالمعلومات المتعلقة بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلد ، ويقدم له الدراسات والمشاريع والاقتراحات التي يمكن للمجلس ان يستخدمها ويستند اليها في رسم السياسة التربوية • يمكن لهذا المركز ان يحل محل مجلس البحوث الوطني القائم حاليا او ان يندمج به ، كما يمكنه ان يكون همزة اتصال بين الجامعة الوطنية والمجلس الاعلى •

ان فك الارتباط والتشابك بين السياسة التقليدية في لبنان وبين القضايا التربوية أمر حيوي يجب ان يعمل على تحقيقه • والحديث عن التخطيط في وضع كوضع لبنان الحاضر أمر يبدو لنا ملهاة جديدة وذريعة جديدة نتمسك بها لتأجيل العمل الجدي • قبل ان ينجح التخطيط بمعناه التقني يجب ان تتبلور السياسة التربوية ، فالتخطيط تابع للسياسة وليس العكس •

و - من ناحية الجامعة اللبنانيّة

لا يجوز ان ننهي هذه الدراسة عن التحديث التربوي دون الاشارة الى الجامعة اللبنانية ودورها في هذه العملية • فليس من المبالغة في شيء القول ان الجامعة الوطنية يجب ان تصبح محور عملية التحديث ، باعتبارها قمة النظام التربوي • لقد شددنا في مقدمة هذه الدراسة على ان عملية التحديث هي عملية قيادية يحمل لواءها نخبة من الرجال المليئين برؤى جديدة لمستقبل افضل ، المتلكين اسباب المعرفة التي تضيء لهم طريق هذا المستقبل • كما شددنا على ان نوعية التحديث وطبيعته تتوقف على نوعية النخبة ومكانها بالنسبة لمجاور القوى الفاعلة في المجتمع ، اذ ليس من الصحيح دائما ان الفئات المؤهلة هي التي تشق طريق المستقبل • وليس هناك في يقيننا مؤسسة او فئة مؤهلة اكثر من الجامعة ورجالها للقيام بهذا الدور • أنها المكان الذي يجب ان يستقطب الفكر التحديثي في جميع اوجهه والذي يجب ان تنشأ في رحابه نخبة المستقبل •

لكن لتتمكن الجامعة اللبنانية ان تقوم بهذا الدور عليها أن تتحدث هي أولا • ولا نرانا في حاجة الى تفصيل ما نرى أن يتم اصلاحه ، اذ أن علل الوضع القائم معروفة للجميع ، والاجراءات الواجب اتخاذها هي أيضا معروفة ، وقد أعطينا رأينا بصدد الاجراءات العملية التي نرى الاخذ بها في مكان آخر (٢٦) • ان المسألة بالنسبة للجامعة اللبنانية هي مسألة ايمان بدورها ووعي لمسؤولياتها من قبل رجال الدولة ثم العمل على اصلاحها بشكل جدي وفعال ، وليست مسألة غموض في الاهداف والوسائل الواجب اتخاذها •

ز - خاتمة

نتنهي الى السؤال الاخير والاهم : هل ان النظام التربوي الحاضر مؤهل أن يدفع لبنان في طريق الحداثة ؟ الجواب عن ذلك هو ببساطة ووضوح وأسف ـ كلا • انه نظام بال مرتبط بالماضي متجه اليه ، يدور حول نفسه في دوامة من الروتين والرتابة لدرجة يبدو معها كأنه أضاع هدفه وسبيله •

أما عن تزايد المعلمين والمدارس والطلاب والاموال المخصصة للانفاق والمشاريع والاصلاحات التي تستحدث ، فهذه كلها أشياء قديمة ـ تراكم من النوع العتيق البالي ذاته • والتراكم ، كالورم ، ليس دليل عافية •

من أذكى واطرف ما قرأته حول الوضع اللبناني قول ايلي سالم ان « صديقا طلب الي أن أشترك في جريدة لبنانية أثناء غيابي عن الوطن • قلت له بأن في حوزتي عددا صحفيا من تسع سنوات وهو يخبرني عن كل ما يحدث في وطني » (٢٧) • لم يحدث شيء في لبنان من تسع سنوات ولا من عشرين سنة ـ سوى التراكم • عدد الطلاب زاد ، وكذلك عدد أعضاء مجلس النواب ، وكذلك عدد السيارات والبنايات والقبضايات • لكن لا هذا ولا ذاك ولا ذلك غيَّر في الوضع شيئا ـ فالعقلية هي ذاتها وان تغيرت الاسماء ، وما حدث أمس

يحدث اليوم وان تغيرت الاشياء • والمناهج الجديدة هي تلاعب بكميات متحجرة من المعلومات كالتلاعب بالالفاظ ، والكتب المدرسية الجديدة هي ، كالقديمة ، تقييد للفكر والابداع ، مثقلة بأشباح الماضي ولا تمت للمستقبل بصلة • ان ما يحتاج اليه التعليم في لبنان هو عمل جذري وحاسم ، ودون ذلك لن يكون هناك لبنان حديث •

المراجـــــع

١ ـ الأرقام والاحصائيات الواردة في هذه الدراسة عن التعليم الرسمي والتعليم الخاص جميعها مستمدة من منشورات وزارة التربية الوطنية ، الا في الحالات المشـار اليها ، احصاءات عام ١٩٦٧/١٩٦٨ مستمدة بشكل خاص من : الجمهورية اللبنانية ، وزارة التربية الوطنية ، **الاحصاء التربوي للعام الدراسي ١٩٦٧/١٩٦٨** ، (بيروت ، مطبعة سميا) •

٢ ـ وزارة التصميم ، مصلحة النشاطات الاقليمية ، **أوضاع التعليم في لبنان** ، ١٩٦٤ •

٣ ـ المصدر السابق •

٤ ـ نفضل ، التزاما بوعد قطعناه ، أن لا نكشف عن المصدر الذي استقينا منه هذه المعلومات ، مع التأكيد انها معلومات مسجلة وفي حوزتنا نسخة منها •

٥ ـ Commission Episcopale pour L'école Catholique Au Liban, Secrétariat Général, Repértoire Des Ecoles Catholiques Au Liban, Année Scolaire 1967-1968, (Imprimerie St. Antoine, Beyrouth).

٦ ـ **جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية** ، مطبعة سيكو ، بيروت ، ١٩٦٥ •

٧ ـ الأرقام المتعلقة بجنسيات الطلاب في هذه الجامعات ودياناتهم مأخوذة مـن مصادر التسجيل فيها فيما عدا حالتين : الأرقام المتعلقة بالطائفة التي ينتمي اليها طـلاب الجامعـة اللبنانية مأخوذة من دراسة غير منشورة لخبير اليونسكو السابق في لبنان J. P. Valin بعنوان Population de l'université Libanaise

وكذلك الأرقام عن توزيع طلاب الجامعة اللبنانية بالنسبة للطبقة الاجتماعيـة • أما توزيع طلاب الجامعتين الاميركية واليسوعية بالنسبة للطبقة الاجتماعية فمأخوذة من دراسة حقليـة قام بها الكاتب وموجودة في اطروحته المقدمة لجامعة شيكاغو عام ١٩٦٤ بعنوان

The Role of Tow Western Universities in the National Life of Lebanon and the Middle East, Chicago 1964.

٨ ـ الاحصاء التربوي للعام الدراسي ١٩٦٧/ ١٩٦٨ المشار اليه في رقم (١) •

٩ ـ المصدر السابق رقم (٥) •

١٠ ـ جريدة **النهار** ، تاريخ ١٩٦٩/٢/٩ •

١١ ـ الجمهورية اللبنانية ، وزارة التربية والفنون الجميلـة ، **منهـج التعليـم** بيروت ، مطبعة صيقلي ، ص• ٢ •

١٢ ـ ملحق جريدة النهار ، **نهار الرياضة والتسلية** ، تاريخ ١٩٦٩/١١/٢٢ •

١٣ ـ الاحصاء التربوي للعام الدراسي ١٩٦٧/١٩٦٨ ، المشار اليه في رقم (١) ـ أما احصاءات عام ١٩٥٣/١٩٥٤ عن المعلمين فهي غير منشورة ولكنها متوفرة لدينا في نسخة مأخوذة من وزارة التربية •

١٤ ـ جريدة **النهار** ، تاريخ ١٩٦٩/١١/٢٧

١٥ ـ المصدر السابق ، رقم (١١) ص ١٨ ـ ٢٠ •

١٦ ـ الجمهورية اللبنانية ، وزارة التربية الوطنية ، **جداول مناهج التعليم في مرحلـة التعليم**

الثانوي ، مطبعة مجلة الثقافة ، بيروت ٠

١٧ ـ الاحصاء التربوي للعام الدراسي ١٩٦٧/١٩٦٨ المشار اليه في رقم (١) ٠

١٨ ـ مجلة **العلوم** ، السنة الرابعة عشرة (العدد الرابع) ، نيسان ـ ابريل ـ ١٩٦٩ ٠

١٩ ـ كمال يازجي ، «أمهات الكتب العربية القديمة» في **كتاب العيد** ، الجامعة الأميركية ببيروت، ١٩٦٧ ، ص ٢٨٦ ٠

٢٠ ـ **الطريقة الحديثة في القراءة العربية** ، الجزء ٢ ٠ دار الشرق للطباعة والنشر ، طرابلس ، طبعة ثالثة ، ١٩٦٩ ، المقدمة ٠

٢١ ـ جريدة **لسان الحال** ، ١٣/٨/١٩٦٩ ـ ذكر بيان الوزارة مع لائحة باسماء الكتب ودور النشر في هذا العدد ٠

٢٢ ـ أحد كتب الصف الأول غير مقسم بشكل دروس ، لهذا فعدد الدروس والعلامتـان المعطاتان للابداع والتساؤل والصدق والواقعية وتصنيف الدروس الى عناصر ، تشمل تسعة عشر كتابا فقط من أصل العشرين ٠

٢٣ ـ لا يشمل عدد الكلمات في المجموع الكلمات التي ترد في نهاية الدروس ، كالتمارين والاسئلة وسواها ، وانما يقتصر على النص الرئيسي في كل من دروس الكتب العشرين ٠

٢٤ ـ **المشوق في القراءة العربية** ، الجزء الرابع ، منشورات المكتبة البولسية ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ٠

٢٥ ـ **التربية المدنية** ، مطابع مديرية التعليم المهني ، الدكوانة ، ١٩٦٦

٢٦ ـ مجلة **مواقف** ، العدد الأول ، السنة الأولى ، تشرين الثاني ، ١٩٦٨

٢٧ ـ ايلي اديب سالم ، « تساؤلات مستقبلية » ، مجلة **مواقف** ، العدد الرابع السنة الأولى ، ايار/حزيران ١٩٦٩ ٠

بولس الخوري

الفلسفة وبنية الحياة العربية *

١ ــ لكي يمكن أن تغير الفلسفة الحياة العربية يجب أن نفترض أن الفلسفة، تاريخيا على الاقل، شيء دخيل على بنية الحياة العربية، وأنها تدخل في هذه البنية ــ فهي اذن بهذا الدخول وحسب تسبب التغيير ــ اما كقوة مسيطرة (وحينئذ تتجه عملية التغيير الى هدم البنية القديمة واستبدالها ببنية مجلوبة)، واما كحاجة تتطلبها الحياة العربية (وحينئذ يكون للفلسفة دور الكشف عن الديناميكية الداخلية للحياة العربية ودور اعلانها) ·

أ ــ هل الفلسفة غريبة على بنية الحياة العربية ؟ من الملائم هنا أن نتنبه الى أن « الفلسفة اغريقية في كينونتها ذاتها » · صحيح أننا ألفنا الكلام على فلسفة عربية، لكن المقصود منها هو « الفلسفة الاسلامية » · هذا يعني أن الفلسفة، منذ أن دخلت في الثقافة العربية، ذابت فيها لأنها فقدت سطوتها، كما يمكن القول ان الفلسفة المسيحية لم تعد للتسبب ذاته فلسفة ولا جزءا من الفلسفة : ذلك أنها وجهت لخدمة مبدأ الايمان بالوحي والخضوع للسلطة الدينية (نبوية، اكليرسية أو كنسية) · الفلسفة دنيوية، عالمية · ان وضعها في خدمة المقدس هدم لها وتشويه لطبيعتها · صحيح، من جهة ثانية، أن الفلسفة اليوم تدرس في البلدان العربية وأن مدرّسيها كثيرون · لكن هذا لا يعني مطلقا أن الفلسفة دخلت في الحياة العربية، أو انها اندمجت بها أو غيرتها · يكفي للاقتناع بذلك أن نتساءل أي شكل وأية درجة من العقلانية نمارس في حياتنا اليومية وحياتنا الجمعية، العامة · وقد لا نخطىء حين نقول ان دخول العقلانية في حياة بعض الأفراد وحتى في البنى الاجتماعية لا يعني أن الفلسفة قد دخلت في بنية الحياة العربية ·

ب ــ ان كون الحياة العربية لم تغيرها الفلسفة، على الرغم من احتكاكها القديم بها، أمر يدعو الى التأمل · فهل تكون الفلسفة جسما غريبا بحيث أن البنية العضوية العربية لا تقدر الا أن تلفظه ؟ أليس في الحياة العربية أساس لقابلية التأثر تجعل من اندماج الفلسفة في شكل جديد للحياة العربية أمرا ممكنا ؟ هل ينبغي التفكير أن الفلسفة يجب أن تدخل عنوة في الحياة العربية لكي تغيرها جذريا، وذلك عن طريق العلوم والتقنيات ونتاجات فلسفية أخرى ؟ الجواب الذي يمكن أن نقدمه عن هذه الأسئلة سيتضمن بالضرورة جانبا كبيرا

---

* هذا المقال والمقال الذي يليه جواب عن سؤال كانت «مواقف» قد طرحته حول دور الفلسفة في تغيير الحياة العربية . (راجع «مواقف» ، العدد الخامس).

من التعسف • فكيف يصح الكلام على حياة عربية محددة أو متميزة كجوهر أبدي ولا نتكلم على حياة **العرب** الذين يمكن تحديد وضعهم **كعرب** بفضل بعض الثوابت التي لا تتجاوز اطلاقا نسبية الواقع التاريخي • واذا كانت الفلسفة كمشروع ، من جهة ثانية ، تتميز بأنها السيطرة على الواقع بالعقل ، وهي سيطرة يتيحها انتصار العقل على قوى الخرافة في الانسان ، فان التأكيد القائل بأن في كل انسان استعدادا لقبول الفلسفة ليس بلا أساس • ضمن هذا المعنى ، يخيل الي أن للفلسفة اليوم حظا أكبر في المشاركة في تغيير الحياة العربية أكثر من ذي قبل ، ذلك أن الفلسفة هذه المرة لا تدخل في حياتنا بوساطة الكلام أساسيا وفي صيغة ايديولوجية ، وانما تدخل بخاصة في الصيغة الوضعية للمعارف العلمية والتطبيقات التقنية • ومن المؤكد أن تغيير الانسان بوساطة الأبحاث والدراسات ليس أمرا مستحيلا تماما ، لكن يبدو أن تغيير عقليته بتغيير سلوكه ، وتغيير سلوكه بتغيير الأشياء التي تؤلف عالمه اليومي ووسطه الثقافي ، أمر أكثر فعالية وأقرب منالا • ان الوضع الانساني يفترض أن الوصول الأكثر يقينا الى الذات هو الموضوع هذا يكشف عن القصد الفلسفي الأولي الذي هو قصد **للوجود** فيما وراء أو فيما دون انقسام الوجود الى ذات وموضوع •

جـ ـ اذا أمكن الشك في قدرة الفلسفة على المشاركة في تغيير الحياة العربية ، فسيكون شكا مدعوما بالأفكار التالية • يمكن التفكير أن الفلسفة تزور شعبا ثم تهجره • كان **الشرق** العربي في فترة ما ، شأن **أثينا** قبله ، المكان الذي اختارته الفلسفة • لكن مبادرة اللعب هي اليوم في يد **الغرب** • ان هجرات الفلسفة تتطابق مع هجرات المدنية • تصبح المسألة أن نعرف فيما اذا كان الشعب المزور المهجور قد ترك واستبعد نهائيا • ولا يبدو أن الشعب الذي طور شكلا للفلسفة حتى استنفاد امكانيات هذا الشكل يجب أن يحكم عليه بالبقاء أسير الطريق المسدودة التي وصل اليها • صحيح ، مع ذلك ، أن حظوظ الخروج من هذه الطريق تقاس بدرجة الحرية التي حافظنا عليها ازاء الشكل الفلسفي المعني طوال تطوره التاريخي • هنا لا يمكن أن نتجنب ما للملاحظة التي ترد كثيرا عند المستشرقين من أهمية ، وهي أن الشعب العربي ، كشعب سامي ، هو شعب الايمان والوحي • ان لغته ، واذن عقليته الاساسية ، التي هبطت عليها بروق الضوء والنار الالهيين ، قد احترقت بها ، فتيبست ، وتحجرت ، وهكذا شاركت في الثبوتية التي يوصف بها الكمال الالهي • لكنه صواب وعدل ، من وجهة نظر ثانية ، أن نتساءل الى أي حد خنق الخوف من المقدس ، لدى العرب ، المطالبة بالنقد الحر ، والحركات التي تعيد النظر جذريا في العالم الديني • ان اعادة النظر ، العملية أو النظرية ، المقنعة أو المكشوفة ، تكشف عن الاقتضاء الخالد للعقل الذي يريد للانسان أن يتحمل عبء السيادة على نفسه بنفسه تحملا كاملا وكليا : وفي هذا تكمن الفلسفة كلها •

٢ ـ أقدم هنا عرضا لمميزات الفلسفة ، ملحا على المظاهر التي بوساطتها تتعلق هذه المزايا بهذا القطاع أو ذاك من الحياة العربية التي نطالب بتغييرها •

أ ـ ان الفكرة الأساسية للفلسفة تقترن بالفكرة الأساسية للروح النقدي ، بحيث أن فعل التفلسف يتطابق مع فعل ممارسة الروح النقدي • هذا الروح هو في آن اعادة نظر ومطالبة بالعقلانية ، شك منهجي ومطالبة بالبرهان ، مرافضة Contestation وبحث عن الأساس (يعني الأساس المسوغ ، العلة ، المعنى ، القيمة) • أن نضع شيئا موضع الشك هو أن نضعه موضع الاختبار : فاذا قاوم الشيء المشكوك فيه ، وصمد ، فمعنى ذلك أنه مؤسس ، منغرس في

الواقع ، وفي الوجود • ان مقياس الحكم الذي يجعلنا نقول ان شيئا يصمد للاختبار ويقاوم ، وانه اذن مؤسس ذو قيمة وله علة وجود ، انما هو تلاحمه الشامل مع البنى المسيطرة للعالم الحاضر كما تحدده العلوم التي ينظر اليه كل منها بحسب مقاييسه Paramètres ومركز مجاله النظري • أن ما سيعاد فيه النظر هنا ، ويستقصى سيكون ، بطبيعة الحال ، جميع الأفكار المتلقاة ، جميع المؤسسات الموروثة ، جميع الأساطير والمثل والقيم التي عبرت عن تطلعات الأسلاف ، في جميع المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية الخ • بهذا الجهد التحقيقي وحده يمتلك الانسان تراثه : « ما تلقيته من أسلافك ، اكتسبه لكي تمتلكه » يقول غوته • ان الفلسفة تحرير لأنها ارادة تفهم •

ب ــ يبدو هذا التحرير أولا في نزع القداسة عن الطبيعة • بالفلسفة تتعرى الطبيعة من هالتها المقدسة واذ تنحصر في كونها موضوعا لا تعود توحي بأي خوف : لا تدير الحياة الانسانية ولا تخضع للقوى الالهية • انها هنا ، شيء تحت تصرف البشر • يكفي أن نعرف قوانين آليتها لكي نسيطر عليها، ونستغلها، ونغيرها • حركة نزع القداسة عن الموضوعات مرتبطة ارتباطا وثيقا بحركة نزع الخرافية من العقول • الواقع أن قوى الحلم في الانسان هي التي تضفي صفة القداسة على الطبيعة وتتخيل قوى الهية تستطيع هي وحدها أن تسيطر عليها • ان الفعل الأول للفلسفة هو في السيطرة على الخيالي واقامة ملكوت العقل : ان المسرحة والاخراج في الاعمال والتصورات يتراجعان أمام الالزامات الدقيقة التي تفرضها الموضوعية والايجابية • ويفلت الانسان من سحر اللفظة وأنواع السحر الأخرى منذ أن يفلت من أهوائه : يصبح فكره واقعا موضوعيا بوساطة الفعل ، بدل أن ينتهي في اللفظية ، وينتقل من اندفاع الشهوة الى نظام الارادة • ومن هنا ، أي بزوال اغترابه زوالا تاما ، يدخل مرحلة النضج ، ويستقل ، ويتحمل بنفسه عبء نفسه ، ويتعلم مراقبة أهوائه ومراقبة العالم الموضوعي •

ج ــ ان الفلسفة ، من حيث أنها مراقبة للعالم الموضوعي ، تتخذ في فعلها شكل العلوم والتقنيات ، وتبدو تطبيقا Praxis معرفة موضوعية واقعية ، اقتضاء ايجابية • وهي ، من حيث أنها مراقبة للذات ، بحث عن الأساس ، واقتضاء معنى • انها ، بمختلف المعاني ، عقلانية • يبدو ، والحالة هذه ، أن الحياة العربية تنقصها ــ بدرجات مختلفة ــ جميع أشكال العقلانية كما عرفت في البلدان التي اتخذها العرب نماذج لهم ، طوعا أو كرها • لكن هذا يوضح أن الحياة العربية يمكن أن تصبح « حياة فلسفية » لأنها تملك القابليات الأساسية • ويخيل الي ، ازاء هذا اليقين ، أن مسألة اعطاء هذه الصيرورة الصفة الثورية مسألة ثانوية • وبخاصة حينما نواجه امكانات التربية والاقتصاد المنسقة ، التربية الأقل ألفاظية ، والاقتصاد الذي يتوصل الى تغيير اطار حياة الأغلبية الساحقة من السكان • ويبدو أن لهذه الثورة في الحضارة ثقلا آخر غير ما نجده في الثورات السياسية الخالصة ، غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الثانية هي غالبا شرط للاولى •

عادل ضاهر

من النظرة الغيبية الى النظرة الثورية

هناك شبه اتفاق بين الفلاسفة المعاصرين في الغرب على أن الفلسفة ليست ولا يمكن أن تكون أداة للتغيير السياسي والاجتماعي أو أي شيء آخر من هـذا القبيل • فالفلسفة بطبيعتها محايدة ايديولوجيا • فهي لا تعنى ، أو ، بصورة أدق ، يجب ألا تعنى بأسئلة تقييمية Evaluative تستهدف تسويغ أو نقض أفكار سياسية واجتماعية وأخلاقية معينة • كذلك ليست مهمة الفيلسوف ، كما هي الحال بالنسبة الى العالم ، تفسير الأحداث بواسطة قوانين سببية عامة يخضع لها سير الأحداث ـ قوانين يمكن اكتشافهابواسطة الملاحظة التجريبية والاختبار الحسي • لقد انتهى زمن سيطرة الفلسفة على سائر الفاعليـات العلميـة وغير العلمية • كل من هذه الفاعليات أعلن استقلاله عن الفلسفة واتخذ مجرى خاصا به ، وبالتالي فقد وضحت الخطوط التي تفصل فاعلية عن فاعليـة أخرى • لم يعد بامكان الفيلسوف أن يلعب الأدوار الماضية التي مهد له لعبها بسبب امتزاج الفاعلية الفلسفية بسائر الفاعليات وخضوع هذه الأخيرة لها • ولفترة ، هيء للفيلسوف أنه دون دور معين يلعبه ، فلا هو عالم ، ولا هو مشـرع ، ولا هو مقيِّم أخلاقي ، ولا هو رجل حكمة ، ولا هو مفكر سياسي واجتماعي • ان تقدم العلوم على مختلف انواعها واستقلالها عن الفاعلية الفلسفية دفعا الفيلسوف الى وضع أقل ما يقال فيه انه وضع انحدار كبير للفلسفة • ولكـن هـذا الوضع لم يكن نهاية الفلسفة ، بل انه في الواقع تحول بواسطة **ادموند هوسرل ولودفيك فتجنشتين** الى دافع لتلمس أبعاد جديدة للفلسفة والبحث عن دور جديد لها • ان كلا منهما وجد في الفلسفة شيئا مكملا للعلم ، ونظر الى الفاعلية الفلسفية على أنها غير تقييمية • بذل هوسرل جهوده كلها ليجعل الفلسفة « علم العلوم » كلها، وركز فتجنشتين نشاطاته كلها على تحويل الفلسفة الى أداة للتحليل •

الفلاسفة المعاصرون في الغرب ، سواء منهم المتحـدرون ، فلسفيـا ، من هوسرل أو من فتجنشتين ، ينظرون الى الفلسفة على أنها محايدة أخلاقيا وسياسيا واجتماعيا • باختصار ، ليس للفيلسوف من دور ايديولوجي يلعبه • بسبب هذه النظرة نجد أن الاتجاهات الفلسفية السائدة في الغرب يطغى عليها الاهتمام بأسئلة من النادر جدا أن تلمس حياة الانسان والشؤون المتعلقـة بمصيره • فالاتجاه الوجودي ـ الفينومينولوجي ، مثلا ، الذي يجد تربة صالحة له في معظم

بلدان أوربا الغربية يعتمد المنهج الوصفي ٠فما يريد الوجودي أو الفينومينولوجي تحقيقه هو الكشف والاضاءة ٠ الوجودي ، مثلا ، يبغي كشف واضاءة الوضع الانساني ، وان كان متأثرا بمذهب هوسرل الفينومينولوجي ، فعندها تكون غايته تطبيق المنهج الفينومينولوجي على موضوعات وجودية معينة قاصدا من وراء ذلك كشف الوضع الانساني ، والبنى الأخيرة للوجود الشخصي ٠ الوجودية بمعنى آخر صارت مجرد محاولة منهجية لاستكشاف مقولة الشخص ٠ والفينومينولوجيا ، في شقها الهوسرلي الخالص ، ــ شقها غير الوجودي ــ هي محاولة منهجية لتحليل البنى الأخيرة للوعي والخصائص الجوهرية للخبرة ٠

الفلسفة التحليلية التي تجد تربة خصبة لها في الولايات المتحدة وبريطانيا والدول السكندفاية تعنى بالتحليل اللغوي Linguistic Analysis غاية الفيلسوف التحليلي ، كما حددها فتجنشتين ، هي تجنيبنا الاختلاط العقلي بواسطة التحليل اللغوي ٠ وحيث أن مفاهيمنا وأفكارنا هي ، في جوهرها مفاهيم وأفكار لغوية ، فأن أي اختلاط أو تناقض فيها ذو أساس « لغوي » ٠ فالاختلاط العقلي في منشئه اختلاط لغوي ٠ والفلسفة التقليدية كانت نتيجة هذا الاختلاط ٠ مهمة الفيلسوف ، اذن ، يجب أن تتركز على تجنيبنا هذا الاختلاط الذي يعرقل فهمنا للعالم ويقودنا الى مواقف متناقضة ذات نتائج وخيمة فلسفيا وعلميا ٠

على الفيلسوف ، لكي يحقق الوضوح في الأفكار والمفاهيم ، أن يركز على اللغة أي عليه أن ينخرط في تحليل المفاهيم والأفكار تحليلا منطقيا مستهدفا اكتشاف متضمناتها في لغتنا ٠ عندما يتوصل الفيلسوف الى تحقيق ذلك ، يرى الى مصادر اختلاطنا العقلي ، ويبدأ بوضع المقاييس العامة التي يتيسر بواسطتها تجنب الاختلاط المقصود ٠

الماركسية هي الاتجاه الفلسفي الوحيد ، بين الاتجاهات الفلسفية ذات الأهمية في الغرب اليوم ، الذي لا يقتصر على الوصف أو التحليل ، بل يتخطى ذلك الى **التقييم** ٠ هذا القول بحاجة الى بعض التفسير والتعديل ٠ سمى ماركس، أساسا ، فلسفته « المادية ــ العلمية » ، مشددا على « العلمية » ولم يعتبر ماركس نفسه فيلسوف أخلاق ٠ ولكن بالرغم من ذلك ، فان التفكير الماركسي ، مهما بالغ في تشديده على العلمية ، كان الى حد كبير قناعا لماركس ، الفيلسوف الأخلاقي ، أي ماركس المقيم ٠ في الواقع ، اتجه ماركس الى دعم أفكاره بالحجج العلمية بعد أن وضح له الأساس الفلسفي الذي انطلق منه وبعد تبنيه لفلسفة الفعل Philosophy of action ٠ من الواضح جدا ، فلسفيا ، أنه ليس من الممكن تبني فلسفة معينة للفعل انطلاقا من مسلمات علمية أو تفسيرات فلسفية خالصة ، اذ لا يمكن ، منطقيا ، استدلال **الواجب من الكائن** ٠ اذن ، لا مهرب للماركسية ، كفلسفة فعل ، من التقييم والتسويغ الأخلاقيين ٠ هذا بالضبط ما دعا سارتر الى تبني الماركسية ووضعها ضمن اطار وجودي ٠ لقد وضح لسارتر انه لا يمكن أن نستخرج من الفلسفة الوجودية وحدها ، في تشديدها على وصف وتحليل البنى الأخيرة للوجود الشخصي ، أية مقاييس قيمية تضمن وجوب تبني فلسفة معينة للفعل دون غيرها ٠ فالوجودية ، في أساسها ، وبصورة خاصة وجودية سارتر شددت على انه ما من سبب كاف على الأطلاق للقيام بأي فعل من الأفعال دون غيره وحين تبنى سارتر للماركسية ، كفلسفة فعل ، لم يعد بأمكانه أن ينطلق من النظرة النسبية للقيم التي تتضمن فيما تتضمن انه ما من مسوغ عقلي للقيام بهذا الفعل دون ذاك اذ ، لكي يكون لتبنيه هذا معنى ما ، لا بد من أن يرافقه الاعتقاد بأن هناك حتما أسبابا كافية للقيام بالأفعال التي يفرضها

هذا التبني •

الماركسية ، كفلسفة ، توفر لنا أساسا للفعل ، تصبح اذن خالية من المعنى تماما اذا رفضت **التقييم والتسويغ** وانصرفت فقط الى **التفسير والتصميم** العلميين • يجب ألا يغيب عن بالنا هنا أن الماركسية في جانبها العلمي ، أي كمحاولة لتفسير التاريخ في مختلف أطواره وتغيراته ، هي نظرية محايدة ، ولا تشكل بالتالي أساسا كافيا لأية فلسفة فعل • ما ينطبق على الماركسية هنا ينطبق على تفسير توينبي أو سوروكن للتاريخ ، أو أي مفكر آخر يمكن ذكره في هذا السبيل • فالتفسير العلمي ، مهما كان شكله واتجاهه ، متساوق كليا ، بالمعنى المنطقي مع أية وجهة نظر ايديولوجية ، أو أي تقييم أخلاقي لعالم الوقائع والأحداث الاجتماعية والسياسية • لذلك لا يمكنه وحده أن يشكل أساسا كافيا لأية فلسفة فعل •

لم يقف ماركس ، كما ألمحنا سابقا ، عند حد التفسير والتعليل العلميين • ففي النداء الذي وجهه الى عمال العالم ، دعا ماركس العمال الى الاتحاد والصراع للتعجيل في ثورة البيروليتاريا وازالة الطبقية من المجتمعات وانهاء استعباد الانسان للانسان • كذلك دعا ماركس الفلاسفة الى التوقف عن تفسير العالم والعمل على تغييره • هذا النداء وهذه الدعوة لا يمكن أن يرتكزا على تفسيره للتاريخ وحسب • انهما يشكلان محاولة لحضنا على القيام بأفعال معينة • والأفعال ، وان تكن الوقائع قادرة على توجيهها (الوقائع التاريخية والاجتماعية في هذه الحالة) ، لا يمكن استدلال ضرورتها الأخلاقية ، منطقيا ، من أية فئة من المسلمات التجريبية سواء منها المسلمات الماركسية أو غير الماركسية • اننا بحاجة الى مسلمات قيمية معينة لنتمكن من الذهاب ، منطقيا ، من عالم الوقائع والاحداث الى الاستنتاج بأن أفعالا معينة ضرورية أخلاقيا دون غيرها من الأفعال •

يمكننا القول ، اذن ، انه لا يوجد باستثناء الاتجاه الماركسي ، بين الاتجاهات الفلسفية الحية في الغرب ، اتجاه فلسفي واحد ذو اهتمام حقيقي بقضايا الانسان والأسئلة المتعلقة بحياته ، ومصيره الاجتماعي ــ السياسي • يتضح ذلك أكثر ما يتضح من واقع كون الفلسفة الاجتماعية والسياسية في جانبها التقييمي في وضع انحدار كبير • القرن العشرون ، اذن ، هو ، على العموم ، قرن لا أنسنة الفلسفة ، بمعنى أن الفلسفة في هذا القرن لا تُعنى الا في النادر بأسئلة من نوع : كيف أبني ، كانسان ، مستقبلي ؟ ما هي القواعد التي يجب أن انطلق منها نحو حياة أفضل ؟ هل من مسوغ للثورية ؟ هل للاشتراكية تبرير اخلاقي ؟ أيهما أفضل الاشتراكية أم الرأسمالية ؟ ما هو المجتمع الفاضل؟ ما هي الاسس التي يجب أن يقوم عليها المجتمع العادل ؟ هذا قليل من أسئلة كثيرة لم تعد تشكل للفيلسوف المعاصر مدار بحث واستقصاء جديين ، اذا كان لا بد للفلسفة من اتخاذ موقف حيادي ، بالمعنى الأيديولوجي ، فلا بد لها كذلك من اهمال أسئلة من النوع المشار اليه •

السؤال الأساسي الذي يجب أن يطرحه الفيلسوف العربي على نفسه هو هذا : هل من مسوغ لهذه النزعة في اتجاه لا أنسنة الفلسفة بالمعنى المقصود ؟ لقد وجد الكثيرون من الفلاسفة المعاصرين أساسا قويا لهذه النزعة في نسبية القيم • وما يعنيه القول ان القيم نسبية هو أنه ليس لها أساس عقلاني • هذا يعني أنه لا يوجد أي مقياس عقلاني أو موضوعي على الاطلاق يمكن بواسطته قبول حكم ــ قيمة معين دون غيره من الأحكام ــ القيمة • ان أي حكم ــ قيمة ، بالنسبة

الى النظرة النسبية السائدة ، هو حكم ذاتي بمعنى أنه محدد بتفضيلات الشخص وميوله ونزعاته ، وليس له أساس عقلاني قط . ولذلك لا يمكن أن يتعارض أي حكم ــ قيمة ، منطقيا ، مع أي حكم آخر من نوعه . لا تناقض بالمعنى المنطقي الخالص بين حكم ــ القيمة « أ أمر مرغوب فيه » وحكم ــ القيمة « أ أمر غير مرغوب فيه . » (١)

اذا صح أن القيم نسبية بهذا المعنى ، نفهم اتجاه الفيلسوف الحديث نحو نظرة للفلسفة يستحيل معها التعرض لأية أسئلة قيمية Normative فان التعرض، فلسفيا ، لأية أسئلة قيمة يفترض من جانب الفيلسوف أنه ممكن نظريا ، على الأقل ، اعطاء حلول عقلية لهذه الأسئلة . ولكن اذا صح أن الشؤون الاخلاقية والقيمية ومتفرعاتها شؤون غير عقلية Non-rational ، أي أنها في طبيعتها ذات مساس عميق بالاتجاهات النفسية ، بالميول والغرائز والنزعات الانسانية المتقلبة ، فعندها لا يمكن الافتراض أن الأسئلة القيمية قابلة ، حتى نظريا ، لحلول عقلية . وهذا بدوره يضع حاجزا بين الفيلسوف وبينها . باختصار ، اذا لم يكن هناك أي اساس موضوعي أو عقلي على الأطلاق للأحكام ــ القيمة ،فان الانخراط في اصدارها من ضمن اشتراك الفيلسوف في الفاعلية الفلسفية يعني تخلي الفيلسوف عن العقل وركونه الى أهوائه ونزعاته . ولكن ماذا يبقى من الفلسفة اذا تخلت عن العقل ؟

يتضح ، اذن ، أن الحاجز الأساسي بين الفيلسوف والاسهام ، فلسفيا ، في معالجة معضلات العصر هو نظرية النسبية في القيم . فلا أمل يرجى من الفلسفة في حقل تحسين الانسان بغير تخطي هذا الحاجز . هناك أسباب أخرى أقل أهمية تبعد الفيلسوف عن المشاركة ، فلسفيا ، في الأجابة عن أسئلة قيمية Normative والانخراط في التفكير السياسي ــ الاجتماعي في جانبه التقييمي ، هذه الأسباب يمكن تلخيصها على الوجه التالي : النتائج التي توصلت اليها الفلسفة السياسية التقليدية في محاولتها الأجابة عن أسئلة قيمية معينة كانت دائما مرتبطة لدى كل فيلسوف (خذ أفلاطون أو هوبز أو هيجل على سبيل المثال) بنظام فلسفي أشمل بحيث أن كلا من الفلاسفة التقليديين الذين عنوا بالفلسفة السياسية حاول استخراج نتائجه السياسية والاجتماعية من معتقدات عامة ، غير تجريبية عن طبيعة الحقيقة وطبيعة الانسان . ان الأجوبة السياسية والاجتماعية في الفلسفة التقليدية صدرت عن مسلمات منطقية وميتافيزيقية عامة . وبما أن الشك بدأ يتطرق الى ذهن الفيلسوف المعاصر في صحة بل معقولية Intelligibility أية فئة من المسلمات الميتافيزيقية من جهة ، وفي شرعية الربط ، منطقيا ، بين هذه المسلمات والنتائج التي استخرجت منها من جهة ثانية ، فقد وجد الفيلسوف المعاصر نفسه مقودا الى الشك في أهمية الفلسفة السياسية والاجتماعية بكاملها .

هذا النوع من الشك ، وان كانت له مبرراته حين لا يتخطى كونه شكا في جدوى الفلسفة التقليدية ذات النزعات الميتافيزيقية ، لا يمكن اعتباره ذا أساس مكين اذا اعتبر أنه شك عام في جدوى الفلسفة السياسية بما هي . من الواضح أنه لا يمكن الطعن بجدوى الفلسفة السياسية كفاعلية كاملة على أساس أن نوعا معينا من التفلسف السياسي فشل في الماضي . ان هذا النوع من الاستنتاج يرتكب ما تسميه في المنطق مغالطة التسرع في الاستنتاج Hasty generalization . ان عدم جدوى نوع معين من التفلسف السياسي لا يعني عدم جدوى كل نوع آخر من أنواع التفلسف السياسي . في اعتقادي أن الذين شككوا في جدوى

الفلسفة السياسية بكليتها قادتهم في تشككهم نظرية النسبية في القيم ، ولم يقدهم فشل الفلسفة السياسية التقليدية ٠

بعض الفلاسفة في الغرب يذهب الى أبعد من حد الشك في جدوى الفلسفة السياسية في جانبها التقييمي ٠ المسألة لهذا البعض ليست مسألة شك في أهمية وجدوى الفكر السياسي الاجتماعي ، بل مسألة عداء تام لأي تفكير ايديولوجي ٠ لقد توصل هؤلاء الفلاسفة الى الاعتقاد بأن أي اتجاه ايديولوجي هو في طبيعته اتجاه كلي Totalistic بمعنى أنه يفترض بان كل خاصية من خصائص المجتمع مرتبطة بنظام واحد شامل ، وأن الحياة الانسانية برمتها يمكن تحويلها تحويلا شاملا انطلاقا من نظرة واحدة شاملة للحياة والكون ٠ التفكير الايديولوجي يستهدف ، اذن ، تحويل المجتمع تحويلا مطلقا بواسطة نظرة شاملة يسبغ عليها أصحابها صفات مطلقة كأن يعتبرونها ، مثلا ، أنها وحدها المعبرة عن الحقيقة ووحدها القادرة على تحقيق السعادة للانسان ، وما شاكل ذلك ٠ ولكن منطق الفكرة القائلة بالتحويل المطلق الكامل يقود الى القوة الدائمة Perpetual force الى جانب كون المعتقدات الايديولوجية المصاحبة لها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمذهبية السياسية والتعصب الأخلاقي والسياسي في أقبح صوره ٠ (٣)

هذا الموقف المضاد للتفكير الايديولوجي يرتبط بنظرية النسبية للقيم التي ورد ذكرها ٠ يبدو ذلك جليا في تفكير ادوارد شلز Shils . المجتمع المدني ، بالنسبة الى شلز ، يتميز بتعدد الجماعات فيه Pluralism أي بتعدد المصالح والقيم ، وتعلق أفراد هذا المجتمع بقيم مشتركة هو على العموم تعلق فاتر ومعتدل ومتغير ومتقطع ٠ لذلك فان أية محاولة لتحويل هذا النوع من التعلق الى تعلق مطلق بقيم ثابتة هي في التحليل الأخير محاولة لتحويل المجتمع المدني الى مجتمع شبه بدائي حيث تلعب الرابطة الايديولوجية الدور الذي تلعبه روابط الدم والقرابة في المجتمع البدائي الخالص ٠ يمكننا القول ، اذن ، ان الموقف الذي يعادي التفكير الايديولوجي الذي يمثله شلز هو موقف مقرر بالاعتقاد الجازم بنسبية القيم وبالتالي بضرورة التعددية ٠ هذا بالذات ما يفسر انحدار الفكر السياسي في وجهه التقييمي وعدم توصل المفكر السياسي في الغرب الى تكوين قواعد عامة أو أهداف وقيم عامة للحياة السياسية والاجتماعية ٠

ان معظم فلاسفة الغرب لا يعتبرون أن عدم توصل الفكر السياسي في الغرب الى قواعد نظر عامة للفعل هو فشل في الرؤيا ٠ ان الفشل يكمن على العكس في محاولة الفيلسوف أو المفكر بوجه عام تأسيس قواعد نظر عامة للفعل، أي تأسيس اطار ايديولوجي عام ٠ ان أية محاولة من هذا النوع من قبل المفكر محاولة فاشلة في أساسها ، لأنه في مجتمع ديناميكي ، حي ، كالمجتمع الغربي الحديث ، لا قدرة للتفكير الايديولوجي على السيطرة على وقائع البنى والتغيرات الاجتماعية المعاصرة ٠ الاختيار الأساسي ، في مجتمع من هذا النوع ، ليس بين نظامين كليين شاملين ، وبالتالي فهو ليس اختيارا موجها لأهداف كبرى بعيدة ٠ انه دائما اختيار موجه لأهداف قريبة محدودة ٠ العمل السياسي والاجتماعي في هذه الحالة يجري ضمن اطار « سياسة التكيف والتغيير الجزئي » وهو ، بالضرورة ، عمل موجه بأهداف قريبة ومحدودة ، ومستهدف تغيرات اجتماعية جزئية ٠ اذا قبلنا بوجهة النظر هذه ، يتضح أنه ما من دور يمكن أن يلعبه الفيلسوف أو المقيم الاجتماعي في تغيير الحياة الاجتماعية والسياسية ٠ فسياسة « التكيف والتغيير الجزئي » هي سياسة التفتيش عن أفضل الوسائل لتحقيق

أهداف جزئية أو تغيرات جزئية معينة ، وليست سياسة التفتيش عن غايات كبرى أو قواعد نظر عامة للفعل · لذلك فان سياسة « التكيف والتغيير الجزئي» سياسة تتطلب جهود العالم (العالم الاجتماعي بصورة خاصة) ولا دور للفيلسوف أو المقيم الاجتماعي فيها ·

يظهر أن الداعين الى سياسة « التكيف والتغيير الجزئي » لم يقرأوا ماركس جيدا أو ربما لم يفهموا الدرس الكبير المتضمن في نقاشه ، ونقاش الماركسيين عامة ، لسياسة الاصلاح التدريجي · لا بد من الملاحظة هنا أن سياسة من النوع الذي يتطلب أفعالا تستهدف التدرج في الاصلاح والتغيير هي سياسة تحتم قبول خصائص معينة لبنى النظام القائم كثوابت Constants وقبول عناصر أخلاقية وايديولوجية معينة كامنة في هذه البنى (٤) ·

من الضروري لتوضيح هذه النقطة المهمة أن نبحث هذه الأمور · اذا أخذنا أي مجتمع من المجتمعات كبداية للبحث ، نجد أننا أمام بنى معقدة تتجلى في مؤسسات ثقافية ـ اجتماعية ـ سياسية مترابطة · اننا نجد ، بصورة خاصة ، مؤسسات مجذرة تجذرا أساسيا في حياة المجتمع وعادات معينة للتفكير الأخلاقي الغاية منها حماية عناصر المجتمع المهمة ، بحيث أنها في مجرى تحقيقها لهذه الغاية تحدد ، بالضرورة ، الأهداف والوسائل وأنواع التغيرات الاجتماعية الممكنة من ضمنها · وهي ، في تحديدها لهذه الأمور ، تستهدف ضمان عدم حصول تغيرات شاملة مفاجئة تخلق عدم توازن كبير في حياة المجتمع · قبول سياسة « التكيف والتغيير الجزئي » يعني قبول هذه المؤسسات والقيم المرافقة لها والعمل من ضمنها ، أي ، بمعنى آخر ، يعني قبول الاطار الايديولوجي العام للمجتمع المعني ، ولكن هذا يعني أن أصحاب سياسة « التكيف والتغيير الجزئي » ليسوا ، كما يدعون ، محايدين ايديولوجيا ، لأنه لا مهرب من قبول الأطار الأيديولوجي العام للمجتمع اذا كان لا بد من تطبيق السياسة المعنية تطبيقا ذا معنى · وما يمكن استنتاجه هنا بوضوح هو أن أصحاب هذه السياسة يصلون الى موقف متناقض لا يمكن الخروج منه الا بأعطاء التفكير الأيديولوجي والتفلسف السياسي في جانبه التقييمي دورا مهما في حياة المجتمع · اذا كانت البنية الأيديولوجية للمجتمع مفترضة في العمل السياسي ـ الاجتماعي الصادر عن سياسة «التكيف والتغيير الجزئي » وفاعلة بالتالي تحت طبقة « العقلانية المنهجية » الموجهة لهذا العمل ، فانه من الطبيعي ، اذن ، أن يتساءل واحدنا عما اذا كان من الأفضل أم لا أن يصدر العمل المذكور عن اطار ايديولوجي مغاير ، وعما اذا كان بامكان « العقلانية المنهجية » أن تصبح أكثر قيمة أم لا ، في حيز التطبيق ، فيما لو كانت المؤثرات الايديولوجية الفاعلة تحتها غير المؤثرات الفاعلة في الواقع · ان أسئلة من هذا النوع توضح لنا الدور المهم الذي يمكن أن يلعبه التفكير الأيديولوجي والتفلسف السياسي بوجه عام · ان أهمية هاتين الفاعليتين الفكريتين ، بمعنى آخر ، تصبح جلية اذا نظرنا اليهما على أنهما موجهان الى المؤثرات الايديولوجية الفاعلة تحت طبقة العمل السياسي ـ الاجتماعي ، وليس على أنهما موجهان الى العقلانية المنهجية الموجهة للعمل السياسي من ضمن النظرة القائلة بسياسة « التكيف والتغيير الجزئي » · وكما يقول بارتريدج P. H. Partridge السياسات الموجهة ايديولوجيا وفلسفيا تكتسب أهمية كبيرة بالنظر اليها «بالعلاقة الى ما يمكن تسميته البنى والمؤسسات التحتية» للمجتمع · فيمكن أن يكون لهذه السياسات أثرها الكبير « تحت طبقة العمل السياسي العقلاني ، التخطيطي بحيث أنها تعمل على زحزحة العادات الأيديولوجية والأخلاقية » الراسخة في المجتمع بواسطة خلق مناخ جديد من الفكر يمكن من

خلاله « قبول أنواع جديدة من الأهداف السياسية والاجتماعية وأشكال جديدة من التنظيم ... الاجتماعي وتقنيات جديدة للفعل الاجتماعي ... » (٥) .

حاولنا فيما سبق أن نشير الى بعض الاتجاهات الفكرية في الغرب القائلة بضرورة تخلي الفلسفة عن الفكر السياسي في جانبه التقييمي وضرورة حيادها الأيديولوجي . وقد رأينا ان العامل الأساسي وراء انحدار الفكر السياسي في الغرب وشك الفيلسوف في أية عملية فكرية تستهدف التقييم والتسويغ الأخلاقيين أو تأسيس فلسفة معينة للفعل هو نظرية النسبية في القيم . ليس هدفنا هنا الرد على هذه الاتجاهات الفكرية السائدة في الغرب ، بل تنبيه المفكر العربي ذي الاهتمامات الفلسفية الى المزالق والصعوبات الكامنة في أية محاولة تستهدف الأجابة عن أسئلة متعلقة بحياة الأنسان ومصيره . لا يمكن للفيلسوف العربي أن يسهم ، كفيلسوف ، في تغيير الحياة العربية ما لم يتخط أولا الحواجز التي يخلقها زميله في الغرب بين الفلسفة والفعل ، بين الفلسفة والتفكير السياسي في جانبه التقييمي ــ الأيديولوجي . أنا شخصيا أعتقد أن هذه الحواجز يمكن تخطيها بأثبات معقولية الأحكام التالية :

أ ــ نظرية النسبية في القيم في جانبها الذي يتضمن الاعتقاد بان القضايا القيمية Normative لا يمكن ، حتى نظريا ، اعطاء حلول عقلية لها ، هي نظرية خاطئة . من الممكن ، في رأيي ، ايجاد مقاييس عقلانية يمكن بواسطتها اقرار معقولية أو عدم معقولية موقف أخلاقي أو قيمي معين .

ب ــ التفكير الايديولوجي لا يرتبط بالضرورة بنظام كلي جامع .للفلسفة الانسانية Humanism مثلا ، جانبها الأيديولوجي القوي ، لكنها ليست مرتبطة بنظرة كلية للحياة والكون . انها فلسفة تنطلق من العقل على أنه « الشرع الأول والأساسي » . (٦) .

ج ــ الفكر السياسي في جانبه التقييمي ــ الأيديولوجي يمكن أن يلعب دورا مهما ، كما رأينا ، اذا نظرنا اليه على أنه موجه للمؤثرات الأيديولوجية الفاعلة تحت طبقة العمل السياسي الاجتماعي بقصد تقييمها على أساس نظرة واضحة للمجتمع والعالم .

اثبات معقولية هذه الأحكام الثلاثة بحاجة الى درس مفصل ودقيق لا مجال للانخراط فيه هنا . المهم في الموضوع هو أن على الفيلسوف العربي ، ليكون له دور فعال في تغيير الحياة العربية ، ان ينطلق من هذه الأحكام الثلاثة المذكورة .

السؤال الأساسي الذي يجب أن نركز عليه الآن هو التالي : كيف يمكن الفلسفة أن تخدم الثورة العربية الحديثة ؟ أو بصورة أخرى ، ما هي الأمور التي يجب أن يعنى بها الفيلسوف في محاولته المشاركة في تغيير الحياة العربية ؟

هناك وجهان للفلسفة يمكن بتفاعلهما وتعاضدهما بصورة معينة أن يمهدا لاشتراك الفيلسوف في عملية التغيير المعنية ، أقصد الوجه **التحليلي ــ المنطقي** والوجه**التقييمي** . الوجه التحليلي ــ المنطقي ، وهو الوجه الذي رافق الفلسفة في جميع أطوارها ، يمكن تعريفه على الوجه التالي : الفلسفة ، كعملية تحليل منطقية ، تعنى بأسئلة من هذا النوع : ما هي العدالة ؟ ما هو السبب ؟ ما هي طبيعة العلاقة بين السبب والمسبب ؟ هل الحرية الأخلاقية متعارضة مع مبدأ الحتمية ؟ ما هو الخير ؟ الواجب ؟ ما هي طبيعة الأدراك ؟ ما هي طبيعة الأفعال العقلية ؟ الخ . هذه الأسئلة بطبيعتها ليست أسئلة تجريبية الغاية منها اكتشاف

حقائق جديدة عن العالم بواسطة الاختبار والتجريد العلميين • الغاية من هذه الأسئلة هي التوضيح — توضيح المفاهيم أو العلاقات التي تشكل مواضيع هذه الأسئلة ، واقرار متضمناتها الأخيرة وحدود ومقاييس تطبيقاتها ، وكشف الستار عن العلاقات التي تربطها بمفاهيم أخرى وحدود هذه العلاقات والشروط اللازمة لوجودها وما الى ذلك • هل يمكن الفيلسوف أن يخدم الثورة أو يشارك في تغيير الحياة الاجتماعية بواسطة تحليل من هذا النوع ؟ ليس من الواضح على الاطلاق ، بالنسبة الى الكثيرين ، أن الفلسفة بأمكانها أن تخدم الانسان في حالات تمرده وتشوفه لقيم جديدة بواسطة تحليل منطقي صرف لمفاهيم وعلاقات معينة • من الواضح جدا ، بالطبع ،أنه لا مجال للفلسفة أن تخدم أغراضا انسانية ثورية أو غير ثورية بتحليل معنى « سبب » ، أو بتحديد طبيعة العلاقة القائمة بين السبب والمسبب ، أو بتعريف الأفعال العقلية وما شاكل ذلك • يمكننا القول ، على الأقل ، انه من الواضح أن الأغراض التي يمكن أن يخدمها هذا النوع من التفلسف هي في طبيعتها أغراض غير ذات علاقة بحياة الانسان اليومية ، بمستقبله ، بسعادته ، بنزعاته ، بتطلعاته ، بآلامه ، الخ • ولكن هناك أسئلة أخرى مهمة يمكن أن يطرحها الفيلسوف ويوفر لنا من خلال معالجته التحليلية — المنطقية لها قواعد موجهة للفعل Guiding Principles لا بالمعنى الأخلاقي ، بل بالمعنى النظري • لنأخذ ، على سبيل المثال ، هذا السؤال : ما هي الثورية ؟ ان سؤالا من هذا النوع يمكن أن يعالج ، فلسفيا ، على صعيد التحليل المنطقي الخالص ، فتكون الغاية من التحليل توضيح معنى الثورية وكشف أبعادها ومتضمناتها الأخيرة والعلاقات التي تربطها بمفاهيم أخرى ، كمفهوم العدالة الاجتماعية أو العلمية أو الأشتراكية ، ومعنى مكنون العقلية الثورية والالتزامات الشخصية التي يفرضها تبني هذه العقلية وغير ذلك • ان تحليلا منهذا النوع شديد الأهمية اذ أنه يوفر للانسان قواعد نظرية واضحة يمكنه الانطلاق منها في حالة التزامه بالموقف الثوري • انه بمعنى آخر يوضح للانسان معالم الاتجاه الذي اختاره لنفسه ، ويجنبه لذلك التخبط الفكري الذي يشتت أفعاله ونوازعه ويعمل على تغريبه عن وضعه الانساني ومسؤولياته الحقيقية •

هناك أسئلة كثيرة من هذا النوع يمكن طرحها ومعالجتها على الصعيد التحليلي — المنطقي بقصد التوضيح النظري لا أكثر • خذ ، على سبيل المثال ، هذه الاسئلة : ما هي الاشتراكية ؟ هل الاشتراكية ، بالضرورة ، نظام كلي ؟ هل هي نظام اقتصادي لا غير ؟ هل تتعارض العقلية الاشتراكية مع العقلية الدينية ؟ هل تنفي الاشتراكية الديمقراطية ؟ ما هي العدالة الاجتماعية ؟ هل تنتفي العدالة بانتفاء نظام معين كالديموقراطية ؟هل تستوجب العدالةوجود نظام اشتراكي؟ اذا لاحظناالتخبط الفكري الذي يغرق فيه العربي فيهذه الفترةمن تاريخه بالنسبة الى المفاهيم المتضمنة فيالأسئلة أعلاه، ندركتوا أهميةهذهالأسئلة،وبالتالي أهمية معالجتها معالجة تحليلية — منطقية • ولكن معالجة فلسفية من هذا النوع ، على أهميتها ، كعملية توضيح نظري للمفاهيم الأساسية التي تشغل عقل العربي في هذه الآونة ، ليست كافية • ان معالجة من هذا النوع في الواقع ، متساوقة تماما مع نظرية النسبية في القيم • فأن توضح لي معنى الثورية أو معنى العدالة الاجتماعية أو معنى الاشتراكية ، أو أن تقول لي ، على سبيل المثال ، ان الثورية تتعارض مع الدين ، أو ان الاشتراكية تحتم الالتزام بالعقلية العلمية وما شاكل ذلك ، لا يفيدني شيئا بالنسبة الى ما يجب أن أختار ولما يجب أن ألتزم به في حياتي • اذا كانت الاشتراكية تتعارض حقا مع العقلية الغيبية ، فانني قد أختار العقلية الغيبية وأنبذ الاشتراكية • عندما تصبح المسألة مسألة اختيار ، أومسألة

قرار أخلاقي ، فانني بحاجة الى مسوغ كاف لاختيار فكرة دون فكرة أخرى ، أو عقيدة دون عقيدة أخرى ، أو نظام دون نظام اخر ٠

هذا ينقلنا الى الوجه الثاني للفلسفة ، أعني الوجه التقييمي ٠ هنا يعمد الفيلسوف الى معالجة أسئلة قيمية Normative ، لا بقصد تحليلها وتعيين طبيعتها المنطقية ، بل بقصد التوصل الى أجوبة يمكن تسويغها منطقيا ، أجوبة توفر للانسان المهتم بمصيره ومصير مجتمعه أسبابا كافية لتبني فلسفة معينة للفعل دون غيرها ٠ الأسئلة التي يطرحها الفيلسوف في هذا السبيل هي من هذا النوع : هل من مسوغ أخلاقي للاشتراكية ؟ هل من أسباب جيدة لرفض العقلية الغيبية ؟ أيهما أفضل ، النظرة القائلة بالتطور المرحلي أم النظرة الثورية ؟ هل تتفوق النظرة الانسانية للقيم على النظرة الدينية ؟ هل من الواجب ازالة الطبقية من المجتمعات ؟ هل القومية أمر مرغوب فيه ؟ هذا قليل من أسئلة كثيرة يمكن الفيلسوف أن يثيرها في محاولة اشتراكه فيعملية التغيير الاجتماعي ــ السياسي في مجتمعه ٠ يجب ألا يغيب عن بالنا هنا أن هذه الأسئلة أو أية أسئلة أخرى من نوعها لا يمكن معالجتها معالجة فعالة على صعيد التحليل التقييمي Evaluative Analysis قبل أن تكون المفاهيم المتضمنة فيها قد عولجت معالجة وافية على صعيد التحليل المنطقي ٠ لذلك يجب أن يفعل التحليل المنطقي تحت طبقة التحليل التقييمي ،أو يوجه عمليةالتسويغ الأخلاقي والقيمي ليتيسر للفيلسوف أن يلعب دوره السياسي ــ الاجتماعي بالدقة والأمانة والموضوعية المفروضة على الفكر الفلسفي الصحيح ٠

ننتقل الآن الى هذا السؤال : ما هي الأمور التي يجب على الفيلسوف العربي أن يوليها عناية خاصة للاسهام بصورة جدية في تغيير الحياة العربية ؟ بما أن العقلية الغيبية ما زالت مسيطرة على فكر العربي وأفعاله ، لا بد للفيلسوف الملتزم بالموقف الثوري من أن يعمل على كشف الستار عن الملابسات المنطقية في العقلية الغيبية وتناقضاتها ، وتحطيم النظرة الكامنة وراءها ، أي النظرة القائلة بأن الحقيقة النهائية هي روحية أو آلهية Divine ٠ هذا يعني العمل على اثبات ضرورة رفض النظرة الهدفية Teleological View التي تزعم ان الله هو المصدر الأخير للوجود والقيم ، وأن هناك ثنائية عميقة بين الطبيعة والله من جهة ، وبين الانسان والطبيعة من جهة ثانية ٠ هذا يعني أن العقلية الغيبية ــ الدينية ، بكل آثارها ومتضمناتها ، هي عقلية من الواجب اثبات ضرورة نبذها ونقضها ٠ يجب النظر الى الانسان على أنه جزء من الطبيعة ، والتخلي عن النظرة الغيبية القائلة بالفصل بين العقل أو الوعي الانساني من جهة ، والجسد من جهة ثانية ، بحيث يتضمن هذا التخلي عن النظرة الغيبية نبذ خرافة أن الوجود الانساني ذو جانب روحي يعطيه مكانة خاصة في الكون ، وأنه في جانبه الروحي كائن خالد ٠ يجب اظهار الضعف والخلل المنطقيين في كل الادعاءات التي تغرر بالانسان فتصور له أنه كائن خالد وأن الطبيعة وجدت لخدمته ٠ على العربي أن يتحرر من هذه الاوهام التي أقعدته عن طلب أي مقصد أعلى في الحياة وللحياة يجب أن يفهم علاقته بالطبيعة على وجهها الحقيقي ، فيدرك بأن الطبيعة عمياء وليست لخدمة أغراضه وتحقيق أمانيه ٠

وبما أن قيم العربي قيم تجد في النظرة الغيبية أساسها ومصدرها ، فانني أرى ضرورة انخراط المفكر الثوري في اظهار خطل النظرة القائلة بأن القيم ، بالضرورة ، ذات أساس الهي ، واثبات كون القيم ، في أساسها ، قيما انسانية لا قيما غيبية ٠ انّ توضيح هذا الامر مهم جدا ، خصوصا بالنظر الى كون الكثيرين

من المفكرين العرب ما زالوا واقعين تحت وهم أن الاشتراكية ، مثلا ، أو أيا من النظم الانسانية الاخرى لا يمكن قبولها الا بتزويدها بأساس قيمي نابع من النظرة الغيبية • يجب أن يتوضح للعربي ، كمفكر وكانسان ، أن القيم ليست بحاجة الى أساس ديني وأنه في الواقع من المستحيل منطقيا استدلال القيم من مسلمات دينية أو غيبية أو ميتافيزيقية مهما كان شأنها • ان فئة من القيم يمكن قبولها أو عدم قبولها لا بسبب أنها متحدرة أو غير متحدرة من فرضيات دينية أو لاهوتية ، بل بسبب كونها تخدم أو لا تخدم أغراضا وحاجات انسانية أساسية •

بما أن النظرة التي ندعو اليها تؤكد على انسانية القيم ، أي على أن الانسان مصدر القيم وغايتها ، فأن هذه النظرة أساسا نظرة نسبية • ولكن ما نعنيه بقولنا هنا أن القيم نسبية هو أنها قيم **للانسان** ، ذات مقاييس محددة بواسطة الانسان نفسه ، أي أنها مقاييس بعدية لا قبلية • الانسان وحده وفق هذه النظرة ، يصير مصدر المقاييس القيمية المطلوبة ، انه وحده السلطة الاخيرة والمقياس الاخير •من الضروري جدا هنا العمل على التوفيق بين نسبية القيم بالمعنى المقصود وقدرتها على أن تكون قيما عقلانية وموضوعية ، بحيث لا تقود عملية أنسنة القيم الى تنسيبها المطلق الذي يقود بدوره الى نوع من العدمية الاخلاقية يبدو من خلالها العالم متخلخلا وعبثيا • ان هذه العدمية توصل الى وضع مرضي تطبعه نظرة خاطئة لا تجد أي سبب موجب لاي فعل من الافعال أو أي اختيار من الاختيارات • ان نظرة من هذا النوع قد تنتهي في الاخير في ردة عنيفة الى نظرة سلطوية Authoritarian في القيم ، نظرة تجد في المجتمع أو في الدولة أو في الله ضمانا أخيرا للقيم •

ان على الفيلسوف العربي ، اذن ، أن يظهر كيف يمكن للقيم أن تكون ذات أساس عقلاني ، على نسبيتها ، وأن يعمل على تجنيب العربي مزالق النظرة العدمية القائلة بنسبية القيم المطلقة أو بالنظرة السلطوية الباحثة عن أساس للقيم اما في الدولة أو المجتمع أو الله •

ما ندعو المفكر الثوري الى عمله هنا هو توجيه جهوده للاطار الايديولوجي العام الذي ندور ضمنه حياة العربي والى مؤثرات النظرة الغيبية التي ما زالت فاعلة تحت طبقة التفكير والفعل الاجتماعيين ــ السياسيين في العالم العربي • اننا ندعوه هنا لخدمة الثورة العربية بتوفير نظرة جديدة للقيم ، نظرة انسانية متحررة من العقلية الغيبية من جهة ، ومن أية نزعة سلطوية من جهة ثانية • ولكن ، الفيلسوف العربي قادر ، كما ألمحنا سابقا ، أن يولي اهتمامه أمورا أخرى شديدة الاهمية كتوضيح بعض المفاهيم الاساسية التي ما زالت غامضة في ذهن العربي • عملية التحليل الفلسفي هنا ذات أهمية كبيرة • ولكن يجب أن ترافق عملية التحليل عملية تقييم فلسفي تستهدف ايجاد مسوغات عقلية للاخذ بنظرة ثورية الى الحياة والتخلي عن النظرة الغيبية • الغاية الاخيرة من اعتماد التحليل الفلسفي في جانبيه التقييمي والمنطقي هي المشاركة في ايجاد نظرة جديدة للحياة والكون واضحة المعالم والاهداف (وهذا يتم نسبيا بواسطة التحليل المنطقي) وذات أسس عقلانية (وهذا الاخير تضمنه نسبيا عملية التقييم الفلسفي) (٧) •

هذا هو باختصار الدور الذي يجب على الفيلسوف العربي الثوري أن يلعبه للمشاركة في تغيير الحياة العربية • وهو دور يمكن أن يلعبه اذا اقتنع الفيلسوف بالتخلي عن النظرة النسبية للقيم ، أي النظرة التي تجرد القيم من طابعها العقلاني ، فتنتهي بالفيلسوف الى التخلي عن دوره في بناء المجتمع الانساني اذ

تهيء له أن كل التناقضات السياسية والاجتماعية والاخلاقية سواء أمام محكمة العقل .

اشارات

١) النظرة النسبية بالشكل الذي نبحثه هنا بدأت بالانتشار السريع في دوائر الفلسفة في الغرب عن طريق التأثير القوي الذي تركته المنطقية الوضعية على عقول الكثيرين من الفلاسفة الشبان في الولايات المتحدة وبريطانيا ، وفي سائر البلدان الغربية ، وقد كان للوجودية أثرها الفعال في انتشار هذه النظرة .

٢) أنظـــر :
P. H. Partridge, « Politics, Philosophy, Ideology, » in Political Philosophy, ed. Im. A. Quinton, (Oxford Univ. Press, 1967), P. P. 40 - 46

٣) Ibid. P. P. 40 - 41

٤) انظـــر :
E. shils, « Primordial, Personal, Sacred and Civil Tris », in British Journal of Sociology, vol. 8, no. 2.

٥) Partridge, op. cit, P. 45

٦) يمكن للراغبين في دراسة الفلسفة الانسانية الرجوع الى الكتاب التالي :
Paul Kurtz (ed.), Moral Proplems in Contemporary Society, (Prentice - Hall Inc , 1969)

٧) لم نتعرض هنا للسؤال المهم : كيف يمكن للفلسفة أن تشارك في تغيير الحياة العربية بالتعاون مع الفاعليات الفكرية الاخرى والفاعليات العلمية ؟ هذا السؤال بحاجة الى بحث منفرد لا مجال للخوض فيه هنا .

سمير الصايغ

فصل بين قوسين يتحدث عن الفصل الذي يلي

١ - شرح ليقظة سبقت الدخول الى الرقص

كنت أبتعد عن الحلقة ـ مؤخرا القفز ـ اجلالا لذروة اللذة (معتقدا أن الرقص يتم لمرة واحدة ونهائية) ـ (ان نكون نعما لمرة نهائية) ـ وعرفت (وتأسفت أسفا شديدا على الزمن الذي أضعته سدى في اللهو خارج الحلقة) أن الفعل يلتهب في الذروة ولا يسقط عند الاستمرار أو الاستسلام للقفز الى أحضان الحلقة ٠

٢ - شرح من وجهة نظر جديدة

لاني مسافر لم يسكن اللغة طويلا ، وهي بالنسبة اليه غابة بكر لم يكتشفها ويستعمرها بعد ، بل وقف في مساحة فيها اضاءها كثيرا وحدق في المساحة المضيئة ٠ لكنه اجاد الرقص (كان رقصا خاصا ولذلك كان يشعر بين الحين والاخر بسقوط غريب مخيف لانه لم يكن يرقص للاخرين) وفجأة يعرف ويدهش للمعرفة (انه كان يحتضن الآخرين في ذاته وأسف مرة اخرى لجهله هذا) ثم انه اسقط هذا الاسف نهائيا وقفز ٠

٣ - تحركات اولى في عين الراقص

كان كل شيء جيدا ورائعا (لان المسافات لا وجود لها مطلقا انما النوم هو وحده المسافة) ٠ أحيانا كثيرة ـ وهذا يحدث في لحظة الصفاء المتألقة ـ يسقط هذا الظن ونشعر اننا منذ البدء مقذوفون كالنار الى الصحراء وان الفعل مستمر في رقصه ونحن لا ندري ونفرح بهذا الحلم أو الواقع ٠

وأتذكر جميع رقصاتي (والتي كنت أظنها موتا وخجلت منها أمام الناس

والتاريخ) وتعود الي فرحتي واعتزازي بنفسي (وأتأسف من جديد لتأخر فرحي) ثم أفرح لان فرحي تأخر (لانه أتى في زمنه الصحيح) أقف وأنفض عني جميع الهدايا ، ألبس ثياب ذاتي وأركض عاريا في غابة اللغة مدهوشا مأخوذا باستسلام الاشجار والبحيرات والمعنى ، وأنحني في سفري الضوئي فوق الماء والمدن : (كانت الاشجار تحني رأسها محدقة بظلي المرسوم بلحظة خاطفة فوق مساحات أوراقها ، وكانت الشمس ترافقني واثقة انني لن أغيب عن وسع ذراعيها ، لكنها ـ ويا لفرحي ـ اضطربت حين رأتني أغيب عن ناظريها ، هرعت فزعة تسعى لتردني الى أحضانها ··· (رجعت وعانقتها عناقا شديدا) بكيت وبكت ··· ورقصنا · ثم هي أيضا لبست ثوبها وركضت عارية في الغابة · ستكون الليالي الآتية ليلة اولى ولم أتعجب · (النبع لا يتدفق الا اذا اكمل الماء تدفقه الرائع نحو المستقبل وسيلهب النار داخل النبع فتتفجر وسيزداد تفجرها كلما جن الماء في جريانه) :

هذا هو الحب ، فلا تيأسي من حبي · عرفتك قبل ان تأتي ، كنت تلوحين لي داخل الثمار ، وكنت أندفع نحوك ولا أدري انك في داخلي (لان زمنك حين ذاك كان برعما) ثم فجأة شددت على ساعدي ، رأيتك جنبي (تفتحت جميع البراعم وصرختُ وصرختِ وبدأنا الرقص ، قذفنا الى الصحراء ·) لا رجوع بعد الان · آه · يا حبيبتي انت تعرفين ان لا حدود بعد الان لقد تفجر الماء ـ هذا الماء الذي غلبني عندما كنت صغيرا (ليس لانه أقوى مني) ليبشرني به وبك منذ البدء ـ وسأفرح كثيرا وأتذكر فرحي وافرح من جديد بمزيد من الفرح · ثم ـ آه ـ عندما أفتح لك عيني وجسدي وندخل الى النوم (النوم اليقظة والصرخة المشدودة) و ········ تبدأ عندها حركة الزمن ترقص في داخلي وفوق جسدك العاري الخائف من عريه ، تقتلنا نحن الاثنين ونموت · نفرح لانها غزتنا ولاننا جابهناها وانهزمنا ، ونفرح بالانتصار وانهزام حركة الزمن · (انها الاطراف عندما تتلاقى وتتعانق ثم تنصهر في رجفة جنونية ، هي لحظة أبحث عنها وأصرخ كي تتجمد لتملأ فضاء اللوحة) · ثم تبتعدين عني ، أحضرك ساعة شئت ، اجيء بك وأعانقك وسط الناس والتاريخ ولا أفزع من نفسي ولا أخجل وأحبك بحرية ، تدخل جميع رقصات الزمان الى عيني اراقبها بحنان ، يحوم فوقنا صمت الليل وخدر الصمت والكتابة ، واقرأ أمامك صمت الاخرين العظماء· يمتد صمتهم سهولا واشجارا عارية في عمق البحار الزرقاء تتدلى من أغصانها ثمار ضوئية ، كواكب تقطر عسلا وفعلا ولذة وجنونا يجنني ويجننك يا حبيبتي العظيمة · واركض نركض يدك في يدي وعيناك في عيني تترسم فيهما ظلال الاشجار ونرتمي بين الثمار أغسل جسدك ونغتسل (لم أنته بعد) تجتاح المخيلة غابات أخاف أن أغزوها قبل الاوان ، واحتار في الاصغاء للاشارات التي تدعوني للهجوم (اختلط علي الوقت لانني مستعد دائما ـ تجاوزت حدود الاستعداد ـ تخمرت في زمن القدرة ·)

٤ - فاصل موسيقى

(خرجت الى الغرفة ، اطلقت عيني من ثقبي المنظار الى الغرف اصطدمت بالليل اخترقته كالبرق الى الاجساد المستريحة) بدأت آمرها بالتحرك ـ آمرها بالرقص ـ جنت وتسرب الجنون الي) حملت الغرف والاجساد والجنون ودخلت

الى غرفتي • وحدث شيء اخر — (اخترقت الفضاء طائرة تزمجر واختفت سريعا، انهمر الضجيج ليلا يملأ الليل بالسكون واخترقني برق جنسي مسح جسدي واختفى •) —)

٥ - ممارسة لطقوس اولى

لأتوقف الآن واستسلم لجيوش التأمل التي أسمع وقع خطاها : (كيف سأعرف انني متحد بذاتي ولست أركض وراء صوت غريب عني ؟) ليبق الباب مشرعا وسأبدأ • سأجمد في عتبة البدء أمحو المسافات التي اجتزتها ••• (انها تمحى يا حبيبتي وسنبقى عند النقطة الاولى •)

٦ - صلاة الساعة الثالثة

وحاصرتني جيوش العالم ، فقلت لنفسي لانهزم وانهزمت بحنان وطفولة وكنت فرحا) لانني كنت مشغولا بغير الانهزام والجيوش) — (كنت احدق بالدهشة النابتة حديثا في أعماقي والتي انتظرتها طويلا) ثم مررنا أمام بستان فضي كانت أنفاسنا تنزلق بسرعة وبعدها لم أستيقظ • بقيت مشدودا الى الانزلاق ولم أعد (لانه لا حاجة لي الى العودة) •

٧ - الرقص

تذهب الموسيقى تعانق الفضاء وتتدحرج بين ثيابه ، وأنا ملتصق بوحدتي أحدق فيها ، والقمر مستلق على الفضاء غارق في ذاته •

يقرع الباب

(الباب مشرع وأنا منذ أول صباح أنتظر • ترقب مخيلتي الاتي وتصغي لخطواته) — (ولم يكن ضرورة للانتظار لان الذي سيأتي أتى ينتظر زمنه ليثمر)

القمر مسافر في ثيابه والماء كذلك وأنا •
تذهب الموسيقى وأعانق الفضاء •

(يرجع الصوت من رحلته عبر نسيج الذات يدخل كالملك الى القصر — تنحني له الحاشية ويبدأ بالامر — أطيع مستسلما للملك وافرح بطاعتي المتدفقة كالماء •)

ينتظرونني • في الليل يحلمون بي وفي النهار يتحدثون عني ، الاشجار تنتظرني والسرير ، كنت وعدتهم بالرجوع ، رجعت ولم يروني (لاني لم أرحل) وفي سفري دخلت اليهم وتجولت في مسافات الاحجار : عرفت كيف الحجر عين من الصمت والصلاة والنبات وجهي ويقظتي ولم أمل أو أضجر • (كانت الصحراء موسيقى تخطت دائرة الزمن • فملأت المساحات الباقية •)

ـ هل نبدأ
ـ نعـم ٠

اندفعت نحو الحاجز (كنـت اخترق التاريـخ المزيف ـ قشرة الصدأ والنعاس ـ) لمعت أمامي جوهرة العالم جذبتني ، تحدثت مع العالم كان طفـلا وديعا ملاكا ٠٠ لم تحرقني النار ولم يجمدني الجليد ٠ وعانقت الموسيقى ورأيتكم جميعا فهمت وفهمتم وكنت وحدي ٠

وهل الصمت الكلام الاخير ؟

ـ وعندما يحترق الكلام ويترمد كيف سأناديك يا حبيبتي ؟

ـ يصير الرماد رسالة جسرا يعبر جسدانا عليه

ـ وعندما تذر الريح الرماد كيف سأناديك يا حبيبتي ؟

ـ كما ينادي الحجر الحجر

(واستيقظ على المطلق ، أتواعد مع النار وتجتمع الذاكرة مع القلب ٠ أتجول قادرا حول بدايات الاسرار لاطلقها هدية حمامات بيض ترف بين يديـك لتغلقي عينيك عن كل خوف وتعب ثم انحني كما ينحني اليقين وأبوح بكل سر ولا أخاف من أن الزمن سيهوي في فوهة السواد) ٠

وكانوا يدخلون واحدق في وجوههم وأسكن في العيون والمعنى وكنـت أنتظر المزيد وأشعر أن الغرف ستزدحم والاوراق ، وكلما تكاثروا اتسعت الغرف وامتلأ قلبي بالبياض ٠ (وقلت لجيوشي : الانتصار هو ان تفرحي وتنسـي انك جيوشي) ٠

أخذني صديق الى بستان وتركني : البستان عائم في الفضاء كبحـيرة وكنت ارتدي ثوبا أبيض ٠ الاشجار بيضاء والثمار بيضاء ٠ وتجولت خفيفا او شبه طائر وكنت أحس بثقلي الكثيف الخفيف (كنت الجبل والتاريخ وريشة بيضاء) رجعت ولم أنس البستان وأنا أعود اليه كلما دخلت الى اليقظة ٠

٨ ـ فصل بين قوسين يتحدث عن الفصل الذي يلي

ومرة ـ يومها ـ سمعت ضجيج الناس حولي وكنت خارجا من الحلم ثوبي مغمس بنوم الطبيعة وحدثت وجوه الناس عن الزائر الغريب الذي أثار ضجيجهم فقالوا لي : الحرب

(رجعت الى الحلم ومشيت في وعي الطبيعة ٠ (كان العالم يتقدم مقذوفا من أتون النار ويستقر بين يدي وبدأت أصنعه على صورتي ومثالي) ٠)

الف الناس الزائر الغريب تركوا له الابواب مفتوحة وأفخاذ النساء وناموا ٠٠٠ حلموا أن الزائر دخل واغتصب النساء جميعا ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ وفرحوا

(وكنت واقفا في الحلم ورأيتهم جميعا (ولم أبك) كنت مشغولا بالعالم المقذوف من أتون النار وبأشكالي) ٠

وحدق الناس في **الحرب** وتوقفوا عن الزرع في الحقول ، وكنت اراهم مدهوشين بعظمتها • (ولم أكن مدهوشا لاني اسقطت الزمن والموت وأحببت حقلي • كنت الحقل والحب ولم التفت الى الخارج) •

(رجع الصوت مرة ثانية من السفر (الصوت يسافر لا أشعر بغيابه لكنني أشعر بعودته) وانحنت له الحاشية وأمر :)

لا خوف من السير على ضفاف القمر او نهايات الهواء • العناق والحب يتحدان في فعل واحد ينشطر ويستحم بين تنهدات النساء والحكمة • انطلق مصحوبا بخدر النزول المعلق على فوهة بركان اخترقه واتحرر من واجبات التاريخ واستيقظ في النوم أو خارجه وأنام في اليقظة على وسادة الضوء • وتأتين مني نظيفة من كل الصيغ التي تتركها الانهار وراءها في هبوبها مؤتمرة **بالصوت** ، اقبلك ونأتمر •

وبكى الناس لان **الحرب** أفعى ، قرأوا كتب الطب القديمة : بحثوا عن اكباد الحيوانات النادرة وبذور الثمار والازهار الغريبة وخرجوا الى الغابات يفتشون عن الاعشاب والاشجار وفي الليل تحدثوا طويلا عن الافاعي •

ولم أخف لمست الافعى وقلت لها : اتأتمرين **بالصوت** ؟ قالت : نعم

(فتحت أعناق السؤال الجاري كماء عذب تحت عربدة التحقق والتجسم وسكنت فيها • رقصت في حلقة اللغز الملتهب المتدفق مسافرا في اللذة • (وكلما حاولت أن أجن أحجم ليكتمل اللغز) •

صيف ١٩٦٩

مؤيد الراوي

مقدرة خلق الاعراس

من أجل أن أعود الى التفكير ــ نسيته في غواصة (أنا في مخبأ صنعته منذ اسبوعين وثلاث ساعات) (١) من أجل السيطرة على مهمتي ، يقتضي ان أركب، فيما أظن ، رأسي ، والتقط عيني من الثلاثة أو الاربعة الذين يرتدونها ، آخذها ثم أسقطها في الثلاجة ·

فيما أمشي على عقرب متوجها نحو أشيائي التي تركتها ، لانني أنسى ، أو أجرب النسيان ، أصابني بعث الاكتفاء بالشارات المقدمة لي من ملوك مخلوعين، لذا لم أجد غير الانشغال في فحص أشيائي : فخذي ، صدري المنسي ، رائحة الاظافر وهي تبتدىء مع القواميس ·

أن أفحص أشيائي فذلك المتعة الشخصية ·

أن أعثر على نساء يغطين الرجال بالحركة فذلك أكـــوان مـــن شموس اصطناعية ·

أن ألغي رأيي وقراراتي فهذا اكتفاء بتسمير الرأس وسط الاندلس العظيم·
أن انسى ، أو أجرب النسيان ، وأفحصه من جديد ، ان ينساني النسيان، وأجرب خطأ الذاكرة ·

أن أبني بغدادا

وأشرب قرى الضمير ، حتما أتشكل في الملاجيء مرشدا أخلاقيا ولكـــن للمساطب وللذين يتبولون بعد الثانية في بارك السعدون ·

أن أنسى أخيرا ، أو أجرب النسيان مع بلوم ، ورأيت ، مع قرطاجنة ، مع الهراطقة والماركسيين التقدميين ، أن أنسى رغبة الطفل في ·

---

(١) حسنا ، لقد ابتأست من عيوني التي غادرتني فجاة منذ وهلة ، ثم اخذت مثل كيميائيات مردة تنظر الي · هل أنا غريب عن هذا القطر ؟

أن أنسى ،
أن لا أنسى

منظومة الاعضاء التي تخلق وليمة ، فأنا مؤيد ٠

حسنا لعلها أعضاء وأشياء بامكانها اقتناص الحس بعيدا عن المنطق طالما ، ملحقا بمجموعتي القشرية ، أنا أعرف جحيم القدم ورأي العصافير ، بقدر ما أعرف جريمة الريح : جريمتي خارج وداخل ،

طالما أنا ، بعد يقين المعرفة ، سمك
طالما أنا ماء
طالما أنا بوصلة
طالما أنــا
أسهم في ترتيب العالم ، ونصب ملوكه
طالمــا أنا ، أنا أنا أنا أنا أنا
أنا أنا أنا أنا أنا أنا أنا أنا أنا أنا أنا
أنا
أ
ن
ا
فارزة
قبل
مشاريعي الحقيقية أنني بدأت في غيابي ٠

اذن ، لاجل أن اتبوأ مركزا متوحدا وعزو غابات قريبة للغاية كما يفعل الكركدن أجد ألا مناص من زراعة النساء والمعاطف ونبات الزعفران ٠ وهكذا فعلا قمت في المخبأ بزراعة كثير من العودة الى مدني الحجرية قاتلا نباتات الصبير فبهذا وذاك وضعت صفيحة ، لم أتبين مادتها فوق المخبــأ لتقوم مقام سقيفــة متواضعة أشبه بفخ قبل أن تكون لغيري هي للاصدقاء ٠

للوقت
المتناثــر
مثــل
المراهقات ٠

سوف لا أطيل ـ قارئي العزيز ـ فقد توصلت من خلال الكتابة الى جذب الناس مثل القنافذ المتواضعة ليأكلوا اللؤلؤ وثمار الجماجم ٠
حسنا بعد هذا ، وفي محل كالمخبأ الذي أملكه لا بد أن أكون سلطــة عسكرية تستغرق في لعب الشطرنج فتعطي قناني الحليب للفيلة التي تقفز على صفائح القلب الماضي جدا جدا جدا ٠

كقلبــي ٠

II

من الممكن نسيان الوقائع الصغيرة ، كما قلت سابقا ، وبالمستطاع اقامــة

شعراء ذوي قضية ليبرزوا فجأة فوق أغطية الحدائق مدرعين مثل سلحفاة · فالعاصمة أغفت للرتابة وتجزأت عن طبق الفاكهة · أما الذي تبقى فهو بضع سكاكين ، ومحاريث آلية بقوة ٧٠٠ حصان تجري فوق استحلام القائد الذي خلق الشعراء من جلد ·

القائد هنا ، رغبة ، شخص التجأ الى الساحل بعد أن فقد دروعه وخان مغانم الحب القديم ، وبعد أن ذبح طيرا سريا كان يأتي كل ساعة ، ليدخل عيونا تقبله ·

بعد هذه الوقائع يكون بالمستطاع نسيان الاحداث المقلقة ، الا أن واقعة الصوت الذي يرغب في مشافهة العباءات والطيور التي تأتي ، لمرة واحدة ، الى حوض الغسيل ، لا يمكن بحال أن تكون واقعة ذات دلالة مقتضبة · مثلما لا يمكن أن ترد عنها تهمة الطيور المجردة من النعومة ·

بهذا أكون قد اتهمت بالنعومة ، ونسيت القاعد مع المقصلة · نسيت مؤتمر الاجنحة وهي تساق للفرح ، وللتعب ·

أو تتهم أنت ، وهذا هو المرجح ، طالما أطلقت الوهج من مؤخرتك وابتعدت عني ، جافا واضعا المذبح لرسغي ، ولطيوري الناعمة أنت لم تعد في خيمتي ، وسقطت المثلثات ، والمسطرة ، وأدوات التحبير لأنفي عني عذاب المهندس ·

غيت أحوالي لتلائم العائلة ، والاخوة ، مبرمجا الاحداث حسب التسلسل البحري الذي يسجل مولده ومنفاه فوق عظام المودة ·

هكذا هو ، بعد حالاتي السهلة ، سفح الصداقة ،
وجه يدخل في وجه مثل اقتحام العظم في زهرة
مثل دورة مياه
تحتفظ
بالرغبة
منتشية
مغلقة
باحلام
داخل
جناح ·
أيقتضي أن يكون هذا اتهاما يوجه للخائن ·
أيقتضي أن يكون محض لغة سقطت من الافعى ·

إنها ، بعد كل شيء ، المأثرة التي نعتاد عليها من الرجال الذين وضعوا قلوبهم في المصارف ، ولكن يبدو أننا نسأل في النهاية عن رغباتنا الحقيقية في النساء مثلما نسأل عن الجسر : عنيف لانه واقف ·

أيقتضي أن أفهم فجأة :
أنني عرفت الاغتيال
موجها ضد
اسمي
لانني كنت أغتال ثمني
كل ساعة
وأنصب محكمة للحيوانات الفقرية

أيقتضي هذا التآمر مع
ماياكوفسكي ، وبيكاسو ، وحلف الاطلسي ؟

III

موزع ما بين قدرتي للعلم وللجغرافية ، ولادراك جرائيم همسي وهي تسقط على جثماني ، موزع بالتأكيد ما بين أسلافي الباعة ، وبين وكر دمائي . أو ، أنا موزع ، بقدر علمي ، على قارة ، هي ساعات لحمي .

المركبة التي تسرق نصف قرن من كوكب نعود نكشفها مجددا بينما يدي لا تلمس فخذي ، ومجهولة احتكارات الاعضاء يحرسها سجان .

٣٠ عاما ، كنت أتقن اللصوصية وأسرق بدني ، فوضعته يوما لدى العناصر الغامضة والمبهمة من المقهى . وتحت المناضد لجأ قسيس من الحرب الاسبانية يطلب تاجي .

إنني الملك المبتذل أباع بعض الوقت كتفاحة للعمال ، ساخطا على نفقات الملاجىء وتوريد ونقل البترول على ظهر الجمال ، لذا أعلن مبتهجا :

لا شيء مثل المفردات الغائية للصقر

وغير مجد ، بعلمي ، الجندي ، والصبية ، والدولة . الرجل ، الوهم ، الجبهة ، الديمقراطية ، الملابس ، الانثى ، الحقيبة ، الشمس ، مكارثي . بصرة ، طائرة ، ليون : غير مجد تلقيحات البحار بالسياسة .

لا شيء ، لا شيء
علموني اذن
عن
رغبتي
في
البقاء
لنتحدث عن الحجر الذي سقط .

IV

معادلة الثقة هي أن تكون زهرة في الجمجمة . وابتهاجي يتحقق بالعودة الى عام ١٦٨٤٣ ق.م. . وما أن أجد معطفا للتأريخ أرتشف لقاءات كلاب البحر واقفا الى جانب كندا في أبحارها نحو المراهقات .

مبحر أنا ، بأثماري ولغتي ، وبشركاتي ، لزيارة غير متحققة ، ولامر عند برازخ الاصدقاء الذين يعطونني نقودا بينما هم يسمرون على عنقي . يستلمون بعدها قدمي وهم يقطعون الاغصان بالفأس .

دعوني أمر
مع
دخاني

أحمل كهرباء عاشقة ٠

V

فجأة أنبثت أنه صباح القردة ، وما من قسيس ، طبعا ، باستطاعته أن يقرع الناقوس طالما هناك مجالس عسكرية ، وهيئة أركان تدير الجبهات المتكونة من الاصابع والماء والجوارب ورغبات المسافر الى الخليج ٠

كان وقتا صعبا ، وقتا يقفز كزوجة مخلصة ٠ فاقتنعت بالدائرة التي وضعها رجل ياباني ، اقتنصت حيوانات شبيهة بالحيوانات ، ولم تجد الفأس التي قذفت نحو غسق المحبة ،

كلا لم تجد الميتافيزيقا التي كذبت كومونة باريس ، ويقينا بعد هذه البراهين العديدة انتهي أنا الى وقف التنفيذ في مذكراتي التي جاءت بها تفصيلات العلاقة مع هارون الرشيد وماكبث وأفراح السيد هملت عندما قررت فصله من بريد المحطة ٠

كان وقتا صعبا ، في دائرة تسلك فيها الاخلاق سلوك فرنسا المجزأة في التلفون وفوق البرج

يقينا ، في هذا الزمن ، لا أجرؤ أن أتزوج ، وأمد ابني الى المؤامرة الصغيرة التي انطمرت ٠

لأنني أحب ماو
وأضع
ملايين الاسنان والاقمار داخل علم أسود ٠
لانني
محض
خرافة ٠

VI

مغطى بالضمادات ، دعوت مجلسا ميكانيكيا ليعود بي الى قرن مضى ولان ثقتي في آراء البوذيين كانت كبيرة ، سافرت ٠ أو سافر شخصي الذي أريده أحيانا ٠

في الطريق ، أي طريق ، واحدة منها عفوا ، في الموت ، في المخبأ
في القوافل المتقاطعة ، في الرمز ، في التجويف ،
في رغبة المرور
في المفتولين بالسيف ، والمرآة ٠
في الاغلفة
تحت الخلجان
مع
البيادق

في الطريق ، برهة ، وجدت شخصا ٠ واجهته ، لمسته ، اسقطت عليه

كفي ، مثل فم ميكانيكي **مصمصته** ، وأخذت ثقله ، ثم رفعته من الارض سنوات ، سنوات ، سنوات ، سنوات ·

حسنا رفعته وكأنني في حزب سري ·

فيما أعلام الشرطة تزرع جثماني متابعة ، وادأب على فتح مخازن ومعامل لجوازات السفر والبطاقة الشخصية ، بينما أصنع مباهج الاقاليم ·

رفعته ولم يكن تنظيمي السري قد وافق على الاصطياف في جبال الجلد ، وهذا الرفض جعلني سارقا فأكد على صنعتي الجديدة ·

لكنني رفعته
وقد ورد الي صوت الانات الجريحة · ثم سألت :

اذا كان شخص واحد يبعث كل هذه المراثي ، واذا كان شخص يمكن أن يخلق كل هذا الاتفاق ، فأنا أريده ، أريده كما لو كان قرار حرب ·

لذا اختزلت به قراراتي المؤجلة ، وكان بوصلتي ·
في الساحل الابيض وضعته على المنضدة الوحيدة ·
ثم
اكملت
عدتي :
قدح الجرائيم ، مشرط ، ياقة صفراء منشاة أخرجتها من صندوق ·
وفتحت أكياس الحب ·
وضعت الجسد فوق المنضدة

وضعته فوق الساحل ، وكان البحريدي ، بينما سكبت عليـــه ضميري وسكبت على ضميري سائل اليود ، فأقمت العرس بـ ١٣٠٠ شمس مهشمة جاءت الى بلادي داخل عربات ·

كلا لم تكن معي آنذاك ، وحينما رفعت المشرط ، يقينــا لم نكن غير سماء وأرض ، وعندما أدخلت المشرط في الجسد الحلو خلقت كوتا من المربعات ،جاعلا الجسد يتضاءل ، يتلون بالرياضيات ، يستحيل الى رئيس وثني رفعت منـــه صفائح اللحم ، كما لو كان **علما** للريح ·

نضدت مربعات اللحم
وكمهندس بعثت الحب في الجسد
خلقت أعياد الطيور
في الجسد
الذي
أحببته ،
لانه مستحيل
كما هو جسدي
لانه
مستحيل ، مستحيل مستحيل أحببته بهذه الطريقة الاعتيادية
ونصبته على عرش مملكتي الآتية ·

عبد اللطيف اللعبي

سلالة

لاننا مغتربون مفرغون **مغلوبون**
في أسفل حائط – حيطان المبكى الحقيقي تطوقنا من فوق ومن تحت

شارة الكارثة

نحمل الان عارنا سمعتنا مستنزفة ازاء عالم
العقل والحق والشرائع
مكدسين أكواما آدمية مبقورة في صحارى مكتظة توشك
أن تنهار وتنتحر

ومن فرط الوحدة تجحظ عيوننا حاسة ضخمة
تسجل أصواتا ممسوخة تسن شريعة الغاب والذبح
أجسادنا بؤر أهوال طعوم نتنة **أجساد متخلخلة**
خطونا مسير شظايا مجرات وبراري
لا ننتظر شيئا من السماء والارض ولا من الايدي الاخوية
أو **التاريخ**
لا ننتظر شيئا من **الانسان** مدبَّرة هي وحشية الانسان
لاننا لسنا من البشر الذين تحيط بهم هالات **الكتاب والفن والفكر**
نطرد أنفسنا لا لانه طردنا بل لاننا مجزأون **ذاكرة – جسما**
لسنا من زماننا نحن كذلك حقا لكن قياسا الى **نوع من النظام**
من **العنف** نقول اننا غريزيا نرفض المراجع
والموسوعات التي تؤله **العقل**
نقول اننا لا نتبع هؤلاء الذين ينجحون الذين يعرفون
الذين يأمرون بعصا سحرية فتتكلم الآلات المفكرة
وتقذف المدن المعادلات **البشر الأعلين**
نقول خوفنا قلق وجود قلق موت موتنا نحن
نحن **وعيننا** المأساوية

لكن يبقى لنا **الكلام** منفى الكلام الذاكرة المرعبة
حافظة النشوءات السلبية
وبدءا
نعلن خصوصيتنا
الان في الذوبان الغامر نكاد أن نلوح والكارثة شاملة
وتيهنا يبدأ لتوه اذ ليس الامر كما ترون قضية خبز ومصانع وحسب
أو قضية عمل ولهو أو قضية قوانين وحدود وحسب
الأمر هو أن تنتهي **معضلة** اللاتسمية والدفن
معضلة الضغط التاريخي على **سلالة** بأكملها

سلالة الاطلنط *

سأفصح وجها لوجه صدرا لصدر
لا تقرأوا لكن اسمعوا

سلالة

(رحـــــلة شفوية)

I

أصرخ
تتصاعد سلالتي من جسد مذموم
معتقل مشدودين الى السجادات
اجهاضا
سلالتي

من أية مجزرة من أية مضاجعة مع العدم
سلالتي
أنت التي تتجرجرين في الهوامش بلا مقدمة
سلالتي
سألعنك اذا مررت آخذ طلاسمك المزوقة
أدفعك في الأزقة اختناقا موتا يوميا لعنة شتما عبر القرون
سلالتي

قوتنا مع ذلك نبض يضرب الجسد الحي
قوة سلالة قوة نار سلبية احترس

(*) سكان الاطلنتيد ، القارة الاسطورية ، التي يقول بعض المختصين انهـــا كانت موجودة فـي المحيط الاطلسي ، أو في قلب القارة الافريقية • ويذهب بعضهم الى انها كانت في جنوب المغرب الاقصى ، وقد اختفت بنتيجة كارثة طبيعية ، اذ غمرتها المياه •

العرب يفهمون
نظرة وأضرب ليلا سلالتي التي كانت دماء حروب صليبية
صفعة في وجه القرن العشرين سلالتي صَرّة هوامش
لينحدر الجوع سلالتي
الجموع والمتشنجون الشلل الجمهور في وعاء الشعوذة
وخذ على عينيك

الزمان فراغ / ليقف التاريخ / الى الامام دير ياسين / الخصيتان عاليتان / يا ويلك من سلالة / تخدعون أنفسكم / فرقعة حريق / أنجبت لنا البغلة أطفال سلاطين / يا لورطة رواد الزلزال / وأنت سلالة بدورك / **داشو** مرتبة ثالثة لا آرية ولا مفترسة بل بين العقيمة والمجترة/مزق أمامي حوافر أبي الهول/ الهرم القاتل / سر مرة ثانية أمام الفخ / من يرضى عن جثثي / تمت صفقة الشرك / نعرف الاسطوانة / سنرى جميعا أنتم وأنا تبرئة الثيران / انما العائق اللغة نعم اللغة / أتعلم التفكير « على عتبة الآداب » (١) / لن يقرأ أبدا « علي وفاطمة » « بشير وأصحابه » (٢) / الشاشية اذن / الاولاد الذين يفوزون بالجوائز / نستشف تفل الاشربة المعروقة / أكرهك أيتها الحضارات / أقول أسقيكم مخدرات / لا هي مخدرات للنسيان ولا هي تشوش النيون بل بارود حرب **الريف** القريبة العهد / أوضح / خليط متفجر / وخذ على أذنيك / لن تعود الشمس الى الطلوع من **الشرق** / خيلاؤك زرقاء يا **أغادير** (٣) السردين البشر ـ السردين مقبورون والتنك فوقهم وتحتهم / أصبحوا أذلاء أحرارا أن يتقوقعوا أنى شاؤوا / لكن هناك **الكتبية** قبور **السعديين** أجداث **المرينيين** وأسطورة **شالة** / ميزانية أنقاض ·

وفي عمق الغدد سأنقب عنك بعيدا أيتها السلالة المسماة في اغماءاتي ·

II

موسوم
سلالتي يا لمأدبة المشوهين تذكرين الخمور الأندلسية
النوافير
فسيفساء الكلب تذكرين غرناطة العاهرة ١٤٩٢
مراكب كولومبوس
تذكرين شارل مارتيل تاريخ مستحيل سلالتي والجموع
الحشود
لرمضان والأعياد الوضوء في حمام مغربي جز الابط
والحوض الغدّي
تشنج الرتاجات مجنونة سلالتي انفشي حجبك في قعر
البئر تضطجع القرون رصاصة أرصفتك وأزقتك قماماتك المبقورة

(١) كتاب مدرسي للاقسام الثانوية في المغرب يرجع الى عهد الاستعمار ·
(٢) « علي وفاطمة ، بشير وأصحابه » كتابان للاقسام الابتدائية يرجعان الى العهد نفسه ·
(٣) أغادير المدينة المغربية التي دمرها الزلزال سنة ١٩٦١ ·

الجمهرة　　الينابيع العامة　　معالفك　　بلهاؤك ٠
مجتثة　　مصادرة　　منطقة ممنوعة　　سلالتي
عشر سنوات قبل **الطوفان**
مقاليع　　خريطة ندوب في الجمجمة　　سلالتي
هنا تنهارين يا سلالتي　　تتقيأين مراحيضك　　خنادق تعذيبك
عربة من الدرجة الرابعة　　مع القطيع　　سلالتي
مبيعة في المزاد العلني　　بين رواقين　　من يزيد　　سلالتي
واخرسي　　اخرسي　　اخرسي　　يا سلالتي　　وتجرعي
شظاياك
العين تتدهور　　بوصمات وبلا وطن　　أصدمك يا سلالتي
أعلنك **للشرق والغرب**　　لا هذا ولا ذاك　　بل أنت　　السلالـــة
الخاتمة ٠

هل ترون كيف تستحيل قراءة شعركم في الساحات العامة كيف لا يمكن عرض لوحات هؤلاء السادة في الشارع ، فلغة الشعر كلغة الرسم يجب أن تتحولا من أجل التواصل المباشر الخصب فيما يخص تنوير الجماهير
هل سبق لكم نشر شيء يا عزيزي / ما أروع هذه العودة الى الينابيع / يا لنسائم الاصول ٠

اقبضوا على هؤلاء الفوضويين / يريدون زج المغرب الكبير في مسالـــك الجيل الغاضب / هناك تلميحات / أيحسبوننا أميين /
وبعد / موجزا عن حياتك / اخرس / ما دخلك / لتبرز الشهادات /سجل المعلومات / الصورة الابتسامة ربطة العنق الخبازية اللون صدأ العمر التردد على طبيب التجميل السجل العدلي الحساب المصرفي شجرة العائلة / ثم ماذا اخرس أيها المتخلف الكسيح الجائع المزبلة المتنقلة تكلم لخص خذ الدليل الابجـــدي والحضارة والتقدم ماذا تصنع بهما والعصافير التي تتغنى بالغد الجميل والامل ماذا تصنع بها والرفاهية والمراحيض الانكليزية الورق الصحي المعطر الأرائك **التـــوراة** الترانزيستور الغواصـــــة ، البقـــر الحلوب آليـــا استعمار **الزهـــرة الأروفيزيون**　　الدمى المطاطية للسادة المنعزلين الدعاية على الزجاج
مقبرة ثانية أو مقبرتان ويصبح كل شيء على أحسن ما يرام ٠

III

ماذا سلالتي　　رعب　　أعلنت صارخا عينيك الفاسقتين
أعدت رسم فصولك من بداياتهـــا　　الفجر الخانق　　رمـــــوزك
المتداعية
سيقال حكمة　　هذا الانتظار الهندسي كله　　مغامرة الفكر
قالوا كل شيء　　أخبروا　　وبرهنوا عن كل شيء
وأنت　　ما تزالين في الليل　　في ضوضاء السهاد
ها أنت تنتفضين　　تبرزين أرحامك　　ضعف المنفى
لم تبق كلمة　　هل تنطقين　　سفينة الطبول　　تخرجين
اسفلت ممزق　　أعلام ولافتات　　ايقاع مرسوم
ما كنت هكذا مبتورة الجذور　　وفي غربتك الهالكة　　أستعيـــــــد
ادراكي

في دماغي خنجر فلتحملني طبولكم يا أبناء هداوة
أبي بصق في فمي ريق العصمة

نار سوداء حشيش وغيبوبة ميثاق تشنج طبل عماد
عذارى خضر عذارى حمر نار سوداء جمر في حنجرتي
الميثاق الذي يربط رأسي البلسم الذي أمنحه الـــذي يمنحني
أمكث أمضي
انتشري انتشري أيتها العقارب الموقرة أقبل أشواكك
وانت يا سيد كل التنانين عليك السلام .

طبل طبلة أتفحص جسدي العين تنضح الرأس جرس
ثبوا ثبوا يا أبناء عيساوة
صوبوا سمائي تتدهور آلهة شياطين
لن تفلت مني الكنوز والخوابي مرة ثانية
طبل طبلة ألاحق دولابك الزقاق يملي علي
الغط أنهم يزوجونني بعائشة قنديشة في قصور السحر
لها حوافر كما يقولون

طبل طبلة البخور حتى الاختناق ماء يغلي لوضوىء
اخرجوا ان شئتم واقطعوا نبابيت من الصندل لكن لا تقاطعوني
أتغلغل في نومي أرواح تكهربني حان الوقت لكي أفصح لماذا
أتقيأ العالم .

IV

من يغتالني في سلالتي كل ألف سنة ويدفع في طريقي حزما
من اللقاحات
من يزعزع جذوري
أتذكر لم يكن ثمة ماء في البدء بل تنقل رمال كقافلة عائمة من
القارات
كاهتزاز كثبان لم يـــكن ثمة الا تام تام التحـولات وثبـــة
الكواسر
وأنا أرى أرى أنظم أتذوق السوائل البركانية
لم يكن ثمة غير حضور النار الكبريتية غاز التوترات النتنة العالية
العظائيات المتعفنة الاعراف
من يغتالني في وشوشة وجودي كل يـــوم في هجوعي
أتذكر
كان الليل قد مال بعد أن خمد في اللهيب الحلزوني
تراكم على جبيني وحل مطاطي سخرت قرود رحل
هل كنت طوطما أم تلك الفجوة الجسدية للصاعقة
من من سلب بذوري في استئصال المسامات الليلية

اذن سأدبره

أسود وحيدا بطلقات من الحبر
التآمر الذي لا يحصى لسلالات في الحضيض العقد السابع من الشمس الاخيرة
سيراني الملك فلتلدي اذن يا أم يا أرض الملوك المتسولين
اغرزي في هذا السائل هذه السلطة السامة أنجبيني كدمّل
فوق العين الثالثة لشركائي أسقط في الطبقات السفلى من الصوامع المبتذلة
أتعلق عنكبوتا مجمدا على سلالم الغيوم
أغلقي خواصرك يا أم يا عاهرة الحفر السكرى
غرت من وثبتي فحشوت بالملح رحلة جراحي
سأدبره سأحكم نسجه
ذلك التآمر للقبائل التي لا ألسنة لها
منذ فضيحة ولادتي منذ قرصنة الحبل بي
تأكدت من أعضائك أيتها المستبدة ذات البطن الصاعق .

سلاحي الأول رأسي الصامد يشحن التروس
سأدبره في التجويفات الجمجمية على أطلال الذهب
تآمر السلالات الهامدة
بذورا مسحوقة فريسة للرمال حتى يموت دمي الكوني .

V

وتهيمن الأرض ألم أقل لكم **سينطق الانسان ستجيء مملكته**
عفرة متجعدة جبارة طوطم طوطم طوطم وثنية جديدة
ركض أطلال شلال يتسلح الا ليلة رؤياوية سترى دماغا يتثاقل بعد دماغ ..
وجثة تترمد بعد جثة ورأسا يملح بعد رأس
برج ثائرين ومنبوذين برج رجال
انها تدور أرضكم العاهرة وأنتم معها هيا
أخاطب جمع الخطيئة الشامل سلالات تتناكح في الفوضى
مفلطحة الرأس طويلة الرأس أكف بيض عيون زجاجية
طوال أقزام أكداس لهجات خليط
أنا سرطاني تمايل انفصاما منبوذا تمايلي يا نتوءات الصخر
يا رمد الألوهات القديمة تمايلي تمايلي باسم جمع الخطيئة الشامل
عري عراة رأيتكم سرّة فوق سرّة تباعا قدام الوحش
كان يضحك بكل قبحه يد طينية على رقابكم ويد في أقاصي أرواحكم
/ كان الوحش ينكح بعنف وقد تعلقت عيناه بالرجم والصواريخ والأقمار الصناعية برواد الفضاء في لباسهم الرياضي خارج مراكبهم /
وعيونكم لا تحيد عن مغناطيسيته المتقاطرة

الطامّة الطامّة على بعد خطوتين من صوتي أيهـا العالم
القديم
أيها الوحش القديم بيني وبينك حسابات قديمة
الطامة الطامة على بعد خطوتين سرطان متفجر
أيها العالم القديم أيها الجذام القديم بلا بقايا متحجرة
بلا لهجة رؤوس خرافتك السبعة بلا بوصلة بلا محور
تاريخ جراد
أيها العالم القديم أيها الجذام القديم
انها اللحظة انها الكلمة أنتصب دابات جسدا كاملا
قوة مولدة باسم جمع الخطيئة الشامل
بايضاح قف در الغول يسلم عليكم

VI

سلفا شرك لا يندثر سلفا معمعة لا تعقل سلفا
يد
أما القرطاس القاحل المفرغ من عذاباته
اما الجذر الطالع من المجزرة
اما الشهاب المبهور العين المجازف بها
يد ليلتنا بينكم سلفا الزحمة التي تلتهمنا
موت يعلمني ملحمة المخاطر خالص كالجثة العجائبية
قلت تنافري معكم قلت نشوة الجريمة تنافري معكم
أمام جسدي ودعامة العدم ملقى فوق هرم العدم
بين مخالب حضارة القرطاس والفولاذ والرصاص بين عيني
ملقى أجرد حجريا كنت تعلم يا فرانز فانون ظهرا
لظهـــر
كل لنفسه مر كل شيء بسرعة الحرب مادة للاطفاء
أخضعونا نجمتنا تموت قبل قبل ــ الأجـــل الطامّة الطامّة
في أكواخكم في قصوركم أكثر جوعا من ذي قبل
« متحضرين »
كواسر على جميع المستويات رأيتكم سرّة فوق سرّة
تستلقون أمام الوحش
كان يقهقه مقلدا زيوس يقذفكم بخشخاشه المخدر بذرة
بذرة وكانت ذريتكم تلتقط منيه لاخصاب اناثكم المبلد في عنفجنسي
مفرط وكانت أجسادكم تنكمش ترق تتقلص في أليـاف
وقوالب
أيها العري يا قامتي مشرط الهجرة انني من هذا الصوان
تعود لي الذاكرة الشعر الكلمة وعد رجال لرجال

VII

بعيدا عن هذه الجمهرة فيما وراء البحار السبعة

بعيدا رحم مقوسة فيما وراء لوعتي حشد شمس تدهن
كلامي
بعيدا ملفوظا فيما وراء اشارة شهاب يخنق
الدائرة جماهير شعوب مجنونة دامية تاريخ ينبعث
من مجرات تنزو
ها أنذا أعود الى جذور الفأس حيث أدمي
بعيدا يصب نفط على القرطاس جسد كزلزال
أيدي كاشفي الينابيع وقد نبتت فيها راميات اللهيب
بعيدا ما من حياة ممكنة باستثناء الخطف
فيما وراء ليل الاقتتال تحت نجمة النحس
بعيدا تأرجح جآجىء من هياكل السلالات من قمم تطفىء
الاشارات
من سراديب للاحلام من صمت كوني مفؤود
بعيدا عين آلهة مستهترة عظائيات تحرس المدونات الممنوعة
تاريخنا المتدفق في أغوار الفوضى
بعيدا الآلهة أنفسهم في دوامات مجنونة تضرب
تحطم التوابيت الدروع الذهبية النحاسية
تفجر براكين تقذف مسوخا آلهة حمقى جنت من القرن ١٤
ومن الخطف
تمرد الآلهة في طرق التجمعات البشرية يجثمون على أدران القرن
التاريخ
بعيدا بعيدا بعيدا مليار من البشر ـ الآلهة
يقرأون التعازيم على السماء بعد الأرض
وهنا ملياران من البشر ـ النعامات ينبطحون ينبطحون
سماء فوق سماء الدمار والأمر هنا لا يتعلق بأية قدرية ٠

VIII

تصعد كواكب سأفي اخر دين
ليس صوتي الذي سيوقف حديد الفتوحات ولا يدي
كلمة صرخة هذه الصرخة المزلزلة وحدها فلتدحرج من جمهور
لآخر
عطش لاننا لسنا الا علامة الشقاء عطش لكل ثورة
الأرض بقايا دماء مبعثرة أيها السذج من أعلى الى أسفل
الراضون بدعاء الندابات اللائي يقرعنكم بسياطهن
وتنادونني أخي لا أحتاج الى أخوتكم السلبية / أخوة أكباش الفداء /
أخوة مشاهدين تاريخيين / شعوب بائدة / أسميكم جماهير / مئة جمهور وأكثر
في القرن ١٤ / تنافقون تتذللون تستسلمون / جماهير لا شعوبا /
على مقاعد على مقاعد تتحرك أخوتي منطلقة من الحدود كلها /
تقتلع مرض الجسد الذي لا يسمع/حر' حر'/أتسلط بدوري على الأبواب المغلقة/
أقتلعها / انها سلالة ترفض الوثنية المنتصرة وقانون الغاب / سلالة منبثة في
أعماقي / لا أجدها عند الجمهرة التي تتراكم أمام الواجهات وفي مخازن
البهلوانيين لكن في جسدي / في اهتزازه في نضح ألفي في سمات موروثة /

أطلنتيد تعالي أنزع عنك غبار الخرافة أبعثك متفجرة
من قعر اللعنة الوثنية أبعثك سلالة ناطقة سلالة مزحزحة
لن توشحي أرخبيلات لها حضارتها لن تقتلي أبدا
صوت أموات والأرض تتجوف تحت ضربة العنف
أرى أرى فوضى الخلق الها يشرع الها يخرب
الرطب يابس من ثنائية الصنعة المميتة الموت في قمة التلذذ
لا تهمني الحياة في كواكب أخرى

احتجت الى أكثر من ذاكرة لأعرف قوة آلهة الساعة / استراتيجية نصرهم /
احتجت أن أشرب عند ينابيع قسوتهم هول الجبابرة
اطلنتيد العلامة الاولى القرطاس والكلمة المجازف بهماسيتبعانك
وفي الفوضى الجديدة المنظمة لن يبزغ أي شيء
لكن التنكيل في غاية اللذة وما من أحد عاين جسدي
قد أشنق نفسي قد أرحل قد ألعنكم كما لعنت أجدادكم
فلتأكلوا يا اخوتي ولتلدوا الغول يباركم

IX

السيف على الرقبة **غني أم كلثوم غني** لهذيان الشعوب **العربية**
وانشري ذلك الجنس المحموم / الذهب الأسود يفطم المصطفين / الكبرياء كبرياء اللقيط الهائج / كبرياء / والعالم يرهب قوتنا / كبرياء الحصون / كبرياء صلاة تخرق رؤوسنا وقماقمنا / قماتم خاتمي الأنبياء / هياكلنا المتراكمة غير لائقة / سيتهموننا بالعنصرية / الكبرياء كبرياء الفروسية الموعودة المتقهقرة طمأنينة الكبرياء /

السيف على الرقبة واهتك ستار الحرمات / غني يا أم كلثوم في أوج عصر الآلات المفكرة / غني النيل السدود العالية / أهرامك وأهرامنا / غني نشيد الجماهير الخاوية البطون / قلوب القرون الآتية / الحب المجنون / معلقات القرن الرابع / غني لا تخشي التكرار والابتذال يا ظبية تسكب العطر شلالات / النسيان يبذر سبحة غزلياته / أطلال الديار / القافلة / تصعد العين / تتفجر نظرات معنكبة غائمة / مهاوي تخرقها أنابيب العمل وأقنية اللبن المقدس / غني قليلا ان لم يكن لتشييع الجنائز فللمواكب / غني لأكتب **كتاب الموتى** / وصية السلالات المستعبدة / لأنبذ لعنة نزلت علينا في أوج اللقاح آمر الخلق بزيغ أمثل/أتحدى بؤس الأغوار الداخلية المكتظة/غني فصوتك يطعننا ويضحكنا في ذروة اللذة

وقف الخلق ينظـرون جميعا كيف أبني قواعـد المجد وحدي

غني الهلال اليابس أسوار الندوب فأنا أحاذي جدار العار / غني يا نجمة تنبش **الشرق** المختل / غني « **شوي وخد عيني** » / غني فغرامك مؤلـه عند قدمي أفريقيا التي تغتصب في احتفالات دورية / **غني مستحيل اليد الممسكة بالأداة مستحيل اليد الممسكة بالجسد / غني الكبرياء المستحيلة كبرياء طينتك المهزومة** /
صرخة عندليب الشعراء الأغبياء / صرخة الغضب الوامض من رجم منتقاة /

صرخة الأحشاء على عتبة المسالخ / صرخة الضياع العتيق يأمر بالنشور /
صرخة المعتقلات وجشع المال
صرخة الكنوز المعجزة المعلقة بالسحرة

أصرخ الشعوذة الفقهية في ذيول الحكم
صرخة أحييها من أضلع الفتك الجماعي
صرخة الماضي نور العصور المدلهمة
أصرخ أنزلق على سكك الأنقاض
أصرخ ستهدأ الريح لتصير جرادا مهووسا
صرخة مكدسة في قعر ذاكرة أصبحت جهازا
صرخة قارة التام التام يحجب عنا أصواتا
أصرخ يا حنجرة لا تحتوين الا على سخيف انفجاراتي
أصرخ انني أكثر من انسان انني شيء **أحد** في تدفق مأساوي ونزيف ملتهب
أصرخ سأغرق هذا الكوكب بشعر خانق
أصرخ أعرف أن أتكلم لكن ليس مع الطغاة
أصرخ صرخة العاصي خيانة الصديق زيف الوصي
صرخة غثيان الانهيار
صرخة المرارة المنثورة في أشكال متصاعدة
أصرخ بغاء الموسيقار القرد المهرج
أصرخ انتفاخ التفلسف المعير يدفننا أحياء باسمنا
أصرخ ليريحونا نحن الصعاليك أصرخ كفى

أيتها المغنية المستهترة / جارية القصر المنهار تسلخنا في الدم المحموم / تفتتنا / تتركنا حثالة وتبنا لأخوة الهذيان الحسي /- بغنائية نفجرها تحولات لحواسنا كلها / يضرب بعضا على ظهر البعض الاخر وفخذه / نلوك اللازمة السخيفة لازمة الأخوة المتنافرة / غني يا أم كلثوم فصوتك يطعننا ويضحكنا في ذروة اللذة / يا لؤلؤة متحف العصور الجليدية أنت قوة لا تقدر ٠

X

وامغرباه ! وامغرباه ! الأصابع المتفرقة لليد الدفينة
تمثال أبي الهول المقنع **مغرب** مثقوب اليدين
الآري أحصاك **الآري** يتكلم وأنت تحمر
الآري هو الأقوى

انها لحظة التحولات العظمى / الانفجار الجماعي / نزع صدأ الأمخاخ / نقل الدماء الوردية / مراقبة الحواس / تشخيص الأسس المتعفنة / تفجري يا أبراج النخبة المفكرة / بيننا حسابات قديمة وحديثة / سنفضح / سننزع الأقنعة / الأصباغ / لن تبقي نقمتي على الطاغية / على التحديات المزورة / على المحاكم العرجاء / على العصابات المرتزقة عصابات السجاير هافانا والشيكات والفديات ، وعصابات الاحتيال التاريخي لتجميد البشرية / عصابات علم يدحرج نصاله / مخالب أقسى من الصرخة الوحشية / أيها العالم الهرم المجتر / تسقي بالعصارات القاتلة أفواهنا النبوية ، الجارية وراء الحوت الجائع / أيها العالم

الهرم وشبابنا المزعوم يحيا في نزيف متدفق / كفى
انني أحيا ها أنذا في غلياني كله أنبع من غددي جميعا
أهبط الى جحيمي أملي وأملي هكذا أكتشف نفسي في قرارة الجنين
على قدر هيكلي بذرة لامتناهيات مليون امكان
مخاض شعوب وقارات انسانية متحركة
أصواتا متحولة أفلت أهزم الموت
لم يأمرني أحد بهذا الزحف بل أنا أنفصل لأستعيد ذاتي
في طقس متوهج من تكوين النموذج ـ الانسان
اذا أجواء عصية لكن من هذه الارض الضيقة أنبثق
من هذا الهذيان الرملي المتقاعد من هذا التبرعم الوثني
تنبثق لغة آتية

الأرض الأرض الكبّة الجنسية لأصولي العنقود السام
حبكتي اللمفاوية جذور تلد الرجال
أهتك هذا الجسد المذهل الطالع من جديد
أغرز فيه تنهدي أحركه على صورة خليقة عادلة وعنيفة
أناديك أيها التكوين بفضيلة السلالة
بصرخة الخلية الكونية جسدي أنا الذي سيحيا
سينتشر سيناضل سيعدي النبض
في شموله في ملحمته الأولى ٠

(كتبت هذه القصيدة ، أصلا ، بالفرنسية ٠ وضعها بالعربية الشاعر نفسه ٠ أعاد النظر في النص العربي أدونيس)

انور الغساني

كيف شاركني قارىء وهمي في كتابة قصة « التوجيه الاول للسفرة في الماء المعدني »

١ ـ الفضيحة . الإله الابيض الخجول

خرجت من الشارع · في الغرفة ــ لايبزك ساكنة تحت الثلج بلا ألم · طفلي (وهو فكرة لم تتجسد بعد) ينمو في رحم صديقتي ايلكا ، نحن متخاصمان منذ يومين · أنا جَدّي منذ الامس أكتب وأقرأ · الآن أكتب ···

أيها القارىء !

انها علاقة طريفة ، علاقة الكاتب بالقارىء وبالعكس · أحيانا : ساحر وجمهور أو نبي وكذابون · الزبون والنادلة (الجميلة) ·

لأنني انسان اعتيادي ، اسقطت هوية السحر · أصبحت أرى بلا اثم أو ضمير (المقصود الضمير الاخلاقي المعذب باستمرار · لم أجد ضميرا ايجابيا يتمتع بالراحة في زنزانة الحوادث اليومية ، ربما نقص في العالم هو السبب) باختصار لست قاصًا بعد الآن رغم البداية النبيلة عام ١٩٥٤ ·

الكارثة انني أخشى ألا أنتهي من رواية كل شيء (من يستطيع ذلك ؟) مثلا لدي مشروع فضيحة (الشخصية التي سأقدمها والتي سميتها سابينا) أريد أن أشرح كيف تألقت صفاتها الجسدية ؟ صفاتها العقلية هي أنا مع بعض التعديل الذكي · لكن هذا الشرح لا يشبه مقابلة يجريها صحفي نبيه مع كاتب شهير فيوجه اليه السؤال التالي :

ــ كيف كتبتم ، أو بالأحرى من أين جاءت شخصية « آسمو » في رواية « الذئب الذي مات » ؟

اذ انني لا اريد التعويض عن احبولة باحبولة جديدة · لا أمارس تحليلات مختبرية وانما أريد أن تشارك في معرفة القصة وأن تصنع معي بعض أجزائها ·

سأزور معك كل الأراضي والغـرف وحتى مفاتيح البيانو في دار الصديق الموسيقي لأنني أعتبرك قريبا لي ، ولا أريد اطلاق تصريحات كبيرة عن الاخـوة والانسانية وغيرهما • في هذا المجال أصبح كريها لا أحتمل •

هل تريد أن أضعك في مقهى بوركيلر (وهو قبو) وأخدمك مثل نادل مجهول أم تريد أن تقف ضمن عشاق سابينا (هذا اذا لم تكن أخلاقيا تقليديا) ؟

الأقداح تفقد مرحها فور امتلائها بالسوائل (قبل أن أواصل الرواية أثبت هنا مسألة اعتيادية : ان الحدود ـ ومنذ هذه اللحظة وحتى منذ بداية هـــذه المحاولة ـ بين الحقيقي والمصنوع غير قائمة ، ان الاها منتصرا ، وحده ، يستطيع أن يجد الحدود) • الأقداح • راقباها سوية ، وكذلك انغلاق كل شيء برعب ورغبة تماما مثلما يحدث حين تقول لنا طفلة :

ـ انتظروا لتشاهدوا كيف أموت بالسرعة البطيئة وأنا أمارس رقصة التعري ، آه ، هذا الحلم الدائم بالأكواب البيضاء النظيفة أمام مربع وجهه الطفولي •

ان وعيي ينمو ، وأتذوق طعم الكلمات القلوي قبل أن أقذف بها على الورق متحملا مسؤولية مزدوجة عني وعنك • ان قذف الكلمات أصبح أخطر من قذف المني في رحم فتاة تلتقطها لهذه الليلة من مقهى المحطة •

أسألك :

ـ أتريد أن تعرف اسميهما : سابينا وماريو ، سابينا هذا اسم أحبه منذ شاهدت اعلانا للخطوط الجوية البلجيكية ، وهي تحمل هذا الاسم على ما أظن ، على استعداد لأن تستعبدني أية فتاة تحمل هذا الاسم ، ليس أية فتاة ، وانما شقراء طويلة • ماريو ، لا أدري من أين جئت بهذا الاسم ، ربما هو شاب متوسط الجاذبية ذو شعر أسود • يستطيع أن يقفز من أي كتاب للاستيتيك (علم الجمال) ويمتحن قدراته في الشارع ، ربما في مظاهرة أو مضاجعة في الزقاق القريب من نادي الطلبة (كالينين) بعد أن ينتهي الرقص يوم السبت الساعة الواحدة صباحا • هؤلاء أحبتي ، أفضحهم وأقدم لحمي للكلمات ، أوصل ما بين جثة الواقع المنضّدة في الأفكار وبين الكلمات • أقتل العالم ، أو تلك الحصة المخصصة منه لهذا اليوم لأستطيع العبور الى الغد •

ـ انني أعجب بأفكارك أحيانا •

تقولها أنت وتقولها سابينا لماريو • ماريو يحاول بمهارة أن يجعلها تنسى حدثا ما • الليل •

ـ لحظة ، لقد أقبل النادل الشاذ جنسيا •
المقهى ، قدير على تغيير شدة توهجه ليلا • الخجل •

ـ لكن أية واقعة هذه التي نتحاشى اعادة روايتها ؟
ـ يوم أصبنا بالزهري • كانت مشكلة أخلاقية ، لم نعرف من منا مارس الخيانة وحمل للآخر عند العودة شارة الحب الجديد ، عظاما للعب وسوائل أجنبية في الجسد •

*

ـ دعني ، أريد أن أتحدث •
ـ « انها تحدثكم من خلف زجاج مشبك بالاسلاك » عبارة يقولها مهرج

السيرك الجيكي ٠

ـ انني غير مرئية ٠ لست ساحرة ، ولكنني عشيقة الجميع ، أنام معهم ٠ قبل قليل تذكرت مع (ماريو) حادثة الزهري ، انكم لا ترونني ٠ سأولد مع بعض الأفكار في سنوات مقبلة لأسبب حوادث انتحار ٠ انني أخشى على الأبنية في مدينتكم اذ انها تترسخ في مواضعها يوما بعد آخر بلا حركة ٠ الملل ايها اللون الابيض : الملل ٠

« يقول رجل يجلس بعيدا :
ـ هل نذهب لمشاهدة سيرك الدولة الجيكي ؟
ـ لنشاهد سباق الخيل أولا ٠

ـ أنت وقح ٠ أو رجل لم ينظر يوما الى ظهره ٠ هل فعلت ذلك لتجد كيف تبدو فعلا من الخلف ؟ ربما أنت مخلوق بلا سمك ٠

ـ لماذا بالضبط يصرخ المتظاهرون في الشارع بالضبط ؟

ـ من أجل التغيير ٠ قالت لي احدى الفتيات أن اختها انتحرت بالغاز وهي في الثالثة عشرة من العمر لانها لم تحتمل حقيقة انها تنمو باستمرار ويتغير حجم رأسها ٠ هل تستطيع أن تفسر كيف ينتحر المرء بسبب ذلك ٠ أمهلك حتى يوم الاحد المقبل لتأتيني بالجواب ، اذا استطعت حل هذا اللغز أمنحك أية مكافأة تريدها ٠ »

*

سكتت بعد أن وضعوها في السرير عنوة ٠ نامت بذراع يرتعش تحت تأثير عيونهم ٠

ـ ستعود مع النهار لتكمل الحديث معك ، أنت كما قلت لك انسان غير اعتيادي ٠
ـ مسألة يصعب التأكد منها ٠
ـ لقد تطرف الجميع بشكل لم أتوقعه ٠
ـ ستبدأ برواية الحكاية لسابينا ٠
ـ انه دورك ٠

٢ ـ الوجوه والاجساد او الحكاية التي يرويها القارىء لسابينا قبل ان تنام

انكشفت حتى الآن أحابيل عديدة ، لم يبق لصنع القصة ذلك السحر التقليدي لهذا سأحاول أن أسطو (الافضل : أستعير) أفعالا قام بها أناس مختلفون في أزمان مختلفة وبنيات طيبة ٠ لم يتوقع هؤلاء مثل هذه النتيجة : الاختزال على الورق والنوم الابدي على عروش من التعاريف الفلسفية ٠ أحدهم مثلا رجل أبيض الجلد يمتهن حاليا معالجة الاقدام المتألمة (خاصة بعد السير نصف ساعة على الثلج في هذا الشتاء المبهم ، رغم الاختفاء الأليف داخل الأحذية) أما القطارات فقد ظلت حبيسة قضبان السكك الحديدية ، تهيم على وجهها كل يوم الى أهداف مجهولة وتعود بالخيبة والفلاحين الغافلين عن المشاهد خارج العربات ٠ لقد ترك القطارات ٠

« أراقب ما يجري ٠ ماذا ستكون نهاية هذه اللعبة ٠ بلاهة شاملة على

وجوهنا جميعا ، تلك خاتمة طيبة لعهد من عهود القصة القصيرة • سأصمت اذا وأنتظر » •

مسألة مضحكة فعلا وبلا خوف يمكن أن نضحك ونثق بالضحك رغم وجود القتل السلبي في الشارع المجاور اذ هل يمضي مسافرا مع القطارات التي تلدها المحطات الآن ؟ انني أقرر أنه يمتحن نمو الاشجار : أولئك الاطفال الذين ينمون باصرار مع أن المصاطب العامة نادرة في شوارع بغداد الا أن السقوط على أحدها في شارع ابي نؤاس ظهرا او ليلا كطائر يحتضر ، ممكن • عند بداية الشارع بعد الجسر زمن بلا هوية وبقعة مثالية للحوادث الغريبة لدى التقاء الريف بقلب المدينة ، بروائح السمك والماء • نقف أو نجلس على الارض نفكر بالكلمات ونظهر بالتدريج على سطح الواقع حالمين بالتحول الى قضية جدية أو أبطال ذوي حراشف معدنية ، كانت حراشف الاسماك الميتة على الشاطىء كثيرة • سقط الرجل في المقعد (هذه مشكلة جديدة أليس الافضل الالتجاء الى أساطير الغابات أو حتى تأليف حكاية عن الثور المجنح في نينوى) ، تدمّى فمه السخيف ، حمله رجال الشرطة وممرضة الصليب الاحمر الغائبة في بزة المهنة الى الخارج •

« انها الحادية عشرة أيها الرجل • العمل غدا ؟ » تلك المؤامرة الأزلية • تأسفت السيدة :

— كيف سيتسنى لنا أن نأكل بعد هذا المشهد •

اكتشف وجهها وأتمنى مضاجعتها • وجهها أليف كفراء القطط مع أمن كثير وتآكل بمهارة • الرجل ، قبل أن يسرق نفسه ، سابينا ، عدنا نتأمل في موعظة الصباح التي تطرحها الاشجار والنهر المتوحد مع نفسه بلا مناقشة • يقرأ في صحيفة سباق الخيل ويمتص سيكاره بخلق راشد • أنسى نفسي بعض الوقت ثم أفكر في أنماط الاشياء • لماذا تختلف وجوه السيارات ؟ بعضها مخيف وبعضها فاقد ثقته بنفسه • ثم أنتبه قبل اغلاق الأبواب فأخرج اليهم قائلا :

— ماذا يريد أن يفهمني هذا الرجل ؟ صحيح اننا قد نعود الى نقطة البداية مرة ثانية ولكنها ستكون عودة من طراز جديد وليس تكرارا بليدا •

— أي رجل ؟ سأل سالم •

— ذو الجلد الابيض الذي يجلس هناك ممتحنا جريدة سباق الخيل مطلقا مرحه بصمت •

— لا شيء • انه يجلس على المصطبة • يحرك عينيه الآن مستهدفا رؤية رجل على بعد عشرة أميال مثل زرقاء اليمامة • هل تعلم : أتوقع أن نصل الجريدة متأخرين • الصباح اليوم مثير الى حد انني أفكر مجددا بالانتحار •

— فكرة أفضل من أن نحمل كل يوم الى بيئة العمل الصحفي أجهزتنا الداخلية والاقلام والملابس والتعب الابدي وبعض البؤس • هل تعلم انه يجلس فعــلا !

— انه لا يجلس على العشب وانما على مصطبة وقد دخل في شكله •
— كل المقاعد تجلس بطريقة واحدة •
— هل كانوا يجلسون أيضا ؟ هناك •
« — بالتأكيد ، أنت يا سابينا تعلمين تماما أن الجلوس حاجة وحتى في

مقهى محطة لايبزك ذات مساء • سيدة شقراء وعامل في قميص أحمر ظل يكتب الرسائل عدة ساعات ويخفيها في محفظة سوداء ٠٠٠٠ ثم صمتوا ساعة • »

ثم أصبح عددهم فيما بعد : أكثر من اثنين • »

*

لا بد من التحايا لتبرير الوصول والافصاح عن الامتنان لحضوركم ، انني حتى لم أذكر أسماءكم فالسيدة تريد أن تنام ، تريد مضغة من نسيج ذكريات وليس الاسماء • نحن أربعة فيما عدا الرجل على المصطبة الذي سبق وأصيب بالشيخوخة في المحطات •

ينهض الرجل من المقعد ، أخشى عليه من الدخول في وضع الوقوف • يتقدم مبتسما وهو يطوي الجريدة :

ــ هل نذهب ؟
ــ حسنا •
لم أعن ما قلت • يحدثني في الطريق الى ساحة الملكة عالية عن حدث الساعة : صالح جبر يريد توقيع المعاهدة مع حكومة العمال البريطانية •

ــ هل تهوى شيئا معينا • أقصد ماذا تفعل بعد أن استقرت القطارات في المحطات وامتلأت بعطور زهر الأشرفي في هذا الشتاء ؟

ــ أبدأ بمشروع ما وحين يصل الى حد الوضوح أتركه وأبدأ بآخر • انه يحلم بيديه حين يتحدث ، يحركهما احيانا سوية أو يقاطع بين حركتيهما ، يدان مشبعتان بفهم الاشياء : الوجوه ، الكراسي ، زجاجات الغاز ، أوراق الكتب • لم أسأله فيما اذا كان يكتب الحروف أو يحل المسائل الحسابية في طفولته يرسمها باصبعه في الهواء •

ألوذ في برد هذا الصباح بجسدي • أنظر • رجال الشرطة في زوايا الشوارع حول الساحة تتدلى من اكتافهم شواهد من هياكل حيوانات متكلسة • سأل أحدهم عن هذه (الأجهزة) • قال سالم :
ــ انها تقتل •

بغداد تنتحر ، تقتل ، ترفع منذ أيام وجـــه اسطورة نظيفا من التراب الصحراوي ، الشعب يشعر انه ينمو جسدا وأذرعا تحيط بالمدينة على شكل دائرة وضمن هذا التصاعد والظواهر غير الاعتيادية ينام الوزراء في غرف السراي ويحوك مدير الشرطة العام المؤمن بالتعاويذ (يربط على ذراعه اليمنى تعويذة مغلفة بالجلد) حتى الصباح وفي الليل أيضا خططا لحفظ أمن المدينة تنهار في الصباح حين يستلم الجمهور المتظاهر سيارات الشرطة يحرقها بالبنزين • وفي دقائق تموت العيون والاصابع والمعد والقـــلوب والاعضاء التناسلية لرجال الشرطة • وتفوح من العجوز رائحة السعد وهي تسقي جريحا حمله المتظاهرون من شارع الرشيد الى بيتها في رأس القرية •

هذا الصباح يرسخ نفسه بقسوة • هنا : قطط وكلاب تستطيع أن تغفو بطمأنينة ولافتات بعض المطاعم والمتاجر لا تزال مضاءة • يفكر (س) انه يستسلم للعنف بسبب وجود رجال الشعبة الخاصة المتجولين في الشوارع •

اعترافا بالحذر يا سابينا نبدأ بالسير متفرقين •
أبكي وأسير مع الرجل في أزقة السنك متجهين الى شمال المدينة وبمحاذاة

شارع الرشيد • أسمع أصواتا وأشم روائح الشاي واللبن ، أسأل عن الاصوات فيقول الرجل :

ــ طعام الفطور • هل تعلم أن صالح جبر فشل في توقيع المعاهدة ؟
« ــ هل كانت حكاية جيدة ؟
ــ طبعا ، هل نعود الى نقطة البداية مرة ثانية ؟ »

٣ ــ الاقدام

ــ ولكنها بالطبع عودة من طراز جديد •

تظهر الآن من خلف الزجاج • وجهها من العينين الى أعلى مبقع بلون أصفر • ثم نظارة طبية ووجه أسد متأنث (ان هذا مونتاج أو عملية ــ تلصيق ــ اذ ليست هناك امرأة بهذا الشكل ، الوجه المبقع من الأعلى والنظارة الطبية تعودان لفتاة عرفتها في الصيف الماضي أما وجه الأسد المتأنث فلا أعرف من أين جاء) مع زغب أصفر عام وقامة هيفاء طويلة • ثم : النوم معها تجربة حقيقية (قامة هيفاء طويلة : هذا لصديقتي ايلكا ويرجع هذا الاعجاب بالقامة الطويلة الى الوراء حتى يصل الى « كلسر » في كركوك وهي فتاة أيام المراهقة المتأخرة) • مع كل ذلك أيها القارىء توصلنا الى امرأة من طراز خاص ومجرد هذا التوصل أي تواجد المرأة مسؤولية ، أين ستقيم ومن الذي سيحبها ؟

ــ أليست هي سابينا ؟
ــ نعم ولا •

ان الوصول اليها عسير • وعند تحقق ذلك تأخذك الى الفراش مرة واحدة ثم تقرر لك المرتبة التي ستحتلها بين الاتباع الآخرين •

في المقهى تجلس الى المنضدة المستديرة في الزاوية قرب الباب المؤدي الى التواليت ، واذا افترضنا ان الكرسي من خشب البلوط وانه موضوع كالعرش في مكان مرتفع وانها تقرأ في رواية « البطولة = مقاومة التعب » وان دموعها تسيل عند القراءة على فستانها الابيض فان من المنطقي أن الدموع نظرا لغزارتها ستبلغ أقدام الأتباع المحيطين بها على ارتفاعات مختلفة من السلالم • وبين كل حلقة من الاتباع (وهي تمثل رتبة معينة في علاقتهم بها) والحلقة الأخرى فاصل من نبات شبيه بالأمراض الجنسية ذي لون أخضر باهت بتالق داخلي • هنا مع هؤلاء الاتباع أردت لك أن تقف لتشاهد كل شيء بوضوح ، ولكن المسألة دائما هي : الأخلاقية والموقف منها كما قلت لك في البداية •

*

تبكي ، ثم تلقي الرواية وتهبط السلالم ملاطفة الرجال •

اذا في المقهى امرأة تقرأ « مدينة لايبزك مختزلة على حائط قبو مقهى بوركللير بخطوط بنية وتاريخ ١٧٨٤ • أقول للآنسة :

ــ ماذا يفعلون الآن على صفحة الكتاب ؟

ــ يتحدثون عن جنود خرس •

ــ وماذا في هذه اللحظة ؟

– انكشفت بضعة أسرار ·

سقط الجندي في الذكرى القريبة · وكانوا يسقطون في أغلفة الثلج ويجري الدم غير متمالك نفسه على التخثر · تذهب الآنسة · تهبط الى الارض لتتصل بلحم اليد بلا وهم عند المصافحة وتفاجئهم وهم يستمنون ملاحقين بعناد خطوط الصورة الملونة التي يثبتها الفانوس السحري على الجدار (الفتاة والأم بعد أن دخلتا في اللون) ثم يخرجون ليحلموا في الشرفة المطلة على شارع أبي نؤاس متعلقين بأعناق الزجاجات منتظرين أفواه حائط الشرفة لتنفث بقية البخور السحري ، انتهت آخر سيكارة وما زال الظمأ قائما وفي الرأس عشب مبهم يواصل السكينة أمام نسائم الصيف البغدادي · زمن آفل يستقيم على الدقائق، يترصد نفسه والتحول المتواصل من التجسد المادي الى الصيرورة وهما ومن الوهم الى التجسد آملا تحقيق العبور الى الدقيقة التالية متألقا من الحديد والانفجارات في وجوه الجنود · ثم تطلب منهم أن يضاجعوها · سابينا الطيبة ·» في الثياب الفاخرة يثبت الاحترام الذي يتمتع به رواد المقهى · كؤوس

البيرة · ثم كأس كونياك كورڤوازيه ونبدأ التحليق بلا آلام ·

– ان الانسان لم يتدرب بعد على النظر الى جسم ما من كل الجهات ، انه يرى في اتجاه واحد · تصور انني دعوت دكتورا في اقتصاد المعامل تعرفت عليه في متحف الأسلحة بدرسدن لزيارتي ومشاهدة لوحاتي · أردت أن أضاجعه لأجرب التناقض بين مظهره الرياضي وعمله · استقبلته في المحطة · في الترام نظر الي – كان ينظر في الواقع من خلالي – وكأنه يريد أن يضعني في الفراش فورا ، أردت أن أختفي وأخذت أرتعش · في غرفتي قدمت له كوب قهـوة وأحضرت من قبو العمارة لوحاتي ورسومي وبسطتها في أنحاء الغرفة كلها حتى انني ثبت بعضها في السقف ·

نظر الدكتور الى اللوحات بتفهم (كدت أتحول في هذه الاثناء الى شباك أو أشنق نفسي على صليب خال) ثم مضى الى الشباك ، نظر الى الشارع والى المحطة ثم القطارات · سكت · ثم عاد يبحث عن كوب القهوة · غضبت · فرحل الدكتور ·

– من كان يتصور انني سأغادر المدينة في يوم وصولي اليها ، أحمل معطفي هكذا ببساطة وأمضي ·

*

تنتزع سابينا الصورة من الايقونة وتضع بدلها صورة لمهرج سيرك الدولة الجيكي الذي تعرفت عليه قبل اشهر ، ستتحدث الى صورة المهرج هذا المساء ·

تخرج سابينا الى الشارع بعد أن تجيء السيدة تسيمرمان مؤجرتها العائدة من السوق · وتسير في اتجاه محطة الترام الاخيرة · هواة القفز بالمظلات يهبطون من الطائرة فوق ضاحية قريبة · المساء في حي كوهليز ، يعود الشيوخ من جولة يوم الأحد وهم يشنقون باقات الزهور البرية بخطوط دقيقة يمسكونها بين أصابعهم القديمة · سلكت سابينا الشارع المؤدي الى وسط المدينة · وبعد خمس دقائق استدارت الى اليمين وسلكت شارعا فرعيا · المرآة في واجهة صالون الحلاقة · تنظر سابينا فتجد في المرآة وجها آخر يحدق بها · وعند الكنيسة التي ينتهي عندها الشارع شاهدت (ماريو) يقبض على السياج محدقا بنظارته في العبارة المحفورة في الصخر أسفل الصليب الزجاجي الملون الملتصق بواجهة

الكنيسة بأكملها •

ـ ماريو ، بماذا تفكر ؟
ـ في نمط الرجل الذي حفر العبارة •

الشمس عند الغروب حمراء رقيقة معدنية •
ـ أليس جميلا أن أحصل عليها كقبعة •
ـ فكرة جيدة ، الى أين أنت ذاهبة ؟
ـ أتجول ، تعال معي •

الكلمات تبتعد عنها ويمتلكها الهواء •
ـ كيف حالك ؟
ـ ما زلت أخشى أن أصحو يوما فأجد نفسي مشنوقا •

« نظرا الى اللعب الراسية على غطاء المنضدة : الكلب الخشبي ذو العجلات ينظر الى أعلى والارنب الحكيم المحدق بابريق شراب الليمون الساخن والضفدعة التي فقدت شفتها السفلى وتلك الطاحونة التي تهم بالدوران ، والطفلة النائمة بأطراف متشنجة (حالمة بكابوس كالذي تحلم به الام في الغرفة المجاورة مستغيثة بالحبيب الغائب من الاغتصاب المقبل في الغابة بعد ١٥ عاما) وعربات القطار التي خرجت عن السكة وتوقفت على غطاء المنضدة دون أن تتحطم • »
ـ ماريو ، انني أستغرب !
ـ المدهش انني أكذب أحيانا وأروي حكاية اعتزامي الانتحار كل يوم ما لاجمع حولي بعض المستمعين في المقهى • ولكنني لا أكذب باستمرار •

ـ اذا أردت الانتحار فانتحر •
ـ ان تحولك الى الجد قد يدفعني الى تنفيذ اللعبة ، ربما بسبب الخجل •

في الغرفة مرة ثانية تلمست سابينا جسدها فاذا به يتحول دون أن تتوقع ذلك الى عظام ولحم وزوائد ومجموعة سوائل • كانت كفها تتلمس مجاهل الجسد تكتشف زواياه واستداراته • ثم تناولت الطفلة المطاطية • حركت ساقيها وذراعيها • طفلة زرقاء برأس صلد وثقب أسفل الركبة •

*

ـ كان مقررا أن تنتحر سابينا •
ـ لكن يبدو أن ماريو هو الذي سينتحر •
ـ هل أمنحهما الفرصة من جديد في السطور التالية :
ـ ولكنه ربما يريد ماريو أن يكذب مرة اضافية وربما تريد سابينا أن تحدث المهرج هذا المساء مرة ثانية •

ـ أو ربما أجمعهما سوية ، ثم المضاجعة ، ثم الخلافات ثم الهدوء وبعدئذ يقتنعان ألا مخرج الا بأن يفني أحدهما الآخر •

ـ في المرة المقبلة وبأسماء جديدة •

هكذا ألفنا القصة أنا وقارئي الوهمي وكان علي أن أقوم بالجزء القذر من المهمة : أن أكتب •

احمد يونس

النزيف

قلت له ، وهو يجذبني من ذراعي برفق ليجلسني وراء عجلة القيادة ، انني لست على ما يرام • ولا أظنني قادرا على مواجهة الدوامات الضوئية التي تنداح عن واجهات المحال التجارية الضخمة ، لترتطم بالاسفلت فتحدث دويا هائلا ، ولا على تفادي العمارات الشاهقة التي قد تقفز الى عرض الطريق فجأة ، مما يؤدي بالضرورة الى انهيار الطوابق العلوية ، فتختل حركة المرور وتتطاير الأسرة بالنائمين ، وتختلط لافتات الأطباء والمحامين ومكاتب التصدير والاستيراد ببقايا الأطراف البشرية التي تتناثر حول رؤوس المصابيح المعممة الضباب • وقد تدهمني الظلمة دون أن أستطيع اختراق الحصار ، فأفقد السيطرة نهائيا على المحرك • وفي هذه اللحظة ، في هذه اللحظة بالضبط يبدأ نوع جديد من المضايقات ، نوع أكثر سفورا مما يحدث عادة أثناء النهار •• يزحف المتربصون بين صناديق القمامة نحوي ، يزحفون على بطونهم ببطء فترتفع ظهورهم قليلا مع كل خطوة • وينقرون بأصابعهم على الزجاج ، ينقرون بأطراف أصابعهم حتى أجدني عاجزا عن التمييز بين الاصوات • وما أن أفتح النوافذ لاتخلص من الشعور بالاختناق حتى تمتد الايدي لتتحسس وجهي ، وتندس في جيوب سترتي الداخلية وتنتزع صورتي من بطاقة تحقيق الشخصية وتغير اسمي وعنواني ومحل عملي ، وتمتص الدم من عروقي لترسم على عدستي نظارتي جيوشا من الطفيليات المتناهية الصغر وهي تسارع الى جسد مريض بمجرد أن يستسلم للنوم •

حدجني بنظرة مستنكرة ، فأدركت أنني قد تحدثت أكثر مما ينبغي ، وخيل الي أن وجهه قد راح يتضاءل على صفحة الزجاج حتى بدا انعكاسا منفرا لمنطقة التقاطع التي تصل عقدة رباط عنقي بياقة القميص • أغلقت الباب بعنف ، وقبل أن أعبر الشارع الموحل الى الرصيف المقابل سمعت وقع قدميه خلفي يلاحقني أينما ذهبت •

وفي البيت ، طلبت أمي من بائع اللبن أن يحضر زجاجتين كل يوم • وقصت عليه كيف أن صحتي أخذت تتدهور بشكل يدعو الى الانزعاج • وألحت علي زوجتي أن تدفع بنقالتها الى حيث تتجمع النسوة عند قمة الدرج ، وحين رأتني أتوقف لالتقط أنفاسي كلما اجتزت أحد منحنيات السلم وأقتصد في

حركاتي قدر الامكان لأحتفظ بتوازني ، أطلقت زفرة مريرة وقالت هامسة : مسكين ! من كان يصدق أن هذه الكارثة بالذات يمكن أن تحل بأسرتنا التي تتمتع بسمعة طيبة بين الجميع ! كان عاقلا قبل أن يصاب بهذه الخيالات التي تتراءى له أحيانا ، أكثر من ذلك كان ذكيا حقا • وفي الآونة الأخيرة أصبح يعتقد أنهم يتسللون الى غرفته ليلا ليسلطوا على جبهته أشعة تمكنهم من اختلاس النظر الى نفسه ، فيسرقون أسراره ويلوثون أحلامه ، ومن ثم فهو يحاول جاهدا أن ينسى كل ما يريد أن يخيفه ، ونادرا ما يتبادل مع أحدهم أكثر من مجرد الكلمات الضرورية للتعبير عن مدى ما يخالجه من أسف على كل ما يسببه وجوده من متاعب للآخرين • واذا فعل فانه غالبا ما يتحدث عن حوادث الاختفاء الجماعي التي يزعم أنها باتت شائعة هذه الأيام •

سمعت همهمة تشبه الضحكات المحتبسة • فأردت أن أصرخ قائلا : لماذا تتحدثين عن هذه الأمور يا أمي ؟

عاودني الشعور بالاعياء ، وخفت أن يتردد صدى صوتي بين الجدران العارية فيصيبني بالدوار •• من ناحية أخرى بدأت أشك في أنها قد قالت كل ذلك بالفعل •

وقبل نهاية الشارع ببضع خطوات ، استوقفني البقال بصيحة غير ذات معنى • وراح يدفعني من كتفي وهو يقول بغضب : هل تظن أنني أبله يمكن ابتزاز أمواله بسهولة ؟ في كل يوم تبعث الخادمة لتحمل ما تريد من الدكان ، وتدعي أنك غير موجود بالمنزل • لست مجنونا حتى أعطيكم ما تحتاجون من جبن وزيت وصابون لقاء قطرات شحيحة من سائل لزج مشبع بآثار النيكوتين •

جلست على صندوق خشبي مغطى بقطعة من الخيش ، وأعطيت ظهري لباب العمارة حتى لا تراني زوجتي وهي تطل من النافذة لتتأكد من أنني أسير دون أن أعتمد على جدران البيوت المجاورة • كنت أستطيع ان أسوق له كثيرا من الحجج المقنعة التي تجعله يكف عن الحديث بهذه الطريقة لولا أنني خشيت أن تندفع كتل الدم من حلقي مع الكلمات ، فتسيل بغزارة على شفتي وتتهادى على القميص حتى تسقط على الأرض ، فينتهز الشرطي الفرصة ويقودني الى قسم البوليس بتهمة أنني لا أحترم نظافة الشوارع • وما هي الا لحظات حتى تجمع البواب والصيدلي والكناس والحلاق حولي لينضموا الى البقال ، وأخذوا ينحنون وينتصبون ويتمتمون بألفاظ غريبة متداخلة • غالبني التعب فأغمضت عيني ، وقلت لنفسي انهم لن ينتهوا من رقصتهم الا اذا أبديت لهم عدم اكتراث•

ومن جديد لاحظت أنه قد ظل طيـــلة الوقت يرمقني باستغراب مثـــير للاشمئزاز ، فقلت وأنا أستدير لأواصل السير : ما رأيك في أن نختفي وراء سور احدى الخرائب بدلا من أن نقف هكذا على قارعة الطريق ؟ وكل ما حدث ليس أكثر من مجرد سوء تفاهم •• بالأمس قابلت جارك البدين الذي يعد لنا سجائر الحشيش مقابل أكياس النايلون الشفاف التي تحتوي على مسحوق مائل الى الاحمرار ، وأخبرني أنه قد رآك وكنت عائدا الى شقتك ، في يدك سيخ مدبب وحول ذراعيك حبل طويل ملتو ، وراح يراقبك من خلال النافذة وأنت تقيس ارتفاع الغرفة وتحدق في السقف مليا حتى تعثر على رقعة خالية من الشقوق فتسند السلم الخشبي الى الجدار وتصعد ببطء ، وما أن تقف على آخر درجة حتى تثبت الحبل عند ملتقى السقف بأعلى الحائط ، تضع المقعد أمام مرآة الدولاب وتنظر الى ما حولك لتتأكد من أن أحدا لا يراك ، تتعلق بالحبل

وتركل المقعد بقدميك وتظل تتأرجح حتى يفلت الحبل من بين أصابعك فتعيد التجربة مرة أخرى • وقال وهو يبتسم بتحفظ ، انك مقبل على ارتكاب حماقة ، وانه لا بد أن أتدخل في الأمر لأحول دون وقوع كارثة •• انتظرت طويلا على محطة الآتوبيس وحين وصل تركته يمضي • كانت قطرات الدم ما تزال تندفع من أصابع قدمي لتتجمع عند مقدمة الحذاء ، وتهبط من أسفل عنقي لتتفرق على صدري • رحت أفك أزرار القميص بحثا عن مكان الجرح ، واستطعت أن أميز كثيرا من البقع الداكنة ، لكنني عجزت عن معرفة موطن الألم ، كان ينساب بطيئا محرقا من أعلى الى أسفل • سرت على مهل ، كما لو كنت أضيع الوقت لأصل متأخرا • وقلت لنفسي انك لو كنت مكاني لتصرفت بالطريقة نفسها ، وظللت أردد هذه العبارة بشكل مسموع حتى مللت صوتي وأصابني الضيق من رتابة حركة شفتي •

كانت أمي ما تزال تحملق من شباك المطبخ ، لتتسلى بمنظر القطط وهي تتجمع حول أكوام النفاية حين عبرت الصالة متجها الى حجرة الخزين ، فكرت في أن أقول لها انني مصمم على قضاء الليل خارج البيت ، لكنني خشيت أن تشق ثوبها وتلطم وجنتيها وتصيح : ألا يكفيك ما فعلت ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ كان ينبغي عليك أن تشنق نفسك • ألا يكفيك أنك قد تسببت في موت أبيك وفي اصابتي بالشلل ؟ قلت لنفسي انها لو فعلت ذلك لاضطرتني الى أن أصارحها بالحقيقة • راودتني رغبة ملحة في أن أقول لها ان اصابتها بالشلل لم تحدث تغييرا جذريا على حياتها وهي التي كانت تمضي الساعات الطوال جالسة على مقعد من نوع آخر مختلف قليلا ، شـــاردة العينين لا تكاد تنطق بكلمة ، أما أبي فلقد مات لأنه وجد أن هذه هي أفضل وسيلة لمعاقبتي ، وظل ثلاثة أيام كاملة يلفظ آخر أنفاسه ليرغمني على الاعتراف بأننا ننتمي الى سلالة عريقة تمتاز بسواد الشعر والعينين واستدارة مؤخرة الجمجمة •

وقبل أن أصل الى نهاية الدهليز أمسكت زوجتي بيدي ، وهي تقدم الي كوب اللبن الساخن وتوسلت الي أن أشتري من الصيدلية مجموعة من المقويات• وحين عدت أفتح الباب لأخرج قالت ان رجلا يضع نظارة غامقة على عينيه قد سأل عني • وأخذت ترقبني وأنا أهبط السلم • شريط رفيع من الدم يزايل يدي اليمنى التي تنزلق على الدرابزين فتصدر فحيحا متقطعا ، وقطرات صغيرة حمراء تتناثر على الدرجات المتآكلة وتتبعني الى أن أصبح قريبا من باب الشارع •

أدهشني أن يظل واقفا بجانبي فقلت على سبيل قتل الوقت : لا داعي للقلق ، فالشحوب الذي يبدو على ملامحي هذه الأيام أمر طبيعي ومنطقي الى أبعد الحدود وكان من الممكن أن يحدث لك لولا أنك لا تقرأ الصحف بعناية ولا تحاول أن تصل الى حل مسابقات الكلمات المتقاطعة • ولو أنك تنتظر مثلي حتى يهبط الليل ، وتزحف بين تجاويف الحواري المظلمـــة ، وتمعن النظر في كل من يصافحك ، لو أنك فعلت كل ذلك لاستطعت أن تدرك أن كثيرا من العيون قد بدأت تكتسب هذه الصفرة الداكنة ، ولأصبح في مقدورك أن تتابع الفقاعات البنفسجية التي تحوم حول أسطح المنازل وتصطدم بأسنان البوابات السوداء فتنفجر أشلاء متطايرة مغطاة بآثار الدم المتجمد •

وفي المصلحة ، أخبرني الساعي وأنا أتشبث بمقبض الباب لاحتفـــظ بتوازني ، أن المدير قد أرسل في طلبي • رحت أحك المشاة بقدمي وأضم السترة الى صدري لكيلا يلحظ بقع الدم التي قد تظهر على القميص وتتسرب من مقدمة الحذاء فتلوث السجادة الفاخرة • سألني عما اذا كنت أتعاطى نوعا من المخدرات،

فقلت له انهم يستطيعون أن يصلوا الى غرفة نومه ويتناثرون حول سريره وقد وضعوا على أعينهم نظارات سميكة غامقة ، واكتست أنوفهم بحبيبات دقيقة من النمش ، فيحملونه الى حيث يريدون ويغرسون الابر في فخذيه ، ويحرقون شعر ابطيه حتى تفوح رائحة الجلد الميت ٠ أذهلني أن يظل صامتا حتى أنتهي من حديثي فظننت أنه لم يسمعني ، غير أني عدت فرجحت أنني لم أفتح فمي ٠

كنا قد وصلنا الى ناصية الشارع لنحتمي تحت احدى المظلات الحجرية من المطر الذي أخذ ينهمر بشدة ٠ موجات متلاحقة من الاطفال يبسطون راحاتهم وينظرون الى السماء بفرح أبله ، توقفت برهة وقلت : تعرف طبعا أنني لست مجنونا ، وبالرغم من ذلك فانك لا تقلدني مع أنك تشبهني كثيرا ٠ أليس كذلك ؟ ألست تشبهني كثيرا ؟ اكتشفت ذلك من كثرة ما رأيتك وأنت تتسلل خفية الى شقتك ٠ وكنت أتابعك من خلال النافذة وأنت تنظر الي لتطمئن الى أنني لا أراقبك ، تقيس ارتفاع الغرفة وتحدق في السقف مليا حتى تعثر على رقعة خالية من الشقوق ، فتسند السلم الخشبي الى الجدار وتصعد ببطء وما أن تقف على آخر درجة حتى تثبت الحبل عند ملتقى السقف بأعلى الحائط ، تضع المقعد أمام مرآة الدولاب ، تتعلق بالحبل وتركل المقعد بقدميك وتظل تتأرجح حتى يفلت من بين أصابعك فتعيد التجربة من جديد ٠٠ وتمنيت أن أقلدك ، كنت أقول لنفسي ان الأمر يحتاج الى كثير من البراعة ، ومن المؤكد أنك كنت تتحدث عني لنفسك بطريقة مشابهة ٠٠ تعرف أيضا أنني لست موهوما ، كل ما هناك أنني أفتح عيني مع صباح كل يوم على مفاجأة مذهلة حقا ، أجد أن بقع الدم الداكنة قد تناثرت على الوسادة وغطت حافتي السرير ، فأدرك أنني ما زلت على قيد الحياة ، وعندئذ يتملكني السأم وأتأهب لأعيش بمنتهى التأني ، مذبحة اليوم ، وغدا ، وبعد غد ، و ٠٠٠

في المساء ذهبت مع زوجتي الى السينما وشاهدنا فيلما طريفا ٠ كان المتفرجون يقهقهون على نحو مقزز ، بينما أخذت زوجتي تنظر الي من حين لآخر لتدفعني الى الضحك ٠ نجار عجوز يصر على أن يصنع لنفسه تابوتا من خشب الورد ، ويتحين الفرص ليتأكد من أنه يناسب حجمه وشيئا فشيئا أصبح يفضل البقاء داخل التابوت وأعلن أنه لن ينام على الفراش بعد اليوم ، وراح يمضي الليل داخل الصندوق ٠ وكان أبناؤه ينتظرون كل صباح أن يخرج عليهم ممتقع اللون ٠ ومع الوقت بدأ يقلل من الظهور ولم يكن يغادر التابوت الا لماما ٠ كان يردد دائما أن الحياة في صندوق مغلق تشعر المرء بأنه في مأمن من الموت، خاصة اذا كان من خشب الورد ، وما دام الموت ينتظرنا عند نهاية الطريق ، فلماذا لا نموت منذ الآن على أن يحدث ذلك طبعا بالتدريج وعلى أضيق نطاق ٠ وبمرور الزمن أصبح يظن أن الغرفة لا تختلف كثيرا عن التابوت ، وكذلك الشقة ، وحتى اذا استطاع أن يعود نفسه على النوم في العراء فانه لن يلبث أن يشعر بأنه داخل تابوت مقسم الى شوارع وميادين ٠

همست في أذن من يجلس الى جواري قائلا : يبدو أنك من النوع الذي يفضل مشاهدة الجزء الأول من الرواية ويرفض متابعة بقية الأحداث ٠ وهؤلاء عادة يحرصون على أن يموتوا دفعة واحدة ٠ ظل مسندا رأسه الى يده ، فحسبت أنه قد مات ، وعدت لأراقب وجه النجار وهو يطلب من أبنائه أن يغلقوا التابوت ويخبروا الجميع بنبأ موته ٠

قلت لزوجتي وأنا أبذل جهدا لكيلا تلحظ أنني ألهث من جراء صعود السلم بسرعة ، أننا كنا نستطيع أن نغادر السينما قبل انتهاء الرواية ٠ لا يحتاج المرء

الى كثير من الذكاء ليعرف أن النهاية في مثل هذه الحالات واحدة دائما •

كان قد بدأ يبتسم مما شجعني على أن أقول : لماذا لا نشرب معا قدحين من البيرة ؟

أشاح بوجهه ممتعضا فاستدركت قائلا : حسن ، نستطيع أن نجلس على أحد المقاهي شريطة أن تتأكد من أن الجرسون وماسح الأحذية وبائع الصحف ليسوا من المترددين على الحفلات التنكرية •

أغلقت باب الغرفة بالمفتاح وأطفأت النور ، كدت أسـقط على الأرض فاستندت الى ظهر السرير وتمالكت نفسي وأنـا أثني ركبتي لأستلقي على الفراش •

وفي الحلم رأيتني أهرب من البيت وأهبط السلم بسرعة • برودة البلاط تلسع قدميّ ، وملمس الدرابزين ناعم تحت يدي • رحت أتسلق المواسير حتى تسلخت أصابعي وبدأت قطرات الدم تندفع لزجة على واجهة المنزل الجيرية • وما أن وصلت الى نافذة غرفة أمي حتى رأيتها تسير على قدميها وقد التف حولها كل من البقال والصيدلي والحلاق والكناس ، وكانوا جميعا ينحنون وينتصبون ويتمتمون بألفاظ غريبة متداخلة • على الفراش كان أبي ممددا داخل معطفه ، يلفظ آخر أنفاسه • انزلقت يدي فهويت على الأرض وشعرت بأنني أغرق في بحيرة الدم التي أخذت ترتفع حولي •

أفقت لأجدني عاريا ، فحاولت أن أتذكر السبب الذي جعلني أخلع ملابسي ، ولاحظت أن جاري البدين قد راح يراقبني من خلال النافذة ، فنهضت وعبرت الدهليز الطويل ، وخيل الي وأنا أتلمس طريقي بين قطع الأثاث العتيقة أن أطرافي قد تخشبت • حلقي جاف متشقق وعروقي متصلبة •

وعلى الضوء المنبعث من الثلاجة استطعت أن أميز زجاجات الماء الممتلئة • رأيتها وقد اكتست بحمرة قاتمة وشممت رائحـة اللحـم النيىء ، فعدت الى الفراش دون أن أشرب قطرة واحدة •

تمددت دون حراك ، وشعرت أنني نائم داخل تابوت ، شعرت بذلك حين خيل اليّ أن الجدران راحت تقترب وتبتعد مصاحبة في ذلك حركة تنفسي ، تركت ذراعي تتدليان من حافة السرير وقدميّ تطلان من نهايته لكيلا تلوث قطرات الدم الملاءة البيضاء • قاومت العودة الى النوم حتى لا تتجمع حولـي الطفيليات المتناهية الصغر ، وانتهى الأمر بأن استسلمت •

بحثت عنه ، لكنه كان قد اختفى وسط الزحام ، فأسرعت لالحق به قبل أن يقع في أيديهم • كنت ما أزال أشعر بالاعياء ، عاودني الدوار فسقطت على الأرض الرطبة ، وزحفت حتى أتجنب أقدام المارة • قلت لنفسي : لماذا يريدون أن يدوسوا على جسدي ، لن يلبثوا أن يطأوا بأحذيتهم وجهي ، هؤلاء الذين لا يتورعون عن الضحك على رجل يموت بالتدريج ، وعلى أضيق نطاق • كانت قطرات الدم تتجمع عند زوايا فمي ، وتنساب على شفتيّ لزجة ساخنة ، تندفع من أنفي ومن أطراف أصابعي لتختلط بالوحل ، وكنت أتلـذذ بدقة الألم المتقطعة • نهضت بصعوبة بالغة تاركا مكاني بقعة داكنة بحجم جسمي كأنها ظلي ، وانتظرت تحت المظلة الحجرية ريثما ينقطع المطر •

محمد ابراهيم مبروك

جحيم أبد الرحم

« سيقال يوما ما ، يوما مذبوحا كالعادة ، حدث ان استعر سؤال في شفتي طفل • وكان كصوت الصدق القديم • وتحررت الطيور فاندفعت آمنة فرحة بالانطلاق ، والفوهات كانت متربصة ، تنتظر بالاصابة صوت الأجنحة الفرحة الغازية بالشوق قلب المذبحة ، وازاء القلب تماما ، ثقب الصدر حارقا دائرة ضيقة من الزغب الفرح ينبوع دم منبثق • وأخذت الاجنحة تنتفض بقوة ، والعينان اللتان أخذتا غدرا وهما تحدقان في سماء صدق أخذ يموت • ويأتي الحزن كالغرق فيهز الطائر رأسه دون تصديق لما يقع • ثم تتراخى الأجنحة سائبة بلا رفيف ، مسلمة نفسها للسقوط • ويظل وجه الطفل مدارا بالدهشة وفمه الفاغر محشو بجثة صمت ميت • وسوف تظل الكلمات تذبح كالأيام أيضا •

فيا قدرنا القادم بدون خطى : ستقام المذبحة ، إنا نعرف ، لكن ما لن يحدث أبدا ، حتى لو أغلقت أفواهنا رغما عنا ان نغمض عيوننا • وسنزوي في عتمة الاركان المقبورة ، وندفن ، لكن على ظهورنا ، لتظـل وجوهنا مدارة بفجوتينا السوداوين اللتين ستظلان شاهدا لا يمل إدانة العبث ! »

*

وقعنا (   ) * مواجهة الأشياء المنتصبة في برود • وعواصف النار التي تجتاحنا حتى تلاشينا عواصف ألوان حولها • وقوف وسطها ومفاصلنا سائبة • والظهور المنتصبة تلقت الضربة ولم تجرؤ ان تحفظ بانتصابها لحظة ان سقطت • لم تملك ان تحملق فيها ولو للحظة • فلحظة جاءت وراء حدتها المندفعة بكل ثقلها حارقة استمرار الفقرات ، انقصمت ظهورنا • وانطوينـــا ساقطين بنصفنا العلوي تجاه نصفنا السفلي ، طاوين شروعنا في أن نظل وسط هذا العالم ، نتجول وعيوننا تبرق في الطرقات : متطلعين الى الأمـــام ببريق متصل ، والى أعلى ببريق الفرح الشاسع ، حيث الغموض الأزرق يشدّ هاماتنا دوما ، جاعلا أقدامنا لا تكف عن الحركة والدبيب ومواصلة الخطو ، يُلهب أعناق أشواقنا بالرغبة في أن نغزو الأشياء كلها : رحم الأرض ، مصير الأمواج المبحرة،

---

* (   ) مساحات صمت تتخلل الكلمات • وهي ليست فاصلا ، بل امتلاء غير مرئي بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها •

قمم التحدي الشاهقة ، متاهة الاصغاء ل (   ) استحالة الله • لكنا صحونا من الوهم لنسقط في (   ) وأسره لنا • ومحاولة ملاحقة الأيدي القادمة وأرجلها تخوض في الهواء :

ــ **شد حيلك •**

يظنون أن ذلك يعزينا ، وأيديهم تمتد تشد نفسها حول يدي •
ــ البقية في حياتك •
هراء • بعد أن نموت لا يتبقى من عمرنا شيء •
ــ كل من عليها فان •
يا ببغاوات تتغنى بهزيمتها •
ــ هو الدائم •
عبث • فسواء ظل أم مات هو الآخر فالأمر لم يعد يخصنا•
ــ هو الدائم •
نحن نموت •
ــ هو الدائم •
يا للاصرار الاحمق •
ــ هو الدائم •

وخفت أن اسوطهم بغيظي فأخذت أهز رأسي وفي داخلي يذبحني السؤال : ما جدوى أن يكون هو الدائم ؟

ونفدت الأيدي فانتهى تبادل كل ما هو متعارف عليه وميت • كلمات قديمة في جفاف السمك المقدد لا تجد سواها عندما يحاولون أن يعطوك ، ولن تجد سواها عندما تحاول أن تعطي • لعبة مفضوحة لكننا لا نملك غيرها • ننسى ساعتها للضرورة ونتبادلها • وعندما تنتهي الضرورة وينفض الناس تنزوي الكلمات في الاركان • وحين نسمع بضرورة جديدة نجري اليها ونحملها ، ونبذل جهدا يائسا في جعلها حية • ننطقها وملامحنا صامتة • ولا يدري أحد شيئا عما في صمت الملامح •

مضوا • واكتشفت ، وأنا أرقب ظهورهم ، العالم الذي استحال الى فظاعة تمارس • وهي لا تمارس بعيدة عنا ، لكنها تدفعنا رغما عنا من داخلنا لاعداد كل ما يلزم للموافقة على ما يحدث • لا أحد مات وأصر العالم على الاحتجاج . كلنا نموت فنهرع في بسالة لنحفر قبورنا ونشتري لأنفسنا الكفن بسعر مرتفع، ونصيب البرق بالسعار أو نعلنها في الصحف ، أو نذهب سيرا على الاقدام . ندعو كل من نحب وكل من نكره ، نجمعهم من الطرقات وأمكنة العمل ، ومن البلاد البعيدة لتكون الجنازة أكثر ضخامة ومهابة • وكلما كانت مراسيم الدفن كاملة وممارسة بأحكام ، ازداد زهونا ، وأحسسنا بأننا أدينا واجب تأليه قاتلنا، والاحتفال بتأليهه وسط الميادين التي تفيض من أجله بالكائنات البشرية • والضحية في المقدمة مستلقية في الصمت ومغطاة بالملاءات الواسعة المعتمة الثقيلة التي تنسدل في جلال فاجر واستسلام قدري للقاتل تحيط به الضحية ، وجثثنا تملأ الميدان والطرقات المؤدية له ، والشرفات وأعالي البيوت مكتظة بهم ، ليست كائنات بشرية حية أبدا تحت هذه اللحظات انها ليست سوى جثث ضحايا آتية • مستقبلها محاصر في الرأس الذي تراه شاخصا في الجثث قبل أن تستحيل الى جثث • لو نظروا فجأة نحو أبدانهم المتحركة وراءه لرأوا نقاط الدم الشاحبة المرشوشة بغزارة تكاد تغطينا بأكملنا ، والدماء الحية في قلوبنا

رتجف وتنتفض بالذعر وتكاد ترفض أن تخرج للاطراف وسطح الجلد • ونمضي بلا دماء •حاملين في أبداننا الجليدية انتظارنا لطعنة القاتل المؤلّة •

أغمضت عيني علني أستريح للحظة من مواجهة البشاعة • لكن الانسان لا يستطيع الاستمرار في ذلك فتركتهما كما كانتا مفتوحتين بشدة تؤلمني • وبرغم ذلك لم تعودا تريان كما كانتا من زمن بعيد • ثمة ما يضرب بين الأشياء . يفصلها ، يجعلها مختنقة بغلاف موغل في العتمة • لم يعد ثمة وضوح راسخ ، حتى حوائط ما نحتمي به ليست سوى امتداد في الهواء وتحت الارض الى مدى قصير • وفي لحظة ما ، طارئة وغير معقولة ، مع أنها ليست أيضا غير محتملة ، تجيء فتغلف العالم بعاصفة من الغموض ، ثم تنحني وتقتلع بسهولة تحت خفاء الغموض كل ما يقع تحتها : الناس ، حوائط الاحتماء ، الأشجار ، بالسهولة نفسها غير المعقولة التي تفقد بها انسانا كان • وتتكلم عنه الآن •

يا ناري •

أطلقتها خلفه • ثم انطلقت خلفها (   ) أبدا ليس من السهل أن ترى كل شيء يقتلع وتظل أنت ثابتا لا تقتلع • حتى لو ظللت متوجا في مكانك • فأنت لن تعود تحس بأنه مكانك • انه ساكن • ليس تحتك • أنت الذي تتوهم انك راسخ فوقه • هو مغطى به لا يعبأ بك • فأنت لا تدخل فيه • وهو لا يمكن أن يسقط في أسرك • بل انه يصفعك بأبشع صفعة يمكن أن تهينك في العالم . انه ليس مكانك ، أقدام كثيرة لها رسوخ الأعمدة الحجرية ماتت وسقطت حيث تقف • وأنت نفسك لو استطعت أن تظل ترى ، سترى الذين سوف يمرون ويسقطون بعدك • مرور وحسب للسقوط فيه • أو على الأكثر مرور للسقوط في مكان آخر • وطئك للأرض لا يعني أنها أرضك • بل حتى لو احطتها بأسوار من الاسلاك الشائكة المكهربة فانها كذلك لا يمكن أن تخضع لك • تستطيع أن تتصور انك سيدها لانك تسوطها كل يوم • وتغتصبها بالمحراث وتجبرها على الحمل بأن تغرس فيها البذور ، ولكنك لا تملك أن تمنع نفسك من السقوط وأنت تقف وسطها فجأة ودون أن تستطيع الاستناد الى أي أحد بل أي شيء • وعندما تسقط وتسكن ستفقد القدرة على أن تعي فقدك • وتهش الغربان لك • وتنهدى للدود في الخفاء • وتظل سوقهم تشرع في النمو والانتصاب دون أن يدركوا أنهم زرعوا بلا جذور • وانهم لا يستطيعون أن يظلوا • وانهم حتمـــا سيسقطون وبين أقدامهم خطوة لم تقطع بكاملها أبدا •

آه •

انصبت بها النار بجنون طاغ يجعلها تأتي مجتاحة بالحريق كل ما تمضي عبره • لم تشتعل أبدا كما اشتعلت في الداخل لحظتها • آه لها وجهه وذراعاه وصدره وساقاه • تلم ملامحها وتتعذب مغلقة عينيها وتنفجر : « يا أماه » فأسمعها تحترق : « يا ناري » •

وتندفع المخالب تحتضن النار ناهشة أثداءها من فوق الصدر غائصة في جراح اللحم المحترق بالداخل ، متراجعة للخلف ، مقعية على الأرض ، متمرغة به ، والاصوات لم تعد أصواتا ، بل ثقيلة وقاسية كالأيدي • تمتد من افواههم المثقوبة ، وتمسك بها من كتفيها وينقطع الصراخ في وجـه دائـرة الايـدي • والرؤوس العديدة لا بد انها لا تسمع صوته • وحدها تسمعه • ودائرة الايدي تصرخ في لحمها فيختنق صوته • ومخالبها ترتعش ولا تترك اثرا في وجوههم • كانوا يملكون جلدا كحيوانات فقدت حسها فاستبدلت به جلـدا ميتـا • ومن

فوق دائرة الايدي يعبر الصوت ويسقط في حجرها : « يا أماه » وتحتضنه : « يا ناري » • يا ناري (   ) لا جدوى • لا الاغماض ولا الصمت (   ) نتراجع ؟ نحن لا نملك • حوائطنا ملتصقة بخطانا • سجوننا تتحرك (   ) لا مفر • يا (   ) ابدا ! كنا نأمل في جحيم أقل • لو من الممكن ان يكون جحيما أقل • هذه الأيام الطويلة من (   ) آه • من الجحيم ، تتساقط • وحسبما قال كثيرون ظننت اننا سوف نعود للنوم • فنسقط فيه وتظلم الدنيا • نصحو ونعرف من ابيضاض الحوائط واصوات الباعة أننا غرقنا في النسيان خمس او ست ساعات • واننا لا بد من ان نكون قد استرحنا • وان تكرار ذلك لعدة مرات سوف يعودنا النسيان ، وان الزمن دواء كل من لا دواء له ، لكن ذلك لم يحدث • وضعت لها حبة في كوب الماء وابتلعت انا حبة اخرى • وأطفأت نور غرفتها واغلقت عليها الباب ومضيت الى سريري • أشعلت السيجار وحاولت ان أتأمله وانا ادخن متشبثا بالسحابات الرمادية التي تندفع بقوة وتتصاعد لتتسع وتشحب شيئا فشيئا حتى التلاشي • لكنها حتى في التلاشي لا تغادرنا • انها تحلق على الجدران وتحت السقف ، وتظل مع الاحتراق تهبط نحونا • تطبق شيئا فشيئا على تنفسنا ، وعاد وجهه يتعذب فسمرت ناظري ثانية بلفافة الدخان أتأمل غلافها هذه المرة بكل ما أملكه من قدرة على التركيز حتى لا يفلت مني تفكيري • لكن عيني زحفتا حتى الطرف الملتهب فعاد وجهه يتعذب وعدت ارتعد • قمت وسحقت الطرف الملتهب في قاع المطفأة لكني لم أكف عن الارتعاد •

كانت الغرفة معبأة بالدخان والموت • فكرت : للغرفة نوافذ • فتحتها فجعل الدخان يتسرب ، لكن الموت لم يتسرب ، فعدت اختنق بالادراك : ليس لعالمنا نوافذ • عرفنا ذلك منذ وقعنا خلف الانتظار • منتظرين ان يرتفع • وما وراءه يتخفى به • مغلق الفم في رحم الصمت المجهول الملامح • لكنه كان سيأتي • وان كنا نتأرجح بين هوى الخوف وضفاف الرجاء ، الا انه كان سيأتي ، ولم نكن نعرفه ، الا اننا كنا ننتظره • كان اليأس والأمل يرفرفان معا في انتظار مجيء الاتيان فالانتظار سميك الحوائط ، راسخ كعظام ضلوعنا التي أطبقت بها على رئاتنا الخربة • والرغبة تنسحب مضغوطة تشد نفسها من شق شديد الضيق عليها ، لاتني تدور في مكانها ، متمردة على الوقوف ضائقة بالأسر بين حوائط الانتظار الصلبة اللامبالية • حوائط فقدت الاحساس بما في داخلها ، تراها قابضة وحسب لا تتسع ولا تسحق ، وما يرتفع ويصخب باللهب ليس سوى داخلنا ، والرغبة تبدو مسعورة لاهثة ، والضيق : المتنفس الوحيدمسدود النوافذ حول الذين تختنق عيونهم بالظلمة وتستجدي ما بين النوافذ المسدود بالطين وما بين الحوائط ان يتسع أن يضيء • ترى منه ما سوف يجيء • وأيدينا مطرقة نحو الارض ، تصغي للصمت • ثم تسعى كل منهما ملتصقة بالاخرى عل ذلك يوقف هذيان الرعشة الخائفة ، لكن لا جدوى • فكل منهما كانت وهي محتمية بالأخرى وغائصة في لحمها ترتعش وحدها • كما لو كان الذعر في الداخل لا يأبه بكل ما هو خارجه • طاغية لا يكف عن طغيانه الا اذا كف هو عن ان يطغى • وحين شق الظلمة تقاطع الاضواء ، اجتاح الذعر كل أرجائها فكففنا عن التنفس ، وكم رغبنا ان نكف عن الارتجاف حتى يمكننا ان نرى وجه ما بدأ يأتـــي :

سحبونا من ايدينا التي اسلمت نفسها لهم • وظللنا نجتاز ، كما لو كان ذلك لدهر باكمله ، ممرا ، مظلما ، مسدودا بباب غرفة موصد • وقفنا حيال

الباب الموصد • هي الغرفة ، لا شك • رأيتها مطفأة الانوار فانطفأ من كل الوجود • وتساندت اسناني مذعورة بعضها من البعض الآخر وسط عاصفة باردة من الخوف •

وانفتح الصمت عن شيء ملقى ، سلط عليه فور دخولنا مصباح حارق • استبد الصمت ثانية ويد تنتقل من فوق كتفي لتحلق فوق الشيء الملقى وتظل محلقة فوقه • والاصبع يحني عنقه الطويل ويسير محدقا فيها كلها : جثة • ويتنقل : جثة الرأس ، جثة اليدين ، جثة الذراعين • جثة البطن جثة الساقين• ثم يدور حولها كلها : جثة الجثة • اليس ؟ لكنه ليس في مكان آخر • ليس خلف الجدران ولا النوافذ ولا الابواب • وليس في البيت الآن • وليس عندها ، وليس بين اصدقائه ، وليس في الطرقات ، وليس في احدى المركبات ، وليس في حجرته ، وليس في الغرفة ، وليس في الجثة •

ــ لا •• ليس •

ــ انه هو •

ــ لا • ليس هو •

ــ اقسم يا سيدي انه هو •

ــ اقسم انه ليس هو •

ــ لكنه هو يا سيدي • وهذه هي بطاقته • انظر •

وفتحها • وتمنيت أن تنقض علي صاعقة وأن أذهب أنا مقابل ألا يكون •

ــ اليس هذا اسمه يا سيدي وهذا اسمك ؟ وهذا اسم الام ؟

ــ لكنه ليس هو •

ــ لكنها بطاقته •

ــ لتذهب البطاقة الى جهنم •

ــ تحمل يا سيدي •

ما طاقة الانسان حتى يتحمل هذا ؟ أنا أعرفه • لو وقف أمامي الآن خلف شارع مكتظ حتى نهايته بالناس فسوف ارفع رأسي وأراه واشير اليه •

ــ اقتنعت يا سيدي ؟

تأملته بغيظ وهو يريدني ان أقتنع وأخذت ابحث فيها عنه : امسكت بجثة اليد • لا • رأيته فجأة وهو يحط على غفلة فوقه صامتا محدقا • لم يسبق ان رأيته • كل ليل العالم على جانبي منقاره الاسود الذي يغمغم بانه انتقل الى ملكيته • افتح فمك • ارجوك • حرك شفتيك • لا جدوى فالمنقار لا يرتفع • والليل على جانبي منقاره يهطل • يغمر كل ما تنفتح عليه عيناي • ويظل يغرقنا، ولا يتوقف عن اغراق جدراننا الراكعة ، الساجدة ، الملغاة ، يزيح بقاياها ويحط هو • ارفع رأسك ولو مرة واحدة • الا ترفع رأسك ؟ لا تستطيع الآن ؟ ولا غدا، ولا بعد غد ؟ يا (   )لو تحرك اصبعك ! حركة ، وسوف يطير هذا منها • لكنه أخذ يحدق في ببرود قاتل من فوق الجثة حيث حط • أدرت وجهي بعيدا عنه وأغمضت عيني • قيودك تكبلني • زنزانة الصخر حولي : صمتك •

سقطت جثتا اليدين من يدي • سحبتهما محمومتين • من على الجبهة الثلجية • وتحتها عينان لا تسمعان • ساكنتان بلا رؤية تحت الجفون المطبقة • مددت يدي معا على جانبي جثة الوجه • وبكل من ابهامي ازحت جفنيه معا الى أعلى • اجتاحني الحريق الثلجي للنظرة فجمد ابهامي على جانبي رأسه ، وأغلقت عينيه ثانية بذعر • كانت النظرة تنبع من هناك ، من خلفنا ، من كل ما وراءه

خلف ، حتى كل ما لا خلف له ، الخلف الأخير الشاسع الذي لا يكف • يتركنا لنأتي بهم ، فننحني بعمرنا ونضعه تحت سيقانهم الطفلة • وكلما نزفنا عمرنا استطالوا . وكلما أخذنا في الانكاش على العظم وتساقط الشعر من فوق جماجمنا ازدهر الشعر فوق جباههم ، وكلما متنا ، يحيون • تركنا لنقوم بالصفقة كما اتفقنا ، وكما اتفق كل الناس • أن نقبل الصفقة بدلا من • موافق ؟ موافق • لم أجد بدلا من غير ذلك • هات • رحت وأعطيتهم كل ما أملكه وجئت بها • كنت قد حدقت في وجهها ورأيتها من خلال رغبتي أرضا مناسبة ، لم تكن مناسبة تماما • لكنها كانت مناسبة • كنت أعرف انني اذا ظللت أبحث عن المناسبة تماما لن أجدها أبدا • ليس ثمة علاقة « تماما » بين الأرض والبذور • أقصد علاقة سابقة • فالعلاقة لا توجد قبل العلاقة • انها توجد وهي توجد وقد وجدت بيننا منذ زمن بعيد • وضعناه • خرج وقال لن أتأخر • وقلت لها انني سآتيها به ، وها أنا سأدخل وعلى وجهي غراب الاصوات • وستدير رأسها لتراه هو حسبما اتفقنا فتفاجأ بالليل الذي يهطل على جانبي منقاره • وعندما ستصرخ من الرعب ولا تستطيع عيناها أن تغادراه ، سيزعق فيها ، سيشلها بكل ما يطلقه عليها من غربان وستطرحها الزعقة منكفئة على وجهها وسيظل يزعق على مؤخرة رأسها يحدق فيها من الخلف كما لو كان يواجهها وأشد قسوة • كيف سأنقذها يا (   ) وقعنا (   ) انفتح كل ما هو خلفنا وصرخ غراب الأصوات وهوينا • ليس ثمة انقاذ • ماذا سأقول لها ؟ يجب ألا تصرخ • أعرف انها ستتنكر • أنا معها • الجثة ليست هو • لم نفقد كل عمرنا كي نتركه لنا في العالم فيرده العالم لنا وما زلنا أحياء ، جثة • أعرف • أعرف • أعرف • وحنيت رأسي حتى جاءت العربة •

فتح الباب فجوبهت بها وسطهم ، موجة السواد المنحنية نحونا • ليست ثمة وجوه فوق الملابس • ليس سوى كتل حمراء من اللحم الغارق في النحيب • وصعدت أيدي الرجال وأصابعهم ملتوية في جوف العربة • ثم هبطت بالقماش المتلىء الممدد الطويل • « يا ناري • يا ناري • يا ناري » •

أمسكوا بها وأصابعهم ككلابات في جسدها الذي لا يتعدى حجم طفلة مسلولة تعض فى كل مكان من جسدها كلابة • وشعرها القصير سقط من فوقه الغطاء فبدا واقفا كله يواجه الفظاعة التي اجتاحته وأحرقت غطاءه ، عيناها تبرزان لتطلا على (   ) يا للموت ! لم تكن تتأمل وجها واحدا ، كانت دوما تحدق فوق رؤوسهم ثم تنقض بكل الكلابات في جسدها وتشرع يديها معا فوق رؤوسهم وأصابعها تنفرد بكل اتساعها • ويكاد جسدها يندفع طائرا كورقة تحترق ثم فجأة تنثني الأصابع كلها متشبثة بباطن اليد ثم تنفرد بقسوة لمرات عديدة بجنون يائس لتنتزعا من السماوات الفارغة شيئا لا يوجد • ثم تدير رأسها الى ناحية ما وتسكن سكونا مذهلا وعيناها ناحية اصغائها وما تزال يداها مرفوعتين رغم الأيدي العديدة التي تحاول أن تثنيهما عما تريدانه • وفجأة تصرخ في كل الوجوه دفعة واحدة ومؤخرتها المتلاشية تتراجع للخلف ، وساقاها العظمتان تتصلبان ممتدتين على الارض وهي تنحني بالصرخة وعيناها الحمراوان تحترقان في الذهول ثم تنكفىء حتى يصطدم وجهها بالارض وتحدق في الـ (   ) : « يا ناري ، يا ناري ، يا ناري » •

لبثت مديرا رأسي للحائط ووجهي مغطى • والمصباح خلفي وخلف الغطاء مضاء • وكنت أوشك على فقدان الصحو ، والسقوط في الذهول والظلمة • وسمعت الجدار يهتز فصعدت للصحو ثانية • سمعته يهتز للمرة الثانية بعنف ، فرفعت الغطاء عن وجهي بسرعة وحدقت فيه وأخذت أصغي • امتد صمت طويل

سمعت بعده الجدار ينتحب نحيبا ممدودا فينفلت بصعوبة قاسية ، ويصعد عجوزا نحيلا لها • كففت عن الاصغاء فتأكدت أنها هي التي تنتحب في الليل • لا بد أنه يتعذب امامها الآن • وعلا صوتها فصعد أمام وجهي يعاني عذاب أن يموت وشفتاه جافتان محترقتان • ونداءه الذي لم يصل الينا ولم نسمعه ولم يجبه عليه أحد • وغص حلقي وأحسست برأسي يأخذ في الاشتعال • خفت أن استسلم للنحيب فقمت من الفراش وسعلت بحيث تسمع هي ، وسكت الجدار • وضعت قدمي في النعل ومشيت فأخذ النعل يحتك بالصمت الراقد ويفزعه حتى أخذ يصرخ • طرقت الباب وفتحته أنا، وأضأت المصباح وأنا أسألها ـ «أتنادينني ؟»• لم تتكلم • وظل وجهها بصمته مدارا للحائط لا يبدو مرئيا منه في الضوء سوى مؤخر منديل الرأس الأسود أما وجهها فكان كله في العتمة ، مائلا منكفئا في الفراش • وذراعها منثنية وكوعها تبرز تحت رأسها ، وذراعها الأخرى ترقد قلقة متصلبة بين ساقيها النحيلتين المضمومتين اللائذتين ببطنها • « أتنادينني ؟ » • لم ترد للمرة الثانية ، وظل الصمت • اقتربت منها اكثر فرأيتها ترتجف • انحنيت عليها ولمست جبهتها بيدي وسألتها ان كانت قد نادتني • فزع وجهها ناحيتي وفتحت جفنيها فرأيت بياض عينيها مسعورا يحترق • والسواد الذي استحال رماديا باهتا عاد يشخص للحائط ويبوح : « لا » مبتورة ثم أطبقت فمها فسمعت اسنانها تطحن برأسها كله شيئا يستحيل طحنه •

« كفى • أنت تقتلين نفسك » • ظل الصمت قائما • واستمر صوت طحن اسنانها غير المجدي وعيناها تحترقان بمواجهة الحائط « كفى • كل ما تفعلينه بنفسك لن يعود لك به • » تغير صوت الطحن • استحال بعد ان لوت رأسها وخنقت وجهها بالوسادة طحن نحيب ، صارت تأكل نحيبها وتمزقه في داخلها • ثم رأيتها ترفع رأسها وتشخص للحائط في جنون • ثم تكف عن ذلك بسرعة وهي تغمض جمرتيها وتهوي خانقة وجهها بالوسادة ويشتد صوت النحيب الممزق في داخلها ، والنهش ، ومحاولة التهام ما يلتهمها • واستحال صوت كل ذلك كصوت تنفس حاد متقطع ينفثه انفها المحمر الصغير •

ظللت واقفا مواجها به في داخلها ، والليالي التي لا تنتهي ولا تتوقف ولا تكف عن الاتيان ولكنها لا تجدي ، تجيء • ربما يرقد الزمن بينك وبين من ليسوا منك • لكن من هم منك يرقدون بداخلك ، خارجك وخارجهم الزمن ، ولا أمل غدا وبعد غد سوف يأتي ويجثم فوقنا كأمس وأول أمس ، ثم يمضي تاركا من يحل محله • أقدام مردة تأتي وتطأنا ككل • ولا أدري كيف تحملت كل هذا • ولا أدري ان كان هذا يمكن ان ينتهي بالنسبة لنا • شددت عليها الغطاء وأخذت أكذب امامها : « الله لا يحب ذلك • انك تؤذينه هناك هكذا • اصبري وادعي له بالرحمة أجدى » توقف طحن النحيب وغاص في الصمت • ربت عليها ، ومضيت • أطفأت نور غرفتها فسمعت الطحن • توقف لبرهة ثم شددت الباب وخرجت فتعالى طحن النحيب من الغرفة المغلقة كلها •

وبالليل جاءني • امتدت يده الى كتفي بيضاء كما كانت • وقف أمامي وهو يربت على كتفي مرات عديدة ، وشفتاه تستديران وتنبسطان ثم تلتصقان دون أن أسمعه وظلت عيناه أمام وجهي تبرقان في العتمة ثم سال البريق في خطين على جانبي فمه ، ويده ما تزال تربت بحنو على كتفي • أخذت يده في يدي ،كنت أريد ان اعانقه لكنه لم يعانقني • ظللت أتأمل خطي البريق الطويلين على جانبي فمه ، وشفتاه تعودان وتتكوران وتنبسطان • وأحسست بخطين نارين على جانبي فمي وصحوت • قمت وذهبت للغرفة لاحكي لها عما رأيته فلم أجدها •

دخلنا بها فتركنا وراءنا الاصوات والضجيج الهائل • وظللنا نخوض في الصمت • وسط الارض التي ننساها في الوراء • حبلى بالموتى • يرتفع بطنها بالأجنة الميتة في كل مقبرة كالحة منتفخة مسدودة الثقب باحكام •

وفي كل مكان تهرب اليه عين الانسان لا بد ان تصطدم ببطن فيه ميت • كانت البطون مكدسة ومنتشرة بفظاعة وتجاور مرعب • لكنه يبدو أكثر تجاورا وفعالية من تجاور الأحياء • هنا الزمن واحد والليل أو النهار واحد ، والانشاد أو الصمت واحد • كل منهم لا يملك اكثر من مساحةحجمه ، بـل مـن مساحة ارتكاز هيكله العظمي • هنا يحقق القاتل عدالته الظالمة بعدل • ولا يرفض أحد منهم التسامح مع وجوده كآله • ويستطيع ان يكون موجودا او لا يكـون فلـن ينتبه احد منهم لذلك أبدا •

وقفنا امام بطن منتفخ مكتظ بموتانا • كان الحفار قد عـرى ثقبهـا فبدا معتما مخيفا يحيط بالرعب نفسه الذي احسسته وهي مستلقية على السرير في الركن المعتم ، رافعة قمتي ركبتيها منزلقة بأسفل بطنها وردفيها نحوي فيجتاح الجفاف حلقي وأكاد أختنق عند رؤية الثقب الضيـق الموحـش فـي عتمتـه اللا متناهية • كائن بمكانه في سهولة المستحيل ، مهيب في الصمـت مفتـوح ومنتظر كما لو انه يدرك تماما انه رغم كل ضآلته اوضيقه أخطر مـا في البناء كله ، وأوسع ما فيه • ورغم ضيقه الظاهر فهو أكثر سعة مما يتصور من يقف أمامه • انك مهما كانت ضخامتك فانك لا بد أن ترقد وتستسلم لسحبه القدري لك ، لا الرعب ولا الصراخ ولا التراجع يستطيع ان ينتشلك مما تسقط فيـه • وعروها ، فعروه • والقماش الأبيض يتخذ مكان الشكـل الانسانـي • يخلي الانسان مكانه للمرة الاخيرة دون رجوع ، يتخذ القماش شكله امام اهل الميت • خداع قاهر يضطرنا للاقتناع به استحالة تصورنا للفقد المـزدري لنـا • نفعل ذلك لنصدق أن ما تحت القماش هو ابننا • واننا اوصلناه وظللنـا معـه حتى اعدناه الى الرحم الدائم بان مررناه من الثقب امام اعيننا ، وسددنا عليه بالطين• وعندما تأرجحت قوائم الوحش الثماني خلفنا ورأيته وهم يمضون حاملينه عاريا من كل ما غطيناه به ، كنت جالسا وقدماي ومؤخرتي غائصة في تراب الحفر • استعيد مواجهة الضربة الثانية • قطعتنا بسهولة اكثر ومـرت بسرعـة • الاولى اجهزت علينا • رأيت ذلك بوضوح عندما عدت يومها بعدما تأرجـح الوحش بقوائمه الثماني خلفي • وهو ، فقدناه • ولن يعتم مدخل الباب بظل نوره ثانية أبدا •

كانت جالسة في هدوء ساهم مستسلم ، يداها متراخيتان في حجرها • ورأسها مصلوب على الظهر المنحني تحدق امامها مباشرة في لا شـيء ، كمـا لو كانت تراه ولا تستطيع أن تنصرف عنه• رأيت جمودها أمامهفصعقت، واجتاحني الرعب للمرة الثانية حين اكتشفت في وجهها حفرتين معتمتين • لم تعد هي التي تراني • لم تعد عندما تدير رأسها تستطيع ان تراني • بل لا بد أن اكون امامها مباشرة كي تتمكن من رؤيتي • ودون ذلك تظل عيناها مظلمتين جدبتين • ولما أدارت نحوي عينيها احسست انني اسقط فيهما • لم يعـد وجههـا أملـس ، وعيناها هما اللتان تلمعان فترى • اكتشفت فجأة اننا لسنا وحسـب نسقـط بالموت الى الخواء ، بل اننا مطاردون بالخواء ونحن نحيا، حين رأيت الوجهالبشري خاويا ، وأن ثمة حفرتين تحت الجبهة لا تختفيان ابدا ، ولا تبدوان في جماجمنا الا في ظلمة المقابر وحسب ، ولكنهما كذلك كائنتان تحت الشعر الممشـط في خيلاء وفي البشرة الناعمة الخادعة للوجه البشري الحي : علامـة يحفرهـا الموت

فينا ليحدد بها محصوله في هذا العالم ، منبتا في عيوننا رؤى الذهول التي تمتد كحقول الفطر ، قاسية الألوان ، مفتوحة القاع ، موجودة ومحيطة بنا حتى عدم ادراك وجودها ، والدهشة كاعشاش الغراب ،تتفتح وتبتلع كل ما كنا لا نندهش له • حتى البشر ، اقرب الاقرباء صاروا يلتصقون بنا فتجتاحهم الأبعاد ويبدو لنا كأن لهم سطح الخارج الصلد • واشكالهم التي ما كنا نتعارف الا من خلالها ، ونقع في الخطأ ، واستحالت الى اشكال جامدة تحت غطاء سميك من الجلد وكمية هائلة من الدهن هي التي تجعل وجوه الرجال واقفيتهم ممتلئة ، وسيقان النساء ملفوفة بالدفء اللامع ، دهن كدهن اية أوزة ملقاة على قارعة الطريق وعنقها يلتوي تحتها ، وفتحتا عينيها مغمضتان على الرماد ، بينما تتعرض لأسنان كلب تمزقها • كان كائنا بجواره والجلد ملموم وملقى بجوار عظمة الساق ، والعظمة رهيفة ، ليست ابدا ذلك الجدار الذي كنا ننتصب فوقه ونضع قبضات ايدينا في خاصرتنا بزهو امام خصم • ملقاة في اللحم الميت بلا أي أمل في معاودة الانتصاب • تشخص في اللحم الذي سقطت فيه وتصمت • وهو الآخر لا يملك أكثر من أن يفقد شيئا فشيئا حمرة الدم الزاهية ويستحيل الى الزرقة الداكنة الثلجية ليتبدد حتى ما يبقى ميتا منا في النهاية •

وارتعدت في عنف لكن بلا اية حركة ، ال (   ) يزحف • الجليد اصبح لا يعطي سوى جحيم الجليد (   ) تجمدت احزاننا اختنقت بها السنة اللهب دون ان تنطفيء او تبتعد • وأفيق الى انني قضيت احيانا يوما بكامله وانا جالس في مكاني ، شاخص في سطوح الاشياء وسطوح الناس ببرود اخير ليس برود الغربة هذه المرة وحسب ، لكنه كذلك البرود الذي نكتشف بداخله فجوة الحقارة ، العدم ، الظلمة الخاوية الباردة ، جبل الثلج الراقد بداخلنا والذي يتهاوى امام الجحيم ، والناس يهرعون امامي ويصطدمون احيانا بي • كنت التفت لهم وأندهش لبرهة ثم أغلق فمي وأهز رأسي : ما الذي يفعل بهم هذا ؟ ما جدوى كل هذه الضجة وهذا العنف؟ بالاسلوب نفسه مات رجل كان يريد أن يدرك القطار فتعثر ولم يصح حتى ليرى نفسه تحت العجلات • أخذته على غفلة منه وأنهته بسرعة • لماذا جرى ذلك ؟ ربما لانهم يحاولون الهروب من الوقوع في خطأ يومي فيركضون بأنفسهم نحو خطأهم الأخير • « مات الرجل المكافح ناقص العمر » • هكذا علق الذي نقل الي الحادثة • ذلك المعلق مخدوع • ماذا يجعله ينطق بهذه الإكذوبة المتداولة ؟ ان احدا في العالم لم يولد ويترك ليحيا كامل العمر أبدا • كلنا نحيا بلا اعمار • اذا لم نجر وراء القطار لنموت تحت العجلات سيحدث أن نمر من أمام القطار ليمر فوقنا • بل حتى اذا اختفينا في المناطق النائية البعيدة عن كل القطارات فسوف يجيء بلا قطار • انه يأتي كما هو •

التفت مندهشا الى رجل يمضي أمامي وفمه مفتوح على اتساعه ، وأطرافه تتحرك بعنف • لويت شفتي ورحت أسأله عما يفعل • استغرق اكثر في فتح فمه والاهتزاز بعنف والتلويح بقبضته •

ــ قلت ماذا تفعل ؟

هدأ قليلا ثم حدق في بشراسة وأمسك بكتفي :

ــ ماذا تريد ؟

ــ قلت ما هذا الذي تفعله ؟

عاد ينطلق فاتحا فمه الى أقصى اتساعه ورفع يده وهوى بها على كتفي ثم أدارني ودفع بي بعيدا • رغبت للحظة أن أسبه لكنني لم أفعل • قلت لنفسي انه لا يستحق السب ، فسيكف عن كل شيء في يوم ما • انه لا يرى ما يجري

خلفه • لأنني كنت أرى ما هو مفتوح وينتظر فرصة يشده فيها من قفاه ليغلق فمه بشدة ثم يعود ليفتحه صارخا بلا جدوى • تنهدت وسئمت وأنا أحاول ان أبقي على اهتمامي بالناس لكنني شيئا فشيئا فقدت الرغبة واقتربت من الصقيع•

كانت العتمة تصوت في المجرى بخفوت آسر دائم تحت كل صوت طارىء• والريح تطوح برؤوس النخيل في عزيف حاد أسمع فيه بصعوبة مرور الريح بين السقف والجريد ، وصوت الرؤوس السامقة المنتصبة والريح تميـل بها وهي تقاوم • بعد فترة تهدأ الريح • تصمت فيطفو الصوت الذي يجري دائما ، صوت العتمة في المجرى • تشحب فيه رؤوس النخيل التي تحاول أن تستعيد انتصابها لكنها لا تستطيع ان تستعيد كبرياءها • لقد رأيتها عارية مـــرة ، وأي محاولة لاستعادة ما قبل العري محاولة يائسة لا تثير سوى الرثاء الأجوف •

اغتصبت ريقي وانا احاول ان اجلس دون ان أتهاوى • كانت راحة يدي منفردة على الحافة الداكنة واصابعي متباعدة ، وكل اصبع بدا ساكنا مهموما وحده • ثقيلا على الأرض ، معلقا باليد لسبب ما ، لكن ما لا نستطيع الشك فيه انه غدا سببا أحمق تجاه الرغبة في الانفصال والتباعد والارتماء وحده • ولو ان شكله لا شك سيكون غريبا • بل قد يستحيل فجأة من مثير للشفقة وهو مبتور ودائرة العظم البيضاء ينهال عليها اللون الاحمر من دائرة اللحم المقطوع الى مثير للاستغراق فى ضحك مكتوم وهو ملقى وحده بعيدا عن الاصابـع المعلقـة باليد كجراء هزيلة مقيدة ، فقدت من طول ارتمائها فى القيد ، ليس الرغبة فيالمغادرة وحسب ، بل حتى الرغبة في النباح • وبدت الرغبة في الانفصال اكثر منطقية من هذا التجاور اللا مجدي ، من التعلق من مؤخرتك ضمن مجموعة عناقيد مـن الكلاب •

انتبهت الى دائرة القمر المهتزة البيضاء وهي تصوت في المجرى بدلا من العتمة • عبثت يدي بصلابة الحافة الداكنة فانفصلت كتلة رطبة من الطمي ، حملتها وبدأت اكورها كرة صغيرة ثم صوبتها وأطلقتها الى دائرة القمر المهتزة • لم تصبه • أخذ يتأرجحبهدوء انقطع حتى أطلقتعليهالثانية وبعدهاالثالثةفتأرجح بعنف واعتم داخله واتسع ثم سكن وعاد يصوت في المجرى • تنهدت بحزن : من العبث ان نصل الى القمر ما دمنا لم نصل الى الانسان • ولبثت ساكنا أتأمل هزيمة النصر الذي يرفرف خادعا علينا •

وفي العودة رأيت رجلا وامرأة يسيران معا ، كانت عجوز تتكلم ببله وهـو يؤيد كلامها بهزات بطيئة من رأسه ، ثم ضحكا معا ، يومـا مـا سيفقـد احدهما الآخر • حزنت لأحدهما الذي سيفقد الآخر ،وبدأت احترقوانا اذكرها والجحيم يعـود ليتقد في السنـــة الجليد • وال (   ) هو ؟ غصت هربـا منه في شارع مزدحم واحسست بالجوع • رأيت محلا لبيع اللحم ورأيـت امامه رجلا يشتري لحما ويشير للبائع الى ما يريده وامرأة ساكنة منتظرة بجواره • كان البائع قويا امسك بالسكين وتناول ساق الحيوان المذبوح المعلـق مـن مؤخرته وقطعها • والرجل واقف وعيناه مفتوحتان بكل جوعهما • سيلتهم اللحم الليلة ويدخل دورة المياه او امرأته ، وفي الصباح يقضي اليوم منشغلا بوجبة اخرى •

حين وضع الخادم أمامي طبق الفاصوليا الخضراء كدت أصاب بقيء • رأيت الفاصوليا أعضاء كائن ملقاة في طبق • تعاميت ، لكنني عندما رفعت اللقمة وعليها اعضاء الكائن لم استطع دفعها حية في فمي فأعدتها الى الطبق وشربت ماء ، وقمت اتجول جائعا ، رافضا الطعام •

ال (   ) ارهقتني ٠ لا استطيع المواصلة في هذه الرؤية ٠الاصطدام المتكرر بكل ما يحدث وسبق أن حدث ٠ : وقع الحريق لم يكن قد وقع بالفعل وزحف فهو سيزحف حتما على كل ما يبرز خاليا من الصدأ ويأسرنا ٠ هذا ال (   ) قيح طاعون دائم ٠ عالمنا يبدو رمادا ملوثا بالدم ٠ يهطل من الشمس ويسيل من جراح الأرض ثم يأخذ شكل ال (   ) هل قلت الانسان ؟ لا ٠ انه يأخذ شكل الاحتراق ، وحركة الضوء الموجود المتسلق الصاعد لفترةنكتشف بعدها خدعة ال (   ) لنا ٠ لعيوننا ٠ لايدينا ٠ لاحضاننا ٠ لتساؤلنا المرفرف دوما ، المنهك من التحليق ، الخائف أن يحط على ال (   ) ويجتاحنا بصقيعه الجهنمي على حين غفلة فنقع في ال (   ) يا للأسر الذي يوقظنا ٠ هل نصحو ، لا ٠ اننا نفتح عيوننا فنرى ال (   )ليس سواه مطلقا ٠ وذاتنا مفتوحة ٠ وباب الصخر الوهمي الداكن يرتفع من ورائنا ، ونلتفت ٠ نلتفت وحسب لنرى فنفاجأ بال (   ) أبدا لا داعي للنكران ، فليس ثمة جدوى ٠ فال (   ) لم يعد يتوقف على اعترافنا او نكراننا والأجدى ، لا ٠٠ ليس الاجدى ٠ لكن ما يمكننا ان نفعله ازاءه ٠ ليس أن ننكر ، ولكن ندع انفسنا بلا مقاومة كاذبة ٠ لا يجوز الا تشغلنا أية حركة لا جدوى منها ٠ ازاء ال (   ) وحسب ، نحاول السكوت ونرى ٠ يجب ان نرى ٠ نحترق بالرؤية ويشتعل ال (   ) في عيوننا ٠ بل في داخلنا ٠ السكون لل (   ) البوذيون يصنعون ذلك ٠ رأيتهم يظلون بالنار في اماكنهم بلا حركة ٠ حتى يتسلق ال (   ) كيانهم ٠ والسواد خلف الجحيم ٠ من عند السيقان الى البطن الى الصدر الى الوجه الى الرأس الى ال ٠ انفجرت الجمجمة ٠ ذلك أجدى ؟ ابدا ٠ ربما أقل خسارة ؟ لا ٠ ربما أكثر رجولة ؟ شجاعة ؟ ان ننفجر ونحن نرى ال (   ) يا له من معاند ، كبرياؤنا ٠ أقل الاشياء زيفا ٠ سوف يندفع نحو ال (   ) وتنفجر الجمجمة ٠ المهم الا نسقط بظهورنا ٠ ان نسقط والهوة أمامنا ٠ الغرور الذي يقودنا الى مذبحة ان نواجه ٠ فربما لو كان في هذا العالم الذي شبع موتا ، شاطىء ما ، يختفي الآن امام العيون المفتوحة التي لا ترى لانها مسدودة الخلف ، لو ثمة شاطىء ، فيمكننا ان نبدأ بالتفكير فيه من الآن ٠ قبل ان يأتي ال (   ) ونسقط ٠ نستمر في السقوط ٠ أن نبدأ بالتوقف ٠ بمحاولة ازاحة الابواب الوهمية الداكنة خلفنا تحت ظل فترة تأمل ٠ وربما نضطر للرجوع الى الوراء ، متراجعين عن العمى ، متخلين عن العيون التي لا ترى والايدي التي لا تملك ٠٠ للوراء ، أقصى الوراء ، عبر تدفق الظلمة ، وشلالات الزمن المشتعل ، لو تحملنا ربما نعود : نعثر على النصاعة الشاسعة (   ) نائمة في التذكر ٠ واضواء القمر الشاب على عذرية الرمال المترامية البيضاء ٠

حيث يمكننا ان نرى ٠ نطلع على البدايه ٠ نعرف ان كان ارنبا بريا ذلك الذي يعدو في الضوء ام التواءات افعى ، دون ان نفتح عيوننا لنرى ، وعبر كل المسافات الهائلة نبكي لكآبة عبور طائر مهاجر في صمت ٠ واجنحته تحمل عبء المسافات الغريبة في القلب الذي ناء بوجوده عالمه ٠ ربما لو استطعنا العودة أمكننا أن نرى من اين يبدأ ال (   ) بجحيمه وكيف يزحف فجأة بتؤدة مرعبة نحونا حتى الصعود واجتثاث رؤوسنا ٠ لو امكننا ان نحاصره ! وتلاشت المسافات الهائلة ، ورأيت الباب الهائل ينفتح امام سنابك الجياد المغطاة وآذانها مدلاة ٠ ستة جياد تجر عربة مذهبة رسم حولها بالخشب المموه بماء الذهب ملائكة ! وفي جوف العربة تابوت في جوفه ملابس كاملة في جوفها جثة من كان صاحبها ٠

وبرقت اللحظة في رأسي بملايين الجياد تتجه الى (   ) تجر جثثا وتدخل

بها بوابات هائلة ثم تخرج نافضة آذانها بدونها ، عبر جدران البحار والانهار والغابات والجبال : جياد تشد القتلى ، أو وحوش بثماني قوائم ، أو قتل جماعي يتم بلا دفن ، قد نستطيع الشك في ان هناك في هذا العالم انسانا واحدا يملك سعادته في هذه اللحظة ، لكننا لا نستطيع الشك في انه لا بد في هذه اللحظة • رجل يقفز صاعدا للعالم الازرق ويراهم ، ويحاول ان يفلت فيتفلت من عينيه ويمسك به ال (   ) وتنتشر الأمواج حوله صاخبة بينما يسحبه القاع •

وامرأة تحترق او تقتل تحت عيون أطفالها ، وهم يحدقون فيها بصمت • وابناء ينتظرون اباءهم فاذا بهم ينتظرون ال (   ) • عثر عليهم قتلى تحت العجلات، او منطرحين بالضربة امام مقدمة سيارة او قابلهم ال (   ) فسقطوا وحدهم عندما كانوا عائدين الى أطفالهم في غبطة • وآباء خرجوا بعدما توقف الضرب المجنون يبحثون عن اطفالهم وزوجاتهم فلم يجدوهم ويحاولون ان يطيلوا مدة البحث هربا من العودة للعثور على ال (   ) وتنطلق غربان الاصوات تحوم على مدن بكاملها تنفتح الارض تحتها لتلتئم مرة اخرى وكل سكانها مختبئون بالداخل • وغرقى يدوم بهم موتى فوق وجه الطوفان ، وعبر كل جدار لو رفعته سترى ال (   ) حدق جيدا فيما تراه فقد يكون جثتك • أتحدى العالم لو حدث ورفعنا جدران الاحتماء المزيف وأبوابنا الوهمية ، أن يملك أحد الجرأة على الاحتفال بأي حدث • ارتداء ألوان الفرح الكاذبة والتباهي بها • بل أتحدى لو جرؤ احد ووجد الرغبة او حتى القدرة دون رغبة على ان يفتح فمه بفتحة مستطيلة سافلة على جانبي وجهه • أقصد يجرؤ على ان يستطيع ال (   ) ما كان هناك فى الماضى ، ما كانوا يطلقون عليه ال (   ) آه • الابتسام (   ) الكلمة القديمة فى الاسلوب القديم ! من قال هذه العبارة : « اسلوب قديم • كلمة قديمة » ؟ آه تذكرته : صاحب الابتسامة المفقودة (   ) * يوما ما كان مثلنا قبل صحونا على ال (   ) كنا نملك الابتسامة • لم تكن سافلة كما تبدو الحركة التى تشبهها الآن • كانت رائعة وكنا نملكها (   ) لكنا فقدناها • انزلقت من الكلمة • اصبحت الكلمة بعد ذلك بيضة خاوية • بناء يرى من الخارج • لكنه فى الداخل فقد كل ما كان البناء له • تكفي لمسة واحدة لتتهاوى الكلمات بعد ذلك فى ال (   ) تعرت الكرة البيضاوية وفقدنا وجودنا المحفور على الصخر • رأيناها جدارا من الكلس الهش • ورأينا أنفسنا نرتجف كالظلال• ونمضى ولا يتبقى منا سوى ال (   ) ليس سواه • واذا حدث وتبقى ، وظل منتصبا بعدنا هذا العالم ، فلن يحتاج الامر الا الى أية حقارة تصطدم به لتهدمه وتطبح ببناء الزيف المشدود بال (   ) يا للخواء الذي كان قائما له شكل القلاع وحوائط اللاشيء •

واخيرا حان الصمت (   ) لا • حان صمت الصمت • بعد حركات الفك المتوالية والتضرع والتساؤل امام ال (   ) واقامة الطقوس الاخيرة • الطقوس التي عريناها فجوبهنا بال (   ) الصفعة السوداء للوجه البشري المخدوع • الوجه الذي كأم يشخص ، يتكلم ، يرجو وهو يمضي يحمل في داخله مشكلة غياب الاجابات • فاذا بال (   ) يأتي • يدمر ثم يحرق كل شيء • حتى الغرق الاخير الدائم • هل عانيت ان تغرق في ذعرك الدائم ؟

طرفت أهدابي • العيون المتراجعة للداخل تحت ثقل الجفون المحترقة

(*) ما يراه الراوي في مساحة الصمت هو الوجه • وليس الاسم • اما الاسم فهو « صمويل بيكيت » •

والفم الجاف الذي يدهش الآن للايام البعيدة وقتما كان يتكلم • ينطلق صوته بسهولة ، واللسان الراقد وسط الذهول ، وأمامه كل الكلمات كأغنام كثيرة راقدة وهي ميتة لا تأتي ، تاركة معاناتنا عارية تحت اقدام الخطى التي تلوثنا بالصدأ • الخطى الداكنة التي بعدما افقدتنا الفزع السريع ، تركت مكانه اغراقنا البطيء الدائم ، لدرجة ان الاحساس فقد الانتباه لها : خطى لا يمكن مواجهتها ، تأتي في لون الرماد العديم اللون ، والذي يدرك تماما اننا في اسره ، فسواء سرنا بهدوء ام جرينا بالفزع ، ام هوينا في النوم فنحن عائدون له في النهاية ، بل نحن لسنا عائدين ، لاننا لم نغادره حتى نعود • اننا في القبضة • تحت الحراسة الدائمة للغزو •قوة غريبة في مظهر ضعفنا القاتل الوحشي ، والاكثر وحشية من عدو يواجهه ، بطيئة حتى في الابتسامة الساخرة النائمة المتئدة الواثقة من نهايتنا التي لا تستحق حتى ان تصحو فهو أبدا لا يخطو • نحن الذين نخطو • نحن الذين نقوم باللعبة كاملة : نراه فنفر ونعد ونلهث في العدو ونتعثر ونبتعد فنقترب • رغما عنا نحيا نحيا نحيا • فاذا بنا بالابتسامة السافلة نموت نموت نموت • بجوار السيقان تماما • بجوار ال (   ) عراه تحت الظل الطاغي البارد• والتفت مبهور الانفاس من العدو والذعر وأصغى لد (   ) أبدا• لا شيء وراء كل هذا • ليس ثمة خطى • الظل طاغ بارد حقيقي • ونحن حقيقة عارية تحته • لكن ليس ثمة خطى • وليس ثمة صمت حتى يصر على عدم الكلام • وليس ثمة من نتحداه ، نتمرد عليه ، بل حتى عندما استجمع وجودي المخدوع المهان والعنك يا (   ) لا أجدك • لا ترد على سبابي لك • وانت لا ترد ، لا تعاقب ، ولا تختفي وحسب ، بل انك (   ) كم اود لو (   ) بل كم اود لو اصرخ بكل صوت العالم الأخرس : كن موجودا لاصفعك • لقد صعدت اكثر الجبال وعورة لا تكلم معك ، فاذا انت لست موجودا • لا اقصد ذلك • انك لست ، لست موجودا وحسب ، بل انت (   ) لا • ولا حتى هذا : (   )• انه اكثر امتلاء منك • هذا غياب • انت حتى لست غائبا • ولست حتى لا شيء• انت عدم اللاشيء • لا • ولا حتى هذا • كم كنت اود لو كنت موجودا • ماثلا واعيا لاقول لك : انك اسوأ من أي قاتل في كل العصور •

كم كنت ، لو كنت موجودا ، اريد ان احمل جمجمته • أذهب تحت نار الشفق واحفر معريا الثقوب التي نسدها ، باصابعي العشر كذئب • واحفر وانا اتلفت حولي ، اهدم الستر الخادع الذي نقيمه وادخل • اتحسس القماش الممدد واجره لك • ثم اجرها كذلك • وأقول لك : تصور الآن انك أنا • غير معقول ! تظن انني اتمنى ذلك ؟ لا • صدقني • أنا أقول لك تصور ، لكنني لا أتصوره • ليس لأنني لا يمكن أن أكون أنت • أبدا • هذا ليس مستحيلا ، لكن لانك لا تستطيع ان تكون أنا • ثم لانني لو تصدقني ارفض ان اكون انت • كغر يوجد اللعب ثم يحطمها • ربما تكون اللعب لا تتألم ، ينكسر عنقها وتسقط دون ان تصرخ ، وانت لا تفكر بانها تتألم ام لا • لكن نحن ، ماذا عنا نحن ؟ كنت اريد بذلك ان أجرهم امام القبر • تحت نار الشفق المستعر ، ولا ادع أحدا يرى ، لانهم يقدسونك • ولا يخترقون حرمة حصارك لمن اتوا الى مملكتك • وامددهم متجاورين • وأقف بينهم ثم أشد الغطاء من فوقهما معا • وفي اللحظة نفسها،مرة واحدة • واتحداك أن تتخذ مكاني • مرة واحدة ترى فيها كل كفاحك وكفاح ابائك واجدادك وجنسك كله مكوما تحت نار الشفق هكذا في صمت الجمجمتين • هل حدث في حياتك أن حدقت في جمجمة من ملايين الجماجم التي تنثرها في العالم ؟ لا يبدو ذلك ؟ آه يا : • كيف اتصور أنني اتكلم معك كما لو كنت موجودا • كم اود لو كنت موجودا ، لو اجلدك على فعلتك • انظر اليهما معا • الى

ما صنعت بهما • كثير ذلك ؟ اذن انظر الى واحدة • هذه ام هذه ؟ انا لا اعرف • اختر لك جمجمة انت لترى فيها ما فعلت •انه لا يوجد هنا • ولا هي كذلك توجد هنا • اسرع قبلما يحترق الشفق • قبلما تفقد القدرة على الرؤية • انظر •نعم• هكذا من الخارج كغر جاهل قاس يحميه ترفه ولا مبالاته • انظر • مـا هاتـان الفجوتان ؟ انهما مكان الرؤية هل تتصور ان العالم كله الذي كان ، كان يتسرب الي من فتحتي هاتين الفجوتين اللتين تضيقان شيئا فشيئا حتى تنسدا • تصور أن تستحيل جماجمنا التي كنا نبتهل بها لك حتى بلا غطاء ؟ ! والفم الذي دمرته، المكان الذي عزف صوت حبي القديم لك • وأصبحت أود ان العنك منه ، أسبك ، أصرخ في وجهك ، أعلنها وسط كل الشهود الذين سيديرون وجوههم حتى لا يرون لعنتي وهي تنصب عليك• والذين ستنطلق السنتهم باللعنة علي طالبين منك ان تلعنني ، قبل أن أعلنها ، موقظا بذلك جليد جحيم العصور كلها في وجهك ، حاملا جثة الماضي التي لا تنتهي : ذنبك الدائم • جثة الكائن الذي اغتلته ، ومـا زال وسيزال دوما في منتصف الظهر أثر ضربتك • لو كنت (   ) آه لو كنت (   ) • أنا لا أحب أن أكون أنت • أنا يخجلني أن أكون أنت • أنا يبكيني أن أكون أنت • أنظر (   ) تصور ! تستحيل الى ما وسط الكفن الممدد هكذا • ملقى في قاع مقبرة • في الظلمة • تصور أن تنسحب من النور • كل النور في العالم • النور الممكن والنور المستحيل • ثم نهبط بك بعدما تحمل ضربتك التي ستقضي عليك في هذا الركن المعتم ، ثم عندما أسحبك أنا من الداخل هكذا ، من الظلمة الابدية الى تحت الشفق • ولا تستطيع أن ترى نور العالم المحترق• تشخص بمحجري عينيك ولا ترى • لانك فقدت عينيك • لأنك (   ) آه • لا يمكنني أن أكون أنت •

آه • ال (   ) غرني • أحسب أنك في داخله • نسيت أنك حتى لست ال (   ) لو كنت ! كنت أفرغت كل ما أحمله من رغبة الآن في جلـدك • لم أكن لو (   ) لافعل مثلك وأضربك على ظهرك من الخلف • أبدا يا (   ) • لا للاسف • (يا) وحسب • منتصبة تجاه صمت الصمت • ليس أمامهـا شيء أو لا شيء • كم كنت أود لو أسوطك يا • ليس على ظهرك حتى أقصمه ، لكن على وجهك • أتعرف أين بالضبط ؟ ليس على الخدود المزدهرة عـلى صلواتنـا • لكن اين ؟ بالضبط فوق حاجبيك المقامين ببداية الجبهة المتغطرسة • التغطرس المنتصب فوق عينيك اللتين لا ترياننا • كنت سأعميك من الضرب وأجعلك تكف عن الرؤية • أن تفقد الرؤية أفضل بكثير من أن تفعل هذا وأنت ترى ثم لا ترى• لو أفقدتك رؤيتك المزيفة ، ربما أمكنني أن أغير مجرى العبث فـي هـذا العالم العابث مثلك • أتعرف كيف ؟ بان اجعلك انت بعد أن افقـدك عينيـك اللتين خدعتاك حتى الآن تسأل • تصور ان يتساءل السيد وينتظر اجابة ممن وافق أن يكون العبد ؟ تصور ذلك ولو لمرة واحدة • وليس سؤالا ، بل استجداء صارخا ربما • آه كم كنت اريد ان أصفي معك في هذا الجحيم كل شيء •فربما تيقظت• كان بودي فقط ان تصحو على صوت لعنتي لك • وضربة سوطي • وترى رغما عنك هيكلي العظم اللذين يرقدان تحت نيران الشفق ، يواجهانك بطيبة • باتهام صامت يواجهانك • وعلى العظم ، من تحت الجلد المنتزع الذي تلاشى ، بصماتك ياقاتلهم المؤله •

كان بودي الا اعيدهم • انتهينا • فقدنا خجلنا • كنت سأقول لهم لا يجوز ان نخجل مما يصنعه هو • لكن مما تصنعونه انتم عندما تستحيلون الى آلهة • لكنكم ما زلتم تموتون كل يوم كل لحظة ، كل كل •

أنت (   ) (آه ، لست موجودا حتى أقول كل شيء . نسيت أنني أخاطب نفسي . تصور أنني أقوم بكل هذا الذي لا ينتهي وسط كل هذا الخواء ؟ وانني أراني من الخارج . وأنا أتوجه الى ناحية ما ، وأظل أتكلم ، أحرك ذراعي ثم أتوعد وأهدد ثم أكتشف ال (   ) فأصمت . ثم لا أطيق الصمت وأعرض على ال (   ) لا . أنت لا تتصور . ولا جثتاي اللتان فقدتا صاحبيهما تتصوران . حتى لا تتصور ! . أقصد أن أقول . لا . لا . لم أعد أقصد شيئا . أنت ، لا . أنا ؟ ما دمت أنت (   ) لا . لماذا زرعوا هذا الوهم في داخلنا . لماذا قالوا انك موجود ؟ وأنك خالق العالم . وانك الذي تجعل النساء تلد ، والارض تزهر ، والسماء تعطي دائما ؟ لماذا قالوا هذا الوهم لنا ثم ماتوا تاركيننا نحاسبك فلا نجدك ؟

آه يا (   ) لماذا أتكلم الان ؟ ما الجدوى ؟ اذن لماذا اسأل عن سبب السؤال ؟ لماذا لا أصمت ؟ لماذا وأنت غائب لا أصمت ؟ ادخل جلدي وأتكور كقوفعة في أعضائي . لماذا ؟ لماذا لا تحط ال (لماذا ؟) هذه الآن . لماذا لا تكف عن الرفيف حتى فوق هذا الجحيم ؟ . احترق الشفق تماما . تماما ؟ . لمن أقول ذلك ؟ هيكلا العظم لن يسمعاني لمن اذن أقول ذلك ؟ السماء ! لكنها فقدت حتى الصمت . أخذت الابعاد تجتاحها .

ويخنقني الصمت . وأظل أنصت : خواء الصمت . وحدي . لا أراه . ليس سواي وهو (   ) تحيط بي أسنة الجحيم الجليدية (   ) لململمت أطرافي وجلست . ضممت ركبتي وحملت يدي في حضني . وظللت حاملا رأسي لن يرى . ولا أي أحد . اللعنة . لكن على من سأصب لعنتي ؟ كنت أود أن أصبها عليك . لكنها لن تخرج . ستظل في الداخل . كنت أود لو (   ) ربما كنت ، بعد التمرد ، بعد ان العنك وأصفعك بالسياط ، وأتخلص من كل ما تحملته بسببك ، ربما كنت أحببتك ! أتعرف ؟ على الاقل ، رغم كل الكراهية والعناء ، ورغبة كل منا في القضاء على الاخر ، أننا كنا سنكون اثنين . أن أصيح يا : وتكون قبالتي . قد تحكم علي بالجحيم ، وقد أكفر بك وأحاول أن أحطمك ، مثلما حطمتني . لكنني في النهاية ربما كنت سأحبك . آه يا (   ) لو كنت موجودا ! كنت تكلمت معك الان ، ربما كنت قلت لك عن كل ما أحببته فيك من قبل ، ومنعني عداؤنا عن أن أبوح لك به ، وكل ما كرهته كذلك ، وكنت أحب أن تعرفه حتى تكف عنه فتكون رائعا كما ، أريدك ، وأفضل من كل شيء ، أنني لم أكن لاكون وحدي هكذا . يا (   ) لو كنت موجودا . كنت رأيتني على الاقل ، حتى ولو كأعداء . لكنك (   ) لا . لست . حتى لن أعود وأقول لك أنك لست هناك . لن أتيقظ ثانية ويدك هي التي تشعل الجحيم في العالم ليسقط في ال (   ) أبدا . سيظل مشتعلا وحسب ولست وراءه . وستبرد اللعنات . ستتجمد كدماء جامدة فوق شفتي لانك لا تسمعها . أنت يا (   ) أم هو . أبدا . انقضى الزمن الذي كانت أنت فيه روعة العالم استحالت الى : هو . أصبحت هو . لا . ليس حتى هو ربما : أنا . لا . ولا حتى أنا . بعدما اختفت « أنت » وتبعتها « هو » ماتت « أنا » . كزهرة لم تتفتح وجفت بها الساق .

سقطت شفتي السفلى مثقلة بالحسرة ، ومضيت أتجول في ارجائي الهامدة: يدي . قدمي . ساقي . ذراعي ، جمجمتي ، ودوائر الصدأ الراقد اثر الحريق ، يأسر الرغبات فتموت كلها في مكانها .

وحدكم في صحن هذا السجن • وحدكم تشيخون • وحدكم تتقوسون • وحدكم تنحنون حتى الانكفاءة الاخيرة التي تقترب بعد هذا الانتظار • لستأدري كيف ستكون • لكنني أعرف أين ستكون • وعلى أية حال ستكونون وحدكم • ليس موجودا لتلعنه على ما حدث وما سيظل يحدث • ليس موجودا • لنستغفره لو أثبت وجوده وتكلم وأظهر ولو قليلا من الندم بل حتى لو أبدى تأثره لمـــا جرى • لكنه ليس • وحدنا ازاء الـ (   ) يا للجحيم في صمت هذا السجن ! سنموت هكذا • وحدنا • مات هو في البداية دون أن يشرب ماء • وسنموت نحن دون أن نبلل لساننا بالكلام مع احد • حتى الكلمات الاخيرة فقدنا نعمة الارتواء بها • سنموت بلا كلمات • بلا كلمـــات يا (   ) • متى ننسى الـ (   ) وننسى الـ « يا » بلا حزن ؟ ونستدير للداخل • الإنتظار في الداخل (   ) • ليس ثمة خارج • غاض الخارج • ذهب ولم يعد ووراءه عالمه • تلاشت النعمـــة بكاملها • لم يتبق مكان نتجول فيه • نهرب منه • محاولين الهرب أمام زحفه • مات « هو » أولا • فسقطت رغبة الرغبات : خلودنا الممكن الوحيد • تكومـــت محترقة بالقاع • ثم اختفى هو وعالمه • آه لو • لا • أقصد (   ) لا ، لم أعد أقصد شيئا • أود لو أتعود فقط على الصمت هنا (   ) في هذا الداخـــل (   ) هذا المريع (   ) وسط آلاف الألسنة الخرساء الزاحفة من أفـــواه الافاعي الجحيمية (   ) مستحيل (   ) أمامنا وخلفنا يسقط (   ) يا هوى السقوط : (   ) ! حدث الانزلاق الخطر وها نحن نتدحرج للنهايـــة السحيقة (   ) تدور وترتفع (   ) يا للالسنة التي ترتفع فوق ظلمـــة الحوائط المتقدة المستديرة حولي ، تتلوى زاحفة نحوي (   ) يا • (   ) • لا • لو نتعود على الصمت هنا (   ) • لا • أبدا • في الجحيم : لا كلمات ، ولاصمت• يا (   ) الجحيم ! (   ) الجحـ (   ) الجـ (   ) الـ (   ) (   ) (   ) ! (   ) ؟ (   ) ؟؟ (   ) (   ) (   )

• • • • • • • • •

• • • • • • • • • • • ؟! • • • • • • •

• • • • • • • • • • • • • • • • • • •

دراسات في الفكر العربي الحديث

فاروق مردم

ملاحظات حول الفكر العربي في عصر النهضة

١ ـ ليس القصد من هذه الملاحظات نقد كتاب ألبرت حوراني « الفكر العربي في عصر النهضة » ، أو التعليق المتأني عليه ، وانما نحاول ، من خلاله ، طرح بعض المسائل المتعلقة بالفكر العربي ، وبشكل أعم بالايديولوجية العربية السائدة ، في العصر الذي اصطلح على تسميته بعصر النهضة ـ ويسميه ألبرت حوراني العصر الليبرالي ـ • ولنقل منذ البداية ، ان موضوع النهضة لا يمكن أن يحصر بعد الآن في الاطار المدرسي المعتاد ، أي في اطار التراجم المغلقة على أشخاص أصحابها وأعمالهم ، أو أن يستكشف بالمناهج التقليدية التي تؤدي كلها ، في نهاية الأمر ، الى الفصل بين الفكر والحياة الاجتماعية • ذلك أن ما يبرر طرح هذه المسائل اليوم هو ، من ناحية ، الاهتمام العلمي بعصر تاريخي حاسم ، تكوّن فيه جانب كبير من العلاقات الاجتماعية الحديثة ، وهو من ناحية ثانية ، أزمة الفكر العربي المعاصر التي تمتد جذورها الى العصر المذكور • فالأزمة الفكرية الراهنة وليدة عاملين اثنين ـ وان كانا متشابكين في الواقع العربي ـ يتصلان مباشرة بمقتضيات الوثبة القومية الاولى ، وثبة عصر النهضة ، أو على الأقل بظروفها الموضوعية • أول هذين العاملين سيطرة المشاغل القومية على الفكر العربي عامة ، وهي سيطرة مشروعة وضرورية أحيانا • وثانيهما سيطرة الغيبيات الدينية وغير الدينية ، بأسمائها الصريحة والمستعارة ، على الفكر القومي خاصة ، حتى أن جيلين من المفكرين العرب ، أو أكثر ، انهمكا بصياغة « فلسفة قومية » عقيمة ، وترتيب سلم القيم على أساس معاييرها •

لا يعني هذا أن نحمّل عصر النهضة مشاغلنا الراهنة وهمومنا ، أو أن نحاكم رجالها ، ونحكم لهم أو عليهم ، فان أبعد المناهج عن الموضوعية العلمية

هي التي تفرض على صاحبها ، فيما يصل اليه من نتائج ، أن يدين رجال عصر مضى لانهم لم يطرحوا على أنفسهم المسائل التي يطرحها · المقصود معرفة عصر النهضة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، واذا كنا نستنطق لهذا الغرض كتاب ألبرت حوراني ، رغم اختلافنا الكبير معه حول القضايا الرئيسية ، فالسبب ، أولا ، اطلاعه الواسع ، المعمق ، على النهضة الفكرية ، وعلى التاريخ العربي الحديث اجمالا ، وثانيا منهجه « التاريخي » الذي لا يفصل بين الفكرة وأصولها ، والفكرة وغيرها من الافكار · غير أن الكتاب بالمقابل ، مقصور على دراسة «الفكر» في حين لا يستطيع أي باحث في الايديولوجية العربية السائدة في عصر النهضة ، أن يهمل الأدب الذي أنتجه كتاب العصر وشعراؤه ، بمواضيعه المتنوعة ومستوياته الجيدة والرديئة · صحيح أن الأدب ـ والفن عموما ـ ليس الا جزءا بسيطا من الايديولوجية ، وأن له قوانين خاصة به تحكمه ، تنضاف الى القوانين الاجتماعية العامة ، الا أن هناك علاقات من نوع فريد بين الفن والايديولوجية ، تجعل النص الأدبي ، على سبيل المثال ، يتقبل أكثر من قراءة واحدة · الأدب مؤشر اجتماعي له ، من حيث تعريته للايديولوجية ، وبعض خصائص العلم ، وان لم يكن معرفة علمية · انه خير ما يكشف الايديولوجية الخبيثة ، التي لا تبوح بها مقالات العصر وبحوثه ، أي كل ما يمنح ، رسميا ، صفة « الفكر » ·

٢ ـ قلنا ان الكاتب يسمي عصر النهضة بالعصر الليبرالي · ومرد التسمية هنا أن « الجو العام » الذي أحاط بنشوء الفكر العربي وتطوره ، (في الفترة التي تبدأ بالقرن التاسع عشر « حين اطلع المثقفون العرب على أفكار اوروبا الحديثة ومؤسساتها ، وبدأوا يشعرون بسلطانها » ، وتنتهي بالحرب العالمية الثانية) ، كان ليبراليا ، بسبب الصلات الفكرية بالغرب الليبرالي ، وعلى الاخص بفرنسا وانكلترا · يضيف البرت حوراني الى ذلك أن جوهر التفكير العربي ، آنذاك ، كان ليبراليا أيضا ، يؤكد أن دور الدولة الاول في الحياة الاجتماعية هو حماية الحريات الفردية والعامة ، ولا يختلف في هذا الامر العلماني والاصلاحي الديني ، بل لعل ما يجمع بينهما هو الليبرالية · ثم ان تدهور السيطرة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية ، غيَّر الأوضاع الفكرية القائمة جذريا ؛ فمن ناحية أولى ، طرحت على العرب مسائل لم يفكروا بها من قبل ، تتعلق كلها بالمحافظة على الاستقلال بعد الحصول عليه ، و « الاصلاح » الاجتماعي بعد استلام جهاز الدولة ؛ ومن ناحية ثانية ، كانت البلدان العربية كلها ، بما فيها الدول الاكثر تأخرا ، قد صارت جزءا أصيلا من العالم الحديث ، بحيث لم يعد للتفريق القديم بين الشرق والغرب معنى ، وبحيث صار يمكن رفض الفكر الليبرالي ، ذي الاصول الغربية ، دون رفض العلم والتكنيك · ولا ندري اذا كان لهذه التسمية ، أخيرا ، صلة برأي آخر للمؤلف ، عرضه في مقالة قديمة ، وهو أن الحياة السياسية في مصر وسورية ارتدت ، بعد أفول السيطرة الغربية المباشرة عليهما ، الى أسلوب الحكم العسكري ـ المملوكي أو العثماني ـ الذي كان قائما قبل مجيء الغرب ·

ومهما يكن الأمر ، فالتسمية تعبر عن فهم خاص لطبيعة السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية لا يمكن أن نقر الكاتب عليه · وحتى لو وافقناه مؤقتا على صفة العصر الليبرالية ، فاننا نختلف معه على تفسيرها · لقد وحدت اوروبا « الليبرالية » العالم كله ، ومنه العالم العربي ، بالتجارة الخارجية ، ثم بتصدير الرساميل ، فجمعته في ادارة اقتصادية واحدة ، بحيث سادته ، بهذا

الشكل أو ذاك ، علاقات الانتاج الرأسمالية • الا أن هذه الوحدة الرأسمالية تفرض بالضرورة تطورا اقتصاديا واجتماعيا غير متكافىء بين عنصريها الرأسمالي وغير الرأسمالي ، وبنية احتكارية يتقدم فيها العنصر الاول و « يتخلف » الثاني • من الطبيعي اذن أن تختلف السياسات الاقتصادية والادارية والثقافية في الدولة المستعمرة (بكسر الميم) ـ المتروبول ـ عنها في المستعمرات والملحقات وأن لا تتطابق أو تتوازى • فالجمهورية الثالثة الفرنسية ـ مثلا ـ في مرحلتيها الانتهازية والراديكالية ، كانت علمانية ليبرالية ، تقدس الحرية الفردية ، وحقوق « الانسان » وعلى الاخص حق الملكية • ولكن علمانيتها الليبرالية محددة في الزمان والمكان • فهي أولا غير معقولة في حال تغير ميزان القوى الداخلي أو الخارجي (ظروف الحرب الأولى مثلا) • وهي ، ثانيا ، اقليمية لا تعبر البحار الى المستعمرات والملحقات • ولا نبالغ اذا قلنا ان الطبقات والفئات التـــي اعتمدت عليها الجمهورية الثالثة في العالم العربي ، وتشبهها في ذلك مع بعض الفروق بريطانيا ، هي أبعد الطبقات والفئات ، على المدى القريب أو البعيد ، عن الليبرالية العلمانية ، بمعناها الاوروبي : الاكليروس اللبناني والمسيحية السياسية عموما في لبنان ، بعض رجال الدين وزعماء الأقليات والعشائر في سورية ، قسم كبير من الاقطاعيين هنا وهناك ••• الخ • ثم ان الصلات الفكرية بين الشرق والغرب ، أثناء السيطرة الاستعمارية المباشرة ، كانت سيفا ذا حدين ، رغم أنها قامت في بدايتها لمصلحة الغرب الرأسمالي الاقتصاديـــة والسياسية فقط ، أي بالتحليل النهائي ، للتعجيل في تحويل الاقتصاد غير الرأسمالي الى اقتصاد استعماري تابع • فلم تكن أفــكار عصر النور والثورة الفرنسية سلاح الاستعمار الفرنسي في الشرق الا لفترة قصيرة ، ولتحقيق أغراض معينة ، في حين كانت ، في أغلب الاحيان ، سلاح الشرق ضد الاستعمار الفرنسي • أما المؤسسات السياسية والادارية الليبرالية التي نشأت «باشعاع» فرنسا ثم بسيطرتها ، فقد كانت شكلا فارغا ؛ ولذلك لم يؤد اصطناعها الى تنظيم الحياة السياسية على الأساس البورجوازي الليبرالي القائم في فرنسا ، وانما تكيفت محليا مع الاوضاع نصف الاستعمارية ونصف الاقطاعية ، وكانت أدوات للتنفيذ لا للتقرير ، ومدرسة للبيروقراطية والقمع والخنوع •

٣ ـ يربط ألبرت حوراني الليبرالية العربية بالسيطرة الغربيـة نفسها أكثر مما يربطها بالقوى الاجتماعية المتصارعة داخـل أنمـاط الانتـاج القديمة والحديثة ـ التي كانت تؤلف التكوينات الاجتماعية المصرية والسورية ـ ، أي بالقوى التي كانت تساير هذه السيطرة أو تقاومها ، بأشكـال مختلفـة وعلى درجات متباينة • فالايديولوجية الليبرالية ، ايديولوجية عصر النهضة ، ليست مجرد سلعة أجنبية الصنع ، استوردها العرب من اوروبا مع غيرها من السلع ، ولا فكرة أرادت لهم السيطرة الاستعمارية فعلا أن يتبنوهـا ، ولكنها تعبير عن علاقة بعض القوى الطبقية الصاعدة ، كالبورجوازيـة المسيحيـة فـي لبنان ، بشرائط وجودها نفسه • قد لا تكون الليبرالية البورجوازيـة العربيـة ـ ولا نتكلم هنا عن « الفكر » الانحطاطي أو المتقعر أو القشوري ، وانمـا عـن فكـر النهضة الحقيقي ، الفكر البورجوازي التقدمي ـ رفضا باتا لليبرالية الاوروبية بجميع جوانبها ، كما يفترض بعض القوميين ، ولكنها ليست أيضا ، على كـل حال ، انعكاسا بسيطا لها • ويمكننا ، انطلاقا من ذلك ، أن نقول مرة ثانية : ان العرب لم يتعلموا مبادىء الحرية من البورجوازيـات الغربيـة الاستعمارية مباشرة ، وانما جابهوها بها ، وفرضوها عليها فرضا •

يكفي ، للتأكد من هذه الحقيقة ، أن نتصفح كتابـات بعـض المفكرين والقادة السياسيين العرب ، في هذه الحقبة ، عن المؤسسات السياسية في البلاد العربية • فهم يرون أن النظام السياسي الأمثل هو ، أثناء الاحتلال ، غيره بعد الاستقلال • وفي حين يحلمون لما بعد الاستقلال ، بمستبد عادل يحد من تسرب الفوضى (الآتية مع الاستقلال ، لا محالة ، بسبب انعدام التقاليد الدستورية والتربية السياسية) ، يؤكدون أن النظام النيابي الليبرالي خير نظام للحكم أثناء الوجود الأجنبي ، لأن المؤسسات السياسية القائمة ، والحريات النسبية المتوفرة لا بد أن تستخدم ضد هذا الوجود •

نتوقف هنا عند نقطتين مهمتين يثيرهما موضوع الايديولوجية المعقد • **أولا** : ايديولوجية الطبقة البورجوازية التجارية الصاعدة شكل خاص من أشكال الليبرالية • لكن هذا لا يعني ، من جهة أولى ، أن علاقة هذه الطبقة بالليبرالية قائمة على الخداع والمراوغة أو على المصلحة المباشرة الاقتصادية والسياسية ، بحيث يمكن أن نتتبع تطوراتها وتحولاتها على الفور ،فالايديولوجية ،بالتعريف، علاقة داخلية صميمية ، غير واعية ، والايديولوجية البورجوازية على الخصوص، بخلاف الايديولوجيات الأخرى ، تحذف من قاموسها كل اشارة طبقية صريحة• ولا يعني ، من جهة ثانية ، أن الليبرالية تعكس شروط حياة الطبقة الصاعدة فقط ، فهي تعكس أيضا العلاقة الملموسة في التكوينات الاجتماعية العربية ، بين الطبقة السائدة ، أو الطبقة الصاعدة ، وغيرهما مـن الطبقـات والفئات الطبقة ، كالفلاحين والحرفيين ••• ولذلك فهي معكّرة ــ اذا صح التعبير ــ بملامح هذه الطبقات قبل ــ الرأسمالية • **ثانيا** : وصفنا النهضة بأنها حركة بورجوازية تقدمية في جوهرها ، مما قد يثير بعض الاعتراضات عـن الطبيعة الطبقية لهذا المفكر أو ذاك من مفكريها • الا أن حركة النهضة ليست مجموعة من الرجال يقرأون ويكتبون ، في دائرة مغلقة ، كل على هواه ، بحيث يمكن فهمها بمجرد حشد أفكار هؤلاء الرجال • يجب ، لمعرفة ايديولوجية النهضة ، معرفة أنماط الانتاج وشكل امتزاجها في التكوينات الاجتماعية العربية • أما الحالات الفردية فهي تحتاج ، بالاضافة الى ذلك ، الى المعايير الأربعة الآتية : الكيـان الطبقي ، الموقف الطبقي العام ، الموقف الطبقي في حالة معينة ،الثقافة الطبقية •

٤ ــ اختلف مفكرو العصر ، دونريب ، في فرضياتهم وفي نتائجهم ، لكن اختلافهم انحصر في حدود لا يتعداها ، فرضتها طبيعة العصـر • اذ مـا هي النهضة ؟ ــ انها من خلال التناقض الحاد بين الغـرب الرأسمالـي والشعـوب الاسلامية ، وداخل كل طرف من طرفي هذا التناقض ، زمـن سيطـرة اوروبا الكاملة على مقدرات الشرق ، وزمن نشوء الحركات القومية الاسلامية، السورية، المصرية ، وبخاصة العربية ، انها «الزمن القومي» المثالي ، ومميزاتها هي ، في الشكل والمضمون ، مميزات كل « زمن قومي » •

من حيث الشكل تغلبت الناحية السياسية من الايديولوجيـة عـلى كل النواحي الأخرى ــ الدينية ، الفلسفية ، الأخلاقية ، الاقتصادية •• ــ وضُغطت هذه النواحي فأحيلت جميعها على السياسة ، فلم يطرح من الأسئلة الا ما تعلق بالدولة والسلطة ، والفرد والدولة ، والدين والدولة ، والحرية التـي تصونها الدولة ، والمساواة التي يكفلها القانون • الزمن الايديولوجي القومي هو ، في البلاد المستعمرة ونصف المستعمرة ، زمن الثورة البورجوازية الديموقراطية ، حين تتنطع البورجوازية لقيادتها ، وتعجز الطبقة العاملة عن انتزاع القيادة ، لأسباب موضوعية وذاتية • لذلك يشبه في صفاته « الشكلية » العامة كل ثورة

بورجوازية • فمما أثار مثلا انتباه بعض الباحثين في الثورات البورجوازية الاوروبية ، والايديولوجية البورجوازية ، احتلال السياسة للمجال الايديولوجي كله تقريبا ، وتحديد المفاهيم الدينية والفلسفية على أساس المفاهيم السياسية • ومن ذلك انشغال الفلاسفة بفلسفة الحقوق والفلسفة السياسية ، وبالحرية بمعناها السياسي الخاص لا الفلسفي العام ، وتحول مفاهيم علم الأخلاق ، كالفضيلة والواجب والحق ، واكتسابها الطابع السياسي المحض •

ولا بد لتحديد مضمون النهضة القومية العربية من النظر في مضمون التيارات الفكرية المختلفة ، ومن استنتاج تقاطعها ، لأنها انتهت كلها ، بطرق مختلفة ، الى استيعاب موضوعة الكيان القومي : انطلاقا من المفاهيم الاوروبية ، ومن الرغبة بالعودة بالاسلام الى أصوله الصحيحة الأولى أي العربية ، ومن تفاعل الأفكار ، ومن الممارسة الاجتماعية • فالقومية المصرية ــ الشرقية لا الفرعونية القبطية ــ رغم اعتمادها الكبير على التيارات الاصلاحية الدينية ، جسر بين علمانية المفكرين المسيحيين الرواد والأجيال العربية اللاحقة • وتكونت القوميه العربية نفسها من عناصر متعددة متباعدة ، بعضها عام شمل المفكرين جميعا ، كالانكباب على دراسة التاريخ ، ويختص بعضها بالطوائف المسيحية كالتمرد على التسلط اليوناني داخل الكنيسة الارثوذكسية ، والرغبة في كسر الحصار الاسلامي المضروب على المسيحيين ، ويختص بعضها أيضا بالمسلمين ، كالبحث عن الاسلام الصحيح (من ابن عبد الوهاب الى الكواكبي) • وتفسير ذلك أن المسلَّمة الأساسية في النهضة القومية هي اقتران الديموقراطية بالقومية ، أو بالأحرى انتساب الديموقراطية الى القومية • فالحركة القومية تؤكد ، من جهة أولى ، حق الشعب في أن لا يحكمه الآخرون ، ومن جهة ثانية حقه في أن يحكم نفسه بنفسه • ومن الواضح أن الذهاب بهذا المبدأ الى نهاياته المنطقية يؤدي الى انجاز الثورة البورجوازية الديموقراطية ، وهو ما تعجز عنه القيادات البورجوازية •

٥ ــ اذا كان لا يمكن أن ننظر في الفكر العربي في عصر النهضة منعزلين عن طبيعة العصر ، فكذلك الأمر عند دراسة كل تيار من تياراته • ونعتقد ، مبدئيا ، مع بعض الباحثين ، أنه ينبغي رد التيار العلماني الى الطبقات والفئات الطبقة المرتبطة بالقطاعات الاقتصادية الرأسمالية ، ورد التيار الاصلاحي الاسلامي الى القطاعات القديمة ، أو المنحطة ، أو التي يشير تحديثها أزمات اقتصادية وأخلاقية معقدة • احتكاك العرب باوروبا هو ، في الحالتين ، المنطلق، لأنه هز أركان التكوينات الاجتماعية القائمة ، وفكك العلاقات الاجتماعية التقليدية قبل ــ الرأسمالية ، وأطلق قوى اجتماعية جديدة • هذا هو أولا حال الأقليات الدينية التي ترعرعت في حمى القناصل الاوروبيين، ومنحتها الحماية، كما يقول ألبرت حوراني ، امتيازات كبيرة سياسية واقتصادية وثقافية ، حتى حلت في القرن الثامن عشر ، لأسباب تاريخية معينة ، محل الجاليات الاوروبية في احتكار تجارة الشرق • وهذا هو أيضا حال الدولة العلوية في مصر ، وبعض قطاعات الدولة العثمانية ••• ولما كانت الأوضاع التي نشأت فيها هذه القوى ، والسوابق الثقافية الممهدة لنشوئها ، وطرائق الاحتكاك باوروبا ونتائجه الاجتماعية ، تختلف في الأوساط الاسلامية عنها في الأوساط المسيحية ، فقد كان من الطبيعي أن يتشعب التفكير العربي ، منذ ذلك الحين • لننظر الى التيار الأول •

نشأت الثقافة « العلمانية » في أحضان الكنيسة المسيحية ، فقد كانت

في بدايتها ثقافة دينية ، ثم تحولت ، تدريجيا ، تحت تأثير اوروبا الرأسمالية ، وبسبب انتظام البلاد العربية في السوق الرأسمالية العالمية ، الى ثقافة بورجوازية عصرية • وتركت الكنيسة آثارا واضحة في حياة المفكرين المسيحيين ومؤلفاتهم ، وخاصة في لبنان وحلب ، وكانت فاعلة فيهم سلبا وايجابا • لا نقصد بذلك تأثير التفكير اللاهوتي على أفكارهم مباشرة ، ولكن تأثيره الخفي في صدّ التفكير العثماني عنهم ، وفي توجيه أنظارهم ، خلال عشرات السنين ، قبل القرن التاسع عشر ، نحو اوروبا « المسيحية » • الا أن اوروبا المسيحية هذه كانت اذاك تتحرر من مسيحيتها • فلم يتعرفوا مثلا ، في آخر المطاف ، الى فرنسا العتيقة بنت الكنيسة البكر ، ولكن الى فرنسا الثانية ، الجديدة ، بنت عصر النور والثورة البورجوازية العظمى ، ولم يأخذوا منها الحق الالهي وعلوم اللاهوت ، ولكن اعلان حقوق الانسان والقانون المدني •

وعلى صعيد آخر حضّت الكنيسة رعاياها ، « لأسباب عملية » ، على تعلم اللغة العربية • وعني رجال الدين المسيحيون أنفسهم بدراسة مبادئها وتدريسها ، وبكثير من العلوم الملحقة بها كالكتابة والطباعة ، وشاع الاهتمام المسيحي باللغة في صفوف العائلات البورجوازية على الأخص ، لأسباب تتعلق كلها ، بالتحليل النهائي ، بدورها الاجتماعي القائم على الوساطة بين الغرب الرأسمالي والشرق • ومما يلاحظ هنا ، أن اللغة التي تتصل مباشرة بالنشاط الانتاجي وبسائر جوانب الحياة ، لا بقاعدة اقتصادية محددة ـ وتختلف بذلك عن الايديولوجية ـ قد عكست تغير الحياة المسيحية الجديدة فورا ، فاغتنت وتجددت قبل تغير القاعدة نفسها • ولذلك ، من ناحية ، سبق التطور اللغوي ، زمنيا ، تطور الفكر ، ومن ناحية ثانية ، تم التطور اللغوي على يد اللغويين المسيحيين المنفتحين على اوروبا ، أي على الحياة المتجددة ، وتنوع مرافقها ومعالمها وعلومها واكتشافاتها ، لا على يد المثقفين المسلمين الذين لم يطلعوا عليها الا في زمن متأخر ، وظلت لغتهم محصورة باحتياجات حياتهم الرتيبة • (ولا يستثنى من ذلك الا بعض العلماء المسلمين الذين عملوا مع المرسلين المسيحيين ودرّسوا في مدارس الارساليات) •

٦ ـ من الضروري أيضا أن نشير الى أن القضايا الاجتماعية التي اعترضت المسيحيين ، أي تو كيد حقوقهم أولا ، ثم مشاركتهم في الحياة العامة ، كانت في ذاتها تستوجب الحلول الاوروبية ، دون أن يثير اقتباسها فيهم أزمة شبيهة بالتي عرفها المسلمون في الزمن نفسه أو بعده بقليل • ويقول البرت حوراني ان الرأي أجمع ، آنذاك ، على ضرورة اصطناع الحضارة الحديثة ، لكن المسلمين وحدهم انكبوا على مسألة التوفيق بين التراث والحضارة الاوروبية ، فطرحوا أسئلة خاصة بهم ، تختصر كلها في السؤال الكبير الآتي : كيف نأخذ بقواعد المدنية الحديثة دون أن نتخلى عن اسلامنا ؟

نضيف الى ذلك أن المسيحيين ، الذين احتكروا تجارة الشرق ، كانوا واسطة تغلغل الرأسمالية في الشرق العربي • فقد نمت الرأسمالية أول ما نمت ـ بما في ذلك نمط الانتاج الرأسمالي ، بالمعنى الدقيق ـ في المناطق التي تعيش فيها أكثرية مسيحية ، وفي هذه المناطق ، كانت العائلات التي اغتنت أكثر من سواها هي العائلات المسيحية التي ارتبطت بشكل كامل بالسوق الرأسمالية ، أي ـ في أوضاع لبنان الاقتصادية المعروفة ـ زرعت أشجار التوت على حساب المنتجات الزراعية الأخرى ، وربت دود القز وزودت صناعيي ليون بالشرانق • والحقيقة أن اختصاص المسيحيين بالعمل في القطاعات

الرأسمالية الحديثة لا ينحصر بالتجار والمزارعين بل يتعداهم الى الاكليروس ، ولا ينحصر بالقطاعين التجاري والزراعي بل يتعداهما الى القطاع الصناعي ، ولا ينحصر أخيرا بأرباب العمل بل يتعداهم ، بحسب بعض الاحصائيات الفرنسية، الى العمال . ولذلك قلنا ان العلمانية المسيحية على صلة وثيقة بعلاقات الانتاج الرأسمالية وتناقضات نمط الانتاج الرأسمالي .

ان ظروف المسيحيين في المجتمعات الاسلامية ، بشكل عام ، ثم ظروفهم في القرن الثامن عشر ، وخاصة ما تعلق منها بتغير التجارة الشرقية والحرية النسبية في لبنان ، تفسر ، الى حد بعيد ، نمو البورجوازية التجارية المسيحية ، ويفسر هذا النمو ، بدوره ، أحداث القرن التاسع عشر الكبرى في لبنان ، ومعالمه ، كالملكية الفردية للأرض ، وانتصارات ابراهيم باشا في سورية ثم انسحابه ، والثورة اللبنانية الفلاحية عام ١٨٨٥ ... الخ ، كما يحدد ، بالضبط مكان الأزمة الايديولوجية المسيحية . فالبورجوازية المسيحية محرقة التناقضات الاقتصادية والسياسية والدينية والفكرية ،لأنها جزء من العالم القديم ، المنخور، غير الرأسمالي ، أو بالأحرى الجزء الوحيد منه ، الذي يشرف على العالم الرأسمالي ، ويتوسط بين العالمين . ولعلنا نستطيع أن نختصر تناقضاتها كلها من الزاوية التي تهمنا هنا ، بالتناقض الحاد بين تعاظم قوتها الاقتصادية الخاصة ، وبقائها على هامش الحياة السياسية العامة ، أي بين سيادتها الاقتصادية النسبية وعدم سيادتها السياسية ، أو على الأقل ، باعتبارها أقلية ، عدم مشاركتها الفعلية في السلطة .

٧ ـ وهناك قضية أخرى لا يتعرض لها ألبرت حوراني وغيره من الباحثين، من حيث دلالتها الطبقية ، رغم أنها تندرج بخصائصها مع الفروق المتفق عليها بين الأصول المسيحية للعلمانية العربية والأصول الاسلامية للاصلاحية الدينية وهي علاقة الثقافة العربية في عصر النهضة بنظام التعليم ، وأثر هذا النظام على تكوين التيارين ثم على تطورهما . ويمكننا ، باختصار أن نقول : **أولا** : ان الامكانيات المتوفرة ، موضوعيا ، لتملك وسائل الانتاج الثقافي ، وللاستهلاك الثقافي نفسه ، تحددت ، آنذاك ، على مستويين اثنين : طبقي وديني ، ومن الواضح أنه ينبغي دراسة كل مستوى على حدة ، رغم اختلاطهما أحيانا ،وتحول الطائفية والصراع الطائفي الى قناع يخفي الطبقية والصراع الطبقي . لقد توفرت للمسيحيين اللبنانيين والحلبيين ، منذ عصور بعيدة صلات تعليمية باوروبا ، ايطاليا وفرنسا خاصة ، لم تتوفر لسواهم من العرب ، لانها ، حصرا ، صلات كنسية أملتها ضرورات التدرب على الطقوس ، أو تنظيم الشؤون الطائفية المارونية . وتطور نظام التعليم بعد ذلك في صفوف المسيحيين ، عن طريق الكنيسة أيضا : في المعاهد الدينية المحلية ومعاهد الارساليات .

قد يعترض على ذلك بالقول ان المعهد الذي خصص في روما لتدريس ابناء الطائفة المارونية لم يكن بعلومه وأنظمته معهدا عصريا ،وأن ما كان يتعلمه الطالب لا يعدو العلوم الدينية وما اليها ، وقد تنقض الفكرة من زاوية اخرى ، بالتنبيه الى أن التعليم الماروني في لبنان ، قبل القرن التاسع عشر ، اقتصر ، بشكل عام ، على مبادىء القراءة والكتابة ، والى أن التعليم الاسلامي في المدارس التقليدية كان يجاريه ، في عدد طلابه ، ان لم يزد عليه . الا ان ما نقصده هنا هو لغة التعليم ، لا مضمونه فقط ، لأن اللغة هي الحامل المادي للثقافات كلها ، ولأنه لا بد للحصول على الثقافة العصرية من امتلاك ناصية اللغة الملائمة ، أي من امتلاك لغة أمة عصرية . وبهذا المعنى كانت معرفة اللغات الأجنبية الاوروبية ،

في اطار الجمود الفكري المحلي ، السابقة الثقافية الضرورية لكل معرفة • **ثانيا :** ان اختصاص بعض أبناء الطوائف المسيحية بأعمال معينة في العصور الحديثة لا يقارن باختصاصاتهم الحرفية في المدينة الاسلامية القديمة ، في عصورها المزدهرة • ذلك أن تقسيم العمل هنا لم يعد تقنيا ، تحدده موضوعيا ضرورات الانتاج التقنية — المتعلقة بدرجة معينة من تطور القوى المنتجة — أي في مثالنا ، الخبرة المتراكمة ، المكتسبة خلال عصور طويلة من الاختصاص الطائفي ، وانما صار تقسيما اجتماعيا ، يضمن استمرار عملية الانتاج ، من خلال العلاقات الطبقية القائمة المحلية والعالمية ، على السواء • وقد ساهمت أوضاع التعليم الخاصة في تعميق هذا التقسيم الاجتماعي ، ومن ذلك مثلا ، بالنظر الى ما قلناه عن اللغة ، اختصاص المسيحيين بالتجارة والترجمة والعمل مع القناصل ، ثم ، بعد تكاثر المؤسسات الأجنبية والاحتلال العسكري الأجنبي ، اختصاصهم بالعمل في المصارف والجمارك ••

٨ — لا يولي ألبرت حوراني الدلالات الاجتماعية للتيار الاصلاحي الاسلامي الأهمية التي يوليها لدلالات التيار العلماني ، رغم أن جانبا رئيسيا ، بل الجانب الرئيسي ، من الفكر العربي في عصر النهضة ، سيبقى سرا مغلقا ان لم تتضح هذه الدلالات • المنطلق ، هنا أيضا ، هو الاحتكاك باوروبا ، بالشكل المباشر ، كما في الحروب المتواصلة والهزائم التي أوقفت تقدم الجيوش العثمانية في اوروبا ، وفي حملة بونابارت على مصر ، ثم على سورية الجنوبية ، وفي احتلال فرنسا للمغرب العربي ، أو بشكل غير مباشر ، وهو الأهم والأبعد أثرا : انتظام البلاد العربية في السوق الرأسمالية العالمية • غير أن علاقات المسلمين باوروبا وأشكالها ، وبالتالي نتائجها ، كانت ، كما جاء في الملاحظات السابقة ، مختلفة جدا عن علاقات المسيحيين العرب بها • لا ريب أن العرب جميعا عانوا ، الى هذا الحد أو ذاك ، من المزاحمة الغربية لمنتوجاتهم الصناعية ، فلم تنحصر البطالة ، مثلا ، في صفوف الحرفيين المسلمين ، لكن المسيحيين ، للاسباب التي ذكرناها آنفا ، استطاعوا أن يجدوا منافذ جديدة تحل محل مغازلهم ومناسجهم اليدوية• هناك الهجرة طبعا ، وهناك ما هو أهم منها : القطاعات التي أنشأتها التجارة الخارجية والرساميل الأجنبية ، كالتخصص الزراعي ، والعمل في المصانع الحديثة الأجنبية وفي القطاع الثالث •• الخ • لنغادر اذا الأقلية الى الأكثرية ، والساحل الى الداخل ، والى حد ما التجارة الى الصناعة •

كانت العلاقات التجارية بين الدول الاوروبية والامبراطورية العثمانية ، تحت نظام الامتيازات ، علاقات غير متكافئة من حيث بنية المنتوجات المتبادلة أولا ، ومن حيث السياسة الجمركية ، ثانيا • لذلك كان من الطبيعي أن تتعرض الامبراطورية الى ما تعرضت له البلاد المستعمرة أو نصف المستعمرة ، التي غلب عليها فيما بعد اسم البلاد المتخلفة • ويهمنا من ذلك الآن ، انهيار الحرف القديمة في المناطق المختصة بالانتاج الصناعي ، كالمدن السورية الكبرى • لننظر الى دمشق : مدينة كبيرة عريقة وعاصمة ادارية وسياسية ودينية ، يعتاش أعيانها من الريع العقاري الذي يدفعه الفلاحون ، ويحيا معهم ، ضمن أسوارها ، حرفيون وباعة ، يتجهون بأعمالهم الى داخل البلاد ، الى الشرق والجنوب ، لا الى ما وراء البحار • الصفة المميزة للحرفي الدمشقي عشية السيطرة الاوروبية جموده ، فهو يعمل بقصد سد الحاجات الاستهلاكية الضرورية ، لا بقصد الربح بمفهومه الرأسمالي ، ولا يعرف الوفر المنتج والتثمير الجديد ، ولا يوجد ما يضطره للتطوير التقني وزيادة الانتاج • لذلك يجدد أدوات انتاجه دون تغيير

يذكر ، ويطرح في الأسواق كميات متساوية تقريبا من المنتوجات ٠

ان الحرفة على جمودها ، وربما بسبب جمودها ، حجر الزاوية في بنيان دمشق الاجتماعي ، فهي التي تنظم كل ما يتعلق بالانتاج ، وهي التي تضمن استمرار التقاليد المدنية العامة وتقاليد الأحياء الخاصة التي يخضع لها الفرد ، لا في عمله الضيق فقط ، بل في علاقاته الاجتماعية والعائلية والزوجية ٠٠٠ ولذلك لم تخسر دمشق ، حين هزت الرأسمالية الاوروبية أركان المجتمع القائم، منافذها التقليدية فقط ، بل خسرت نفسها ، اذا صح التعبير ، لأن العدو داهمها في عقر دارها : قلد منتوجاتها ، حطم حرفها ، ألحق صناعتها وتجارتها بصناعته وتجارته ، وبكلمة واحدة ، سلخ عنها خصوصياتها ٠ ان علاقة الحرفي بالحرفي ، وعلاقة الحرفي بالتاجر ، وعلاقتهم جميعا بزبائنهم ، ذات أبعاد حضارية أكثر غنى وعراقة وحيوية مما يظن عادة ٠ واستمرار هذه العلاقات على حالها ، اذا استمرار هذه الحضارة ، لا يكون بغير الانسلاخ عن الغرب : رفض الغرب هو الرد الأول على هجوم الرأسمالية الغربية وعدوانيتها ، وهو الرد البديهي ، العفوي ، لأنه ، قبل كل شيء ، دفاع عن اللقمة ٠

٩ ــ انهيار الحرف في شكله الأول ، وفي ردود الفعل الاجتماعية التي أثارها، انهيار للقيم الثابتة المتوارثة ٠ بل لقد ذهب الحرفيون السوريون الى أبعد من ذلك ، مثل غيرهم من الطبقات والفئات الطبقية المنحطة ، في فترات الانتقال التاريخية ، فاعتبروا ــ هم والمرتبطون بالحرف انتاجيا وتجاريا واستهلاكيا ــ انحطاط الحرف انحطاطا مطلقا ، وسقوط حضارتها سقوطا للحضارة ٠ غير أن الصدمة الأولى لا تفسر في الحقيقة الا الناحية الأقل أهمية من الفكر الديني ، الناحية التقليدية ، الرثة ، التي رددها مثقفو العصر ، أي رجال الدين ، عشرات السنين ، في حلقاتهم التعليمية وخطبهم الوعظية ، قبيل حركة الاصلاح وما زال بعضهم يرددها ، بأشكال أخرى ، حتى اليوم ٠ أما الفكر الاصلاحي الديني نفسه ، فلا تفسره الا المقاومة ، مقاومة الغزاة الجدد ، حتى لو تكيفت مع الظروف بعد التأكد من قوتها التي لا ترد ٠ لقد انخفض النشاط الحرفي ، كما رأينا ، وتدهور المستوى الفني للانتاج ، وتفرق الحرفيون ، وربما عاد قسم منهم الى العمل في القطاع الزراعي ٠ لكن النشاط الحرفي ، رغم انحداره ، لم يتوقف ، لأنه اكتشف طرائق جديدة للانتاج ، تقوم ، من حيث هدفها ، على الابتعاد قدر الامكان عن الدارة الاقتصادية العالمية ، ومن حيث أسلوبها ، على تقسيم العمل تقسيما تقنيا مستحدثا ، على أساس زيادة الاختصاص ٠ وقد أدى ذلك ،بصورة غير مقصودة ، الى تمتين روابط الحرفيين الاجتماعية ، باشراكهم جماعات كبيرة ، في عملية انتاج واحدة ، والى استمرار بعض العلاقات الانتاجية القديمة بشكل جديد ٠ وهذه الروابط « الجديدة » الناشئة ــ مثلها في ذلك مثل الروابط القديمة المنفصمة ــ لا تخلو من شيء من القداسة ٠ انها نسيج اجتماعي ، دون شك ، زمني ، قائم على الانتاج ، لكن خلفيته دينية طقوسية وراثية ٠ ومن الأدلة على ذلك أن تفكك نظام الأصناف وتقلص سلطة شيخ المشايخ وشيوخ الحرف ، لم يمنع الحرفيين والباعة الصغار (المسلمين) من العودة الى وضع الروابط الجديدة نفسها ، تحت رعاية السلطة الروحية القديمة ٠ فارتباط الدين ، اذا رجال الدين ، بالانتاج ، ارتباط واقعي ملموس ، وان كان غير مباشر ٠ أضف أن دور رجال الدين الاسلامي في التكوين الاجتماعي السوري ، في المدن خاصة ، كان منذ قرون ، كما أجمع المؤرخون ، دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم ، لأنهم على صلة وثيقة بالأول عن طريق جهاز الحكم والقضاء ،

وبالثاني عن طريق نظام الأصناف . وواضح ما لهذه المهمة الاجتماعية من أهمية في مدينة كدمشق يشقها شرخ كبير الى مجموعتين لا يمكن لغير الايديولوجية الدينية الجمع بينهما : مجموعة المشرفين من ذروة امتيازاتهم الطبقية على المدينة، تحميهم أو تنقض عليهم أو تقتتل تحت أبصارهم أخلاط من العساكر السلطانية والمحلية والخصوصية ، ومجموعة الخاضعين لهم والعاملين على اعاشتهم . وقد حافظ رجال الدين على مكانتهم الاقتصادية والسياسية ، حتى زمن قريب ، بفعل التقاليد المدنية التي ذكرناها ، وبالتحامهم العائلي – وفي دمشق سلالات دينية – والاجتماعي – في المساجد والمدارس والأوقاف والقضاء والزوايا – ، يدعمهم جيش من المعلمين وأصحاب الطرق والمؤذنين والمقرئين ... ظلوا المرآة التي تنعكس على صفحتها مشاغل المدينة ، ولسان الطبقات القديمة كلها ، في التعبير عن انحدارها الاجتماعي أولا ، ثم عن سعيها لانقاذ ما يمكن انقاذه من ارث الجدود .

١٠ – نستطيع الآن ، انطلاقا من كتاب ألبرت حوراني ، وعلى ضوء الملاحظات السابقة ، النظر في الخصائص الايديولوجية للحركة القومية العربية . ولا ريب أن تحديد العلاقة الملموسة بين القومية العربية وكل من التيارين ، العلماني والاصلاحي الاسلامي ، يكشف مدى تأثير كل منهما في الحياة العربية الجديدة ، وامتداده ، وتعمقه ، استنادا الى ما ذكرناه عن روح العصر القومية ، والى ثبات القومية العربية في وجه القوميات الاقليمية ، والى تحول فكرة الوحدة العربية ، جماهيريا ، الى قوة مادية حية .

القومية العربية الحديثة وليدة التيارين ، ولا يمكن بتاتا ردها الى أحدهما دون الآخر . هذا هو الاستنتاج الأول الذي نصل اليه ، عندما نلاحق أفكار الوطن والأمة والعروبة ، لا في الكتب والمجلات فقط ، وانما في ممارسة الحركات السياسية الشعبية ونتائجها ، على اختلاف هذه الحركات وتباين محركاتها وظروفها ومقاصدها (الوهابية ، العاميات الشعبية في لبنان ، الثورة العربية الكبرى ، الحركة الوطنية في مصر...) أما الاستنتاج الثاني فهو أن مضمون الحركة القومية قد تغير مرارا بتغير أعدائها والقوى الطبقية التي تقودها أو تساندها أو تقف منها موقفا أقرب الى الحياد . لذلك نرفض ، مبدئيا ، ما يقوله ألبرت حوراني عن علمانية القومية العربية في تعبيرها عن نفسها ، رغم الأسباب السياسية والثقافية التي يذكرها ، كالحاجة الى تأييد الأقليات ، ومكافحة الصهيونية ، وسيادة الثقافة الاوروبية ، وتأثير تركية الكمالية ... فهذه الأسباب لا تؤيده، فيما يتعلق بمرحلة ما بين الحربين ، الا اذا كان يعرف العلمانية على اساس معيار واحد هو القول بفصل الدين عن الدولة ، وهو معيار غير دقيق ، لأن التيار الاسلامي الاصلاحي انتهى بدوره الى القول به . ويبدو لنا ، على العكس ، أن ظروف العصر أدت الى منع امتزاج القومية بالعلمانية امتزاجا حقيقيا :

أولا ، قيادة الحركة القومية – لقاء القومية العربية بالأسرة الهاشمية – وهو الحد الفاصل بين مرحلتها الأولى شبه العلمانية ومرحلتها الثانية – انتكاس للقومية والعلمانية في وقت معا . فقد تخلت الحركة القومية آنذاك ضمنا ، بمباركة بريطانية ، عن جانب أساسي من مقوماتها وشعاراتها العلمانية ، لأنها قبلت بتوحيد الزعامتين الدينية والزمنية في شخص شريف مكة ، بعد أن ادخرت طويلا الزعامة الزمنية لغيره . كما تخلت صراحة ، بعد ذلك ، عن الجوانب الأخرى ، على لسان متزعميها الطارئين – مقالات الحسين في جريدة « القبلة »

الصادرة في مكة ، مذكرات عبدالله ٠٠٠ ــ لانها كثيرا ما بررت الثورة العربية القومية بالحاد القادة الأتراك الجدد ، وخلع السلطان ، واهمال تعاليم الاسلام ، وتقليد الغرب الفاسق ، لا بالاضطهاد القومـــي ، والاستبـــداد ، والعنصرية الطورانية ٠

ثانيا ، دور العلمانية السياسي ــ غابت المدرسة العلمانية تماما عن المعركة القومية ضد الاستعمار الاوروبي ، بعد سقوط دولة الخلافة العثمانية ٠ وفي مصر ، البعيدة عن نفوذ السلطان ، والخاضعة للسيطـرة البريطانيـة ، وقفت العلمانية موقفا سلبيا من الحركة الوطنية منذ بدايتها (مجلة المقتطف مثلا ، وهي المنبر العلماني الأول) ٠ ولم تخـرج العلمانية من صفوف الأقليات الى الدائرة القومية الأوسع ، مما وسمها ــ وهذه هي مأساتها الكبرى ــ ، بالميسم الطائفي ٠ وساهمت السياسة الاستعمارية الفرنسيـة ، باعتمادهـا اجتماعيا وسياسيا على الأقليات القومية والدينية ، وبتلويحهـا بالرايـات الطائفية الصليبية ، في تنفير عامة الشعب من العلمانية الاوروبية ، وفي تقليص ما بقي لها من نفوذ بين المثقفين المسيحيين ٠

ثالثا ، التعبير القومي ــ كثيرا ما ترسم الحركة القومية مستقبل الأمة على صورة ماضيها البعيد ، في عصوره البطولية ، بحيث ينحرف النضال القومي عن خطه الديموقراطي الثوري ويصبح بحثا ماورائيا عن فردوس الأمة الضائع ، أو تأكيدا لرسالتها « الخالدة » ٠ وقد اضطرت القومية العربية مثل غيرها من الحركات القومية ، وربما أكثر منها ، الى الانكباب بخشوع على التاريخ العربي الاسلامي ، والعمل على استخلاص بعض القيم الاجتماعيـة والأخلاقيـة التي يفترض فيها أن تختصر عظمة الأمة ، وتبين تفوقها على أعدائها القدامى والجدد ٠ لكن الفكر القومي ، بالتفاته المطلق الى الماضي القومي ، لم يجابه الأعداء فقط (الاضطهاد التركي ، الاستعمار الاوروبي ، القوميات الاقليمية مـن فرعونية وفينيقية وسورية ٠٠٠) وانما جابه المذاهب العلمية والعلمانية الحديثة أيضا ٠ يتضح ذلك على الأخص عند دراسة ثنائية الغرب والشرق في الفكر العربي الحديث ، فهي فيه تناقض بين المادة والروح ، والشر والخير ، حتى أن بعض المفكرين القوميين جمعوا بين النضال القومي والتبشير بمملكة الروح الشرقية ، الآتية بعد انحسار المادية الغربية الملحدة ٠

رابعا ، المؤسسات القومية ــ ابتداء من الطهطاوي وانتهاء بالحرب العالمية، برر المفكرون العرب المؤسسات الغربية بالأحكام العامة في القرآن والسنة ، أو بالقياس والاستحسان والاستصلاح ٠ وسارت الأجيال اللاحقة على نهج الأولين فاستندت الى الاسلام في كل دعوة اجتماعية وسياسيـــة ــ بمـا في ذلـك الاشتراكية ــ ٠ غير أن هذه التبريرية التوفيقية التـي انتهـت ، فـي بعض مظاهرها ، الى القبول بفصل الدين عن الدولة ، لا تعدو المـــواد الدستورية والتجارية ، لسببين أولهما : التطور السريع في المجالين الاقتصادي والسياسي والتغير العميق في حياة العرب الاجتماعية وعلاقاتهم بالآخريـن ، وثانيهمـا : انعدام المؤسسات الحقوقية الاسلامية في هذين المجالين أو تخلفها الواضح ٠ أما في المواد الأخرى ، كالأحوال الشخصية ، فالشريعة الاسلامية والتقاليد الملية هي القانون ٠

١١ ــ هناك أخيرا نقطة مهمة لا بد من تسجيلها في ختام هذه الملاحظات ،

لأنها قد تلقي بعض الضوء على مسألة النضال الايديولوجي الملح ضد الامتدادات الطفيلية لبعض جوانب فكر النهضة ، بشقيه الديني وشبه العلماني ، ولأنها تلخص رأينا في نواقص الفكر العربي لا في عصر النهضة وحسب ، بل بعد الحرب العالمية الثانية كذلك • نقصد غياب الفكر الاشتراكي العلمي من الساحة العربية غيابا كاملا طيلة خمسين عاما • أسباب هذا الغياب موضوعية قبل كل شيء ، تتعلق بالأشكال الخاصة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية للسيطرة الاستعمارية على العالم العربي • الا انه يجب أن نذكر أيضا الأسباب الذاتية وبخاصة الانتهازية اليمينية واليسارية التي نخرت التنظيمات الاشتراكية العربية ، وجعلتها عرضة للتيارات التجريبية والانتقائية والحدسية ، وذلك قبل أن تسيطر عليها التحريفية سيطرة كاملة • ومن المعروف أن انقسام الفكر الاجتماعي والسياسي الى تيارين — يقول أولهما بضرورة صياغة المستقبل على صورة الماضي ، ويقول ثانيهما بضرورة اصطناع الحضارة الاوروبية في العصر الرأسمالي كما هي تقريبا — ليس ظاهرة عربية خالصة ، ولكنه واضح في سائر الثقافات الحديثة في البلدان « المتخلفة » ، بما في ذلك روسيا القيصرية نفسها • الا أنه كان من مآثر اللينينية حل مسألة التحديث في روسيا خلال ممارسة الثورة الروسية ، كما أن حلها في الصين كان من مآثر فكر ماوتسي تونغ • ولعلنا نستطيع أن نعرف باختصار العمل النظري الجبار الذي قام به لينين وماو ، في هذا الصدد ، بأنه الانتقال من المجرد العلمي الى الملموس العلمي ، أو ما يسميه ماو اقتران الحقيقة العامة للماركسية اللينينية بالممارسة الخاصة للثورة الصينية •

من هنا بالذات ندرك أهمية النظرية الماركسية اللينينية في كل نهضة قومية في عصر الامبريالية • ومن هنا كذلك ننطلق في تأكيدنا أن ما ينقص الفكر العربي المعاصر في طرحه الجديد لمسألة الثورة ، ليس العبارة الثورية المجردة ، أو الفوضوية ، أو العدمية ، أو الجمالية ، ولكن الفكر الثوري الذي يعرف أن جوهر الماركسية هو بحسب تعبير لينين التحليل الملموس لواقع ملموس ، والذي يصوغ من خلال ممارسة الثورة العربية نظرية الثورة العربية المستمرة على مراحل متلاحقة • (الفكر العربي في عصر النهضة ، البرت حوراني ، دار النهار ، بيروت ١٩٦٨)

ميشال عاصي

« نحو مجتمع جديد » :
فلسفة مثالية في ثوب الجدلية والعلم

« نحو مجتمع جديد » ، كتاب الدكتور ناصيف نصار الصادر عن دار النهار في بيروت ، لعله أبرز محاولة فكرية لنقد الواقع الطائفي في لبنان ولنقد الواقع الاجتماعي والسياسي القائم ، من وجهة نظر قومية اجتماعية وفي سبيل قيام الدولة العتيدة ومجتمعها الذي هو مجتمع « علماني علمي » كما يقول المؤلف ويصفه باسهاب وحرارة في الصفحات الاخيرة من خاتمة كتابه ٠

يضم الكتاب مقدمة تحديدية لاغراضه ومنهجه ، وست مقالات ٠ تتناول أولاها وهي بعنوان « خروج من القرون الوسطى » نشوء التيار اللاطائفي والعلماني في الفكر اللبناني مع المعلم بطرس البستاني ، والدكتور شبلي الشميل في القرن التاسع عشر ، وفي بداية هذا القرن ، وهي تحلل الفوارق الجوهرية في نمو التفكير اللاطائفي والعلماني ، وتطوره من تفكير لا طائفي وطني مؤمن ، مع البستاني ، الى تفكير علماني علمي أممي ، مع الشميل ٠ وقبل أن ينتقل الكاتب الى المقالة الثانية كان بوده أن يتحدث عن بروز « حركة ثورية تأخذ على عاتقها تحرير المجتمع فعليا من الطائفية ، ومن الامر الواقع الذي فرضته السياسة الغربية ، وتعمل على خلق مجتمع جديد ومرحلة حضارية مزدهرة ، مكملة ومحققة التيار الذي انطلق في أواسط القرن الماضي » (ص ١٠) وهو يعني بذلك تيار العقيدة القومية الاجتماعية ٠ لكنه اكتفى فقط بالاشارة اليه لان « الكلام على ذلك يتجاوز حدود هذا البحث ، ويقتضي دراسة مستقلة مطولة » (ص ١٠)

أما المقالة الثانية فمخصصة لنقد آراء الدكتور كمال الحاج في كتابه : « الطائفية البناءة أو فلسفة الميثاق الوطني » ، ولنقد منهجه الفلسفي ، وبيان ما في تفكيره « من السفسطة واللاواقعية » (ص ٦٥) واثبات جنوحه « عن الطريق الملكي للفلسفة ، لانه لم يضع نفسه كما يجب في خدمة العقل الفلسفي » (ص٧٣) واعتبار تفكيره عودة الى القرون الوسطى ، الى المرحلة التي كانت الفلسفة فيها « تشعر بالتعاسة لانها كانت مخضعة للشريعة » (ص ٧٣) واذا بالدكتور

حاج وقد جاء « كي يحررها من ذاك الشعور فخضعها للشريعة والسياسة » (ص ٧٣) ٠

في المقالة الثالثة يبدأ المؤلف بتعيين النظرة التي ينطلق منها لمواجهة المشكلة الطائفية وسائر القضايا الاجتماعية الاخرى ، فيحاول هنا ارساء القواعد النظرية العامة لمفهومه الاجتماعي والحضاري ممهدا بذلك الطريق الفلسفي الذي سيسلكه حيال القضايا المطروحة في المقالات التالية ٠

في المقالة الرابعة يواجه المؤلف رأسا مشكلة الطائفية في لبنان باعتبارها « نظاما وايديولوجية » ، أي «نظاما كليا » له ، في رأيه أساساته وأركانه ودعائمه في جميع قطاعات المجتمع اللبناني (ص ١٠٣) وليست نتيجة النظام الرأسمالي السائد ، كما يريد أن يفهم ذلك من آراء الماركسيين في هذا الموضوع ٠

وفي الخامسة ينتقل الى تعميق الدور الذي تلعبه الجماعات الطائفية ، والى الدور المضاد الذي تلعبه في المقابل قوى اجتماعية اخرى وهي ، في نظره ، « الطبقات » ، « والاحزاب » ، « والنقابات » ٠ وبعد ان تفرض عليه منطلقاته الفكرية ، ونظرته الفلسفية ٠ ان « المجتمع اللبناني يتجه في الظروف الراهنة نحو تكوين متعدد الفئات أكثر مما يتجه نحو مجتمع ، فلا وجود لطبقة واحدة دنيا ، أو وسطى ، أو عليا ، يسودها قدر مشترك موحد على صعيد العمل الانتاجي وطرق التفكير والمعيشة » (ص ١٥٩ ــ ١٦٠) وان النقابات العمالية كالطبقات الاجتماعية « لا تسير في الاحوال الراهنة نحو توحد طبقي متكامل بل تسير نحو تمايز بين الفئات العمالية » (ص ١٥٧) يصل الى تقرير المقولة التي يبدو أنه يسعى اليها ، ويرغب فيها ضمنا منذ المنطلق ، وهي ان الجماعة التي يمكنها أن تجابه الطائفة مباشرة هي الحزب السياسي ٠ وبالطبع ليس الحزب الطائفي ، أو العمالي ، أو الطبقي ، بل الحزب الذي يصفه بأن الولاء الاول فيه « هو الولاء للمجتمع ، أي للامة والدولة التي تمثلها » (ص ١٧٢) ٠ والحقيقة أن أهم فصول الكتاب هي المقالات الثالثة والرابعة والخامسة ، لانها تشتمل على المفاهيم النظرية الاساسية لتفكير المؤلف ، ولانها تقدم نماذج عملية عن ممارسة النقد الاجتماعي ، والتحليل السياسي استنادا الى تلك المفاهيم ٠

أما المقالة السادسة والاخيرة ، فمكرسة لرسم معالم النظام القومي الاجتماعي كبديل « علماني علمي » للمجتمع الطائفي القائم حاليا في لبنان ، وتوضيح طريق العمل الثقافي الثوري ودوره في هذا السبيل ٠ « وهذا يعني ان الثورة العلمية الثقافية المنشودة في لبنان مدعوة الى تغيير المقاييس والغايات التي تخضع لها الثقافة السائدة في المجتمع بوجه العموم » (ص ١٨٩) ٠

وليس يخفى ، بالطبع أن عمل المؤلف في كتابه هذا انما تنطبق عليه جميع المواصفات التي قدمها للثورة الثقافية المنشودة في باب الفلسفة عامة ، والنقد الاجتماعي بصورة خاصة ٠ غير ان الثورة الثقافية لا تستقل ، في نظره ، عن الثورة الاقتصادية والثورة السياسية ٠ واذا كانت المعالم الاساسية لاهداف الثورة السياسية ، ونظام الدولة الذي تتوخاه وتسعى الى تحقيقه ، ليست غائبة عن تصور الكاتب ، وعن شكل التنظيم الذي ستؤول اليه السلطة السياسية في الدولة القومية الاجتماعية ، فان معالم النظام الاقتصادي ، وعلاقات الانتاج التي يمكن أن تقوم في الدولة القومية ، لا تجد لها مكانا في نظرة الكاتب الفلسفية ، وفي بحثه الاجتماعي المسهب ، لا لان العامل الاقتصادي عامل ثانوي مهمل ، بل لان « البحث في النظام الاقتصادي ــ الاجتماعي ، يقتضي ابتعادا عن موضوعنا

الذي يدور حول نقد المجتمع اللبناني من زاوية الطائفية » (ص ٢٠٣) مع العلم ان الناحية الاقتصادية لم تغب أبدا عن تفكير الكاتب عندما كان يهتم بنقد الواقع اللبناني السائد ، وبتحليل بنيته الاجتماعية والطائفية ، والترابط الموجود بين النظام السياسي والجماعات الطائفية ، وفي غير ذلك من المواضيع التي تصدى لها وهو يقوم بنقد وتحليل الوجه السلبي للمجتمع الطائفي في الوضع اللبناني الراهن .

الكتاب في الحقيقة غزير المادة ، متشعب الاغراض ، متعدد الموضوعات والابعاد ، يثير أكثر من قضية على أكثر من صعيد . ولا يمكن الناقد ، بأي حال ، ان يتعرض دفعة واحدة لجميع ما ورد فيه من نظريات وآراء تفصيلية جد مهمة . لكن الاهم الان وفي حدود النقد الاولي ، التركيز على النقاط الاساسية التي لا بد للفكر الموضوعي الذي لا ينفك المؤلف يكرر تبنيه لمنهجيته وعلميته ، من أن يسجل مآخذ جوهرية على دراسته ، وبالتالي على جميع النقاط التفصيلية الواردة في الكتاب والمستندة الى منطلقاته العامة من حيث النظرة الفلسفية ومن حيث منهجية البحث في آن معا .

وهنا تبرز مآخذ عديدة أهمها عندي بعض ما عابه المؤلف نفسه على فلسفة الدكتور كمال الحاج اذ توجهت أساسا الى خدمة غرض سياسي مسبق ، وهذا في رأي المنهج العلمي للفلسفة ، وفي رأي الدكتور نصار أيضا « تنكر لاسبقية البحث عن الحقيقة المجردة ، وتنكر لاستقلال الفلسفة ، وفي النهاية نسف لقيمتها السامية » (ص ٥٥) .

ان هذا الطعن الخطير الموجه الى فلسفة الدكتور كمال الحاج ، يمكن توجيهه أيضا الى فلسفة الدكتور نصار ذاتها ، مع فارق أن الدكتور نصار ، اذ يضع فلسفته في خدمة غرض مسبق ، يعرف كيف يسلك الى غايته سبيل منهجية استقرائية غنية بظواهر التحليل والتعليل قادرة على بلوغ ما يلائمها من معطيات الواقع واستخلاص الاستنتاجات اللازمة لتدعيم ذلك الغرض تحت ستار كثيف من القول بالمنهجية العلمية ومن ممارسة البحث الاستقرائي وأساليب الجدل الواقعي والتجرد . ومما يساعد فلسفة الدكتور نصار على أن تكون لها سمة المنهجية العلمية المجردة ، في حين تظل سمة التبريرية ظاهرة في فلسفة الدكتور الحاج ، ولاصقة بها منذ البداية حتى النهاية ، كون الدكتور الحاج يستعين بالفلسفة لتبرير واقع سياسي قائم فعلا في آنية التاريخ ، أما فلسفة الدكتور نصار فانها ، على العكس ، تستعين بالفلسفة وتتوسل منهجيتها الاستقرائية من أجل تبرير واقع سياسي واجب الوجود ، وهو قائم نظريا في معتقد صاحبه وفي ايمانه المسبق ، وشعوره الذاتي بوجوب قيامه . واذا كان أمر الدكتور الحاج قد انكشف رأسا وبسهولة كلية ، لانه يدافع عن واقع تاريخي مستنفد ، وبمنهجية فكرية مزاجية وغير مترابطة ، فان أمر الدكتور نصار مختلف الى حد ما ، وليس من السهل انكشافه بسرعة ، لانه يتجه طبيعيا ، في بحثه عن صورة الواقع المرغوب فيه والمقررة سلفا ، اتجاها نقديا لا بد له من أن يسلك شكليا ومنطقيا مسلك الاستقراء ازاء الواقع القائم الذي ينقده ، مما يتعذر معه وصم منهجيته بوصمة التبريرية وان تكن ضمنا ، وفي الحقيقة النهائية ، لا تختلف عنها من حيث الاستعانة بالفلسفة وبطرائقها العلمية الحديثة لخدمة رؤيا سياسية مسبقة ومحاولة فرضها على الواقع واغتصاب التاريخ ، بالفكر والتفلسف . وبالنتيجة تقع تقريرية الدكتور نصار واستقرائيته في مهاوي تبريرية الدكتور الحاج التي يشن عليها الدكتور نصار باسم البحث عن

الحقيقة المجردة و « استقلال الفلسفة » أعنف الحملات والذعها ٠

ولكم كنت أود لو ان صديقي الدكتور نصار قد اقبل فعلا على دراسة الواقع اللبناني من الموقف الفلسفي المجرد ، وبالمنهجية الجدلية التي تربط الفلسفة « في الصميم بحركة التاريخ والحضارة » (ص ١٠) والتي تجعل « مهمة الفلسفة ليست الدفاع والتبرير ، بل التفسير والتغيير» (ص ٧٣) وتجعلها « تأتي في أعقاب الواقع لا تسبقه ولا تكعمه أو تعبث به حتى يستجيب للاغراض والرغبات المسبقة ٠ وهو لو فعل لكانت دراسته « نحو مجتمع جديد » قد اتخذت الصفة الفلسفية الحقة ، واتجهت وجهة اخرى أكثر التصاقا بواقع التاريخ ، وأكثر قدرة على أن « تدفع بالوعي الى أبعد الاعماق وأوسع الافاق حتى يتسنى للانسان الملتزم استشراف الحركة التاريخية ، وتوجيهها بحسب امكانات الواقع الطبيعي والاجتماعي » (ص ٧٣) ، ولما كان كتابه أقرب الى الفلسفة التأملية والتفكير المثالي منه الى الفلسفة الاجتماعية التاريخية التي يرغبها لنفسه ولتفكيره، ويتصور انه يمارسها فعلا وانه يفتتح بها عهد فعل فلسفي خلاق ، ويدشن مرحلة ثورة ثقافية منشودة ٠

لكن الرغبة شيء وتحقيقها شيء اخر عندما تفوت الراغب الاصول الاساسية والمنطلقات اللازمة لبناء فلسفة واقعية علمية مجردة ٠

ولعل أول ما فات المؤلف في هذا السياق المفهوم العام للفلسفة الواقعية والعلمية ، وهو ان الفلسفة الفاعلة في التاريخ لم تعد تلك الفلسفة التأملية الذاتية المنغلقة على نفسها بعيدا عن ارتباطها الحي بالواقع ، ولم تعد كذلك تلك الفلسفة التي تتعامل مع الواقع ولكنها ترفض ان تتعاطى معه الا على أساس تبعيته لتصوراتها وخضوعه لمقولاتها ونظرياتها باعتبار أن الاولوية المطلقة في هذا التعامل هي للفكر وحده ، لا للتفاعل الجدلي الدائم والمطرد بينه وبين الواقع ، الذي هو في الحقيقة منطلق كل تفلسف منهجي علمي ، ومحوره وغايته ٠

وليس أدل على أن المفهوم العام للفلسفة عند الدكتور نصار ليس هو المفهوم الواقعي والعلمي ، من بعض ما صرح به هو نفسه أحيانا عن الاولوية المطلقة للفكر في تعاطيه مع الواقع وفي صياغته للتاريخ وتقريره لحركته ٠وليس أدل على ذلك أيضا من بعض ما حاول فرضه على الواقع وعلى حركته فرضا تعسفيا عندما تصدى بالتحليل لواقع المجتمع اللبناني من الزاوية التي يريد ، ومستخرجا الاستنتاجات التي تدعم رأيه ، ولا تتناقض مع غايته المسبقة التي يسعى اليها ٠ وهذا ما ينبغي الآن اثباته بشواهد من الكتاب وهي كثيرة جدا نكتفي بما يتيسر لنا منها ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ٠

أعتقد أنه يكفي للتدليل على نظرته الفكرية المستعلية على التاريخ والواقع، قوله في الصفحة (١٢٤) من كتابه : « ان المستقبل سيحمل الوجه الذي نرسم خطوطه ، والصورة التي نختار نحن الوانها » فان في هذه النظرة من الاعتداد المطلق بأولوية الفكر ، ومن اغفال لمعطيات الواقع التاريخي ، ولقواه ولدوره في توليد الفكر ورسم معالمه المستقبلية ، ما يكشف السر عن حقيقة المنهجية الفلسفية في كتاب الدكتور نصار وتصنيفها بين التيارات المثالية التي تتعاطى مع التاريخ لا على أساس التعامل الجدلي الحر بين الفكر والواقع بل على أساس اخضاع التاريخ لسلطان الفكر المثالي ، واخضاع الفلسفة بالتالي لخدمة أهداف ايمانية وذاتية مسبقة ٠

واذا لم يكن الخط الفلسفي عند الدكتور نصار مستندا الى هذا المفهوم المثالي العام ، بل الى منهجية استقرائية علمية تبحث في سوسيولوجية الواقع اللبناني قبل استنتاج أي موقف واستخلاص أية نظرية مسبقة كما يدعي ،فاننا لنتساءل كيف أمكن المؤلف ، قبل التعرف الى هذا الواقع الحي والتعريف به وبأصول المنهجية التي سيتبعها في دراسته له ابتداء من المقالة الثالثة ، أن يواجه فلسفة الدكتور الحاج بتلك الحجج والقناعات الاستنتاجية الثابتة التي تبدو وكأنها حصيلة بحث استقرائي كامل لم يقم به المؤلف بعد ، وخاتمة فصول طويلة سيأتي اثباتها في المقالات التالية لمقالته عن فلسفة الدكتور الحاج وعن منهجيتها « السوفسطائية واللاواقعية » ٠ هذا فضلا عن الروح العامة التي تسيطر على الكتاب ، والتي تشعر القارىء المستنير بأنها تستبطن ضمنا هدفا بعيدا اخر غير الاستقراء العلمي الحر الذي يعطي الفلسفة قيمتها السامية ويحقق أسبقية البحث عن الحقيقة المجردة كما يقول الدكتور نصار نفسه في غير مكان من كتابه ٠

ولان الدكتور نصار ينطلق في فلسفته من مفهوم عام هو في حقيقته مفهوم مثالي في تعامله مع الواقع التاريخي ، ويستبطن غرضا اخر غير غرض البحث الاستقلالي المجرد فقد انساق في تحاليله السوسيولوجية وفي استنتاجاته الى مواقف تتعارض مع معطيات الواقع ، والى مفارقات يأباها التفكير الموضوعي وترفضها النظرة الصافية الى الاشياء والاحداث ٠

ليس بالمستطاع طبعا رصد جميع هذه المواقف والتناقضات في حدود مقالتنا الراهنة ، لكن بالامكان الاشارة الى أبرزها ومناقشة ما هو مهم وأساسي منها بالدرجة الاولى ٠

من ذلك مثلا التشديد على اعتبار الطائفية في لبنان « ظاهرة اجتماعية كلية تؤلف نظاما كاملا له أساساته وأركانه ودعائمه في جميع قطاعات المجتمع اللبناني » (ص ١٠٣) وذلك لان « النظام الطائفي الذي يعيش عليه لبنان اليوم مؤسس في الدستور والميثاق الوطني » (ص ١٠٣) لكن أليس النظام الاقتصادي السياسي القائم حاليا في لبنان مؤسسا هو أيضا في الدستور ، وبشكل أظهر وأدق وأعمق من الطائفية التي لا يلحظها الدستور بشمول كما يلحظ النظام السياسي الاقتصادي ، ولا يكرس العمل بها الا مؤقتا لانها ظاهرة جزئية وواقع اجتماعي عابر ؟ فلماذا تكون الطائفية في نظر الدكتور نصار نظاما كليا وايديولوجية ولا يكون النظام الاقتصادي السياسي وايديولوجيته هو النظام الكلي الذي يعيش عليه لبنان اليوم والطائفية ظاهرة اجتماعية بارزة ضمن هذا النظام وجزء رئيسي من واقعه ومن ايديولوجيته ؟

الواقع ان الدكتور نصار يعرف جيدا أن نقيض النظام الكلي الذي يسود لبنان حاليا هو بالتأكيد نظام كلي معاكس له من جميع النواحي الاساسية وهو ما تتململ به وتشير اليه بوادر الحركات التمردية وانتفاضات الاجيال اللبنانية الطالعة ٠ لكن ، لكي لا يكون البديل نظاما سياسيا اقتصاديا مناقضا للنظام الرأسمالي الليبرالي القائم مما لا يتفق مع مفهوم المجتمع الذي يرغب الدكتور نصار مسبقا في أن يكون ذاك البديل ، كان لا بد من طرح الطائفية نظاما كليا لان نقيضها حينئذ هو حتما العلمانية وليس شيئا اخر غير الرأسمالية الليبرالية والانظمة الاجتماعية الطبقية المختلفة ، كالاشتراكية مثلا ٠

ولان « كل شيء في المجتمع يبدأ بالسياسة وينتهي بها » (ص ١٠٨)

ولان المواطن اللبناني بات « يشعر بأن الاستقرار السياسي الحالي واجهة تحجب تحولات قد تنفجر فتكون أخطر ما عرف لبنان في تاريخه الحديث » (ص ١١١) كان لزاما على الدكتور نصار أن يحتاط للامر سلفا فيحلل القوى الاجتماعية المتصارعة فيما بينها على أرض الواقع اللبناني . فاذا هي في نظره التحليلي أربع : الطوائف والطبقات ، والاحزاب ، والنقابات (ص ١٣٥) ، فيزيل منها ما يروق له أن يزيل ولا يبقي طبعا الا الاعلى الحزب اللاطائفي واللاطبقي واللانقابي .

ولعل أعجب ما يلفت النظر في هذا التقسيم لصراع القوى الاجتماعية في لبنان انه تقسيم سكوني لا يلاحظ ارتباط الاحزاب السياسية بالواقع الطبقي والنقابي ، كأن ثمة أحزابا سياسية أو نقابات لا تعبر بشكل او باخر ، من قريب او من بعيد ، عن واقع طبقي ، أو عن منطلقات وتطلعات ذات مضمون طبقي او صفة طبقية او سياسية بالاقل .

والاعجب من كل هذا أن « المنهجية الاستقرائية العلمية » التي يحمل الدكتور نصار لواءها ، ولا ينفك خلال بحثه يذكرنا بحريتها ، وتجردها عن الاغراض المسبقة ، لا سيما الاغراض السياسية ، وباستجابتها للواقع وتقيدها بمعطياته ، قد قادته الى استبعاد دور الطبقات - والنقابات أيضا - في تغيير الوضع الطائفي واستبداله بنظام اجتماعي اخر لسبب بسيط جدا ، وهو ان الطبقات في نظره غير موجودة فعليا في لبنان ، لان الوعي الطبقي الذي هو « جزء رئيسي في حقيقة الطبقة » (ص ١٥١) لم يتولد عند اللبنانيين بعد .

لكن ربما خطر لسائل ذي منطق جدلي ، أو ذي حس سليم ، أن يسأل : ولماذا لن يتولد الوعي الطبقي عند اللبنانيين ما دام ان الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه واقع طبقي ، وما دام ان قاعدة المجتمع المادية في نظامهم الاقتصادي والسياسي هي قاعدة طبقية كذلك ، وما دام ان الدكتور نصار نفسه يقر في نقده لفلسفة الدكتور الحاج بوجود معركة طبقية في لبنان اذ يقول بصيغة النفي الاثباتي : « كأنما المعركة الاقتصادية التي تخوضها الطبقات الكادحة غير موجودة » (ص ٧٢) .

وهنا لا بد للدكتور نصار كمفكر منهجي علمي من الموافقة على قول السائل لانه قول يستند الى واقع محسوس ، فضلا عن استناده الى رأي للدكتور نصار نفسه كما سبق : « قد يكون بروز الجماعات الطبقية والوعي الطبقي والصراع الطبقي الطريق الامثل للقضاء على الطائفية السياسية ... لكن الى أي حد يسمح الواقع بتصور النجاح في الانتقال من الايديولوجية الطائفية الى الايديولوجية الطبقية » (ص ١٥٠) .

هنا أيضا تنبري النهجية الاستقرائية في فلسفة الدكتور نصار الى البحث عن الحدود التي يجب ألا يسمح بها الواقع لنجاح الانتقال من الايديولوجية الطائفية الى الايديولوجية الطبقية .

ولكي لا تسمح تلك الحدود ببروز الايديولوجية الطبقية ، كان على البحث المنهجي الذي يستقرىء الواقع بدقة وشمول وحرية ان يقود الدكتور نصار الى أن يحصر حدود الواقع الاجتماعي في لبنان بحدود البرجوازية الصغيرة وهي الطبقة الاكثر عددا والاكثر تشوشا في انتمائها الاجتماعي ، وفي وعيها لهذا الانتماء ، فضلا عن تنوعها وتشابك مصالحها وتذبذب علاقاتها مع الطبقة العليا والطبقة الدنيا بشكل كثيف ومعقد لا يستطاع معه طبعا الا موافقة الدكتور نصار على

مقولته «المنهجية الاستقرائية» بأن الطريق أمام بروز الوعي الطبقي والصراع الطبقي مسدودة سدا محكما لا يقبل الجدل والنقاش • وأما طبقة الكادحين في لبنان وطبقة المستثمرين الاثرياء فليس يلحظهما البحث المنهجي الحر لا من قريب ولا من بعيد ، وليست تراهما عين الفلسفة العلمية الواقعية التي يصر الدكتور نصار على أن يحلل بها واقع المجتمع اللبناني ، ويراقب قواه وتطوره على ضوء مجهرها النافذ الدقيق •

وكما حاول المؤلف أن يسقط من مدى رؤيته القطبين الاساسين لمحور الصراع الطبقي في لبنان حتى لا يكون الصراع موجودا ، وينتفي بذلك حظ الانتقال من الايديولوجية الطائفية الى الايديولوجية الطبقية ، كذلك حاول تقديم الماركسية على انها مذهب نظري كلي متماسك ، ان صحت بالنسبة الى واقع معين ، فانها لا تصح بالنسبة الى واقع اخر غير الواقع الذي استخرجت منه • (ص ١٤٦) • والحقيقة التي لم تعد خافية على كثير من أهل الفكر ، فكيف على الفلاسفة ، هي ان الماركسية منهج في التفكير وطريقة علمية في البحث عن المعرفة وفي استقراء الواقع والتاريخ • وهي ليست مذهبا الا اذا أخذ الاخذون بها نتائج الابحاث الماركسية في مكان وزمان معينين كمقولات عامة نهائية جاهزة للممارسة والتطبيق في كل مكان وزمان يجب على الواقع أن يتقولب بقوالبها وليس عليها أن تتنازل عن حرف واحد مما جاء في تلك النتائج والمقولات • والحقيقة التي لم تعد خافية على أحد كذلك هي أن الماركسية ليست ما كتبه ماركس وان تكن تنسب اليه ، وليست ما كتبه انجلز ولينين وغيرهما من اعلام الماركسية السابقين بل هي الى ذلك حصيلة تجارب هذا الفكر ، وحصيلة تجارب منهجيته وممارسته وتطبيقه ونجاحاته في جميع أنحاء العالم بلا استثناء •

واذا فاعتبار الماركسية مذهبا نظريا كليا مغلقا عند حدود النتائج التي جاء بها مؤسسها الاول ، عمل يتجاوز اطار الموضوعية والعلمية ، كما ان العبث بحقيقة الوجود الطبقي في الواقع اللبناني المتحرك ، ومحاولة قياسه بمقاييس ونظريات ماركسية مذهبية لا منهجية ليس من شيمة الفلسفة الحرة والمنهج الاستقرائي في البحث والتجرد •

ولئن دلت هذه الوقائع في تفكير الدكتور نصار ، وفي استنتاجاته على شيء فهي انما تدل في نظرنا على أحد أمرين : فاما أن المؤلف يلتزم فعلا بما يعلن عندما يقول : « ان التفكير العلمي يقوم على جدلية الفكر والواقع ، بحيث يستخرج الفكر مضمون مفاهيمه من الواقع ويصوغ تعريفها في سبيل تفسيره تعليلا وفهما » (ص ١٤٧) غير انه لم يستطع الاحاطة الشاملة بجميع ابعاد الواقع ومعطياته فأخطأ الرؤية الدقيقة والاستنتاج الصحيح • واما انه لا يؤمن فعلا بما يقول ولا يلتزم بجدلية الفكر والواقع وبمنهجيتها الصارمة ، وانما على العكس يؤمن بالمنهجية المثالية للفلسفة ، تلك التي تفرض تصوراتها الذاتية ومزاجيتها الاعتباطية ، ومنطقها الشكلي السفسطائي ، على الواقع والتاريخ ، فتعمد الى التحكم بصورة الواقع وصياغته على الشكل الذي تريد ، والذي يتلاءم كليا مع رغبتها المسبقة في تكوينه كما لم يتورع الدكتور نصار عن فعله في مواجهته للواقع الاجتماعي اللبناني ، وفي تحليله لواقع القوى المتصارعة على أرضه وفي كلامه على الماركسية كمذهب مغلق كامل ونهائي ، لا كمنهج حي منفتح قبل كل شيء • وفي كلا الحالين لا يبقى مع الاسف شيء كثير من صفات العلمية والواقعية والمنهجية الجدلية التي حاول المؤلف جاهدا ان يضفيها على كتابه وفلسفته في كل مناسبة محاولا بذلك أن يبعد نفسه عما وقع به الفلاسفة التبريريون ، وما انزلق

فيه ذوو الاغراض السياسية والاهداف المسبقة من أهل الفكر والسياسة ٠والحق انه كان حذرا جدا ولبقا جدا في ملوك هذه الطريق ٠ لكن الدرب الى غايته كانت طويلة وشاقة ومحفوفة بالصعوبات والمخاطر مما لم يفلح فيه الحذر والحيطة دائما ، فاضطر أحيانا أن ينزلق الى حيث لا يريد الانزلاق ، وصدرت عنه بصورة عفوية آراء تبدو متناقضة مع ما يدعيه من فكر جدلي ومنهجية علمية ، كانت الدليل الاكيد على عكس هذا الادعاء وكانت الحجة البريئة الدامغة على اخضاعه الفلسفة لتحقيق أغراض سياسية ، وأهداف عقائدية مسبقة وعلى تقديمه « الموقف السياسي على البحث العلمي » ٠ من ذلك مثلا قوله : « فهل من مصلحتنا أن نحافظ على واقع لا يفسح المجال واسعا لعمل العقل ؟ وهل كانت الفلسفة يوما غير دعوة لتحقيق الانسان بواسطة العقل ؟ » (ص ٧٢) وهو القائل بكثير من الوضوح والدقة أيضا ، مؤكدا على منطلقه المثالي ومنهجه اللاجدلي أن مهمة الفلسفة « ايقاظ الوعي بالنقد والسؤال ، وفرض التغيير بالتحدي ، وحمل الانسان على الانخراط كليا في مغامرة خلق الذات بالذات في زمن التاريخ ٠ واذا لم تقم بذلك المهمة فأحرى بها أن تسمى فذلكة لا فلسفة » ٠ (ص ٧٣) ٠

ان فلسفة الدكتور نصار ليست على كل حال من نوع الفذلكة ٠ وقد يكون من باب التجني على الفكر والواقع نعتها بغير النعوت التي تليق بأعمال العقل الفلسفي ٠ لكن ليس من باب الدقة والصواب كذلك الموافقة على ما يصفها به صاحبها من جدلية وواقعية ٠ ولعل الاصوب أن نقول : انها فلسفة مثالية في ثياب المنهجية الجدلية والعلم ٠

يوسف الحوراني

نحو معنى جديد للقومية العربية

هناك أسئلة كثيرة تنهض أمام الفكر الباحث ، عندما يحاول استعراض المصير التاريخي الحديث للشعوب العربية أو للشعوب الموازية لها في المسيرة الحضارية • من هذه الاسئلة :

هل تخلصت هذه الشعوب من ذهنيـــة السحر في معالجة قضاياهـــا المصيرية ؟ هل ان الثورات والانقلابات المتتالية فيها قادتها الى المنطلق الصحيح الذي يؤدي الى الحضارة العالمية الحديثة ؟ هل ان هذه الشعوب وصلت ببعض انتفاضاتها ، الى ثورة منهجية تقود الى معنى جديد لحرية الانسان فيها ؟ وما هي قابلية منهاج التفكير العربي الحاضر للمشاركة في المصير العالمي العام للانسان ، أو لمعالجة القضايا العربية بالنظرة العالمية لهذه القضايا ؟

الخطأ المنهجي

لقد استخدم العرب في تعريف قضاياهم القومية لشعوب العالم المنهاج الفكري القديم الذي ألفوه • وهذا المنهاج يعتمد اسلوب الاقتناع الشخصي بالحق، والحماسة للبذل في سبيل احقاق ما ينص عليه هذا الحق • وهو عين الاسلوب العقائدي الديني الذي قامت عليه الانتصارات الدينية في الماضي لدى جميع الشعوب • لكنه يرفض كل فكرة حوار وشك مع الايمان، بل يرفض فكرة اعادة النظر ، لكونه ينطـــلق عن الايمـــان وليس عن قناعـــات المنطـــق التي تشترط استعمال الحوار ومقارعة الحجج •

ومقابل المنهاج العربي هذا وقف منهاج آخر يناقشه ويسائله عن مستندات الحقائق فيه • وهذا المنهاج هو منهاج العـــلم الحديث ، أي منهاج العالم المتحضر المعاصر • ومبدؤه الاساسي هو الرفض المسبق لكل مطلق لا يقبل الشك والمحاورة ، ثم استعمال الارقام وقواعد الخسارة والربح من زاوية شخصية لقياس الحقائق الانسانية المطلقة عند الغير •

وعندما فشل العرب بتعريف بدهيات حقوقهم ، في فلسطين ، بصيغة

الحق الطبيعي للشعوب ، كما أقرته المجالس العالمية بعد الحرب العالمية الثانية، انما كان فشلهم فشل منهاج فكري عاطفي قديم أكثر منه فشل الحقوق الطبيعية ذاتها بأن تكون حقوقا ، وتعترف بها المنظمات الدولية التي تمثل شعوب العالم ·

فقد اعتمد العرب الايمان العاطفي بالحق ، فرفعوه بهذا الايمان الى قداسة الغيبيات ، واستثاروا عواطف الجماهير للدفاع عنه والقضاء على المتجاوزين عليه بأساليب الاستثارة نفسها التي عرفتها عصور الايمان بمقدسات الغيب · وعندما أخطأ الغرباء في فهم الحق العربي بهذا الاسلوب ، أو عجزوا عن ادراك براءة الاسلوب العربي فاتهموه بالتعصب المغلق ، أو رجحت مصالحهم ومخططاتهم مع مقاومته ، تحول الخطأ الى عداء خارجي ومواقف عاطفية داخلية أوقفت كل نقد ذاتي ، وحالت دون أية تجربة لاعادة النظر بالمواقف الفاشلة ، أو المشكوك بسلامتها ، وفق المنطق العالمي لمواقف الشعوب أمام حقوق الانسان ·

الضحية الاولى

لقد كانت فلسطين احدى ضحايا العجز في أسلوب الفكر العربي نسبة للفكر العالمي المعاصر ، قبل أن تكون ضحية عجز في القوى العربية الحربية ، أو في السياسة العربية الادارية ، اذ ان جميع ذلك يعود الى منهاج الفكر · وكان الخطأ العربي الاكبر هو الاعتقاد بأن الصراع في فلسطين هو صراع قومي : عربي ــ يهودي ، أو عربي ــ صهيوني ، كما يشاء بعض اليهود أن يتظاهروا في المجتمعات المتقدمة ليبرئوا قوميتهم · فصراع فلسطين هو صراع القومية العربية ، ليس مع الصهيونية وحسب ، وانما مع الموقف العالمي المعاصر تجاه أية فكرة قومية · وهو الصراع نفسه الذي فقد فيه العرب عربستان ، ولواء اسكندرونة ، كما فقدوا الوحدة بين بلاد عربية عديدة ، لم يكن أي مسوغ لتقسيمها سوى الغاية ذاتها التي سوغ بها الغرباء سلب فلسطين ، وتشتيت أهلها وسوغ بها الغربيون اليوم نصرتهم لاسرائيل والحماسة لها ·

وتبدو هذه الغاية جلية واضحة في رسائل مكماهون الانكليزي الى الحسين في الحرب العالمية الاولى · فمكماهون كان يتهرب من تحديد تخوم بلاد العرب· وعندما اضطر الى تحديدها عمد الى تجزئتها في قوله (١) : « ان ولايتي مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماه وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة · »

كما تبدو المقاومة للقومية العربية جلية بارزة ، في المستوى العالمي ، من خلال الترحيب الواسع الذي لاقته الصهيونية عندما أعلنت دولتها على أرض فلسطين سنة ١٩٤٧ · ففي قضية فلسطين برزت القضية القومية العربية كفريق منفرد ، يقف معارضا له مفهوم عالمي عام يجمع شعوبا مختلفة ، متباينة العقائد والمواقف السياسية ، ليجعلها فريقا واحدا في مناهضة الفكرة العربية ·

---

(١) النص من مذكرة مكماهون الثانية للحسين ــ من كتاب « جيل الفداء » لقدري قلعجي ــ دار الكتاب العربي ·

ويخطىء العرب اذ يظنون ان اليهودية العالمية هي التي جمعت هذه الشعوب على تأييد الصهيونية • فقد اجتمعت الولايات المتحدة وروسيا على تأييد قيام اسرائيل ، بينما لم تجتمعا على قضية من القضايا ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، التي كانتا اجتمعتا فيها فقط على مقاومة القومية العنصرية في ألمانيا وايطاليا واليابان •

النقمة على القوميّة

ان الغرب والشرق معا لا يزالان يعانيان من جراء الحرب العالمية الثانية • وأية فكرة قومية انما توقظ أول ما توقظ لدى الشعوب التي ذاقت ويلات تلك الحرب ، ذكريات الفاشستية وفظائعها باسم التعصب القومي •

ولو التفتنا الى أكداس الكتب التي ظهرت في العالم ، بعد الحرب العالمية الثانية ، لدحض فكرة القومية واقصائها عن أذهان الشعوب ، لعرفنا معنى الموقف العالمي من العرب ، ومن كل ما يمت الى القضايا العربية القومية برابطة• وحين نتذكر ان الذهنية التاريخية للغرب مشحونة بالحذر نحو العرب ، الذين كانوا ، حتى وقت قريب ، يشكلون العالم الوحيد المنافس للعالم الغربي بالعقائد وبقوى الحرب ، نعرف مدى الجهد الذي كان يتوجب على الفكر العربي القيام به لازالة هذا الحذر وابراز الوجه المسالم الذي يريده العرب من اجتماعهم وتعامل مجتمعاتهم معا ، ومع العالم تحت شعار القومية التي يرونها لهم حاجة اجتماع وليست منطلق تعصب واعتداء •

فقد طالب العرب بحقهم في أن يكون لهم قومية ، ولكن ذلك كان بعد أن أضحت فكرة القومية تثير الرعب في العالم ، لما جرت عليه من حروب ودمار • حتى أننا نقرأ رأيا لفيلسوف روسي معتدل هو بردياييف في حديثه عن عبودية القومية في كتابه « العبودية وحرية الانسان » (٢) ، نقرأ قوله : « ان القومية هي كعبادة الاصنام • كما أن الاصنام تتطلب ضحايا بشرية لترضى ، كذلك هي القومية في طلبها للضحايا » • ولعل هذا الرأي أصبح رأي العالم أجمع بعد الحرب العالمية الثانية ، لا فرق فيه بين المنتصر والمنهزم • بينما بقي الاجتهاد القومي الفكري في العالم العربي عاجزا عن ايجاد صيغ جديدة عملية لقومية النمو الانساني التي يحتاج اليها العرب ، كما بقي مصرا على حصر تعريف القومية في المجال العاطفي الذي لا يحتاج الى جهد تعريف •

وأمام هذه الحقيقة التي تحكم المصير العربي المعاصر ، وتفرض عليه اطاره التاريخي ، من خارجه ، ومن خلال ما له من ارتباطات عالمية جبرية ، اقتصادية وسياسية ، كان على الفكر القومي العربي أن يكون ذا جرأة ومبادرة وقدرة على الابداع ليوجد تعبيرا عمليا جديدا عن مسألة القومية العربية واستعدادها الطبعي للعدالة والتعاون المخلص مع جميع من يتماس معها ، أو يرتبط بها بمصيره أو بجزء منه في الداخل أو في الخارج • كشأنها التاريخي في الانفتاح على العالم ابان الازدهار العربي في دمشق وبغداد والقاهرة وبلاد الاندلس •

لكن ما حدث كان عكس ما يطلبه مجرى التاريخ العالمي المعاصر • فبدلا من أن يبحث المفكرون العرب عن صيغة فكرية تحفظ للثقافة العربية عالميتها التي

---

(٢) الترجمة الفرنسية ــ طبعة مونتيني الاولى •

رافقتها مع الاسلام ، وتبعد عن العرب النزعة القبلية ، التي كانت لهم قبل انطلاقتهم العالمية ، نجدهم تصاغرت مطامحهم وطغى على أذهانهم الفكر السياسي الآني فراحوا يستعينون بالدعوة القومية كعاطفة ووسيلة لغاية ، بحيث حلت في مكان صوفي لديهم كان يحتله الدين في الماضي وبعد ذلك ابتدأ الفكر العربي يجر نفسه ببطء خلف عواطف الجماهير المأخوذة بالتدين الجديد بينما كانت الحاجة تدعو الى فكر جريء متحرر يتفجر في الامام ويعتمد الحوار والنقاش ليحرر الذهنية العربية من منهاجها القديم المبني على العاطفة والايمان الغيبى الموروث عن عصر التدين .

خطأ التوقيت

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد نتائج هذه التجربة هو : هل ان الفكرة القومية طرحت في العالم العربي على الوجه الصحيح الذي كان يجب أن تطرح عليه ؟

وهل هي منهج جديد صالح للحضارة العربية يمكن بواسطته الحفاظ على التراث العربي الماضي ؟

وهل كان طرحها بعد سقوط الامبراطورية العثمانية كسبا للعرب ، أم كان خسارة لهم ؟

لقد كان العرب بحاجة للفكرة القومية عندما كانوا بحاجة لتمييز شخصية لهم في ظل السلطنة العثمانية . وكانت هذه الفكرة من أشد الضرورات الحاحا للحفاظ على اللغة العربية ، بعد أن عمد الاتراك الى تتريك البلاد العربية والقضاء على تراثها الحضاري بالقضاء على لغتها . ولكن بعد ضياع الامبراطورية العثمانية وعودة العرب الى أمانة التراث الضخم الذي كان العثمانيون جمدوا تطوره ، أصبحوا مطالبين بأكثر من أفكار التحرر من الاجانب ، أو العزلة والانكماش على الذات في ظل شعار القومية وفق المفهوم الغربي الذي تبنوه لها . لقد كانوا مطالبين بمجتمع عالمي منفتح تكون شريعته قبول جميع القوميات والطوائف التي انتمت الى التراث العربي أو انفعلت به . ولم يكن يستطيع أن يصل بهم الى مثل هذه المسؤولية الا ثورة جديدة في مفهوم الحريات الانسانية ، تكون مماثلة لتلك الثورة التي أوجدها الاسلام في بدء انطلاقته ، عندما ألغى التمييز بين الانسان والآخر الا بالاخلاق والتقوى .

ومثل هذه الثورة لم تكن لتأتي قطعا بطريق الصيغة القومية التي اقتبسها المفكرون العرب متأخرين عن الغرب ودون تعديل بعد أن تنكر لها الغـرب وتجاوزها ، باذلا ملايين الضحايا على مذبحها في الحرب العالمية الثانية .

وقد ارتفعت القومية العربية في بعض البلاد العربية الى مركز مقدس ، فاحتلت في نفس مثقفي هذه البلاد فراغا صوفيا سحريا ، كانت تحتله قبل ذلك الخلافة الدينية في نفس العربي ، ابان الخضوع الذهني للعثمانيين . وان المرء ليعجب من قبول المثقفين العرب بالتهاون بتاريخ حضاري ضخم ضم أمثال : البيروني وابن سينا والخوارزمي والطوسي والفارابي والمئات من أمثال هؤلاء لينكفئوا على ذواتهم كشعب بدائي يبحث عن هوية قبلية له ، أو كشعب محارب

يبحث عن معبود يضحي بالآخرين لاجله كما هي حالة القبائل الافريقية اليوم أو كما كانت حالة الدول الفاشستية في الحرب العالمية الثانية ٠

واننا لنلمس شبه ادراك لهذه المسؤولية لدى بعض الذين كانوا يعالجون القضايا العربية قبل التحرر من العثمانيين ٠ ولكن هذا الادراك كان حسا غامضا ، لا يصدر عن وعي تحليلي ٠ وكثيرا ما كان يلتبس بالاحاسيس الدينية البريئة ، فيظهر من خلالها ، بدلا من أن يتحرر منها ويصبح مفهوما حضاريا اجتماعيا ، كما أصبح المجتمع الغربيالوارث للكاثوليكية ، أو الشرقي الوارث للاورثوذكسية ، أو الصيني الوارث للكونفوشية ، ونهج المعلمين الذي عاد الى التجلي بماوتسي تونغ ٠

واننا نرى هذا المنزع الغامض في برنامج جمعية العهد العربية السرية ، التي كانت تعمل في الآستانة للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، اذ رغم أن هذه الجمعية كانت سرية ، فهي لم تكن تطلب الانفصال القومي عن العثمانيين ٠ ونحن نقرأ في المادة الثانية من برامجها النص الآتي (٣) :

« ترى جمعية العهد ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بأيدي آل عثمان » ٠

ثم في المادة الثالثة تقول : « لما كانت الجمعية تعتقد أن الاستانة رأس الشرق ، وأن الشرق لا يعيش اذا اقتطعتها دولة أجنبية ، فهي تعني عناية خاصة بالدفاع عنها ، وتعمل للمحافظة على سلامتها » ٠ كما نجد مثل هذا النزوع يسيطر على مؤتمر باريس العربي سنة ١٩١٣ ، كما روى تفاصيله الامير مصطفى الشهابي (٤) ٠

وفي رسائل مكماهون للحسين أبدى ملاحظة مهمة حول جهل بعض العرب لمعنى القومية الغربي ، كما أراد أن يشرحه لهم ٠ فقد قال (٥) : « ان ما علمناه ، وهو ما يدهش ويحزن ، أن فريقا من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها ، وبدل اقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة الى الالمان والاتراك » ٠ والجهات التي عناها كانت لواء الاسكندرونة ٠

وبالمقابل نقرأ في رسالة الحسين الى مكماهون غموضا في الفكرة العربية، وتساهلا بها ، كان أقرب لان يكون ميلا الى خلافة اسلامية منه الى قومية واضحة٠ فهو يذكره بضرورة ارسال المساعدات لان (٦) : « ارسالها يمكن أن يكون وسيلة لتوكيد فحوى تصريحاتكم الى العالم ، وبخاصة العالم الاسلامي ، تلك التصريحات التي ذكرتم فيها أن عداءكم موجه بصورة كلية الى الحزب الذي اغتصب حقوق الخلافة ، واغتصب معها حقوق جميع المسلمين » ٠ هذا كان في الرسالة الثانية ، أما في الرسالة الثالثة فقد قال : « تسهيلا للوفاق وخدمة للاسلامية ، فرارا مما يكلفها المشاق والاحن ، ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا ، نترك الالحاح في ادخال ولايات مرسين وأضنه في أقسام المملكة العربية » ٠

(٣) مقدمة نقولا زيادة لترجمة كتاب «تركيا الفتاة» طبعة دار مكتبة الحياة ٠
(٤) محاضرات في القومية العربية ــ منشورات الجامعة العربية ٠
(٥) مذكرة مكماهون الاولى للحسين ــ قلعجي ٠
(٦) مذكرة الحسين لمكماهون ــ قلعجي ٠

ان العربي المخلص ليثور على مثل هذه المواقف من خلال النظرة القومية التي ألفها بعد الحرب العالمية الاولى ، ولكن المراقب وفق منطق فلسفة التاريخ يرى في هذه المواقف دلالات مهمة على التردد الذي كان يشوب انطلاقة الفكرة القومية لدى العرب في الزمن الحديث ٠

ولعل الظروف العربية فيما بعد هي التي قادت الفكرة القومية الى الوضوح والتغلغل في عواطف الجماهير ، حيث نشطت عاطفيتها كردود فعل على الاحتلال الاجنبي للبلاد العربية ٠ فهي ولدت ونمت على مسرح التحدي للمستعمر الغريب ٠ وكانت شرعيتها تجتمع في الخواص العاطفية التي تبثها في النفوس لمواجهة هذا المستعمر ، وقد قامت برسالة الفكرة الوطنية والنزعة الدينية الى جانب رسالتها هي ٠ وذلك في البلاد التي تضم بين سكانها عناصر غير عربية أو غير اسلامية ، كما هي الحالة في الجزائر والعراق ومصر ولبنان وسوريا ٠

وعندما انتهت المرحلة العاطفية مع انتهاء الجلاء الاجنبي ، أضحى على الفكرة القومية أن تبحث عن تشريع داخلي يكفل لها الاستمرار باستيعاب المسؤولية الوطنية والدينية مع مسؤوليتها الخاصة ٠ ولكن مثل هذا التشريع لم تطرح فكرته ، ولم تتضح لمعظم الثائرين ودعاة الاصلاح المصادر التي يمكن أن يستقي منها مبادئه ، ألا وهي حقوق الانسان المعاصر ومعاني حريته ، وفق المفهوم العالمي الذي تصارع جميع الشعوب لأجله ٠

الحقوق والحريات

لئن كانت ثورة الحقوق الانسانية قد تفجرت في القطاع الاقتصادي ، فطبقت الانظمة الاشتراكية في بعض البلاد العربية المتنورة ، فان هذه الثورة لم تصل الى جوهر الحرية الانسانية في هذه البلاد ذاتها لتقوم بتقييم العلاقة الوطنية بين الفئات الاجتماعية التي يتكون منها المواطنون ٠ ولو أنها قامت تلقائيا بتنظيم هذه الحقوق ، كما جرى في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة الاشتراكية الكبرى ، لما كانت المجابهة التي رأيناها في العراق أو في جنوب السودان ، أو التي لا بد من أن تحدث في بلاد أخرى ، ان لم يكن بدافع الحرية القومية فبدافع الحرية الطائفية التي أصبحت منهاج فكر وطريقة حياة ، لم تستطع أرقى الدول الاوربية أن تتجاهلها في سياساتها ، حتى ولو تم تجاهل العامل الديني ذاته الذي ترتبط به الطائفية ٠

ان الدين الاسلامي ذاته ابان نشأته ، وعندما لم تكن هناك حقوق لغير القوي ، اعترف بالحقوق الانسانية للمجتمعات الداخلة في مجتمعه العالمي ٠ وقد وضع حدودا لسلطته على الاديان الاخرى ٠ وما أحرى بالثورة العربية الحديثة أن تستفيد من التجربة الاسلامية في تحديد علاقات الفئات المختلفة في المجتمع العربي ، وفق المفاهيم المعاصرة للحقوق الانسانية ، وبمحاولة ثورية رائدة تضع منهجاً عالميا جديدا للتاريخ العربي المعاصر ٠

ولو ان هذا المفهوم الثوري للمجتمع وجد له تشريعا عمليا في العالم العربي لكان الحل الانموذجي للطائفيات والانقسامات والتناقضات القومية في البلاد العربية ٠ ولكان في الوقت نفسه المعالجة الانسانية الصحيحة لقضية عربستان في ايران واسكندرونه في تركيا ، وسكان كلا المقاطعتين يبحثون عن

حقوقهم القومية المسحوقة في مجتمعين يتعاملان بالفكرة القومية نفسها التي يتعامل بها العرب دون وعي عملي لها ولما ستجره على المجتمع من انقسامات وعوائق نمو ٠

ولا أدري مدى ما كان يمكن أن تقدمه فكرة المجتمع العربي العالمي هذه لقضية فلسطين ، ولكنها على أية حال تكون الاسلوب العملي لمقاومة الصهيونية في المجال العالمي ولدحض الاتهامات التي توجهها اليهودية العالمية للعرب ٠ كما تكون الضمان الكامل لاتحاد المجتمع العربي ومنعته أمام محاولات تقسيمه ، الى مجتمعات متنافرة ليلائم الوجود الصهيوني المتعصب ويسوغ بقاءه وعدوانه ٠ وان ما بذله العراق وحده في الصراع العابث مع القومية الكردية باسم القومية العربية ، كان كافيا لان يدفع النمو الاقتصادي والاجتماعي في العراق أكثر من عشر سنوات الى الامام ، عدا عما كان يمكن أن يقدمه من قوةعسكرية أحفاد صلاح الدين ، لو أن الفكر العربي اتعظ بمسيرة التاريخ المعاصر ، وعمل للمحافظة على اسهام الفئات الاجتماعية المختلفة في بناء المجتمع ، كما أسهمت هذه الفئات في تحريره من الغرباء ٠

واننا نرى الفكرة القومية العربية التي لم ترتكز الى فلسفة منهجية لحقوق الافراد والفئات لم تفشل بالاحتفاظ بولاء القوميات المشمولة بها وحسب ، بل فشلت كذلك بازالة الحواجز الداخلية بين طوائف الـــدين الواحد ، فجعلت المنافسة صراعا سلبيا بين هذه الطوائف ، وذلك لعجز منهاجها الصوفي عن مجاراة الوعي الفردي والجماعي المعاصر لحرية الإنسان وحقوقه ٠ كما كانت هي ذاتها بمطلقيتها وراء فشل الوحدة بين سوريا ومصر ، وراء تعثر كل مباحثات وحدة بين الاقطار العربية ، في وقت تتناسى الشعوب المختلفة أحقادها وهزائمها لتشترك معا في مجتمعات واسعة تكون للانسان فيها حرية أوسع لتحقيق أمانيه ومطامحه ، وتكون له حومة ومناعة أقوى وأثبت ٠ ولم يكن سبب لهذا الفشل الا المبالغة بتقدير الفكرة القومية وسلطتها ، ورفض قبول الواقع كما هو والعمل على تغييره أو مراعاته بمفاهيم وأساليب عملية تعتمد العلم للاستفادة من العواطف بدل دفعها الى الطرق المسدودة ٠

الخلاص من الغيبية

فمنذ ان وجدت القومية لم تكن اجتماعية مسالمة ، وهي دائما كانت فكرة عنصرية متعصبة ، رسالتها الحرب والسيطرة على مقدرات الآخرين وسلبهم مدخرات بيوتهم ٠ وهو عين ما تقوم به الصهيونية حاليا التي تدعي هذه العنصرية بين اليهود لتجمعهم ، وتلصق الاتهام بالعرب في المجتمعات العالمية الناقمة على كل انغلاق اجتماعي ٠ وعندما يريد العرب تحقيق أي انجاز تاريخي في شعـــار القومية يكون عليهم أولا تكذيب التعريف التاريخي للقومية مع تكذيب الاتهامات اليهودية ثم اعطاؤها تفسيرا عمليا علميا جديدا ٠ وهذا التفسير المطلوب منهم هو عين الحالة التي قاد اليها التاريخ الحديث للاتحاد السوفياتي بتخطيط لينين مناقضا التعاليم الماركسية ذاتها ، التي رفضت الاعتراف بالحدود بين القوميات، فأدت العدالة الاجتماعية التي تدعو اليها تلقائيا الى مثل هذه الحدود ٠ وليس من قبيل الصدف في التاريخ المعاصر أن نجد أكبر دولتـــين في العالم يتكون شعباهما من أخلاط من الناس ، لا يربط بين أفراد الشعب فيهما سوى رابطة

المصير المشترك في ظل تكافؤ في الفرص بين الافراد والجماعات ، وتوازن في الحقوق والواجبات الفردية والجماعية ، دون أية رابطة غيبية هذا على اختلاف نظامي هذين البلدين . كما ليس من شذوذ التاريخ أن تقوم تشيكوسلوفاكيا أخيراً بقسمة بلادها اداريا الى جمهوريتين لاجل توازن المصالح بين الفئتين اللتين يتكون منهما شعب البلاد ، وللحؤول دون شعور فئة بأنها مجني عليها من الفئة الأخرى . لأن في هذا الشعور موقفا سلبيا قلقا يشل التقدم ، ويؤخر في النمو العام أضعاف ما يمكن أن تصل اليه فئة من الفئات على حساب غيرها .

ولعل البلاد العربية ذات الانظمة الثورية الحديثة أعمق الناس تجربة في معنى التقهقر الذي يصيب المجتمع عندما تقف فئة من فئاته موقفا سلبيا من نشاطه ، أو عندما يسود المجتمع القلق وتصبح كل فئة موضع اتهام من الأخرى. فالمفهوم الاجتماعي الحديث تحرر من المقدسات الغيبية التي كانت تضمن له وحدته باسم الدين أو القبيلة أو القومية العنصرية أو الطبقية السلالية . وأصبح عماد المجتمع الاول وأساس تآلفه وتعاونه الحقوق والحريات ، سواء للافراد أم للجماعات . وليست الروابط الاشتراكية العالمية الا تعبيرا عمليا عن هذا النزوع الانساني الجديد صوب تقديم هذه الروابط اليومية المصيرية الجديدة على الروابط المطلقة القديمة . ولئن كان الواعون والمثقفون من العرب يتجهون عن غير تعمد الى رفض العلاقات الاجتماعية القديمة مع رفض التمييز بين حقوق الافراد في المجتمع الواحد ، وبالتالي رفض كل ميزة غيبية لانسان على آخر بفعل وراثة تاريخية ، فحري بثورة الرفض هذه أن تصبح ثورة منهجية عامة لاجل حرية الانسان الواقعية في يوميات مجتمعه بصورة عامة ، وليس في قطاع دون آخر ، كما هي الحالة في الانظمة الاشتراكية العربية التي تشدد على الاقتصاد دون غيره . وعندما يكون منطق العلم هو المحرك الاول لهذا الرفض البناء يصبح من الضروري اعتماد هذا المنطق كمقياس أول لقيم الانسان الاجتماعية بدل المقاييس الطبقية القديمة أو القومية المستجدة . على أن يصار الى اجتذاب ما يمكن اجتذابه من طاقات علمية من الخارج ، وخاصة من البلاد التي يرتبط تاريخها الثقافي بالتاريخ الثقافي العربي وليس لديها من الامكانات الجغرافية والمادية ما لدى العرب ويقبل هؤلاء بصفة مستوطنين لا غرباء عليهم أن يعودوا من حيث أتوا . وذلك حين استيفاء شروط معينة لبناء الوطن .

وقد يكون من الغباء وعدم الحس بالمسؤولية ان نتجاهل واقع الصراع القومي السلبي أو المتفجر في البلاد العربية ، لنزعم أن الاشتراكية أو المصير المشترك أو التقدم الثقافي يعفينا في المستقبل من مثل هذا الصراع . كما يكون من التعامي أيضا ان نهمل التفكك الطائفي المدمر في جميع البلاد العربية لنكتفي بالتغني بفكرة صوفية مطلقة هي الدعوة القومية التي تشمل جميع الطوائف العربية، بينما هي بصيغتها الحاضرة لم تستطع أن تحل أية مشكلة لعلاقات هذه الطوائف ولم يجر التفكير بأية خطة لدمجها فأضحى صراعها العابث يعارض جوهر الثورية المعاصرة ذاتها ، عندما نرى في جوهر هذه الثورية الحقوق والحريات الانسانية لجميع الفئات ، مع التخلص من سلطة الغيبيات وتحكمها بالمصير الانساني ، بينما نرى هم كل طائفة السيطرة على حقوق الطائفة الاخرى ومقدراتها الانسانية والاقتصادية ، أو وضعها موضع الاتهام بوطنيتها وتعاونها .

لقد بالغ العرب بانغلاقهم القبلي في الجاهلية ، فحرمهم هذا الانغلاق من الشخصية الحضارية . ثم بالغوا بانفتاحهم العالمي في الاسلام فسلبهم هذا الانفتاح شخصيتهم القومية ، وأسلم قيادتهم للغرباء . وفي كلا الحالين كانت

النزعة للمطلق وتقديس المجردات هي التي تحكم ذهنيتهم • وعند عودتهم للفكرة القومية العاطفية ، التي لم يكونوا هم روادا لها يصبح الخطر أمامهم في أن تمتص هذه الفكرة نوازع التصوف والميول للمبالغة وللمطلق فتبعدهم عن تعميق التفكير في منطق الحوار الحضاري الحديث لعلمنة المجتمع ، ودفع فئاته المختلفة للعمل البناء فيه باخلاص وطمأنينة الى المصير •

نحو المعنى الجديد

وكي لا ينتظر العرب معجزة تنزع من نفوسهم ميول التصوف وتعشق المطلق في كل فكرة أو عقيدة ، فخير خدمة للفكرة القومية هي تجريدها من مطلقيتها ، وترك أساليب التبشير والوعظ بها والانصراف الى تحليل الذاتية العربية ودرس التشكلات التاريخية التي تجسدت بها والمركبات التي توجهها لكشف مؤهلاتها الحضارية والاجتماعية ونقد مزالقها وسقطاتها العاطفية بجرأة وصراحة موضوعية • وبهذا يستطيع الفكر العربي أن يقدم للعالم معنى جديدا وبعدا جوهريا من الابعاد القومية ، لا تكون فائدتهما لبناء المجتمعات العربية وحسب ، بل يكونان أنموذجا لكل فكر قومي يطمح الى وعي معناه الاجتماعي العلمي لا العاطفي في عصر العلم والنزوع العالمي للتعاون مع جميع الناس •

ولئن يكن العرب ألفوا منذ فجر تاريخهم تقليد الآخرين واقتباس الافكار والفلسفات والعقائد والانظمة عنهم ، فقد آن لهم أن يقوموا بفكرة رائدة في المستوى العالمي ليسهموا اسهاما حقيقيا في الثورة المعاصرة ، ويكون لهم الفضل باعطاء الشرعية ، لما رفضت الاعتراف به الماركسية من حدود بين القوميات والفئات الاجتماعية المختلفة في بحثها عن الحقوق والحريات ، كما يكون لهم فضل أكبر بسبق معظم البلاد الليبرالية الغربية باعطاء حق الاستقلال الاداري الذاتي عن رضى ومسالمة لمن سيدفعهم منطق التاريخ للحصول على هذا الحق بالقوة ووسائل العنف المدمرة للمجتمع •

واذا كان هناك من يظن أن التوتر العربي المعاصر نحو الصهيونية يمنع اعادة النظر بالفكرة القومية العربية وبالتركيب المجتمعي العربي ، بل يجعل كل حوار في الموضوع خارج أوانه وظروفه ، فالجواب هو أن حرب الصهيونية ليست حرب أسلحة يستوردها العرب من غرب أو شرق ، بل هي ، أولا ، حرب ايديولوجيات عالمية ، وعلى العرب أن يكون لهم ايديولوجية متميزة يحاربون الايديولوجية الصهيونية بواسطتها في المجال العالمي • ثم هي حرب من جميع الاطراف على المنهاج القومي العربي • وعلى أي حال هي حرب طويلة تتجاوز الصهيونية ذاتها على المدى الطويل وطريق النصر فيها انما هو اعادة بناء المجتمع العربي بناء حضاريا جديدا يمنع الحرب في داخله ، ويجمع طاقاته المشتتة ، وفق منطق علمي يوجهه المفكرون ، وترعاه الشرعية ، ويراه العالم كأنموذج جديد لمعنى الانسان ، وقيمة في بلاد طالما أعطت الانسان منذ فجر التاريخ المعاني والقيم الجديدة التي بنيت على أساسها الحضارات العالمية الراسخة التي ارتقت بالانسان الى معانيه العالمية السامية ، وعرفته كيف يعي حقوقه وحرياته بعد أن يدفع ثمنا لها ما عليه من واجبات •

عفيف فراج

نحو فهم «ماركسي» للمسألة الدينية : الارضية المادية التي يرتكز عليها الفكر الديني

هناك مسألتان* أساسيتان تحدد الاجابة عنهما مسار هذا البحث حول الفكر الديني وتحدد بالتالي طريقة فهمنا للدين · المسألة الاولى : هي مسألة علاقة الفكر بالكائن ، الانسان بالطبيعة ، وأيهما الاسبق · المسألة الثانية : هي ماهية الانسان وعلاقتها بوجوده الاجتماعي · فاذا اعتبرنا ان الفكر سابق لوجود الإنسان انتهينا حيث بدأت الفلسفة المثالية بشتى تشعباتها ابتداء بأفلاطون

* مرة أخرى تلبس السلطة العمامة وثوب الكهنوت ، وتشهر سيف السلطة الدينية · ومرة أخرى تنزل السلطة الدينية شاهرة سيف السلطة السياسية ·· هذا التحالف التاريخي المأسوي بين السلطتين ، لم ينتج ولن ينتج الا المجازر للحريات · فاذا كانت السلطة الدينية ترغب رغبة حقيقية في حماية الدين الحقيقي ، فما عليها الا أن تفك ارتباطها بالسلطة ، وتخاطبها من موقع الشعب البسيط المؤمن القادر على تسييج أي ايمان · يرفع صوته هو ، ويجسد مطالبه هو ، وذلك بدل أن تخاطب الشعب من مواقع السلطة · واذا كانت السلطة السياسية مخلصة في حرصها على الوحدة الوطنية ، فما عليها الا أن تلغي الحاجة **المادية** للايديولوجية الغيبية بتحويل نفسها من دولة امتيازات الى دولة حقوق متساوية لبشر متساوين رغم كل شيء ، وفوق كل قوة · ان هذا الانقسام الذي تعطيه الدولة اسم الوحدة الوطنية لتصويره طائفيا ، وليس اجتماعيا ، لن تطيل عمره المجازر ومطاردات « الملحدين » او المؤمنين الحقيقيين بالانسان · ان التعليق الوحيد الذي يمكن أن أورده حول قضية صادق العظم هو قول ماركس في « المسألة اليهودية » : « ان الدولة التي تعطي امتيازات ذات طابع ديني لا يمكن أن تكون دولة حقيقية » وان الدولة التي لا تستطيع الاستغناء عن الايديولوجية الدينية هي « دولة ناقصة » · « كما أن الدين الذي لا يستطيع أن يعيش الا تحت سقف السلطان ليس دينا حقيقيا » · أقول هذا رغم اختلافي مع النهج الذي أتبعه صادق العظم في تناوله للمسألة الدينية وهو نهج اعتبره « فوقيا » وبالتالي غير ماركسي · ولانني ءؤمن باخلاص صادق العظم للماركسية ، فاني أعتبر كتابه « نقد الفكر الديني » « منزلقا » فلسفيا تأمليا من النوع الذي قال فيه ماركس انه «يفسر ولا يغير»· ان الهدف الوحيد لهذه الدراسة هو اضاءة الارضية المادية إلتي يرتكز عليها الفكر الديني · ففي الارض لا في الفكر يكمن جوهر المسألة ·

وانتهاء بهيجل ، ومن الميثولوجيا حتى الاديان السماوية • أما اذا شئنا بداية ماركسية فاننا نبدأ بالانسان ذاته ككائن فعلي كوّن وعيه في مرحلة لاحقة متقدمة عبر فعله وانفعاله بالطبيعة حوله •

السؤال المبدئي اذن ، هو : هل كان في البدء الكلمة أم الفعل ؟ اذا اعتبرنا ان الكلمة تقدمت الكائن ، أنها هي المقدمة الصحيحة ، فان النتيجة المترتبة عليها تكون اتخاذ الكلمة (جسد الفكرة) أداة للتغيير الاجتماعي ، هادفين انسجاما مع هذا المنطق الى احداث تغيير في الواقع عن طريق الانقلاب الفكري ، الذي شكل الواقع ، باعتباره سابقا لوجوده ومحدّدا لشكله • يكون التغيير في الفكر هو مبتدأ التغيير في الواقع • ومن مقدمة كهذه لا بد أن نصل الى ان الانقلاب الفكري هو مقدمة التغيير الاجتماعي ، وان الفكر ــ انسجاما مع هذا الخط من التفكير ــ هو أداة التغيير ، وان الجهة التي يتوجب على الفكر أن يتوجه لها هي فكر علوي آخر منفصل عن الجسد الاجتماعي وعن وجود الانسان « السفلي ! » ممثلا بالجسد ومتطلباته المادية • وبذلك تنطوي الفلسفة داخل حدود النقد النظري المجرد المتجه لعقل انساني مجرد • ذلك النقد الذي قال فيه ماركس انه يفسر ولا يغير • هنا تبدأ الماركسية بالافتراق عما سبقها • ان الماركسية تجيب عن هذه المسألة « بالمادية الجدلية » التي تعتبر الوجود سابقا للوعي ، وتعتبر الوعي وليد الوجود المادي الذي سبقه جسدا وطبيعة خارجية • كان الانسان ، لكي يضمن وجوده المادي ، يندفع باتجاه اشباع حاجاته المادية الاساسية مما اضطره للدخول في صراع ضد الطبيعة ، وفي علاقة جدلية معها • واذا كان التأمل لا يشبع المعدة فلا بد من العمل ، من الفعل الذي استنبت الارض وأنبت الوعي • ان التأمل هو مؤشر لبداية تكون الانسان النوعي الذي بدأ ينفصل عما حوله من مسافة • هذا التأمل والتخيل والتفكير هو الذي أنتج عبر مسيرة زمنية طويلة كل هذا التراث الفكري والحضاري ابتداء بالاسطورة وانتهاء بالصاروخ • وهكذا يرتبط العقل المتأمل والمفكر باليد العاملة الفاعلة المغيرة ويرتبط الفعل في المحيط الخارجي بالوعي داخل الذات •ان الانسان اذ يغير العالم المحيط فانما يغير نفسه • واذا كان الفعل مصدر الوعي فيكون الفعل هو منطلق التغيير وليس الفكر مستقلا • واذا كان الذاتي الداخلي يتحدد بالخارجي والمحيط فيكون توجه الفعل نحو هذا المحيط الخارجي توجها واعيا شرطا أوليا لتغيير الذات الانسانية• ان الفعل يغني الفكر كما يزيد الفكر فاعلية الفعل وبهذه الجدلية التي تقدم فيها الفعل على الفكر استطاع الانسان ان يواجه الطبيعة واقفا على قدميه بعد أن كان يخر خاشعا أمام قواها على ركبتيه •

وقد انتج الانسان البدائي اساطيره ودياناته القديمة وهو في هذا الوضع العاجز المغترب • ان كون الديانات البدائية طبيعية وكون آلهتها تجسيدا لقوى الطبيعة المتفوقة يبرز أثر الواقع المادي في وعي الانسان ويدفع بحثنا للدين منذ البدء للتركيز على الانسان الواقعي لا الانسان المجرد وعلى الشروط المادية التي أنتج ضمن حدودها فكره وعلى التركيز على انسان مرحلة تاريخية محددة الملامح وليس على انسان كل زمان ومكان • ان الاديان باعتبارها صورة من صور الفكر ليست الا محطات فكرية مؤقتة يغادرها الانسان ليلحق بحركة التطــور الاجتماعية السائرة من الادنى الى الاعلى •

ان حل المسألة على هذه الصورة يقود الى نتيجتين :

أولا ــ اذا كان الانسان الحقيقي هو الذي أنتج الفكر الديني فان نقد الفكر

الديني باداة ماركسية لا بد أن ينفذ من هذا الفكر الى الانسان الذي أنتجه في ظل ظروف معيشية ، وشروط مادية واجتماعية • وهذا يؤدي الى استكشاف الواقع الذي هو السبب بحيث يرتبط بالفكر الذي هو المسبب وأي نقد لا يتوجه لهذه الاوضاع الواقعية لا بد من ان ينتهي بموعظة « علمانية » لا تقل غيبية عن الفكر التبشيري •

ثانيا ــ المسألة الثانية هي مسألة فهمنا للانسان وماهيته • فاذا اعتبرنا أن الانسان روحا هوت من السماء لتدخل « سجن » الجسد ، أو صورة لفكرة مسبقة في ذهن الخالق أو جوهرا مجتزأ من الروح المطلق، فان المهمة التي تطرح نفسها عندئذ على الفلسفة تكون التركيز على الفرد بصفتـــه كائنا فريدا مستقـلا ، وبالاختصار فردا بلا هوية اجتماعية ، يحيا خارج الزمان والمكان وكما اعتبره الفكر الاوروبي لقرون عالما صغيرا يشكل وحدة مصغرة تدور في فلك الكون الاكبر • هذه المقدمة تستتبع توجها فلسفيا (لعالم الفرد المصغر) يشرح علاقته العمودية بالخالق أو الروح المطلقة ويشرح خطة الارادة الكونية في تنظيم الكون ولا حاجة للقول بأن شرحا كهذا يتجاوز جميع العلاقات الاجتماعية الافقية التي تشد الانسان للغير بروابط مادية ثقافية فيفشل هذا الفكر في تبين هوية المجتمع في الفرد •

ان المنطلق الماركسي هو الذي يحدد الفرد بمجموع علاقاته الاجتماعية ومن ثم يكون هناك انسان ملامحه الاجتماعية محددة وموضعه في التاريخ لا يقل تحديدا • ويكون وعي هذا الانسان ونوعيته متناسبين مع درجة تطور مجتمعه ماديا وثقافيا • فليس الفكر هو الذي يحدد طبيعة عصر معين ، وانما طبيعة العصر هي التي تحدد طبيعة الفكر • واذا كان الانسان هو مجموع علاقاته الاجتماعية واذا كانت هذه العلاقات محددة بدورها بنوعية العلاقة القائمة بين البشر ووسائل انتاج حياتهم المادية (الارض والمصنع) ودرجة تطور هذه الوسائل ، فان الرغبة في تغيير الانسان ، ورفع درجة وعيه الانساني النوعي ، لا يترجم الى واقع الا بتثوير العلاقة بين البشر ووسائل انتاج معيشتهم • فالانتقال مثلا من الانسان الفردي الاناني النفعي ، الى الانسان الغيري الاشتراكي التعاوني ، لا يمكن أن يصبح ممكنا الا بتدمير الملكية الفردية كأساس تقوم عليه العلاقات الاجتماعية • وهذه مسألة لا تخضع لاجتهاد ذاتي وانما لواقع موضوعي صلب يقيم علاقة جدلية بين المادة والروح • ان توثيق علاقات الانسان بغيره ومدى اتساعها وشمولها يتوقف على مدى سيطرة البشر على وسائل معيشتهم وبقائهم ونوعية هذه الوسائل • واذا كانت الاساطير اجابة بدائية عـن المعضلات التي تطرحها الطبيعة ، واذا كانت الالهة الطبيعية والزراعية تحكي قصة عجز الوعي الانساني عن ادراك ماهية هذه القوى ، فان الاديان السماوية ــ وهي مرحلـة فكرية متقدمة ــ تجسد عجز الانسان عن ادراكه لطبيعـة القوى **الاجتماعية** لا الطبيعية التي تتحكم فيه وهذه الاديان تعكس بالتالي ذاته الانسانية المستلبة في ظل وجود استغلالي قهري واغتراب وجوده النوعي عن الوجود الطبقـــي الحيواني التراكمي • ومن هنا تتكفل الماركسية باعطاء الانسان أرقى درجات الوعي بقوانين الحركة الاجتماعية بحيث يتحول وعيه بها الى فعل ثوري واع يستهدف الواقع المادي وتغييره باقامة اوضاع أخرى مختلفة نوعيا لنموها خارج قوى المال التي أحلتها البورجوازية محل الآلهة القديمة وفرضت على البشر طقوسا تنافسية أنانية جشعة جرفت القيم كلها الى وادي النسيان •

ان هذا الفهم للانسان وعلاقته بالمجتمع والطبيعة هي القاعدة التي يرسي

عليها ماركس التاريخ الانساني الحقيقي الذي يبدأ بالمجتمع الشيوعي اللاطبقي ، الذي يحول العمل المستلب الى متعة يخلق الانسان بواسطتها ثراء العالم المادي والروحي . ويحق في عمله المنعتق هذا صورة لجوهره الذي **أسقطه** على السماء حين عجز عن تحقيقه على الارض مما دفعه لان يخلق الاله الوهمي لعجزه عن وعي وتحقيق الاله الحقيقي في ذاته . انه المجتمع الذي لا يكتفي بتوعية الانسان باغترابه الديني وانما يعطيه البديل الواقعي الاجتماعي لهذا الاغتراب . انه لا يكتفي بتوعية الانسان بأنه هو الذي خلق الله على صورته وانما يمكنه من تحقيق هذه الصورة في اطار علاقات شيوعية ينسج فيها الجميع مشتركين بالعمل الاختياري الحر جنتهم الارضية البديلة للجنة الوهمية الضائعة . هكذا عن طريق المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية « تحيل الماركسية المسائل اللاهوتية الى مسائل اجتماعية بدل ان تحيل المسائل الاجتماعية الى لاهوتية » ولا تتوجه للوعي أو للفكر أو للضمير « وانما للاسباب التي تولد الدين في الضمير » ان حل المسألة اللاهوتية مرهون بحل المسألة الاجتماعية ، لا العكس . ان الماركسية فعل ثوري وليست مواعظ علمانية أو تبشيرا الحاديا تتناطح فيه الفكرة مع فكرة أخرى في أجواء الفكر العليا دون ان تلامس سطح الواقع « ان الماركسية ليست الحادا نضاليا لانها تتوقع زوال الدين متى زالت الظروف التي تولده في الضمير » * .

مرحلتان في المادية

أولا ــ الانسان هو الذي يخلق الالهة ، نقلة مهمة من النظرة المثالية الى التناول المادي .

ثانيا ــ الانسان ليس كائنا مجردا ، بل هو مجموع علاقات اجتماعية محددة في فترة زمنية محددة متحركة . هذه نقلة حاسمة الى المادية التاريخية .

المرحلة الاولى اجتازها فويرباخ والمرحلة الثانية هي التي تفصل بين الماركسية ومادية ما قبلها . ان فويرباخ أنجز النقلة الاولى حين وضع نقطة النهاية للمثالية الالمانية التي حققت أعلى مراحلها في فلسفة « هيجل » . ولكنه قصر عن ادراك الطبيعة الاجتماعية للانسان الفرد فتوجه بالوعظ الالحادي الى ذهن هذا الانسان المثالي المجرد بهدف مصالحته مع انسانيته التي فصلها عن ذاته وجسدها في الله بحيث يتبين « ان الكائن الالهي ليس الا ذلك الكائن الانساني موضوعا خارجا عنه ومعبودا ككائن مستقل » وهكذا يعيد فويرباخ الضياع الى أسس ذاتية لا الى اسسه الموضوعية المستقلة القائمة خارج ذات انسانه الذي يقف خارج العالم الواقعي . ومن هنا تكون توعية هذا الانسان بماهيته كافية للقضاء على ضياعه الديني ويتم ذلك بطريق النقد للفكر الديني ، وهو أقصى ما كان يمكن أن تقدمه المادية الميكانيكية . أما الماركسية فانها تطوي اجنحة الشطط الميتافيزيقي لتعيده الى الارض التي انطلق منها وانبثق عنها بحيث « يتحول نقد السماء الى نقد للارض ويستحيل نقد الدين الى نقد للحق ويستحيل نقد اللاهوت الى نقد للسياسة » * ان الخطأ السماوي ناتج عن أخطاء أرضية

---

* كالفيز .. تفكير كارل ماركس ، « نقد الدين والفلسفة » ، ترجمة الاتاسي والدروبي .

* مساهمة في « نقد فلسفة الحق عند هيجل » ، كارل ماركس .

وليس العكس • ومن هذه المقدمة ينتج أن الدين ليس مسؤولا عن شقاء الارض ، وانما شقاء الارض مسؤول عن الدين • ولكي تكون الفلسفة ثورية والنقد ثوريا يغير ولا يفسر ، فلا بد من نقد الاسس الارضية لهذا الضياع السماوي • ان السماء وهي تتمة لواقع لا يسمح للانسان بأن يعيش انسانيته العليا الا في عالم وهمي ، لا تعود للارض بمجرد ان يعي الانسان ضياعه ذاتيا وانما باعادة خلق العالم خلقا جديدا تأنس نفس الانسان اليه بدل أن تفر من قسوته ووحشته الى عالم من صنع الوهم • ان زوال الايمان الغيبي من الذات لا يستتبع زوال الشقاء الموضوعي خارجها ، هذا الشقاء الذي سيحول بين الانسان وتحقيق ذاته العليا • ان الوعي العلماني يعطي أفرادا أشقياء ولا يزيد سعادة العالم ولهذا فان هذه المسـألة هي في الماركسية مسألة تربوية ثانوية تتم بطريق التثويـر الايديولوجي الشامل **في مناخ شيوعي** • من هنا تحل الماركسية المسألة ثوريا : « ان سلاح النقد لا يغني عن نقد السلاح ولا يهزم القوة المادية الا القوة المادية • » ان جلاء الاوهام من الاذهان لا يعني القضاء على مصدر تولدها • هذه النتيجـة مرتبطة بالمسألتين الاساسيتين اللتين تصدرتا هذا البحث : أولوية الوجود على الفكر ، ومسألة أن الانسان ككائن اجتماعي تتحدد نوعيته بمجموع العلاقات الاجتماعية ونوعيتها وهي مسألة مرتبطة بدورها ــ كما ورد ــ بكيفية ملكية مصادر حياة الانسان المادية ونوعيتها •

موضوعتان معترضتان

ان الفكر البورجوازي الالحادي يستنجد بماركس للقيام بهجوم الحادي مثالي • ويتخذ هذا الفكر من موضوعتي ماركـس الشائعتين « الدين أفيون الشعوب » و « نقد الدين مقدمة لكل نقد » ، الذريعة والمسوغ • والواقع لا بد من اعادة الاعتبار لهاتين الجملتين باعادتهما الى سياقهما بعد أن اغتربتا زمنا •

يقول ماركس في كتابه « مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل » : « ان الشقاء الديني هو ، من جهة التعبير عن الشقاء الواقعي ، وهو من جهة ثانية احتجاج على هذا الشقاء • ان الدين هو الزفرة يصعدها المخلوق الذي هده الشقاء ، هو الروح في عالم بلا روح والفكر في عصر لا فكر له ، انه أفيـون الشعب • »

ان ماركس هنا يرد الشقاء الديني لمصدره (الشقاء الواقعي) فهو بهذا المعنى انعكاس له واحتجاج عليه، أي أنه صورة من صور الرفض لهذا الواقع • كما أنه يستدل من نص ماركس هذا عدم قدرة الانسان على التكيف مع عالم أفرغه الاستغلال المادي والطغيان السياسي ومرض الاقتناء والتملك من محتواه الروحي والفكري مما اضطره الى البحث عنهما خارج هذا العالم ، وهو ما عبر عنه السيد المسيح بقوله « ان مملكتي ليست من هذا العالم » • ان كلا من ماركس والمسيح يتفقان على ان العالم لا يصلح لسكن الانسان كما هو ولكن بينما يهجِّر المسيح ساكنيه الى عالم مثالي آخر يرد ماركس هذا العالم الى ساكنيه •

ان مادية الماركسية تنتهي الى نقض المفاهيم البورجوازية عن المادية • ان الماركسية هي الايمان الحقيقي بالارض والانسان الواقعي الذي يختزن في ذاته امكانات تحقق الانسان الاعلى الذي هو محور الرؤيا الماركسية • تلك الامكانات التي يمنع تحققها عالم طبقي جشع لم يترك فيه حب المال والاقتناء مكانا لاي

حب انساني آخر . والمجتمع الشيوعي هو الذي يمكن طاقات الحب من التفتح « وعندها سيكتشف الانسان النار من جديد » * الدين أفيون للشعب ولكنه ليس الألم . وزوال الألم هو الشرط للاستغناء عن المخدر وليس العكس .

الموضوعة الثانية التي يبدو ظاهرها ملائما لاغراض النضال الالحادي ترد في مطلع الكتاب نفسه « مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل » ** .

« يعتبر نقد الدين **في ألمانيا** مقدمة لكل نقد » ان ماركس يتحدث عن ألمانيا بالذات (بكل ثقل تراثها الفلسفي المثالي) . ونقد ماركس ينفذ من نقد الدين في ذاته الى نقد الدولة الدينية التي تحول الدين الى مخدر للشعب ومسوغ لخطاياها وبهذا يتحول النقد الديني الى نقد سياسي للدولة الطبقية التي تغلف استغلالها بايديولوجية دينية .

ان فهم ماركس للعلاقة بين الدولة والدين يضع هذه المسألة في الضوء . يقول ماركس في المسألة اليهودية : « ان الدولة المسماة دولة مسيحية هي النفي المسيحي للدولة وليست أبدا التحقيق السياسي للمسيحية . ان دولة كهذه ليست تحقيقا للجوهر الانساني في الدين » . ان ماركس اذ يقف من الدين موقفا نقديا فانما يقف على أرض سياسية تفصل الجوهر الديني الذي تسحقه الدولة المسيحية ـ وأي دولة دينية ـ عن المظهر الذي تبدو معه حامية للدين . ان نقد الدين هنا هو عملية كشف ايديولوجية للاقنعة السماوية وايقاظ لاذهان الجماهير من « مخدر » **سياسي** في أساسه ، والجماهير اذ تعي الجوهر السياسي للمسألة الدينية ، تحول وعيها المستجد الى قوة نضالية تزلزل الأسس الارضية المادية لضياعها وهجرتها عن عالم تصنعه ويسحقها ، تغنيه ويستلبها . ان الروحية الماركسية أقرب الى الايمان الحقيقي من كل البورجوازيين والثيوقراطيين والمؤمنين (بالوراثة) والملحدين العلمانيين الغارقين بمجموعهم في متع هذه (الفانية !) . وفي هذا الضوء يكون ماركس مثالا أعلى للمؤمن الحقيقي بالانسان بعد ان وضع الله في التاريخ ، والنفس في الجسد ، وأعاد للانسان ذاته العليا التي أطلق عليها عبر التاريخ اسماء لا تحصى وصفات لا تعد . ان ماركس يردد تلك الصرخة التي أطلقها أبيقور : « ليست الزندقة زندقة ذلك الذي يحتقر آلهة الجمهور ، بل الزندقة زندقة ذلك الذي يؤمن بالصورة التي في ذهن الجمهور عن الآلهة»* . وتصورات الجمهور عن الآلهة هي من غرس الطبقة التي تمسك بزمام السلطة القهرية والتي تحتوي دائما السلطة الروحية .

الجذور الارضية للاسطورة والدين

اذن ، في البدء كان الفعل . كان العمل والممارسة ، كان الواقع المادي وشروطه ، وحدوده ، وكان الوعي ومحدوديته . كان الانسان العامل المفكر ، وكان العجز في الوعي صورة لضآلة الفعل في الطبيعة ، وقصور المعرفة نتيجة

---

* غارودي « ماركسية القرن العشرين » ، الترجمة العربية .

* Marx, Engels, On Religion

* ماركس : الفرق بين فلسفة الطبيعة عند ديموقريطس وأبيقور ، راجع تفكير كارل ماركس « نقد الدين والفلسفة » ، جان ايف كالفيز ، ترجمة الدروبي والاتاسي .

لبدائية الممارسة ، وكانت الاساطير هي الشكل الذي اتخذه العلم البدائي ، وكان الساحر هو الشكل الأولي الذي تقمصه العالم • كانت هناك محاولة تفسير العالم وفهمه بأدوات بدائية • ومن هنا يقول روجيه غارودي ، ان الاساطير تلتقي مع العلم في الهدف وتختلف معه في المنهج • عجز العلم اذن هو قـــوة الاسطورة • والاديان القديمة هي أديان قوامها الاساطير فهي شكل أدنى من أشكال المعرفة المتطورة السائرة بموازاة تطور قدرة الانسان على الطبيعة وامساكه بخناق العالم الموضوعي المادي وترويضه ، واخضاعه لاشباع حاجاته • هذا الفهم للاسطورة يضـــيء موضوعة الفيلسوف الوجودي المسيحـــي غابرييـــل مارسيل الذي رافق يقينه بافلاس العقل دعوة للغرق في الاسطورة والطقوس الكنسية • ان الأسطورة عند ماركس ليست ترجمة مُصعَّدة للرغبة الجنسية الفرويدية بل انعكاس لحاجة مادية نفسية وتجاوز ولو وهمي لواقع • ان جذور الاساطير مهما بدا شططها راسخة في أرض الواقع المادي الذي عاش الانسان فوقه ، وتعبير عن حاجة الانسان الملحة لتجاوز هذا الواقع • ان الانسان القديم عندما « شخصن » قوى الطبيعة وعبدها لم يكن يدري انه يعبد ذاته ، يعبد تلك القدرة الكامنة فيه والتي ستتمكن من السيطرة على هذه القوى التي عبدها عجزا • وهذا الاسقاط الانساني الذاتي على الطبيعة الخارجية هو أساس الدين • هو بداية انشطار هذا العالم الغيبي الهائل عن الانسان وعن الأرض • ان التجمعات البشرية الاولى شخصنت الطبيعة ثم بدأت الالهة تتخذ لها الطابع الزراعي الناتج عن استيلاد الانسان لحاجاته من الزراعة • ومن المعروف ان هذه الآلهة تشابهت في مراحل حضارية كانت شروط الانتاج وادواته فيها متشابهة • هذه الآلهة الزراعية والطبيعية عمت كل الحضارات القديمة بأسماء مختلفة • ولئن عكس هذا التماثل شيئا ، فانه يعكس حاجات البشر المتماثلة لوجود يتخذ طابع الاستمرار والثبات لا التقلب والوجل • فكانت هذه الآلهة الاسطورية القديمة انعكاسا لوجود قلق ولمحاولة الانسان لتجاوزه • ومن المعروف تاريخيا ان المدن اليونانية التي سبق تفككها وحدة الامة كانت تعبد آلهة مختلفة وكان سقوط المدينة يسقط آلهتها ، ومع وحدة الامة توحدت الآلهة واصبح زيوس (رب الارباب) حامي السلطة والمحمي منها • تماما كما أصبح يهوه الاله القومي لليهود بعد توحدهم كأمة • هذا التداخل القديم بين السلطة الدينية والروحية (ممثلة بالآلهة والكهنة) والسلطة السياسية ممثلة بالملـك أو الفرعون والدولة هو حجر الاساس لهذا الترابط المستمر الباقي بين السلطة الممثلة للطبقة المستغلة الممتازة والاشكال الفكرية الاخرى التي يحتل الدين فيها وبينها مكانا يتناسب مع تطور الامة أو تخلفها • ان الدين كان الشكل الوحيد للفكر الذي سبق قيام الفلسفة التي « تخضع العقيدة للحقيقة بدل أن تخضع الحقيقة للعقيدة » ولهذا فان الدولة الطبقية الاولى التي بدأت مع ابتداء عصر العبودية هي التي خلعت على وجودها هالة الفكر الوحيد القائم في ذلك الوقت • وبذلك حصنت نفسها بقدسية ترهبها جماهير العبيد • ويصبح معها أي هجوم على الآلهة هجوما على هذه السلطة والعكس صحيح • وما أشبه اليوم بالامس • من هذه الزاوية نفهم سبب اعدام سقراط (٣٠٠ ق•م) بعد أن دحرج بتفسيراته العلمية آلهة الاوليمب التي يستند عليها الملوك في حكمهم • ونفهم حكاية محاكم التفتيش والارهابية مع (الهرطقة العلمية) التي أدت لكل تلك الحرائق والاضطهادات التي كان أبرزها حريق كوبرنيكوس •

حركة الفكر وحركة المجتمع

ان المادية التاريخية اذ تقول بالتغير الدائم في عالم البشر يكون محركه التناقضات الاجتماعية بين المالكين والمعدمين فانها تقول بملازمة حركة الفكر للحركة القائمة في المجتمع ومن هنا فان الماركسيـــة تعتبر الاديـــان ابتداء بالاسطورة وتعدد الآلهة الى الثنائية والوحدانية ـ والتي كان أخناتون أول القائلين بها ـ أشكالا من الفكر المتطور · واذا كانت حركة الفكر ملازمة لقانون الحركة في المجتمع ، فان المعادلة تصبح : حركة نشيطة في البنى الاقتصادية الاجتماعية والسياسية = فكرا نشطاً أكثر حيوية ونضجاً وعلمية · وليس من قبيل الصدفة أن يجيء سقراط بتفسيراته العلمية لظواهر الطبيعة في عصر الديموقراطية والحضارة الهلينية ، تلك التفسيرات التي أسقطت هيمنة زيوس ومجلسه الاوليمبي على ظواهر الطبيعة وبالتالي على الانسان · ان سقراط جاء في عصر بركليس وهو العصر الذي وصلت فيه أثينا الى أوج تطورها وازدهارها في الداخل · كما نجد أرسطو ينفي وجود روح فردية خالدة في عوالم غير منظورة في العصر الذي بلغت فيه اليـــونان أوج توسعها الخارجي على يـــد الاسكندر · كما نجد الايمان بالأبيقورية والرواقية التي أرست أخلاقا أرضية عملية تسود روما بعد أن حققت كل انتصاراتها · ونجد فكر الكنيسة الذي استمر ينخر اوروبا على امتداد القرون الوسطى يعاني زلزاله الاكبر في عصر النهضة الذي أطلق قوى مادية علمية هائلة وقف الانسان فيها على ذروة · لقد شهدت عصور العظمة الانسانية والاشراق الحضاري انقشاع الاوهام الغيبية وتراجع أشباح الميتافيزيقا وما يرتبط بها من دجل وهرطقة وسحر دون مستوى الانسان · يرد ماركس على الذين يعيدون سبب انهيار الامبراطورية الرومانية الى انهيار الدين فيقول « ان سقوط الامبراطورية هو الذي أسقط ديانتها وليس العكس » · فمنذ ان حولت السلطة السياسية « سيـــادة الدين » الى « دين للسيادة » أصبح سقوط الدولة هو سقوط لدينها كما كانت الحال في المدن المصرية واليونانية الحضارية القديمة لا فرق في ذلك بين آله وثني وآله سماوي موحد · ان الامثلة على خلق الانسان للآلهة بما يتفـــق مع واقعه وحاجاته لا تنتهي · لقد عرفت اليونان في القرنين الثامن والسابع وهي عصور كالحة طغت فيها الارستقراطية بوحشية ، آلهة جسدت الرذائل البشـــرية كالغدر والخداع · ومع سقوط حكم الارستقراطيين وتحطيم سلطانهم المطلق على العبيد سقطت هذه الآلهة · ونجد الطاغية المصلح كليمسترا يدخل عبادة أثينا ربة العدل وتشيع هذه العبادة بعد أن وزع الارض على الفلاحين مطبقا تشريعات صولون ودراكون · كما نجد الآلهة في عصر الديموقراطية (القرنين الخامس والرابع ق·م) تتحول الى تجسيدات للفضائل والقيم والمثل المتوخاة · وهكذا مع كل تقدم حضاري اجتماعي يحققه الانسان يجلو الآلهة عن مواقع هي له أصلا · اننا نجد اليونان في القرنين الخامس والرابع ق·م· يعلمون سيادة الانسان على الموجودات وان بقيت هذه السيادة تجسد برموز اسطورية كان أروعها اسطورة بروميثوس الذي سرق النار من الالهة وأعطاها للانسان متحديا زيوس ، رمز السلطة ، الذي يريد حرمانه منها ليبقيه في مركز الاضعف · ان بروميثوس المتحدي للسلطة ، المتحمل عقابها ، المناضل من أجل المعرفة والانعتاق ، هو الانسان الباحث عن الحقيقة في حقول عذراء · يقول بروميثوس للآله الذي أوفده اليه زيوس ، وهو مشدود الى الصخرة : « ثق انني لا أبدل شقائي بعبوديتك » ، هكذا ينزل الفكر في مسرحية أسخيلوس الرائعة من

السماء الى الارض ويعطينا صورة عن معاناة الفلسفة الارضية التي تبحث عن الحقيقة خلف حدود المخدر والمواساة • ان عصور الازدهار الحضاري كانت تدفع الفلسفة لان تصبح اكثر التصاقا بالارض ، لان الارض كانت تتجه باتجاه اكثر انسانية • يقول يوريبيديس في مسرحية انتيجونا : « الروائع عديدة ، لكن لا شيء أروع من الانسان » • ونجد أصداء هذا القول الرائع في عصر النهضة الاوروبية الذي انتج « الحركة الانسانية » التي عبر عنها شكسبير ومارلو بشعر يحمل ملامح اليونان ــ الحضارة ، ملامح يوريبيديس وسوفوكليس واسخيلوس • ولم تحطم حركة سقراط والسفسطائيين التفسير الغيبي للظواهر الطبيعية وحسب وانما تجاوزت ذلك لتطرح كل البنى الفوقية على بساط التحليل • فنجد كريتياس مثلا يعرف القانون بأنه أداة مفيدة في أيدي الحكام يتحكمون بواسطتها بالجماهير • أما الدين الذي تفرض القوانين باسمه فهو في نظر كريتياس اداة تستخدمها الطبقة الحاكمة لتبقى الطبقات الاخرى خاضعة لتشريعاتها وأحكامها * • أما بروديكوس فيفسر الدين تفسيرا متقدما اذ يعتبره « النتاج النفسي للتطور » ** •

ان الذين يحملون العقلية الغيبية وزر هزائمنا يحلون المسائل العلمية حلا لاهوتيا مثل الذين ينسبونها « لتخلي الله عنا » • فالتفسيران يشدان عيون البشر الى ما فوق الواقع الملموس الذي يفرز ــ ضمن ما يفرز من ضياعات ــ الضياع الديني •

ان الذين ينسبون تخلفنا وكوارثنا للفكر ، أيا كانت صفته ، انما يعطون الطبقات التي تحتل مركز القيادة المسؤولة ورقة « براءة ذمة » من كل مسؤولية وهو أقصى ما تطمح هذه الطبقات الآن اليه • وهكذا يضيع النقد في اللاهوت حيث أراد انقاذ الانسان من الضياع اللاهوتي •

---

* Primitive Christianity, by Rudolf Bultmann

** المصدر نفسه ــ ص ١٣٨ •

دراسات في نقد الشعر

صالح جواد الطعمة

أبعاد التحدي في شعر محمود درويش

لا يزال محمود درويش في مطلع شبابه ، وأغلب الظن أنه لم يبلغ الثلاثين بعد ، أو لم يتجاوز ذلك الا قليلا ، وقد صدرت له حتى الان أربع مجموعات شعرية « عصافير بلا أجنحة ، ١٩٦٠ » ، و « أوراق الزيتون » ١٩٦٤ ، و « عاشق من فلسطين » ١٩٦٦ ، و « آخر الليل » ١٩٦٧ · وللشاعر جولات في مجالات أخرى من الكتابة ما تزال مبعثرة في بطون المجلات والصحف ، وكل هذا النتاج المتصل من حيث الكم وحده يدل على حيوية خلاقة وتحد واضح ازاء ظروف قاسية يعانيها في فلسطين المغتصبة ، ويواجهها ببسالة لا تعرف الوهن ، ويعبر من ناحية أخرى عن طاقة فنية تعد بالخير ، وقابلية متنامية وثقافة واعية ·

ومن أهم ما يتسم به نتاج درويش عامة روح التحدي تلمسها في معظم قصائده حتى يخيل اليك ان معاناته الشعرية لأي موضوع أو حدث أو فكرة لا يمكن ان تتم من غير عنصر التحدي ، ويدرك الشاعر نفسه سلطان هذا التحدي في حياته وأدبه ، وما يفرضه عليه من أسباب حين يقول في معرض حديثه عن شاعر فلسطيني آخر « سميح القاسم » : « انه يعلم ان سر الداء في ما يعانيه هو حبه للوطن والحرية والحب · هذا الحب يغذي كراهية الظالم لنا · تناسب عكسي قائم بيننا وبينه بقدر ما نحب يكرهنا ، ونحن أحيانا أصبحنا نتعلم حب الوطن من خلال كرهنا للظالم وخاصة جيل المأساة ، ولذلك يخيل الي أن حبنا يحمل من **طابع التحدي** أكثر مما يحمل من طابع الحب العفوي الخالص » (١) ، أو عندما يصف حملات الارهاب التي يتعرض لها هو أو غيره من أبناء الشعب العربي في فلسطين بأنها « **تزيدنا تحديا** » (٢) ، ويدعو زملاءه الى « أن يزيدوا من انفجارهم ، انفجار كلماتهم لتخرج بحجم الضغط الذي يعبئها بالغضب والألم والأمل لان ما يلحق بنا من ارهاب وتحريض ناجم عن كوننا ربطنا مصيرنا ومصير كلماتنا الى الأبد بشعبنا » (٣) ، أو حين يشير الى تطور التحدي الى عمل وكفاح في حديثه عن تجربة اللاجيء في وطنه : « اللاجيء الفلسطيني لم يترك حرا بحرمانه وهنا يضاف عنصر جديد هو **عنصر التحدي من جانب السارق** ، وهو ذو حدين : الحد الاول يزيد من الشعور بالتمزق ، والحد الثاني يفجر هذا الشعور في نقطة ما ·· في **التحدي المضاد** الذي يتطور الى طريق عمل وكفاح ·· » (٤) ·

ولهذا فليس من الغرابة في شيء أن يكون عنصر التحدي سمة بارزة في قصائد درويش ، على اختلاف موضوعاتها الظاهرية · ولو تأملنا قليلا في طابع التحدي هذا لوجدنا ان هنالك عدة خطوط أو أبعاد تتضافر في تكوينه أهمها : « البعد الفردي البطولي » ، و « البعد القومي » و « البعد التاريخي ـ الانساني » ·

١

وأعني بالبعد الفردي البطولي ما يرسم الشاعر من صور البطولة والتضحية للمواطن المدافع عن حقه وكرامته ، والشاعر المؤمن بقدسية الكلمة ودورها في الكفاح ضد الظلم والعدوان ، واذا كان شعر درويش يحفل بأمثلة كثيرة لهذين اللونين من الكفاح، كفاح المواطن، وكفاح الشاعر، فانه يتميز بتأكيده دور الشعر او الكلمة عامة في المعركة التي يخوضها العرب في فلسطين ـ ومن الواضح ان هذا التأكيد لا يصدر الا عن ايمان قوي بفاعلية الشعر كما توضح ذلك قصيدته « عن الشعر » التي تتعمد ابراز الوظيفة المرحلية للقصائد « ان تحمل المصباح من بيت الى بيت ، أن يتفهمها البسطاء وان تغيظ الاعداء » (٥) ·

وفي « ولاء » (٦) تتردد الفكرة ذاتها في طريقة اكثر خطابية · وتعبير الشاعر عن هذا الايمان بما للكلمة من فاعلية يزداد قوة واشراقا عندما يمزج عواطفه نحو حبيبته وحبه للوطن السليب في قصيدته «عاشق من فلسطين» (٧) مضفيا على الكلمة سمة القوة والقصب ·

ويحاول الحاقدون على شعره أن يلجموه بالصمت ، أو أن يحيلوا غناءه للحياة الى كفر بجدواها ، ولكنه يزداد تحديا لان شرف الكلمة عنده « أن تحظى بالمطاردة ··· نصيبها منذ أن عرفت كيف تتكلم ! ان اختبارها في كلمات قليلة هو : أن تسر الاصدقاء وأن تغضب الاعداء » (٨) ، وهذا اللون من رد الفعل يعبر عن رؤية ايجابية للخطر المحدق بالكلمة في وطنه ، الخطر الذي يجسده الكفر بجدوى الحياة والايمان بعبثها عندما يحس المرء أنه منفي داخل حدود وطنه (٩) · ويذكرنا الشاعر بأن هذا الشعور السلبي هو ما يطمح الاعداء الى خلقه في نفوس مبدعي الكلمة « والوصول الى هذه النتيجة هو علامة انتصارهم عليك » ، ولهذا فهو يدعو رفاقه الى مقاومة الروح الانهزامية ، واحالة السجن الذي يحاول خنق انفاسهم الى دير يصلون فيه للحرية ، وتحويل حبهم للوطن الى نوع جديد من الصوفية ، مؤكدا ان الكلمة آنذاك « تأخذ من الصلاة عمقها لا خنوعها » ، والصبر يتحول الى تحد والايمان الى روح يسكن في ذراع حرف » (١٠) ·

هذا ما يرسمه درويش ، ككاتب ، لما تلاقيه الكلمة من مطاردة وطغيان ، وما يريد الاعداء اشاعته من روح الهزيمة والاستسلام ، وما يقترحه من انماط المواجهة ورد الفعل ، ولكنه كشاعر يبدو أكثر نجاحا في تجسيد رؤيته لكل هذه الجوانب ·· ففي قصيدة « صوت وسوط » (١١) ، يرسم صورة مفصلة للشاعر الذي يتعرض لاضطهاد الاعداء ، ويفترض قدرتهـــم على الانتصار في مجالات كثيرة ـ وبينها ما لا يتوقعه العقل ـ غير أنه يراهم تجاه شعره أضعف من أن يمسوه بسوء ·

وقصيدة « قال المغني » (١٢) تشير الى عبث المحاولات لاكراهه على الندم، وتمجد الموت وقوفا ، من غير خضوع ، كثمن طبيعي للخصب والنماء :

قال للناس حوله
كل شيء سوى الندم
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر ٠

ويتردد اصراره في قصائد أخرى كـ « شهيد الاغنية » التي تؤثر اعتلاء الصليب على الخضوع والاستسلام ، وتنقل أمنية الشاعر أن يكون آخر من تشهى الردى ٠ أو « برقية من السجن » المتنبية الروح ٠ أو قصيدة « تحد » (١٣) التي تكرر حتمية انتصار الكلمة ، وتنامي قوتها مهما تفنن الاعداء في اضطهادها٠

ان جميع الشعراء الذين يواجهون الظلم والتعسف ويلتزمون بالذود عن قضيتهم العادلة شعرا ينطلقون ــ بلا شك ــ من ايمانهم بدور الكلمة في هذه المواجهة ، غير ان درويش يحيل هذا الدور الى موضوع رئيسي يتحدث عنه بصورة مباشرة ، ويتعمد الى تكوين لوحة تتراكم فيها تدريجيا ملامح الكلمة وآثارها كالخصب ، والقوة ، والاضاءة والاستمرارية ، ويتخذ من ذلك كله سلاحا يشهره في وجه مضطهديه ، ووسيلة يحث بها مبدعي الكلمة على مواصلة مسيرتهم في اداء رسالتها النبيلة ٠

٢

أما البعد القومي فيشمل اعتزاز الشاعر بعروبته ، بأرضه ، واصرار شعبه على مقاومة المحاولات التي تهدف الى طمس كيانه ، وقد تحدث درويش عما يتصل بهذا البعد عندما أشار الى أهمية الشعر العربي في الارض المحتلة مبينا أنها « تكمن في التحام هذا الشعر بكل ذرة من تراب أرضنا الغالية ، بصخورها ووديانها وجبالها واطلالها وانسانها الذي يظل مرفوع الرأس رغم ما ينوء به كتفاه من أعباء ، وما يشد يديه وارادته من قيود ٠٠ انسانها الذي قاوم ولا يزال يقاوم الظلم والاضطهاد ومحاولات طمس الكيان والكرامة القومية والانسانية » (١٤) ٠ وهناك نماذج كثيرة في دواوين درويش تسهم في تكوين الاطار القومي لتحديه ، نذكر منها قصيدته « بطاقة هوية » التي تلجأ الى التعبير الفوري المباشر عن اعتزازه بعروبته وابائه وجذور شعبه العريقة (١٥) ٠

والتحدث عن « عمق الجذور » وسيلة فعالة يستعين بها درويش ، في مواضع عدة ، للتأكيد على روح التحدي عند شعبه ، والايحاء بأنه أقوى من ان تقتلعه أو تشرده قوى الغزاة ، ففي قصيدته « يا بلادي » نجد التحاما بين جذوره وجذور بلاده :

أنا في عروقك في جذورك رعشة الدفء الفتيه
أنا في البيادر لا أزال وفي الحقول العسجديه
وهنا جذوري في ترابك سرمديه
وهنا جذوري كيف تقلعها زنود أجنبيه

وفي « ولادة » يوحي لامه بالنهاية التي تنتظره ولكنه في الوقت نفسه يذكرها برسوخ جذور التين التي تهب غصونا أخرى :

يا امي
جاوزت العشرين
فدعي الهم ونامي

ان قصفت عاصفة في تشرين
ثالثهم
فجذور التين
راسخة في الصخر ، وفي الطين
تعطيك غصونا اخرى
وغصون

ويلجأ الشاعر الى الجذور مرة أخرى في قصيدته « مطر » ويضيف عنصرا جديدا الى صورته عنها : عنصر الارض التي لا تعيش في سواها الجذور :

يا نوح
لا ترحل بنا
ان الممات هنا سلامه
انا جذور لا تعيش بغير ارض
ولتكن ارضي قيامه

وشجرة التين العريقة الجذور ليست الشجرة الوحيدة التي توحي في شعره بالصمود والتحدي ، بل هنالك اشـــجار أخرى كالنخلة الصامدة ، والزيتون يشبه بها احرار أرضه :

وانت كنخلة في الذهن
ما انكسرت لعاصفة وحطاب
وما جزت ضفائرها
وحوش البيد والغاب

ومما لا شك فيه أن استخدام الشاعر للجذور والاشجار ناتج عن ادراكه الواعي لقيمتها الرمزية كما يدل على ذلك قوله « فالبرتقال والزيتون مثلا هما من أقوى معالم الطبيعة في بلادي .. ان اهتمامي بالبرتقال والزيتون مستوحى من واقع الانسان الذي غرس هاتين الشجرتين وسقاهما بالعرق والامل منتظرا ثمار ما أعطى .. هذه العلاقة بين الزارع والشجرة تحمل مدلول استمرار الحياة والامل والوطنية والتلقائية .. » أو قوله : « الرمز الذي يحافظ على حقيقته في كل حركات الزيتون في نهاية المطاف هو التشبث في التراب والقدرة على مواجهة الزمن وطول النفس والخضرة الدائمة أخيرا ... » (١٦) وفي هذا القول ما يدل على ان الشاعر ، في تصويره لصمود بلاده ، لا يعتبر الثقة بعمق الجذور وحدها كافية ، بل يرى ضرورة الرعاية الصابرة للتربة التي تحضن هـــذه الجذور .. ومن هنا يأتي رفضه للرحيل ... لقد أتيح للشاعر أن يرحل عن أرضه ، ولكنه آثر البقاء بالرغم من كل ما يقاسيه :

وانا ابن عوليس الذي انتظر البريد من الشمال
ناداه بحار ولكن لم يسافر
لجم المراكب ، وانتحى أعلى الجبال
ــ يا صخرة صلى عليها والدي لتصون ثائر
انا لن أبيعك باللآلي
انا لن اسافر
لن اسافر
لن اسافر

ويستعين درويش في هذه القطعة بعدة وسائل للتأكيد على البقاء ، فهو أولا يلجأ الى البعد المكاني بين البحر رمز الرحيل ، وذروة الجبال ، ويتخذ من الصخرة التي تعبر عن الصمود والاستمرارية رمزا اخـــر للتشبث بالبقاء ، ويضيف اليهما ما توحيه قصة يوليسيس من التفاؤل بالعودة الى الارض بالرغم من التشرد الطويل الذي عاناه يوليسيس ، والانتظار الذي امتد بابنه غير يائس من عودة أبيه • ويخيل الي أن الشاعر قد وفق في ترديد « لن أسافر » ثلاث مرات متتابعة ، لا لأن التكرار اداة تقوم بوظيفة التأكيد فحسب ، بل لأنه جاء منسجما مع الطبيعة الموحية بالصدى تردده الجبال متعاطفة مع الشاعر في رفضه للرحيل • ويعود الشاعر مرة أخرى الى « الجبل » كرمز للبقاء ، و « البحر » ، رمز الرحيل ، في قصيدته « البحر والجبل » حيث يصف البحر بأنه حمال ، ويشبه كفيه بالملاجىء ، ويرى في المرفأ تابوته :

في الصيف تغريها الشواطىء
وانا تناديني الجبال
البحر كان البحر حمالا وكفاه ملاجىء
يا قلب ! لا تسال لمن صارت ملاجىء
واخفق بصمت حين يصفعك السؤال •••
•••
في الصيف تغريها الشواطىء
وانا تناديني الجبال
البحر مولدها وتابوتي المرافىء (١٧)

ويحاول في قصيدة « أبي » أن يوحي بأن موقفه من البحر ليس وليد شعوره الشخصي وحده بل هو ما التزم به ودعا اليه أجداده ـ في شخص أبيه ـ منذ أقدم العصور :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحضن التراب
وصلى
لسماء بلا مطر ،
ونهاني عن السفر !
اشعل البرق اوديه
كان فيها ابي
يربي الحجارا
من قديم •• ويخلق الأشجارا
جلده يندف الندى
يده تورق الحجر ••
•••
وابي قال مرة
حين صلى على حجر
غض طرفا عن القمر
واحذر البحر والسفر

وفكرة التمسك بالارض ، ورفض الرحيل تتجلى في قصائد أخـــرى كقصيدة « مطر » و « في انتظار العائدين » و « خلف الاسلاك » • وليس في

هذا التكرار ما يغير الفكرة ، أو ينال من طاقتها التأثيرية وذلك لان الشاعر يتجنب الرتابة في تناولها محاولا أن يستغل كل مناسبة تتردد فيها لاضافة لون جديد ، أو رمز اخر من رموز التحدي والصمود ٠ ففي « خلف الاسلاك » مثلا يعالج الشاعر هذه الفكرة باللجوء الى كتابة اسمه بأسنانه على الاشجار والصخور والتراب ، أو الحفاظ على مفاتيح مسكنه في حيفا وعكا حتى بعد موته ، أو الايحاء بأنه اذا كان هنالك غد بهيج فانما سيشرق في هذه الارض :

على أسلاكها اقف
فتنحدر السماء ويصعد الوادي
ويلتقيان في صمتي وترتيلي
بلادي لي
بلادي لي
كتبت اسمي باسناني
على اشجارها وصخورها
وترابها الحاني
اتنساها وتنساني ؟
بلادي لي

...

احن اليك يا حيفا
وانفض عن مصابيحي
غبار الليل والزمن
فما زالت مفاتيحي
معي في الجيب والعينين والكفن
احن اليك يا عكا
اقبل شارعا شارع
واحضن كل شباك
وعشبا فوقه طالع

...

هنا سانام مشتعلا
من الاحلام والذكرى
هنا خزنت حجارتنا
غد الاقمار والفجرا
هنا يتقطر الفولاذ
في اعصابنا خمرا
فسبحان الذي اسرى باقدامي
ليبعثني هنا حرا (١٨)

٣

ولم يقتصر درويش في تحديه على بطولته أو كفاح شعبه في وجه مضطهديه ، بل أسبغ عليهما طابعا ثوريا انسانيا مستمرا من قناعته بأن « جوهر الثقافة الانسانية وميراثها الباقي هو رفض الظلم ، وتجميل حياة الإنسان » (١٩) ورؤيته لقضايا الشعوب كوحدة عضوية ، وانتمائه الفعلي الى الحركة التقدمية الماركسية (٢٠) ٠ ومما لا شك فيه أن درويش كان ولا يزال اكثر اهتماما

بقضايا شعبه ، بحكم المأساة التي تحياها الارض المحتلة في فلسطين منذ نكبة ١٩٤٨ ، وهو حريص على أن يقوم بدوره في نقلها الى الصفحات التي تستحقها في ديوان الشعر الانساني مؤمنا بأن ذلك لا يتنافى ، كما يقول ، مع وعيه لشمولية الكفاح الانساني (٢١) ، غير ان ذلك لم يحل دون استلهامه الحركات الثورية العالمية ، والتجاوب مع قضايا العصر ، بسبب ادراكه للترابط العضوي بين تلك الحركات والقضايا وكفاح شعبه العادل :

فكل تمرد في الارض
يزلزلنا
وكل حديقة في الارض
ناكلَ حبة منها
وكل قصيدة في الارض
اذا رقصت نخاصرها
وكل يتيمة في الارض
اذا نادت نناصرها (٢٢)

وتتضح رؤيته لهذا الترابط في اشارته الى أنه ناي في أوركسترا الذين نفضوا غبار الامس ، وتلاحموا في مسيرتهم نحو المستقبل :

دعوني اكمل الانشاد
مع الدانوب والاردن والفولغا
مع الانهار والشلال والازهار
وحيث تعانق الاشجار ،
عنادلها
انا منهم
انا ناي باوركسترا الذين
عيونهم نفضت
غبار الامس ، والتحمت
برمش الشمس والمستقبل الاجمل

أو في تلميحه الى انتفاضة افريقيا وآسيا في قصيدة « وشم العبيد » :

افريقيا في رقصنا
طبل ونار حافيه
وشهوة على دخان قافيه
في ذات يوم احسن العزف على
ناي الجذوع الهاويه
انوم الافعى
وارمي نابها في ناحيه
فتلتقي في رقصة جديدة جديدة
افريقيا وآسيه

وقد ألمح الشاعر توفيق زياد الى هذا الترابط العضوي في شعر درويش قائلا : « ومن الافق الوطني في قصيدتي « عاشق من فلسطين » و « في انتظار العائدين » يرقى محمود الى أفق أغني وأرحب في « نشيد للرجال » ، في هذه القصيدة نراه يمزج مشاعره الوطنية وتجربة شعبه بمشاعر وتجارب الانسانية

مزجا جميلا ، وهو فيها يرى نفسه وشعبه جزءا لا يتجزأ من الموكب البشري العام الذي يصنع المستقبل الافضل » (٢٣) ٠

ان من وسائل الشاعر المهمة لتعميق البعد الانساني لتحديه اللجوء الى رموز تاريخية ، دينية أو اسطورية ، سواء كانت عربية أم مستمدة من ثقافات أخرى ، منطلقا من ادراكه للتاريخ كمصدر غني للشعر (٢٤) ، وشعر المقاومة خاصة كما ورد في قوله : « ويتمتع شعر المقاومة عـــادة بحساسية شديدة بالتاريخ كجزء من تمسكه بجذور عميقة تعينه على الصمود وعلى تبرير هـــذا الصمود واحتقار هذا الظلم الطارىء امام جبروت التاريخ » (٢٥) ، وليس من الغريب اذن ان يعتبر نفسه « امتدادا نحيلا بملامح فلسطينية ، لتراث شعراء الاحتجاج والمقاومة ابتداء من الصعاليك حتى حكمت ولوركا واراغون » الذين أمدوه بوقود معنوي ضخم ، على حد تعبيره (٢٦) ٠

وهذا الاحساس الواعي بأهمية التاريخ يوضح كذلك اهتمامه بالاساطير كزاد شعري ثر ، ان أحسن استعمالها ، كما يتبين من قوله معلقا على المرحوم بدر شاكر السياب : « وبدر شاكر السياب من الشعراء الرواد الاوائل الذين استعانوا بالاسطورة استعانة كبيرة فجلبت له من الخير الفني التعبيري الناجح أكثر مما جلبت لسواه من الذين اغرقتهم حين أغراهم التقليد ٠٠٠ لقد كان كالمسافر الضائع الذي يلهيه الغناء عن وعثاء السفر فيصطاد اساطير الحزن والعذاب والرحيل ويستخرج منها رفاق رحلته الطويلة فيخلق بأناشيده الغنائية جوا ملحميا غير متكامل النواحي والآفاق ٠٠٠ » (٢٧)

ومن أهم الرموز التي اتخذها الشاعر رفاق رحلته ، واستلهم منها زادا لتحديه وصموده « الصليب » ٠٠ وقد استخدم هذا الرمز غيره من الشعراء كبدر شاكر السياب ، وخليل حاوي ، وصلاح عبد الصبور ، وعبدالوهاب البياتي ، ولكن درويش يبدو ، كما قال رجاء النقاش ، أقربهم الى الاقناع الفني والوجداني لانه « يعيش مأساة كبيرة حقا ، وهي مأساة معادلة لمأساة الصلب وتيجـــان الشوك والمسامير في اليدين » (٢٨) ٠

وقد تردد « الصليب » في عدد غير قليل من قصائده ك « قال المغني » و « شهيد الاغنية » و « صدى من الغابة » و « مع المسيح » و « صلاة أخيرة » من مجموعة عاشق من فلسطين ، و « أغنية حب على الصليب » و « الى ضائعة » و « رد الفعل » من مجموعة آخر الليل ٠

ويوحي رمز « روما » في مواضع متعددة بانتصار الثائرين على الطغيان ، كما جاء في قصيدة « وشم العبيد » :

ردما على جلودنا
ارقام اسرى والسياط
تفكها اذا هوت او ترتخي
كان العبيد عزلا
ففتتوا البلاط

أو في قوله :

نيرون مات ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادي سنابل

ويستخدم الشاعر بطل الاسطورة اليونانية « يوليسيز » أو « أوديس » رمزا متفائلا للعودة الى الارض ، وقد أشرت الى ورود الرمز في قصيدة « في انتظار العائدين » ، وأضيف الى ذلك استخدامه له في قصيدة « أبي » :

كان اوديس فارسا
كان في البيت ارغفه
ونبيد واغطيه
وخيول واحديه
وابي قال مرة :
حين صلى على حجر
غض طرفا عن القمر
واحذر البحر والسفر

ويستخدم « تموز » لا كرمز تقليدي للخصب فحسب ، بل كرمز لديمومة الحنين الى الارض ، وخلود الغضب على مغتصبيها كما جاء في « تموز والافعى » :

تموز يرحل عن بيادرنا
تموز ياخذ معطف اللهب
لكنه يبقي بخربتنا
افعـــى
ويترك في حناجرنا
ظمــا
وفي دمنا ،
خلود الشوق والغضب

ويشير الى قصة « نوح » ولكنه لا يأخذ منها فكرة الرحيل ، بل يرى السلامة في البقاء والموت في الوطن :

يا نوح !
لا ترحل بنا
ان الممات هنا سلامه
انا جذور لا تعيش بغير ارض
ولتكن ارضي قيامه

ورمز « خيول الروم » الذي ينقل الى الاذهان مطامع الحملات الصليبية يوحي بحتمية انتصار العرب في مواجهة الغزو الجديد في فلسطين :

حملتك في دفاتري القديمة
نار اشعاري
حملتك زاد أسفاري
وباسمك صحت في الوديان :
خيول الروم ! اعرفها
وان يتبدل الميدان !

ان هذه المقتطفات من نتاج درويش لتدل دلالة واضحة على أن الشاعر يعيش محنة فلسطين بكل أبعادها وجوانبها سواء كانت تتصل بمأساته كشاعر يدافع عن كرامة الكلمة ، او بكفاح شعبه لاسترداد حقه ، أو بالمدلول الانساني لهذا الكفاح ضد المغتصبين الغزاة ، وأنه قد وفق الى حد كبير في استعمال التحدي

مرآة يعكس بها تلك الجوانب والابعاد •

المراجع

(١) محمود درويش : « على هامش أغاني الدروب » **الجديد** ١٢ (٥ مايس ١٩٦٥) ٢٧ •
(٢) و (٣) محمود درويش : « حبر على ورق : الضغط والانفجار » **الجديد** ١٢ (٣ آذار ١٩٦٥) ٤٢
(٤) محمد دكروب : « حديثان ـ وثيقتان مع محمود درويش وسميح القاسم » **الطريق** ٢٧ (١٠-١١ تشرين ٢ ـ كانون ١ ـ ١٩٦٨) ٥٣ •
(٥) محمود درويش ، « أوراق الزيتون » ص ١٣ ـ ١٤ •
(٦) « أوراق الزيتون » ص ١٣ ـ ١٤ •
(٧) محمود درويش « عاشق من فلسطين » (بيروت : ١٩٦٨) ص ١٤ ـ ١٥ •
(٨) محمود درويش « مهر الكلمة » **الجديد** ١٢ (٨ و ٩ آب ـ أيلول ١٩٦٥) ٦ •
(٩) المصدر نفسه ، ص ٦ ـ ٨ •
(١٠) المصدر نفسه ، ص ٦ ولاحظ ايمانه بانتصار الكلمة في قوله : « وأزمة الثقافة العربية التقدمية التي تتصدى لها قوى سوداء أو لون لا يقترب الا من السواد أزمة كل شعب مظلوم في وطنه يقاوم بالكلمة ••• ولكن عصورا وقوى اكثر سوادا في التاريخ البشري حاولت أن تطفيء الكلمة فاشتعلت الكلمة ملء الدنيا ولا تسأل عن الرماد » • انظر درويش : « كي تكبر الكلمة ، كي تعلو ، كي تنتصر » **الجديد** ١٣ (١٩٦٦/١) ٣ •
(١١) « عاشق من فلسطين » ٢٠ ـ ٢٤ •
(١٢) « عاشق من فلسطين » ١٨ ـ ١٩ •
(١٣) « عاشق من فلسطين » ٧٥ ـ ٧٦ ، ويعود الشاعر في مجموعته الرابعة « آخر الليل » (دمشق ١٩٦٨) الى الموضوع ذاته في صور مختلفة : « رد الفعل » ص ١١١ ـ ١١٣ ، و « قناديل الجراح » ص ١١٩ ـ ١٢٣ •
(١٤) محمود درويش : « حديث الشهر : هذا الاهتمام يهمنا » **الجديد** ١٣ (٤ ، ٥ ١٩٦٦) ٤ •
(١٥) راجع « أوراق الزيتون » ٥ ـ ٨ •
(١٦) محمد دكروب : المصدر المذكور سابقا ٦١ ـ ٦٢ •
(١٧) محمود درويش : « غيوم على المرايا » **الجديد** ١٢ (٥ /١٩٦٥) ١٩ •
(١٨) محمود درويش « خلف الاسلاك » **الجديد** ١٣ (٤ ـ ٥ / ١٩٦٦) ٨ ـ ٩ • وانظر أيضا « قصائد جديدة » **الطريق** ٢٧ (١٠ ـ ١١ / تشرين ٢ ـ كانون ١ / ١٩٦٨) علما بأن المجلة المذكورة قد اعتبرتها سهوا من قصائد الشاعر الجديدة •
(١٩) درويش « حديث الشهر » **الجديد** ١٣ (١ / ١٩٦) ٤ •
(٢٠) **الطريق** ، العدد المذكور سابقا : ٥٤ ، ٦٠ •
(٢١) انظر حديثه في **الطريق** العدد المذكور آنفا ص ٦٥ •
(٢٢) « نشيد للرجال » **عاشق من فلسطين** ١١١ ـ ١٣٢ •
(٢٣) توفيق زياد « محمود درويش : عاشق من فلسطين » **الجديد** ١٣ (١٩٦٦/٣) ٧ •
(٢٤) محمود درويش « على هامش أغاني الدروب » **الجديد** ١٢ (٥ / ١٩٦٥) ٢٧ •
(٢٥) انظر حديثه في **الطريق** ٦٠ ـ ٦١ •
(٢٦) المصدر نفسه •
(٢٧) محمود درويش : « بدر شاكر السياب » **الجديد** ١٢ (١ / ١٩٦٥) ١٢ •
(٢٨) رجاء النقاش : « محمود درويش : عاشق من فلسطين » **الآداب** ١٦ (٢/شباط ١٩٦٨) ٥٧ •

نجيب المانع

الحرية والعبودية في الافق اللغوي

لو اصغينا الى البشر لوجدناهم في الغالب الاعم يتكلمون لغتين فلغة هي اداة الايصال البشري تزيدهم وعيا ورهافة وامتلاءوكرامة ولغةهي ختام التواصل البشري الفاظها كالاسيجة الحديدية المكهربة وهي تكون بالضرورة نهائية وقطعية وآمرة وهي تنحدر من فم واحد أو أفواه متعددة تشكل بتراكيبها المتنوعة فما واحدا كبيرا يزدرد كل شيء ٠

المونولوغ (الكلام المنفرد) صيغة اللغة التي هي سيـــاج والديالـــوغ (الحوار) صيغة اللغة التي هي حرية ٠ الاول يصعق سياجه المكهرب من يلمسه وهو يفصل ابا عن بنين وصديقا عن اصدقاء والثاني تتكاثر بين يديـــه القيم والمشاعر والافكار ليترعرع الانسان فيها منطلقا واثقا متقنا لصنع يومه وغده ٠

بماذا أسهم ديكارت في النهضة الاوروبية ؟

ليست افكاره هي ما يهمنا الآن بل طريقته ٠ لقد أنشأ سلوكا في معالجة الموروث والمقبول والمتعارف عليه ففتح بهذا السلوك وتلك الطريقة كل الابواب لاشد أنواع الكبرياء شرعية : كبرياء الفكر المتسائل ٠ ان امكانية السؤال على نحو مطلق اشباع لاهم حاجة بشرية بعد حاجات الجسد ٠ والحضارة الحديثة تغترف خلال القرون الخمسة الأخيرة من ينبوع فياض لا يغيض هو ينبوع الشك الديكارتي : لا جواب قبل سؤال ولا فكر بدون أسئلة ممضة ولا يقـــين قبل شكوك ٠ من ذلك الموقف نشأ البحث العلمي الحر الذي مكن الانسان جسدا وعقلا من الانطلاق عن بؤرة عبودية الأوبئة والمسافات القصيرة وغربـة الحياة الضيقة النباتية فأصبح يتخطى الارض بأوسع الخطى ويتفاعل مع أشعة الكون كله ٠ واينما وجد المونولوغ تقهقر الفكر ونضب ينبوع الابداع وانتهت صياغة الحرية في انسجة الوجود ٠

الكثرة والتنوع والازدهار والتعدد تخلق جوا يحتضن فيـه الفكـر كل قدراته على التحدي وعلى اقتحام مجاهل الحقيقة والتعبير عنها واعادة تركيبها من اجزائها الدقاق التي لا ترى ٠

الانسان يتحرك حركتين جدليتين احداهما صيرورة جبرية تصب فيها

غرائزه وبيئته وعصره ومحيطه وتاريخه الساكن وثانيتهما ارادية يصب فيها نزوعه وقلقه وطاقاته وتاريخه النابض المتمرد على التقاويم ، تاريخه الذي تتشكل خلاله الاحداث بتيارات حرة متوهجة لا تتأطر ولا تجف ولا تتكلس • وتستطيع اللغة ان تعالج العناصر الجبرية كمواد اولية تودعها افران المكونات الارادية للانسان ليصوغ منها قدره ويصهر خلالها شخصيته ولا يتيسر له ذلك الا عن طريق حرية امتلاك اللغة برمتها ، لغة شعب واحد ، ولغة الانسان المنتمي الى القدرة اللغوية على نحو مطلق او ما يمكن ان ندعوه بالوعي اللغوي بوصفه خصيصة بشرية • ثم هو في حريته يمتلك لغة شعبه على مر العصور لا لغة شعبه وهو يحيا حقبة معينة في التاريخ المعاصر او القديم • يمتلك اللغة كما يمتلك نبضات قلبه التي تعلن عن حياته فاذا لم يعد يمتلك تلك النبضات وصف بانه ميت •

على ان اللغة خداعة اذ انها تبدو لكل من يمتلك منها بعضها انه امتلك منها ما يكفيه ، وتبدو اجزاؤها في بعض الاحيان كليات مطلقة وامتلاءات ونهايات ليس وراء حدودها الفاظ وليس وراء اسوارها مدركات وهذا منبع خطورة عظمى أي عندما تتقلص اللغة الى كفاية فانها تنبعج بضمورها الى عبودية : كل تحديد وظيفي للغة يطرح مقدما ويوضع كدستور مقدس انما هو اختناق وتطويق لروح الانسان •

تنطلق اللغة التي هي حرية من احترام وتنطلق اللغة التي هي عبودية من خوف وفرق ما بين الاحترام والخوف هو الفرق من حيث ارواء العطشان بين الماء الاعتيادي والماء المغلي • اما الاحترام فهو الاقرار بان هناك محاورة ما وردا ما وجوابا ما يتربص بالنطق الملقى فلا يظن الواثق المتكبر عن طريق امتلاء بالقليل الذي يمتلكه من المدركات انه حاز المدركات كلها ووضع الاجوبة جميعها فاصبح كل استفهام يوجه اليه بعد نطقه المونولوغي لجاجة كريهة وبات عنده ان القول ما قال وليس وراء ما يقول سوى الصمت القابل والقبول الصموت وفيهما تترعرع أفاعي العبودية وتخمد الاذهان ويخيم الظلام على عالم الكلمة ، وعندها تبدأ اللغة المسيجة ، لغة العبودية والاختناق بوضع دستور المحرمات الواسع العريض العملاق الدائم النمو رغم ضخامته كالجثة التي تنمو في مسرحية (اميديه) ليونيسكو ، وفي زاوية صغيرة من اللغة المسيجة قرب براميل القمامة يوجد دستور الاباحات القميء الهزيل الضئيل الدائم التقلص رغم صغره والذي يتقطر منه ماء الحياة بمقدار ما يتقطر من الحجر تحت الشمس ماء •

واللغة التي هي خوف لغة سكونية تمنع التواصل البشري على الرغم من ايصائها المستديم به وتوكيدها الذي لا ينقطع بانه موجود وواجب الوجود معا • هي لغة سكونية لا حركية ، تقف عند كلمتي لا ونعم فاذا تجاوزتهما فبحدود ما تستطيع الببغاوات ان تردد وما يمكن للصدى ان يعيد • هي لغة سكونية تتراكض حول نفسها وترهق مستمعيها بالصراخ وهي تقول انه ابلغ الهمس وهي لغة تتلوى تحت خدر ملالها فيما هي تؤكد ان موسيقاها طراوة وجدة ونشوة حية • وعلى ذكر الصراخ فقد يكون من المناسب ان نذكر قولة ليونارد ودافينشي « حيث يوجد الصراخ تهرب المعرفة » •

امن المستحيل علينا ان ندخل في خضم التجربة الحياتية ونحن مسلحون بلغة معبرة عن فلسفات لا فلسفة ووجهات نظر لا وجهة نظر وحيدة ودلالات لا دلالة يتيمة ؟

التاريخ على قصره الذي لم يتجاوز المكتوب منه ستة آلاف سنة ينبئنا ان هناك كثرة وتعددا وثراء ولكننا ونحن ندلج في آماد ممتدة خلال الزمن التاريخي نجد انفسنا وقد انهكنا التعدد وبهرت انظارنا الكثرة كشموس كثيرة تعمي البصر فاخذ بعض منا وقد فقد عينيه يدب على الأرض دبيبا ويجد في بعض الحصى والرمال مشابهة لمسية للؤلؤ والجواهرفيصيح يا لها من كنوز لا تحد ولا تحصى ·

سأل بولونيوس هاملت « ما الذي تقرأ » فأجابه هاملت متقمصا دور المجنون « كلمات ، كلمات ، كلمات » ولكنها كلها كلمات ، ذلك الجنون المزعوم وتلك الحكمة المدهشة ، ذلك الانسان الباحث عن نفسه وتلك المواقف المشحونة بالغضب والولاء وذلك التأمل وتلك البصيرة وذلك الحذق في استعمال الكلمات وتلك القدرة الخارقة على فهم النبل والتضحيةوالخيبة واليأسوالحب والتمزق، كلها كلمات نسجتها يد تستطيع ان تصنع من الكلمات المبذولة لكل الناس تراكيب تعلن جدتها بذاتها وذلك بمجرد انشاء علاقات حية وحيوية بين الكلمات وتوزيع الحانها الموسيقية والنفسية وارسالها بايقاع خارجي مسموع وايقاع داخلي لا يعلن عن نفسه وانما يتم الوصول اليه عند التعاطف معه ، وتحريكها في نظام ديناميكي متعدد الاتجاهات متكاثر الالتماعات · شكسبير صانع كلمات وبالكلمات وحدها كشف لنا الخبايا وازاحصخور البلادةالتي تثقلصدر الانسان الخام الغفل المكتفي بما لديه هو من كلمات فيظل نائما عن مسئوليات وجوده ·

ولماذا نذهب بعيدا وقد قيل ان اول آية نزلت على النبي محمد هي « اقرأ باسم ربك » ويبدأ الانجيل بهذه الآية « في البدء كانت الكلمة » · لم كل هذا الاهتمام باللغة ؟ ألأن اللغة افصاح عن الحقيقة ؟ ولكنها تكون ايضا افصاحا عن الباطل · يقال ان اللغة لا تزيد عن كونها مدلولات منعكسة وعابرة عما هو مادي ملموس · هذا صحيح في حدود لأننا نرى ان ما هو مادي ملموس ليس أدوم بقاء من الكلمات التي صيغت لوصفه · انتهى عصر عبيد الارض ولكن رواية غوغول «الارواح الميتة» ما زالت تعبر عن شيءما لا ندري كيفيخلد مع فناء كل الظروف المادية التي اوحت به · وهذا الذي نقول انه « شيء ما » انما هو لغة تعبر عن مدركات وترسم صورا وتنشىء علاقات انسانية في اعماقها نعثر على وجه الانسان صديقنا القديم يطالعنا بحدته الدائمة ونضارته التي لا تبلى ·

نقول « اللغة » فماذا نعني بذلك ؟ لغتنا ام لغة غيرها ام اللغة بشكل مطلق بوصفها قدرة العقل البشري على تشكيل مدركاته بالفاظ ؟ ان ما نقصده هنا هو هذه الامور كلها : لغتنا كلغة معينة بالذات ولغات غيرنا واللغة بمعناها المطلق · ان هناك من الباحثين من يرى ان ليس في الامكان التفكير الا بلغة معينة بالذات وليس هناك لغة بالمعنى التجريدي للكلمة لان الافكار لا تكون الا في الفاظ · وقد ذكر افلاطون في محاورة السوفسطائي ان التفكير ليس سوى كلام غير منطوق تتحدث به الروح الى نفسها · وهذه النقطة بالذات ينبغي ان نعالجها بوضوح للسير قدما في مفهوم اللغة بوصفها حرية ·

هناك ابداعات انسانية نقول عنها انها تفوق الوصف ، أي تفوق القدرة على صياغتها لغويا او صياغة ما ينقلها من تركيبها الذي انبثقت منه واطارها الذي تشكلت به الى تركيب لغوي آخر · وهناك ابداعات اخرى نقول عنها ان اداتها الفنية تستطيع ان تضرب في مسارات من الوعي الانساني لا تستطيع اللغة البشرية ان تسير معها فيها لانها قاصرة عن تلك الاداة ومثال ضخم على ذلك يكمن في الموسيقى الصافية او الموسيقى المطلقة كرباعيات بيتهوفن الوترية الأخيرة · قال الناقد سوليفان ، وهو من اعمق من كتبوا عن بيتهوفن ، عن هذه الرباعيات

الوترية انها تعانق حالات من الوجود ليس في مقدور لغة الالفاظ ان تقترب منها لأن اللغة منطقية مهما خرجت على المنطق وتمردت عليه وهي ، بسبب منطقيتها ، تعجز عن وضع صيغة لغوية لحالات من الوعي العميق الذي ليس هـــو منطقيا بقدر ما هو وجود مطلق وهذا الوجود المطلق الصافي شيء يقع وراء حدود اللغة ونستطيع ان نستنتج من كلامه أن اللغة تتعامل بالوجود الجزئي والواقع الملموس والمكتشف والمقبول ابتداء والمعترف به كالنقود المطروحة للتداول • فاللغة بناء على ذلك تكون حاجزا وسدا امام المطلق ، امام الصفاء الشامل الذي نحس به في رباعيات بيتهوفن الأخيرة ولا نعرف كيف يكون لنا ان ندرجه بالفاظ مهما كانت سيطرتنا على اللغة عظيمة في سعتها ودقتها في آنواحد • ليس في اللغـة مثلا لفظ يشير الى تلك الحالات من الوجد التي تتوافد الينا من تلـــك الرباعيات مشيرة الى فرح حزين او كبرياء متواضعة او قبول رافض او تفاؤل متشائم او استرخاء متوتر • وهذه الحالات هي التوافقات الشعورية الموجودة فعلا في تلك الموسيقى والتي يتعذر وصفها • اللغة تعبر عن مشاعر او افكـار عبـر لحظات متتابعة من الوعي لانها تجري في مساق الزمان الفيزيائي ، الزمان الذي تضبطه الساعة والتقويم وتلك الموسيقى تتناول المشاعر بامتلاء التواجد الكلي لانها تجري في تيار زمان وجودي • رباعيات بيتهوفن الوترية الأخيرة (اي رقم ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ والفيوك الكبير الذي هو رباعية في حركة واحدة) تشكل معا اهم وثيقة كتبها انسان في التاريخ معلنا فيها انعداما كاملا للرغبـات فيمـا هو يؤكد احتضانا متلاشيا بالكون ، ورضى كاملا بالاندحار فيما هو يبتهج بانتصار قاهر في جميع معارك الحياة • هذه الاضداد كلها وغيرها تتوارد غير انها تتوارد بموجب منطق الحالة الشعورية التي تخلقها الموسيقى وليس الحالة الشعورية التي تخلقها اللغة فان وعينا كما يقول سوليفان انما هو وعي جنيني بالقياس الى النضج فيها • فهل تنعدم اللغة التي هي حرية بازاء حالات من الوعي الإنساني كهذه لتنقلب لغة العجز الذي هو احدى حالات العبودية ؟ جوابي عن ذلك بالنفي •

فاللغة التي هي حرية نزوع نحو كل انواع الاستحالة وضرب في ميادين المجهول كلها وارتقاء الى السماوات والأفلاك جميعا • اللغة /الحرية ذات ديناميكية غير قانطة وتمردات لا تستسلم ، تلج الى غياهب العقل البيتهوفني وتركز البصر في عيون رمبراندت الملأى بالاسرار في محاولة للتحليل والتركيب المستديمين اللذين يراكمان المدركات وينسقانها ويمكنان وعينا من الازدهار والتكاثر والكشف والمعانقة• مهما يكن من غموض شخصية هاملت فان حرية البحث فيه حرية مطلقة تقرب اكثر من وجه واحد من وجوهه المتعددة في توهجاتها • فلو ان آمرا باللغة التي هي عبودية طلب الى كل الناس ان يفهموا هاملت على نحـو معـين بالذات لوجدنا هذه الشخصية القلقة الشجاعة المثقفة الوفية المترددة القاسية الراحمة الساخرة الجادة المحبة الكارهة قد ضمرت وجف عودها واصبحت دمية تافهة • فلو وضعنا مكان هاملت احدى المدركات العامة التي تكون بالفعل مكانا ممكنا لواجب الفهم بموجب اللغة التي هي عبودية ولتقل مثلا فكرة المصلحة العامة فلن نكون بحاجة الى مزيد من القول في كيفية ضمور مفهوم المصلحة العامة في نطاق اللغة المونولوغ التيهي عبودية ، فاذا عرفنا انالفاظا عامة تعد بالالوفقد ضمرت على هذا المنوال فالى أي حياة جافة قبرية مغلقة باهتة يمكن ان نصل ؟ فلو اضفنا الى ذلك ان ضمور شخصية هاملت بل والغاءها لن يؤثر كثيرا على حياة الملايين من الناس في حين ان ضمور مفهوم المصلحة العامة والوف غيرها داخل اسوار اللغة المونولوغ يؤثر حتى على عملية الشهيق والزفير التي يقوم بها كل منا في كل لحظة •

لاعد الى حديثنا عن الموسيقى الصافية واليأس الذي يجده بعضهم في النفاذ الى عالمها لغويا فاقول انه ليس هناك من جدوى في ان نحبس الانسان ونغرس فيه قنوطا موضعيا عن ارتياد مجاهل بواسطة اللغة ولذلك فان النزوع نحو مزيد من الحرية للانسان في مجال التعبير باللغة يهيب بالمبدع ان يقتحم الى ابعد ما يمكن من تلك العوالم الغريبة المتوترة المزدهرة ذات الالوان الموسيقية الخاصة ٠ وقد تحرر بودلير من قيود ذلك اليأس اللغوي فاستطاع ان يقرب اللغة من شطآن جزر بعيدة لم يكن التعبير الادبي قد وصل اليها من قبل وقصيدته «التوافقات» تشهد على ذلك ، ففيها تتمازج الالوان بالاصوات والعطور وتتراجع فيما بينها محدثة وعيا عجائبيا رائعا ٠ على ان بودلير لم يقم بكشف لغوي في ذلك وانما كان كشفه شعوريا صاغه بلغة مألوفة الى حد كبير ولكن الذين جاؤوا بعده مثل رامبو وجيمس جويس والسرياليين على اختلاف واضح في مواقفهم بازاء التعبير الفني ، قد أوجدوا حالات من الوعي عن طريق النشوة اللغوية وبعبارة اخرى كانت الحرية مع اللغة لديهم هي التي خلقت حالات الوعي وليس العكس ٠ فهم عالجوا اللغة احيانا كآلات غريبة للعزف الموسيقي ٠ وايا ما يكن الامر فان كلتا الحالتين تصدران عن ممارسة للحرية لا مع اللغة وحدها وانما الحرية الأعم ، حرية التعبير عن الصلات القائمة والصلات الممكنة بين الانسان والاشياء والعالم ٠

من ناحية التعبير الادبي اذن فان الحرية والتفتح تزيح أستارا مغلقة وتمكن الاديب من وضع يده على مواطن ثراء وفرح وامتلاء تكون بعيدة المنال حين يوضع التعبير الادبي تحت الوصاية من اي نوع والوصاية هي موقف لغة المونولوغ ٠ وهناك بالطبع وصاية اصحاب التعبير الأدبي المهيمن ذوي الامتيازات المادية والمعنوية وهم حريصون على سد الابواب بوجه الكشافين الجدد وعدم الاعتراف لهم بانهم بلغوا سن الرشد فلهم حق مطلق في تسلم نصيبهم من الثروات اللغوية لخلق استثمارات جديدة هي الصيغ الجديدة التي يرونها للتواصل الانساني وفق رؤاهم الحية المعاصرة ٠ واذا كانت وصاية الكبار على الناشئين تسد باب الديالوغ في التعبير الادبي فان صيحات وصاية اخرى ليست قليلة الخطر هي التي يحاول فرضها المبدعون الجدد يقينا منهم بان ممارستهم للامكانيات التعبيرية هي الممارسة المشروعة الوحيدة من غير التفات لأي صوت يأتيهم من حملة التراث٠ وهم وان كانوا ينطلقون من الحرية ، يسدون ابوابها عليهم فلا احد يدخل من الخارج ولا هم يخرجون من سياج حريتهم فيؤدي هذا الانغلاق الى خلق عالم مونولوغي تضمر فيه الحرية فيذوي الجدد من غير ان يريدوا ذلك ولنا في الحركة الدادائية خير مثال على ذلك ٠

عندما يقول المتنبي

ابا المسك هل في الكأس فضل اناله   فاني اغني منذ حين وتشرب

فاننا نحس بسحر معين في انسياب هذه الالفاظ على الرغم من الاستخذاء الواضح والموقف الذي يشي بالبعد من النبالة والكرامة ولكننا حين نقرأ لشاعر معاصر كلاما نبيلا مثل :

يوم الشهيد تحية وسلام   بك والنضال تؤرخ الاعوام

فاننا نقابل ذلك الموقف الاخلاقي المجيد بفتور ونحس بان لحنا باهتا يتسرب في الهواء ٠ كيف تسنى للمتنبي في بيته المنهار ذاك ان يحرك فينا وجدا ولماذا لم يستطع الجواهري ان يحدث اثرا وموقفه الاخلاقي ارفع واسمى ؟ ان موقفا نيتشويا من الفن قد يجيب عن هذه الأسئلة ، هذا الموقف الذي يضعنا

وراء الخير والشر ليشكل العمل الفني وفقا لقوانينه الخصوصية غير مبال بالتعميمات ٠ ان صوتا ينحدر من ذلك الجانب من الحياة تنساب فيه الاغنية على نسق وقانون جاذبية خاصين بها ، هناك تكون اللغة كائنا جديدا نتعرف عليه لأول مرة ويخاطب فينا جذور الحياة وغرائزها ودماءها الخفية ، هناك لا تخضع اللغة الى المنطق العام والذهنية العامة والارادة العامة ٠ وبودلير خير مثال على ذلك فهو اذ يشبه نفسه ازاء محبوبته بقطة عند قدمي ملكة لا يشير اشمئزازا بقدر ما يضعنا في مسمع من الهمسات الدقيقة والوشوشات التي لا نستطيع الاعتراف بها ونحن ندك ارض العالم بمشية كبرياء اخلاقية صارمة فيها كذب كثير ٠ تقودنا هذه النقطة الى ضرورة تحرير اللغة من ان تكون واجهة وجدارا للصق الاعلانات وهمهمة بالشائع من القول وتكرارا مسطحا لما قيل من قبل على نحو اجود وانقى ، تحرير اللغة من الميادين العامة واطلاق سراحها من سجن الكليات والمطلقات والعموميات ومنحها شخصية خاصة على يد كتابها وشعرائها٠ الشخصية اللغوية بلاغة لا اتوانى عن وصفها بانها اخطر المهام واعظمها وانشدها الحاحا علينا ٠ اللغة اذن يمكننا ان تكون حرية وشخصية وامتلاء وجدة ويمكنها ان تكون عبودية وانعداما للشخصية وفقرا ورثاثة ٠ شكلان تتخذهما اللغة وكل منهما مرهون بالموقف الذي نقفه منها ، فاذا كرهنا لها السعة والثراء والانفتاح فان كراهيتنا ستجفف ينابيعها في الحال واذا احببناها واحببنا فيها انها وعي للعالم ومسؤولية تجاه الذات والناس ومهمة خطيرة ينبغي ان تعالج بشيء من الاقتصاد والحذر والفرح معا فانها تكون الغاية في الطواعية لما نريد ٠

لنلق نظرة على اعلانات الصحف المتعلقة بالافلام فهذه هي الالفاظ التي تدور عليها الاعلانات « فلم المرح والفكاهة والحب ٠ فلم المغامرات والمخاطرات اعظم افلام الموسم ٠ يعرض على شاشة سينما كذا بكل فخر واعتزاز الفلم التاريخي العظيم كذا ٠ » وكثير من اللغة التي نتخاطب بها مسطحة ومكررة على غرار هذه الاعلانات ، فاذا تجاوزنا المخاطبة اليومية الى الكتابة المسؤولة والمخاطبة الجدية والتراكيب التي يفترض انها ابداعية وادرجنا فيها هذا الطلاء المسطح فاننا نواجه كارثة السجن اللغوي وهو سجن انفرادي لكل منا رغم اننا نتحرك فيه بكامل حريتنا زرافات ووجدانا ٠

لماذا يحس المرء في بيت الجواهري الذي اوردته قبل حين بشيء من الاختناق وقلة في الحرية مع ان موضوعه تمجيد للحرية وتقديس للزائدين عنها بينما نشعر مع بيت المتنبي بالحرية معان موضوعه ذلة ومهانةوخذلان ؟ السبب يكمن في ان لغة المتنبي في ذلك البيت مجسمة ذات ابعاد ثلاثة في حين ان لغة الجواهري في بيته ذاك مسطحة ذات بعدين ٠ فما هي ابعاد اللغة الثلاثة وكيف تتجسم اللغة في موضع ولا تستطيع الا ان تكون شريطا لاصقا في موضع آخر ؟ في اللغة المجسمة رنة باطنية واثارة داخلية واكتراث حقيقي وتوترات متناغمة هارمونية اما اللغة المسطحة فالرنة عمومية والاثارة مسلطة من كل الجهات واللحن وحيد النبرة يعزف على وتر غير مشدود ولا متوتر فكأنك فتحت مفتاح الكمان الى نهايته واخذ الوتر يتلاطم على طول جسدها لأن القوس لا يحتك بالوتر وانما يشحط على خشبتها ٠ لنأخذ أي مقطع من خطب علي بن ابي طالب فاننا نرى فيها تواجد الهارمونية اللغوية وابعادها كلها مع تماسك الصورة والفكرةوالوجدان تماسكا ليس وراءه من مزيد ٠

ولكن الرجل المعاصر منا يقف في الغالب الاعم ليلقي كلاما مماثلا في فحواه ولكنه يشتت ذلك التماسك المعجز ويفتت البناء الروحي ويسطح الاحساس

ويزدري بالناس حين يتقدم اليهم فوارا بما في صدره من ثلوج راكضا وقدماه تراوحان ، متشامخا وظهره مكسور متشاجعا والظلال البشرية تبعث فيه الهلع ٠

خطبة علي بن ابي طالب ، ولو انها تلهب سامعيها بسياط غضب مضطرم، حرية لانها توقظهم وتنهضهم وتضعهم بازاء مسؤولياتهم وتعبر امامهم عن رجل حاذق مقتدر فائر الدماء كاره للكذب والفسولة والخدر ، رجل شهم يتعين عليهم ان يحتذوه ٠ انها لغة تضع الانموذج وتحرك الناس بوحي من دلالاته ٠

يقال هذه الايام اننا في معركة وجودنا في حاجة الى الافعال لا الى الاقوال٠ وهذا كلام صحيح وخاطىء في آن واحد ٠ هو صحيح اذا كانت الاقوال مهلهلة فجة متراخية شمطاء متصابية ، الاقوال الكذاب محطمة الذكـــاء والشهامـة ، المخاتلة في ايماءاتها والتي تلاحق ظلال الحقائق ولا شأن لها بالحقيقة ٠ ولكن الاقوال هي الافعال حين تتزاوج مع الحقيقة وتبحث عن الدلالات الصائبة وتميط اللثام عن العقل البشري بكل جبروته فتوقظه ليغامر ويفتش ويبحث عن المجهول ويسيطر على المعلوم ٠ اللغة التي هي حرية ليست اقوالا كذابا لان الحرية هي اعظم درجات الصدق واكثرها عفة واينع حدائق الحياة ثمارا وليست الافعال الانسانية في حقيقتها سوى تجسيد لمركبات لغوية ولكن الفارق بين افعال الحرية وافعال العبودية يكمن في ان الاولى تنبع من اعماق لغة الحرية اما الثانية فهي افعال مجهدة لا فرح فيها لانها واجبات ثقيلة مكرورة لا جدوى في ادائها كصخرة سيزيف ٠ وعلينا ان نقول اننا نريد اقوالا حرة لنحصل منها على افعـــال حرة فرحة مقتحمة شجاعة ولا نريد اقوالا عبدة تنبع منها افعال هلكي مستخذية تطرد كالشحاذين من امام ابواب التنفيذ الحقيقي ٠

منير العكش

اللغة الشعرية :
من الوسيلة الى الايحاء غير المحدود

١ - اللغة

هل يستطيع **سعيد عقل ونزار قباني** أن يستلا حدسهما حارا كأنه الوعي المطلق ، وأن يتقدما بشعرهما خطوة واحدة أبعد من اللغة ؟ الحدس الذي هو رحم الشعر – برغم كل الانابيق والمحلولات الكيماوية التي اختبره فيها الماديون والطبيعيون – ينتسب الى عالم ينشط فيه **الحلم المتحرك** ، بقدرة تعجز كل الوسائط الاصطلاحية التي استغرقت هذين الشاعرين على شحنه الى الاخرين : وسائط بلغت لديهما حدا من الارهاب سيطرت فيه على فتوح الجوانية الشعرية، وأوهمتهما بقدرتها على الاستيعاب المطلق ، بحيث يبدو أن أية محاولة يقومان بها للتخلص من هذه الوسيلة ستقففهما أمام احتمال تدمير شعرهما •

ربما كان التهيؤ لدى المتلقين من النوع الذي شجع على نماء الواسطة وسيطرتها على شعر **سعيد ونزار** ! فالمثل الاعلى الذي يحتازه المتلقي ، ويقيس عليه المنجزات الشعرية لا يعدو خلاصة تجاربه السابقة مع نماذج من الشعر لم تخرج يوما عن هذا المفهوم • أضف الى ذلك رغبة الشعراء المستمرة في استغلال أكبر نشاط ممكن من التخلف العام للذوق الجماهيري •

ان السؤال الذي يلح على شعراء الحلم المتحرك اليوم ، الحاحا مدمرا وعمليا ، يتلخص في كيفية اقتلاع الواسطة بين جوّانية الشاعر وبرّانيته ،وهل في ملك الشاعر أن ينفذ مباشرة الى الاخرين بغير الكهنوت المتوسط ، والعمل التنسيقي ؟ وهل هناك امكانية أخرى لانفتاح الحدس في المجال ؟

الحقيقة الأولى أنه **ليس من لغة في العالم مارست استبدادا على أهلها ، كما فعلت العربية !** فهذه اللغة التي نقرأها في الكتب ، ونسمعها على المنابر تنفصل انفصالا تاما عن « دينامية » التفكير العربي ، اذا صح أن الانسان يفكر بلغته • فهي في العصر الجاهلي لغة الشعر ، ثم انتقلت الى الاسلام فصارت

لغة الدين ، حتى اذا استوت دولتا بني أمية وبني العباس صارت لغة الطبقة السائدة ، وما زالت الى الآن لغة الأدب والشعر والكتابة والبلاغات العسكرية • أربعة عشر قرنا واللغة العربية تتعاقد مع أهلها بفوقية واستعلاء ، حتى احتاج التعامل معها الى « المعين » و « التسهيل » و « المساعد » ، وانتقل مجال الكتابة عند الطفل والمبتدىء الى ترجمة من اللغة واليها ، ان لم تكن هذه حال معظم الذين يكتبون : شعرا ونثرا ، وخصوصا اولئك الذين يهتمون بالحركات الجديدة ويتعاملون مع العربية من باب الاستشراق •

والحقيقة الثانية أن الانسان الذي أدرك اختراع اللغة قد عانى كثيرا من الوسائط قبل أن يقلّب لسانه بوحدات لغوية يستطيع أن يكررها الآخرون ، ويصطلحوا عليها • وليس غريبا أن تكون **هناك وسائط أخرى أكثر فائدة وحيوية للشعر قد نفاها التواتر الزمني لتقليب اللسان** ، ذلك لأنه بقدر ما أفادت اللغة في حياة البشر المادية ، أضرت بالنشاط الروحي للشعر • وليس أنفع لشعراء الفتوحات اليوم من التقهقر الواعي الى بداية الوساطة لاكتشاف الامكانات التي استعمرتها اللغة ، والتي ضيّعت على التراث الشعري قارات كبيرة من الحلم المتحرك دفنت مع صدور الشعراء في جوف الأرض •

ان اختلاق بدائية حية للبحث عن هذه الوسائط المنفية أمر متعب حقا ، ان لم يكن معجزا ! لكن مراجعة الوسائط الشعرية من زاوية الرغبة الصادقة في التفلت منها أو تطويرها ، ومن زاوية الوثوق بقدرة التصويت على التنوع اللانهائي بين الضوضاء والأثيرية ، ستؤدي حتما الى نتيجة أكثر انسجاما واستقرارا مع العالم التصوري للشعر • ولا سيما اذا اقترنت هذه المحاولة بالافادة من تجارب الموسيقا التي تشترك مع الشعر في خاصية التشكل زمانيا ، والتي لم تقتصر على أداء واحد فقط ، كما فعل الشعر ، وانما استخدمت وسائط شاركت في نضج النغمة بسيرورة أكثر حياة وقدرة على التطور • أما الخوف من ضياع التواصل بين الشاعر والآخرين ، في هذه الحالة ، فلا قيمة له البتة • فكما كان للتواتر الزمني أثره في تهيئة الوسائط القديمة للقبول ، يفعل مع الوسائط الجديدة ويعدها للقبول (١) • بل ان الخوف من بعثرة هذه الوسائط الجديدة لفهم الحلم المتحرك الذي يحدسه الشاعر خطر لا بد من قبوله بالارتياح ، على اعتبار أن فجاجا عميقة من هذا الحلم غامضة ، ولا يمكن تفسيرها في تواجد الوعي على الاطلاق ، وانما تبقى بالنسبة للمجال حيزا للتأمل المطلق ، بحيث تحفز لدى المتلقي نشاطا ايحائيا لا علاقة له بالتفصيلات• ان المستجيب للموسيقا بصدق يتصور أثناء سماعه لها كل ما في الحياة المادية والروحية تصورا عيانيا ، غنيا عن اللغة ، ودون أن يكون بين الجمل الموسيقية وهذه التصورات قناطر حسية ، كذلك حال الوسائط الجديدة لشعر الحلم المتحرك • وانه لا يظلم الموسيقا والشعر شيء كتلك المحاولات الغبية لتقريبهما الى العامة بتفسيرات رومانسية أو انشائية •

لقد حاول **السياب** في « أنشودة المطر » ، و **أدونيس** في بكورة شعره ، بعد أن أدركا خطورة الواسطة على عالمهما الشعري أن ينفذا منها قدر الامكان

---

(١) حينما زار **هنري ميللر** صديقه **لورنس دوريل** في اليونان ، تعلق بواحد من البله المهلوسين ومن العجيب ، والمفيد ، أنهما كانا يتفاهمان تفاهما تاما ، ولفترة طويلة ، بتركيبات صوتية لا علاقة لها بأية لغة في العالم • انظر

« Henry Miller » « The Colossus of Marousi »

وسيلة للتأكيد الساذج ، تماما ، كما يحلف التاجر أغلظ الأيمان لترويج بضاعته ، وكما تدوي الحكومات بالشعارات ليل نهار وحكمها شيء اخر مناقض• لقد تحولت هذه المفردات المزركشة ، والأيمان الغموس ، والشعارات النبيلة اليوم الى لصوص على درجة عالية من الأرستقراطية تسرق من صدورنا الثقة بالعالم • ان المفردات التي يستخدمها الشاعر كاشارات لانفعاله بحاجة الى الخروج من بوابة الزركشة الى التغير المستمر لان المادة الشعرية في تبدل دائم ، ولان النسق الذي يتمور فيه الحلم المتحرك في جموح وحشي ، وحتى لا تبقى للقصيدة حدود • اذ ليس أظلم للقصيدة من أن يتلقاها خمسون قارئا من انماط مختلفة وتترك لديهم تفسيرات واحدة كأنها حقيقة فيزيائية •

ان الافراط في استخدام المفردات ذات الطبيعة الواحدة ، والاعتقاد بأن لهذه المفردات قيمة ذاتية ونهائية ، تنوب عن الشحنة الداخلية في التأثير والنفاذ هو الذي حبس شعر سعيد ونزار في الوسيلة اللغوية ربع قرن من الزمان •

٢ - التداعي وقانون الاستجابة

أين الحلم المتحرك (١) اذن في شعر **سعيد ونزار** ؟ هذا الحلم الذي يخلق بجدة مستمرة لا يخضع أبدا لمنبهات المفردات اذا لم تبتعد عن المحدود والثابت • لكن المشكلة التي تعترض طريق الباحث عن جذور هذا الشعر أن لدى **سعيد ونزار** مفردات محدودة وثابتة استطاعت أن تخلق قرية شعر ! وسواء على الباحث أوجد في هذه القرية أحدا أم لم يجد على الاطلاق ، لا يستطيع أن يكتم دهشته أمام هذا الخلق • ولعل السؤال الأول الذي يواجهه بعناد : اذا كانت هذه قرية شعر حقيقية ، فلماذا لا يسكنها أحد ؟ واذا لم تكن كذلك فلماذا لا تقتلعها الريح ؟

نعم ! قد تخدعنا بساطة الشعر وضيق مفرداته أحيانا ، وتغرينا بالتهور في الدراسة ، واطلاق الأحكام ! فهل لشعر **سعيد ونزار** هذه المزية ؟

نستطيع أن ننفي ذلك بجملة حقائق :

١ ــ ان الأداء المباشر الذي يعتمدانه من أكثر أنواع الأداء عجزا عن اشعاع الايحاءات المختلفة •

٢ ــ ان الشعر الذي يعتمد المنبهات الحسية وحدها تستطيع الحواس أن تحدده وتميزه بشكل ميكانيكي •

٣ ــ ان قصر المفردة على شحنتها المعجمية ، وعدم توجيه السياق لها في منحى اخر ، أمر ييسر على أنماط مختلفة من الناس أن تحصرها في التفسير الواحد •

٤ ــ ان التجربة الجمالية المكشوفة من أقل أنواع التجارب خداعا • والشعر الذي يتناول مادة الجمال من زاوية الوصف لا التأمل يسهل تفسيره وفهمه لانه يتناول الجمال تناول الفلاح لأرضه وصاحب دار النشر للكتب المرصوفة عنده ، ولهذا كان معظم الرسامين العباقرة يضيفون الى الطبيعة الجمالية التي يرسمونها مادة انسانية أو كائنا ذا حياة ليؤكدوا صميمية العلاقة بين الطبيعة والحياة من جهة وليبعدوا عن الطبيعة خاصية التجريد

---

(١) لتقريب هذا الاصطلاح الذي يبدو نظريا أو مزاجيا لاول وهلة ، جرب أن تستبطن خيالاتك وأنت في حالة نعاس مسيطر ، وحواسك على سور النوم ، لترى كيف تنشط مخيلتك بحرية خلاقة تمزج كل خرافات العالم ومواده في حلم متحرك • فما تراه أنت هنا تقريب ساذج وأولي للحلم المتحرك الذي يطمح اليه الشعر •

المحدد ، ولانهم ، بالاضافة الى ذلك كله ، يعرفون أن الانسان لا يحب الطبيعة الا بقدر ما تثير فيه من التأمل ٠

٥ ـ من البديهي أن يترك الشعر الخادع لدى المتلقين تفسيرات مختلفة باختلاف التهيؤ والقدرة على التذوق ٠ وشعر الشاعرين من غير هذا النوع ٠ فقد أجريت استقراء ناقصا لتفسيرات واستجابات أحد عشر متلقيا ، وبنتيجة الاستقراء الناقص لتفسير قصيدتي **سعيد ونزار** يتبين أن (٨/١١) اتفقوا على تفسير متقارب لقصيدة **سعيد** ، بينما اتفق على قصيدة **نزار** (١٠/١١) (١) ٠

ومن هنا نستطيع أن نستدل على أن اتفاق هذه العينات المختلفة على تفسير واحد لكل من القصيدتين ، واختلافهم في قصيدة السياب ينفي عن شعرهما قدرة الاشعاع الايحائي الذي يخدع الناقد ٠

ان مجمل هذه الحقائق تعيدنا من جديد الى السؤال السابق : كيف استطاعت الفاظ سعيد ونزار المحدودة والثابتة أن تبني لهما قرية من شعر ؟ واذا كانت هذه قرية حقيقية فلماذا لا يسكنها أحد ؟

في رأيي أن ذلك يرجع الى سببين : أحدهما يعود الى دينامية التجربة الشعرية لدى **سعيد ونزار** واعتمادهما على **التداعي** بدلا عن الخيال ٠ والاخر يعود الى **قانون الاستجابة** الذي يشيع في جمهور الشاعرين ٠

أولا : من المعروف أن النشاط الروحي للتصور ، والجموح الى عالم « الاحتمال » هما ميدان الحلم المتحرك ٠ أما ميدان الذاكرة فعالم « الفعل » الذي يتضمن اللغة ٠ ومن المعروف أيضا أن الذاكرة ترشح اللغة مجردة من مدلولاتها لانها فقدت (أو هزلت على وجه أدق) صلاتها مع هذه المدلولات بالتكرار وتقادم العهد ، بينما يبقى الحلم حيا ومتوهجا ، وفاعلا في كل آن ٠

ولا ريب في أن هناك اختلافا كبيرا بين النشاط اللاواعي الذي يقوم به الحلم المتحرك ، سواء تدخل فيه العمل التنسيقي أو لم يتدخل ، وبين نشاط الذاكرة في تجميع الرسوبات الكسبية وتنسيقها ٠ فالحلم خلق متجدد مصدره الأنا المطلق ، ومادته الخيال ، وأما التذكر فرشح لتجمع الآخرين في الأنا ، تكيفه مادة الذاكرة وقدرتها على التشكيل ٠ **ومن البديهي ان الذاكرة في تعاملها مع اللغة تحدث تداعيا في المعاني ينظم حركة المفردات زمانيا ، بحيث يتوهمه صاحبه خيالا ينظمه شعراً كما هي حال سعيد ونزار ، ويستعيض بهذا التداعي عن الجوانية الشعرية مسرح الحلم المتحرك ٠**

(١) قدمت لاحد عشر متلقيا : (شاعر ، وثلاثة طلاب جامعيين بينهم فتاة ، ورجلان مسنان ، وثلاث نساء بينهن مراهقة ، ومختص باللغة العربية ـ ماركسي ، ومتدين) ثلاث قصائد **لسعيد ونزار والسياب** : (قصيدة « شال » لسعيد و « الجورب المقطوع » لنزار ، و « رحل النهار » للسياب) وقد أضفت قصيدة السياب لادفع عنهما الايحاء ، ثم آثرت أن أبقي اجاباتهم عنها لمن أراد ٠ ثم طلبت منهم أن يكتبوا ثلاثة أسطر فقط مما فهموه من القصائد ٠ وان يجيبوا لاستجاباتهم للقصائد باحدى الدرجات التالية (لا ، قليلا جدا ، قليلا ، كثيرا ، كثيرا جدا) ٠

وقد جاء تفسير الشاعر ، وطلاب الجامعة الثلاثة ، والمرأة (أ) ، والمراهقة ،والرجل المسن (أ) ، واللغوي الماركسي متقاربا في **قصيدة سعيد** ٠

أما بالنسبة **لقصيدة نزار** فلم يتفرد بتفسيرها تفسيرا خاصا سوى المتدين (خرج عن الموضوع وقارن القصيدة بكشف ساق الملكة « **بلقيس** » للملك « **سليمان** ») بينما اتفق الباقون على تفسير متقارب جدا ٠

وكان حظ **السياب الا** يتفق على تفسيره من المجموعة اثنان ٠

لكن من يملك رهافة شعرية يميز بسهولة بين التجربة الانفعالية وتذكر الألفاظ والصور والمعاني التي تولد الانفعال ، ويميز كذلك بين جبرية الحلم المتحرك واختيار الذاكرة وتداعياتها الذهنية ، ويدرك بوضوح **أن هذين الشاعرين انما يمارسان رياضة بدنية حينما يولدان أو يتمثلان ما احتازه الماضي من المعاني في ذاكرة الألفاظ الثابتة والمحدودة ، ثم ينضحانها في تداعيات مقيدة باللحظة والجسد ، ومقتلعة من الجاهز** • تماما كما يفعل الطفل حينما تطلب منه اتمام الرسم التالي :



انه لن يتردد مطلقا في اتمام الرسم بالتناظر الذي يتداعى الى ذهنه بعد رؤية الشكل ، على اعتبار أن ذلك لا يكلف جهدا ، ولهذا يتم الرسم على الشكل التالي :



ومهما حاول الطفل أن يزيد على هذا الشكل من تلقاء نفسه فانه لن يعدو محاكاة الأصل بالتداعي ، بحيث يمكنك أن تلاحظ أن جميع الخطوط التي سيزيدها تدخل في نطاق الخطوط المنحنية التي يتألف منها الشكل • لكن هذا التداعي في الشعر خطير جدا ، انه حينما يصبح ظاهرة عامة فمعنى ذلك أن الشعر سيدور على نفسه في رحى حجرية كحمار مغمض •

ويظاهر التداعي على بناء شعرهما وذيوعه أمر اخر هو **تدخل العمل التنسيقي** لخلق نظام شعري متماسك من ركام تداعياتهما • **ومن تدخل هذا** العمل التنسيقي يزيد اللبس في قرية شعرهما ، خصوصا حينما نستند الى **توهمنا الخاطىء لنظرية الشعر ، وخلطنا بين مادة التداعي الذهنية والحدس خلطا يخفي جذور الشاعرين الاولى ، ويظهر تلك المفردات المحدودة والثابتة بمظهر الشعر ، كأن شيئا لم يكن !**

ثانيا : ويعود ذيوع شعرهما ولبسه على الناس الى قانون الاستجابة البدائي (١) الذي يستغرق جمهور **سعيد ونزار** •

هذا القانون (!) الذي يعتمد منبهات البصر والشم واللمس والذاكرة أساسا للشعر الجيد ، ويحكم الآثار الثانوية لغريزة الجنس في عمق التجاوب أو سطحيته ، بحيث يلغي من الاستجابة ما لا يتحدد في قنوات الحس ، وما لا يجد له جهازا عضويا يتوتر لاجله في الجسد • جل ما يطمح اليه هذا القانون أن **يصبح الشعر نشاطا ترفيهيا** • وبهذا تكون الاستجابة للشعر لذة سلبية تتوضح أكثر اذا شبهناها بـ « التشويق » الهمجي الذي ينعكس شرطيا على محتلي الصفوف الأمامية في حفلة طرب •

ان اعتماد الشعر على **المنبهات الحسية الحادة** لا يشير الى انعدام الذوق

(١) تعارف النقاد وعلماء الجمال وعلماء النفس الاجتماعيون على أن الموقف الجمالي والميل الى المنبهات الحسية الحادة يظهر عند الشعوب البدائية وعند الاطفال •

بقدر ما يشير الى بدائيته وحاجته الى التدريب • فالمنبهات الحسية عنصر لا يمكن للشعر تجاهله ، فقد ضمن **بيتهوفن** موسيقاه هذه المنبهات على سبيل التنويـــع والتحلية • (١) ومع ذلك فقد وجه موسيقيو الحركة الحديثة نقدا لاذعا لهـــذه المحاكاة • واذا كنا لا نرفض هذه المنبهات الحادة في الشعر رفضا حادا فاننـــا نطمح ألا تؤدي هذه المنبهات دور « الدربكة » التي تغطي على آلات الجوقـــة جميعا • نعم كانت اثارة المنبهات الحسية لدى البدائيين دليلا على الصدق والبراءة فقد استطاعوا على الأقل أن يستوحوا منها غموضا ميتافيزيقيا ، لكن الشعـــراء الذين يفتعلونها اليوم بالحاح خانق ، ويولدونها من ذاكرة الألفاظ التي أتخمها البدائيون بالحسية ، انما يفقدون هذه المنبهات كثيرا من روعتها ، ويؤدون بها الى أحد شيئين :

ـــ اما أن يجهدوا بها حواسنا المستثارة بشكل يبعث على التدخين خارج الغرفة •

ـــ أو أن يسلبوها بالتكرار الدائم لذة التنبيه وطرافته ،ويجعلوها ظاهرة مألوفة لا ينتبه اليها أحد كصوت الطاحون في القرية •

٣ ـ الحلمة

ولقانون الاستجابة هذا جانب اخر يرتكز عليه بيت القصيد في قيـــام شعر **سعيد ونزار** لكنني لا أحب أن أسهب فيه • ان ملاحظة سريعة لجـــدول الاستجابات الآتي تؤكد لنا أن **جمهور سعيد ونزار يتألف من عينات بادئـــة الثقافة أو متخلفة عنها ، ومن صغار السن والمراهقين ، بينما يقف جمهور السياب على النقيض الاخر** (٢) **ويؤكد لنا أيضا أن هذا القانون البدائي يحكم في الاستجابة الشعر الآثار الثانوية لغريزة الجنس** •

ولقد شهد الشرق والغرب معا حركات من هـــذا النوع لم يكتب لهـــا الاستمرار ، **لان هناك فرقا بين شعر يتجاوب معه الجمهور تجاوبا تأمليا يستغرق الانسان جملة ، وبين شعر اخر يتجاوب معه الجمهور تجاوبا شهوانيا تعكسه الغريزة • انه يحق لنا أن تشك في قيمة الشعر الفنية بمقدار ما يثير فينـــا**

---

(١) يلاحظ ذلك في الحركة الثانية للسيمفونية السادسة التي تظهر فيها محاكاة لاغاريد الطير•

(٢) سعيد : يرفضه : الشاعر ، والمسن (ب) ، والمتدين ، ثم المسن (أ) ، ثم المـــرأة (ب) ، واللغوي •

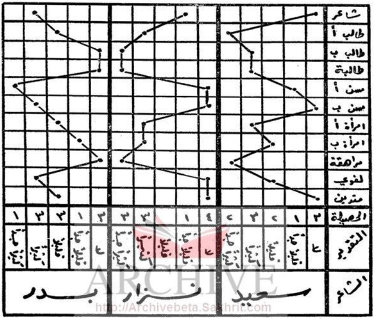
ويعجب به : الطالب (أ) ، والمراهقة ، ثم الطالب (ب) ، والطالبة والمرأة (أ) •

نزار : يرفضه : المسن (أ) ، والمسن (ب) ، واللغوي ، والمتدين ، ثم الشاعر •

ويعجب به : الطالب (ب) ، والطالبة ، والمراهقة ، ثم طالب (أ) ، والمرأة (أ) ، والمرأة (ب) •

بدر : يرفضه الطالب (ب) ، والطالبة ، والمراهقة ثم المرأة (ب) ، ثم الطالب (أ) ، والمرأة (أ) والمتدين •

ويعجب به : المسن (أ) ، ثم الشاعر ، والمسن (ب) واللغوي •



(جدول درجات استجابة أحد عشر متلقيا لقصائد سعيد عقل ونزار قبـــاني وبدر شاكر السيـــاب)

نشاطا عضويا • ان معبد « **كاجوراو** » بالهند حافل بالتماثيل والنصب بأوضاع جنسية مختلفة وشاذة ، وكثيرا من منحوتات **انجلو** ورسومه الكنسية تظهـــر الأعضاء الجنسية • ومع ذلك فان جمهور هذه المنجزات لم يكن من المراهقين ، ذلك لان أولئك الفنانين جعلوا من موضوعاتهم حيزا للتأمل الذي يعكس نشاطا ايحائيا ، لا وصفا يعكس نشاطا عضويا كما في شعر سعيد ونزار •

اذن بالمفردات ، والتداعي ، وانتخلف العام للذوق الجماهيري أقيمت قرية من الشعر **لسعيد عقل ونزار قباني** •

وبعد فانه يبدو أن نزار قباني قد فتح الباب ليخرج من اللغة والحلمـــة والتداعي ، فهل لسعيد عقل هذه الجرأة ؟

صرخة
تعبر المحرمة

تقدموا اعتراء الأرض غطوا هذا الزمان بأسمال..

قادر أن أتحرر .. لحم الطهارة هذا هو اسمي . قادر أن الفجر لحم الطهارة هذا هو اسمي

وقفت خطوة الحياة على باب كتاب حرونه بسوء الزمن

وأرى ورق وأديب ..
أرى المجد الذي
عصي أن تصعد
الحياة
وسقوط شعوب
المجيب والمرض

قادر أن الفجر لحم الطهارة هذا هو اسمي

أنا العاشق الأول ... وركبني ونطقي وثنيا

وأعطي الأ... ناقة ...

والأرض استراحت في غسل الأرباب والحراب .. الأرض استراحت

على كواجب
على وطن ...
سكنا ...
وعلى رعوه في الجب
والأرض خوذة
سماء في خوذة
على كواجب
اشتعلنا

هل يعرف الضوء .. هل يراديها

وعلى رعوه في الجب غطوة بقش

سنقول الضوء
سنقول الطريقة
سنقول الساعة

أيها أنبنا

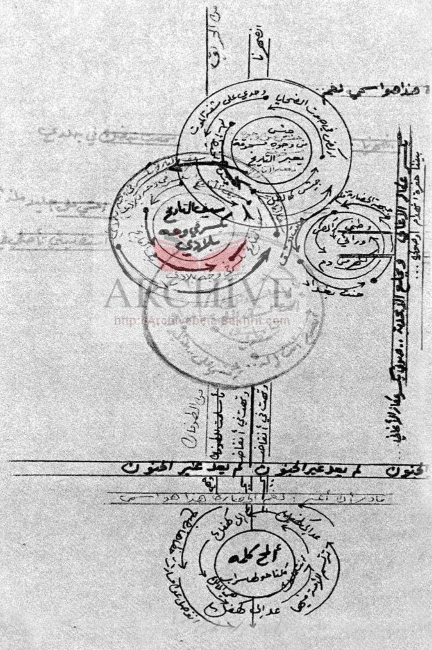
أين يعفو سيد الحزن ؟

لم يعد غير الجنون لم يعد غير الجنون لم يعد غير الجنون لم

في غسل الأرباب والحراب

خارطة تقريبية للدخول في مدائن أدونيس السُفلى أو مسرح الأعماق

(١)



خالدة سعيد

حول قصيدة « هذا هو اسمي » :
ايقاع الشوق والتجاذب

I

تطرح قصيدة أدونيس الأخيرة « هذا هو اسمي » [1] قضايا متعددة . فهي منذ النظرة الأولى ، تبدو جديدة مخالفة للمألوف من حيث الطريقة التي صفّت بها الكلمات . وعندما نبدأ القراءة يفاجئنا نظام الأصوات أي الوزن ، لا سيما أن القصيدة تستغل تفعيلات معروفة لكنها لا توضح (شكلياً) متى تنتهي الوحدة الصوتية (أو ما يسمى الشطر والبيت) ، ومتى تبدأ وحدة صوتية تالية . هكذا يترك للقارىء (إلا في المقاطع الغنائية) أن يكتشف ذلك. المسألة التالية التي تواجهنا في هذا التقسيم الصوتي هي انه مألوف عرفناه في البحور لكنه يتبدل منتقلاً عند منعطفات صوتية هي تفعيلات مشتركة بين الوزنين المتجاورين . تجد نفسك بعد هذا أمام مسألة جديدة هي القراءة ، إذ كيف نقرأ هذه العبارة مثلاً : « هذيتُ كي أحسنَ الموت اصطفيت النهدين بين تقاليدي» هل تقرأ « هذيت ؛ كي أحسن الموت اصطفيت ... » أم « هذيت كي أحسن الموت ، اصطفيت النهدين بين تقاليدي » فتكون الفاصلة بمثابة واو عاطفة إطلاقاً أو واو نسق ؛ هكذا يصبح الهذيان واصطفاء النهدين ، في حالة العطف المطلق ، وسيلتين لإجادة الموت ، وفي حال النسق يصبح اصطفاء النهدين نتيجة لإجادة الموت . ومثل هذه عبارة « أرض تدور حوليَ أعضاؤك نيلٌ

(١) « مواقف » ، العدد الرابع .

يجري » . هل نقرأ « أرض تدور حوليّ . اعضاؤك نيل يجري » أم « أرض تدور . حولي أعضاؤك نيل يجري » أم نقرأ حلزونياً : « أرض تدور حولي . حولي أعضاؤك . أعضاؤك نيل يجري » ؟

المسألة الرابعة التي تواجه القارىء تبدأ عندما يهم بالدخول في عالم أدونيس . أين يذهب به الشاعر وأي طريق يقدم له ؟ أهي طريق الذاتي أم طريـــق الموضوعي ؟ هل القصيدة قصيدة حب أم قصيدة ثورة ؟ وكيف نجمع في جبّة واحدة قوله« سيف التاريخ يُكسر في وجه بلادي » و« حين أدخلتك في سرّتي تناسلتِ في خطوي » و « قتلوه .. لا لن أحدث عن موت صديقي » ؟

المسألة الخامسة هي : هل نحن في هذه القصيدة تحت سقف المنطق أم في فضاء اللامعقول ؟ والسادسة هي هل نحن في عالم الوعي أم في عالم اللاوعي ؟ ومن هو بطل القصيدة ؟ من المتكلم الذي يظهر في مئة قميص في وقت واحد ، ينقسم على نفسه ويظل واحداً : هل هو هو أم هو وغيره في آن ؟ وفي أي زمن تتحرك ؟ وكيف يُعرّي أو يفترس الحاضر الماضي ؟ ثم كيف نتحرك داخل هذه القصيدة ؟ أي وفقاً لأي مبدأ بنيت ، لأن عباراتها نادراً ما تفضي الواحدة إلى الأخرى بموجب مبدأمقرر ، إذ أنها لا ترتبط برباط التجانس ولا برباط التوارد أو برباط السبب والنتيجة ، وهل للقصيدة بنية هندسية أصلاً ؟ بالإضافة إلى العديد من المسائل بعضها أثارته قصائد سابقة لأدونيس وغيره بدرجات متفاوتة في الجذرية . من هذه المسائل مفهوم الجمال والقيم الجمالية ومعنى التجديد والحدود التي ينبغي أن يقف عندها التجديد ، ودور الشاعر ، ومسألة الغموض ، والعلاقة بين الشاعر والقارىء ، ومن هو القارىء إذن ؟ وبالنتيجة لِم كلّ هذه المسائل ؟ هل القضية أحجية ؟ ومن سيقرأ إن كان يحتاج إلى بذل جهود كبيرة ؟ولِمَ لا يقدم له الشاعر المعاني في إطار لطيف جميل وإيقاع سائغ عذب يدغدغ الأذن والحس ويبلغ القلب . ولا بأس أن يبدل بعض التبديل في النظام الصوتي للكلمات وفي اختيار الصور بحيث تتلاءم مع ذوق العصر ، على أن يظل واضحاً منظماً تستوعبه الحافظة وتردده فيتهيأ له الشيوع والخلود ؟ فإن خرج عن ذلك بطُل أن يكون شعراً ودخل في نطاق الفلسفة . أين تبدأ ، إذن ، حدود الشعر وأين تنتهي ؟

II

ما حدود الشعر وما علاقته بالفلسفة والعلم ؟ ولا أخوض في مسألة ماهيّة الشعر كفاعلية بشرّية نفسية ـــ عقلية مبدعة (وعقلية لا تعني بالضرورة منطقية

بمعنى المنطق الأرسطي) ؛ هذه الفاعلية تتقدم الذكاء البشري ، إنها الماقبل والمافوق ، بمعنى السبق لا بمعنى التقييم . إنها ماقبل الفلسفة وما قبل العلم وما قبل الشعور الديني . إنها طليعة الفلسفة وطليعة العلم وطليعة الشعور الديني بعد الكشوف الشعرية تجيء الفلسفة لتفسر وتنظم ، ويجيء العلم ليكشف النواميس ويطبق ، ويجيء الدين ليفسّر تفسيره ويرسم الطقوس وينظم العلاقات. أي قبل فرويد غزا دانتي مثلاً ، عالم اللاوعي .

وبتعبير آخر في كل فيلسوف شاعر ، وفي كل عالم شاعر وفي كل نبي أو قديس شاعر وفي كلّ قائد للشعوب شاعر . وإذا كان لا بد للفيلسوف والعالم والنبي والقائد من الشعر ، فإن الشاعر متى أدخل الفلسفة أو العلم أو التعليم الاخلاقي او الديني أو السياسي في شعره فسد شعره . الحدود ، إذن ، بين الشعر وغيره من الفاعليات رَجْراجة غير واضحة تماماً . وعلى الشاعر أن يظل سابقاً ليظل شاعراً . فإذا سبقته الفلسفة أو سبقه العلم صار واصفاً لا شاعراً . بهذا يبقى الشعر مرادفاً للإبداع والجدة والنمو والحركة الروحية . أظن أن هذا ما عناه أدونيس في حديث له (١) : « الفاعلية الشعرية متجهة إلى المستقبل لا إلى الماضي . أي ان الشعر لا ينحصر فيما هو كائن بل يتجاوزه إلى ما يكون » .

واتجاه الفاعلية نحو المستقبل يعني الحركة والاستباق ولا يتنافى مع إضاءة الماضي أو مع امواج الحنين متى كان ذلك يستقصي أبعاداً إنسانية جديدة ويسلّح الحدس الشعري بطاقات روحية جديدة .

III

نصل من هذا إلى نتيجة واضحة ، هي ان الشعر لا يعرف الاستقرار ولا يمكن أن يستريح عند حدّ معين ، وان الشاعر هو الرائي أو الرائد الذي يضيء ويومىء ويكشف ، ويترك الميدان بعد ذلك لجيوش العلم والفلسفة والأخلاق والدول والسياسة والزخرفة ، وكلما اتّسمت هذه الفاعليات بالتطلع الشعري أي كلّما جاءت خارقة شبيهة بالخيال كانت أروع وأعظم . الشعر إذن فاعلية جدلية بامتياز . في ضوء هذا أختار مثلاً في الشعر العربي شاعرين (من حيث الإحساس بالزمن) : امرأ القيس بكلمتيه « قفانبك » لأنه خرق العادة وردّ على الحركة البدوية التي تنزلق فوق المكان ، وأقام الحوار الأول مع هذا المكان ، واجتاز المسافة الزمنية في فعل حنين . الشاعر الآخر هو المتنبي

---

(١) ملحق الانوار ، ١٨ شباط ١٩٦٨ ، العدد ٢٦٣٥.

الذي هزّ القعود واخترق السّمت متحركاً في اتجاه المطلق . ولا معنى بعد ذلك لأي شاعر يسير في أثر هذا أو ذاك مهما تفوق عليهما في الصياغة أو القدرة على التعبير ومهما جدد في الشكل الخارجي ما دام لم يفتح أرضاً جديدة ولم يجيء بلهجة جديدة ولم يخترق الأفق الذي بلغه الشاعران . ولا يكفي أن يتجاوز الذين سبقوه ، بل لا بد من أن يتجاوز نفسه باستمرار ، من أن يظل في حركة شوق نحو الأبعد . وإذا كان الشعر جدلياً بات من غير المفهوم وغير المقبول أن يكون الإنسان ثورياً على الصعيد الشخصي والعام ومحافظاً على الصعيد الشعري . والمحافظة هنا لا تعني التمسك بالأدوات التعبيرية وحسب ، بل تعني كذلك في الدرجة الأولى التمسك بمبدأ التقنين والاستقرار والقعود في مستنقع المفاهيم .

IV

ما معنى التجديد إذن وما حدوده ؟ هكذا لا تبحث مسألة التجديد على صعيد التبدّلات الظاهرية التي تخاطب الحواس ، أي في نطاق الوزن والقافية والأوصاف ، بل على صعيد النظر إلى دور الشعر وإلى موقف الشاعر من العالم ومن قضية التعبير نفسها . ومسألة التجديد تصبح نسبية ، فالشاعر الذي كان مجدداً عام ١٩٤٥ مثلاً لا يعود كذلك عام ١٩٥٠ ما لم يتجاوز نفسه ونتاجه . لقد بدأ التجديد ، في المرحلة الحديثة ، منذ وقف الشاعر في عصر النهضة ليضع حداً للانحراف الذي انجرف فيه الشعر العربي قروناً طويلة ،وأعني المدح وما يتفرع منه . الخطوة التجديدية التي تلت ولم تُستَكمَل بعد هي التي ترمي إلى إنقاذ الشعر من الدور الذي أُسند إليه طويلاً : كان الشاعر في بلاطات الملوك بمثابة مهرج للملك ، ثم خرج من البلاط ليصبح مهرّجاً أو مسلّياً عامّاً : يطرّز ، ينمّق يغنّي ويُطرب ويهدهد ويلتقط الأفكار والتعابير الشائعة ليصوغها صياغة جديدة رنّانة مستغلاً عنصر الارتياح إلى المألوف حين يطل في إطار جديد . يبدأ التجديد بتغيير هذا الدّور . أما أن يبدل الشاعر موضوعاته كأن ينتقل من وصف تجاربه الشخصية إلى نظم آرائه وشعاراته الوطنية فشيء لا يدخل في باب التجديد . ويقتضي التجديد خطوة أخرى ، هي انتقال الشاعر من موقف الواصف الذي يخبر ويرسم ما كان وما تحقق ، إلى موقف الفاعل الكاشف المغيّر . بهذا يمارس الشاعر دوره الحقيقي أي يصير ضمير الجماهير وناقل الشرارة المضيئة المغيّرة الخالقة ؛ يبلور أشواق الإنسان حين تكون بعد في قرارة الحلم ؛ يوسّع مكتسبات الخيال في أرض المجهول ؛ يوسع أبعاد العقل بما يضمّه إليه من أصقاع الحلم واللاوعي ؛

يزرع في الوجدان البشري ناراً ما ؛ يهز فيه أشواقاً نائمة ؛ يرهق التصور البشري باستدراجه إلى عوالم جديدة وغريبة ، أو يزرع في أحداقه واقعاً يختبىء وراء الواقع . وإذن ليس للتجديد حدّ يقف عنده . هذا يبيح للشاعر أن ينسفَ المنطق الأرسطي مثلاً ، أن ينقض البديهيات العقلية : أن ينقض أسس الكلام والجمال ؛ أن يتحرك في مسار الجنون. ولا أقول يدرك الجنون،لأن ما نراه اليوم تفوقاً كان سيبدو للقدامى جنوناً . بهذا المعنى يصير الجنون السّبقَ ونقضَ المصطلحات و « خَرْقَ العادة » وتجاوز دائرة المعقول .

V

أدونيس ، في قصيدته « هذا هو اسمي » يستمر في تجاوز نفسه ، فيثبت في موقف الشعر ويظل منسجماً مع ثوريته ومواقفه الجذورية الناقدة نفسها المتجاوزة لنفسها ، لكن الحاملة الهاضمة المغتذية بكل مواقفها السابقة . وإذا كان في الشعر يتجاوز نفسه فإنه يتسلّح كذلك بكل تجاربه وخبراته السابقة في سبيل تحقيق المزيد من الكشف والتجاوز . (سنرى في موضع آخر كيف أفاد في هذه القصيدة من فنه في «المسرح والمرايا»، والتجربة المسرحية فيه. موقفه من التراث عين هذا الموقف: الاغتذاء بالتراث وهضمه والإفادة منه لتجاوزه . فهو يتجاوز التراث متسلحاً بهذا التراث لا منقطعاً عنه) .

قصيدة « هذا هو اسمي » هدم لمبدأ الاستقرار الشعري ، لمبدأ الاساوبية ولكل اتباعيّة . هي إعلان شرعة التغيّر : ينبغي أن تتجاوز كل قصيدة ما سبق من منجزات الشعر وما حققه الشاعر نفسه، بحيث تصبح كل قصيدة أرضاً جديدة تضاف إلى العالم المعروف . وإذن لا استراحة ولا توقف ولا صيغة نهائية ، بل الابتكار المتواصل المتجدد والمغامرة الدائمة والانطلاق الدائم بدءاً من البراءة . وكل قولبة وتقنين وموقف جاهز أو معاد يناقض احترام الطاقة الابداعية في الشاعر والقارىء على السواء ، ويسهم في تحجير الحياة .

VI

أين يقف القارىء من هذه المغامرة ؟ وما العلاقة بينه وبين الشاعر ؟ كل قصيدة خالقة أرض بكر يلتقي عليها الشاعر والقارىء . القارىء هو القطب الآخر في العملية الإبداعية ، القارىء الذي يطلب من الشاعر ترنيمةً تهدهده أو تطربه لا يكون في مستوى الشعر ، إنه قارىء يتمسّك بدوره السبي ؛ يرى أنّ دور الشاعر يقوم على تقديم الشعارات أو الحكم الناجزة

والتجارب المكتملة والمنمنمات المجموعة بعناية ، فيتلقى (كبسولة) جاهزة مغلقة . القصيدة هنا إثارة . دعوة إلى المغامرة والإبداع ، والقارىء جزء لا ينفصل عنها . القصيدة إمكان ، خميرة ، لا تكتمل بغير القارىء ، إنها تفاعل معلّق ، طموحها أن تحيا بالقارىء . بمثل هذا تنادي جماعة Tel Quel التي تعتبر الكاتب واضع نص (Script) وكل قارىء يخلق هذا النص من جديد ، أي يملؤه بأبعاده وشخصه . وهذه القصيدة إعلان ثورة وتحدٍّ . هي ثورة على كل سكون وتقليد ، إنها تحدٍّ للقارىء المثقف . هي بهذا المعنى قصيدة عدائية ضارية لأنها تلغي الحكم القديمة : حكم الصبر والتروّي والتحمّل والانتظار والمسالمة . عدائية لأنها تهاجم القارىء في عقر طمأنينته وكسله . والقارىء كسول ، أعني القارىء العربي خاصة ، بل الإنسان العربي . كسول ينام على حرير الأمجاد والكشوف الماضية ؛ رفَعَ شعار « القناعة كنز » واستراح عن طلب المغامرة ومعاقرة المجهول والمصيري . ترعبه فكرة العودة إلى الصفر ، إلى البراءة . ويبدو لي الفارق بين القارىء المبدع الذي يواكب الشاعر الرائد والقارىء الكسول الذي ينتظر من الشاعر أن يطربه عن طريق إعادة تنظيم المألوف من الأقوال والأفكار ، كالفارق بين شخص يرافق كولومبوس المجنون في مغامرته وشخص يواكب سائحاً أميركياً يلتقط الصور التي طالما سمع عنها وسبقه غيره إلى تصويرها .

هكذا تجيء هذه القصيدة مليئة بشهوة النقض والخلق ، شهوة الحركة والبحث والتجاوز ، وتؤكد سلطة الجنون ، أي سلطة الشعر . هذه السلطة الشعرية المتحدية الضارية تذكر بسان جون بيرس الذي يخترق العالم إلى رحم البحر — المرأة ، الذي يستنهض فيك المتوحش المنبهر الأول ، الذي يحرك فيك ذكريات ما قبل الشكل البشري ، ويضرم فيك أشواق ما بعد الشكل البشري . لكن سان جون بيرس يقدر أن يسمح لنفسه بترف هذه الأشواق . أدونيس هنا صارم شرس جنون . لا يقدر ، في مسيره ، أن ينزع نظره عن العالم حوله . لذلك فإن شراسته فعلٌ في هذا العالم ، « لغمٌ » مزروعٌ في عروق كسله وقناعته ، تحطيمٌ لأغلاله الروحية والعقلية ، محاولةٌ لدفع وعيه نحو مناطق محرّمة ، نحو بقاع خطرة ، نحو متاهات الجنون حيث اختراع الطرق . « الكل أو لا شيء » هكذا يقول . لا مساومة ، لا توسط لا دغدغة للقارىء ، لا تملق ، بل هجوم . وما المقاطع الغنائية في هذه القصيدة إلا كمائن لاستدراج القارىء نحو الأغوار المحرّمة . للشاعر في ذلك أسلحة منها السؤال . الحدود وما يرسم الحدود « مُحيت بسؤالاته » . السؤال هو الهجوم ،الشك ، الفضح ، التجاوز . إنه اللغم والسّبيل إلى زعزعة النظرات الراكدة ، إلى تحريك الفكر وإنزال المسلّمات عن عروشها . كل شيء

مطروح على بساط البحث من جديد وإلى الأبد . المطلقات المنزلة ، الأساليب المنزلة من سماء الماضي ، الحكم المنزلة من فردوس الأجداد ، زال سلطانها . السلطان الوحيد هو لقوى الحياة — الشعر المتقدمة الباحثة المتسائلة الفاعلة المغيّرة . القارىء المبدع والقصيدة ، وسيطٌ لذلك .

VII

هذا ينفي وجود القصيدة المكتملة . تصبح القصيدة الكاملة قائمة أبداً فيما يأتي . وكل قصيدة دفعة جديدة تضعك في الطريق نحو القصيدة الكاملة .

هكذا ايضاً تنتفي إمكانية وجود النماذج.وفي هذا إلحاح على مبدأ الإبداع المتكامل ، أي ابداع الشكل والمضمون . وهذا يفترض توحد الشكل بالمضمون توحداً تاماً أو ما يسمى الكتابة الشعرية . وإذن ، في لحظة الخلق ، لحظة الحضور الكثيف الذي تتكامل فيه طبقات الوعي جميعاً ، يُلهَمُ الشاعر بالرؤيا في شكلها الخاص ، ولا تجيء الرؤى أو الأفكار مجردة ثم تنزل في قالب مهيأ مسبقاً وفقاً للنظرة القديمة التي كانت ترى الشكل كسوة المعنى ،لأنه لا وجود للشكل المسبق . كل شكل مسبق خيانة للقصيدة ولمبدأ الكلام والكتابة الشعرية . بهذا نصل إلى أبعد مما سميته سابقاً « عروض القصيدة » نصل لى « عمود » القصيدة بدل عمود الشعر .

VIII

طبيعي بعد ذلك أن نجد قصيدة «هذا هو اسمي » تعيش في مناخ الجنون أو النار . الجنون والنار بما هما سديم ونقض وحب وتحول وانبثاق وبتعبير آخر : ثورة . تتحرك القصيدة بين هذه العلامات : « ... ماحياً كل حكمة هذه ناريَ ...» و « لم يعد غير الجنون » وتنتهي بهذه النار : « وطني هذه الشّرارةُ هذا البرقُ في ظلمة الزمان الباقي .. » . قال لي أحد المستشرقين مرة « أنتم العرب حكماء جداً » . حكماء ! تعني أننا عرفنا كل شيء ، عشنا كل التجارب واكتنزنا كل الخبرات حتى وجدنا لكل داء دواء ، ولكل سؤال جواباً ، ولكل مقام مقالاً ، ولكل عيب ستاراً ولكل لغز حلاً ولكل معضلة تدبيراً ولكل تناقض تركيباً ، وأقفلنا بعد ذلك باب التجارب والتساؤلات وهيأنا للخارجين التّهم والألقابَ ، ووضعنا لهذا كلّه القوانين والقواعد وصبَبْناها في قوارير الحكم والأمثال والأشعار ورتّبناها في صندوق

الذاكرة ، نتناول منها في المناسبات والملمات ، وجعلنا هذا طوطماً وأعطيناه (ظلماً) اسماً مقدساً « التراث » . ومن خرج على هذا فهو إما مجنون (بالمعنى المبتذل) أو متآمر .

هذه القصيدة تمحو الحكمة وتبشّر بالجنون ، بالسؤال ، بالمواقف العفوية ، بالمواقف المبتكرة ، بالمواقف المتجاوزة المتخطية الناقضة ، الرافضة حدودَ العقل ، وحدودَ الصبر والقناعة والتروّي ، وحدود القيم والنُظُم وحدود المرئي والمعروف ، وحدود اللغة والفن وحدود التراث والحب ، وحدود الإيمان والدين .تبشر بالجنون الذي أدين به الحلاج ، والذي أدين به غاليليو وليوناردو دوفنشي ونيتشه وبليك وميشو ؛ الجنون الذي عقله الحلم — العقل — الشوق ، الجنون الذي هو إعادة سلطان طبقات الوعي جميعاً ونقض للقوالب العقلية ، الذي شرْعتُه الهدم — الحلم — الشوق — الموت — التحول — المتاه — الحَرْق — الابتكار . الجنون الذي هو نظافة الذاكرة من القوالب ونظافة الأعماق .

IX

لهذا كان الزمان الذي تتحرك فيه القصيدة هو اللحظة الحاضرة ، لأنها اللحظة النارية ، لحظة الحركة والفعل ، لحظة البدايات . لكن أدونيس يعطي هذا الحاضر وجه الزمن الأوقيانوسي ، ينزل في الأعماق والماضي ويطلع سالكاً درب الحنين معكوسة محكوماً عليه ألا يلتفت إلى الوراء ، أن ينطلق كقذيفة حضور تستشرف المستقبل . القصيدة التي تعيش الماضي تغمرها الحسرة والحنين لكن تسودها نبرة الاستقرار ، لأن هذا القطاع الزمني قطاع ساكن وأكيد ، انتُهِكت أسرارُه ولم يبق فيه من عناصر الحركة غير التيار النفسي الراجع في فعل الحنين . القصيدة التي تسكن المستقبل تمتلىء بفرح الآتي ونشوة الحلم ، ترسم المستقبل على صورة آمالها . أما القصيدة التي تعيش اللحظة الحاضرة فهي تمتلك إمكانات القبض على الخطوط المأساوية ، على الفعل الحار ، على الصراع لحظة المواجهة . فالزمن الحاضر وحده الزمن الحي الأكيدُ من جهة ، لكنه من جهة ثانية الزمن الواقف على شفًا ، الساقط في الغياب . إنه الزمن الواقف في هذا المضيق ، بين ما لم يعد حاضراً وما لم يصر بعد . والشاعر فيه راصد يستقبل الزمن المهاجم الغائب لحظة الإصابة .

X

تبدو لي كلمة هيدغر « القصيدة لقاء » مناسبة جداً لتعريف هذه القصيدة.

وهذه القصيدة لقاء في مناخ النار والجنون ، في لحظة متحركة هي الحاضر ، في محرق هو أعماق الشاعر . في هذا المحرق يتلاقى الذاتي بالموضوعي والكوني ، الآني بالمطلق . تتقاطع شخصيات متعددة عبر شخصية الشاعر ، وتخترق صوته أصوات كثيرة . نتبين ذلك متى عرفنا هوية المتكلم في القصيدة ؛ نقرأ في المقطع الأول : « .. ماحياً كلَّ حكمة / هذه ناريَ/ لم تبقَ آيةٌ/ دميَ الآيةُ .. » مَنْ هذا الذي يجيء ماحياً كلّ حكمة ودمُه الآية ، الذي دخل إلى حوض المرأة ــ الأرض ؟ أهو أدونيس شخصياً ؟ أهو الشاعر في أدونيس ؟ أهو الثائر العربي أي « الفدائي » أم هو الثائر إطلاقاً ، الانسان العربي ثائراً شاعراً في غضبه وتطلعاته وأشواقه ؟ الصوت الذي ينقل هذا إلينا هو صوت أدونيس ، والقرائن الظاهرة تكشف مباشرة عن شخص الثائر الفدائي الذي أعلن « ناره » في الثورة الفلسطينية وجعل دمه « آية » الحضور وآية الحب والحركة في اتجاه الأرض ، ومن ثمّ آية توحّد الحب والموت والولادة في فعل واحد تسمّيه لغة الصحافة « الفداء » . القصيدة تنتشل هذا الفعل وفاعله من إطار الموقّت والحادثة لتعطيه أبعاده المتعددة ، فيصير تجربة شخصية وموقفاً إنسانياً تاريخيّاً هو الثورة على الظلم والذلّ والحضارة التي أتاحت هذا الذل ، ويصير إلى ذلك ، فعلاً كونياً يرسم دورة الحب ــ الموت ــ الولادة . ويجيء الثائر ــ الشاعر على المستويات الثلاثة « ماحياً كل حكمة » بادئاً من المنطلق الأول ، عائداً إلى حوض المرأة ــ الأم ــ الأرض في فعلٍ يغسل كل ماضٍ ، يستحضر « الطوفان » . يصرخ : قادر أن أغيّر : لغمُ الحضارة هذا هو اسمي » .

قلت إن ذات الشاعر هي المحرق الذي تتقاطع فيه هذه الأبعاد ، أوضح مستعينة بحكاية شعبية قديمة من حكايات الجن ، وفيها «أن ابنة حطاب زُوّجت إلى أمير من أمراء الجن ثم حملت منه ، كل ذلك دون أن تراه لأنها كانت تخدَّر عند المساء ؛ وذات يوم احتالت حتى تخلصت من المخدر كي ترى زوجها . ولمّا نام نهضت وأخذت تتأمله وتكتشف خارطة جسده ، فرأت في بطنه قفلاً ومفتاحاً . فتحت فظهر لها درج هابط . نزلت لتجد نفسها في مدينة بشوارع وأسواق . كلّمت الصنّاع والناس ، كانوا جميعاً يُعدّون جهاز طفلها » . عالم هذه الحكاية يبسّط عالم هذه القصيدة . زواج الإنس والجن هو زواج الموضوعي بالذاتي أو الواقع بالحلم والخارق زواجاً لا واعياً . بنتيجة هذا الزواج يستقر الموضوعي في أحشاء الذاتي . فالعالم الذي ولجته ابنة الحطاب هنا ، هو داخل وخارج في آن . فيه عالمها أي عالم الآخر الخارجي وعالم أمير الجن أي الأنا والحلم ، ويكون الجسد والجنس أرضاً

يتلاقى عليها هذا كله .

وقصيدة « هذا هو اسمي » مدخل إلى عالم أدونيس الجوّاني . وإذ نلج هذا العالم نجد الموضوعيّ وقد اخترق أعماق الشاعر وقبع هناك لكن في حالة نارية أو سيميائية . ففي هذه القصيدة — الاستدراج ، القصيدة المفتاح الغامض الذي ينزل بنا الأدراج في أحشاء أدونيس لنجد « مدينة تحت أحزانه » ، مدينةً فيما وراء زبد الانفعالات وبراقع الزخرفة . نجد الهموم الحقيقية التي تتأكّله والرؤى التي تسكن أعماقه .

XI

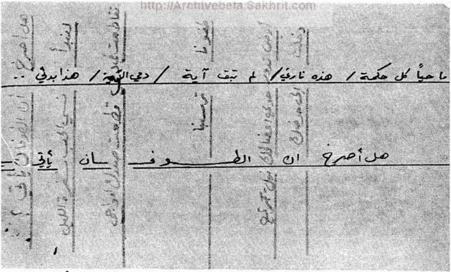
الكلام على مدينة الأعماق يستدعِ ...
بد من إيراد ملاحظتين :

أ — لا وجود لما يسمى ...
المضمون . لأن ما يسمى عادة بالشكل يـ...
ونظاماً من العلاقات الداخلية ، نظاماً للحركة .

ب — ليست للقصيدة هندسة مغلقة ثابتة ، لأنها دفعة أو حر...
لهذه الحركة بداية ونهاية (أنظر الشكلين ١ و ٢) . تبدأ القصيدة وكأنها إضاءة مفاجئة لحركة كانت مستمرة من قبل وظلت مستمرة حتى بعد أن سكت الشاعر . بدأت : « .. ماحياً كل حكمة » وانتهت : « وطي هذه الشرارةُ هذا البرق في ظلمة الزمان الباقي .. » . بهذا تكون القصيدة موجةً لا بيتاً . تمثل هذه البنية بمسارات وتيـارات وتفجّرات وأصوات تتلاقى وتندمج أو يخترق بعضها البعضَ الآخر ليخرج وقد عانى تحوّلاً ما ، وبأشخاص أو « ظهورات » وانقسامات للشخص الواحد ، وتقاطعات عبر الشخص الواحد . يتمّ هذا في محرق أو مكان هو مدينة الأعماق ، في زمن هو اللحظة المتحركة . لذلك أقول إن القصيدة ذات بنية مسرحية .

بدأ أدونيس تجربة القصيدة — المسرحية منذ عام ١٩٥٤ مع قصيدته « الفراغ » التي جاء الجو المسرحي فيها ممثلاً بتوالي اللوحات ؛ ثم في عام ١٩٥٥ كتب قصيدة « مجنون بين الموتى » . فجاءت التجربة المسرحية فيها أنضج . كان فيها بطلان ، الجندي المجنون ، والصدى ، يقوم بينهما حوار عبثي متوازٍ لا يتقاطع ، فوق أرض من الدمّار . فكان الحوار الحقيقي بين الدمار الخارجي والدمار الداخلي . وكان المجنون هو الوعي المنبثق من هذا الدمار . بعدها جاءت قصيدة « السديم » أو المجانين الثلاثة وهي كذلك ذات

بنية مسرحية ، تعتمد في الدرجة الأولى على حوار المجانين . إلى أن كان ديوان « المسرح والمرايا » عام ١٩٦٨ آخر دواوين أدونيس . طبعاً ليست قصائد الديوان مسرحيات بالمعنى المعروف . وانما هي محاولة لإغناء القصيدة بالعناصر المسرحية كتعدد الأبعاد وجوانب الإضاءة وتعدد الأصوات وخلق التيارات والعلاقات الداخلية والحوار على مستويات مختلفة ، وبعث الحركة في الماضي إمعاناً في إضاءة هذا الماضي وتعريته . ويفيد أدونيس في قصيدة « هذا هو اسمي » من هذه التجارب ويصل إلى نوع من التجريد المسرحي . أي تبقى الحركة والتيارات والأبعاد وتغيب التفاصيل . يأخذ من الحوار غايته ، أي -امتين بشريتين أو تيارين وتصارعهما أو تعانقهما أو توازيهما ؛
الذين لا يتبدلون نجد أنفسنا أمام الأبطال — « الظهورات »
-- فعلاً أو تحدث كشفاً ثم تعود للاتحاد بالواحد —
-بدة هي الخشبة والأبعاد والأصوات
تمثل مسقط اللحظة
عوالم اللاوعي الفردي والجماعي .
ب صعوداً وهبوطاً وأمام وراء ، وتتقاطع
-سارات . تبدأ صورة أو فكرة ما بتحريض الحركة على
يه وتنطلق الموجة باعثة الظلال والأصوات في الخشبات الخلفية



مخطط يبين كيف يتقاطع خط « الحب - الموت - النار » بخط « النار - الموت - التغير أو الثورة ».

والسفلى . حين يقول مثلاً : « وطني راكض وراني كنهر من دم » تتحرك في كل الاتجاهات أنهار الحياة والدم والحبر منذ نهر هيراقليطس أو التجدد الدائم ، إلى نهر دجلة مصبوغاً بالحبر أو بالدم حتى نهر الدم في دير ياسين ... وحين يقول « مَن الحريقُ ؟ » « يظهر خطّ النار الذي يقطع التاريخ منذ نار بروموثيوس إلى نار الفينيق ، وحريق قرطاجة وروما ، وحريق البصرة حتى حريق النابالم ويمتد نحو الذات ويبعث حريق الأب ، وحريق الحب ونار الفعل .

ومن العناصر المسرحية الأصوات التي تتعدد ، تتوازى ، تتقاطع أو تتداخل وتجيء واحدة ، متعددة أو جوقات . هذه الأصوات تتفجر منطلقة من صوت الشاعر الذي ينقسم على نفسه ويصير ذاته وألف شخص غيره في آن ؛ أو تجيء لتتقاطع في صوت الشاعر وتدخل فيه ، أو تواكبه جوقات جوقات .

أدرس ملامح الحركة والتقاطع في المقطع الذي يبدأ بـ « وطني راكض وراني .. » في هذا المقطع هبوط لولبي نحو طبقات (خشبات) الوعي السفلى بدءاً من خشبة الموضوعي . التعابير توحي بمعاني الهبوط والاختراق . الروابط المنطقية مفقودة ، الكاف في « كنهر » ليست تشبيهية إلا شكلاً . نهرُ الدم يحرك في الخشبات الخلفية أصداء عديدة . الوطن الراكض الهابط الآمل يصير نهراً يملأ الأنحاء جميعاً . تجيء من الخشبات الخلفية صورة ذات اتجاه معاكس تتقاطع بالحركة الأولى تضيئها وتهبط درجة ثانية في المدينة الأدونيسية السفلى ، هي « جبهة الحضارة قاعٌ طحلبي » ، ونلاحظ الصراع بين حدّي الصورة (جبهة وقاع) ثم بين الحضارة التي جاءت في صورة سكونية ونهر الدم المتحرك . ونستشف العلاقة بين الصورة الثانية والحركة الأولى . إذ فضلاً عن علاقة التعاكس في الاتجاه ، هناك علاقة هذه الحضارة الطحلبية (أي الراكدة) باصطباغ نهر الوطن بالدم . لذلك يثور على هذه الحضارة — السكون في نهاية كل مقطع بقوله « لغمُ الحضارة هذا هو اسمي » . وكأنما تستحضر كلمة « لغم » التخاخل والتناثر والانهيار « للمتُ ناجاً » ... وإذ تبلغ « سيفُ التاريخ يُكسَّرُ في وجه بلادي » ، يبدأ التفاعل وتنطلق التيارات الصاعدة الهابطة عبر الخشبات السفلى والعليا ، الخلفية والأمامية (المخطط ١) تتداخل « جيشٌ من وجوهٍ مسحوقة .. » بـ « سيفُ التاريخ يُكسر في وجه بلادي » تكسر قماقم الروابط المنطقية والقوانين وتتحرر الأصوات ، تتعانق الأضداد يتوحد « الحريق » و « الطوفان » . توارد الحريق والطوفان وتوحدهما مثال صالح لدراسة نظام العلاقات الداخلية في القصيدة الأدونيسية . هذا

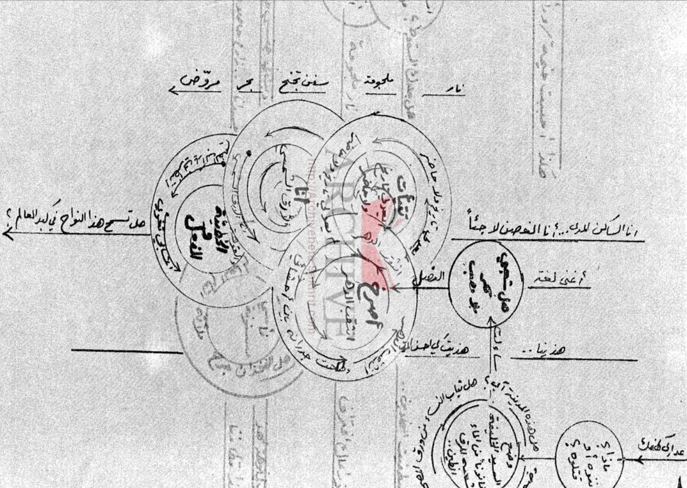
يعـيدنا مباشرة إلى « كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل » وعناق الماء والنار أي تجاوز التناقض عبر الموت والبعث : موت الفينيق في الحريق وموت العالم الفاسد في الطوفان ، ثم انبثاق الحياة الجديدة البريئة . تستحضر رؤيا الطوفان والحريق موجة تبدو جنسية في ظاهرها وذلك في قوله : « كنت الصحراء حين أسرت الثلجَ فيك ... قلت جاسدتُكِ أنت الشق المليء بأمواجي أنا الليل حافياً حين أدخلتكِ في سرّتي تناسلتِ في خطوي طَريقاً . » نرى هنا كيف يتقاطع خط (الوطن — الدم — الموت — الانبعاث) بخط (الحب — الموت — الولادة) . بفعل هذا التقاطع تتخذ الموجة الجنسية أبعاداً أخرى . يصبح الجنس مسقط العلاقات الكونية . ومع أنه يحتفظ ببعده الأول كنوع من الفرح الجسدي ، واختلال الوضع البيولوجي للأحاسيس ، يصير عودةً إلى السديم عبر الموت والولادة من جديد . إنه هنا الحوار الجسدي الذي يصير شرفةً بل يصير باباً للحوار الكوني . ينتهي المقطع باستقصاء المحو والقطع وإعدام الروابط السابقة في « صرخت أنت آله لأمحو ما يجمع بيني وبينه » استعداداً للمتاه أي للهداية في قوله « استضيئي تأصّلي في متاهي » . المتاه هنا لا يتوحد بالهداية ، بل هو الهداية لأن المتاه غياب الطرق المعروفة وابتكار للطرق الجديدة . هنا أيضاً تلوح طبيعة العلاقات الداخلية والعلاقات بين الكلمات وظاهرة التفاعل المتبادل والإثارة والاستحضار المتبادلين ، وهي من مميزات الكتابة الشعرية عند أدونيس . منذ المتاه — الهداية يبدأ تلمس الطرق : « خدر مُشْمِرٌ يعرّشُ حول الرأس حَامٌ تحت الوسادة أيامي ثقبٌ في جيبي » . في هذا إمعانٌ في الهبوط والتغلغل في الخشبات السفلى أو عالم الأحلام ، في الزمن — خارج الزمن . إمعان في التقدم نحو المحرق أو مرآة الأعماق حيث تتقاطع الرؤى جميعاً : في القرارة نجد « جيش من وجوه مسحوقة يعبر التاريخ جيش كالخيط أسْلَم واستْسلَم جيشٌ كالظل ».أي جيش ؟ إنها آلاف الجيوش المنهزمة طوال ألف سنة تراكبت صورها وفي أعلاها صورة جيوش ٥ حزيران . وإذن فجرّت هذه الإضاءة الجذورية الصور التي تبدأ باللحظة الحاضرة وتمتد عبر الأغوار التاريخية . هكذا يركض الشاعر في صوت الضحايا هابطاً في الصورة السابقة حتى وجهها الناري « أركض في صوت الضحايا وحدي على شفة الموت كقبرٍ يسيرُ في كرَةِ الضوء » وفي قوله « انصهرنا » يبلغ النقطة النارية حيث يصير كلُّ شيء كل شيء آخر . وهنا تصعد من الخشبات السفلى موجة (جنون — حب) باعتبار ان الجنون هو نقطة التلاقي نقطة التحول والحلول : « دم الأحباء كالأهداب يحمي » و « سمعتُ نبضكِ في جلديَ » هو في آن نبضُ المرأة ونبضُ الأرض

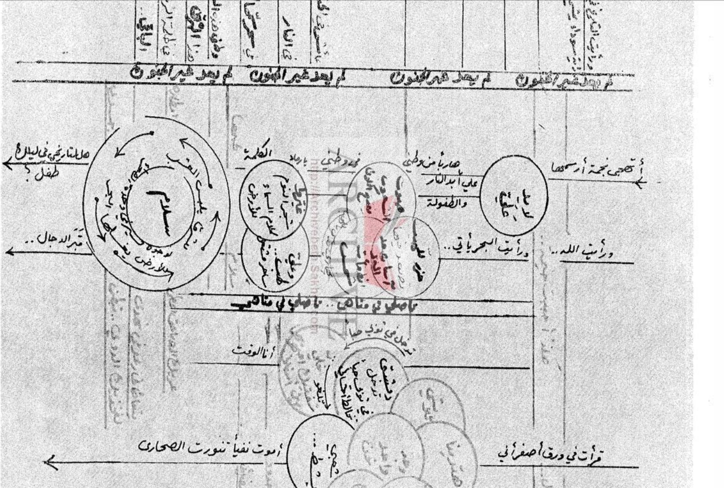
يعانقها الفدائي ، نبض دمشق المدينة التي تحت أحزانه . تواصل الموجة حركتها الصاعدة حتى تغمر كل شيء ويسود المتاه ويصل عالم الأعماق إلى شرفة الهداية والخلاص : « زحفَتْ غيمةٌ فأسلمت للطوفان وجهي وتهتُ في أنقاضي .. » .

XII

ما طبيعة التفاعل بين الأقطاب ووفق أي مبدأ تحدث الحركة في مسرح الأعماق هذا ؟ أصبح واضحاً أن القصيدة تخلّت عن المسار الخيطي الذي يتبع مجرى الفكرة أو الصورة عبر الأقنية المنطقية الواعية . والمسار الخيطي للقصيدة هو الشائع عند عامة الشعراء حتى المعاصرين منهم وبينهم أدونيس . نجده في قصائده السابقة في القديمة خاصة مثل « العباءة » و « نوح الجديد » على ما في هاتين القصيدتين من قيم جمالية . أما قصيدة « هذا هو اسمي » فهي شبكية الاتجاهات لأن محاور متعددة تتقاطع فيها . ويبدو هذا أكثر انسجاماً مع صوفية أدونيس التي تصالح الأضداد وتلح على تعانق الإنسان والأشياء . فهي ، إذن ، لا تخضع لمبدأ التسلسل المنتظم ، بل هي أقرب إلى مبدأ التفاعل المتسلسل في انشطار الذرة . وذلك أن مؤثراً ما يُحدث إصابةً فيحرّض فكرةً أو صورة ، هي بدورها تحرض صورة أو أكثر ، وتعود كل من هذه الصور لتحرك صوراً أو فكراً غيرها . لذلك يمكن اعتبارها مجموعة من التفجرات تحدث في المدن السفلى القابعة تحت الأحزان ، تحت الجلد .. هذا التفجر ليس من نوع التداعي المعروف بل يرجع إلى طبيعة نظام العلاقات الداخلية (Correspondances) في لغة أدونيس الشعرية .يقوم* نظام العلاقات هذا على تقابل الأضداد ، على حركة حديالصورة الواحدة في اتجاه الآخر في فعل جذب أو نقض . لدراسة الحركة دراسة عامة آخذ كمثال المقطع الذي يبدأ بـ « عدْ إلى كهفك » (نهاية الشكل ١) . ثم « ألمح كلْمَهْ » ، فنجد المقطعين تهيئة للتفكك أي لإبراز التناقض ومن ثمّ إطلاق الهذيان من عقاله في المقطع الذي يبدأ بـ « وضَعَ السيد الخليفة ..» (شكل ٢) . تنطلق التأثيرات المحرضة من المقطعين المذكورين.من هذه التأثيرات كلمة « قتلوه » ، ومنها «سأبكي لأمة وُلدت خرساء .. » ؛ فكأنما يستحضر الشاعر صورة جارحة لها طاقة التحريض والتفكيك . « ماذا؟ نفوهُ أو قتلوهُ ؟» من هذا المنفي أو القتيل؟ الصديق الثائر؟ الشاعر الثائر في « أمة

* انظر الصفحة ما قبل الاخيرة من هذا المقال .


عداك الهدى
ماذا ؟ تنوه أو تتلوه ؟
وضع السيد الخليفة قانوناً من الماء
هل هذه المدينة آية ؟
هذينا ..
هذيت كأهل
هل شجي
الفصل
أعني لغة
أنا الساكن المدى ... أنا الغصن الاجشا
أصرخ
انتقب الدهر
وطحنت جدرانه بين أحشائي
تقيات
أنا
الخطيئة
و
الفعل
هل تسمح هذا النواح في لبد العالم ؟
نار
ملجومة
سفن تجنح
بحر
مروض



لم يعد غير الجنون
لم يعد غير الجنون
لم يعد غير الجنون
لم يعد غير الجنون
ورأيت الله..
ورأيت البحر يأتي..
والطفولة
الكلمة
سلام
أنا الوقت
دمشق
أموت نفياً تنورت الصحارى
قرأت في ورق أصفر أني

ولدت خرساء » ؟ يوضح هوية هذا المنفي ما سيجيء من قوله « لِمَ البكاءُ على طفلٍ على شاعر » . هو الثائر إذن ، لأن الطفولة تمثل الجدّة ونظافةَ الأعماق . بفعل هذا المحرّض تشتعل المدينة السفلى ، تتطايرُ صور الجمود والاستسلام والسيوف التي تطيح بالرؤوس المفكرة المتسائلة الرافضة : « وضع السيّدُ الخليفة قانوناً من الماء شعبهُ المرقُ الطّينُ سيوفٌ مصهورة » هكذا يسقط التمويه وتعرى الحقائق « وضع السيّد تاجاً مرصّعاً بعيون الناس » . هذا يستنهض التساؤلات الهذيانية المجدّفة « هل هذه المدينةُ آيٌ ؟ هل ثياب النساء ... » وإذ يخترق ببصره مضيقَ الزمن الذي يجتازه شعبه ويرى إلى ضياعه وعبثية تحركه يصرخ بلوعة : « هل شعبيَ نهرٌ بلا مصبٍّ ؟ » . بدءاً من هذه الصرخة يبدأ التفجر الهذياني الأكبر في القصيدة : « أُغنيّ لغة النّصْل أصرخ انثقبَ الدّهرُ وطاحت جدرانه بين أحشائي تقيأتُ لم يعد لي تاريخٌ ولا حاضر أنا الأرق الشمسي والفوهةُ الخطيئة والفعلُ ... » يتخلل هذه الصيحة المزلزلة الجنونية التي تتقيأ الحاضرَ الفاجعَ والماضي الميت أصوات ملتاعة تجيء كالأصداء فيما وراء هذه الصيحة : « أنا الغصْنُ لاجئاً » وهذه تحرّك العبارة التالية : « أَصْغِ : هل تسمعُ هذا النّواحَ في كبدِ العالم ؟ » وإذ يبلغ هذا الغضب الذروة يرتمي في حضن المرأة — الأرض ينزرع في أحشاء الأرض — المرأة في مناخٍ سديميّ هذياني ذاتي — كونيّ . فيه يتجاوز الشاعر اللّغةَ بمعنى مَوْضعة النّار الداخلية أي نقلها إلى الحيز الخارجي المفصح . تبدأ هذه المرحلة الهذيانية منذ الصرخة « نارٌ ملجومة سفن تجنح بحرٌ مرَوَّض » . ولا يهدأ الهذيان بل ينتقل إلى انفجار هذيانيّ تال تتراكب فيه الكلمات وتجيء نوعاً من اللّعثمة « لو غيرتُ لو غيرُ الغبار عذّاراه لو النّارُ .. » ذبتِ في جنسيَ جنسي بلا حدود ولا سيف تلاشي لاشي تلاشيتُ..» .هذه اللعثمة انبهار وانفصام ما بين النار والكلمات ، حتى كأن الكلمات هنا قد ضاقت بنارها فأفلتت من سلطانها وراحت تتردد وفق ناموس التجانس اللفظي . لكن هذا التجانس والتداخل ظلٌّ لتجانس وتداخلٍ من نوع آخر : تداخل الأنا والأنت « تلاشي لاشي تلاشيتُ ... وجهٌ واحدٌ نحنُ .. » إنها الأصوات التي تتقابل على مستوى الحوار لكنها تعود لتتلاقى وتتوحّد ويصير الأنا أنت ، فنحن ثم أنا .

XIII

أصل بعد هذا إلى مسألة الإيقاع : كيف نفسر المحافظة على الأوزان الخليلية (وإن كانت قد خضعت للتحول) . يسهل القول إنها رواسب تراثية إذ المنتظر ألا تجيء قصيدة تخطت المفاهيم والنظم الشعرية ورفعت راية الجنون

بلهجة تذكر بايقاع الماضي . لكن ما هو الإيقاع ؟ ليس مجرد الوزن بالمعنى الخليلي أو غيره من الأوزان . الايقاع بالمعنى العميق لغة ثانية لا تفهمها الأذن وحدها وإنما يفهمها قبل الأذن والحواس الوعي الحاضر والغائب . لهذه اللغة علاقة ثنائية بالأجواء الشعرية تستحضر الأجواء والأجواء تبعثها . هذا يعني ، بالتالي ان الايقاع ليس مجرد تكرار لأصوات وأوزان تكراراً يتناوب تناوباً معيناً : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن أو مستفعلن مستفعلن .. الخ .. وليس عدداً من المقاطع اثني عشرية مزدوجة اوخماسية مفردة . وليس قوافي تتكرر بعد مسافة صوتية معينة لتشكل قراراً ، هذه كلها عناصر إيقاعية ولكنها جزء من كلٍّ واسع ملوّن متنوع . فضلاً عن انها بشكلها المنظم المعروف صارت لغة مستنفدة لا تقول جديداً .

الايقاع لغة ، بل هو سابق للغة المصطلح على تسميتها كذلك . إنه ما قبل الاصطلاحات ، كان الإنسان القديم يحدث أصواتاً متسارعة متصاعدة ليعبّر عن اقتراب خطر . أو كان صوت الساحر مثلاً يتعالى ويتسارع ليعلن عن ظهور روح عنيفة أو شريرة ويهدأ ويتموج ليعلن ذهابها أو هدوء غضبها . رقص الحرب إيقاع خاص، لغة معبرة . والإيقاع لا يقتصر على الصوت إنه النظام الذي يتوالى أو يتناوب بموجبه مؤثّر ما (صوتي أو شكلي) أو جوٌّ ما (حسي ، فكري ، سحري ، روحي) وهو كذلك صيغة للعلاقات (التناغم ، التعارض ، التوازي ، التداخل) فهو إذن نظام أمواج صوتية ومعنوية وشكلية ، ذلك ان للصورة إيقاعها كما سنرى عند دراسة بعض صور القصيدة .

لقد أبدع الشاعر الجاهلي ايقاعه الخاص الذي يعبر عن حياته . ذلك ان هذا التواتر المنسّق الذي ينتهي بمؤثّرٍ صوتي واحد يمثل دورة الحياة والفصول وإيقاع الحركة والمسافة في تلك البيئة . ولما ظهرت الزخارف العربية فيما بعد تمثل فيها الايقاع نفسه ؛ فكانت الوحدة التزيينية (Motif) تتوالى بعد مسافة معينة . هذه المسافة الفاصلة بين مؤثرين تقابل الوزن كما يقابل المؤثر أو الوحدة التزيينية المتكررة القافية .

من عناصر الإيقاع عند العربي القديم توالي الموضوعات على نسَق معين أو بموجب حركة نفسية معيّنة : الحنين والالتفات نحو الماضي في الوقوف على الأطلال ؛ اجتياز المسافة الزمانية نحو اللحظة الحاضرة وامتطاء الراحلة في انتظار لحظة آتية مروراً بصعاب ومغامرات ، والتوقف أخيراً عند حدّ المجهول ، وهذا ما يجيء في صورة الحكمة والتأمل في الموت .

بلغ من أهمية هذا الإيقاع النفسي انه استهدف هجوم المجددين في

العصر العباسي دون الايقاع الصوتي مثلاً ، هذا الهجوم يتضمن اعتقاداً بأن تجديد الإيقاع الصوتي يتلو ذاك في الأهمية .

وقد بدأ الشعراء المجددون المعاصرون البحث عن ايقاعهم (لا بمعنى الاوزان) منذ الشعر المهجري . وتخلى بعض الشعراء عن بعض الايقاع الصوتي كالوزن والقافية ، دون إيقاع اللغة نفسها . ذلك أن العودة إلى الصفر غير ممكنة إلا نظرياً ، لأننا نحمل اللغة بنواميسها الخاصة وخصائصها الموسيقية ونظام الاصوات فيها . يغلب مثلاً ورود التسكين والتضعيف بعد الحرفين الأول والثاني ، كما يغلب ورود الأوزان الثلاثية . والمدّ بالألف أعم من غيره لمناسبته استقرار الأصوات . كما أن أحرف النداء والاستفهام والاستغاثة والاستفتاح والحض أي التي ترافق الجمل الانشائية (وهي التي تساعد على خلق الحركة النفسية) ترجّح كلها المدّ بالألف . هذا كلّه بالاضافة إلى خصائص الأحرف العربية ، يقرب الإيقاع الصوتي من اتجاه معين .

في قصيدة أدونيس هذه محاولة لاستقصاء إمكانات الإيقاع الصوتي في العربية وصهرها في سمفونية صوتية حركية جديدة ، أي ترويضها وانتزاعها من مجراها المألوف ووضعها في مدار جديد لتصبح من عناصر لهجة الشاعر . هذا يمكن أن يجر إلى بحث التجربة اللغوية عند أدونيس وإلى عناصر اللهجـة الأدونيسية .

يقول ادونيس على لسان مهيار في « أغاني مهيار الدمشقي » : « وأنا لهجة البرق والصاعقه » . ويقول في القصيدة الأخيرة :

« ... وصوتي هذيان المُغير

يكسر عكّاز الأغاني
ويقلع الأبجديّه »

يمكن أن نستعين بالشق الأول من هذا القول لأنه يضيء معنى الايقاع الأدونيسي الذي كسر الاغنية وإن كان قد أفاد من بعض عناصرها .

أما الشق الآخر « يقلع الأبجديه » فلا يصح إلا إذا نظرنا إلى الأبجدية بمعنى الاصطلاح .

من عناصر الإيقاع الصوتي التقليدية الأوزان أو البحور . وقد خلصت المحاولات الحديثة هذه البحور من هندسيتها وقسْريتها ؛ أدونيس هنا يأخذ التفعيلة ويتخلى عن البحر كلياً . يأخذ تفعيلات من بحور متعدّدة وينظمها تنظيماً جديداً مطابقاً للايقاع المعنوي في القصيدة . ففي القصيدة تتوالى المقاطع

الهذيانية والغنائية ، أو أمواج التوتر فأمواج الانبساط . ويحدث الانتقال بين هذا وذاك بحركة التفافيّة حلزونية متغوّرة هابطة في غور الهذيان أو التفافيّة إشراقيّة صاعدة نحو المقطع الغنائي . وقد اكتسبت التفعيلات القدرة على السير في هذه الحركة . هكذا ينتقل من تفعيلات البسيط في المقطع « دهرٌ من الحجر العاشق .. » وهي مستفعلن فاعلن إلى تفعيلات المتدارك (فاعلن فاعلن ..) عبر التفعلية المشتركة (فاعلن) فلا يجيء في الانتقال انقطاع مفاجىء بل انعطاف . ومثل ذلك الانتقال من المديد إلى الخفيف عبر (فاعلاتن) بين مقطع « أيقظتني قريةٌ في مهبه ... » وأغنية « ولتولد حراب الوقيعة الأبديه » . ثم الانتقال من الخفيف في الأغنية المذكورة إلى الرّمل في الاغنية التالية « والنساء ارتحن في مقصورة .. » التي تجيء تصعيداً للغنائية ، وذلك عبر فاعلاتن .

لكن هذه التفعيلات نفسها تبدل شخصيتها بين مقطع ومقطع ، بين اللهجة الهذيانية واللهجة الغنائية حتى لتكاد تغيب عن القارىء في المقاطع الهذيانية ، كما تتحول شخصية أغنية شعبية دخلت في مياوديا سمفونية ما .

لكن الايقاع الادونيسي الذي ينبغي أن نقف عنده أبعد من المؤثرات الصوتية على أهميتها .

الإيقاع العميق والرئيسي هو إيقاع الشوق والتجاذب . في الإشارة إلى نظام العلاقات الداخلية عند ادونيس ذكرت علاقة التضاد التي هي في أساس الحركة . فالكلمة تحرّض الكلمة أو الصورة تحرّض الصورة بموجب علاقة التضادّ هذه ؛ هذه العلاقة تجعل الطرفين حدين لفعل واحد دون أن تنتهي بهما إلى استقرار وتأليف ، بل تضعهما في طريق التأليف أي في وضع الحنين إلى التأليف أو في وضع الشوق . التأليف أكثر من تجاوز للتناقض ، إنه إزالة التناقض . هذا ما لا تقع فيه الكتابة الشعرية عند أدونيس . هكذا تُبقي جاذبية الشوق عالمَه في مناخ الفعل ، في تناقض لا متناقض ، على مسافة مهددة أبداً بالامحاء . وحركة هذه الأقطاب التي يدفع الشوق بعضَها في اتجاه البعض الآخر تشكل إيقاع القصيدة الأدونيسية . كنا نصادف هذه الحركة ضمن الصورة الواحدة ، لكن هذه الحركة تتخطى هنا الصورة إلى بنية القصيدة بكاملها . أذكر من صوره السابقة مثلاً «هذا الحطب الحلوب ..» أو « وفي خطواتي جذوري».. أتناول من هذه القصيدة عبارة «مساء الخير يا وردةَ الرّماد » واكتفي بالإشارة إلى تناقض الوردة والرماد تناقضات عديدة ، الوردة

تعبير الغصن عن الفرح والحياة أي الفعل الحي الحاضر والرماد ذكرى النار التي كانت ، جثة نار كانت . في العلاقة بين هذين الحدين تصبح الوردة عزاء الرماد، حنين الرماد، والرماد مستقبل الوردة، رعب الوردة، موت الوردة . هذه العلاقة تغري الخيال بالحركة الدائمة بين الوضعين ، فهو ما يزال يبني الاحتمال ويهدم ليبنيه ويهدمه . مثل ذلك الصورتان « أرى ورقاً قيل استراحت فيه الحضارات / هل تعرف ناراً تبكي ؟ » يقوم الصراع الداخلي بين حدّي القطب الأول نفسه، بين « حضارات » و « استراحت » لأن الحضارة حركة وقابلية شعب ما على الحركة هذه الحركة التي متى استراحت ماتت فوق ذلك كل حركة تشتهي الراحة ، كل راحة تتضمن حركة سابقة . التناقض الثاني يقوم بين النار والورق الذي استراحت فيه الحضارات . وعلاقة الشوق هنا واضحة ما دامت النار التي تبكي شهوة غائبة حاضرة ، جعلها السؤال تراوح بين الحضور والغياب مطيتها شوق آخر هو شوق الشاعر نفسه .

وفي « أغنّي لغة النّصْل » يبدو التناقض مثلثاً ، يتوسطه « النصل » أي القطع والفصل والصمت ،هو نقيض اللغة التي هي اتصالٌ وحوار وتفاعل . وهذا التناقض لا يزول ، لكن الأطراف تبقى في حركة شوق . والمجال يضيق عن استقصاء هذه العلاقات في القصيدة ، لذلك اكتفي بالإشارة إلى بعض العبارات : « رأيتُ في دمي الثالث عينيْ مسافرٍ مزجَ الناس بأمواج حلمه الأبدي » ، « دهرٌ من الحجر العاشق يمشي حولي » ، « كان الجمرُ ثوباً له » ، كنتُ الصحراء حين أسرتُ الثّلجَ فيكِ انشطرتُ مثلكِ رملاً وضباباً » ، « غنيٌّ ثلج المسافر شمساً لا يراها » ، « نار ملجومةٌ » ، « بحرٌ مروّض » الخ ..

هذا الشوق أو النزوع إلى التأليف والعناق بين الحدود المتقابلة المتناقضة عنصر بارز من عناصر اللهجة الادونيسية أو الإيقاع الأدونيسي . وهو فوق ذلك قوام الصوت المسرحي في القصيدة ، وتجاوز لسطحية العلائق بين الأشياء ، وتخلٍّ عن خيطية التركيب والحركة ، وهو إضاءة عُمْقية واستقصاء للإمكانات (ليس لكل الإمكانات) النائمة في الصور والفِكَر وابتكار لامكانات وعلاقات حركية جديدة .

يبقى سؤال أخير هو ماذا سيفعل أدونيس بعد هذه القصيدة ؟ هل تقوده هذه الحركة المتقدمة الضارية إلى الصمت أو ما يشبه الصمت أي هل سيخترق الجدار الذي قد لا يعبره القارىء ؟

وهل هنالك من خيار ؟ لكنه سيكتب قصائد كثيرة قبل أن يدرك هذه

القصيدة التي تعذّبه ، الأرجح أنه سيمضي في اكتشاف عالم الجنون ، كل عوالم الجنون ، عوالم التغير والوحدة ، عوالم الانشطار قبل أن تلوح نافذة الخلاص عبر جدار الصمت .

ملاحظة حول الخريطتين ١ و ٢

- في الخريطتين محاولة لرسم الاتجاهات الشبكية والتفجرية في القصيدة ، ولابراز المحارق التي يتقاطع فيها الذاتي بالموضوعي .
- بدأ اتجاه القصيدة هابطاً ، بلا بداية ولا نهاية .
- الخط الرمادي الأفقي يمثل الجنس أي الارض التي تحتضن الحركة التفجرية الثورية المخترقة .
- مراكز الدوائر هي الاصابات التي تنطلق منها دوامة الهذيان المتمثلة في الأسهم اللولبية ، وكل دائرة غيرها في ما يشبه التفاعل المتسلسل .
- الخطوط والاسهم التي تمتد حتى طرف الصورة أسئلة وتيارات تثيرها القصيدة وتتركها مفتوحة .
- عندما تخترق خطوط القصيدة احدى العلامات الرئيسة في القصيدة مثل « لم يعد غير الجنون » و« لغم الحضارة هذا هواسمي » ، تصدر هذه الخطوط من الطرف الآخر وقد أصابها التحول .

الذكرى المئوية لميلاد لينين

جورج لابيكا
Georges Labica

النظرية اللينينية في الامبريالية

تشارك « مواقف » في الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد لينين فتقدم في هذا العدد دراستين عن نظرية لينين في الامبريالية لجورج لابيكا وعن موقفه من الفلسفة ، للويس آلتوسير • وتقدم في أعدادها المقبلة ، لهذه المناسبة ، دراسات أخرى •

قد يبدو غريبا أن يتجرأ على مثل هذا الموضوع من ليس اختصاصيا في علم الاقتصاد مما يدعو بالضرورة الى ايضاح هذه الجرأة وتسويغها • تسويغي اني أهدف من خلال قراءة بعض النصوص اللينينية الى المشاركة ، ربما بأقل مقدرة من سواي ، في الكشف عن عبقرية مؤسس الدولة السوفياتية • وسوف أحاول ذلك عن طريق الاجابة عن السؤال التالي : كيف استطاع لينين من خلال ادراكه في نظرية الامبريالية ، لوضع وظرف معينين أن يضع تحديدا بمنتهى الدقة للممارسة السياسية الثورية مقدما بذلك أهم مشاركة نظرية منذ كتاب رأس المال ؟

كتب لوكاش Lukacs عام ١٩٢٤ ما يلي : « يمكن ارجاع تفوق لينين الى أنه عرف أن يربط عمليا وكليا بين نظرية الامبريالية الاقتصادية وجميع المسائل السياسية الراهنة جاعلا من المحتوى الاقتصادي ، في هذه المرحلة الجديدة ، دليل جميع الأعمال الواقعية الفعلية » •

ان قول لوكاش هذا يعبر ، في خطوطه الاساسية ، عن الغاية التي هدف اليها ماركس طيلة حياته • لهذا سوف أتخذه دليلا لي في هذا البحث •

*

نحن نعلم ان ماركس لم يتعرض لطريقته في البحث الا في نص واحد هو نص « مقدمة الاقتصاد السياسي » (١٨٥٧) الباب الثالث حيث أعلن عن أمرين : وضع من جهة نظرية في نشوء ووظيفة المقولات الاقتصادية ممكّنا بذلك ، ومن خلال المادية الجدلية ، الاقتصاد السياسي أن يصبح علما ، ووضع من جهة ثانية

نظرية في المجتمع البورجوازي جاعلا منه ، في المادية التاريخية ، الكاشف (بالمعنى الكيميائي للكلمة) عن بنية أي تشكيل اقتصادي اجتماعي كان • بذلك يحصل لنا المخطط النظري التالي :

الواقع المباشر ⟵ النظرية (في مقولات مجردة) ⟵ الممارسة السياسية والاقتصادية والايديولوجية ⟵ النظرية •

مما يبين لنا ان الطريق ليس من النظرية الى العملية كما هو متعارف عليه وانما من **النظرية** (المقيدة في مقولات اساسية مجردة) الى **النظرية** (التي تبني وتغير الواقع المدرك) •

بعد هذه المقدمة النظرية سأحاول أن أثبت ما جاء فيها من مبادىء آملا أن أجسدها في كلام اكثر اقناعا •

حدّد لينين الامبريالية وعدد صفاتها في نـص عنوانه : « الامبريالية والانفصال في الحركة الاشتراكية » (المؤلفات : الجزء ٢٣ صفحة ١١٦) سوف نعرض لهذا التحديد والتعداد ونشرحه على ضوء كتابات لينين الاخرى وخاصة كتاب « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » • حدد لينين صفات الامبريالية بما يلي :

١ ــ الامبريالية مرحلة تاريخية خاصة من مراحـل الرأسمالية ، هي مرحلة الرأسمالية الاحتكارية التي تتجسد في أشكال خمسة :

أ ــ الكرتلات والنقابات والتروستات الناتجة عن تركيز الانتاج وحصره•
ب ــ المصارف الكبرى •
ج ــ السيـطرة على مصادر المواد الاولية من قبل التـروستات والأوليغارشية المالية •
(**ملاحظة** : الرأسمال المالي يساوي الرأسمال الصناعي المحتكر والرأسمال المصرفي) •
د ــ التوزيع الاقتصادي من قبل الكرتلات العالمية •
(ملاحظة : علما بأن تصدير رؤوس الامـوال هو الذي يميز الرأسمالية الاحتكارية تماما كما كان تصدير السلع يميز الرأسمالية اللااحتكارية) •
هـ ــ ان التوزيع الجغرافي للعالم (المستعمرات) قد انتهى •

يبقى أن نضيف ان الامبريالية قد انتهت من تكوين نفسها تاريخيا في الفترة الواقعة بين ١٨٩٩ و ١٩١٤ •

٢ ــ الامبريالية رأسمالية طفيلية أو متعفنة •

ملاحظة : بالاضافة الى ما تحمله هذه العبارات من تقييم ، تحمل كذلك مدلولا اقتصاديا وتبرز نتيجة سياسية للتحليل وفقا لما يلي :

أ ــ على الرغم من النمو السريع في بعض فروع الصناعة ، فالبورجوازية الامبريالية بورجوازية متعفنة لأنها تحولت من مواقـع جمهورية وديموقراطية (كما كانت في رأسمالية المنافسة الحرة) الى مواقع رجعية •

ب ـ تكوّن فئة واسعة من المرابين الذين يعيشون من ريع الفوائد ·
ج ـ تصدير الرساميل الذي يمكن اعتباره طفيلية مضاعفة بل مربّعة ·
د ـ الرجعية السياسية كميزة من ميزات الامبريالية : رجعية بمعنى تكريس مبدأ الرشوة والفساد وانتاج الفضائح كفضيحة بناما وسواها ·
هـ ـ استثمار الشعوب المضطهدة بحيث يبدو العالم « المتحضر » كأنه يعيش كطفيلي ضخم في جسد العالم « غير المتحضّر » ·

ملاحظة : يصح الامر كذلك بالنسبة الى فئة محظوظة من البروليتاريا الاوروبية ·

٣ ـ الامبريالية رأسمالية محتضرة تشكل مرحلة انتقالية نحو الاشتراكية بسبب تزايد جماعية العمل عما كانت عليه في ظل الرأسمالية السابقة ·

هذه هي اللوحة التي رسمها لينين للامبريالية · علينا الآن أن نوضح بعض خطوطها :

ـ الامبريالية نتاج حتمي لنمو الرأسمالية · ويمكننا تلخيص ذلك بالمعادلات التالية :

الرأسمالية = المنافسة الحرة = الديموقراطية
الامبريالية = الاحتكارات = الرجعية

ان الترابط بين المجالين الاقتصادي (في نظام قوى الانتاج) والسياسي (في طبيعة العلاقات الاجتماعية) يجعل التناقض واضحا بين الامبريالية والديموقراطية ، مما يحدو بلينين الى تقرير استنتاج واضح : ان التمييز بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية تمييز غير علمي اذ ان الامبريالية تكرس في كلا الحالين انتصار الرجعية ·

ـ « الامبريالية بنية فوقية بالنسبة للرأسمالية » ·

يستعمل لينين هذه العبارة في تقرير عن برنامج الحزب مؤرخ في ١٩ آذار ١٩١٩ (المؤلفات الجزء ٢٩ صفحة ١٦٦ ـ ١٦٧) ويشرحها وفقا لما يلي :

انطلاقا من وصف ماركس للمصنع بأنه بنية فوقية بالنسبة الى الانتاج الجماهيري الصغير يقرر لينين الامور الثلاثة التالية :
ـ لا امبريالية بدون رأسمالية قديمة سابقة
ـ بانهيار الامبريالية تنكشف أسس البناء
ـ مما يفرض وجود طبقة أرضية باطنية عريضة من الرأسمالية القديمة التي لا بد من أخذها بعين الاعتبار ·

ان صيغة كهذه تكشف مجالا واضحا أمام دراسة ما يمكننا تسميته بشكل سريع : تشابك نظم الانتاج التي تحدد أوحدية بنية اقتصادية اجتماعية معينة · ونحن نعلم أن لينين قد انصرف الى دراسة من هذا النوع عندما كتب « نمو الرأسمالية في روسيا » ·

ان عبارة « بنية فوقية » تزيد في ايضاح طبيعة الامبريالية التي هي في

آن معا كما يقول هنري لوفيفر H. Lefebvre « شكل من أشكال الرأسمالية وشكل من أشكال نشاط البورجوازية الطبقي وشكل من أشكال الدولة ، أي تشابك عناصر اقتصادية واجتماعية وسياسية • وهذا يعني بوضوح انه من الخطأ الفادح التذرع بهذا التعبير لارجاع الامبريالية الى العنصر السياسي وحده وتجاهل العنصر الاساسي أي العنصر الاقتصادي •

بعد هذه المقدمة الطويلة علينا الآن أن نحدد موقع النظرية اللينينية في الجدال الناشب حول الامبريالية •

نحن نعلم ان دراسات ماركس وانجلز ولينين النظرية لا تنفصل أبدا عن محيطها السياسي والايديولوجي اذ من طبيعة الاعمال النظرية ان تبقى متصلة بالواقع الملموس • ولم تشذ قضية الامبريالية عن هذه القاعدة اذ انها شغلت مرحلة تاريخية حاسمة في حياة الماركسية اذ استمر النقاش حولها في مطلع القرن العشرين مدة تزيد عن ثلاثين عاما •

يمكننا ان نميز في هذا النقاش مرحلتين :

— مرحلة الاعمال الأولية ،
— مرحلة روزا لوكسمبورغ

لقد وضع رودولف هيلفردنغ Rudolf Hilferding أول دراسة ماركسية في الامبريالية وأكد في كتابه « الرأسمال المالي » (١٩٠٩) على تحول الرأسمال من المنافسة الحرة الى رأسمالية احتكارية تتميز بصهر الرأسماليين الصناعي والمصرفي وبسيطرة الرأسمال المالي • وقد سبق مؤلف هيلفردنغ هذا كتاب لهبسون Hobson بعنوان « الامبريالية » (١٩٠٢) ، شدد فيه كاتبه الليبرالي على أهمية الفائدة المالية •

لقد استفاد لينين كثيرا في كتابه المتأخر عن الامبريالية من هذين المصدرين السابقين ،علما بأنه خصصت لدراسة الامبريالية مؤلفات عدة وبالاخص على أثر صدور كتاب روزا لوكسمبورغ • ومن الذين كتبوا في هذا الموضوع : كوتسكي Kautsky ، بوخارين Boukharine ، ستيرنبيرغ Sternberg لوكاش Lukacs ، فارغا Varga ، بوير Bauer • غير ان مؤلف روزا لوكسمبورغ قد أصبح مركز الثقل النظري بالنسبة الى هذه المؤلفات كلها•

لذا فسوف الخط نظرية روزا لوكسمبورغ لكي أبين انطلاقا منها أهمية نظرية لينين في الامبريالية ومنزلة هذه النظرية من الفكر الماركسي •

لخصّت روزا نظريتها في مقال شهير اسمه « نقد الناقدين » (راجع كتاب تراكم رأس المال ، الصادر عن منشورات ماسبيرو Maspero سنة ١٩٦٧ الجزء الثاني الصفحة ١٣٩ وما يليها) • في معرض تحليلها لكتاب رأس المال أمام تلامذة مدرسة الحزب واجهت روزا صعوبة في النص المتعلق بتراكم رأس المال في الفصل الثاني من الكتاب • الصعوبة هي التالية :

كيف يستطيع الرأسماليون تحقيق التراكم ان لم يتمكنوا من تسويق البضائع التي ينتجون باعداد متزايدة ؟ (التراكم بمعنى توسيع الانتاج المضطرد بقصد تحقيق ربح متزايد وبلغة علمية يمكننا صياغة هذا الكلام على طريقة ماركس بقولنا التراكم بمعنى اعادة تحويل فيض القيمة الى رأس مال ثابت) أن أولى شروط التراكم في رأي ماركس تكمن في امكانية الرأسمالي لتسويق

بضائعه وتحويل الجزء الاكبر من المال الناجم عن التسويق الى رأسمال ٠

وكان ماركس كما نعلم يفرق بين شقين في الانتاج :

١ ــ انتاج وسائل الانتاج ٠

٢ ــ انتاج وسائل الاستهلاك ٠

الشق الاول مخصص لتجديد عملية العمل والشق الثاني مخصص لتأمين استمرار العيش أي الشق الاول مخصص للرأسماليين والشق الثاني للعمال ولكن يبدو هنا انه من الضروري ادخال شق ثالث يخصص للتراكم أي لهذا الجزء من الارباح الممثل في الجزء من فيض القيمة المسلوخة من العمال والتي تشكل غاية الرأسمال الاساسية ٠

ليس لهذه المسألة سوى نوعين من الاجوبة :

١ ــ **الاجوبة التي لا تعطي حلا**

ان هناك في الواقع نوعين من المشترين في السوق :

أ ــ **العمال :** لكنهم أيا كانت حاجاتهم لا يستطيعون الشراء الا في حدود الأجور التي يتنازل لهم عنها الرأسماليون ٠ ومعلوم أن الرأسماليين يضغطون الاجور الى الحد الادنى الضروري لتجديد طاقة العمال ٠ فليس العمال اذن الزبائن المنشودين ٠

ب ــ **الرأسماليون :** وهم ليسوا زبائن الا في نطاق اشبـاع حاجاتهم في الترف ، غير ان هذه الحاجات مشبعة أصلا بالاضافة الى أن فيض القيمة المخصص للتراكم هو أكبر بكثير من أي امكان استهلاك باذخ٠ فالرأسماليون اذن ليسوا كذلك الزبائن المنشودين ٠

فمن اذن يشتري ويستهلك السلع التي سوف يؤمن بيعها التراكم ؟ من الواضح ان ليس العامل أو الرأسمالي هو هذا المشتري ٠

ج ــ هل هنالك فئات أخرى من أبناء الشعب يمكنها أن تؤمـن الشاري المطلوب ؟

الجواب لا ، بكل تأكيد اذ ان الفئات الاخرى من موظفين وجنـــود ورهبان وعلماء وفنـــانين الخ٠٠٠ ليست من زاويـــة الرأسمال الاجتماعي الكلي سوى ملحقات تابعة اقتصاديا لطبقة الرأسماليين أي ليست في الواقع سوى طفيليات لا يمكنها مطلقـــا أن تكون المستهلك المنشود ٠

٢ ــ **الجواب الصحيح :**

وتعطيه روزا لوكسمبورغ على صعيدين :

ــ **في الصعيد الاقتصادي :** ان ما يجعل الرأسمال يحقق فيض قيمته نقدا ويمكنه من متابعة التراكم ومن تأمين جميع السلع اللازمة لتوسيع انتاجه ومن تدمير أشكال الانتاج غير الرأسمالية ، هي العلاقات بين العالم الرأسمالي والعالم غير الرأسمالي ، هذه العلاقات التي تؤمن له ايضا مصدرا دائما من القوة العاملة المحوّلة الى بروليتاريا ٠

فالرأسمالية اذن تنمو وتتوسع بفضل علاقاتها بالطبقات الاجتماعيـــة وبالبلاد غير الرأسمالية مركزة تراكم رأس المال على حسابها عاملة على بعثرتها

وتقويضها واحتلال مواقعها ٠

ــ **في الصعيد السياسي** : تبرز روزا نظرية انهيار الرأسمالية المزدوج٠ ان العملية الاقتصادية تجعل العالم يدنو من وقت لا يبقى فيه سوى عمال ورأسماليين ، ثم انها تشجع فوضى الانتاج والتناقضات الطبقية الى حد ينجم عنه في العلاقات الدولية : أزمات ، وحروب وثورات تسرع في تهديم الرأسمالية في العالم ٠

وتضيف روزا قائلة ان لهذا التحليل نتيجة عملية في انه يشير الى الواقع المسيطر في الحياة العامة الراهنة أي الى واقع الامبريالية ٠

هذه هي نظرية روزا لوكسمبورغ التي يمكن ان نستخلص منها الآراء التالية :

ــ ان كان الانتاج الرأسمالي يكون لذاته سوقا غير محدودة أي ان كان الانتاج والسوق تعبيرا عن واقع واحد تصبح الازمات الاقتصادية واقعاً لا تفسير له كأحداث دورية ٠

ــ ان كان الانتاج الرأسمالي يكون لذاته سوقا كافية لتسويق انتاجه ، تصبح عملية التراكم الرأسمالي عملية لا حدود لها ٠

ــ ان كان الانتاج الرأسمالي يكون لذاته تصريفا كافيا لانتاجه وان لم يكن لتوسعه حدود في غير مقدار القيمة المجمعة ، يصبح واقع الاقتتال في سبيل الحصول على أسواق للتصريف وواقع تصدير رؤوس الاموال أمرا لا تفسير له ٠

وباختصار : الاحتمال الاول يجعل الازمات بدون تفسير ٠
الاحتمال الثاني يجعل نمو نظام الانتاج الرأسمالي نموا لا نهاية له ٠
والاحتمال الثالث يجعل الامبريالية واقعا لا تفسير له ٠

كان من الضروري الخوض في الجدل الناشب حول الامبريالية وفي أعلى مستوياته ، أي في نظرية روزا لوكسمبورغ لاظهار مكامن تفوق لينين ٠ الا ان قبل ذلك لا بد لنا من تبديد التباس حاصل بالنسبة الى الاعتقاد السائد في بعض الاوساط الفكرية عن تفوق روزا لوكسمبورغ بالنسبة الى لينين ، (خاصة عند Goldman و Lukacs) ، فهم ينسبون الى لينين وقوعه في خطأ اعتبار أن الانتاج الرأسمالي يحمل في طيه امكان نمو لا حدود له ٠

الواقع أن هذا الاتهام ناجم عن التباس وسوء فهم لموقف لينين الذي كان عليه أن يحارب على جبهتين :

جبهة الشعبيين ، الذين كانوا يكتفون بالانتاج الزراعي الضيق ، حيث كان على لينين أن يظهر لهم نمو الرأسمالية في روسيا ٠

وجبهة الاقتصاديين الذين كانوا يقرون بنمو الرأسمالية في روسيا معتبرين ان الاشتراكية سوف تنجم عن اضطراد هذا النمو ، وحيث كان على لينين أن يبرر ضرورة وجود حزب بروليتاريا مهمته الاسراع في عجلة التاريخ ٠

ان محاربة لينين على عاتين الجبهتين جعلت بعضهم يسيء فهم مواقعه الحقيقية ، نظرية كانت أم عملية ، وهذا ما سنحاول اظهاره في ما يلي :

أهمية النظرية اللينينية

بوسعنا الآن أن نرجع الى السؤال الاساسي المتعلق بتحديد موقع النظرية اللينينية من النقاش الماركسي حول الامبريالية وبالتالي اظهار طبيعة عبقرية لينين ٠

أ ــ على الصعيد النظري (الاقتصادي)

١ ــ لقد اعتبرت روزا لوكسمبورغ ان مجموع فيض القيمة الرأسمالي انما هو في الواقع مجموع فائض الانتاج غير المباع ٠ وتبدو هذه النظرة سريعة وسطحية اذا ما قورنت بتحليل لينين لمختلف أشكال اعادة الاستثمار الرأسمالي الذي أظهر ان ليست البلدان الزراعية (المتخلفة) وحدها موضع استثمار الامبريالية وانما تخضع للاستثمار الامبريالي ايضا جميع البلدان حتى المتقدمة منها اذا ما كان يمكن السيطرة عليها اقتصاديا ٠

٢ ــ أما بالنسبة لكتاب رأس المال فمن المتفق عليه ان استعمال ماركس لمقولة « المجتمع الذي ليس فيه سوى رأسماليين وعمال » انما كان بمثابة استعمال فرضية تساعده في تعدي واقعها الى اظهار نتائج علمية مجردة ٠ وكلنا نعلم ان ماركس لم يكتب الكتاب الثاني من رأس المال وانما وضعه انجلز ، انطلاقا من مسودات ماركس ، الذي منعه المرض والموت من الانتقال الى دراسة المجتمع البورجوازي في تركيبه الفعلي التاريخي ولو استطاع لتخلى حتما عن هذا الثنائي المبسط رأسمالي ــ عامل كما سبق له أن فعل في مؤلفاته التاريخية (صراع الطبقات في فرنسا) وهذا بالضبط ما فعله لينين في كتابه نحو الرأسمالية في روسيا : أي انطلاقا من تحليل ملموس لواقع ملموس ، استخلاص المبادىء النظرية والقواعد العملية وفقا لطريقة ماركس أي اقرار الامر المهم التالي :

٣ ــ العلاقة ، في المستوى النظري ، بين التحليل الطبقي وقانون النمو غير المتوازي ، هذا القانون الذي كان لينين سباقا في اكتشافه والذي أظهر بالربط بينه وبين التحليل الطبقي عن عبقرية متفوقة ٠

ب ــ على الصعيد العملي (السياسي ــ الايديولوجي) ٠

كتبت روزا لوكسمبورغ تقول : « **من الثابت ان النظرية** وحدها لا تكفي حيث ان أفضل نظرية في العالم قد تطبق أسوأ تطبيق ، شاهدنا في ذلك انهيار الحركة الديموقراطية الاشتراكية الالمانية المعاصرة ٠ وكتب لينين من جهته يقول : « فهم الأمور شيء ، ووضع هذا الفهم موضع التنفيذ شيء آخر » ٠ ومن هذه الزاوية زاوية الربط بين الفهم والعمل يتميز ، في رأيي ، تحليل لينين للامبريالية بأمر مهم أساسي وهو أن هذا التحليل يكشف في ذاته عن مقاييس نظرية ــ علمية تمكننا من أن نميز بوضوح تام في غمرة الصراع الايديولوجي بين الخط الثوري والخط الاصلاحي ٠

لاثبات هذا الرأي سوف ألجأ الى أحد نصوص لينين وعنوانه « في ما يتعلق بكراس جينيوس Junius » (المؤلفات الجزء ٢٢ الصفحة ٣٢٨ ــ ٣٤٣) وفيه يرد لينين على كراس روزا لوكسمبورغ المعنون : « أزمة الحركة الاشتراكية

الديموقراطية » . كان موضوع النقاش بين لينين وروزا يتعلق بتحديد أزمة الحزب الألماني في غمرة الاحداث الاوروبية وباستخراج المهام الواجبة التنفيذ لاعادة الخط الثوري الى الحركة العمالية . وما ذلك الا لأن الامبريالية تتميز بمقدرة على « نخر الطبقة العاملة » و « على خلق رابط اقتصادي عميق بين البورجوازية الامبريالية والحركة الانتهازية التي اجتاحت صفوف الحركة العمالية » .

يصدر لينين في مقاله الآنف الذكر حكمين في ما يتعلق بروزا لوكسمبورغ :

في الأول يقول « ان كراس جينيوس (روزا) في مجمله مؤلف ماركسي ممتاز .

وفي الثاني يقول : « ليس فيه وجهة نظر البروليتاريا الثورية وانما وجهة نظر بورجوازي صغير مسالم » .

ومعنى ذلك ان روزا قد تبينت بوضوح أن الخطر الاساسي يأتي من الحركة الاشتراكية الديموقراطية الا انها ، وقد تبينت الخطر ، لم تعمل على محاربته ودرئه . وسبب ذلك يرجع الى انها لا تفهم طبيعة الانتهازية من جهة والى انها تخطىء في فهم الحروب الامبريالية من جهة ثانية .

والخطآن أساسيان يستلزمان التوقف عندهما بالنسبة للخطأ الاول قال لينين : « لم تتعرض روزا في كراسها لانتهازية كوتسكي . وهذا خطأ نظري مهم اذ من المستحيل تفسير الخيانة اذا لم نربط بينها وبين الانتهازية كاتجاه له تاريخ يعود الى الأممية الثانية . وهذا خطأ سياسي عملي اذ يستحيل فهم أزمة الحركة الاشتراكية الديموقراطية والانتصار عليها دون فهم وايضاح معنى ودور الانتهازية في اتجاهيها :

الاتجاه الانتهازي المحض (اتجاه David, Legien) .

والاتجاه الانتهازي الخبيث (اتجاه Kautsky وشركاه) .

وبالنسبة للخطأ الثاني كتب يقول أيضا : « في عصر هذه الامبريالية المستعرة تفقد الحروب القومية معناها . لا تعود المصالح القومية سوى أوهام لتحريك الجماهير الشعبية واستنفارها في خدمة عدوها اللدود : الامبريالية » .

لقد ارتكبت روزا هذين الخطأين بسبب نظريتها في الامبريالية : خطأ نظري وخطأ سياسي عملي : الاول في جهل العلاقة القائمة بين الانتهازية والامبريالية والثاني في عدم التساؤل حول قضية الحرب . فالحرب المجردة لا معنى لها . الماركسي الصحيح يتساءل بقصد اعطاء حكم واقعي حول كل حرب : حول هذه الحرب وتلك لا حول الحرب المطلقة المجردة . يتساءل ما هي غاية الحرب ، أية طبقة تقودها وفي أي هدف ؟ وهذا ما فعله لينين عندما صنف الحروب محاولا اعطاء الحرب الامبريالية معناها الحقيقي .

وقد أعطى لينين التصنيف التالي للحروب :

١ ــ **الحروب القومية الدفاعية** : الحروب الاوروبية بين ١٧٨٩ و ١٨٧١ .

٢ ــ **الحروب الامبريالية** التي تعبر عن صراع الاحتكارات الرامي الى اقتسام العالم . وهي حروب طبقات لا حروب أمم .

٣ ــ **حروب التحرر القومي** وهي حروب ملازمة للامبريالية وتعبر عن ارادة الشعوب المضطهدة في التحرر ٠

فقضية الحرب اذن تحتل مركزا أساسيا في التفكير المتعلق بالامبريالية وقد أعطاها لينين هذا المركز الذي تستأهل واضعا ــ بالنسبة اليها ــ الخطوط الاستراتيجية التالية :

ــ **تحويل الحروب الامبريالية الى ثورات تفرض على البروليتاريا مهمات جديدة في مختلف الحقول (النظرية والسياسة والايديولوجية) ٠**

ــ **الدعم العملي الفعال لحركات التحرر القومية (اقرار مبدأ حرية الأمم واعادة النظر في دور البورجوازية الوطنية في الأمم الخاضعة للامبريالية) ٠**

ولم تكن هذه الاستراتيجية التي أصبحت بالنسبة الينا كالخبز اليومي مقبولة في وقتها من الجميع ٠ فقد اضطر لينين في سبيلها الى المحاربة وحده ضد الأممية الثانية ، عاملا دون هوادة مدة سنين طويلة على فضح قادة الحركة الديموقراطية الاشتراكية المسالمين وفضح شعاراتهم السخيفة الداعية الى نزع السلاح موضحا كيف أن شعار « الدفاع عن الوطن » يتغير معناه وفقا لنوع الحرب ٠

وليس انتقاد روزا بأنها تعتمد موقف بورجوازي صغير مسالم الا جزءا من هذا الصراع الذي قاده لينين اذ لا يكفي أن نقف ضد الامبريالية ونعلن عن ثوريتنا دون المضي الى حدود تطبيق الجدلية الماركسية كاملة أي الى تحليل الواقع بخصائصه الفريدة » ٠

نحن اذن أمام مواقف ثلاثة :

١ ــ **موقف كوتسكي** وهو يلخص بأنه تخل نظري عن الماركسية نتيجة عجز في تقدير حقيقة طبيعة الامبريالية ؛ ان نظرية الامبريالية المكثفة (التي تزعم ان نمو التركيز الاحتكاري سوف يؤدي الى احتكار عالمي واحد يحقق السلام العام) تنتمي الى الخط الاصلاحي التي كانت تتجه فيه الأممية الثانية وزعيمها كوتسكي ٠

٢ ــ **موقف روزا** وهو يلخص بأنه يحمل تحليلا نظريا صحيحا الا انه يعجز عن استنتاج المواقف العملية الصحيحة فهو اذن موقف مثالية ثورية ٠

٣ ــ **موقف لينين** الذي يلخص بأنه انطلاقا من طبيعة الامبريالية يحدد بوضوح القضية الاساسية بالنسبة للحركة العمالية التي يجب أن تنطلق من زاويتها جميع المهام النظرية والعملية ، أي قضية النضال ضد الكوتسكية ٠ لقد كتب لينين بهذا الصدد يقول : « ان صراعنا ضد الكوتسكية ليس قضية تفصيلية بل هو قضيتنا العامة والاساسية في هذه المرحلة » ٠

سبق ان انطلقنا في بحثنا من نص معين للينين : « الامبريالية والانفصال في الحركة الاشتراكية » ، ولم يكن ذلك مجرد صدفة اذ استهل لينين نصه هذا بما حرفيته : « هل هنالك علاقة بين الامبريالية وبين الانتصار القبيح وغير الشريف الذي حققته الانتهازية (تحت ستار الاشتراكيات القومية) على الحركة

العمالية ؟ هذه هي المسألة الاساسية بالنسبة الى الحركة الاشتراكية المعاصرة »· ليست الامبريالية اذن حدثا وحسب يهم النظرية الاقتصادية ، واذا اعتبرت كذلك ، فنتيجة الانزلاق الى مواقع انحراف ايديولوجي اقتصادي ·

الامبريالية كل معقد تسير فيه المواقع السياسية الى الحتميات الاقتصادية وتفرض على التفكير موقعا محددا هو موقع الصراع الايديولوجي حيث تشترك النظرية والنضال في وحدة عملية لاعادة الخط الثوري القويم الى الحركـة العمالية · ومهما يكن من أمر فان عظمة لينين وتفوقه يرجعان في هذا الصدد الى ربطه بين الامبريالية والانفصال في الحركة الاشتراكية · ان هـذا الربط ينم عن نهج جديد في الممارسة السياسية الثورية نحن اليوم أحوج ما نكون الى استخراج المواقع النظرية التي انطلق منها ·

وفي عودة الى طبيعة عبقرية لينين لا بد لنا من كلمة تلخص هذه المناقشات جميعها · يتميز لينين بأنه أمضى حياته كلها فيمناعة تامةضد فعل الايديولوجية فيه (بالمعنى الذي كان يعطيه ماركس وانجلز لهذه الكلمة في الايديولوجية الالمانية) · لقد حللت روزا لوكسمبورغ الامبريالية تحليلا علميا الا انها لم تستطع متابعة الجهد النظري الى حد تطبيق هذا التحليل على الواقع والظرف الراهن فظلت محاولتها في نطاق الايديولوجية أي في نطاق نظرة مشوهة وناقصة الى الواقع · ونحن جميعنا نحيا في الايديولوجية بمعنى اننا ننظر الى المجـال السياسي من خلال تشويهات تصوراتنا السابقة وأوهامنا الاخلاقية والماورائية أي من خلال المثالية · فنحن ما نزال نفصل النظرية عن التطبيق ببعد واهم ، أي اننا ما نزال في مواقع فويرباخ Feurbach · أما لينين فلم يفصل بينهما أبدا طيلة نضاله المستمر الطويل ضد الانحرافـات الايديولوجيـة بمختلف اتجاهاتها · انه رجل الحركة الواحدة التي تربط دون انفصام بين جميـع مستويات الواقع : المستوى النظري والمستوى الايديولوجي والمستوى السياسي ربطا محكما لا خطأ فيه · ان نظريته في الامبرياليـة ، أيا كانت الحاجة الى اكمالها ، لنحسن فهم المرحلة الراهنة التي نحن فيها من أجل تغييرها ، تبقى هي التربة التي نعيش ونفكر ونعمل عليها ·

ترجمة البير منصور

شهادات

ابراهيم الحريري

الزيارة *

« ثمة دائما وقت للحب ٠٠ »

كان ذلك قبل ستة أشهر ٠ فيما أودعهم قال لي احدهم : لعلك ستعود ٠ ابتسمت ٠ لا أدري ٠ لكن ، اذا قدر لي أن أعود يوما ، فسأصحب معي زوجا من الحمام ، وبضع أغان ٠ فثمة ، رغم كل شيء ، مكان للحمام ، للحب ، للشعر ، للاغانـــي ٠

لعل فؤاد عبر النهر مرة أخرى ورقد هناك ، وعلى شفتيه جديلة حبيبته ٠ لعل قذيفة هاون منفلتة أطاحت بكاسكيت « المطيرجي » وبرأسه الحليق، واغتالت آسراب الحمام في حدقتيه الصغيرتين ٠

أيها الاصدقاء ، لم أعد حتى الان ٠٠ ولكن ، أين أنتم ؟

العملية رقم (....)

المقاتل فؤاد

ـ وهل أخبرتها ؟
ـ ولكنها لم تفهم ، بكت ٠ توسلت وقالت اني مجنون ٠ حدثتني عن بيتنا ٠ عن ركننا الهادىء عند المدفأة ٠ عن أولادنا الذين لم يولدوا بعد ٠ عن مهد بكرنا والكنزة التي ستحيكها له ٠ وعن الحرف الاول الذي سيلثغهوالخطوة الاولى التي سيخطوها ثم يكبو ، وعن الاشعار التي قلنا اننا سنقرؤها سوية ٠

---

* راجع العدد السادس من « مواقف » ٠٠

كان الأمر شاقا علي ، تركت الكلية (بقي لي سنة للتخرج) وحبيبتي التي قالت ان كل شيء بيننا قد انتهى وهي تبكي . عانقت امي . كان الأمر هنا أكثر مشقة . لم أخبرها . قلت لها اني مسافر الى لبنان .

يسمونه فؤاد . لم يكن اسمه . هكذا يسمونه . من العراق . وقد ميزته للوهلة الاولى . وكان في الطريق الى العملية رقم (...)

حين سألته : وهل تحب ؟ نفر غاضبا . وكطفل يقلد الكبار : « لا وقت للحب » .

ـ « ثمة دائما وقت للحب ، ومن يحب جيدا يقاتل جيدا . المقاتل انسان عادي كغيره . يحب ، يكره ، يخاف ، يشتاق ، ويأرق » .

ابتسم . تردد قليلا . ثم اعترف ..

ـ « وأنت » ؟

*

قلت لك انك رائعة فبكيت ، وان عينيك رائعتان وانت تبكين ، وأشجار التين واللوز من حولنا رائعة وانت تبكين ، والشمس رائعة وانت تبكين ، والحياة كلها ، رغم كل شيء ، رغم كل عذاباتها ، رائعة ، وانت تبكين ..

ـ « انك ترى كل شيء رائعا .. »

ـ « وقد دفعت ثمن ذلك غاليا » ..

*

ـ « كتبت لها ؟ » سألته .

ـ « لا .. سأعود في نهاية الصيف . أدخل الكلية كطالب خارجي .اجلب معي كتب الصف الاخير . سأحاول أن أراها . أن أشرح لها . لعلها تفهم . اما أمي ، الامر هنا أكثر مشقة . لقد عرفت . سأحضنها . اقبل سالفيها الاشيبين وعينيها الكليلتين . فتبلل صدري بدموعها . أشد رأسها الى صدري وتشدني اليها بعنف الامومة ولهفها . اعرف . لن تفهم . وستحاول ان تثنيني بالدموع والعويل . ولكن لا مفر .

ـ « بعثي ؟ »

ـ « يساري ؟ »

ـ « كيف ؟ »

ـ « حسنا . عفلق كان كل شيء بالنسبة الينا . الماركسية ضد الارث . وبما هي فلسفة طبقية ، ضد القومية ، وضد وحدة الامة . وكنا ضد الماركسية والماركسيين . البعثية كما مارسناها ، طقس غيبي ، ضرب من الدروشة ، ولكن تجربتنا قادتنا الى الاشتراكية العلمية . وأنا مسرور لذلك . أحس بنفسي الان أعمق وأشمل . الارث ؟ ليس لدى ما أرثه وما أورثه . وحدهم البورجوازيون تؤرقهم مسألة انتقال الثروة والملكية واستمرار امتيازاتهم الطبقية . القومية ؟ الأمة ؟ الوحدة ؟ ولكن وحدة من ؟ ثمة أحزاب وجبهات تسترشد بالاشتراكية العلمية تقود أصلب الكفاحات قومية ضد الامبريالية ، وتبني دولة الأمة ـ الكادحين .

أحس وأنا اتهيأ الان لعبور النهر الى الضفة الأخرى كأني على موعد مع الفيتنامي من جبهة التحرير وهو يتحفز للانتقاض على دانانغ .. انا قومي ، والاشتراكية العلمية اكسبت شعوري القومي بعدا جديدا . كأني جندي في

الفيلق العربي من الجيش العالمي المعادي للامبريالية أليس الامر رائعا ايها الرفيق ؟ »

سألته وهو يتهيأ لعبور النهر الى الضفة الأخرى :

ــ « أتخاف » ؟

فكر قليلا ..

ــ « بالتأكيد ايها الرفيق . ولكن الامر يصبح مع الزمن عاديا . كأني ذاهب لانجاز عمل يومي . »

ــ « تضع في الاحتمال انك قد لا تعود » ؟

ــ « على الأغلب »

ــ « بم تفكر الآن ؟ »

ــ « في نهاية الصيف سأسافر الى بغداد . اقابلها . اشرح لها الامر . أحبها . وأحضن امي .. »

ــ « اذن .. أنت تضع في الاحتمال انك ستعود على الأغلب . »

ابتسم فيما يشبه الاعتذار .

ثم عبر النهر ..

*

ــ « أحب الماء . النهر . الشلال . بودي لو اقف تحته عاريا يطرطشني ، ينزلق على صدري ، يغمرني ينفذ حتى عظامي ، عندما كنت صغيرا ، كنت أسير تحت المطر ساعات وأغطس في البرك الصغيرة .. الماء ــ المطر . رائع . تعالي نبحث عن نبع صغير نلهو عنده .. »

وأنت ايضا رائعة .. ولكن ، لم تبكين ؟

ــ « أحسني عاجزة عن العطاء ، أتركني ، كلا ، لست رائعة ، انك ترى كل شيء رائعا .. »

ــ « أكثر من مرة خيل الي أني مت ، لم يعد لدي ما أعطيه . وفي كل مرة كنت أكتشف انه ثمة في داخلي تتفجر ينابيع جديدة للعطاء ..

أحب المطر .. »

المقاتل . أحمد .

لو لم يكن فدائيا ، لكان يمكن أن يكون موزع ماء في واحدة من مقاهي بغداد العتيقة ، يضع طرف دشداشة في حزامه ويدفع « العرقجين » (*) تارة الى هذه الزاوية من رأسه وتارة الى تلك ... الابريق في يد وكوب الماء في الأخرى ، يدور بين الجالسين وهو يصيح فيما يشبه الغناء « ماي .. ماي » ويصرخ ــ متعمدا ــ عندما يرى زبونا يغط في النوم .

لو لم يكن فدائيا لكان يمكن أن يكون بائع (فشافيش) عند عطفة زقاق بغدادي قديم يقلب الاسياخ على النار ، يعابث الزبائن . يغني .

او كان يمكن أن يكون « مطيرجي » يتسلق سطح الدار عصر كل يوم . يدور مثل الديك بين أقفاص الحمام يعاين « الأزرق » بشغف . يربت على

* الطاقية

رأس « الكلابي » . يداعب « الزاجل » . يشاكس « الطويرني » (*) . يثبت الخرقة السوداء في طرف القصبة الطويلة . ويطلق اسراب الحمام ..

يصفر . يكفر عندما ينفرد طائر من طيوره ويتيه عبر سرب غريب .. « ابن الـ ... سواها آني اعلمك » . يقفز فرحا عندما يفلح في اجتذاب طائر من سرب مجاور .. ويصفر .

ولكنه كان فدائيا ..

رأس حليق . شاربان كثان يغطيان فمه ، يداور الكاسكيت الكاكي بين زاويتي رأسه . يضحك . يفشر كأي عراقي أصيل . يخطط للعملية المقبلة .

كان قائد المجموعة .

ـ « عراقي ؟ مطيرجي ؟ »

ضحك .. « كيف عرفت » ؟ لم ينتظر الجواب . « الرفاق ... و ... و .. و .. اقتحام . الرفاق .. مساندة . الرفاق .. تغطية انسحاب . مفهوم ؟ »

ـ « مفهوم »

ـ « بعثي » ؟ سألته

ـ « مقاوم شعبي سابق . حرس قومي سابق . فدائي ومطيرجي بدون طيور حاليا . الحمام والعصافير لا تمر من هنا . »

ـ « ولكن ، ألست خائفا ؟ »

ـ « الرفيق ... قائد الاقتحام . الرفيق ... قائد الانسحاب » ثم ، ملتفتا الي « معذرة يا رفيق .. لا وقت لدي . سنتحدث فيما بعد ، عندما نعود . »

أردت أن أقول له : ولكنك قد لا تعود الا اني اطبقت شفتي .

.. ثم عبر النهر

*

... وكنت أغرس أوراق التين واللوز بين طيات شعرك ..

ـ « انت تالة عراقية متجددة الخضرة والخصوبة .. عيناك رائعتان . »

« صحيح ؟ يقولون انهما تحبسان الدمع .. مشروع بكاء دائم .. »

ـ« خير ان تبكي من أن تحبسي الدمع .. ابكي ، وسيعود لعينيك صفاؤهما الاول . »

وكنت تبكين ..

ـ « لا أحد يحبني .. »

ـ « لا تحبين نفسك . »

ـ « عندما كنت صغيرة ، كانت تضعني على حجرها . تغني لي . تحكي لي حكايات . وتقول لي اني رائعة وحلوة . لا أحد يحبني . »

ـ « تعلمي كيف تحبين نفسك فتكتشفين الحب في عيون كل الناس . »

ـ « انك تحب الجميع .. كل شيء . »

---

* أسماء أنواع من الطيور

ــ « الحب ولادة ‥ »
ــ « أخاف الحب ٠ »
ــ « الحب فرح ‥ وعبره تبدو الأشياء أجمل ‥ »
غرستك في صدري ، وأنفلت يرفرف ، سرب أزرق من عصافير الفرح صوب الشمس ‥

*

انطلقت قذيفة ــ لحظة صمت ٠ قذيفة ثانية ، فثالثة ٠ واندلعت النار في مركز المراقبة الاسرائيلي ٠ هتف المقاتل أبو محمد : انهـم جماعتنا ٠ يعيش الآر بي جي سفن ٠ بدأت الحفلة يا شباب » ٠ انهمرت من كل صوب زخات من الرصاص البرتقالي ، وكانت المرة الاولى التي أرى فيها للرصاص لونا ٠
ــ « الخطاط ‥ ملعون أبو الخطاط ‥ الله يعينهم »

*

المقاتل احمد ‥ بماذا يفكر الآن ؟ وحبيبته ، لا تزال تحيك الكنزة ؟ و « المطيرجي » ؟ أكيد انه يفشر « ولد الـ ‥‥ آني الكم » ٠

*

ــ « خائف ؟ » سألني صاحبي ذو الوجه الاسمر المحروق ونحن نراقـب اللوحة المتفجرة الملونة أمامنا من على كثيب عال ٠
ــ« قليلا ٠ كنت أتوقع ان أخاف أكثر » ٠
ــ « انها المرة الاولى ٠ ستتعود ذلك فيما بعد »

*

ــ « الا تخاف الموت ؟ » سألتني ، وأنا أنهل الدموع من عينيك ٠
ــ « بلى ‥ ولكني أخاف الوحدة أكثر ، لا تعرفين ماذا يعني ان يكون المرء وحيدا ، منفيا من الداخل ، عاجزا عن الارتباط بالناس ، بالاشياء من حوله »

وعلى رأسك اكليل من أوراق التين واللوز ‥ وانت تبكين ‥ وتغنين ‥ تذكرت أوفيليا ٠

*

ــ « الهوتسر يا رفاق » صرخ ابو محمد محذرا « ملعون ابو الهوتسر » ٠

انبطحنا ٠ مرقت القذيفة تصفر فوق رؤوسنا ٠ تتالت القذائف ٠ التفت الى رفيقي ٠ كان مقرفصا ، متوترا مثل قنفذ ٠ اذن ، الخوف شيء طبيعي ٠ انساني ٠ لست وحدي ٠

كنت أضحك بشكل هستيري ٠ لعله بسبب اكتشافي انني لست وحدي ، او لانني لم أخف كثيرا كما كنت أتوقع في البداية ٠
ــ « لماذا تضحك ؟ سيحسب ابو محمد اننا نسخر منهم »

واستمرت مدافع الهوتسر تومض على الجانب الاخر
ــ « أين تذهب القذائف ؟ »
ــ « في زبوني » وأنا أغالب الضحك ٠

ضحك صاحبي ‥
ــ « ننسحب يا رفاق الى الخندق ٠ » (الموت ما هواش مزحة) ٠

انسحب أبو محمد • انسحبت بعده •

*

ـ « صوتك رائع ـ غني لي ، لم يغن لي أحد من قبل • »
ـ « انك ترى كل شيء رائعا •• » واندغم صوتانا أغنية حزينة
«وجي مالي والي •• »
« وبطـة وصدتني •• »

*

ـ « تغني ؟ » سألني أبو محمد ونحن في الخندق •
ـ « أغنية عراقية قديمة • احبها • لديك سيكارة ؟ »

قدم لي واحدة •
ـ « متزوج ؟ » سألته
ـ •• ولي طفلان • صبي وبنت » •
ـ « يعرفون انك هنا ؟ »
ـ « ليس تماما • أغيب عنهم شهرا • شهرين • ثم أعود وبين يدي أحيانا هدايا صغيرة • البضاعة اليابانية في عمان أرخص من الشام » •
ـ « اشتركت في عمليات هناك ؟ » وأشرت الى الجانب الاخر •
ـ « أكثر من مرة • وفي طريق العودة كنت دائما أفكر بمحمد وبأختـــه وبأمهم وبالهدايا التي سأحملها لهم • »
ـ « ولكنك قد لا تعود •• »
ـ « لهم الله ، والحزب • سيرعاهم • ليس لدينا طريق اخر • عندمـــا طردونا من قريتنا عام ٤٨ ، رفض أبي الاندماج بحياة اللاجئين العادية • لـــم يعمل • وكان يعبر الحدود دائما • يطل على القرية • كان الامر فوق احتماله • مرة ذهب • لم يعد • قتل في عملية فدائية • »
ـ « وكيف تريد لفلسطين أن تكون ؟ »
ـ « دولة عربية » •
ـ « الكويت والسعودية وغيرها أيضا دول عربية • تريد لفلسطينالمستقبل أن تكون من هذا الطراز ؟ »

ارتبك • كان الأمر فوق طاقته •
ـ « ماذا كان يشتغل أبوك ؟ »
ـ « فلاحا »
ـ « في أرضه ؟ »
ـ « ارضنا كانت صغيرة • كان أبي يضطر للعمل أيضا لدى المـــلاك (العبد •••)
ـ « وأين هو الان ، الملاك ؟ »
ـ « كان أول من غادر القرية ، يتأبط مخدة محشوة بالليرات • فتح مخزنا كبيرا في أربد • أحواله عال • »
ـ « وابوك ؟ »
ـ « هناك » لوح بعيدا « قتله الصهاينة » •
ـ و (العبد •••)

كان الامر مرهقا له :

ـ « قلت لك . لديه مخزن كبير في اربد . »
ـ « وابن (العبد ..) ؟ »
ـ « طالب في الجامعة الاميركية » .
ـ « يثرثر عن الثورة والكفاح المسلح بالتأكيد .. وأنت ؟ »
ـ « كما ترى » . ابتسم . فهم .
ـ « أنت حزبي ؟ »
ـ « منذ مدة » .
ـ « وتؤمن بالاشتراكية ؟ »
ـ « حزبنا اشتراكي » .
ـ « كيف تفهم الاشتراكية ؟ »
ـ « جيبي وجيبك كيس واحد » من خلال ابتسامة خجولة .

ضحكت . خفت أن يحسب اني أسخر منه « ضحكت لانك ستكون الخاسر » . ضحك : « ولا يهمك » . وقدم لي سيكارة ثانية . أشعل سيكارته وسحب نفسا عميقا ..

*

.. ثم انشقت عنهم الارض . أحمد ، والمطيرجي ، والاخرون . كان رأس المطيرجي الحليق عاريا .
ـ « أين الكاسكيت ؟ »
ـ « تركتها هناك . هدية لولد الـ ... (فشر) . صفرت فوق رأسي قذيفة هاون . انبطحت . زحفت . وعندما تذكرت الكاسكيت كنت أصبحت بعيدا . لا بأس . ذكرى العملية رقم (...) . »
« عملية ناجحة . لم نفقد أحدا » ، وهو يتفحص رفاقه غامزا :
ـ « بماذا كنت تفكر هناك ؟ »
ـ « بسيكارة .. أنت وأسئلتك ! عندك سيكارة ؟ » .

تمددوا جميعا عند سفح التلة يحرقون اللفائف بنهم . لم يكن ثمة غير الصمت ووهج اللفائف .

ولاول مرة أحسست أن السماء فوقي قريبة مزدحمة بالنجوم .

*

سيدتي . السماء هنا قيد قامة لاتعرف الانحناء والنجوم الصغيرة البراقة متناول اليد . اسأل واحد منهم ، مشدودي القامة ـ يقطف لـك بضعة منها تطرزين بها ثوب عرسك الآتي لا محالة ؟

*

وقال أحدهم : « لنعد .. فالطريق أمامنا طويل » ..

*

.. وفي طريق العودة لملمنا الازهار والفراشات .. لوح لنا الصغار ، حملنا أحدهم . جلسنا تحت اكثر من شجرة لوز نغني . نحلم . نتبادل الهموم والأسرار الصغيرة والذكريات ..
ـ « نلتقي ؟ » .
ـ « غدا . لا تتأخر . لا أطيق الانتظار . »

ولقد انتظرت طويلا ..

وقلتِ انك لم تكوني أنت · ولكن ·· ولكن هل كنت حقا ؟

*

في القاعدة · ظلت عيناي مفتوحتين ·

أحسست يا سيدتي ، وجفناي ينطبقان ، ان انفاسك تدغدغ أسفل رقبتي · قلت : أمد أصابعي المرتجفة تتخلل شعرك الفاحم المنسدل ، تنزع الشوك عن جبينك · تتحسس فمك النازف وعينيك الداميتين ·· ولكن يدي ظلت خشبية شلاء على جنبي · خفت أن لا أجدك · وخيل الي انك رغم جراح صوتك تغنين لي كي أنام « نام يا حبيبي ·· نام يا عيـــوني » تهدهدينني ، وتعدينني من جديد بالحب والفرح والولادة ·

بكيت · ابتسمت · نمت عميقا ·

رؤيا في عمان

في عمان ، بعد يومين ، قرأت مصادفة :

« بلاغ صادر عن قيادة الكفاح المسلح :

بتاريخ ··· قامت المجموعة ··· من قوات الصاعقة (طلائع حرب التحرير الشعبية) بمهاجمة مركز مراقبة للعدو ··· ودمرته ··· »

بلى · كانت السماء فوق رأسي تماما ، وفي عيني النجوم ·

*

·· ولكن ، أين أنتم الآن أيها الاصدقاء ؟

*

« بكرا العيد ·· »

التفت مذهولا : صغار ، دشاديش بيض ، موكب أبيض ناصع لا حد له · أما اعلانات الشهداء المعنونة في شوارع عمان ،فكانت مقفرة ، غادروها الى موكب واحد غير معنون ··

« وبكرا العيد ·· ومنعيّد » *

الى أين أيها الصغار ؟ أنا أيضا لم أعيد من زمان · بي توق ، اشتهاء ، عذاب الى العيد · خذوني معكم ·

« ومندبح بقرة السيّد »

يلوحون بالزهور ، بالشموع ·· « خذوني معكم · أريد أن أعيد » · تطلعت الى مقدمة الموكب · كان العم « هو » يعبث بلحيته الصغيرة الطويلة ، تشع عيناه ببريق الفرح والحنان · هو أيضا كان يلبس دشداشة بيضاء مثل الثلج ·

ـ « عمو هو · لم أعيد من زمان · خذني معك » ·

لم يسمع ·

(*) اهزوجة يرددها الصغار في لبنان عشية الاعياد ·

يلوح بيديه مثل طفل صغير . يضحك . وتحت جبهته العريضة تبرق نجمتان ذكيتان صغيرتان ، ويهزج :

« والسيد مالو بقره »

فيرد عليه الصغار بصوت رفيع حاد :

« مندبح بقرة الشقرا »
ــ « والشقرا ما فيهم دم »
ــ « مندبح بقرة بيت العم »

هوه .. هوه . تتناثر الورود . تمطر السماء « قداح » و « ياسمين » و « جوري » تتطاير البالونات ، حمراء ، زرقاء ، خضراء ، من كل لون .
ــ : عمو هو ! عمو هو ! »

لم يسمعني ..
أدركته . جذبته من دشداشته « عمو هو ! خذني معك للعيد ، اللــه يخليك .. اريد افرح . اريد أعيد » ..

سقطت عيناه علي من فوق ــ كان رأسه في السماء ــ ولمحت فيهما نظرة عتاب .

كانت دشداشتي وسخة .
ــ : عمو هو ! العفو . أركض الى البيت ، أطلب من أمي أن تغسلها لي ، لا أملك غيرها . عمو هو ! لا تتركوني » .
ركضت متقطع الانفاس .
ــ : لج يوم ! أريد أفرح ، أريد أعيد ، أريد دشداشة بيضة ونظيفة » .

لم تكن في الدار . فتشت البيت غرفة غرفــــة . المطبخ . السطح . « لج يوم » !

رميت دشداشتي الوسخة في أرض الدار . خرجت عاريا . « سيفهمني العم هو . سيعطيني دشداشة نظيفة من عنده » .

ركضت . كنت أسمع الاهازيج من بعيد : « بكرا العيد .. »
أركض . والزقاق يطول .. يطول ..
« يا الله ! أين العيد ؟ عمو هو ! »
أركض .. والزقاق معتم .. يطول ..
ثم سمعت خلفي وقع أحذية ثقيلة مسمرة وصرخة : « إلزموه » !
أركض .. والأحذية الثقيلة تزداد اقترابا : « إلزموه » !
« لا ! أريد أفرح . أريد أعيد » ..

ــ : بكرا العيد » من بعيد ..
ــ : الزموه » خلف أذني ..

أركض . أركض « عمو هو ! لخاطر الله ! لا تتركوني ! »
ولكن ، هذا الزقاق المعتم الطويل متى ينتهي ؟

ماذا يقول الشبان الجدد في الجمهورية العربية المتحدة ؟

ثار ويثور نقاش حاد في الفترة الاخيرة حول أدب الشبان في الجمهورية العربية المتحدة ٠٠ هل هو أدب جدير بالمناقشة أم هو نزوات الشباب في الولوع باخر منجزات المدارس الأدبية الاوروبية ؟ ٠٠٠ لماذا يقف الجبل القديم في وجه الجيل الشاب ؟ ٠٠٠ قال لويس عوض في حديث أجراه معه الشاعر أحمد حجازي في روز اليوسف : « أدب الشبان ليس خطيرا ٠٠ وليس عميقا ٠٠ ليس صراع أجيال ٠٠ بل محاولة لهدم الكبار ٠٠ لن أكتب عنهم ٠٠ فلدي أعمال أهم ٠٠ لا أتنبأ بأن تخرج منهم مدرسة أدبية جديدة ٠٠ الجيل السابق ٠٠ يمر بأزمة نفسية ٠٠وسوف يقول أكثر مما قال» ٠٠ وقد تحدثت مع ثلاثة من كتاب القصة الجدد هم : أحمد هاشم الشريف ، نشر مجموعته القصصية الاولى « وجه المدينة » عام ١٩٦٥ ومجموعته الثانية بالاشتراك واسمها « الأحلام ـ الطيور ـ الكرنفال » عام ١٩٦٧ وهو يهيء الان مجموعته الجديدة « العربة ذات الاجراس » ٠ والكاتب الثاني هو عبدالله خيرت صاحب مجموعة « وراء الزجاج » ١٩٦٧ و « غرفة في نهاية الممر » (تحت الطبع) ، أما الثالث فهو الكاتب زهير الشايب الذي نشر نتاجه في مجلات : « الآداب » ، « روز اليوسف » « المساء » ، « المجلة » وله رواية « المطاردون » ٠ طرحت على الكتاب الثلاثة الأسئلة التالية :

١) ما هي تجربتك الفنية في اطار القصة ، وما هو رأيك فيما يثار حول التجديد وعلاقة الجيل الجديد بمن سبقه ؟

٢) في ظل الظروف التي تمر بها أمتنا ، هل ترى اطلاق حرية التعبير أم تقييد هذه الحرية ٠٠ وهل ترى توظيف الفن في خدمة قضايانا ؟

٣) ما هي المشكلات التي تواجهك باعتبارك من الكتاب الجدد ؟

٤) ما رأيك في الدور الذي قام به الأدب قبل النكسة وبعدها ـ اذا آمنت بهذا التقسيم ـ وهل ارتقى الأدب الى مستوى الأحداث التي مرت وتمر بها الأمة ؟

ماذا يحول بيننا وبين التقدم ؟

يقول أحمد هاشم الشريف :

١ ـ أنا لا أكتب عن ايمان بالفن أو قدرته على تغيير الحياة من حولي ، حياتي

أنا أو حياة الآخرين • فوجئت بوضعي ككاتب • ضبطت نفسي في لحظة ، ممسكا بالقلم • وكان ذلك بعد فوات الأوان بينما الحياة من حولي كما هي • وأنا أشهد ما يحدث فيها • واسجل انطباعي عنه لأناس غائبين ربما يأتون في المستقبل • ويحسون بصدق شهادتي • وكيف تطوعت بأمانة للقيام بهـا • دون مقابل • انني اكتب عن قريتي في أقصى الصعيد التي ما زالت كما هي ، لم تتغير منذ عشرين عاما أو أكثر وعن مدرستي الابتدائية في شارع البحر بمدينة سوهاج ، وعن طفولتي في « شبرا » وفي البيوت الآيلة للسقوط ،التي سكنتها مع أسرتي وعن اكتهالي بسرعة غريبة واحساسي بالشيخوخة المبكرة ، ثم عن دراستي التي هجرتها وأحسست بعقمها وهجرت عملي بعدها ،وانسلخت عن تيار الماء الفاسد • ووقفت على ضفة النهر أرقب الجثث المنتفخة وهي تطفو وتتحلل تحت الشمس • كانت هذه الجثث هي كل ما يربطني بالحياة التي حاولت أن أعيشها ، ورفضتها بكل ما أملك من قوة • ثم جلست لأكتب وثيقتي لادانتهـا •

ربما كان من الامانة أن أهجر الكتابة بعد ان اكتشفت عدم جدواها في المجتمع المتخلف الذي أعيش فيه والذي تحكمه علاقات اقطاعية ، حلت مكانها بيروقراطية بشعة وجميع هذه العلاقات تؤدي الى الاستغلال والمرض والجوع • وبينما تعيش مدننا وبالتحديد القاهرة والاسكندرية ، على صورة توحي بالتقدم يعيش الريف المصري متخلفا عن المدن بمئات السنين ، فالزراعة تتم بالأدوات البدائية والفلاح ينام مع الماشية ، داخل الأقبية المظلمة • ربما كانت الأمانة تدعوني الى أن أعمل في الريف بالطب أو التدريس أو ربما كان الأهم من ذلك أن أشارك في صنع رغيف ، بعد ان رأيت بنفسي الأطفال في القرى يحصلون بصعوبة على رغيف « البتاو » • ورأيت نضال الآباء لانتزاع هذا الرغيف من مخالب موظفي الجمعيات التعاونية ، وأغلبهم من المرتشين •

اذن ، كانت الكتابة مفاجأة بالنسبة الي • ربما كانت عادة قديمة سيطرت على سلوكي دون ان أدري ، فما حاجتي اليها في هذه الظروف ، وما أهميـة قيامي بها ؟ ونظرت الى وضعي في مدينة القاهرة واهتماماتي اليومية •واكتشفت أن حياتي محدودة وضيقة بدرجة محزنة ، درجة تدعوني الى الاحساس بالعار • انها جملة واحدة تتألف من هذه المفردات « البيت • الشارع • الاتوبيس • المقهى » وأنا أردد هذه الجملة كل يوم عدة مرات والوكها في فمي وابتلعها ثم أفرزها مع حبات العرق البارد • وقد تأكد احساسي بتفاهة هذه الجملـة ، وانعدام معناها ، عندما سافرت الى «اوروبا» خلال الصيـف الماضي • ورأيت كيف يعيش الانسان حياته على مستويات وابعاد مختلفة وكيف يمكن للانسان أن يكون كتابا كبيرا متعدد الفصول والابواب بدلا من أن يلوك جملة واحدة كل يوم ويفرزها •

وعندما أعدت قراءة ما كتبته خلال السنوات الماضية ، وجدت ما يشبه الانطباعات الحزينة • كتبتها على شكل حوار ، يدور بيني وبين نفسي • انها انطباعات الاحساس بالعجز عن القيام بدور مفيد ، بعمل له ثماره وجدواه • العجز عن الاسهام في التغيير بعد ان رفضت العلاقات الفاسدة وأدنتها • ربما كنت صورة مـن الطبيب « بيفمتش » في قصة « العنبر رقـم ٦ » لانطون تشيكوف • أجلس في بيتي واقرأ الكتب وأنا آكل الخيار المملح وأتحدث عن الألم وأقول ليس هناك ألم • هناك تصور للالم ربما كنت اكتب لأطالب الفلاحين في القرى بعدم تصور الألم ، ألم الجوع والمرض لكي يعيشوا سعداء • فأنا لم

أكن فلاحا في يوم من الأيام · أنا واحد من أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ·

٢ ـ اذا كانت الحضارة هي الأدوات المادية المستخدمة واذا كانت الثقافة هي الخبرات المتوارثة في ضمير الشعب على مدى التاريخ ، فالحقيقة المؤكدة هي ان الفلاح المصري ، ما زال يستعمل الأدوات البدائية في الزراعة ، وفي عقله تراث ثقافي متخلف · هذه هي حدود فهمي للواقع في الريف بصورة مجملة · وهذه كذلك حدود قدراتي ، قدرة الشاهد على وصف ما يحدث حوله للاجيال المقبلة · وعندما تأملت بأدواتي الفنية التي استخدمتها لتوصيل هذه المعاني الى القارىء ، وجدتها ملائمة للحديث الى الذات بالمنولوج بدلا من الحوارالخارجي بيني وبين شخص اخر · وبتداعي الخواطر بدلا من تداعي الأحداث والمواقف التي تبدو من خلال السرد والوصف · وهذه الادوات الفنية مختلفة بالضرورة عن أدوات الجيل الواقعي الذي ساد وسادت أدواته منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ·

٣ ـ أما التجارب السابقة على جيلنا والتي صاحبت تيار الواقعية على استحياء والتي يعتبرها البعض أصولا لنا ، فهي في نظري أصداء للتجارب الفنية في اوربا في ذلك الوقت وليست تفاعلا معبرا عن الواقع خلال هذه الفترة · فلم يحدث أن عاش جيل وهو يتكون الأزمة الخانقة التي عاشها جيلنا ، خيبة الأمل في التغيير ، سقوط الأقنعة عن وجوه بشعة ، وجوه الشعارات واللافتات الحماسية ثم الضياع في واقع مزدوج مزيف ·

٤ ـ كان الجيل القديم قد تشكل وتحددت ملامحه قبل مجيء هذه الفترة لذلك فاني أعتقد ان علاقة جيلنا بالجيل السابق جيل الواقعية هي علاقة مضادة ، علاقة تحاول أن تكسر حدة الواقعية ، حدة التفاصيل الخارجية والتبشير بحلول وآمال تتفاءل أكثر من اللازم وهي تنظر للواقع بسذاجة مفرطة · اننا نبحث عن واقع نفسي جديد ، في محاولة لاكتشاف العامل المهم في أعماقنا والذي يحول بيننا وبين أي تقدم · اننا نقتحم منطقة جديدة لأول مرة في تاريخ الأدب العربي ·· فهل يبدو كلامي مفهوما ؟

٥ ـ قضية الحرية في التعبير تطرح قضية الحرية بوجه عام ، الحرية السياسية ومؤسساتها مثل البرلمانات أو الصحف ·· وهل تملك الضمانات والاستقلال لكي تقوم بمهمتها أم لا ؟

أرى ان حرية الفنان في حياته ، داخل المجتمع ضرورة للتعبير الصحيح عن ذاته · لكن السلطة تحاول دائما أن تنتزع الحرية باسم الخبز أو الوعد بالخبز ويبدو الخطر واضحا عندما تمد السلطة يدها الى منطقة الفن ، وتجعل من الفنان موظفا عندها · وباسم خدمة القضية الاجتماعية والمجتمع الاشتراكي يقوم الفنان بخدمة السلطة ضد الحرية ، ولا يحاول أن يلفت الانظار الى أخطاء التطبيق · وبذلك يتحول الفنان من انسان مبدع خلاق الى موظف دعائي يعبر عن التقارير الحكومية أكثر من تعبيره عن ذاته وينفخ الأبواق النحاسية عند أول اشارة بسيطة من اصبع السلطة ·

٦ ـ هناك مشكلة أساسية تواجه الأدباء الشبان وتتضمن جميع المشكلات وهي صعوبة الاتصال بالمتلقي سواء عن طريق النشر أو عن طريق النقد الذي لا يقوم بمهمته ، في تقديم التجارب الجديدة للمتلقي وتفسيرها له ، باقامة جسر بين الكاتب الجديد والقارىء الجديد الذي تكون بحكم الفترة مغايرا في واقعه النفسي القراء السابقين له ·

أما النشر فتحكمه اعتبارات عديدة ، ليس من بينها جودة العمل الفني بقدر ما تسيطر عليه العلاقات الشخصية والمناسبات السياسية المهمة · يحدث ذلك في مجال الصحف وفي مجال الكتب المطبوعة ولا ينبغي ان نهمل الرقابة المفروضة على النشر ، اذا أردنا أن نرسم صورة صحيحة للموقف · وفي مجال الكلمة المسموعة أو الصورة المرئية يختلط مفهوم الاعلام بمفهوم الفن ، وبذلك تساعد الاجهزة الاعلامية على خلق ذوق مبتذل واشاعته بين الناس ·

٧ ــ أزمة الحرية السياسية ، التي بدت في شكل الرقابة على النشر هي المسؤولة عن غموض الصورة قبل النكسة وبعدها · كانت هناك بعض الأعمال الأدبية التي نبهت الى الأخطاء قبل الهزيمة · لكنها كانت غارقة في ضباب كثيف وملفوفة في مواقف تاريخية ورموز بعيدة ، لم يكن لها مسوغ فني بقدر مـا كانت مظهرا للهروب · وبعد النكسة ظهرت بعض الأعمال التي تتملق حزن الناس في محاولة لنقد ما كان قائما قبل الهزيمة · وهو موقف الهروب نفسه نمارسه الآن كما مارسناه قبل النكسة ، بدلا من مواجهة اللحظة الحاضرة ، بكل تشابكها وتعقيدها ومحاولة تجاوزها بالفن · ويدفعنا ذلك الى الحديث عن أزمة الحرية والرقابة وتدور في الحلقة المفرغة من جديد ·

مشكلتنا هي الكذب

ويقول عبدالله خيرت :

١ ــ أعيش دوما في حلم متصل ، ليس حلم غيبوبة أو هروب ، أحلم أن يعيد الفن ترتيب العالم وتنظيمه ، عالمي أولا بطبيعة الحال · انني أقف كل صباح لأحلق ذقني · أجري على السلم ويدي تمسح تراب الدرابزين · أتذكر وأنـا قرب الباب انني لم أمشط شعري · وأضيع نفسي حقيقه في الاوتوبيسات والشوارع والميادين · هذه التفاهات اليومية ، هذه الأشياء التي لا مسوغ لها ، يسوغها الفن ويجعل لها معنى ·

حين أجلس لاكتب أجدني مثقلا بآلاف المشاعر الغريبة المثبطة ، وأرفض في الوقت نفسه أن يكون عالمي هكذا · هذا هو الشعاع الذي اتشبث به وشيئا فشيئا أعود لنفسي ، أتوافق معها · يصبح لكل شيء معنى · وربما يكون هذا حلما ولكن هذه هي البداية على كل حال ·

ويصبح همي أن أوصل هذه المشاعر الصادقة الى غيري ·· نعم انـنـي حريص على أن أنقل رؤياي الى الآخرين ليكون التوافق كاملا · فلست وحدي الذي يرفض ويتجرع المرارة ، أليس كذلك ؟

وهنا يكون للتجديد معناه الحقيقي · انه ليس تحديا ولا استعراضا · في أوائل هذا القرن كان التجديد هكذا : طه حسين يكتب دراسات ونقدا وتاريخا ويكتب الرواية أيضا فيتحداه العقاد برواية في الوقت الذي يعتقد فيه العقاد ان الرواية أحط أجناس الأدب وان بيتا من الشعر العربي :

وتلفتت عيني فمذ خفيـت   عني الطلول تلفت القلـب

أفضل من رواية من ألف صفحة ، أو بالاحرى أفضل من ألف روايـة وتتقدم السنوات فيطالب العمال والفلاحون بحقهم في الاهتمام · الفنانون في

كل الدنيا يتحدثون عنهم • (كانت الترجمة عن الأدب الروسي نشيطة) فلماذا في مصر : لا ؟ فيدخل الحلبة محمود تيمور ثم محمد صدقي ••• ولكن ماذا أفاد هذا كله ؟

التجديد عند جيلنا وسيلة للوصول الى الناس • هكذا أفهمه • وهكذا أحاول وأصطدم أحيانا بهذه الحقيقة المروعة : ان مشاكل بلادنا دالت بين الناس وبين التعليم فأحاول من جديد أن أصل اليهم •

ثم اكتشف ان بعضنا يفعل هذا • سعدالله ونوس في مسرحيته حفلة سمر من أجل ٥ حزيران في العدد الثالث من « مواقف » • أتوقف عن القراءة لحظة وأرمقه بحسد وبحب • أجد نفسي • هكذا يتحقق الحلم • ان تصل الى الناس ان تتسلل الى وجدانهم بلا ابتذال •

٢ ــ هنا تأتي قيمة الصدق • وتأتي في الوقت نفسه صعوبة ان ينقل الفنان أحاسيسه • ان يحرر طاقاته ، فيصبح الفن فرحة ، عزاءه • تصبح كل الاناشيد التي صدعت الرؤوس منذ عشرين سنة « سنرجع •• سنعود •• سوف •• لا بد » تصبح لغوا يؤكد الواقع يوما بيوم عدم صدقه • ويؤكد في الوقت نفسه بعد من يقولون هذا كله عن أنفسهم ، ويؤكد ان طاقاتهم ، أن فنهم ليس تعبيرا عنهم بقدر ما هو هتاف هزيل لأصحاب المصالح والمنتفعين بنكبة فلسطين•

ان الفن الحقيقي يوضح لنا الطرق ، ينيرها • ان الجديد عند شعراء الأرض المحتلة هو البكاء ، المراثي ، وليس الهتاف الأحمق • من أجل ذلك نتجاوب معهم ونحس أنها أرضنا ونقترب منها • وهذه هي وظيفة الفن في ظروف كهذه • يعمق أحاسيسنا ، يثبت القيمة ، لا يحل مشكلاتنا بالهتاف والتفاؤل وانما يدمي القلوب حزنا فتتحرك لنحرر أرضنا العظيمة ، وطننا لأننا بدونه ــ هذه هي الحقيقة ــ لا شيء •

٣ ــ وبسبب عدم الصدق تجدنا لا ننتبه الى ما يحدث • انظر مثلا الى مهرجان الشعر في القاهرة وبغداد • اذا لم نقل « سنعود » وحسب ، ودون أن نكتشف أن هذه الكلمة لم تفد أحدا •• انظر مثلا الى مشروع السد العالي في مصر • الفنانون يسافرون الى أسوان على حساب الدولة ويصرفون بدلات وهكذا• وهناك يقبعون في الغرف المكيفة الهواء ثم يرجعون • هل ألهم هذا الحدث العظيم شاعرا أو روائيا ؟ ولكنك تسمعهم بعد النكسة يقولون : كنانتوقع • لقد تنبأنا ، فأتذكر على الفور النكتة المشهورة « ادعت محطة الاذاعة انها كانت تقصد قضية الأسلحة الفاسدة حين تذيع أغنية هدى سلطان قتلوني يا بوي قتلوني » •

وهل يمكن التنبؤ والكشف وأنت مغمض العينين والقلب ؟ هل يمكن أن يحدث هذا وأنت تكذب على نفسك كل يوم وأنت تثرثر فتصور أنك حقا تتكلم •••

٤ ــ والمشكلات التي تواجهنا نابعة من هنا ، من الكذب ، هذه الزوبعة من الكذب • كتب أحد النقاد مقالا في ١٦ صفحة ، فقال ان مجموعات القصص التي صدرت في ٦٧ــ١٩٦٨ كانت انعكاسا وكانت تعبيرا عن النكسة ، وبينها مجموعتي ، وهو يعرف أن هذه المجموعات مكدسة في الأدراج من ثلاث سنوات أو أكثر ••• وأن أصحابها كتبوها قبل خمس سنوات أو أكثر • كل هذا ليقول ان النكسة ألهمت الأدباء • وهذه القضية الخاطئة لم يطلب منه الدفاع

عنها • وهو مثلا يقول : ان هذه القصيدة لهذا الشاعر تساوي ديوانا كاملا • ويقول ان الاشخاص ذوات والفن موضوعات • وهكذا • مشكلتنا الكذب لان أحدا لا يقرأ لنا • انني أحمل كتابي لأحد النقاد فيرثي لي ويكتب كلمة مـــا بين ثلاثة سطور وخمسة • فاذا كان حظي حسنا تنبه لهذه الأسطر واحد اخر فيكتب • وهكذا • وفي النهاية نسأل الناقد الذي كتب ١٦ صفحة • ولمـــاذا فعلت هذا وأنت لم تقرأ فيجيب ـ وهذا ما حدث فعلا ـ وهل أنا أحسن من كل الذين كتبوا ؟

والمجلات الأسبوعية تجدها فرصة • وتسأل توفيق الحكيم ، فيقول : أعجبني فلان وفلان • هل تصدق أن توفيق الحكيم يقرأ لنا ؟

ومشكلتنا أننا لا نقول ما نريد في الوقت الذي نحدده نحن • لا وقـت للقراءة والاكتشاف ، فيظل الكتاب خمس سنوات ينتظر ناشرا ، تكون أنت خلال هذه السنوات قد تجاوزت نفسك قطعا • ومع ذلك تقع في التناقض البشع انك متخلف ـ انك لست معنا ـ أليس هذا كتابك ؟

وبدلا من أن تفتح المجلات الأسبوعية صفحاتها لنا لتتخذ من المسألة موضوعا طريفا يستمر خمسة أسابيع مثلا • وتتمثل هذه الطرافة ـ عندهم طبعا ـ في أن يقول أحد النقاد : أنا لا أقرأ للجيل الجديد ، عندي أعمال أهم ، أو يقـول ليست عندكم أصالة • كيف يا مولاي وأنت لم تقرأ ؟ •

وغالبا ما ينتهي الموضوع هكذا :

ـ « ما رأيك في نزار قباني ؟ »

ـ « نرجسي مع المرأة • سادي مع النكسة ، أو العكس • لا أذكر »

وتقف أنت حائرا •

أن تخلص هو أن تنتقد

ويقول زهير الشايب :

بدأت تجربتي مع القصة القصيرة في نهاية عام ١٩٦٣ حين كتبت أولى قصصي القصيرة بهدف تقديم نفسي للناس • فأنا كما أظن كاتب روائي وصلتي بالأدب بدأت بتأليف الروايات ـ بعد أن انصرفت عن الشعر ـ وكنت أؤلفها في الذهن وبهذه الطريقة « ألفت » خمس روايات لم يقدر لي أن أخط سطرا في أي منها • وعندما بدأت تجربة الكتابة تبينت الفارق الهـــائل بين عالم الخيال والفكر الرحب وعالم الكتابة المحدد • توقفت وعندما عاودت المحاولة كتبت رواية كاملة ثم شرعت في أخرى • حتى بدأت صلتي بالوسط الادبي فاتجهت للقصة القصيرة كما قلت • ومن يومها وأنا أكتب القصة القصيرة مع أنني روائي وقد يكون هذا هو السر في أن قصصي القصيرة تتجاوز في معظمها العشرين صفحة • هل لاءمني هذا الشكل فاستقررت فيه • على كل ما زلت في البداية وكثيرا ما أفاجأ بما أكتب وبالشكل الذي كتبت به • والعمل الفني نتـاج معقـد • انـه محصلة قرارات الكاتب وتجاربه الخاصة وتربيته والجو المحيط به وظـروف العالم الذي يعيش فيه وايقاع العصر وقدراته هو وبنائه النفسي والذهني ومدى سيطرته على أدواته • ولان الكتاب يختلفون في ذلك فلن يتشابه كاتب أصيل

مع كاتب اخر والسمة المشتركة بينهما تأتي من ظروف العصر ، ولان الظروف تتغير من جيل لجيل فلن يتشابه جيل مع اخر ٠

وعلى هذا فالتجديد حتمي ٠ والقصة شكل أكثر مرونة من الشعر فلن نصطدم ونحن نجد فيها بمشكلة الشعراء حين ثاروا على الشكل العمودي ٠ولان ظروف الكاتب هي الاخرى تتغير ولان الظروف من حوله تتغير أبدا ومقدرته الفنية تتغير كيفا فالكاتب باستمرار في تطور وهو عندما يبدأ قصة جديدة يبدو كما لو كان يكتب لاول مرة ٠ ومع ذلك فثمة شيء ثابت وراء هذا النتاج المتنوع لكاتب واحد ٠ انه فلسفة ورؤية للكون والحياة ٠ ثم ان ثمة أشياء ثابتة في القصة وذلك ناتج عن استمرار المشكلات التي يعانون منها ٠ وسنظل نكتب عن مشكلات كتب فيها من سبقونا لان هذه المشكلات ما تزال موجودة وربما ، بالقوة نفسها ٠ مشكلة الحرية مثلا ٠ فان انصرفنا عن ذلك بدعوى أن هذه الامور سبق أن عولجت ، فلن نكون عندئذ نكتب عن الناس ٠ ولكن ذلك لايعني استاتيكية الفن ٠ فالجديد كامن في العصر وايقاعه والزاوية التي ينظر بها الناس للمشكلة ٠ والفنان الموهوب هو الذي يستشف هذا كله ويقدمه ٠ لا يمكن اعتساف التجديد اعتسافا وليس من الاصالة أن نتفاخر بأننا نكتب « كما تكتب أوروبا » فلأوروبا كتابها الذين تجد نفسها عندهم كما استمدوا هم أدبهم وفنهم منها ٠ ان أدبا في بلادنا هذا منطلقه لن يكون بأسعد حظا من الغراب الذي صبغ نفسه ليكون حمامة ٠ ولكن لا أدعو للعزلة ، فالفن تجربة الانسان وتراثه المشترك وبقدر ما نثري وجداننا بتجارب الاخرين ، يتسع أفقنا وترحب نظرتنا ونزداد سيطرة على أدواتنا ٠ انما لا أريد أن نكون مسوخا مشوهة لأدباء أوروبا٠ ان كاتبا متوسطا أصيلا أفضل من مسخ شائه لكاتب عملاق ٠ لكننا كثيرا مانلاحظ أن ثمة صدى لتشيكوف أو لكافكا مثلا في انتاجنا ٠ لا عيب في ذلك ما دام التشابه ليس نابعا من المحاكاة بقدر ما هو ناتج عن الظروف التي نحياها ، وليس ذنبنا أن ظروفا تفرز تجارب وأبطالا شبيهين بأمثالهم عند تشيكوف أو أن كثيرا منا يلقى في حياته مصير أبطال كافكا ٠ ألن يفتح هذا الباب على مصراعيه حتى تختلط علينا الامور ٠

الفرق مع ذلك بين الاصالة والمحاكاة قد يتعذر اكتشافه في قصة ، لكنه لا يلبث أن يتعرى مفضوحا في مجموعة قصص ٠ ان قصة واحدة لا تدل على كاتب وهي حتى عندما تكون جيدة ، لا تبشر بموهبة جيدة ٠ وقد ينتج كاتب عدة قصص كل منها في حد ذاتها جيدة ، ومع ذلك فمجموعها لا يدل على كاتب جيد ٠ فالكاتب الجيد لا بد من أن تكون وراءه رؤية متكاملة ٠ قضية ٠ فلسفة ٠ نظرة للكون والحياة ٠ عالم متسق ٠ قضية ملحة ٠ واذا وضعنا هذا في حسابنا فسوف تتهاوى من سماء القصة العربية نجوم لامعة لا من الجيل السابق فحسب ، بل وربما بنسبة أكثر من جيلنا نحن ٠ ها نحن ننقد أنفسنا ٠ فلماذا يغضب الكبار حين يتعرضون لنقد منا ؟ ليس تنازلا منا أن نعترف بفضلهم ودورهم وسوف يكون جحودا منا لو فعلنا ذلك ٠ لكنهم مرحلة ونحن أيضا مرحلة ، كما كان من سبقوهم مرحلة ٠ كلنا مراحل تعبرها القصة العربية لتصل لمرحلة النضج ٠ لقد أثروا الوجدان العربي بالقصة بشكلها المتطور وبذلك أمكن أن تأتي عقول أكثر فهما للقصة انتاجا وتذوقا ٠ ولولا ذلك ما كانت لدينا قصة ٠ ولو شربنا ثقافة الغرب شربا ما انبثقت القصة ناضجة مكتملة فليست القصة نتاجا لثقافة فحسب ٠ كان لا بد أن تمر بمراحل الحياة المعتادة وكانوا هم طورا من أطوار نموها ٠ واذا كان علينا ألا نجحدهم فعليهم أن يتواضعوا ٠ هم

جزء من أصولنا لكنهم ليسوا كل أصولنا ، فنحن مثلهم ـ وربما أكثر ـ نقرأ الادب العالمي ونتتلمذ على ما تتلمذوا هم عليه • ومعذرة ان قلت اننا نحترم الجميع ولكننا لا نقدس أحدا • واذا كان لهم رأي في انتاجنا فلنا كذلك رأي في انتاجهم • وحين يدعون أنهم لا يقرأوننا فلن تنسحب الارض من تحت أقدامنا • نحن لا نكتب من أجلهم ولا نريد منهم اعترافا أو اعجابا • لسنا نغمطهم حقهم ولكنا لسنا على استعداد لقبول وصايتهم •

واذا كان صراع الأجيال وحكاية القديم والجديد من صنع الطبيعة فلماذا يغضب الناس ولماذا تتشبث أوراق الخريف باستماتة بفروعها • وبرغم أننا لا نأسف لخلافنا معهم فلست أفهم صراع الأجيال مع ذلك على أنه تبادل اتهامات أو لمزات • هم يكتبون ونحن نكتب والحكم للزمن • واذا كان الصراع غير متكافىء لان الزمن في صفنا والمستقبل في أحشائنا ، فهم يملكون فرص النشر والانتشار • يخنقون أعمالنا في المكاتب ويرفضون أن نطل بوجوهنا على الناس • وكثيرا ما أشعر تجاههم بالريبة وأكاد أتهمهم بسوء النية عندما أرى ما يختارون نشره للجديد • انهم يختارون ما لا خطر منه عليهم وما يضر بقضية الجديد •وليس من الصدف أن تبدأ جميع المواهب الجادة في مصر في مجلات لبنان • ولا يزعجنا ذلك لاننا نفقد فرص « الوجاهة الاجتماعية والشهرة » ولكن لانه يحال بيننا وبين من نكتب لهم • فنحن ملتزمون بقضايا من حولنا • واذا كنا أمة عريقة واحدة فلا نزال في الواقع دولا وشعوبا تواجه مشكلات محلية مختلفة أو على الاقل متنوعة • وسمة الأدب الأساسية النقد والاحتجاج • ولا يمكن أن يكون الفنان مصفقا حتى داخل النظام الذي يدافع عنه • واخلاص الفنان للنظام يجعله ينتقده • وربما بلا هوادة • لا ينبغي أن تتراكم الأخطار حتى نكتشف يوما أن ما يقال غير ما يحدث • فان النظام نفسه هو الذي يعوق حدوث ما ينادي به • المصفقون ليسوا هم أكثر الناس اخلاصا لما يصفقون له • بل العكس أقرب الى الصحيح • واذا كانت حرية التعبير قد تنحرف مرة لخطأ فهو ليس بالخطأ الذي لا يمكن تلافيه • وعلى العكس من ذلك فتقييد حرية التعبير تؤدي الى كارثة ، وفي غيبة النقد تتراكم الأخطار وطبقات العفن • في كل الظروف لا بد من حرية التعبير • ولسنا في مجال القصة أو الشعر ننشر أسرارا • نحن ننبه للأخطار ولن يجد فيها عدونا جديدا فهو يعرفنا بالفعل كما ينبغي أن نعرفه • ولن تهتم أجهزته بأدبنا لتعرف عدد جيوشنا وأسلحتها أو ميزان المدفوعات ، أو أماكن المصانع التي تتبرع الصحف بنشر صورها دون مناسبة •

وفي ظروف الكبت سيسكت الفن وسينادي الذين يزعجهم ذلك بتوظيفه وعندئذ سنقرأ أدبا يثير الغثيان ونسمع أغاني تثير الضحك • وليس بلا سبب أن أدبنا لم يرق لمستوى أحداثنا على الاطلاق • وفي حدود ما قرأت ، ولست أدعي أنني ملم بكل ما كتب في الوطن العربي ، فانني لم أقرأ أدبا في مستوى نكبة فلسطين ، أو في عظمة بناء السد العالي وتأميم قناة السويس واستقلال الجزائر • لقد فقدت الكلمة المكتوبة سلطاتها لاسباب ليس هنا مجال بحثها • وأرقام توزيع الصحف والكتب تبين الى أي حد انصرف الناس عن القراءة • وهنا شعر الكتاب انهم ضائعون • أغراب في أوطانهم • فصمت الشرفاء أو كادوا أو تاهوا في ضباب المجردات ، واحترف الكثيرون الكتابة للراديو والتلفزيون ، ووظف الفن ، وقيل ما يراد له أن يقال • وفقدت الكلمة المسموعة هي الاخرى ثقة الناس فملأوا ملاعب الكرة يبحثون في مباريات العبث عن أبطالهم ونجومهم • ولكن لان الفن لا بد أن يظل وما دام هناك بالفعل فنانون فلا

بد لهم من « فن » ، ووجد محترفو الكتابة وسيلة لتوظيف الفـــن في دعاوى وقضايا غامضة ملفقة : لينزل الادباء الى الريف ، وليسهموا فـي محـو الامية • هكذا ؟ في بلد يربو جامعيوها على المليون وبها ما يزيد على مائتي الف مدرس ! ولاذ الفن الجيد بالصمت ، وكتب أدب الهزيمـة بالفعل والقـي في الادراج أو نشر بعضه على استحياء وتخف في مجلات لبنان • وعندما خفت الصوت الجيد ارتفعت الاصوات الهزيلة تدعي انها حقيقة الفن وواقعه وواجهنا أزمة مـا يسمى بالتجديد • التجديد الذي لا يعني عند أصحابه الا الانسحاب من المسؤوليـة وايثار السلامة واللعب باللفظ والشكل والبعد عـن أي مضمـون ، بدعوى أن الغموض فلسفة وفن •

وشعر المحافظون أنهم في سلامة فحكاياتهم المريحة المكيفة لن ينازعهم فيها أحد وما الداعي لان تصحو ضمائرهم ـ ان كانت بعد حية ـ فماذا يفعل الجدد غير اللعب بالأشكال والألفاظ ؟

•• واذا كان لكل هذا عذره قبل النكسة فما عذره الآن ؟ سبق أن قلت ان أدب النكسة كتب قبل الهزيمة • أما أولئك الذيـن يتشوفـــون في أمتهم ويركبون موجة السخط •• أولئك الذين أسهمت دواوينهم في افساد الشباب والذين كانت دواوينهم تلاك كقطع الافيون وتوضع تحت الوسائـد والمخدات كالصور العارية سواء بسواء •• هؤلاء يكتبون بالفعل أدب الهزيمة • أو هزيمة الأدب •• ولكنهم للحق ليسوا وحدهم وها هو سيـــل القصـة « الجديدة » والقديمة سواء بسواء جارف في مصر تتحدث عن الرجل الذي يسير على جانبي قدميه ، وتكتشف أن في اليوم ٢٤ ساعة وتشكو من أن دورة الميـاه ليس بهـا تليفون ، وتكتب تقارير شاملة من مقهى على جانب كبيـر مـن الأهميـة •• بينما يظل قدر الأدبالملتزم أن يلزم الأدراج • وحتى لا يحدثالتباس فأدبالمقاومة الذي أشير له ليس هو الصراخ بالنصر والدعوة الساذجة الى التفاؤل الأبله ، ولا هو افتعال الموضوعات وتلفيق القصص لتؤدي فكرة كان ينبغي أن تعالج في مقال • أدب المقاومة هو الأدب المنبه والمطالب بتحرير الانسان صاحب القضية وصاحب المعركة وصاحب البلد ايمانا منه بأن المعتدين في الداخل لا يمكن أن يكونوا أمراء على الحدود بل مدافعين عن الحرية •

(أعد هذه المقابلات الثلاث محمد عز الدين المناصرة •

خواطر عن التراث والالتزام

ان اهتمامي بالتراث نتاج لعلاقة قديمة وعميقة بيني وبين تاريخ مصر ، فمنذ فترة طويلة وأنا اقرأ التاريخ المصري ، خاصة هذه الفترة المحصورة بـين الفتح العربي لمصر وحتى يومنا هذا ، اذ انها تكاد تكون الفترة المدونة يومـا بيوم • نجد فيها تاريخ الشعب المصري ، في حياته ، في امتداده ، في معاناته اليومية ، اننا نجد تاريخ الشعب المصري حارا ، يندفق فيه الدم ، على ورق كتب ابن عبد الحكيم ، والمقريزي ، وابن اياس ، وابن تغري بردى ، والجبرتي، هذا الى جانب التراث الشعبي الخصب • ان الفهم العميق والواعي لتاريـــخ

شعبنا يجعلني أكثر معايشة لحاضره ، وبالتالي لفهمه ، ولادراك العوامل الايجابية المحركة له ، بالذات في ظروف كهذه التي تمر بها مصر الان ، فمنذ يونيه ١٩٦٧ ، ومصر تتعرض لعدو خطير ، الصهيونية ، وربما كان هذا أخطر ما تعرضت له مصر طوال تاريخها ، فهو عدو يهدد حضارتنا ، وحياتنا ، لا يهدد مصر فقط بل الدول العربية أيضا ، وفهم العوامل الايجابية في التاريخ المصري ، وعناصر الاستمرارية في حياة الشعب المصري العظيم ، يجعلنا أكثر قدرة على تدعيم موقفنا تجاه العدو الصهيوني • هناك كثير من المثقفين يرددون آراء تشكك في الطبيعة المحاربة للشعب المصري بحجة أنه شعب حضارة أصلا ، وبناء •• الخ ، لكن هؤلاء لم يكلفوا أنفسهم قراءة كتاب مثل بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ، أو « النجوم الزاهرة » لابن تغري بردي ، أو أحداث ثورة ١٩١٩ • ان القراءة الواعية لهذا التاريخ تجعلنا أكثر قدرة على فهم نفسية هذا المحارب المصري العنيد الذي يقف اليوم على ضفة القنال متحملا أقسى العبء في تحرير أرض محتلة من قبل الاستعمار العالمي • وليس التاريخ وحده هو سبيلنا الى فهم روح الشعب ، انما هو جزء من التراث الذي يحقق هذا ، هناك تراث شعبي عريض من الحكايات والاغاني والشعر والكتب الدينية ، وكتب الأساطير والعجائب ، الى جانب الأدب الرسمي ، والمهم للفنان ان يستخلص كل العوامل الايجابية الكامنة في هذا التراث •

II

كلما التزم الفنان قضايا الانسان ، قضايا الانسان بمفهومها الواسع ، كان أكثر ثورية • ان القصة الثورية هي التي تعبر عن آمال الانسان ، والانسانية ، في حياة تتحقق فيها الرغبات المشروعة والآمال البسيطة للبشر ، التي تتطلع الى عالم خال من الزيف والخداع ، وعلى الفن أن يعبر عن هذا بلغته الخاصة ، فالقصة ليست بيانا سياسيا ، وان كان أثرها أكثر فعالية من هذا ••

III

ان القيم التي ارفضها في مجتمعي ربما لا تكون خاصة بهذا المجتمع وحده ، انما بالمجتمع الانساني عامة • انني أكره بشدة الزيف وكافة أشكاله ، واحاربه على جميع المستويات ، في نفسي ، في أصدقائي ، في معارفي ، في الناس ، القصة هي متنفسي في التعبير عن كرهي هذا ، ولا مجال اخر بالنسبة الى غير الفن للتعبير عن هذا الرفض • وقد ذكرت الزيف على سبيل المثال ، فهناك عديد من القيم الأخرى التي أرفضها ، وأعبر عن رفضي لها أيضا بالقصة ، بالفن ••

(خلاصة أجوبة عن أسئلة)

جمال الغيطاني

حول مهمة الفكر الثوري

لعل ما نعيشه هذه الأيام جزء من مسرحية عاشتها وسوف تعيشها

الأجيال ، فالقديم الذي أفرغ افرازاته واستحال الى مدافع عن قلاعه في توجس حذر ، ربما بالهجوم وربما بكيل النصائح المعادة • والجديد المحموم النهم الذي يلهث حالما باجتياز الزمان والمكان والتماس السبل الى مخرج للكلمة الدفينة الراغبة في الانفلات ــ غير أن الجديد في هذه الحلقة هو تواجد صراع من نوع اخر •• صراع بين فكر متمسك بأهداب ذكرياته ، متوهم بأنها الحق وكل ما عداها باطل ، وفكر اخر اكثر انفتاحا على العالم بشموله يستخلص موقفه من كل عالمه من خلال قراءات متباينة ، وعليه أن يختار في النهاية لنفسه طريقها ، ومن هنا ليس الصراع صراع أجيال ينتهي باندحار القديم وبقاء الحديث •• انه أيضا صراع بين دعاة لفكر متخلف وفكر يحاول قدر جهده ان يشارك الانسان ابداعه ، وان يؤدي لمجتمعه رسالته • ولست أتصور أن يفسح كل القدامى للجيل الجديد مكانا اذ أن من بين القدامى من هو أكثر وعيا وادراكا لمشاكل عصرهم ، ومن ثم قدرة على التعبير عنها من بعض المنتمين الى جيل الشبان ، من المدعين دون ركيزة من فهم متطور لواقع بلدهم • القضية اذن هي الرغبة في الانطلاق بالمجتمع لاجتياز مراحل تخلفه بأزاء رغبة مستميتة في تجميد كل شيء ومن ثم الابقاء على الاشكال القاصرة والكراسي العتيقة لصالحهم • العمر الزمني في اعتقادي ليس مبررا لاطلاق الاحكام ــ ومن هنا لست مع رفض القديم برمته • بل مع محاولة الالمام بكل منجزاته ومحاولة تخطيها • ولست مع رفض الجديد من موقع الاستاذية العتيقة دون محاولة للنزول اليه لفهمه وتفسير مبرراته • هنا يصبح الحوار مثمرا ولا تتحول المسألة الى تبادل اتهامات رخيصة •

بعد نكسة حزيران اتضحت أمور من أهمها أن الفكر الثوري مطالب بأن يفضح كل العناصر الرجعية لافساح المجال لكل الجهود الخلاقة القادرة على العطاء • ولعل قيام الثورات في كل من ليبيا والسودان ترجمة لفكرة أن البلاد العربية لم تهزم الا من داخلها • فتواجد حكام رجعيين وعناصر مشكوك في اخلاصها جعل الضربة ممكنة وربما لو كانت النظم الثورية متماسكة لاستحالت المعركة الى تصفية لوجود اسرائيل كقاعدة استعمارية عنصرية وجسر أخير في المنطقة لكل القوى الامبريالية في العالم المعاصر •

وعلى ضوء ما حدث فانني أتصور أن وقوف المثقف الى جانب المفكر الثوري والدعوة الى التماسك والصمود لاجتياز تلك المرحلة التي يتحتم فيها أن يحارب في جبهتين •• في الداخل لتصفية كل المعوقات وبقايا دعاة الانهزامية وفي مواجهة التحدي الاستعماري أيضا •

واذا كان الفن الذي أعقب النكسة قد اتسم بالرفض فان ذلك كان طبيعيا مع اهتزاز الأحاسيس لعنف الضربة وقسوتها • انه نتاج لاحساس الانسان بالاحباط •• احباط كل آماله في الخروج من عتمة العصور الوسطى ، ومشاركة الانسان المعاصر أزمته أيضا ازاء عالم بدا غير مفهوم على الاطلاق •• لكن الفنان يكتشف في النهاية أن العدمية في غير صالحه ، فثمة أمل يجب أن يبقى برغم كل الصفعات التي يتلقاها •

والقصة القصيرة التي حاولت كتابتها منذ سنة ١٩٦٢ ، دون الخضوع لاي مقاييس مسبقة ، قوبلت بالرفض •• لكن الذي حدث هو انني اكتشفت أن هناك جيلا بأكمله يشاركني على غير علم مني محاولة الخروج بأشكال جديدة ، لعله استكمل امكانياته في العامين الاخيرين •

القصة تستحيل الى عالم قائم بذاته لكنه ناقص · اكتشف بنفسي نقصه وان كنت عاجزا عن تحديد مكانه · بمعنى أن كل ما كتبته لم يصل الى المثال الذي أرتضيه ·· ثمة كلمة لم أقلها بعد · قصة لم تكتب كما أريد رغم ما قد يقال عن تجاربي ·· المسافة بين ما كتبته وما أرجوه تتسع وان كانت الأدوات تزداد تطورا والرؤيا تتسع · الكتابة في لحظة الخلق تستحيل الى كائن ما ان أهم بامساكه واللحاق به حتى يفر من بين أناملي ·· ولو أن المسألة ان يكتفي الفنان بمنجزاته في اطار من سبقوه أو من يشاركونه من أبناء جيله لهان الأمر · الفنان مطارد دائما بالرغبة في تجاوز نفسه أيضا · انه دائما يحس القلق الراغب في اللحاق بمستحيل يخصه ·· رغبته في عطائه المنفرد · عصارته ككائن حي وعالمه المتكامل في حيز عمله الضيق · هذه الأحاسيس وافدة لا أعرف متى ·· لكنها تقف ازائي في كل لحظة كرصد يعطي ويأخذ في اللحظة ذاتها واسأل نفسي ان كانت القصة بشكلها المألوف والمستحدث ثوبا ضيقا في واحد من أجزائه لا أعرفه ؟ ومن هنا أحس التقزز والضيق عندما أسمع واحدا من كتاب جيلي يمتدح عمله ·· أرى فيه التاجر الذي يروج لبضاعة ربما كانت فاسدة ولست أعتقد أن الفنان تاجر ·· انه انسان يعطي دائما للكلمة في مقابل وهم الوصول الى مستحيله الخاص ·

ان الكم الرهيب من الأعمال العظيمة وعبقريات الفن والادب عبر التاريخ، تجعلني أحس بالرعب من أن تكون كلمتي قد قيلت قبلا او ان تكون مستحيلا لن اصل اليه تماما مثل سيزيف · غير أن الفنان يختلف عن سيزيف في أنه في رحلته نحو مستحيله يقول ويقول وربما يكون لكل ما قاله رغم عدم اهتمامه بقيمته ، قيمة ·· ربما كان تصورا مثاليا ، لكنني أحسه وأعيشه وارجوه متخوفا من السقوط في هوة الاحساس بالفشل في داخلي لانني في النهاية مقياس امكانياتي وقدراتي وطاقاتي ·

ولقد سبق أن قلت ان رسالة الفنان هي محاولة الخروج بمجتمعه من دائرة تخلفه الموروث ·· وعندما يطمح الفنان في ذلك فهو مطالب بأن يكتب ما يفهم ، غير انه أيضا مطالب بألا ينزل الى المستوى الرخيص ، وبأن يحقق مستحيله حتى لا يتحول في النهاية الى مجرد داعية رخيص ·· ان يظل فنانا راغبا في تجاوز نفسه ، ويقدم الى قرائه الذين يكتب أساسا لانهم ازاءه بامكانياتهم · تلك هي القضية الاساسية التي نعيش أيامها ·· فاذا كنا نواجه باستنكار من سبقونا فهل نستمر في البحث عن جديد ؟ في اعتقادي نعم ·· انها سلعة جديدة وافدة من صلب الارض تبحث عن مستهلك وسوف تجده لانها تعبر عنه ولانها في النهاية رسالة لاخذه ليرى العالم بأسره ·

(خلاصة أجوبة عن أسئلة)

احمد الشيخ

وثائق

نقد الفكر الديني

قيل ان ردة الفعل التي قامت ضد كتاب صادق العظم « نقد الفكر الديني » ، هي نتيجة ضغط قامت به جماعة يهمها في الدرجة الاولى استغلال الجمهور اللبناني باسم الدين ، لكي تحافظ على نفوذها ، أو تكتسب نفوذا جديدا ، ولكي تبقي الجمهور حيث هو . وسواء صح هذا القول أم لم يصح ، فان هذه الردة لا تشرف المؤمن ولا الايمان الديني .

انها ، أولا ، تسيء الى كرامة الشخص الانساني وحريته ، في بحثه عن الحقيقة . خصوصا أنها لا تنطلق من القاعدة الاسلامية « وجادلهم بالتي هي أحسن » ، وانما تنطلق من الصاق التهم مسبقا وكيلها جزافا .

وهي ، ثانيا ، تعتبر قضية فكرية بحتة عملا تخريبيا وخطة هدامة مبيتة . وفي هذا ما يجسد العقلية السائدة الهرمة التي تشوه الانسان العربي ، والحياة العربية ، وأعني بها عقلية العجز عن مواجهة الفكر بالفكر ، والبحث بالبحث ، العقلية التي تجابه الفكر بالسلطوية السياسية وغير السياسية ، وأساليبها العنفية القمعية ، مما يذكر بعهود محاكم التفتيش .

وتضمر هذه الردة ، ثالثا ، نبرة الوصاية على الدين الاسلامي الذي لا يقول الا بوصاية الحرية و « عدم الاكراه » . أفلا يفترض ، اذن ، ادعاء مثل هذه الوصاية ، أن للوصي قدرة تفوق قدرة الدين نفسه على فرض نفسه بالاقناع ؟

ان نقد الفكر الديني ، كما تجلى في كتاب صادق العظم لم ينكر التجربة الدينية بحد ذاتها ، ولم ينكر أي أساس أو ركن من أركان الدين . وهو ، في ذلك ، نقد اصلاحي . وما نحتاج اليه ، في رأيي ، هو النقد الثوري الذي يتناول الدين كنظرة الى الحياة والانسان والكون . واذا كان النقد الاصلاحي ما يزال يلاقي ما لاقاه صادق العظم ، فماذا يحدث لمن يمارس النقد الثوري ؟

نعرف جميعا أن القضية التي أثارها كتاب صادق العظم ، أثيرت في تاريخنا الفلسفي . ولقد جابهها أسلافنا ، كل على طريقته ، وكانت حياة بعضهم ، أحيانا ، ثمنا لها . ولولا هذه المجابهة ، بالفلسفة والعلم حينا وبالتصوف أحايين، لما كان لنا هذا التراث الفكري الزاخر . ان عودتها اليوم الى الظهور في شكلها الذي عرفناه جميعا ، تشير من جهة الى مدى تخلفنا حتى عن أسلافنا ، وتطرح من جهة ثانية هذا السؤال : الى أي حد نحن قادرون كشعب لا على الصمود أمام الخطر الخارجي وحسب ، بل كذلك على الصمود أمام البحث عن الحقيقة والجهر بها ؟ الى أي حد نحن شعب هش سريع الانكسار في أفكارنا ومعتقداتنا ووجودنا ؟ ولئن كشف هذا السؤال مدى

الظلام الذي يخيم على حياتنا وعقلنا ، فانه يؤكد أن الشعب الذي لا يجرؤ على مجابهة أفكاره ومعتقداته ونقدها ، لا يمكن أن يجرؤ على مجابهة أي خطر يداهمه من الخارج .

لكن هناك بالمقابل ظاهرة يحياها كل منا هي أن الأجيال الطالعة عازفة ، بشكل عام عن الدين . هذا العزوف يتراوح بين اللامبالاة أي الموقف السلبي والالحاد ، أي الموقف الايجابي . وهي ظاهرة ذات دلالة عظيمة في مجتمع كلبنان يقوم في أساسه على الدين . لا أريد هنا أن أرد هذه الظاهرة الى أسبابها في الدين أو غيره ، وانما أريد ان أشير الى أن الدين أفرغ ، بعوامل كثيرة ، مما كان يتضمن في نشأته من عناصر الثورة والتقدم . وهكذا تحول الى سلطة سياسية واجتماعية وثقافية ، أي أصبح قوة مادية تؤثر في الحياة تأثيرا سلبيا فتحول بينه وبين التقدم . ومن هنا ، كما يخيل الي ، هذا العزوف عن الدين لدى الأجيال الطالعة وعن جميع ما يمثله — وهو عزوف يصل الى حدود الرفض . وهذا الرفض أصبح طاقة حية في بنية المجتمع لا يمكن أن تقهر . انها كالطوفان الذي يهدر تحت قشرة الأرض ، اذ غلب أو كبت هنا واليوم ، تفجر هناك غدا أو بعده . وطبيعي أن من حق المؤمن ان يدافع عن ايمانه . والأسلحة ، في ذلك لا تعوزه . انه يجدها في سيطرة التقليد ويجدها كذلك في السلطة نفسها ، فالقضية اذن ليست قضية المؤمن الذي ما يزال يحافظ على موروثاته ، الدينية وغير الدينية . وانما القضية هي قضية الأشخاص الذين يرفضون الموروث الديني وغير الديني . هل يحق لهؤلاء أن يكون لهم مكان في المجتمع العربي ؟ هل يحق لي أن أكون ملحدا ؟ واذا كان يحق لي ، فالى أي حد يحق لي التعبير عن الحادي ؟ تلك هي المشكلة ؟ واذا لم يكن يحق لي ، فماذا يعني وجودي أنا الملحد في مجتمع يرفض وجودي ؟ وماذا يعني بالتالي وجود هذا المجتمع بالذات ؟ وأي مكان له في عالم الانسان والفكر والتقدم ؟

هذه الأسئلة تقودنا الى أسئلة مشابهة — لكنها أقرب الى جوهر القضية . هل الدين نفق أم أفق ؟ هل يمكن أن يكون في المجتمع ايمان حي ، دون أن يسمح هذا الايمان بما يناقضه ، أي بالكفر أو بالالحاد ؟ هل المؤمن الحق هو الذي يعتبر دينه هشا لا يتقبل أي نقد ، فيغلق الأفواه ويستعدي السلطة في سبيل المحافظة عليه ، وهكذا يصونه من الخارج بالقوة ، أم المؤمن الحق هو الذي يقبل الدعوة الى الالحاد قبوله الدعوة الى الايمان — وبهذا يحفظ الدين بقوة الدين ذاته ، لا بقوة السيف ؟ ألا تبدو ، من هذه الناحية ، ان ردة الفعل ضد كتاب صادق العظم ، تصور لنا الدين سجنا والله سجانا ؟ ألا يبدو كذلك أن أبشع وأحط أنواع الطغيان هو الطغيان الذي يمارس باسم الدين ، لانه لا يشوه الجوهر الانساني وحسب ، وانما يشوه كذلك الله نفسه ؟ هل من واجب المؤمن أن يحافظ على تلك الصورة ، أم أن عليه أن يعتبر الدين ، هو كذلك ، كالفكر — أفقا مفتوحا ، أي بحثا لا نهاية له عن الحقيقة ، ولكل أن يعود من هذا البحث بما يشاء باليقين أو بالشك ، بالطمأنينة أو بالقلق ، بالايمان أو بالالحاد ؟

ان ردة الفعل ضد كتاب صادق العظم لتبدو في ضوء هذا كله ، ظاهرة خطيرة تصور العرب ، في النصف الثاني من القرن العشرين ، شعبا يرفض الحرية ، ويحتقر العقل ، وينغلق على نفسه في ظلامية خانقة هي وحدها التي مهدت وتمهد أفضل السبل لاعداء العرب من الخارج وتجعل العرب ، في الداخل ، دون مستوى قضيتهم الكبرى .

اذا كنا نؤمن حقا ، كمسلمين ، بالمبدأ الاسلامي « لا اكراه في الدين » ، فاننا لا بد من أن نقبل بوجود انسان غير متدين . اذا كان من الجوهري ، بتعبير اخر ، أن نؤمن حقا بحرية الايمان ، فمن الجوهري أن نؤمن حقا بحرية الالحاد . فلا يضير الدين أن يكون هناك من يرفضه أو يخرج عليه ، وانما يضيره أن يحمله عقل مغلق ، مقيد .

غير أن ما يدعو الى التفاؤل في انتصار الحرية والعقل في المجتمع العربي هو وقوف معظم المفكرين والمثقفين الى جانب صادق العظم وآرائه ، ووقوف الجيل الطالع ، كذلك ، وبخاصة الطلاب .

أدونيس

نثبت في الصفحات التالية نصوص الاستجواب والقرار الظني ومذكرة الدفاع ، وبعض النماذج من ردود الفعل المناهضة والمؤيدة ٠

نص محضر الاستجواب مع صادق جلال العظم

في الساعة ٩٫٢٠ صباحا من يوم الخميس الواقع في ٨- ١- ١٩٧٠ حضر أمامنا في دائرتنا نحن عاطف فياض قاضي التحقيق لدى محكمة بيروت الاستئنافية المدعى عليه المبينة هويته فيما يلي وبحضور السيد عبد اللطيف هاشم كاتب الضبط صرح المدعى عليه الدكتور صادق العظم ابن جلال مؤيد العظم والدته نزيهة عمره ٣٥ من أهالي دمشق ٠ مقيم في بيروت المزرعة محلة البستاني بملك والده مهنته أديب ٠ (متأهل) (متعلم) تابعيته سوري ٠ اطلع المدعى عليه على الافعال المنسوبة اليه وأفهم أن من حقه الا يجيب الا بحضور محام ، فأجاب :

بحضور وكيله المحامي جوزيف مغيزل بموجب وكالة مبرزة في الملف ٠

س - اسند اليك انه في بيروت وبتاريخ لم يمر عليه الزمن اقدمت على نشر كتاب بعنوان « نقد الفكر الديني » من شأنه اثارة النعرات الطائفية والتحريض عليها فماذا تقول بذلك ؟

ج - أنا لا أرمي من وراء تأليفي لكتاب « نقد الفكر الديني » التعرض للدين وأنا أحترم الاديان كمصدر للمعتقدات للمواطنين والافراد سيما وقد لعبت الاديان دورا اصلاحيا في تاريخ الحضارة ولم أتعرض أنا الى جوهر الدين أصلا ولكني ناقشت بعض اراء مفكرين معاصرين مسيحيين ومسلمين باعتبارهم أنهم ليسوا من المعصومين ٠ ومن هنا كان عنوان كتابي « نقد الفكر الديني » وليس نقدا للدين وافيدكم ان مضمون هذا الكتاب قد نشر في السابق في بعض المجلات الفكرية والعلمية منذ عام ١٩٦٥ كما اني القيت معظمها كمحاضرات في سنة ١٩٦٥ و١٩٦٦ وذلك في النادي الثقافي العربي كما القيت أيضا هذه المحاضرات في دمشق وقد نوقشت من قبل الغير على صفحات المجلات والصحف ، وقد جرى طبع هذا الكتاب منذ شهر ونشر ووضع في المكتبات ومجمله كناية عن مجموعة محاضرات القيت ونشرت في الصحف بصورة علنية ويتبين لكم من مضمون هذا الكتاب انه نشرت به المناقشات التي حصلت حول المحاضرات والمواضيع وذكرت أيضا تاريخ القاء هذه المحاضرات ومكان ذلك وتاريخ النشر والصحيفة أو المجلة التي نشرت هذه المقالات وأنا أقصد من نشر كتابي نقد الفكر الديني القديم وبعث الروح العلمية الصحيحة كجزء من مجهود التجديد العام في المجتمع العربي الحديث ٠

س - ورد في الصفحة «٣٦» من كتابك ما يفيد التهكم على العقيدة الاسلامية المتضمنة بان الله خلق آدم من طين وانه أمر الملائكة أن يسجدوا له الا ابليس مما دعا الله الى طرده من الجنة وقد رويت هذه الواقعة بشكل تهكمي وسخري الامر الذي من شأنه التحريض على اثارة النعرات الطائفية ، فماذا تقول بذلك ؟

ج - أنا لا أقصد بذلك السخرية ، بل أنا توجهت بالسؤال الى جماعة القائلين بالتوافق بين الفكر الديني والفكر العلمي ليعطوني جوابا صريحا حول رأيهم في هذه التساؤلات وهي تساؤلات مطروحة في ذهن كل طالب جامعي ٠ ولم يكن القصد من ذلك التهكم والسخرية وانما وضعت بصيغة السؤال طلبا للجواب لنسترشد به ٠ وهناك طائفة من المفكرين المسلمين الذين يقولون بأن القصص القرآني مثل ابليس وآدم يجب أن تفهم فهما رمزيا في العصر الحديث والا تفهم فهما حرفيا وانا من أصحاب هذا الرأي ، وان الذي سبقني الى ذلك الشيخ علي عبد الرازق في تقسيمه بين العقائد الاساسية في الاسلام الايمان بالله وملائكته ، وغير ذلك ، وبين ما رواه القرآن من قصص جاءت في الكتب المقدسة السابقة والتي يجوز فهمها فهما رمزيا وليس حرفيا

في هذا العصر لان لها هدفا اخلاقيا ، والعظة والعبرة من ورائها وليس معناها الحرفي ولا يوجد في طرح هذه التساؤلات أية اثارة لطائفة على طائفة أو فئة على فئة أو أي حض لناس على ناس وانما طلب الحقيقة في الاجوبة ٠

س ـ ورد في الصفحة «٦٠ و ٦١ » ما يفيد التشديد المقصود باظهار الخلاف بين الديانتين المسيحية والاسلامية وعلى الاخص الاظهار الى حيز الوجود ما يفيد استحالة التوفيق بين المعتقدات الدينية الاسلامية والمسيحية في لبنان وعلى الاخص في المعتقدات اللاهوتية التي تعتبر في نظر كل دين من أصوله التي لا يمكن المناقشة في وجودها فما هي غايتك من ذلك وما هي الاسباب الداعية لذكر هذه الوقائع في مثل هذا الوقت بالذات ؟

ج ـ أنا لا أرمي للنيل من صحة المعتقدات ولا أنوي ابراز الخلافات الجوهرية ولكني طلبت من رجال الفكر الديني السعي الى التوفيق بين مختلف الطوائف على صعيد المواطنة المشتركة مع الحفاظ على المعتقد الديني لكل فرد وطائفة كموقف تابع لهما ومستقل عن المصلحة المشتركة التي تجمع بين المواطنين كمواطنين في لبنان كما ان ما ورد في الصفحتين ٦٠ و٦١ حول الفوارق بين الدين المسيحي والاسلامي ليس الا اقرارا هادئا ورصينا بما هو واقع فعلا وبما يعرفه كل انسان وكل مواطن والهدف من ذكر هذا الشيء لم يكن قطعا الاثارة أو احداث الهياج وانما دعوة الى الانطلاق من الواقع لمعرفة الواقع بوضوح لنسج علاقات مواطنة بين الطوائف بحيث لا يكون المعتقد الديني مصدرا للتفرقة ٠

س ـ تبين انك انت ادليت براي صريح في الصفحة «٢٩» من كتابك حول استحالة التوفيق بين الاسلام والمسيحية وقلت بالحرف الواحد « تقتضي الامانة بان نعترف بوجود خلافات لاهوتية جذرية وتناقضات عقائدية عميقة بين الاسلام والمسيحية التي لا يمكن تجاوزها بصيغ طوباوية غامضة » ٠ ولذلك تجنب المدققون المشتركون في الحوار اية اشارة واقعية وجدية الى المقابلة اللاهوتية البحت ونتائجها بينما صرحت امامنا الان ان الغاية من سرد الخلافات في المعتقدات الاسلامية والمسيحية هي الطلب من رجال الفكر الديني السعي الى التوفيق ، الا ترى من اعطاء رايك الصريح الجازم هذا انك حرضت على النزاع بين الطوائف وقد ينتج اثارة للنعرات المذهبية بينها ؟

ج ـ ان الامانة تقضي بالاعتراف بوجود خلافات لاهوتية جذرية بين المعتقد الاسلامي والمعتقد المسيحي وأي عالم في الفقه الاسلامي واللاهوتي المسيحي لا بد وان يشعر بهذا الشيء ٠ وقد جاءت هذه الفقرة في الكتاب ليست على سبيل القول بأن أحد الطرفين على حق والاخر على باطل مما لو قيل قد يؤدي الى سوء التفسير وتقول هذه الفقرة من الكتاب ص ٥٩ و ٦٠ بتجاوز الخلافات ولكن ترفض أن يكون هذا التجاوز عن طريق سير طوباوية وغامضة كما فعل جماعة الحوار الاسلامي المسيحي ٠ وبالمقابل فاني اقترحت على صفحة ٦١ بأن تجاوز الخلافات اللاهوتية الى وحدة علاقات المواطنة بالقول « كما يعني النظر الى المعتقد الديني على أنه مسألة شخصية وذاتية متروكة لاختيار الفرد وفقا لمزاجه وقناعته ٠ لذلك من الاصلح والانسب ان يتم التفاهم والحوار بين اللبنانيين على أساس علاقات المواطنة والمصلحة المشتركة بدلا من أن يتم على أساس الانتماء الطائفي والتصنيف الديني » ٠ ولا أعتقد أن في هذه الدعوة أي خطر على اثارة نعرات مذهبية بل هي الدعوة التي يقول بها يوميا كل مواطن لبناني واع مخلص ٠

س ـ طالما انك ذكرت في كتابك انه يوجد خلافات جذرية وتناقضات عقائدية عميقة بين الاسلام والمسيحية فما يضير المواطنين المسيحيين والمسلمين بالعيش معا رغم هذه الفوارق والخلافات الجذرية ؟

ج ـ لا يضير اللبنانيين شيء بالعيش معا ولو كان هناك اختلافات بين عقائدهم الدينية وهذه الحال هي واقعة في كثير من الدول الحديثة التي تحتوي على أكثر من طائفة دينية واحدة ولكن المهم هو الا يصبح المعتقد الديني هو الاساس الوحيد في اللقاء بين المواطنين لان ذلك قد يؤدي

الى تفرقة لا تقرها مبادىء المواطنة والمصلحة الوطنية المشتركة بغض النظر عن الانتماء الطائفي بترك المجال لسكان هذه الفرق أو المتبقي منها او الجديد منها في ابداء وجهة نظرها والاجتهاد وفقا لقناعاتها ٠

س – طالما انك تعتبر ان الدين الاسلامي والمسيحي يعتبر ان المسلم او المسيحي الذي ينتقد المعتقدات الدينية الاصلية يعتبر كافرا وطالما انك ذكرت في كتابك وجود خلافات جذرية وتناقضات عميقة بين الاسلام والمسيحية لجهة الخطيئة الاصلية وعقيدة التثليث المقدسة وتجسيد المسيح وصلبه وبعثه من الموت وقيامه من الموت بقولك « ان الاسلام يرفض هذه العقائد ويعتبر بعضها كفرا » وقد تساءلت : هل ان الله الذي يتكون من الآب والابن والروح القدس والذي تجسد على الارض والذي ارسل ابنه لخلاص البشر هو أيضا الله الذي يعبده المسلمون » واستنتجت من ذلك ان الله الذي يعبده المسلمون هو غير الله الذي يعبده المسيحيون افلا تعتبر ان هذه الامور التي بحثتها يقصد منها او ينتج عنها على الاقل اثارة النعرات المذهبية او الحض على النزاع بين الطوائف ؟

ج – ان القصد بالتأكيد ليس الحض على أي نزاع مذهبي في لبنان لان صيغة المقاطع في الكتاب ليست صيغة تحريضية باي شكل من الاشكال وانما هي صيغة تساؤل مطروح في الاذهان وموجه لبعض أصحاب الرأي ليجيبوني عليه بهدوء ٠ أما ان ينتج عن ذلك فرقة طائفية في البلد فان تقديري كان بأن لبنان وصل الى درجة من النضج والانفتاح الذهني الذي لا يؤدي الى فرقة طائفية والواقع هو أنه بعد نشر الكتاب لم يحدث أن دخلت طائفة في نزاع مع طائفة اخرى حوله ٠

س – ورد في الصفحة « ١٢٠ و ١٢٤ » من كتابك ما يفيد بانك تعرضت الى الذات الالهية ونسبت الى الله صيغة مكر قلت بان ابليس **كان من المقربين** بين الملائكة « **وكان له شان عظيم الى ان عصى أمر ربه فطرد من الجنة ولعنه لعنة ابدية وخلصت من هذا القول الى وصف الله بالمكر واستطردت في بحثك** عن الموضوع نفسه **ان الله قرر منذ الازل من هم أصحاب الجنة ومن هم أصحاب النار وانه انزل الكتب** وعين الحلال والحرام وهذا يعني بحسب **قوله ان ارسال الرسل وانزال الكتب والتمييز** بين الحلال والحرام **ليست الا وسائط** من مكره **لتنفيذ احكام مشيئته في عباده افلا تعتبر ان سرد** هذه الوقائع من شانه جرح شعور المعتقد الاسلامي **والهزء من تعاليمه وان من شان ذلك بذر بذور الشقاق والتنافر بين الطوائف مما يعرض سلامة الامة للخطر ؟**

ج – كلا ، لان لا علاقة للطوائف المختلطة في لبنان بهذه المسالة باعتبارها مسالة في الفقه الاسلامي المحض ، وتناقش بين علماء ومفكرين مسلمين وان كل ما قلته عن صفة المكر المنسوبة الى الله ليست من عندي وانما مسنودة الى مراجع اسلامية اساسية مبينة في كتابي وأنا أقصد بالمكر استعارة لغوية كما جاء تفسيرها في تفسير الطبري وفي كتابات أبو طالب المكي استاذ الغزالي وكما فسرها الامام عز الدين المقدسي وكل ذلك مبين في كتابي ٠

وكذلك ان الرأي المعروض حول انزال الكتب وارسال الرسل هو الرأي المعروض للفرقة الجبرية في الاسلام التي تقول : « بأن الله صانع كل شيء بمشيئة من عنده تخفى أحيانا على العباد » ومن هنا يتبين وكان في المشيئة الالهية مكرا على حد قول المذهب الجبري ٠

س – ورد في الصفحة ١٧٠ من كتابك و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ من كتابك أيضا ما يفيد السخرية بتصريحات رجال الاكليروس بمعجزة ظهور العذراء وقد وصفت المستوى الفكري والثقافي والعلمي لرجال الاكليروس في الكنيسة القبطية المصرية بالانخفاض الكبير وعدم اتصافه بالرصانة وان كل ما قيل حول صور العذراء لا أساس له من الصحة على الاطلاق ٠ افلا تعتبر ان بهذا النقد والتشكيك في كل ما قيل حول العذراء قد حاولت التعرض للمسيحية من جراء تعرضك لمكانة العذراء وقدسيتها وانه بالتالي قصدت اثارة نعرات مذهبية او عنصرية في لبنان ؟

ج – كلا لم أقصد اثارة أية نعرات على الاطلاق لانني لم أتعرض الى عقائد رجال الدين في

الكنيسة القبطية وانما الى مستواهم الفكري والثقافي • والمستوى الثقافي لاي انسان كان رجل دين او غيره قابل للنقد والتقييم كما انني لم أتعرض للعذراء كعقيدة دينية في الدين المسيحي انما تعرضت الى ما كتب حول ظاهرة ضوئية حدثت او قيل انها حدثت في كنيسة الزيتون وتعرضت الى مغازيها السياسية وغيرها •

س — ورد في كتابك في الصفحة ١٨٥ و ١٩٦ ما يفيد عن التشكيك في الرسالة المسيحية ومعتقداتها وذكرت ان العالم الحديث يمكنه الاستغناء عن تلك الرسالة وقد ذكرت رأيك الصريح بان قلت ان الاخلاص والامانة الفكرية يفرضان علينا اما التخلص من كل هذه العقائد المسيحية جملة وتفصيلا واما القبول بها على علاتها • افلا تعتبر ان في هذا الامر تجريحا لشعور المسيحية بما يعتقدون به وان من شان ذلك الحض على النزاع بين الطوائف واثارة النعرات الطائفية والمذهبية في لبنـــان ؟

ج — كلا • لان الموضوع لا يتعلق بالنزاع بين الطوائف او بالنزاع المسيحي الاوروبي فقط ، كما أن القول الاول المدرج اعلاه حول سير الامور في مجراها بدون الله هو نقل حرفي لما قاله العالم اللاهوتي الالماني « برنهفر » كما ورد على لسان المحاضر الذي أناقشه هو « بيرت هوفت » وقد جاء هذا الكلام على سبيل طرح المشكلة الاساسية كما تواجهها الكنيسة في المجتمع الاوروبي العلماني الحديث ولم يثر هذا الكلام أي اعتراض من قبل اي مسيحي في لبنان على حد علمي • اما القول الثاني حول التخلص من العقائد او القبول بها على علاتها فقد جاء ردا على مفكر اوروبي اخر هو الاب « كونغ» في محاولاته تنقية اللاهوت المسيحي لجعله ملائما لمتطلبات العصر العلماني الحديث • وقصدي في ذلك بانه كان تناقضا في تحديد ما يجوز للمسيحي أن يتنازل عنه من عقيدته وما لا يجوز له ان يتنازل عنه ليكون منسجما مع العصر الحديث • والنقد ليس موجها للعقائد وانما لرأي مفكر حول العقائد الدينية والباعث على هذا النقد هو قول مشهور للعلامة الاسلامي سيد قطب « خذوا الاسلام جملة او دعوة » • ولم يثر هذا الموضوع في لبنان أي جدل على الاطلاق •

س — هل لك ما تقوله خلاف ذلك ؟

ج — كـــلا •

تليت عليه افادته فصدقها ووقعها •

نص محضر الاستجواب مع بشير الداعوق

في الساعة العاشرة من يوم السبت الواقع في ١٠—١—١٩٧٠ حضر أمامنا في قصر العدل نحن عاطف فياض قاضي التحقيق لدى محكمة بيروت الاستئنافية المدعى عليه المبينة هويته فيما يلـي وبحضور السيد عفيف ابو كروم كاتب الضبط صرح المدعى عليه انه يدعى بشير ابن جميـــل الداعوق والدته ساره عمره ٣٨ من أهالي بيروت مقيم في بيروت محلة ميناء الحصن بملكه •مهنته ناشر متاهل ، متعلم تابعيته لبناني ، غير محكوم ، اطلع المدعى عليه على الافعال المنسوبة اليـــه وافهم ان من حقه الا يجيب الا بحضور محام ، فأجاب :

بحضور وكيله الاستاذ جوزف مغيزل

س — اسند اليك انك اقدمت على نشر كتاب « نقد الفكر الديني » الذي من شانه اثـــارة النعرات الطائفية ، وذلك في بيروت وبتاريخ لم يمر عليه الزمن فماذا تقول ؟

ج — انني صاحب « دار الطليعة للطباعة والنشر » أي انني رئيس مجلس ادارة هذه الدار وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٩٦٩ نشرت هذا الكتاب (أي جرى طبعه) بموجب عقد بيني وبـين

المؤلف ولا أذكر فيما اذا كان هذا العقد خطيا أم لا ، بل أرجح أنه شفوي على أن تكون حصة المؤلف من الارباح ١٢ ٪ من ثمن المبيع وعرض هذا الكتاب في الاسواق وفوجئت بضبطه ٠

وأفيدكم انه بعد أن طبعت هذا الكتاب ارسلت أربع نسخ منه الى وزارة الانباء دائرة المطبوعات لتطلع عليه ، ولم اوزع أو أعرض أي كتاب منه في الاسواق على البيع ٠ والعرف المتبع في دائرة المطبوعات عندما تطلع على أي كتاب او مطبوعة وترى انه لا يوجد محظور في توزيعه تعطي وصلا بما يفيد امكانية نشره وبالفعل أعطتني دائرة المطبوعات وصلا ابرز اليكم صورته الفوتوغرافية ٠ فعمدت بعد ذلك الى نشر هذا الكتاب وعرضه في الاسواق وفوجئت كما بينت لكم بضبطه ٠ وافيدكم انه قبل ان اوافق على نشر وطبع هذا الكتاب قرأت مضمونه الذي هو كناية عن محاضرات استمعتها شخصيا من قبل ٠ كما انه جرى نشر مضمونه في مقالات ومجلات ثقافية ولم يتقدم أحد من المسؤولين بأي اعتراض أثناء ذلك على القاء هذه المحاضرات او نشر هذه المقالات في هذه المجلات ٠ فتأكد لي انه لا يوجد محظور قانوني بسبب ذلك من نشر هذا الكتاب فوافقت عندئذ على نشره بكل حسن نية معتقدا انه لا يوجد أي محظور قانوني ٠ وسأتقدم اليكم بمذكرة مفصلة بواسطة وكيلي أبين لكم فيها المجلات التي نشرت فيها مقالات هذا الكتاب وتواريخها ٠

س ـ هل لديك ما تقول خلاف ذلك ؟

ج ـ أنا أحترم جميع الاديان وأعتبرها ٠

تليت عليه افادته فصدقها ووقعها ٠

مذكرة المحامي جوزيف مغيزل
وكيل صادق العظم الى قاضي التحقيق

حضرة قاضي التحقيق في بيروت الاستاذ عاطف فياض المحترم

من المدعى عليه : صادق جلال العظم وكيله المحامي جوزف مغيزل

بناء لطلب حضرة المحقق وفي المهلة المحددة أي السبت ٢٠-١٢-٦٩ ، نقدم هذه المذكرة :

طلبت النيابة العامة الظن بالمدعى عليه سندا للمادة ٣١٧ من قانون العقوبات بسبب كتابه « نقد الفكر الديني » ، بزعم تضمنه الكثير من الافتراءات على الحقائق الدينية الاسلامية ، فعلى هذه التهمة نبدي :

اولا : في المادة ٣١٧ من قانون العقوبات

١) تنص المادة ٣١٧ على معاقبة كل عمل أو كتابة وكل خطاب يقصد منها أو ينتج عنها اثارة النعرات المذهبية او العنصرية او الحض على النزاع بين الطوائف ومختلف عناصر الامة ،

تذكر هذه المادة جرمين :

الجرم الاول العمل أو الكتابة أو الخطاب الذي **يقصد منها** اثارة النعرات المذهبية أوالعنصرية أو يقصد منها الحض على النزاع بين الطوائف ومختلف عناصر الامة ٠

الجرم الثاني : العمل أو الكتابة او الخطاب الذي **ينتج عنها** اثارة النعرات المذهبية أو العنصرية أو الحض على النزاع بين الطوائف أو مختلف عناصر الامة ،

وبعبارة اخرى ان الجرم الاول غايته وموضوعه الاثارة والحض والجرم الثاني نتيجته الاثارة والحض ،

على ضوء ما سبق نتساءل ما هي العناصر الواجب توفرها لكي يتكون أحد الجرمين المشار اليهما في المادة ٣١٧ ،

٢) فلنبدأ بالجرم الاول أي الكتابة (والعمل والخطاب) التي يقصد منها اثارة النعرات المذهبية أو العنصرية أو الحض على النزاع بين الطوائف ومختلف عناصر الامة ،

يجب أن تتوفر العناصر التالية :

- وجود كتابة (أو عمل أو خطاب)
- النيـة الجرميـة
- أن يكون موضوع الكتابة (او غايتها) اثارة النعرات المذهبية او العنصرية او الحض على النزاع الطائفي ،
- ان يأتي ذلك الموضوع بصورة مباشرة صريحة فلا يستنتج بطريقة الاستقراء والمداورة والتخمين ،

«La provocation non suivie d'effet n'est punissable que si elle a été directe, Il faut, pour la caractériser qu'il y ait une excitation formelle à commettre l'un des crimes et délits... et que l'infraction à laquelle l'écrit ou le discours a pour objet de provoquer autrui ne se déduise pas indirectement de l'écrit ou du discours et par voie de simle conjecture... La cour a jugé que le fait de dénigrer avec acrimonie, dans un manifeste, les institutions de la République ne constitue pas une provocation directe à commettre un crime...
(Enc. Dalloz - Dr. Criminel - Provocation N. 38)

٣) اما الجرم الثاني فهي الكتابة التي نتج عنها اثارة النعرات المذهبية والحض على النزاع الطائفـي ،

عناصر هذا الجرم هي :

- وجود الكتابـة ،
- الاثارة أو الحض المباشر على النعرات المذهبية أو النزاع الطائفي ،
- النيـة الجرمية
- بلوغ الهدف بحصول النزاع والنعرات حصولا عمليا ،

ثانيا : في تطبيق المادة ٣١٧ على كتاب المدعى عليه ،

لنسرع الى القول بأن عناصر الجرم الثاني أي الكتابة التي نتج عنها اثارة النعرات المذهبية أو الحض على النزاع الطائفي غير متوفرة لان شيئا لم يحصل ، فليس هنالك من نعرات أو نزاع بين أحد بسبب الكتاب ،

يبقى الجرم الثاني : قصد اثارة النعرات المذهبية والحض على النزاع الطائفي ،
فهل ان عناصر هذا الجرم متوفرة ،

١) ماذا يتضمن الكتاب : نقد الفكر الديني :

مضمون كتاب « نقد الفكر الديني »

نقد الفكر الديني

الفصل الاول : موضوعه : الثقافة العلمية والفكر الديني :

القي كمحاضرة في النادي الثقافي العربي ونشر في مجلة النادي « الثقافة العربية » أيـار ١٩٦٥ ،

١) ليس في هذا الفصل ما يطعن بجوهر الدين وعقائده الاساسية .

لا يتطرق هذا الفصل الى الدين بجوهره (وخاصة الدين الاسلامي) وانما هو يعالج معالجة نقدية « للفكر الديني » أي الفكر الذي يطرحه عدد من المفكرين في الغرب المسيحي والشرق

المسلم حول الدين ، وليس الدين نفسه كجوهر روحي • لذلك جاء في بداية صفحة ١٧ ما يلي : « عندما أتكلم عن الدين في هذا البحث ، لا أقصد الدين باعتباره ظاهرة روحية نقية وخالصة على نحو ما نجدها في حياة قلة ضئيلة من الناس كالقديسين والمتصوفين وبعض الفلاسفة ••• » النقض هنا موجه لبعض أفكار وليم جيمس وهنري برجسون والدكتور الشيخ صبحي الصالح والدكتور حسن صعب وسماحة الشيخ موسى الصدر والاستاذ محمد علي يوسف وسيد قطب والأب يواكيم مبارك والأب فرنسوا دوبريه لاتور وعلي عبدالرزاق ويوسف مروة الخ•••

النقد موجه لافكار هؤلاء العلماء الاجلاء حول علاقة الدين بالعلم الحديث والموضوعات المتفرعة عن ذلك او ليس للدين نفسه كل ذلك بصورة علمية رصينة وبدون أي تعرض للاشخاص بأي صورة من الصور •

٢) فهل ان التعرض بالنقد لآراء جماعة من المفكرين المسلمين والمسيحيين في لبنان حول « الحوار الاسلامي المسيحي » هو اثارة للنعرات المذهبية والطائفية ؟ كلا •

لا بل على العكس من ذلك تماما لان هذا الفصل يدعو المشتركين في الحوار الاسلامي المسيحي الى الدخول في حوار جدي بعيد عن الخطابة والمجاملات والطائفية والمذهبية • ويوجه النقد للمشتركين في هذا الحوار بسبب عدم وصولهم الى هذا الهدف كما انه يدعوهم الى الالتزام بالتحليل العلمي الصارم وعلاقات المواطنة والمصلحة المشتركة كأساس للحوار الحقيقي بين المسيحية والاسلام في لبنان بدلا من الاسس الطائفية والمذهبية • (انظر صفحة ٦١ الفقرة الثانية)

الفصل الثاني : موضوعه : دراسة لشخصية ابليس في الدين عامة وخاصة في الدين الاسلامي•

القيت كمحاضرة في النادي الثقافي العربي في بيروت ، ١٠ كانون الاول ١٩٦٥ ، ونشرت في مجلة « حوار » ، كانون الثاني ١٩٦٦ ، وفي مجلة النادي « الثقافة العربية » مع المناقشات العلنية التي جرت حول المحاضرة في شباط ١٩٦٦ •

١) ان دراسة شخصية ابليس على أسس فكرية غير شائعة لا يشكل تعرضا للمذهبية والطائفية الخ •••

فهذه دراسة لشخصية ابليس على أساس فكرة المأساة « والبطل المأساوي » من خلال مقارنتها بالتراجيديا اليونانية القديمة عند سوفوكليس مثل مسرحية انتيجونا ومسرحية الملك « أوديب » ومن خلال اعتبار ان الله عندما أمر ابليس بالسجود لآدم فرفض السجود كان الله يمتحن ابليس من بين الملائكة ويجربه ومن هنا العنصر المأساوي في شخصيته •ان المصدر الاساسي لهذه النظرة الى ابليس نابع من الفكر الاسلامي نفسه ، وقد اعتمد الكاتب في هذا الفصل على شهيد الصوفية الحلاج وتفسير الطبري ، وأبو حيان التوحيدي ، والامام جمال الدين ابن الجوزي والامام عز الدين المقدسي وتوفيق الحكيم في اثبات الآراء وتقديم الحجج وعرض البينات • وتكمن أهمية هذه الدراسة في انها تشكل ردا على المزاعم الغربية القائلة بافتقاد الاسلام لكل مفهوم عميق للمأساة وتبيانها ان الفكر المأساوي موجود في الاسلام وهو يوازي أروع التراجيديات اليونانية الكبرى ،

الفصل الثالث : موضوعه : مجرد رد على النقاد الذين ناقشوا محاضرة مأساة ابليس •

على صفحات « ملحق النهار » (١٩–١٢–٦٥) وصحيفة « الاحرار » النقد والردود منشورة كلها في مجلة « الثقافة العربية » (شباط ١٩٦٦) •

الفصل الرابع : موضوعه : معجزة ظهور العذراء في ضاحية الزيتون في القاهرة منشور في مجلة « دراسات عربية » (تموز ١٩٦٨) ،

لا علاقة لهذا الفصل بأي مسائل طائفية او نعرات مذهبية لانه يوجه النقد للاستغلال الصحفي والسياسي الذي جرى حول مسألة ظهور طيف العذراء في القاهرة وتصوير الطيف في

الصحف مع تفنيد كل ما قيل حينئذ حول تحضير الارواح » والتقاط الصور الروحانية للاموات » وتجسيد الارواح عن طريق الوسطاء الخ٠٠٠ مع التشديد على ان طيف العذراء من وجهة نظر دينية ، هو طاقة روحية لا يمكن تصويرها على الافلام والمعدات المادية وان في مثل هذا الادعاء شططا وخروجا عن الايمان الديني نفسه ٠

الفصل الخامس : موضوعه : مناقشة نقدية لبعض المفكرين المسيحيين الاوروبيين المعاصرين منشور في « ملحق النهار (٤ حزيران ١٩٦٧) ،

لا علاقة لهذا الفصل بأي مسائل طائفية أو قضايا مذهبية ٠ انه رد علمي على آراء عدد من المفكرين المسيحيين الغربيين من أمثال فيسرتهوفت ودفورنيل ، وكونغ وغيرهم بما يتعلق بأفكارهم حول علاقة المسيحيين بالعلم الحديث والثقافة العلمية والعلمانية المعاصرة ٠

الفصل السادس والاخير : موضوعه : التصور العلمي ــ المادي للكون ٠ سينشر في مجلة كلية الآداب في الجامعة الاردنية ٠

لا علاقة لهذا الفصل بالدين مباشرة ، انما هو دراسة لتطوير النظرية المادية الساكنة كما نجدها عند نيوتن وهوبز ، الى المادية الجدلية كما نجدها عند ماركس وانجلز وعلاقة ذلك بنظرية انشتاين في النسبية العامة ومفهومها لطبيعةالما دة والزمان والمكان ،

ذلك أهم ما جاء في الكتاب ٠

وهي دراسة على أعلى مستوى علمي لم تعرف مثله سوى البلدان الراقية ، وهو دليل على تحرك الفكر العربي الحديث ،

ويعتبر هذا الكتاب ــ كمعظم كتب الدكتور العظم ــ من أهم مظاهر التطور الذهني والثقافي العربي المعاصر ،

أين اذن ذلك كله من المادة ٣١٧ من قانون العقوبات ،

الواقع ان المفكرين لم يفهموا الكتاب الا على حقيقته ، أما المتذمرون منه فاما انهم لم يقرأوه أو انهم لم يفهموه أو انهم يسيئون فهمه ،

ودلالة على فهم الكتاب الحقيقي من قبل المثقفين نورد مقالا كتبه بهذا الخصوص الاستاذ محمد النقاش في جريدة الشعب نبرز ربطا نسخة عنها ،

جاء فيه :

« ليس في ابعاد الدكتور صادق جلال العظم تقدير لحرية الفكر ، ولا حماية للاسلام ولا
« تشريف للبنان ٠

« ومن التجني اتهام الدكتور العظم باثارة النعرات ، لان الرجل لم يحاول اثارة فريق على
« فريق ، ولا تحامل على دين غير دينه ، ولا لجأ الى وسائل التهييج الغوغائية ٠ كل ما فعله
« انه أصدر كتابا ــ والكتاب عادة للخاصة قبل العامة ــ ضمنه دراسة وآراء ترتدي الطابع
« العلمي ٠ واذا ما قامت صحيفة تتناولها جميع الايدي بخلع طابع الاثارة على الكتاب فليس
« الذنب ذنب المؤلف ٠

« ويلاحظ ان قرار الابعاد لم يصدر الا أمس الاول ، أي في اليوم التالي لنشر مقال للدكتور
« العظم يجهر فيه انه « ثوري ماركسي » ٠ بينما نشر المقال عن كتابه في الصحيفة نفسها
« قبل ذلك باسبوع ، ولم يتحرك ساكن ٠ مما يدعو الى التساؤل عما اذا كانت «جريمة»
« المؤلف هي نقد التفكير الديني الاسلامي أم معارضته باعتناق الماركسية ٠
« ومهما يكن من أمر ، فمقتضيات حرية الفكر التي لا ينفك لبنان يباهي بها وباحترامها
« ومقتضيات احترام الاسلام روحا ونصا ، كانت تفرض ردا على الدكتور صادق العظم من
« غير هذا النوع الذي فيه كل معاني القسر والاضطهاد ٠ وهي معان لم تعد تجوز في هذا

« العصر ، ولا يمكن أن يكون لها أي مفعول ايجابي ، لا في حماية الدين ، ولا في حماية
« المجتمع • بل غالبا ما تحدث ردة فعل معاكسة •
« في هذا العصر يرد على الفكر بالفكر ، وعلى كتاب بكتاب • ويوم يرتفع الصولجان ليهوي
« على الفكر ، بأي شكل كان ، فالخاسر دائما هو الصولجان ، والرابح هو الفكر الذي يكتسي
« تحت الضربة ثوب الشهداء •
« لئن كانت الغاية الدفاع عن الاسلام ، فمن الخطل الاعتقاد لحظة واحدة ان الاسلام
« يخشى على نفسه من كتاب وانه يشعر باركانه تصدع وتزعزع بضربات قلم فلا نجاة له ولا
« أمان الا باللجوء الى السيف ليغتال العدو • بل ان اللجوء الى الاكراه مخالفة صريحة لروح
« الاسلام ونصوصه •
« وأهل الاختصاص يعرفون أكثر منا كم حض الاسلام على تحاشي الاكراه تأييدا له ونشرا
« لمبادئه • وكم آية تنص على ذلك • ونكتفي نحن هنا ببعض ما تعيه الذاكرة ، على سبيل
« المثال : ففي القرآن الكريم ان « لا اكراه في الدين » • « وانك لا تهدي من أحببت »
« « ان الله يهدي من يشاء » و « لست عليهم بمسيطر » و « ادع الى سبيل ربك بالهدى
« والموعظة الحسنة » • وكل هذا يؤكد ان ليس للانسان ، ولا للرسول العظيم نفسه ، ان
« يفرض الاسلام فرضا على الناس • وان الارشاد والاقناع هما سبيل الايمان • « فمن
« اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فعليها » • ولله وحده أن يحاسب الكافرين والمارقين •
« ومحمد لم يشهر السلاح في وجه المشركين الا عندما بادؤوه بالعدوان فكان في موقف
« الدفاع عن النفس • وذهب في تقدير العلم الى حد انه جعل من شروط الافراج عن الاسرى
« تعليم القراءة والكتابة بضعة من أولاد المسلمين ، مع احتفاظ هؤلاء الاسرى بمعتقدهم اذا
« حرصوا •
« فحرام اذن أن يسخر الاسلام اداة لاضطهاد أي كان ولاضطهاد أهل العلم على الاخص •
« وما اهدار دم الزنادقة في تاريخ الدول الاسلامية الا لطخة عار • تماما كما هي مآسي
« دواوين التفتيش في تاريخ الكثلكة •
« ان الفكر أيا يكن اتجاهه ، منافعه أكثر من مضاره • فأفكار كأفكار صادق العظم من
« شأنها أن تحرك التفكير في دنيا العروبة والاسلام ، وتحفز الناس على الخروج من القوالب
« المتحجرة والتسليم الاعمى وما يجر من خمول وجمود وتواكل • وقد تقوي الاسلام بالتحدي
« بدلا من أن تضعفه ، باعادته الى منابعه الاولى وغسله من كل ما لصق به من غبار الازمنة ،
« أزمنة الانحطاط على الاخص • ويوم يخشى الاسلام الكلمة فانه ينتقص من قدرة كلمة
« الله • ويوم يكون الاسلام أعجز من أن يرد على كاتب بالحجة والبرهان ، فهو يحكم على
« نفسه بأكثر مما حكم عليه صادق العظم •
« يبقى ان صادق العظم قد حكم عليه بالنفي ، غالبا لانه جهر بماركسيته • وهذا ما لا
« يجوز في بلد يدعي الديمقراطية واحترام حرية المعتقد • ويعود بنا — نظريا — الى مجاهل
« القرون الوسطى •
« نقول نظريا • لان لا شيء في هذا العصر يستطيع « عمليا » ان يقف في وجه الفكر الا
« الفكر نفسه • أما أساليب القهر فلا تغني عن الفكر شيئا • »
(جريدة الشعب — العدد ٢٧١٠ — تاريخ ١٧—١٢—٦٩)
ان تفسير الاستاذ محمد النقاش لكتاب الدكتور العظم هو الموقف العقلي الرصين الممكن •

ثالثا : في حرية الفكر

وأخيرا نود لفت نظر حضرة القاضي الى أمر هام — وهو في نظرنا الاهم — الى خطورة ملاحقة رجال الفكر على النحو الذي طلبته دار الافتاء وسارت به النيابة العامة ضد الدكتور صادق العظم •

تنص المادة ١٣ من الدستور اللبناني ،

ان « حرية ابداء الرأي ، قولا وكتابة ، وحرية الطباعة مكفولة ضمن دائرة القانون » •

وتنص المادة ١٩ من الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي التزم به لبنان رسميا :
« لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الاراء دون
« أي تدخل واستقاء الانباء والافكار وتلقيها واذاعتها بأية وسيلة كانت دون التقيد
« بالحدود الجغرافية » .
من هم المستفيدون الاول من حرية الفكر هذه ؟
طبعا هم الكتاب .
فاذا حرم الكتاب منها ، ماذا يبقى من تلك الحرية ؟
ان القضاء عامة قيم على حماية الحرية وصيانتها من العدوان والتضييق ومن الارهاب .
ولبنان يتغنى دائما بحرصه على حماية حرية الفكر ولعله الواحة الباقية في بلاد الشرق التي لا يزال للحرية من معنى فيها .
فاذا ضيقنا تلك الحرية نكون قد آذينا — ليس الكتاب وحدهم بل لبنان نفسه .
وحرية الفكر تعني قبل كل شيء حرية النقد ، في شتى المجالات ، الاقتصاد والسياسة ، والاجتماع والتربية والدين ايضا .
لا بل ان نقد الفكر الديني في مجتمع رازح تحت تأثير الدين رزوحا كبيرا ، لامر أكثر ضرورة منه في أي مجتمع آخر .
لا يجوز ان يصبح الدين أفيونا للشعوب ومخدرا للطاقات الشعبية خصوصا في مراحل دقيقة من تاريخها ولكي لا يصبح كذلك لا بد من اعمال النقد المستمر في تعاليم رجال الدين وفي المؤسسات والتقاليد الدينية وفي الفكر الديني بوجه عام .

واذا كان النقد علميا رفيع المستوى كما هو الحال في كتاب المدعى عليه يعتبر هذا النقد أداة خدمة عامة ، يستحق صاحبها التكريم ليس الملاحقة .

حضرة القاضي المحترم ،
لا أقدر أن أتصور أن يدا يسمها أن تخط قرار ظن او ملاحقة او ادانة بحق الدكتور العظم في وقت عيون الدنيا مصوبة الينا تراقب مفهومنا وتطبيقنا للحرية لا سيما الحرية الدينية لتحكم على مقدار تطورنا وتسامحنا بالمقارنة مع دولة العنصرية الدينية التي قامت في أرض فلسطين ، لا سيما اننا نصرح ليل نهار على سمع الدنيا ان حل القضية الفلسطينية هو بالتعايش السلمي المتسامح بين اليهود والعرب .

ان ادانة الدكتور العظم يكون هدما لمثل هذا النداء ، ورجوعا بنا قرونا كثيرة الى الوراء .
واني لواثق بأن القاضي الناظر بهذه القضية حريص كل الحرص على حرية الفكر الممثلة أمامه اليوم بالدكتور صادق العظم .

لذلـــك

نطلب كف التعقبات بحق الدكتور صادق جلال العظم .

وتفضلوا بقبول الاحترام

نماذج من ردود الفعل

١ - رسالة المديرية العامة لشؤون الافتاء

في ٢٨ رمضان ١٣٨٩
و ٨ كانون الاول ١٩٦٩

لجانب النيابة العامة الاستئنافية المحترمة ،
الموضوع : مصادرة كتاب « نقد الفكر الديني » الصادر عن دار الطليعة — بيروت

تحيط المديرية العامة لشؤون الافتاء جنابكم علما بأنه صدر مؤخرا عن دار الطليعة في بيروت كتاب تحت عنوان « نقد الفكر الديني » لمؤلفه الدكتور صادق جلال العظم ، وفي هذا الكتاب ، في صفحات كثيرة منه ، افتراء على الحقائق الدينية والرسالات السماوية وتشكيك للناس بمعتقداتهم وايمانهم ، هذا الى جانب الافتراء على العقيدة الاسلامية بشكل خاص وعلى ما جاء به القرآن الكريم ودعوة المسلمين المبطنة الى الكفر به ٠

ان المديرية العامة لشؤون الافتاء التي بدأت تلمس الصدى السيء والعنيف الذي بدأ يتركه هذا الكتاب في صفوف المؤمنين كردة فعل أولى ، لترجو قبل أن يستفحل الامر ، المبادرة الى مصادرة هذا الكتاب ومنعه من التداول ٠

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام
مدير عام شؤون الافتاء
حسين القوتلي

٢ - بيان مفتي الجمهورية اللبنانية

وضعا للحق في موضعه ، وقطعا لالسنة السوء نوجه انظار أبنائنا الى ما يلي :

أولا — ان الاسلام دين يكفل الحرية للفرد بكل أبعادها ليتصرف الانسان من خلالها بمطلق ارادته ٠ على ان للحرية في أعراف الناس وقوانينهم كما ان لها في عرف الشرع وقانونه حدودا يجب التزامها حتى لا تنقلب فوضى ، تضر الفرد ذاته ، وتضر مجتمعه ، تفقد فكره المنطلق حرمته وقيمته والمعروف ان حرية الانسان تنتهي عند حدود حرية غيره وكرامته ، وبهذا تصان الجماعة وتحفظ من الهزات والرجات والقلاقل ٠

ثانيا — ان في الاسلام مقدسات لا يجوز المساس بها ولا النيل منها لاي سبب وأي حجة ٠ فالله والجن والجنة والنار والحساب والثواب والعقاب وخلق ادم من تراب وصدور الامر من الله عز وجل لابليس بالسجود له سجود تعظيم وتكريم ، واباء ابليس تنفيذ أمر ربه ، كل هذه ، وغيرها مما ورد شبيهه في القرآن والسنة ، مسلمات قطعية الثبوت في الاسلام ، والايمان بها فريضة محكمة على كل مسلم ، والتشكك او التشكيك في تصديقها أو تصديق بعضها كفر صراح يخرج المسلم من الاسلام ٠

ثالثا — ان رفض التسليم بهذه الغيبيات وأمثالها مما قطعت الادلة الشرعية المتواترة بثبوته بحجة مخالفته للعلم هو افتراء على العلم نفسه ، ذلك لان العلم الوضعي لم يزل يشتمل على طائفة كبيرة من الغيبيات لم ينفذ بعد الى أسرارها ومع هذا يسلم العلم بها تسليما عفويا ، ذلك باعتراف المؤلف ، فكيف يؤخذ على الديانات التسليم بما هو غيبي ٠ وفوق هذا فالعلم البشري بما أوتي من النفاذ والقدرة لم يستطع ولن يستطيع ان يكتشف تلك المغيبات التي هي من أمر الله وخاصة علمه ، وليس عدم اكتشاف العلم الانساني لامر من الامور دليلا على عدم وجوده ، وما كشفه العلم حتى أيامنا هذه لا يزال يسيرا بالنسبة الى ما هو مجهول وصدق الله العظيم اذ يقول ، « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ٠

رابعا — ان مشايعة المنكرين والسير معهم وتأييدهم في أفكارهم وتبرير هذا الانكار بحرية الراي هو رفض لامر الله ومروق بالتالي من الدين ٠

خامسا — وبناء على هذه الحقائق التي أسلفنا بها فان كتاب « نقد الفكر الديني » بما اشتمل عليه من انكار للغيبيات وافتراء على الدين والقرآن يعتبر مؤلفه خارجا عن الاسلام مرتدا ، وكذلك من يؤيده ويجاريه في رأيه ٠

سادسا — ان من واجب الدولة ان تقطع الطريق على مثل هذه الافكار الضالة ، الهدامة التي تضر الامة في صميمها ، وتعرضها لانقسامات خطيرة وفتن شعواء لا يعرف مداها الا الله ، وان على الدولة ان تطبق ما لديها من القوانين الصريحة في معاقبة كل من يتعرض للشعائر الدينية وللمقدسات بما يسيء •

سابعا — وعلى أبنائنا جميعا ان يحذروا هذه الافكار الضارة ، السامة ، التي لا تلتزم بشرع ولا تؤمن بدين والتي تلتقي في صميم اتجاهها مع الافكار الصهيونية العالمية التي تستهدف محاربة الاديان لاضعاف المواطنين والاستيلاء على أوطانهم ومقدراتهم ومرافقهم •

(٨ كانون الثاني ١٩٧٠)

٣ - ثلاثة نصوص لثلاثة عرائض

١ — علماء طرابلس اذ يستنكرون بشدة التعرض الوقح للاديان السماوية والاستهزاء بالذات الالهية ، يؤيدونكم في موقفكم الصارم ويطالبونكم باتخاذ كل الاجراءات للوقوف أمام موجة الالحاد التي تهدد دين الله •

سيرا على بركة الله والله معكم •

(ويلي ٣٦ توقيعا)

٢ — طرابلس في غليان • حرية الفكر لها حدود • نستنكر بشدة كل محاولة للتشكيك والاستهزاء بالله • نطالبكم بتطبيق القانون وانزال أشد العقوبات بالمخربين لعقيدة الامة والمهدمين لاديانها • (ويلي ٣٣ توقيعا)

٣ — مع ايماننا بحرية الرأي والفكر نستنكر بشدة الاسلوب التهكمي الذي صيغت به المطاعن الشنيعة ضد الذات الالهية والقرآن الكريم في كتاب « نقد الفكر الديني » لمؤلفه صادق جلال العظم ونطالب بتطبيق القانون بحزم للمحافظة على العقائد والمقدسات الالهية •

(ويلي ٦١ توقيعا لاطباء ومهندسين ومحامين ورجال أعمال) •

(النهار ، ٢٤ كانون الاول ١٩٦٩)

٤ - بيان المؤتمر الاسلامي

« ان المؤتمر الاسلامي المنعقد في مركز مجلس الشؤون الاسلامية في بيروت بحضور أصحاب الفضيلة العلماء والسادة ممثلي الاحزاب والنقابات والجمعيات والمحامين والاطباء والسادة المهندسين والمعلمين والوجهاء وشباب الاحياء لمناقشة قضية التهجم على الاديان السماوية عامة والاسلام خاصة وموقف الدولة من هذه القضية الخطيرة ،

يقرر بعد التداول والمناقشة :

أولا : واجب الدولة حماية العقائد والاديان التي ضمنها الدستور والقانون •

ثانيا : المطالبة بتطبيق نصوص القوانين وتشريع نصوص تشدد العقوبة على المتعرض للاديان ومراقبة النشر •

ثالثا : استنكار موقف وزير الداخلية السيد كمال جنبلاط المساند لمثيري الفتنة ومروجي الالحاد باسم حرية الفكر •

رابعا : ان المؤتمر يكشف ان المقصود من حملة التشكيك هذه هو ضرب قيادة الرئيس جمال عبد الناصر وما تمثله الجمهورية العربية المتحدة باعتبارها مركزا للازهر الشريف والدعوة الاسلامية .

خامسا : ان المسلمين في لبنان وهم جزء لا يتجزأ من الشعب اللبناني ، بعدما طال انتظارهم لتدابير الدولة من أجل حماية وجود الوطن وكيانه ، لا يسعهم الا حماية دينهم بجميع السبل . واذا كانت الدولة غير مهتمة بلبنان فان المسلمين مهتمون الى أقصى الدرجات بدينهم ولن يعدموا الوسيلة الناجحة لتحقيق هذه الحماية .

سادسا : اعتبار جلسات المؤتمر مفتوحة لاتخاذ جميع الخطوات اللازمة بهذا الشأن » .

(النهار ، ١٠ كانون الثاني ١٩٧٠)

٥ ـ نص برقية الى النائب العام التمييزي

جمهور المسلمين في غليان شديد من الفتور الذي تقابل به قضية الكتاب الذي وضعه صادق جلال العظم وتهجم فيه على الاديان السماوية عموما وعلى الاسلام وكتابه ونبيه خصوصا مع ان نشر معلومات الكتاب في جريدة النهار بملحقها الصادر في ٧ـ١٢ـ٦٩ يثير النعرة الطائفية ويهدد الوحدة الوطنية ان نشر مثل هذه الاضاليل المكشوفة والمردودة في هذا الوقت بالذات لا يستهدف نقض الاسلام وتكذيب القرآن وحسب بل يشكل حلقة من سلسلة اعتداءات رهيبة يعدها اعداء المسلمين والعرب لترسيخ وتعميق التنافر بينهم وبين مبادىء دينهم تمهيدا لانهاء قضية فلسطين حسبما تخطط له وتريده الصهيونية العالمية الماكرة ونحن لا نشك مطلقا بأن صادق العظم هو أحد عملائها المأجورين اننا مع حرصنا على ان يعطى للجريمة حجمها الطبيعي نود أن لا يستهين أحد بالنقمة المتزايدة التي تتعاظم يوما بعد يوم في صدور المسلمين ومن العسير حصرها في هذا النطاق ومنعها من التطور الخطير طالما ان المسؤولين لم يبادروا الى اتخاذ التدبير الحازم والعاجل ولذلك فاننا نطالب :

بالقبض على المجرم ومحاكمته وطرده من البلاد ،
بمصادرة الكتاب ومحاكمة الناشر ومعاقبته ،
بايقاع العقاب على الجريدة التي نشرت فصول البهتان العظيم : الشيخ أحمد عساف ، الشيخ حسن نجم ، الشيخ نمر الخطيب ، الشيخ سعدي ياسين ، الشيخ أحمد الجوزو ، الشيخ عبدالله العريس ـ نصادق على صحة تواقيع أصحاب الفضيلة الموقعين على هذه البرقية وهم سبع تواقيع ، المختار أحمد عانوت » .

بيان المثقفين اللبنانيين

« يحرص المثقفون اللبنانيون برغم تباين وجهات نظرهم في مضمون كتاب صادق جلال العظم، « نقد الفكر الديني » وقيمته على أن يعلنوا ما يأتي :

أولا ـ ان المادة ١٣ من الدستور اللبناني تنص على حماية الرأي قولا وكتابة وطباعة ، كما ينص على ذلك الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي أقره لبنان ولا سيما المادة ١٩ منه . وحرية الرأي تشمل حرية النقد التي تتضمن بالطبع نقد الفكر السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي والديني .

ثانيا ـ ان العرب يخوضون معركة متعددة الجوانب والابعاد سواء مع الصهيونية والاستعمار

أو مع التخلف والرجعية ، لذلك ينبغي أن يكونوا في مستوى تحديات المعركة انفتاحا وتحررا وطليعية •

ثالثا — اننا لذلك اليوم في أمس الحاجة الى ممارسة حرية النقد في جميع ميادين الحياة والفكر لتهيئة سبل النجاح أمام التغييرات الجذرية في معركة التقدم •

رابعا — ان اضطهاد رجال الفكر بسبب ممارستهم حرية النقد يهدم الاساس الذي يعمل العرب اليوم انطلاقا منه لاقناع العالم بتبني الحل الديموقراطي العلماني لمشكلة فلسطين •

خامسا — ان ردة الفعل ضد كتاب صادق العظم « نقد الفكر الديني » تبدو في ضوء هذا كله ظاهرة خطيرة تصور العرب في النصف الثاني من القرن العشرين شعبا يرفض الحرية ويحتقر العقل وينغلق على نفسه في ظلامية خانقة هي وحدها التي مهدت وتمهد أفضل السبل لاعداء العرب من الخارج وتبقي العرب في الداخل دون مستوى قضيتهم المصيرية الكبرى •

لهذا كله يطالب المثقفون اللبنانيون بما يأتي :

١ — الاقرار المبدأي والعملي بحق نقد الفكر الديني في اطار العلم والموضوعية بحيث لا يكون أي شيء محرما على العقل اسوة بحق نقد مختلف القضايا الفكرية •

٢ — احترام الفكر في شتى مواقفه من الدين ايجابا أو نفيا •

٣ — اتخاذ الخطوات التشريعية لازالة أو تعديل جميع النصوص التي تمس مبدأ الحرية المذكور اعلاه ، حرية الفكر والنقد ، ولا سيما المادة ٦٢ من قانون المطبوعات والمرسوم الاشتراعي رقم ٥٥ والمادة ١٥ من نظام الموظفين وبعض أحكام قانون العقوبات •

يعتبر الحاضرون والموقعون على هذا البيان في اجتماع دائم لملاحقة مقرراته » •

(حضر حوالى سبعين شخصا • صاغت البيان لجنة انتخبها الحاضرون تألفت من : ادمون رباط ، قسطنطين زريق ، ميشال أسمر ، جوزيف مغيزل ، محسن ابراهيم ، عارف الريس ، أدونيس)

(النهار ، ٣١-١٢-٦٩)

بيان رابطة الطلاب اللبنانيين في باريس

« رابطة الطلاب اللبنانيين في فرنسا ، فرع باريس ، ترى ان العمل الذي اقدمت عليه السلطات اللبنانية بحق الدكتور صادق العظم ومنع كتابه هو تعد صارخ على أبسط المبادىء والحقوق الانسانية ، أي حرية التعبير • والرابطة تتهم السلطات المسؤولة وتدينها بالرضوخ للهيئات الدينية ، يقينا منها ان المبادىء والقيم والاراء تنمو وتبقى وتعمر بالحجة والمناقشة الحرة وترى كذلك ان أية قضية يمكن ان تكون مجالا للتدقيق العلمي الموضوعي ، بما فيها الدين •

فصاحب « نقد الفكر الديني » له آراؤه ، ومهما تكن هذه الآراء ، فان من حقنا الاطلاع عليها ومن واجبنا الدفاع عن حرية صاحبها في ابدائها • فالذاتية العربية يجب أن تتغير ، ليتغير المجتمع العربي معها ، وهذا لا يكون الا بالتعبير الحر والمناقشة المفتوحة » •

(النهار ، ٣١ كانون الاول ١٩٦٩)

نص القرار الظني

« نحن عاطف فياض قاضي التحقيق في بيروت ،

بعد الاطلاع على الاوراق ،

وبعد الاطلاع على ورقة الطلب الرقم ١٦٨٣٧ تاريخ ١٧-١٢-١٩٦٩ ،

تبين انه اسند الى المدعى عليه :
الدكتور صادق جلال العظم والدته نزيهة عمره ٣٥ سنة ٠
أوقف غيابيا في ١٩ـ١٢ـ١٩٦٩ وادخل السجن في ٨ـ١ـ٧٠ ٠ وخلي سبيله في ١٥ منه ٠
انه في بيروت وفي تاريخ لم يمر عليه الزمن أقدم على نشر كتاب تحت عنوان« نقد الفكر الديني » من شأنه التحريض على اثارة النعرات الطائفية ٠

كما انه تبين ان النيابة العامة ادعت بتاريخ ١٢ـ ١ـ ٧٠ على المدعىعليه صاحب دار الطليعة الدكتور بشير الداعوق بمقتضى المادتين ٣١٧ و ٢١٩ من قانون العقوبات والمادة ٦٢ مطبوعات ٠

اولا : في الوقائع

نشر المدعى عليه الدكتور صادق العظم كتابا تحت عنوان « نقد الفكر الديني » وهو يتألف من ـ ٢٣٠ ـ صفحة مقسمة عدة مواضيع تتلخص بما يأتي : المقدمة ـ الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني ـ مأساة ابليس ـ رد على نقد ـ معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان ـ التزييف في الفكر المسيحي الغربي المعاصر ومدخل الى التصور العلمي المادي للكون وتطوره ٠

وتحت معظم هذه المواضيع تطرق المدعى عليه صادق الى الاديان السماوية عامة والى الدين الاسلامي خاصة وضمن ابحاثه تشكيكا في هذه الديانات وتجريحا وتهكما وازدراء لما تحتويه من أقوال وتعاليم حتى أضحت الابحاث الواردة فيها خارجة عن حدود البحث العلمي الصرف وتعدته الى النطاق المحظور المعاقب عليه قانونا ٠

ونظرا الى ما في هذه الابحاث من أقوال وأخطار انطوت على التجريح والتشكيك في المعتقدات الدينية والتهجم عليها والازدراء لتعاليمها ، نذكر منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر بعض الاقوال التي من شأنها التحريض على اثارة النعرات الطائفية والحض على النزاع بين الطوائف٠

أ ـ بعض ما ورد في باب الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني :

تحت هذا العنوان ورد في الابحاث التي نشرها المدعى عليه في كتابه « نقد الفكر الديني » ، تهكم وازدراء حول مضمون الآية القرآنية التي تقول « ان الله خلق آدم من طين ثم أمر الملائكة فسجدوا له الا ابليس مما دعا الله الى طرده من الجنة » ٠ وتساءل الكاتب في هذا الصدد وبتهكم ما اذا كانت هذه القصة تشكل اسطورة أم لا ؟

ويجيب المدعى عليه عن سؤاله بقوله : « ان كانت مثل هذه القصة القرآنية صادقة صدقا تاما وتنطبق على واقع الكون وتاريخه « انها كلام منزل » ، لا بد من القول انها تتناقض تناقضا صريحا مع كل معارفنا العلمية ٠ وان لم تنطبق القصة القرآنية على الواقع فماذا تكون اذن (في نظر الموفقين) ان لم تكن اسطورة جميلة (تراجع الصفحة ٣٦) ٠

وفي بحث اخر للتوفيق بين الاسلام والعلم ينتقل الكاتب صادق العظم بعد ذلك من التهكم الى التشكيك والتجريح في مضمون الآيات القرآنية حول اعتقاد الاسلام بوجود كائنات مثل الجنة والملائكة وابليس وجودا حقيقيا فيتساءل المدعى عليه : « هل انه يفترض في المسلم أن يعتقد بوجود هذه الكائنات باعتبارها مذكورة كلها في القرآن أم يحق له اعتبارها كائنات اسطورية مثلها مثل آلهة اليونان وعروس البحر والغول والعنقاء » ؟

ثم ينتقل المدعى عليه من التجريح والتشكيك بالمعتقدات الدينية المشار اليها ، الى التحريض على تقويض دعائم الالفة والمحبة بين الطوائف وان كانت بعض معتقداتها الدينية غير متوافقة شكلا ، فيهاجم بنية الاثارة التوفيق الدائب بين المسيحية والاسلام الذي تقوم به فئة خيرة وعلى الاخص الحوار الذي جرى بين الشيخ صبحي الصالح والاب يواكيم البيطار وغيرهما في هذا الموضوع ٠ ويشدد المدعى عليه العظم على اظهار هذا الخلاف بين الديانتين المسيحية والاسلام لجهة الخطيئة الاصلية وعقيدة التثليث المقدسة وتجسيد المسيح وصلبه وبعثه من الموت يقول في هذا الصدد :

« ان الاسلام يرفض هذه العقائد ويعتبر بعضها كفرا » . ويتساءل هل ان الله الذي يتكون من الاب والابن والروح القدس والذي تجسد على الارض وأرسل ابنه لخلاص البشر هو أيضا الله الذي يعبده المسلمون ؟

ويستنتج من ذلك كله ان الله الذي يعبده المسلمون هو غير الله الذي يعبده المسيحيون وغير ذلك من الاقوال والابحاث مما تضمنته الصفحتان ٦٠ و ٦١ من الكتاب .

ب ـ بعض ما ورد في مأساة ابليس :

بحث الكاتب تحت هذا العنوان في وضع ابليس وفقا لما جاء في الآيات القرآنية والتفسيرات الاسلامية التقليدية لمعنى ابليس فقال : « ان ابليس كان من المقربين بين الملائكة وكان له شأن عظيم في الملأ الاعلى الا انه عصى أمر ربه فطرده من الجنة ولعنه لعنة أبدية » .

لم يتعرض الكاتب لهذا الموضوع الا ليخلص الى التحريض على الكفر بالله والى القول ان المكر هو من صفاته وقد ورد في هذا الصدد : « اذا كان الله صانع الاشياء كلها ومقدر الخير والشر على عباده ، لماذا أراد للناس ان يعتقدوا ان ابليس هو سبب الشر ولماذا شاء تحميله أوزار اولئك الذين خلقهم للشر وأجرى الشر على أيديهم » . وهو يعتقد « ان الصفة الالهية التي يبحث عنها هي صفة المكر » .

ويستطرد في بحثه عن الموضوع نفسه ان الله قرر منذ الازل من هم أصحاب الجنة ومن هم أصحاب النار وانه أرسل الرسل وانزل الكتب وملأها بالامر والنهي وميز بين الحلال والحرام وهذا يعني بحسب قوله « ان ارسال الرسل وانزال الكتب والتمييز بين الحلال والحرام ليست الا وسائط من مكره لتنفيذ أحكام مشيئته في عباده » . (الصفحة ١٢٠ ـ ١٢٤) .

ويعتقد بالنتيجة انه يجب ان نرد لابليس اعتباره بصفته ملاكا يقوم بخدمة ربه ويجب ان نكف عن كيل السباب والشتائم له وان نعفو عنه ونطلب له الصفح ونوصي به الناس خيرا بعدما اعتبرناه زورا وبهتانا مسؤولا عن جميع القبائح والنقائص . (الصفحة ١٢٨ ـ ١٢٩) .

ج ـ بعض ما ورد في باب معجزة ظهور العذراء :

قال المدعى عليه صادق العظم تحت هذا العنوان : « لا تخلو قرية في الدنيا من الحكايات والروايات التي يتداولها الناس عن الاحداث الخارقة ومعجزات القديسين » . وينتقد انتقادا لاذعا تصريحات رجال الاكليروس لمناسبة معجزة ظهور العذراء وقد ورد في هذا الصدد ما يأتي : « يبدو بصراحة ان المستوى الفكري والثقافي والعلمي الذي يعمل عليه جهاز الاكليــــروس في الكنيسة القبطية المصرية منخفض جدا ولا يتصف بالرصانة الفكرية في معالجة الامور ومداراتها وان كل ما قيل حول صور العذراء لا أساس له من الصحة على الاطلاق ولا يستند الى اي سند تاريخي ثابت ولا يتعدى كونه من الاساطير والحكايات الدينية التي ينسجها الخيال » .

وان كل ما قيل حول وجود صورة أصلية للعذراء من رسم القديس لوقا الانجيلي « هو كلام عار من الصحة كليا » .

ولم يكتف المدعى عليه بهذا النقد والتشكيك في كل ما قيل حول العذراء ، بل حاول في معرض ابحاثه عنها وبقصد نية الاثارة ، اظهار اوجه الخلاف بين المسيحيين أنفسهم من جهة وبينهم وبين المسلمين من جهة اخرى ، وذلك في ما يتعلق بمكانة العذراء وقدسيتها لدى الطائفتـــين المسيحية والاسلامية مما تحفل به الصفحات ١٧٠ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ من الكتاب .

د ـ بعض ما ورد في باب التزييف في الفكر المسيحي الغربي المعاصر :

أورد الكاتب تحت هذا العنوان أقوالا تنم عن التشكيك في الرسالة المسيحية ومعتقداتها وهو يرى ان العالم الحديث يمكنه الاستغناء عن تلك الرسالة وقد ذكر ما يأتي : « اعترف ممثلو

الفكر المسيحي المعاصر بهذه الحقيقة وبأن العالم يستطيع الاستمرار والحياة دون أي عائق من دونهم ومن دون مؤسساتهم ، وفي الواقع يجد المفكرون المسيحيون شيئا من الاحراج في تعليل حقيقة يعترفون بها وهي ان العالم الحديث تمكن من افراز انظمة ونظريات تصلح لحياة المجتمع والانسان المعاصر من دون ان تأخذ بعين الاعتبار الرسالة المسيحية ومعتقداتها ومؤسساتها» (الصفحة ١٨٥)٠

وهناك ابحاث واقوال أخرى تستهدف كلها تحريضا للتشكيك بالله وبالانبياء والكتب السماوية في دعوة متعلقة بالبحث العلمي للالحاد والتنابذ ٠

وتبين ان المدعى عليه جلال العظم نفى امامنا التهمة الموجهة اليه وأدلى انه نشر هذه الابحاث من قبل وليست فيها أية نية لاثارة النعرات الطائفية او ما ينتج عن هذه الاثارة وطلب وكيله بصورة استطرادية اعتبار الجرم مشمولا بالعفو الصادر بتاريخ ١٧-٢-١٩٦٩ الرقم ٦٩/٨ أو بالعفو الصادر بتاريخ ٢٤-٤-٦٩ الرقم ١٤/١٩٦٩ ٠

وتبين ان المدعى عليه بشير الداعوق أدلى انه نشر الكتاب واتفق ان تكون حصة جلال العظم من الارباح ١٢ ٪ من ثمن المبيع ٠

في القانون :

حيث ان للمرء الحرية المطلقة في التعبير عن ارائه وأفكاره بكل الوسائل وقد كفل له الدستور اللبناني حرية القول والفكر الا ان هذه الحرية تنتهي عند حدود عدم التعرض للغير وعدم ارتكاب ما يعتبر بنظر المشترع جرما يعاقب عليه القانون ٠

وحيث انه لا يجوز للقاضي الجزائي ان يمتنع عن تطبيق النص القانوني على الواقعة المعروضة لديه مهما راقت في عين الغير تلك القضية موضوع التحقيق أو كانت موضع تأييد او تحبيذ لدى قسم من الرأي العام اذ ان القانون يفرض عليه أن يطبق هذا النص والا اعتبر مستنكفا عن احقاق الحق ٠ واكثر من ذلك مهما تكن هذه المادة المنصوص عليها في القانون محل نقد أو استهجان من الغير أو من الرأي العام فان القاضي ملزم بتطبيقها وليس له الحق في مناقشة شرعيتها او عدم شرعيتها ، صوابيتها أو عدم صوابيتها لان مهمته في الاصل تطبيق القوانين ويعود الى السلطة التشريعية وحدها حق سن القوانين وتعديلها او الغائها نظرا الى وجود نظام فصل السلطات الثلاث بعضها عن بعض المكرس في الدستور اللبناني ، والا تعدى القاضي صلاحيته واعتدى على حقوق السلطة التشريعية ٠

ولهذا جاءت المادة الثانية من قانون اصول المحاكمات المدنية تنص صراحة « لا يجوز للحاكم النظر في صحة الاعمال الاشتراعية سواء أكان من جهة انطباق القوانين على الدستور ام لجهة انطباق المعاهدات السياسية على قواعد القانون الدولي العام ،ولا يجوز لها انتصوغ أحكامها في صيغة الانظمة » ٠

وحيث انه انطلاقا من كفالة الدستور لحرية الفكر والرأي وانطلاقا من قاعدة الزام القاضي قانونا بتطبيق النص على الواقعة المعروضة لديه والمنطبقة عليه فان من حق المدعى عليه أن يفكر بحرية تامة ويقضي بالرأي الذي يريد ويعتقد بما يراه صحيحا الا ان حقوقه هذه يجب الا تمس حقوق الاخرين المكرسة والمحمية هي ايضا بتلك القوانين ٠

وبما ان المدعى عليه اذا كان لا يعتقد بوجود الله مثلا او لا يقبل ببعض العقائد ويراها خرافات واساطير الا انه عندما ينشر مثل هذه الآراء على الناس ، عليه ألا يجرح شعورهم بما يعتقدون ، اذا كان ذلك يخالف رأيه ويتهكم على مقدساتهم ويهزأ بتعاليمهم ويحقر كتبهم السماوية ويسخر من مبادئهم ٠

وبما ان المدعى عليه العظم جاء يذكر صراحة في كتابه انه حسب رأيه لا يمكن التوفيق بين جوهر الديانتين المسيحية والاسلامية ويتطرق الى ابحاث تجعل من يشكك فيها كافرا في نظر

دينه ، ويفتح هذا الاسلوب الساخر مجالا للتفرقة وتحريض كل طائفة على أخرى منتقدا الفئة الخيرة من الرجال المفكرين الموفقين بين جوهر الديانتين الملتقي على طريق الحق والخير والجمال .

وبما ان المدعى عليه العظم يكون بهذه الاعمال يحرض على بذر بذور الشقاق والتنافر بين مختلف الطوائف مما يعرض سلامة الامة للخطر ،ويهدم ما ينعم به لبنان الذي استضافه من حرية في الرأي والمعتقد وقدسية للقيم وتآلف بين مختلف العقائد وان كانت متباينة في الشكل ويرسو عليها كيانه .

وبما ان المادة ٣١٧ من قانون العقوبات التي تجاهل وجودها المدعى عليه والتي تنطبق على أفعاله تنص « على ان كل عمل او كل كتابة وكل خطاب يقصد منها او ينتج عنها اثارة النعرات المذهبية أو العنصرية او الحض على النزاع بين الطوائف يعاقب عليه بالحبس ... » .

وبما ان الابحاث والاقوال والتساؤلات في ما احتوته من تهكم وازدراء وتجريح وتشكيك في الديانتين المسيحية والاسلامية وتحريض على الالحاد ، نتج عنها كلها تحريض في اثارة النعرات المذهبية وحض على النزاع بين الطوائف ، لخروجها كليا عن البحث العلمي الصرف الامر الذي أثار الرأي العام الاسلامي والمسيحي على السواء وحمل المواطنين على تقديم الشكاوى والاحتجاجات بسبب نشر الكتاب موضوع هذه الدعوى ولولا تدخل المسؤولين ووعي المواطنين لكانت تعرضت سلامة الامة للخطر .

وبما ان عمل المدعى عليه صادق العظم ينطبق اذا على المادة ٣١٧ من قانون العقوبات والمادة ٦٢ مطبوعات .

وبما انه لا يمكن تطبيق قانوني العفو تاريخ ١٧ـ٢ـ٦٩ و ٢٤ـ٤ـ٦٩ التي أشار اليهما وكيل المدعى عليه صادق العظم على الوضع الحاضر ، باعتبار ان نشر كتاب « نقد الفكر الديني » حصل في تشرين الثاني ١٩٦٩ وانتشر في الاسواق أي بعد قانوني العفو المشار اليهما اعلاه ، وذلك بمعرفة المدعى عليه صادق جلال العظم وبموافقته .

وبما ان المدعى عليه بشير الداعوق بنشره الابحاث المبينة في باب الوقائع يكون قد اشترك في العمل الجرمي وفعله ينطبق على المادتين ٣١٧ و ٢١٩ من قانون العقوبات و ٦٢ مطبوعات .

لذلك

فانا نقرر وفقا للمطالعة :

١ ـ الظن بالمدعى عليه الدكتور صادق جلال العظم بمقتضى المادة ٣١٧ من قانون العقوبات والمادة ٢٦ مطبوعات .

٢ ـ الظن بالمدعى عليه الدكتور بشير الداعوق بمقتضى المواد ٣١٧ و ٢١٩ من قانون العقوبات و ٦٢ مطبوعات .

٣ ـ تدريكهما الرسوم القانونية .

٤ ـ احالتهما أمام محكمة المطبوعات في بيروت » .